

مَوْسُوعَةُ النَّابُلْسِيِّ لِلْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفحيم القرآن الكريم

جزء تبارك

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-2 قدرة الله المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-03-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة الملك..

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الملك)

قال عليه الصلاة والسلام منوهاً إلى فضل هذه السورة:

((وددتُ أن تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن))

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((سورة الملك من قرأها في ليلةٍ فقد أكثر وأطيب))

وروي عنه أيضاً أنه:

((من قرأها في ليلةٍ لم يضره الفتان " أي: الشيطان))

فكلمة تبارك تعني: تعاضم خيره، فربنا عز وجل يبين لنا أن خيره عظيم، وقدرته لا حدود لها، وأنه خلقنا ليُسعدنا، وخلقنا لجنةٍ عرضُها السماوات والأرض.

الكون في الأصل مبنيٌّ على إسعاد الإنسان، مبنيٌّ على العطاء، فلذلك كانت تبارك تعني أن الله سبحانه وتعالى خيره كثير وعطاؤه بلا حدود، وهو العاطي الذي لا يُسأل، وإذا أعطى الإنسان أدهشه، وما طالبك إلا بطاعته في عمر محدود في هذه الدنيا و لك مقابل ذلك جنةٌ عرضُها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، وطاعته متوافقة مع فطرتك وطبيعتك وهي طاعة مستطاعة:

(لَّا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

و طاعته مُستَعِدَّةٌ و تحفظ الإنسان من كل سوء، وهي ميسرة له ضمن استطاعته، وهي السبب في عطاءٍ أبديٍّ إلى يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أراد أن يبين هنا شيئاً آخر.. وهو أن الملك بيد الله، وهذه كلمة لها ما وراءها.

فإذا كان الملك بيد الله فلا تخشَ أحداً إلا الله، و لا ترجو غيره، ولا تضعضع لسواه، و لا تبذل ماء وجهك أمام إنسانٍ ضعيفٍ مثلك..

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فهو ملك كل شيء، من أدق الأشياء إلى أكبرها، و من أقربها إلى أبعدها، ومن أخطرها إلى أجلها، فكل شيء بيده خلقاً وتصرفاً ومصيراً، فهو الذي خلق..

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

ما من دابةٍ مهما بدت لك عاتية قوية إلا هو آخذ بناصيتها.

أيها الإخوة الكرام... لو تعلمنا حقيقة التوحيد لكنا في حالٍ أخرى غير هذه الحال، فالتوحيد شيء وأن تؤمن بالله خالقاً شيء آخر، فالإيمان بالله خالقاً هو حدٌ مشتركٌ بين كل الخلائق إلا قلة قليلة جداً عاندت الحق وجحدت ما هو واضحٌ كالشمس، ويوم القيامة تقول:

(وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

(سورة الأنعام)

يقول الله عز وجل:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأنعام)

فايمانك بالله خالقاً شيء، و إيمانك به فعلاً و أن الأمر كله راجعٌ إليه شيء آخر...

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

(سورة هود)

فأنت حينما تتأكد أن الأمر بيده وحده لا تتجه إلى سواه، ولا ترجو سواه، ولا تخاف من سواه، ولا تعتقد الأمل على غيره، ولا تتكل إلا عليه، ولا تسعد إلا بقربه.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا: من أدق الأشياء حركة الإنسان، فهل أحدنا يملك حركته ؟ فإذا تجمدت نقطة دم صغيرة مثلاً في أحد أوعية الدماغ فقد الإنسان الحركة، فالحركة بيد من ؟ بيد الله عز

كتاب تفسير جزء تبارك لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

وجل، وحينما يفقد الإنسان حركته يتمنى موته أقرب الناس إليه، ويعبر الناس عن هذا بأدعية كثيرة من مثل: " الله يخفف عنا " .

و حينما يفقد الإنسان بصره أو سمعه، أو عندما يختل عقله، يتوسط له أقرب الناس إليه (أولاده) ليضعوه في مستشفى المجانين.

فأنت الآن عقلك في رأسك، و ترى بعينيك، و تسمع بأذنك، و تنطق بلسانك، كل هذه الأشياء أنت لا تملكها لكن الله يملكها، لكنك إن غضضت عينك عن محارم الله، أو إن بكيت عينك من خشية الله، فإنك ترجو الله سبحانه وتعالى ألا يصيبك بها.

فعين بكيت من خشية الله، وعينٌ غضت عن محارم الله، و لسانٌ نطق بذكر الله، وأذنٌ ما استمعت إلا إلى كتاب الله، و رجلٌ لم تمش إلا لقضاء حاجة الناس و لخدمة الخلق، و يدٌ لم تستعمل إلا في العطاء، فهذه الحواس وتلك الأجهزة والأعضاء إذا وظفت في طاعة الله عز وجل، فترجو من الله عز وجل أن يحفظها للمؤمن طيلة حياته، وهذا معنى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَمَعَنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

(من سنن الترمذي: عن " ابن عمر ")

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

نعمة الأهل والأولاد والبيت:

أهلك الذين هم في البيت بيد من ؟ بيد الله عز وجل، إما أن يسلس لك قيادهم وإما أن تستعصي عليك.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أولادك ! إما أن يكونوا قرّة عين، وإما أن يكونوا أحد أكبر مصائب الدنيا، فمن علامات آخر الزمان أن يكون الولد غيظاً لأبويه، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً ويغيض الكرام غيضاً.

فهذا البيت الذي تسكنه بيد من ؟ بيد الله عز وجل، والدليل على ذلك: أن خمس درجات من زلزال يقلب المدينة رأساً على عقب، فتتهدم الأبنية ويبدوون بالبحث عن الضحايا، وهذا كله يحدث في ثوان.

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل: آية " 61 ")

الله جلّ جلاله هو الذي جعلها مستقرة ولو شاء لزلزلها فجعل عاليها سافلها.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

الصواعق، البراكين، القذائف.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

الزلازل، الألغام..

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)

لأن الإنسان إذا بطش بطش جباراً.

(وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

تبارك ؛ أي: تعظم خيره.

الملك والملكوت:

بيده الملك ؛ أي: بيده كل شيء.

إلا أن بعض العلماء قال: إن الملك شيء والملكوت شيء آخر.

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة يس)

وهنا:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فالملك: للأشياء المادية، والملكوت: للأشياء النفسية.

فربنا سبحانه وتعالى تنزه عن كل ما لا يليق به في معاملة النفوس، وعظم خيره وعظمت قدرته في تدبير الأجسام.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

معاني (تبارك):

1- تبارك، أي: تعظم خيره.

2- وقال بعض العلماء، وهو الإمام الحسن: تبارك أي تقدس، والتقديس هو التنزيه، والتنزيه هو التسبيح.. فسبح الله ؛ أي: نزّهه عن كل ما لا يليق به، ومجّده وخضع له.

3- و بعض علماء التفسير حمل معنى تبارك على التسبيح لقول الله عزّ وجل:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة يس)

..و

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

4- وبعضهم قال: تبارك أي دام، فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، و هو الأول ولا أول قبله، وهو الآخر ولا آخر بعده .

(الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

تجليات الملك في الكون:

فالمُلْكُ تشمل الكون كله، فهو الذي بيده السماوات والأرض، و قد ذكرت لكم من قبل أن مركبة أرسلت إلى المشتري قبل سبعة أعوام بالتحديد، وصلت إلى المشتري قبل عام وقد بقيت تمخر عُباب الفضاء ست سنوات بأعلى سرعة وصلها الإنسان.. وهي أربعون ألف ميل في الساعة.. وعلى هذه المركبة مرصدٌ عملاق وهو قُربَ المشتري، هذا المرصد رصد أبعد مجرة اكتشفت حتى الآن.. تبعد ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، وإن أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمائة ألف كيلو متر، فكم يقطع في الدقيقة ؟ وكم يقطع في الساعة ؟ وكم يقطع في اليوم ؟ وكم يقطع في العام ؟ وكم يقطع في أربعة أعوام ؟ بإمكان كل منكم في البيت اليوم أن يمسك آلة حاسبة وأن يضرب ثلاثمائة ألف بستين، ثم بستين، ثم بأربعة وعشرين ثم بثلاثمائة وخمسة وستين ثم بأربعة، عندها سيعرف كم يبعد عنا هذا النجم الملهب الذي هو أقرب نجم على الإطلاق إلى الأرض، و تصوّر أن لهذا النجم طريق معبّدة وقد ركبت سيّارةً واتجهت إليه بسرعة مائة، ثم قسّم هذا الرقم الذي حصلت عليه على مائة، الجواب هو كم ساعة تحتاج إلى أن تصل إليه، ثم قسم على أربعة وعشرين، فستعرف كم يوم يتطلب الوصول إليه ؟ ثم قسم على ثلاثمائة وخمسة وستين، فستجد الرقم قريباً من خمسين مليون عام ؟ أي إن أردت أن تصل إلى هذا الكوكب بمركبة أرضية تحتاج إلى خمسين مليون عام، و بعده عنا أربعة سنوات ضوئية، و هذه المجرة الحديثة التي تبعد عنا ثلاثمائة ألف بليون.. والبلليون ألف مليون..و ثلاثمائة ألف بليون أي ثلاثمائة ألف مليون.. أي ثلاثمائة و أمانها اثنا عشر صفراً.. فكم بعد هذا النجم ؟ قال تعالى:

(فَلَا أَسْمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

فهو يملك هذه المجرة وكل مجرة، وأقرب دراسة فلكية تقول أن هناك من يقدر أن في الكون قريباً من مليون مليون مجرة، وأن في كل مجرة قريباً من مليون مليون نجم، وأن بعض نجوم برج العقرب و اسمه (قلب العقرب) يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، وهناك نجوم حجمها يزيد عن حجم شمسنا بمليون ضعف، وشمسنا تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، أي أن شمسنا تكبر أرضنا بمليون وثلاثمائة ألف مرة، وبينهما مسافة قدرها مائة وستة وخمسين مليون كيلو متر، ونجم قلب العقرب في برج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما..

أهذا الإله يعصى؟!

أهذا الإله لا يرجى عطاؤه؟! لا تُرجى جنته؟! لا نخشى ناره؟!

أتؤثر عليه زوجة تطيعها وتعصيه؟!!

تؤثر عليه شريكاً تطيعه وتعصيه؟!!

تؤثر عليه دراهم معدودات تبيع دينك من أجلها؟!!

تؤثر عليها دنيا محدودة سريعاً ما تنقضي؟!!

تؤثر دنياك على آخرتك؟!!!

و ربنا عز وجل يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

(سورة الزمر)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

بيده الملك كله، من أدق الأشياء إلى أكبر الأشياء.

من أكبر الأشياء إلى أدق الأشياء:

الحَوَيْن مثلاً لا يُرى بالعين، يخرج من الإنسان في اللقاء خمسمائة مليون جُورين، كل حُوَيْن يتوضع على نواته (و الحُوَيْن هو خلية لها غلاف و هيولة و نواة) على النواة هناك ما يزيد عن مليون من الأوامر والمعلومات المبرمجة، وحديث العالم كله اليوم عن هذه الهندسة الوراثية والنسخة المطابقة (الاستنساخ)، وعن هذا الذي لا يُرى بالعين و الذي يسهم في تشكيل الإنسان وفي تكوين خصائصه وشكله ودمه وأعضائه وأجهزته واستعداداته وقدراته.

فإن ذهبت إلى الكبير فالكون لا ينتهي فهو لا حدود له، وإن ذهبت إلى الصغير شيء لا يُصدق.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

ملك كل شيء، من أدق ذرةٍ إلى أكبر مجرة والنظام واحد، فنظام الذرات يشبه نظام المجرات، والذرات عالم قائم بذاته قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

كل ذرةٍ فيها كهارب تسبح حول النواة بنظامٍ مدهش وبسرعاتٍ خيالية.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

عظيمات السمع:

إن أصغر عظام الجسم البشري عظيمات السمع وهي ثلاث عظيمات مربوطة بغشاء الطبل، فما مهمتها ؟ مهمتها تكبير الصوت عشرين ضعفاً، فالإنسان يتلقى موجات صوتية من صيوان أذنه، تدخل هذه الموجات عبر قناة الأذن إلى غشاء الطبل، و غشاء الطبل مربوط بهذه العظيمات، هذه العظيمات تكبر الصوت عشرين ضعفاً، لها مهمة ثانية أيضاً، فلو جاء صوتٌ يمكن أن يخرق غشاء الطبل هذه العظيمات تخفّضه، تكبر وتخفّض، ونحن لا يوجد عندنا أجهزة كهربائية تكبر وتخفّض في آن واحد، وهذه العظيمات تكبر الصوت الضعيف وتضعف الصوت القوي حفاظاً على سلامة الإنسان، الأذن وحدها آية من آيات الله، حتى الآن لا أحد يعلم كيف يفرّق الإنسان بين النغم والضجيج، فالنغم ممتع أما الضجيج فهو مزعج، و كلاهما أصوات.

العين:

العين قال: هذا الدمع الذي يسيل هو مادة مطهّرة و مُدبّية و مغدّية و زلقة، وهو ينطلق من غدد بمقدار يحتاج معه إلى قناة تصريف و هي قناة الدمع، قناة الدمع تنقلب في الأنف إلى أداة ترطيب، وللأنف سطوح متداخلة، يمرُّ الهواء عبرها، فكل الأجسام الغريبة تتوضع على هذه السطوح اللزجة المرطبة بقناة الدمع، والحديث عن العين يطول، الحديث عن شبكية العين يطول أيضاً، فهناك مائة وثلاثين عصبية ومخروط في شبكية العين، قسمٌ من هذه المخاريط من أجل اللون الأخضر، وقسمٌ للون الأزرق، وقسمٌ للون الأحمر، وقد تتداخل هذه الألوان وترسل إشارة إلى الدماغ، فهذا الضوء إذا وقع على هذه المخاريط والعصبيات يجري تفاعلاً على هذه المخاريط والعصبيات، و من هذه التفاعل ينشأ تيار كهربائي يُرسل إلى الدماغ لقراءة الصور، و الحديث عن العين يطول، كما الحديث عن الأذن و الأنف

يطول أيضاً، فربنا سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، أما الآن فهم يريدون أن يغيروا خلق الله، ولسوف يدفعون ثمن هذا التغيير باهظاً، وأغلب الظن أن العقل البشري حينما يبتعد عن وحي السماء فإنه يدمر نفسه، وما تعانيه البشرية اليوم من أمراض لا دواء لها كالإيدز إنما هو من تفكك للأسرة و انهيار الأخلاق، ومن شيوع المخدرات و انتشار الجريمة، هذه هي حركة العقل من دون وحي السماء و منهج الله عز وجل..

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أي: يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، فما من إنسان على وجه الأرض -فيما أعلم، وهذا هو الحق -أعزّه الله كرسول الله، ويذل من يشاء.. يحيي ويميت، يغني ويفقر، يعطي ويمنع، وهذا معنى:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فأنت تريد الحياة، تريد العز، تريد الغنى، تريد الأمن والطمأنينة، وهذا بيد الله.

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1))

لا تبحث عن سعادة بعيداً عن منهج الله، لن تصل إليها، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

أي أنها لا تطمئن إلا بذكر الله حصراً.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى)

(سورة طه)

فلمجرد أن ترى إنساناً معرضاً ذكر الله و تنوهم أنت أنه سعيد، فأنت في هذه الحالة تكذب هذه الآية.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

5- وقال بعض العلماء:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)

أي: مُلْك النبوة، فאלله هو الذي أعطى النبوة لهذا النبي العظيم، والله سبحانه وتعالى يُعزُّ من اتبعه، ويذل من عارضه، وهذا هو الدين أمامكم، فأنت تقرأ في صلاة الفجر في دعاء القنوت ؟ " سبحانه إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت "

فأعداء الله في الأذلين..

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

فربنا عز وجل هو العزيز...

اجعل لربك كل عز زك يستقر ويثبت

فإذا اعتزرت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

أيها الإخوة الكرام... كل شيء يُملك بيد الله، بدءاً من أدق خلية في جسمك إلى أكبر خلية، فمن يملك ضَبْط نمو الخلايا ؟ الله جلّ جلاله، و قد اكتشفوا في الهندسة الوراثية أن هناك جينة -إن صح التعبير- مسؤولة عن السرطان في الإنسان، تُجمّد أو تُفعل، فكل إنسان عنده إمكانية هذا المرض من دون استثناء، فإما أن تُعقل وإما أن تُطلق، و بيد من هي ؟ بيد الله عز وجل، حتى الآن ليس هناك دواء لهذا المرض، و الحديث عن المورثات يطول، كما أن الحديث عن الهندسة الوراثية أطول، لكن الذي يبدو للعلماء أن هذه الأوامر -التي هي بيد الله- مسؤولة عن هذه الموضوع، فمن يطلقها من عقالها ؟ و من يحجزها ؟ الله جلّ جلاله..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك: آية " 2 ")

فهو الذي خلق الموت، فنحن نحيا لنموت ونموت لنحيا، نحيا في الدنيا، والموت مصير كل إنسان، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

فالليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آله حذاء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة

فاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

من هو العاقل ؟ العاقل هو الذي يُعدّ لهذه الساعة عدتها، فلا بدّ لك من يوم تخرج فيه من بيتك ولا تعود إليه إطلاقاً، تخرج لكن ليس على قدميك ولكنك ستخرج محمولاً، ولا أحد مستثنى من هذا الحكم أبداً، فهذه الساعة التي لا ريب فيها ولا بدّ من منها، من يعد لها ؟ أعدوا لهذه الساعة العمل الصالح و طاعة الله و الإكثار من ذكر الله.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

نحن لنموت ونموت لنحيا حياةً أبدية، هذا هو المعنى الأول.

لماذا قدم الله عز وجل الموت على الحياة؟؟

1 - قال بعض العلماء: ربنا جلّ جلاله قدم الموت على الحياة، لأن الموت من أوضح مظاهر القهر، فسبحان من قهر عباده بالموت، فالإنسان يكبر ويكبر، و لكن لا بدّ من ساعة يغادر فيها الدنيا، لأن مظهر القهر في الموت أشدّ، الإنسان يُقهرُ بالموت، والموت من نعم الله الكبرى، و الموت أحياناً يكون سترًا للإنسان ونعمة له، لكن دعاء النبي كان:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))

(من صحيح البخاري: عن " أنس بن مالك ")

فالإنسان يفوّض أمره إلى الله، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خيركم من طال عمره وحسن عمله))

فقد أثنى النبي على إنسان عاش حياةً مديدةً بعملٍ صالح كبير، فأول معنى: أنه قدّم الموت على الحياة لأن في الموت قهراً للإنسان، فالحياة لا يوجد فيها قهر، فإذا ولد طفل فليس هناك قهر، بل إنه يكون قد أقبل على الدنيا، أما في الموت فيخسر فيه الإنسان الذي جمّعه في عمرٍ مديدٍ يخسره في ثانيةٍ واحدة، ثم لا يملك بعدها شيئاً، ولا حتى سيئه الذي صنع من الذهب ولا قطعة من أساس بيته ولا مقتنياته كلها تؤخذ منه، يقال لك: الحي أفضل، ثم يذهب إلى القبر بلا شيء، و يُخلفُ ماله وراءه.

2 - وقد قدّم الموت على الحياة لأن الإنسان إذا عاش أمامه خيارات كثيرة، أما حينما يموت

((فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

صار لديه خيار صعب، إما نجاة وإما هلاك، هذا المعنى الثاني.

3 - المعنى الثالث: قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم

دار بقاء))

حياة وموت، جزاء وبقاء، لذلك ورد أن:

((اعمل لدنياك بقدر بقائك فيها، واعمِلْ لآخِرَتِكَ بقدر مُقامِكَ فيها، واتقِ النار بقدر صبرِكَ عليها،

واعمل لله بقدر حاجتك إليه))

أيها الإخوة الكرام... الموت ليس عدماً مُطلقاً وليس عدماً نسبياً لكنه انفصال الجسم عن النفس وعن الروح، و الإنسان جسمه وعاءٌ له، و نفسه هي ذاته، وفيه قوةٌ محرّكة هي الروح، فالنفس تذوق الموت؛ أي تخلع عنها هذا الوعاء الذي كانت بداخله، فالموت ليس عدماً لكن انتقال من حالٍ إلى حالٍ والدليل هو الشهيد المضرّج بدمائه ماذا يقول الله عنه ؟

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

فحينما انتهت معركة بدر وانتصر فيها النبي وأصحابه الكرام على كفار قريش، خاطب النبي الكريم القَتلى واحداً واحداً بأسمائهم فقال:

((يا فلان، ويا فلان، ويا فلان بأسمائهم واحداً واحداً، أوجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي، حقاً لقد كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس، وخذلتُموني ونصرني الناس. قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا !! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبوا إلي))

فالموت ليس نهاية الحياة، الموت بداية الحياة الأبدية والدليل قول الله عز وجل

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (25) وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدًا (26))

(سورة الفجر)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

نحيا لنموت ونموت لنحيا، الحياة الدنيا تنتهي بالموت، والحياة الآخرة تنتهي بالأبد، بالبقاء، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، الدنيا محدود والآخرة طليقة، وما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر، وإن المؤمن حينما يموت ينطلق من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينطلق الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، هو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ)

ليمتحنكم، إن علة وجودنا في الأرض الامتحان والابتلاء، والدليل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

كل شيءٍ تنطوي عليه نفسك سوف ينقلب إلى عمل، و سوف يُجسّد ويظهر، فالكريم يظهر كرمه، واللينيم يظهر لؤمه، والبخيل يظهر بخله، والسخي يظهر سخاؤه، والمستقيم تبدو استقامته، والمنحرف يظهر انحرافه، والصادق يظهر صدقه، والكاذب يظهر كذبه.

أيها الإخوة الكرام... الحياة تُظهر ما في الناس، وفي هذا ابتلاء..

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

العمل الصالح سر وجودك، والناس معادن:

هناك استنباط رائع جداً، وهو أن الإنسان خُلِقَ للعمل الصالح، لأن العمل الصالح ثمن الجنة، لذلك الإنسان حينما يموت لا يندم إلا على شيء واحد تقصيره في العمل الصالح:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

والنقطة الدقيقة هي أن سرُّ وجودك وعِلته أن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله كي يكون سبباً لدخوله الجنة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

الإنسان يبدو معدنه.. فيوجد لدينا ذهب أربعة وعشرين، وهناك ذهب واحد وعشرين وثمانية عشر، و ستة عشر، و إحدى عشر، وهناك نحاس مغطى بالذهب، و نحاس مُلْمَع، كما أن هناك معدناً خسيئاً، والناس معادن.. لقد رأيت جوهرة في متحف قيل: أن ثمنها مائة وأربعين مليون دولار.. أكبر جوهرة في العالم وهي موجودة في استنبول.. والجوهرة أساسها فحم، فلو أتيت بقطعة فحم مماثلة وازنت بينهما، لوجدت أن كليهما من أصلٍ فحميٍّ، لكن هذه جوهرة وهذه فحمة، والناس كذلك، فهناك إنسان كالجوهرة بأخلاقه وعدله، وإنصافه، وورعه، ورحمته، وحبّه للخير، فهو مصدر عطاء، و مصدر أمن للناس، وهناك إنسان يعيش كالطحالب على أنقاض الناس، يبني غناه على إفقارهم، و يبني حياته على موتهم، فالناس معادن..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

فهناك إنسان يتزوَّج فيزداد قرباً من الله، وهناك إنسان يتزوج فيفسق، هناك إنسان يسافر فيتقلى، وإنسان يسافر فيزداد قرباً من الله، كما قال الإمام الشافعي: " السفر يزيد التقى وتقياً والفاجر فجوراً ". هناك إنسان يغتني فيتقلى، وإنسان يغتني فيزداد عملاً صالحاً، هناك إنسان يفقر فيكفر، و إنسان آخر يفقر يصبر، فأنت مُمتَحَن كل دقيقة، ممتحن فيما أعطاك وفيما حرملك، فالذي أعطيته أنت ممتحن به، و

مادة امتحانك مع الله، فإن أعطيت الغنى أنت ممتحن بالغنى، قدّر الله أن تكون فقيراً، أنت ممتحن بالفقر، أعطيت وسامة ممتحن بالوسامة، لم تعط الوسامة، ممتحن بعدم الوسامة، أعطيت طلاقة لسان ممتحن بطلاقة اللسان، لم تعط هذه الطلاقة أنت ممتحن بعملك، فإذا كان هناك إنسان غير طليق اللسان لكن عمله طيب فقد نجح.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

أعطيت زوجة ممتحن بها، هل تضبطها ؟ هل تأخذ بيدها إلى الله أم تطلق لها العنان ما دامت ترضيك؟ أنت ممتحن بالأولاد، ممتحن في كل ثانية، في كل حركة وسكنة.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

فالآية دقيقة جداً، لذلك كان النبي كما قلت في أول الدرس يتمنى عليه الصلاة والسلام أن تكون تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

أنت ممتحن..

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

أنت مراقب.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

(سورة النساء)

لينظر كيف تعملون ؟ كيف تعامل زوجتك ؟ كيف تعامل والديك ؟ كيف تعامل أولادك؟ كيف تعامل إنساناً جاهلاً جاء لعندك يستصحبك وأنت موثوق عنده، أتنصحه أم تغشّه ؟ أتنصح له أم تبتز ماله ؟، من يعرف ذلك ؟ الله وحده يعرف ذلك، أنت ممتحن، في كل حركة، في كل سكنة، في كل عطاء، في كل منع، في كل صلة، في كل قطيعة، في كل غضب، في كل رضا، أنت ممتحن.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

فمثلاً إذا طرق بابك إنسان صاحب حاجة في وقت غير مناسب، أطرده أم تشتمه أم تُلبي حاجته وترى أن الله ساقه إليك ؟ أنت ممتحن فهل تعطيه أم تمنعه ؟ وَطِنَ نَفْسِكَ عَلَى أَنْكَ مَمْتَحَنٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، في كل ثانية، في كل ظرف، في كل مكان، في كل زمان، وإذا مشيت أمامك امرأة متقلّبة فأنت ممتحن بها أتملاً عينيك منها أم تغض بصرك عن محارم الله لتذوق حلاوة إلى يوم تلاقاه ؟ فالحياة الدنيا خضرة

نضرة، والفتن يقظة، وأنت ممتحنٌ فيها فهنيئاً لمن نجح بالامتحان، هنيئاً لمن وصل إلى الله من خلال طاعته..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

ولعل الله سبحانه وتعالى يتيح لي في درسٍ قادم أن أتباع الحديث في هذه الآية.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إتقان الله عز وجل في خلقه

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الملك، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:
(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)
(3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)

مقدمة:

ما هي مشكلة المسلمين اليوم؟؟ ولماذا لم تتحقق وعود الله تعالى لهم؟؟
أيها الإخوة الكرام... لا بدّ من كلمة بين يديّ هذه الآية وهي أن المسلمين اليوم يقرّون بأن الله خلق السماوات والأرض، وبأن الجنة حق والنار حق، لكن المشكلة الكبيرة أنهم لا يطبقون أمر الله عز وجل، ولا شك أن هذه الظاهرة هي ظاهرة مرضية عندهم، أي إن ملياراً ومائتي مليون مسلم -وهم خمس سكان الأرض- وعود الله لهم غير محققة، فأين قوله تعالى:
(إِنْ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 "

وأين قول الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: من آية " 55 "

هناك وعود كثيرة للمسلمين اليوم هي غير محققة، ولا نعني هنا أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن لا يحقق وعده، لكن ينبغي علينا أن نشكّ في مصداقية إيماننا، وإنني أحاول أن أضع يدي على مشكلة خطيرة، وهي أن أعداداً غفيرة، ملايين مُملينة لم تتحقق فيهم وعود الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

(من سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: من آية " 111 "

وهذا يعني أن هناك مشكلة لديهم، وهذه المشكلة هي عدم الالتزام بالأمر والنهي، فالمسلم يقتنع ويعتقد أن الله خالق السماوات والأرض، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول الله، وأن هذا القرآن كتاب الله، ويؤمن بالجنة والنار بعد الموت، كما يؤمن بالملائكة التي تكتب الحسنات والسيئات، وهذه عقيدة كل المسلمين، فأين المشكلة؟ المشكلة تكمن في عدم التطبيق..

السؤال الثاني: ما السبب الذي يجعل هذا المسلم لا يطبق؟ أنا أقول لكم السبب ببساطة أنه لا يعرف الله، من عرف أمر الله ولم يعرف الله عز وجل يتفطن في التفطن من أمره، ويتعلق بأضعف فتوى، وقد يتعلق بعبادات المجتمع وتقاليده، وربما يتعلق بالمنحرفين، يدعي أنه لا يعلم وأن الله غفورٌ رحيم، والسبب في دعواه أنه لا يعرف الله، لا يعرف من هو الأمر، وماذا عنده إذا هو أطاعه، وماذا ينتظره إذا عصاه، إذا فالمشكلة تكمن في أن وعود الله ليست محققة في هذه الأعداد الكبيرة جداً من المسلمين، والصحابة الكرام رغم قلة عددهم الذي لا يزيد عن عشرة آلاف صحابي وصلت راياتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، فكان ذلك هو النصر المؤزر، قال تعالى:

(وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا)

(من سورة الفتح)

عزيزاً..

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 160 ")

السبب إذن هو عدم الالتزام، و سبب عدم الالتزام هو عدم معرفة الواحد الديان، فالله عز وجل في هذه الآيات التي بين أيدينا يبين أنك إذا أردت أن تعرف الله فيجب عليك أن تتأمل في مخلوقاته. مثال على ذلك:

وأنا أضرب لك هذا المثل البسيط: أنت أمام غرفتي نوم، لم تقع عينك على صانعي هاتين الغرفتين، أفلا تستطيع أن تعرف من هو الأكثر إتقاناً والأعلى ذوقاً والأنصح عملاً من صنعة هذين النجارين؟

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: من آية " 60 ")

فربنا عز وجل يقول:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي)

الآية الأولى شرحت في الدرس الماضي..

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ)

عندما يقول ربنا عز وجل:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

لماذا ينبغي علينا أن ننظر في السماوات والأرض؟؟

انظروا.. فعل أمر، وقال علماء الأصول: " كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب". نحن فهمنا أن الأوامر إنما هي خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج،، لذلك كان الدين عندنا في تراجع، أما الصحيح فهو أن نعتقد أن أي أمر في هذا القرآن يقتضي الوجوب، لماذا يقول الله عز وجل:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من أجل أن نعرفه، ولماذا ينبغي أن نعرفه ؟ من أجل أن نطيعه، ولماذا 1 ينبغي أن نطيعه ؟ من أجل أن نسلم و نسعد، ففي النهاية كل واحدٍ منا شئتم أم أبيتم يبحث عن سلامته وسعادته، فأنت تعرفه من أجل أن تطيعه، وتطيعه من أجل أن تسلم وتسعد، هذا ملخص ملخص الملخص، إذاً:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ)

آيات كونية:

الشمس والقمر مثلاً آية من آيات الله، فكل شيءٍ علاك فهو سماء، والشمس والقمر من السماء، والنجوم من السماء كذلك، يقول الله عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

قال بعض علماء التفسير: " هذه الكواكب التي تدور حول الشمس.. المجموعة الشمسية..

(سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

السماوات الطباق:

أي إن السماء هنا طبقة، فالطبقة التي فيها القمر هي هذه سماء، والطبقة التي فيها المريخ هي سماء أيضاً، كذلك عطارِد و المُشترِي و زُحل، هذه النجوم السيّارة حول الشمس هي سماوات، والطبقات التي بعدها سماوات، وكلمة (سبعة) عند بعض علماء اللغة تدلُّ على التّكثير لا على العدد، أي تفيد السبعة ومضاعفاتها التّكثير، أي أن هناك طبقات من السماء لا يعلمها إلا الله، فإلى أين هي تمتد ؟ ذكرت هذا

كثيراً: إن أقرب نجم يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، القمر يبعد ثانية ضوئية.. ثلاثمائة وخمسة وستين ألف كيلو متر.. ذهبت مركبة إلى القمر مرة فكلفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، قطعت من الفضاء الخارجي ثانية واحدة، فالشمس ثماني دقائق، والمجموعة الشمسية ثلاثة عشر ساعة.. إن أردنا أن نقيس المجموعة الشمسية من أقصاها إلى أقصاها فهي تبلغ ثلاثة عشر ساعة، الشمس تبلغ ثماني دقائق، القمر ثانية.. وأقرب نجم إلى المجموعة الشمسية ملتهب، والكوكب والنجم يختلفان، الكوكب منطفي.. الأرض كوكب والقمر كوكب، أما الشمس نجم وهي أقرب نجم ملتهب إلى المجموعة الشمسية، وهو يختلف عن الشمس وبعده عنا أربع سنوات ضوئية، لو تخيلنا طريقاً إلى هذا النجم الملتهب لاحتجنا إلى خمسين مليون عام كي نصل إليه، توجد المرأة المسلسلة وهي مليون سنة ضوئية، توجد بعض المجرات وهي أربعة وعشرين ألف مليون، أما أحدث مجرة فهي ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، هذه اكتشفت منذ سنة بمرصد عملاق على مركبة فضائية أرسلت إلى المشتري، بقيت تسير في الفضاء ست سنوات ورصدت أبعد مجرة ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، أنت فقط قل لي: أربع سنوات ضوئية يقابلها خمسين مليون سنة، فكيف بثلاثمائة ألف مليون سنة ضوئية؟ هذه السماء كم مجرة فيها؟ رقم تقريبي مثلاً هو مليون مليون مجرة، المجرة كم نجم؟ مليون مليون نجم، وكل نجم له حجم، وله سرعة، وله مسار مغلق، ويدور حول نجم آخر بنظام من التجاذب عجيب..

(اللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

رفع السماء..

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

(من سورة الذاريات)

فالسماء مرفوعة بغير عمد، ما هذه العمَد؟ العمد هو قوى التجاذب، الأرض تدور حول الشمس، ما الذي يربطها حول الشمس؟ قوة جذب الشمس لها، هذه القوة غير مادية، فأنت أحياناً تُمسك بمغناطيس تضعه أمام مسمار فإذا فعلت ذلك فإن المسمار يتحرك، وبينهما مسافة فارغة، معنى هذا أنه توجد قوى جذب غير مادية سموها.. ساحة مغناطيسية.. هذه السماوات التي هي مليون مليون مجرة، وفي كل مجرة مليون مليون نجم، كل نجم يتحرك حول نجم آخر، وكل نجم له حجم، وله سرعة، وله كثافة، وله نظام، مجموع هذه الحركات تُشكّل هذا الكون، فلو أن هذا الكون توقف عن الحركة، ما الذي يحصل؟ سيصبح الكون كله كتلة واحدة، لأن الأكبر يجذب الأصغر، أما بالحركة ينشأ عن الحركة قوى نابذة وقوى جاذبة، من هذه الحركة تكون القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، فأصبح هناك توازن حركي، و التوازن الحركي شيء رهيب، أوضح لكم الحقيقة: لو أن الأرض تقلبت من جاذبية الشمس وسارت في

مسار مستقيم في الفضاء ما الذي يحصل ؟ يموت كل كائن على وجه الأرض لأن البرودة تصل إلى مائتين وسبعين تحت الصفر.. هو الصفر المطلق الذي تقف معه الحياة، بل الذي تقف معه حركة الذرات.. لذلك:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

زالتا: أهلكتا، فالأرض تدور حول الشمس بمسار مغلق، وهذه الدورات تستغرق ثلاثمائة وخمسة وستين يوم وربع، فلو أنها تفلتت من جاذبيتها حول الشمس وأردنا أن نرجعها بكوابل أو بحبال- وهذا خيال علمي محض - إذن لاحتجنا إلى مليون مليون حبل من الفولاذ المضفور وقطر كل حبل خمسة أمتار، كل حبل يملك قوة جذب تساوي مليونين طن، أي الأرض مربوطة بقوة جذب إلى الشمس هي مليون مليون ضرب (x) مليوني طن، فإذا أردنا أن نزرع هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس لفوجئنا أن كثافة هذه الحبال على الشكل التالي: نجد أن الحبل قطره خمسة متر وبين كل حبلين مسافة حبل واحد، فنصبح أمام غابة من الحبال تُعيق الحركة والبناء والزراعة الصناعة والسفر.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

أي بعمد لا ترونها، فهل يوجد لدينا في الأرض كلها مهندس يبني بناء من الطابق الثالث من دون دعائم، هل هذا ممكن ؟ هل من الممكن بناء عشرة طوابق تبدأ من الطابق الثالث أما من الأسفل فلا يوجد شيء إطلاقاً، أي من الممكن أن تمشي تحته، تتحرك حركة كاملة، يبدأ من الطابق الثالث و يمتد إلى فوق، هذا شيء مستحيل، أما الكون فهو هكذا..

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

ولكن هذه القوة، وهي مليون مليون طن ضرب (x) اثنين مليون كانتمن أجل أن تحرف الأرض ثلاثة ميليمترات كل ثانية ليتشكل مسار مغلق حول الشمس، فتصور أن مليون مليون ضرب (x) اثنين مليون طن هي قوة جذب الشمس للأرض من أجل أن تدور حولها، ومع ذلك أيها الإخوة الكرام... الأرض مسارها إهليلجي وليس كروياً، الإهليلج له قطر أصغر وقطر أطول، و الأرض في القطر الأصغر ترفع سرعتها، فلو لم ترفع سرعتها لزادت قوة جذب الشمس لها فترطم عند ذلك بالشمس، هي ترفع السرعة لينشأ قوة نابذة تُبعداها عن الشمس، أما حينما تصل إلى القطر الأطول تخفض سرعتها، أما لو بقيت سريعة لتفلتت من جاذبية الشمس..

الشيء الثالث: إنها ترفع سرعتها بالتدريج وهذا من لطف الله لنا، وتخفيض سرعتها بالتدريج وهذا من لطف الله لنا أيضاً، الرفع بالتدريج تسارع بطيء وتباطؤ بطيء، وإلا لانهدم كل ما على الأرض من أبنية، فلو رفعت السرعة يُهدم فجأة كل شيء على الأرض، هذا معنى قول الله عز وجل:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

فيجب عليك أن تنظر في السماوات والأرض من أجل أن تعرف من هو الله ؟ من هو الذي أنزل هذا القرآن ؟ من هو الذي أرسل هذا النبي الكريم ؟ ما معنى افعل ولا تفعل ؟ ما معنى المنهج الذي أمرت أن تسير عليه ؟ وإنما أردت من هذه المقدمة أن أبين لكم: أنك لن تطيع الله إلا إذا عرفت، وأي منهج يُلغي معرفة الله ويؤكد على معرفة أمره فإن هذا منهج أعرج، هذا منهج غير صحيح، لا بد من أن تعرف الله، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا

يمشي إلى أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحبني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك

وأحب من يحبك فكيف أحبك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلاني ونعماني وبلاني))

إخواننا الكرام... لو جلست لتتحدث عن الله عز وجل ينبغي أن تتحدث في هذه الموضوعات الثلاث: في آيات الله الدالة على عظمته من أجل أن نُعظّمه ومن أجل أن نعظم أمره بالتالي، ويجب أن نتحدث عن نعم الله من أجل أن نحبه، ويجب أن نتحدث عن بعض البلاء الذي يسوقه الله لبعض عباده من أجل أن نخافه، فلا بد من أن نعظمه، ولا بد من أن تحبه، ولا بد من أن نخافه، لذلك:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)

سماً فوق سما، و هناك بحوث طويلة لا تنتهي حول كل سما، مثلاً: نكون نحن في أيام الصيف الحارة في درجة ستة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين أو اثنين وأربعين أحياناً، وربما خمسة وأربعين، شيء لا يُطاق، فإذا ركبت طائرة حديثة مثلاً، تلاحظ على شاشة أمامك الحرارة التي هي خارج الطائرة، فتفاجأ أنه على ارتفاع واحد وأربعين ألف قدم الحرارة هي خمسين تحت الصفر.. وأنت في فصل الصيف في الأرض درجة الحرارة خمس وأربعين فوق الصفر، أما على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم فهي خمسين تحت الصفر.. معنى ذلك أن هذه السماء غير هذه السماء، هذه السماء فيها ضغط جوي مُرتاح، أما فوق الطائرة تحقن ثمانية أمثال حجمها من الهواء من أجل أن ينشأ ضغط جوي في الطائرة مساو لضغط الأرض الجوي، وإلا لخرج الدم من الآذان، و لضاق الصدر، إذا كلما صعدت إلى السماء وجدت العجب العجائب.

العبرة من هذه الآيات هي أن ينطلق الفكر لمعرفة الله عز وجل من خلال صنعته، هذا الطريق هو طريق آمن أيها الإخوة، الفكر حينما ينطلق لثعمله في ذات الله تَهْلِكُ، هناك أناسٌ لا يحلو لهم إلا الخوض في ذات الله، في أفعال الله، هذه متاهات لا تنتهي، يجب أن تبقى في مخلوقات الله لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

مثال بسيط:

كنت أضرب هذا المثل دائماً: أن بقالية تحتاج إلى ميزان دقيق جداً، هذا الميزان من أرقى أنواع الموازين وهو غالٍ جداً إلا أن مهمته محدودة، وحساسيته من خمسة غرامات إلى خمسة كيلوغرامات فقط، إنك تؤمن بهذه الحقيقة، وهي أن هذا الميزان لا يمكن أن يزن لك كل شيء، بل يزن لك ضمن حدود معينة، والعقل هو ميزان أيضاً. قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(من سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً، ولكن هذا الميزان ينبغي أن لا تستخدمه إلا في مخلوقات الله، أما إذا أردت أن تُعْمِلَهُ في غير ما خُلق أعطاك نتائج مضحكة، ونتائج عجيبة، وقد يتحطم، كمن يحاول أن يزين سيارته بميزان البقالية إنه يحطمه، فكيف لك أن نأخذ الميزان ؟ كيف نزن هذه السيارة ؟ نسأل المعمل عن وزنها، فكل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الوحي به، فهناك دور للعقل ودور للتلقي، فالعقل يفكر في مخلوقات الله فيصل إلى الله، والعقل مركبة.. سيارة.. يمكن أن توصلك إلى ساحل البحر، أما هذه السيارة مهما كانت رقية، أو كانت أغلى أنواع السيارات في العالم فهي لا تستطيع أن تخوض عُباب البحر هذامستحيل، هذه المركبة قد تصل بك إلى ساحل البحر ولن تستطيع أن تخوض بها عُباب الماء، والعقل يصل بك إلى الله ولن يستطيع أن يخوض في ذات الله، لذلك دائماً وأبداً اعلم هذه الحقيقة، هناك دائرة المحسوسات و أدواتها الحواس الخمس، و هناك دائرة المعقولات وأداتها العقل، هناك دائرة المغيبات و أدواتها الخبر الصادق، فإياك أن تتنقل قضية من المغيبات إلى المعقولات عندئذ تكلف العقل ما لا يطيق، فمهمة العقل التفكير في خلق السماوات والأرض..

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ)

هناك تفاوت.. بربكم أليست النملة تتفاوت مع الفيل ؟ نملة والفيل، هناك سمك زينة طوله ميلي أو اثنين ميليمتر وهو فوسفوري شفاف، أليست هذه السمكة الصغيرة تتفاوت مع الحوت الأزرق الذي يزن مائة وخمسين طن ؟ فوجبة طعامه المعتدلة أربعة طن، و إرضاع أنثاه ثلاثمائة كيلو، ثلاث رضعات تبلغ طن حليب كل يوم، فهذا الحوت الأزرق ألا يتفاوت مع سمكة صغيرة جداً ؟ التفاوت هنا بمعنى آخر: أي إنك لن تجد في صنعة الله تفاوتاً، كل صنعة الله متقنة..

(صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ)

(من سورة النمل: من آية " 88 ")

التفاوت لا في الحجم، فالحجوم متفاوتة، وليس في التعقيد لأن التعقيدات متفاوتة كذلك، فهناك حيوان وحيد الخلية (كائن وحيد الخلية) كالمتحول الزحاري، أما الإنسان فهو من أعقد المخلوقات فيوجد بدمغه مائة وأربعين مليار خلية، فيقشرة دماغه فقط هناك أربعة عشر مليار خلية، في رأسه يوجد ثلاثمائة ألف شعرة، والآن هناك موضوعات كثيرة حول الهندسة الوراثية والاستنساخ، وهي شيء معقد جداً، فالإنسان من أعقد المخلوقات، إذاً هناك تفاوت ؛ تفاوت بالحجم، تفاوت بالحواس، فهناك حواس العقدة العصبية، كحاسة البصر.. عقدة عصبية.. وهناك العين فيها بالشبكية مائة وثلاثين مليون مخروط وعُصْبَة، وهي تفرّق بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة، هناك جهاز نطق، و جهاز شم، و جهاز سمع، فالكلب يشم مليون ضعف الإنسان، و الصقر يرى ثمانى أمثال الإنسان، و بالحجم يوجد تفاوت، و بالشكل يوجد تفاوت أيضاً، وكذلك بالألوان هناك تفاوت، وبالحواس الخمس تفاوت، كما يوجد تفاوت بالقيمة، فيوجد حيوان ثمنه مليون وهو غال جداً، ويوجد حيوان قتله يحتاج إلى مليون، هناك تفاوت لكن الآية تقول:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

أي: في الصنعة، فهناك شركات الآن تنتج نوعين من البضاعة: نوع للاستعمال المنزلي، ونوع للاستعمال الصناعي، فالآلة صناعية تعمل باستمرار، وهي متقنة جداً، ومتينة جداً، وهناك آلة تستعمل في المنزل مرّة في الأسبوع من المواد البلاستيكية فتكون ضعيفة، بحسب استعمالها، فهذا المصنع يصنع تارة آلة منزلية بسيطة غير معقدة، غير متينة، وغير مقاومة، وتارة يصنع آلة من أقسى المعادن، مقاومة، متينة، فيها احتياطات بالغة، هذا المصنع صنعته متفاوتة من حيث الإتقان، لكن الله سبحانه وتعالى صنعته غير متفاوتة.

البعوضة:

فلو أخذنا أحقر مخلوق تراه عينك.. بعوضة.. ما البعوضة ؟ جناحها يرفان أربعة آلاف رقة في الثانية، لها ثلاثة قلوب: قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وعندها جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تميع، تبحث عن ضحيتها بالرادار والضوء مُطْفَأ، وتأخذ من دمه شيئاً فتحلله فإن وافقها مصّت من دمه، و من أجل أن يعبر الدم خرطومها لا بدّ من تميع الدم، ومن أجل ألا تُقتل وهي تمتص الدم يجب أن تُخدّر، تخدر وتميع تمتص الدم وتحلل وتأتي بالرادار، إذا كان السطح ثقيلاً فلها محاجم تثبت على الضغط، وإذا كان السطح خشناً فلها مخالب، وهذه البعوضة الشيء العجيب فيها هو أن الإنسان يتعامل معها بطريقةٍ عجيبةٍ جداً..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

الآية الكريمة واضحة جداً:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة: من آية " 26 ")

فالبعوضة فيها تعقيد لا يعلمه إلا الله، هذه التي لا قيمة لها عندك إطلاقاً، تقتلها وأنت مرتاح، إذا:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؛أي: من تباين في الصنعة

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3))

أي هل ترى من خلل في الصنعة ؟

ماء العين:

ذكرت لكم من قبل: أن الإنسان قد يذهب إلى القطب وقد تنخفض الحرارة هناك إلى سبعين تحت الصفر، وقد يستخدم كل شيء يقيه البرد ؛ من ألبسة داخلية صوفية، إلى أحذية فيها فرو، إلى معاطف سميكّة جداً، إلى قُبَعَات من الفرو، إلى قطع من الصوف يلقها على وجهه، بإمكانه أن يسرّ كل أعضائه عدا العينين، لأنه يريد أن يمشي، فالعين تلامس الهواء الخارجي والهواء الخارجي سبعين تحت الصفر، والعين فيها ماء والماء يتجمّد في الدرجة صفر، فينبغي أن يفقد كل من يسكن هذه المناطق أبصارهم، والله عزّ وجلّ أودع في ماء العين مادّةً مضادّةً للتجمّد، هذه من آيات الله الدالة على عظمة الله، هذا الماء شأنه شأن أي عنصر في الأرض كلّما برّدته انكمش، كلّما سخّنه تمدّد، إلا أن هذا الماء ينفرد بخاصة من بين مكل العناصر أنك إذا برّدته ينكمش وينكمش و ينكمش إلى الدرجة (+) أربعة

وبعدها يتمدد، لولا هذه الخاصة لما كنا هنا في هذا المسجد، ولما وجدنا على الأرض حياة، الماء يتجمد، فيزيد حجمه، و تقل كثافته، فيطفو على السطح، ويبقى ماء البحر دافئاً والحياة فيه جيدة، فلو انكمش الماء عند التجمد لزادت الكثافة فغاص إلى أعماق البحار، بعد حين تتجمد كل المحيطات وينعدم التبخر وتنعدم الأمطار، ويموت النبات ويموت الحيوان ويموت الإنسان، هذا شيء متقن جداً..

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورِ)

فرخ الطير:

الصوص (فرخ الطير) يحتاج إلى أن يخرج من البيضة، فينشأ على منقاره نتوء مؤلف كالإبرة تماماً يكسر به البيضة، و بعد حين يضمُر هذا النتوء وتنتهي مهمته، هذه صنعة متقنة ما بعدها صنعة. حقل البطيخ:

أنت أمام حقل بطيخ كله أخضر فكيف تختار التي نضجت ؟ ليست هناك طريقة، أيعقل أن تنبطح إلى جانبها وأن تستخدم يدك وأذنك كما يفعل شاري البطيخ ؟ مستحيل لأن الحقل كبير جداً، فאלله جعل لها خيط حلزوني يمسكه الفلاح، فإن انكسر بين يديه فالبطيخة ناضجة وإن بقي طرياً فالبطيخة غير ناضجة، فجعل لهذا الإنسان علامة دقيقة جداً..

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورِ)

هل ترى من خلل ؟..

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)

كرتين أي: مرتين، ابحث عن خلل.

الزائدة الدودية والغدة الصنوبرية:

يقولون: الزائدة الدودية لا فائدة منها، هذا غلط.. الزائدة الدودية هي الزائدة المدافعة، قلت لكم في الخطبة اليوم: أن عالماً كبيراً من علماء أمريكا في علم التشريح قال لطلابه قبل ثلاثين عام: أن الغدة الصنوبرية غدة لا فائدة منها ولا تعني شيئاً، هي غدة في وسط الدماغ حجمها كحجم حبة الذرة الصفراء تنتج هرموناً، الآن اكتُشف أن هذه الغدة من أخطر الغدد، و مفرزاتها موجودة في كل كائن حي حتى النبات، النبات والحيوان والإنسان، حتى في المخلوقات البسيطة كوحيدة الخلية الهرمون فيها هوَ هو، و لها علاقة بصيانة القلب، لها علاقة بالنوم، لها علاقة بالنشاط والحركة، بمكافحة الأمراض والجراثيم، فالآن يوجد ثلاثمائة بحث علمي حول هذه الغدة في عام خمسة وتسعين، فليس كل شيء

تقرأه يكون هو الصواب، يقول هذا العالم: إن هذه الغدة لا فائدة منها، أي ليس لها أي دور في حياة الإنسان، وهذا غير صحيح، فلا يوجد شيء زائد في الكون أبداً..

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً)

معنى خسى فلان أي: أخطأ في مسعاه، فالبصر يبحث عن خلل فلا يجده ولن يجده، ليس في الأرض أدنى خلل.

عدسة العين:

أنت حينما تراقب حركة سير، السيارات تتباعد وتقترب أمامك في طريق مزدحم، كيف ترى هذه المركبات بشكل دقيق ؟ معنى ذلك أن خيال هذه المركبات تقع على الشبكية دائماً، والبعد بين العدسة والشبكية ثابت والأجسام بعدها متفاوت، إذا فالعدسة التي في العين عدسة مرنة يزداد احتدادها ويقل من أجل أن يقع الخيال على الشبكية دائماً، هذا الشيء لا يُصدق..

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

جهاز في الدماغ يكشف اتجاه الصوت:

إنسان يمشي في الطريق فسمع صوت بوق مركبة وهو لا يشعر به، فبعمل غير إرادي يتجه نحو اليمين، فنسأله لما لم تتجه نحو اليسار ؟ يقول لك: لأن الصوت من اليسار، ولكن كيف عرفت ؟ لا أعلم كيف عرفت، إذا سمع الإنسان صوت بوق يعرف جهة الصوت، ولكن كيف يعرف ؟ يوجد جهاز معقد جداً، هناك جهاز بالدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين.. فهناك أذنان بينهما اثني عشر سانتيمتر، والصوت سرعته ثلاثمائة وثلاثين متر في الثانية، معنى هذا أن التفاوت بين الاثني عشر سانتيمتر هو واحد على ألف وستمائة وعشرين جزء من الثانية، أي إن جهاز الدماغ يقيس متى وصل الصوت إلى هذه أولاً أم إلى هذه أولاً ؟ والدماغ يعرف جهة الصوت، ويتحرك وفق جهة الصوت، فإذا ركبت مركبتك وسرت في طريق، و كان أمامك قطيع غنم فأطلقت بوق السيارة فستجد أن الغنم يتجه إلى عكس مركبتك، فهذا الجهاز ليس عندك فقط بل إنه عند بقية المخلوقات كذلك، فهذا شيء دقيق جداً في صنعة الله عز وجل، لذلك:

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

خاسئاً ؛ أي: أخفق في مسعاه ليصل إلى الخلل، فلا يوجد خلل أبداً، أعد النظر آلاف المرات لن تجد خللاً، خسى ؛ أي: خاب وخسر..

(وَهُوَ حَسِيرٌ)

وهو متضائل، صغير قميء، لذلك فإن هذا الذي يبحث عن عيب في الخلق سوف يرتد بصره..

(خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

أما إذا كان هناك فساد في الأرض.. فهذا الكلام دقيق.. إذن يوجد فساد قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: من آية " 41 ")

فمن الممكن أن تضع الملح في الحلويات.. فعندئذ لا تستطيع أن تأكل الحلويات، ومن ممكن أن تضع السكر في الطبخ فلن تستطيع أن تأكله بعد ذلك، السكر مادة ثمينة جداً، والملح مادة ثمينة، أما سوء الاستخدام فهو الذي يسبب التلف، فما هو الفساد ؟ هو سوء الاستخدام، لذلك فالشر المطلق ليس له وجود في الكون، أما الفساد فمن إنسان..

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أما في أصل الصنعة فلا يوجد فساد أبداً.

مثال على ذلك:

إذا قاد الإنسان مركبة من أحدث المركبات وهو يشرب الخمر فإن هذه المركبة ستنتهز، وبعد التدهور سيصبح لها منظر قبيح جداً، فهل نقول: أي مصنع صنعها ؟ لا، لأن المصنع ليس سبباً في هذا المنظر البشع، وإنما أصبحت بهذه الهيئة لأنها استخدمت استخداماً غير صحيح، ولأن الذي قادها قادها وهو ثمل، فحدث لها ما حدث، أما إذا رأيتها كاملة نقول: من الذي صنعها ؟ من أي مصنع هي ؟ إذن: هناك فساد سببه أن الإنسان مخير ولم يستخدم منهج الله في حياته.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مصير المكذبين بالغيب

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الملك، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:
(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(سورة الملك من الآية-5-)

جمال الدنيا نموذج مصغر عن جمال الجنة:

أيها الإخوة الكرام..لقد وضع الله في الأرض الكثير من المناحي الجمالية ؛ فهناك سماءٌ مزدانة بالنجوم، و جبالٌ خضراء، وبساتين غناء، وبحارٌ صافية، هذه المسحة الجمالية التي أودعها الله في الكون لها مهمةٌ خطيرة، و هذه المهمة هي أن الله سبحانه وتعالى إذا حَدَّثَنَا عن جمال الجنة ولم يكن في الأرض مواطنٌ جمالية فإننا لن نفهم هذا الحديث إطلاقاً، لأن اللغة تثير صوراً وتجارب في نفس الإنسان، قل لإنسان مثلاً كلمة: بحر، لقد قلت ثلاث حروف: الباء، والحاء، والراء، لكن هذه الكلمة أثارت عند السامع صورة البحر، جمال البحر، مَوْج البحر، عمق البحر، اتساع البحر، أثارت في نفس السامع كل هذه الصور، فلولا أن السامع ذهب إلى البحر، وركب البحر، وسبح في البحر، ورأى اتساع البحر، وعمق البحر لما فهم شيئاً مما تقول، اللغة تثير في الإنسان خبراتٍ سابقة، أو صوراً سابقة، فلو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُحَبِّبَنَا بالجنة فوصفها ولم يكن في الأرض شيءٌ جميل نُعَلِّقُ عليه كلمات الجنة، لن نفقه عندئذٍ شيئاً عن الجنة، فالمواطن الجمالية في الأرض من جبالٍ خضراء، إلى بساتين غناء، إلى جداول رقراقة، إلى بحرٍ جميل، إلى طفلٍ جميل، هذه الصور الجميلة من أجل أن يكون لوصف الجنة مرتكز من واقع الحياة.

زينة السماء الدنيا:

ربنا سبحانه وتعالى زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وقد كان فيما سمعت أن الذين عَدُّوا نجوم السماء بأعينهم رأوا أن هذه النجوم لا تزيد عن عشرة آلاف نَجْم، وهي النجوم التي نراها بأعيننا، لكن تقدير

علماء الفلك يقول أن هناك مليونَ مليونَ مجرة، وفي كل مجرة مليونَ مليونَ نجم، فهذه النجوم التي نراها بأعيننا هي سماء الدنيا، قال تعالى:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

المعنى الآخر من التزيين:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(من الآية-7- سورة الكهف)

الشيء الدقيق هو أن الأرض فيها أشياء جميلة، والأشياء الجميلة محسوسة ملموسة بحواسنا الخمس، بعيوننا، بأذاننا، فهناك صور جميلة، و أصوات جميلة، و طعوم طيبة ومباهج، فالدنيا محسوسة والآخرة خبر، من هنا نرقى، فالآخرة خبر، و الجنة وصف، وصف في القرآن، شرح من بيان النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الجنة خبر، والدنيا محسوسة فالذي يؤثر الآخرة يرقى عند الله، فلو أن الآخرة محسوسة كالدنيا لما ارتقينا إلى الله أبداً، قال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

ركبت في الإنسان نوازع و غرائز و شهوات و ميول، وهناك أشياء جميلة بدءاً من النساء إلى الطعوم، إلى القصور، إلى البساتين، إلى الممتلكات، إلى متع الحياة، لكن هناك آخرة جاءت في كتاب الله، فالذي يتعلق بما هو جميل في الدنيا ولا يعبأ بالمصير هو الذي يسقط عند الله عز وجل، والذي يصدق الله عز وجل ويؤمن بما وعد الله به المؤمنين ولا يأخذ من الدنيا إلا ما سُمح له مما وافق منهج الله عز وجل هذا الذي يرقى إلى الله عز وجل.

فالشيء الجميل له وظيفتان:

1- وظيفة بيانية.

2- ووظيفة ابتلائية، به تُبْتَلَى، وبه تعرف الآخرة.

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)

(سورة الملك: من آية " 5 ")

وظائف النجوم:

قال العلماء:

هذه النجوم لها ثلاث وظائف حصراً وما سوى ذلك ظنٌ ووهم:

الوظيفة الأولى أنها مصابيح.

الوظيفة الثانية أنها رجومٌ للشياطين.

الوظيفة الثالثة أنها علاماتٌ نهتدي بها في ظلمات البرِّ والبحر، فالنجوم نهتدي بها، وهي مصابيح للدنيا، و رجومٌ للشياطين.
قال تعالى:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)

طبعاً لدينا آيات أخرى تُفسَّرُ هذا، فالشيطان كان يصعد إلى السماء ليسترق السمع، وعندئذٍ كان يتبعه شهابٌ راصد، فيُرجَم الشيطان بشهابٍ من هذا النجم، فليس النجم هو الذي يُلقى على الشيطان كلياً، بل جزءٌ من النجم، شهابٌ من النجم يلقى على الشيطان فيحرقه.

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ)

لماذا لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم الآيات الكونية؟؟

ربنا جلّ جلاله أعطانا من الآيات الكونية الشيء الذي تفهمه عقولنا، فقد أشار سبحانه في القرآن إلى أصول العلوم ولم يأت بتفاصيل، لماذا؟؟ لأن الإنسان مكلف (افعل ولا تفعل)، فإذا فعل ما أمر أن يفعل وامتنع عما مُنِع وصل إلى جنة ربه، أما آيات الكون فكلما تقدّم العلم كشف جانباً من عظمتها، لذلك فالقرآن الكريم معجزة المسلمين إلى يوم القيامة، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام _ كما بيّنت لكم من قبل _ قد أوحى الله سبحانه وتعالى إليه ألا يبين ويفصّل في آيات الكون، وهذه حكمة بالغة منه، فإنه إن شرحها شرحاً مبسطاً جداً يفهمه عقول من حوله لأنكر عليه هؤلاء الذي أتوا بعد آلاف السنين وقد تطوّر العلم تطوراً كبيراً، وإن شرحها شرحاً مفصلاً تعجز عقول من حوله عن إدراكه وقع هؤلاء في مشكلة وهؤلاء في مشكلة، إما أن ينكر عليه الذين حوله إذا بيّن وفصّل، وإما أن ننكر نحن الذي جئنا بعد آلاف السنين وقد توصل العلم إلى كشف حقائق الكون، لذلك فصلّ النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن في التكاليف، أما في الآيات الكونية فترك كل عصرٍ يكشف جانباً من عظمة هذا الكون، لذلك يُعدّ القرآن الكريم مُعجزة المسلمين المستمرة، وهذا يؤكّده قول الإمام علي كرم الله وجهه: " في القرآن آياتٌ لما تُفسّر بعد " أمثلة على ذلك:

برزخ بين البحرين !!

أضرب على هذا بعض الأمثلة: الآية التي وردت في القرآن وهي قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(الآية 19-20-21 سورة الرحمن)

هذه الآية وقف عندها المفسرون طويلاً ولم يستطيعوا أن يُعطوا تفسيراً قاطعاً لها، أين هذا هو البرزخ؟

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

الآن بعد ألفٍ وأربعمئة عام صوّرت سفن الفضاء خطوطاً عند تلاقي البحار، هذه الخطوط خطوط تباين، فلما عكفوا على دراسة مياه البحار وجدوا أن كل بحر له مكوناته، وله خصائصه، وله كثافته، وله ملوحتة، وأن مياه أي بحر لا يمكن أن تختلط بمياه البحر الآخر، وقد رأوا من خلال سفن الفضاء هذا الخط بين البحرين، في باب المنذب، وبين البحرين الأبيض والأحمر، وبين الأبيض والأسود، وبين الأبيض والأطلسي، هذه الخطوط المتباينة فسّرت بها الآية الكريمة:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

لذلك انطلق بعض العلماء الذين اختصوا بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم إلى معظم بقاع العالم، والتقوا مع قمم العلوم في شتى بقاع الأرض، وكلما عرضوا عليهم حقيقةً قرآنية في اختصاصهم خضعوا وقالوا: هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر، لأن مُحَصِّلَةَ العلوم البشرية وصلت بنا إلى هذه الحقيقة، أما أن يأتي بها إنسانٌ قبل ألفٍ وأربعمئة عام ويعرض هذه الحقائق فهذا يعني أنه رسول الله. ومثل آخر....

ذبح الشاة بقطع أوداجها دون رأسها:

أوضح لكم هذه الحقيقة بمثل آخر: النبي عليه الصلاة والسلام-وهذا من دلائل نبوته- أمرنا أن نذبح الشاة بقطع أوداجها فقط دون أن نقطع رأسها، فلا في عصر النبي ولا بعد عصر النبي، ولا في بيئة النبي ولا في مراكز الحضارة في عهد النبي، ولا بعد ألفٍ وأربعمئة عام يمكن للعلم أن يُفسّرَ هذا الأمر النبوي:

((اقطع أوداج الدابة دون أن تقطع رأسها))

ثم عُرِفَ أخيراً أن القلب يتلقّى أمراً بالنبض منه ذاتياً، من مركز كهربائي ذاتي، فإن تعطل هذا المركز تلقاه من مركز بديل في القلب نفسه، فإن تعطل الثاني تلقاه من مركز ثالث، إلا أن هذه المراكز الثلاثة تعطي أمراً بالضربات النظامية.. ثمانون ضربة في الدقيقة.. مهمة القلب بعد الذبح إخراج الدم خارج الدابة، فلو أننا قطعنا رأس الدابة لتعطل أمرٌ استثنائي ولرُفِعت الضربات من ثمانين إلى مائة وثمانين، فالقلب البشري يَبْضُ مائة وثمانين نبضة في حالات استثنائية، في الجهد، أو في الخوف، فقلب هذه الدابة يأخذ أمراً بثمانين ضربة من القلب نفسه، ويأخذ أمراً استثنائياً بمائة وثمانين ضربة من الدماغ،

فلو قُطِعَ رأس الدابة لعجز القلب عن إفراغ الدم من الذبيحة، و كلام النبي ليس عن خبرةٍ ولا عن تجربةٍ ولا عن ثقافةٍ، ولا عن معطيات أرضية، كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحيٌّ يوحى، وهذا من دلائل نبوة النبي، إذاً:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

(الآية-5- سورة الملك)

أما هؤلاء الشياطين الذين شَطَّ بهم السير عن منهج الله عزَّ وجل، وأرادوا إغواء البشر، فإذا أرادوا أن يسترقوا السمع كانت هذه النجوم رجوماً لهم، ومصيرهم في الآخرة إلى عذاب جهنم وبئس المصير. ويقول بعض علماء التفسير: (يقول الله عزَّ وجل استطراداً):

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الملك: الآية-6-)

فالشياطين إلى جهنم وبئس المصير..

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا)

فإذا أُلقي هؤلاء الكفار في النار، أو إذا أُلقي الجن الذي خرجوا عن منهج الله في النار..

(سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

(سورة الملك: من الآية-7-)

فشهيق الدابة إذا رأت الشعير، أي: تطلع الدابة إلى غذاءٍ تأكله، وشهيق النار أي أنها تنتظرهم، وهذه صورة من صور النار.

وبعضهم قال: شهيق الكفار حينما يلقون في النار..

(سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

تفور: أي تغلي، تغلي النار من شدة غيظها على أولئك الذين غفلوا عن ربهم في الحياة الدنيا وأسأؤوا إلى خلقه.

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ)

تَمَيِّزُ: أي؛ تتفرق، أي تنقطع من شدة غيظها، فالحقيقة الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، والإنسان قد ينشغل بدينه، قد ينشغل بعمله، قد ينشغل بشهوته، بمكاسبه، بملذاته، قد ينغمس في حمأة الشهوة، فهو في غفلةٍ عن ربه، أما حينما يصحو و يأتيه ملك الموت وتنقطع عنه شهواته عندئذٍ يتمزق ندماً لما فعل، هو وكل من حوله، تصور أباً يغدق على ابنه كل شيء من أجل أن يدرس، لكنه يدرس، بل يُسيء إلى والده، فحينما يصحو ويرى فعل أبيه معه، ثم يرى لؤمَه، وينتبه إلى أنه ردَّ المعروف منكراً على أبيه، حينما يصحو ويستيقظ ضميره يتمزق ويتألم أشد الألم، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

(الآية-10- سورة غافر)

حينما كان الله يدعوكم إلى أن تؤمنوا به، يدعوكم إلى أن تتعرفوا إلى منهجه، يدعوكم إلى أن تطيعوه، إلى أن تسجدوا له لتسعدوا بقربه، حينما كان يدعوكم كنتم تستكفون وتستكبرون، لقد كان الله يَمُقْتَكُم أكبر من مقتكم الآن لأنفسكم..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

(سورة غافر: الآية-10-)

(تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ)

وكان النار هنا نفسٌ مدركةٌ تغتاظ من هذا الكافر الذي جحدَ نعمَ الله عزَّ وجل، الذي سُخِّرَ له ما في السماوات وما في الأرض، فكان وحده الغافل، وقد قال الله عزَّ وجل:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(الآية-44- سورة الإسراء)

أيعقل أن يكون المسخر لك صاح وأنت الذي سُخِّرْتَ لك كل ما في السماوات والأرض الغافل ؟ فهذا الكافر يرتكب في حق نفسه جريمة، نحن لا نستبعد ذلك كثيراً، ففي بعض الأيام يقتل بعض المجرمين أباه، و بعضهم يقتل أمه، بعضهم يقتل أولاده، فنرى الناس جميعاً يحتقرون، يتميِّزون من شدة الغضب..

(تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

(: الآية-8- سورة الملك)

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

(سورة الإسراء: من الآية-15-)

قال بعضهم: العقل هو الرسول.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

الله جلَّ جلاله يقول:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(الآية-23- سورة الأنفال)

((وعلى الله قصد السبيل))، قال بعض العلماء: على الله، على تفيد الإلزام، فإذا جاءت على مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام، وعلى الله قصد السبيل، أي وعلى الله بيان سبيل القصد، وعلى الله بيان طريق الحق، بيان طريق السلامة، بيان طريق السعادة، وعلى الله الهدى، فقد قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل من الآية-12-)

فربنا عز وجل تولى أن يهدينا، تولى أن يسمعنا الحق، تولى أن يوصل إلينا الهدى، هذا على الله، علينا الاستجابة فقط، علينا أن نستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال: الآية- 24)

فالإنسان قبل أن يعرف الله في حكم الميّت، ماتت نفسه وتحركت أعضاؤه، أما حينما يعرف الله عز وجل كان ميتاً يحييه الله بالهدى، فهناك حياة الجسد وهناك حياة القلب، وحياة القلب بمعرفة الله وذكره.

(إِذَا أَلْفَوْا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ)

تفور: أي، تغلي.. تكاد تنقطع وتتمايز أجزاؤها من الغيظ..

(تَكَادُ تَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

ما النذير؟؟

الحقيقة في آيات كثيرة جداً تبين معنى النذير، قال تعالى يعاتب الكفار:

(أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَنْذَرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية-37)

قالوا: النذير:

1- كتاب الله هو النذير:

لأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب بين فيه الحلال والحرام، الخير والشر، الحق والباطل، أمر فيه ونهى، و بين أحوال الأمم السابقة ومصير الأمم اللاحقة، بين فيها أحوال أهل النار، وأحوال أهل الجنة، فهذا الكتاب هو النذير، كتاب من عند الله، ففي التعامل اليومي أحياناً يوجه للموظف إنذار خطي، وهذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا نذير، نذير لأنه ينهانا ويحذرننا ويخوفنا ويعدنا بعذاب أليم في الآخرة.

وقال بعض العلماء:

2- النذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، لقول الله عز وجل:

(يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)

((46))

(الآية-45-46 سورة الأحزاب)

كما قال بعض العلماء:

3- هو الشئب..

((عبدى كبرت سنك، وشاب شعرك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحي منى فأنا أستحي منك))

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

فالنذير هنا هو الشيب.

وبعضهم قال:

4- النذير هو سن الأربعين:

الإنسان إذا بلغ الأربعين، بلغ النضج و اكتمل عقله وتوازنت انفعالاته و أدرك الحقائق، لذلك الأربعون هي النذير.

وقال بعضهم:

5- الستون هي النذير:

القرآن هو النذير، والنبى عليه الصلاة والسلام هو النذير، والشيب هو النذير، والأربعون هي النذير، والستون هي النذير أيضاً.

وقال بعضهم:

6- المصائب هي النذير:

لأن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يبقي الإنسان قوياً صحيحاً، معافى، غنياً و سيماً، متألقاً إلى أن يأتيه الموت في ثانية واحدة، لكن بهذه الطريقة لا يتوب إلى الله عز وجل، بل يبقى في بغيه وعدوانه وانحرافه، ولكن تأتي المصائب فتلفت نظر الإنسان إلى الله، وبقدر الانحراف تأتي المصيبة، انحراف بسيط مصيبة خفيفة، و كلما ازداد الانحراف ازدادت شدة المصيبة من أجل أن تُصيب الهدف وأن تعيده إلى الصواب، لذلك قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(الآية-41- سورة الروم)

من نعم الله على الإنسان أنه إذا انحرَف أذاقه نتائج انحرافه، كان من الممكن ألا يذوق نتائج انحرافه، ولكن شاءت حكمة الله أن الإنسان إذا انحرَف فإن الله يذيقه نتائج انحرافه، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يرجع إلى الله.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فالمصائب هي النذير، وموت الأقارب هو النذير كان من الممكن أن تأتي إلى الدنيا دفعة واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، عندئذ لا يتعظ بعضنا ببعض، عندئذ لا نعرف ما هو الموت، لكن هذا الموت التدريجي، أناس يموتون، وأناس يتعظون، كما قال سيدنا عمر: "واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني "

النذير هو القرآن الكريم، والنذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، والنذير هو الشيب، والنذير هو سن الأربعين، والنذير هو سن الستين، والنذير هي المصائب، والنذير موت الأقارب، النذير موجود، والله آيات في كل عصر، آيات الله صارخة، وواضحة، وبينة، وهذه تنذر.

(تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

أي: ما الذي جاء بكم إلى هنا ؟ أين عقلكم ؟ ألم يأتكم نذير يندركم؟
إخواننا الكرام... نحن أحياء، نحن الآن نتلقى النذير، الإنسان إذا وصل إليه الحق صار مُدَانًا، نحن الآن نستمع إلى كلام الله، ما دام القلب ينبض فنحن في بحبوحة أن نعود إلى الله، أن نتوب إليه، أن نستجيب له، أن نصطلح معه، أن نستقيم على أمره..

(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

أقوال الكفار إذا دعوا إلى الله:

فالآن استمع إلى أقوال الكفار إذا دُعوا إلى الله يقول لك أحدهم: هذه دعوات غيبية و نحن واقعيون، يقول لك: هذا الذي يدعوك إلى الله له حظوظ، وله نوايا، وله مطامع في الدنيا، و إما أن يطعن بالذي يدعوه، فقد قالوا عن النبي إنه مجنون، وقالوا عنه ساحر، وقالوا عنه كاهن، وقالوا عنه شاعر، وأهل الكفر دائماً يطعنون بمن يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ويطعنون بدعوتهم و يسفّهون شخصيتهم.

(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(الآية-9- سورة الملك)

الحكمة من ختم الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم:

فقد تسأل: ما الحكمة التي أَرادها الله من أن الله ختم بمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالات ؟ تصوّر لو أن نبياً جاء في هذا العصر، إذن لسمعت عنه العجب العجاب، لقد قرأت تحليلات من علماء نفس، وتحليلات من بعض الدارسين للتاريخ، لقد كانوا يفهمونه على أية طريقةٍ إلا أنه نبي، فالكفر أحياناً يفلسف، والإنسان الكافر حينما أعرض عن الله عزّ وجلّ كان معه جهاز خطير وهو الفكر، فالفكر عند الكافر يستخدمه لرد الحق، ويستخدمه لفلسفة الشر، ولتزيين الباطل، ولتغطية الانحراف، فكر تبريري، لذلك:

(قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء قومه ألم يروا صدقه وأمانته وعفافه ونسبه ؟ ألم يقرؤوا هذا القرآن الكريم الذي جاء به ؟ هل في هذا القرآن مأخذٌ ؟ هل فيه ريبٌ؟ هل فيه خللٌ ؟ ألم يروا كماله ؟ ألم يروا عفافه ؟ ألم يروا علمه ؟ ألم يروا رحمته ؟ ومع ذلك كدّبوه

(فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

(سورة الملك: الآية-9-)

وقالوا.. هذه مقولة الكفار في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(:الآية10- سورة الملك)

دليلا الوصول إلى الله: عقلي وإخباري.....

نسمع أو نعقل.. دققوا.. نسمع هذا الدليل الإخباري، ونعقل الدليل العقلي، والإنسان لا يصل إلى الله إلا بدليلين، دليل عقلي، ودليل إخباري، من خلال التأمل في الكون تتعرف إلى خالق الكون، هذا دليل عقلي، أما في الدين فهناك حقائق لا يمكن لعقلك أن يصل إليها إلا أن تأتيه عن طريق الوحي، لذلك يأتي السمع للإخبار الإلهي، والعقل للدليل الاستنباطي، فأنت تتعرف إلى الله من خلال الكون، هذا العقل الذي أودعه الله فيك يحكم أن لهذا الكون خالقاً، وأن لهذا الكون مُربياً، وأن لهذا الكون مُسيراً، وأن هذا الخالق والرّب والمُسَيّر، موجودٌ وواحدٌ وكامل.

لكن هذا الفكر لا يستطيع عن طريق التأمل أن يعرف لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ هذا يجب أن يعلمك الله به، هذا الفكر من خلال التأمل لا يمكن أن يعرف عن الماضي السحيق شيئاً.. عن أصل الوجود.. ولا عن المستقبل البعيد شيئاً، هذا العقل الذي أمّك الله به لا يمكن أن يعرف عن ذات الله شيئاً، فكل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرك الوحي به، صار عندك دليل عقلي تصل به إلى الله، ودليل نقلي يُخبرك عن الله، هؤلاء الكفار ما استخدموا عقولهم كي تصل بهم إلى الله، ولا أصغوا السمع ليتعرفوا إلى الله من خلال ما يُلقى عليهم، هم بعيدون عن أعمال عقولهم، وعن إصغاء السمع للدليل الذي جاءهم الوحي به...

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

أيها الإخوة الكرام... خطأ كبير جداً أن تنتقل قضية من دائرة المسموعات إلى دائرة المعقولات، فالعقل البشري إن استخدمته فيما خُلق له يعطيك أروع النتائج، أما إذا استخدمته لغير ما خلق له.. فإذا جئت بقضية غيبية أوحاها الله إلى نبيّه فجعلتها تحت بساط البحث العقلي، العقل عندئذٍ لا يستطيع أن يعطيك نتيجة إطلاقاً.. لأنك سخرته لغير ما خلق له، أنت بالكون تعرفه وبالوحي يكشف لك كل ما عجز العقل عن إدراكه.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ)

(السَّعِيرِ (11))

عودٌ على بدء.

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ)

حقائق الغيب:

الآخرة غيب، والجنة غيب، والنار غيب، أما بهذه العين نرى كل الأشياء المحسوسة، فالدنيا محسوسة، ملموسة، مرئية، مسموعة، مشاهدة، والآخرة غيب، فالإنسان إما أن يخاف بعينه، وإما أن يخاف بعقله، وكلما هبط مستواه يخاف بعينه، وكلما ارتقى مستواه يخاف بعقله، فهذا الذي تعرّف إلى الله من خلال الكون، وتعرف إلى منهجه وخاف منه قبل أن يأتي الموت، خاف منه قبل أن يصل إلى النار هذا إنسان خشي الله بالغيب، وهذا مما يليق بالإنسان أن يخشاه غيباً، أما شهوداً فما من إنسان على وجه الأرض إذا رأى العذاب إلا ويؤمن والدليل فرعون..

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(:الآية 90 سورة يونس)

فكل إنسان كافراً كان أو غير كافر إن جاء الموت كُشِفَتْ له الحقائق..

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: الآية-22-)

فالبطولة أن تكشف الحقائق قبل الموت، لذلك الإنسان مع أي شيء خياره خيار قبول أو رفض إلا مع الإيمان خياره خيار وقت، فإما أن يؤمن في الوقت المناسب، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان، وإيمانه بعد فوات الأوان لا قيمة له إطلاقاً.

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء: من الآية 18)

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ

انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(:الآية-158- سورة الأنعام)

والبطولة أن تؤمن قبل فوات الأوان، أن تؤمن بالله غيباً، فهو الذي لا تدركه الأبصار ولكن كل شيء في الكون يدل عليه، فجهنم مثلاً لا نراها ولكن الله أخبرنا بها، وإيمانك بها إيمان بالغيب، والجنة كذلك لا نراها ولكن الله أخبرنا بها، و يوم الحساب لا نراه ولكن الله أخبرنا به.

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

هذا الذي يليق بالإنسان، هذا الذي يرفعه إلى المستوى الذي يليق به..

فأنت مكشوف عند الله، يعلم سرّك ونجواك، يعلم سرّك وما يخفى عنك.

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

(14))

ألا يعلم من خلق.. هو الخالق.. فأحياناً وجود الإنسان معك يزعجك، أما الله فهو لطيف، هو معكم أينما كنتم، من دون أن تشعر أنه معك، خواطرك يعرفها، نواياك يعرفها، تفكيرك مكشوف عنده، نوازعك، بواعثك، أهدافك، تصرفاتك، كل شيء يعتلج في نفسك الله عز وجل متطلع عليه لكنه لطيف، الإنسان أحياناً وجوده معك ثقیل، يُزعجك بربك، الله عز وجل قال:

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

(14))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 12-14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالغيب وحدود العقل

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من دروس تفسير سورة الملك، ومع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة الملك: الآية 12)

أيها الإخوة... إن أهم ما يميز الإنسان هو أن الله سبحانه وتعالى أعطاه عقلاً، وبهذا العقل يستطيع أن يعرف حقيقة غائبة عن حواسه، فالحيوان أعطاه الله حواساً إلا أنه يرى بهذه الحواس محيطه فقط، أما الإنسان فقد أعطاه الله حواساً يرى بها محيطه، وأعطاه عقلاً يكشف له ما غيبه عن حواسه، وهذه ميزة كبيرة للإنسان، فإله سبحانه وتعالى لا تُدركه الأبصار، ولكن العقل الذي أودعه الله في الإنسان يمكن أن يعرف الله دون أن يراه، يمكن أن يعرفه من أثره، فالعقل يعرف المؤثر من الأثر، كما يعرف الخالق من المخلوق، والمنظم من النظام، والمسير من التسيير، والحكيم من الحكمة، والقوي من القوة، والغني من الغنى، فأنت تملك عقلاً يكشف لك شيئاً مغيباً عنك من خلال آثاره، وقد شاءت حكمة الله جلّ جلاله أن يغيب عن أبصارنا و تراه عقولنا، فالذي يعطل عقله لا يصل إلى الله، كذلك الذي يُسيء استخدام عقله، فيستخدمه لغير ما خُلق له فإنه يشقى في الدنيا والآخرة، فالذي يرى الله بعقله من خلال خلقه هو الذي خشي الله بالغيب..

وكنت أقول لكم دائماً: إن الإنسان كلما ارتقى خاف بعقله، وكلما هبط مستواه خاف بحواسه، فالإنسان حينما يرى الخطر أمامه بعينه يخافه، أما الإنسان العاقل هو الذي يدرك الخطر البعيد فيخشاه في الوقت المناسب، و ربنا عزّ وجل يقول في أول سورة في القرآن:

(الْم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(الآيات 1-2 سورة البقرة)

فعينه لم تر ربه ولكن عقله رآه، فعرفه واستقام على أمره، فبهذا استحق الجنة، لأن حواسه لم تر الله عزّ وجل لكن عقله عرف الله من خلال خلقه..

وأنت أيها الأخ الكريم... القضية لديك دقيقة جداً، فالدين كله هو أن تعرف الله وأن تطيعه، فتعرفه بآياته الكونية والتكوينية والقرآنية، وتطيعه بمنهجه وبتشريعه، فإن تعرّفت إليه وتعرّفت منهجه وأطعته سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، و أهم شيء في حياة المؤمن هو أن يعرف الله، فإذا عرفه كان أكثر شيء يشغله هو أن يطيعه، فهو يتفكر في خلق السماوات والأرض..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران الآيات 190-191)

فخلقه نتفكر فيه، وأفعاله ننظر فيها..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

(سورة الأنعام الآية11)

وكلامه نتدبره..

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

(الآية 24 سورة محمد)

بهذا يمكن أن تعرفه فإن عرفته ابحث عن شرعه، ابحث عن أحكامه، ابحث عن أوامره ونواهيه، فإن طبقته حققت المراد من وجودك، وحققت غاية وجودك، وتكون قد حققت الهدف الذي من أجله خلقت..

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ)

(سورة لملك: الآية " 12 ")

أما لو أمكن حواسك أن ترى الله.. فأنت إذن في الآخرة..

((إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر))

ترون ربكم بأعينكم، و هكذا شاءت حكمة الله..

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

فلو أننا أتيتح لنا أن نراه بحواسنا لما كان هناك جنّة، فكيف يمكن لنا أن نرقى؟ الشهوات محسوسة لكن حقيقة الدين مُخَبِّر عنها في القرآن فقط، فالجنة خبر والنار خبر، وذات الله خبر.. لكن الدنيا محسوسة، فأنت تمشي في الطريق فتري أمامك امرأة، وقد تنظر إلى مركبة فارهة و بيت فخم، قد ترى طعاماً لذيذاً، هذه كلها محسوسات أمامك، تدركها بحواسك الخمس ؛ بعينك وأذنك، وسمعتك وبصرك، ولكن حقائق الدين تحتاج إلى أعمال عقلي، تحتاج إلى قراءة قرآن و تفكر و نظر، فإذا آمنت بشيء مغيب

عنك ارتقيت عند الله عز وجل، فذلك كانت المشاهدات بالحواس، والمُعَيَّبات بالعقول، وبقيت هناك حقيقة لا يستطيع عقلك أن يدركها ولا حواسك أن تراها، هذه الحقيقة أخبرك الله بها..
أيها الإخوة الكرام... هناك حقيقة أكررها كثيراً: أنت أمام ثلاث مستويات في البحث، وثلاث أدوات بحث.

مستويات البحث:

1- المستوى الأدنى:

وهو للأشياء المحسوسة الملموسة، التي تراها وتسمعها وتشمها وتلمسها، وتترك حرارتها وبرودتها، خشونتها ونعومتها، شكلها ولونها، حجمها وصوتها، هذه كلها أشياء محسوسة، وهذا المستوى الأول يتعلق بدائرة المحسوسات، وأدواتها الحواس الخمس، ونحن وبقية المخلوقات سواء في هذا المستوى، فإذا وضعت يدك أمام نملة تتحرك وقفت لأنها رأت حاجزاً جعلها تقف، وإذا رأت دابة حفرة وقفت أيضاً، والإنسان كذلك حينما يرى حفرة يبتعد عنها، لأنه يكون قد رأى خطراً فخاف فلم يقع في الحفرة صوناً لسلامته، فنحن لا ترتقي بالمحسوسات، بل إننا وبقية المخلوقات سواء فيها وذلك بدافع حب البقاء واستمراره وكماله، وبدافع حب السلامة، فلا يمكن لنا أن نتحرك حركة نهلك بها بحواسنا، فنحن حينما نتعامل مع المحيط الخارجي نتعامل من أجل أن نسلم، فنحن لا نقرب من النار لأن وهجها يبعدنا عنها، كما أننا لا نأكل الطعم الكريه، ولا نقرب من الأشياء المؤلمة، كالكهرباء مثلاً فلا نمسك بالتيار الذي فيه خطر الموت، كل هذه الأشياء تقع تحت سمعنا وأبصارنا وإحساسنا، فنبتعد عن الأشياء المؤلمة والخطرة بدافع من طبعنا وفطرتنا، وهذا مستوى يشترك فيه الإنسان وغير الإنسان.

2- المستوى الأعلى (الدائرة الأعلى):

وهو شيء غابت عنك ذاته وبقيت آثاره، فالإنسان في المستوى الأول كأبي حيوان يرى حفرة أو حاجزاً فيقف، أما إذا رأى الثريا والمصابيح متألقة، ورأى هذا الجهاز الذي يكبر الصوت فإنه يقول: لا بد من تيار كهربائي في هذا المسجد، إنه لا ترى التيار الكهربائي بعينه ولكنه يحكم بوجوده بعقل.. " الأقدام تدل على المسير، والبعير يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير؟ "

هذه هي ميزة العقل، فالعقل يمكن أن يرى دخاناً فيقول: لا دخان بلا نار، والعقل يحكم على وجود النار من خلال الدخان، ويحكم على وجود التيار من خلال المصابيح وتكبير الصوت، ويحكم أن هناك مركبة مرت من آثار عجلاتها، ويحكم بوجود التهاب من ارتفاع الحرارة، هذا هو العقل له مهمة استدلالية على شيء غابت عينه وبقيت آثاره، فمن خلال آثاره تتعرف إليه، هذا هو الإيمان بالغيب، فأنت لم تر النار لكنك رأيت الدخان فحكمت بأنه لا دخان بلا نار فقلت: لا بد من وجود النار..

أقول هذا الكلام بدقة بالغة: العقل البشري في هذا المستوى يُبدع ويحقق أعلى الغايات، فحينما تفكر في الأثر وتستخدم العقل ترى من خلاله المؤثر، و حينما تفكر في النظام ترى المنظم، و حينما تفكر في الخلق ترى الخالق، و حينما تفكر في التسيير ترى المسير، كذلك حينما تفكر في الحكمة ترى الحكيم، و حينما تفكر في القوة ترى القوي، هذا هو مجال العقل.

إخواننا الكرام... أريد أن أضيف لكم حقيقة أخرى وهي أن العقل محدود الإمكانيات، بمعنى أن العقل لا يستطيع أن يبحث عن شيء غابت عينه وآثاره هذا مستحيل بالنسبة له، لذلك كان من أكبر الضلالات وأعظم المتاهات، وأكبر المنزلات أن تأتي بعقلك وتسلطه على موضوع غيبي ذاتاً وآثاراً، فعقلك لا يمكن أن يصل إلى معرفة الجن مثلاً لأن الجن لا تمكن رؤيتهم.

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

الملائكة كذلك.. لن تستطيع أن تؤمن بهم بعقلك، لأنهم ليس لهم آثار، كذلك اليوم الآخر، والماضي السحيق، و نشأة العالم، وغير ذلك الكثير من الأشياء التي غابت آثارها، فلا يستطيع العقل أن يفعل شيئاً إزاءها، لذلك قد تزل قدم الإنسان ويضل حينما يأخذ قضية غيبية مطلقة، أي غيبية ذاتاً وآثاراً ويعرضها على العقل فالعقل هنا ينحرف ويتخبط ويأتي بأفكار مضحكة..

مثال توضيحي:

كنت أضرب هذا المثل دائماً:

بقالية فيها عشرة آلاف صنف ولديك ميزان دقيق حساس جداً، هذا الميزان قدرته على الوزن تتراوح بين خمس غرامات إلى خمسة كيلو غرامات فإذا استعملته وفق هذين الحدين أعطاك نتائج دقيقة جداً.. وهو ميزان غالي جداً.. أما إذا فكرت أن تزن بهذا الميزان سيارتك، فإنك تضعه على الأرض وتمشي فوقه من أجل أن تزن هذه السيارة وعندئذ سيتحطم الميزان، فإذا اتهمت صانع الميزان قال لك: اتهم نفسك أنت من استخدمته لغير ما خُلق له وخلافاً لتعليمات الصانع، أنت الذي لم يعبأ بالحدود القصوى والدنيا لاستعماله. لذلك فإننا نعرف بالحواس الأشياء المادية التي ظهرت عينها وآثارها، و نعرف بالعقل كل شيء غابت عنك عينه وبقيت آثاره، لأن العقل يتعامل مع المحسوسات والدليل:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

(سورة الإسراء: من الآية " 36 ")

الفؤاد هو العقل، و العقل يتعامل مع المحسوسات، و السمع نافذة للعقل، والبصر نافذة ثانية، الآن:

2- المستوى الثالث (الدائرة الثالثة):

وهي دائرة الإخباريات.. فالدائرة الأولى هي دائرة المحسوسات، والثانية دائرة المعقولات، والثالثة دائرة الإخباريات..

فإذا كان هناك شيء غابت عنك عينه وغابت عنك آثاره فلا سبيل لعقلك أن يعرفه، فإذا فُكّر فيه كفرت، ودخلت في متاهات لا تنتهي، لذلك الدائرة الأولى أدواتها الحواس الخمس، والدائرة الثانية أدواتها العقل، والدائرة الثالثة أدواتها الخبر الصادق، كل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، فأنت أمام شيء محسوس تدركه بعينك، وشيء غابت عنك عينه فتعرفه بآثاره عن طريق عقلك، وشيء غابت عنك عينه وآثاره فتتلقاه بالخبر الصادق، لذلك قالت الآية الكريمة:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ)

(سورة الملك: آية " 10 ")

العقل للأشياء التي لها آثار، والسماع للأشياء التي ليس لها آثار، فأنت تسمع أو تعقل..

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

تلخيص:

هناك ثلاثة مستويات للبحث العلمي:

دائرة المحسوسات وأداتها الحواس الخمس.

دائرة المعقولات وأداتها العقل.

دائرة الإخباريات وأداتها الخبر الصادق.

وطّن نفسك على أن تصنف أية قضية تعرض عليك في بابها.. هذه مع المحسوسات، هذه مع المعقولات، هذه مع الإخباريات.. لذلك لا تحاول أن تقنع إنساناً ملحداً بوجود الجن، إنك لن تستطيع أن تقنعه، ولن تستطيع أن تقنع إنساناً ملحداً بالملائكة، ولا بأصل العالم وأنه من آدم وحواء، هذه كلها أخبار أخبرنا الله بها، فأنت إذا وضعت كل قضية في الدين في مكانها الصحيح فإنك ستفهمها فهماً دقيقاً، أما إذا وضعت قضية في مكان غير صحيح فإنك ستضل، فلو أردت أن تثبت لي بعقلك عن وجود الجن فلن تستطيع، ستخبط، ولسوف ينتقصك الذي يناقشك، لأنك ليس معك دليل، فقضية الجن والملائكة، وقضية الحساب والعذاب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، هذه قضايا إخبارية الله أخبرنا بها.

الآن التسلسل: أنت حينما تؤمن بالله من خلال آثاره، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه، وتؤمن بالنبي من خلال كتابه، والقرآن أخبرك أن هناك يوماً آخر، فإن إيمانك باليوم الآخر إيمان إخباري، والقرآن أخبرك:

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة محمد: من الآية " 12 ")

والله أخبرك أن الكافر سيُلقي في النار خالداً فيها مخلداً، فكل قضية حدد هويّتها واستخدم الأداة المناسبة لها، فنحن في الإيمان بالله نعتمد على العقل والأثر، فإذا وجد أثر فاستخدم العقل، وإذا لم يوجد أثر فاستخدم الخبر، ففي الشيء المحسوس مثلاً تستخدم العين وانتهى الأمر، و الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يغيّب عن أبصارنا، وأن تعجز حواسنا الخمس أن تدركه لذلك تحتاج معرفته إلى جهد عقلي، فالذي آمن بالله بالغيب، كيف آمن بالغيب ؟ نظر في الخلق فعرف الخالق، ونظر في النظام فعرف المنظّم، نظر في الحكم فعرف الحكيم، كلمة آمن بالغيب هل تعني كلمة ألقاها ؟ لا.. بل إنها بحث دقيق توصّل إليه.. الآية مرّة ثانية..

(**إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ**

اللّهَ قِيَاماً وَفُجُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يتفكرون فعل مضارع أي باستمرار..

(**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)

(آل عمران: الآيات 190-191 سورة)

فيا أيها الإخوة الأكارم... دققوا في هذه الحقيقة.. مستوى المحسوسات أدواتها الحواس الخمس، مستوى المعقولات أداتها العقل، مستوى الإخباريات أداتها الخبر الصادق، وقيل أن تبحث في موضوعات الدين أولاً حدد هوية القضية ؛ هل هي محسوسة أم معقولة أم إخبارية، فإن حددت هويتها استخدمت الأداة المناسبة لها.

أمثلة موضحة:

لو كنت أمام كأس ماء فلن تحتاج إلى عقل لتعرف ما هذا، ولكن هذه تحتاج إلى حاسة البصر فعن طريق العين تعرف هل الماء صافٍ أم لا.

أما في المسجد فإن نظرت إلى الثريات وجدها متألقة ووجدت الصوت مكبراً، إذا يوجد كهرباء، هنا نحتاج إلى عقل.

أما إذا سألت يا ترى ماذا يوجد فوق هذا السقف ؟ فاسأل المهندس لأن هذا إخبار، لأن العين لا ترى ماذا فوق السقف، يوجد سقف قرميد ويوجد سقف تقليدي أي خشبي و بينهما فراغ ؟ لا نعلم لأن هذا شيء مغيب عن حواسنا وبالتالي عن عقولنا، إذا لا بدّ فيه من خبر صادق، فلو دخلت إلى بيت مثلاً فوجدت غرفة مغلقة، فسألت صاحب البيت ماذا في هذه الغرفة ؟ يقول لك: هذه غرفة نوم، هذا خبر، أما إذا كان أمامك أداة، كنية أو مسجلة أو مكيف مثلاً فلا يوجد داع لأن تسأل لأن عينك تراه.. كل هذا الكلام من أجل كلمة واحدة:

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ)

فمعنى آمن بالغيب أي: أعمل عقله حتى توصل إلى حقيقة ثابتة، أي إنه بذل جهداً، لذلك كانت أول آية كما قلت قبل قليل:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

غابت ذات الله عن حواسهم فأدركته عقولهم، والعوام بكلمة بسيطة متداولة يقولون: "الله ما انشأ بالعقل انعرف"، الله لا يرى بالعين لكن العقل يدركه، لذلك فإن آيات العقل والعلم تزيد عن ألف آية في القرآن الكريم..

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

(سورة يس)

أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتذكرون ؟

(أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الغاشية: آية " 17 ")

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

(سورة الملك)

عمل الجنة حزنٌ بربرة، وعمل النار سهلٌ بسهولة:

لو أن أحد الأشخاص ركب دراجة وكان يمشي في طريق مستوية، وفجأة رأى هناك طريقين: طريق نازلة وطريق صاعدة - الطريق تُذكر وتؤثت. - فركب الدراجة ليرتاح في النزول، ولكن الصعود يصعب عليه، فالشيء المحسوس هو أن الطريق نازلة وهذه صاعدة، لكن هذه الحركة على هذه الطريق بالدراجة ممتعة جداً وهذه الحركة متعبة جداً، فلو أن لوحة كُتبت عند مفترق الطرق: هذا الطريق النازل ينتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسةٌ كاسرةٌ تلتهم كل من يقع فيها، وهذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصرٍ مُنيف فيه كل شيء.. فإذا اعتمد الإنسان على حواسه اختار الطريق النازلة، أما إذا قرأ اللوحة واعتمد على عقله فإنه سيسلك الطريق الصاعدة.. لذلك:

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بَرَبَوَةٌ ثَلَاثًا أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(مسند أحمد رواه: ابن عباس)

لذلك..

((حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(صحيح مسلم رواه أنس بن مالك)

فإذا عطّل الإنسان عقله ؛ فإنه ينظر إلى النساء، يشرب أي شراب، يسهر في أي مكان، يحكي أي قصة، إذا عطّل عقله فإنه سينساق مع شهواته، أما إذا فُكر في أن هذه لا تُرضي الله، وأن هذه محرمة.

فهذان الطريقان أمامك، فبحسب طبيعة جسمك والدراجة التي لا يوجد فيها محرك النزول أكثر راحة لك، أما الصعود فهو صعب جداً.

ولكن إذا قرأت اللوحة، صار القصر خبيراً والحفرة السحيقة خبيراً، أما النزول المحسوس والصعود المحسوس فهما سهلان بالنسبة للحواس، فالذي لا يُعمل عقله ويتعامل مع حواسه يختار الطريق النازلة، والذي يُعمل عقله وقرأ اللوحة فعرف أن وراء النزول هلاكاً ووراء الصعود نعيماً يختار الصعود.. هذا الذي يفعله الناس إذا رأوا مؤمناً يخشى الله، يضبط لسانه، يتحرى الحلال، يؤثر دخلاً قليلاً حلالاً على دخل كبير حرام، فإنه يُتهم عند الناس بالجنون وهو العاقل وحده لأنه قرأ اللوحة واختار الطلعة. هذا القصر المنيف فيه كل شيء، مع أن الصعود إليه صعب جداً بالدراجة، ويتطلب جهداً، وقد يضطر الصاعد أحياناً إلى أن يحمل الدراجة، والطريق الصاعد فيه عقبات، فيه صخور وغبار وأكمام، ولكن من وصل إليه سينال قصرأ منيفاً، أما الطريق النازل فهو طريق معبد محفوف بالرياحين والورود والدراجة ترتاح بالنزول لكنه ينتهي بهذه الحفرة، هكذا الحديث:

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بَرَبَوَةٌ ثَلَاثًا أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(مسند أحمد رواه: ابن عباس)

فالقضية كلها هي أن تُحكّم عقلك.

ومثل آخر..

سأضرب مثلاً آخر وقد ذكرته مئات المرات:

أحد باصات المهاجرين مثلاً كان يقف في ساحة المَرَجَّة باتجاه غرب شرق، يصعد الركاب إليه، على اليمين كان هناك شمس وعلى اليسار ظل، والوقت صيف والحرارة أربعين، يصعد الراكب إلى هذا الباص، فإذا حُكّم عقله فإنه سيجلس في الشمس، والذي لا يُحكّم عقله، بحكم فطرته وجسمه فإنه سيجلس في الظل، يتحرك الباص ويدور حول المرجة وخلال دقيقة تنعكس الآية، فالذي اختار الظل تنعم في دقيقة وتحمل الشمس نصف ساعة، فأنا كنت أصعد إلى هذه الحافلة لأمتحن الركاب.. فأجد أن هذا جلس في الظل وهذا في الشمس كل حسب تفكيره وإعماله لعقله، هذا المثل على بساطته هو الدنيا كلها. فإذا أردت الدنيا..

فإن مرت امرأة جميلة في الطريق، فنظرت إليها وملأت عينيك منها تكون بذلك قد انقطعت عن الله عزّ وجل.

وإذا كان لديك دخل كبير ولكنه مشبوه، فقلت: لا.. معاذ الله.. أنا قارئ اللوحة واخترت الصعود..

هذا المثل ضعوه في أذهانكم اقرؤوا اللوحة واختاروا الصعود، أو اختاروا الشمس واتركوا الظل، الشمس دقيقة ولكن الظل ليس نصف ساعة إنه إلى أبد الأبد، والذي اختار الظل دقيقة تحمل جهنم إلى الأبد، هذه هي القصة كلها..

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

مغفرة تمحي عنك كل السيئات، و الماضي مطوي بمغفرة، كل الماضي بكلمة واحدة، فلا تيأس..

((لو جنتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

فالقضية كلها قضية تحكيم عقل، تفكر في خلق السماوات والأرض، تدبر القرآن، وانظر في أفعال الله، و ابحث عن أمر الله وتطبيقه تكن من أسعد الناس، أما إذا عطل الإنسان عقله فإنه سيتعامل بالحواس مع أشياء مادية، فكل شيء موجود في الطريق، إذا أطلق بصره وأطلق سمعه فسمع الأغاني المحببة، وأطلق عينه فملأها من جمال الحسناوات في الطريق، وأكل ما يشتهي، وجلس مع من يشتهي، وقبض المال الكبير من شبهة أو من غير شبهة، فإن هذا لم يقرأ اللوحة واختار النزول و ينتظره الهلاك..

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)

أيها الإخوة... نستفيد من هذه الآية أن الإنسان الذي لا يؤمن بالله غيباً لا يخشاه، الناس يتوهمون أن معنى الإيمان به غيباً كلمة واحدة.. لا إنها جلسات تفكر طويلة، تدقيق، استنباط، تمحيص، أي أنك ستعمل عقلك في الكون حتى تعرف مكونه فتخاف من خالقه، وترغب في مرضاته، وتبحث عن أمره ونهيه فتطبقه، هذا هو معنى الآية.

وهو اللطيف الخبير:

الآن:

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة الملك)

أي أنت مكشوف..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

يعلم جهرك وعلائيته، ما تعلنه وما تقوله، وما تبديه، ويعلم الذي تخفيه عن الناس، يعلم سرّك ونجواك، ويعلم الذي لا تعلمه أنت، علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم جهرك، وعلم سرّك، وعلم ما يخفى عنك..

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة الملك)

أي لا تتخذ موقفاً تمثلياً مع الله أبداً، فإذا وقفت موقفاً تمثلياً مع الله عز وجل فإنك لا تفهم شيئاً لأن الله يكشف كل شيء..

(وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزُونَ (14)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

(سورة البقرة)

إياك أن تتخذ مع الله موقفاً تمثلياً، إياك أن تتخذ موقفاً مزدوجاً لأن الله كاشف كل حقيقة..

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

(14)

بلى هو الذي خلقك، هو المكوّن، هو الخالق، هو الرب، هو الحكيم، هو العليم، أنت بين يديه..

(وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

(مِنْ جُوعَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

(سورة المجادلة: من الآية 7)

لذلك متى ستنجو أنت ؟ إن علمت أن الله يعلم، و أن الله معك، والله متطلع عليك..

(إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(من سورة النساء)

(إِنْ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

(سورة الإسراء)

بعد هذا توجد آية أخرى تقول:

(وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

يرى تقلبك في الساجدين، يرى صلاتك، يرى ذكرك، يرى إقبالك، يعلم مضمون كلامك، كله في علمه..

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

(14)

فما مناسبة اللطيف الخبير ؟ هو خبير بك وهو ومعك، ولكن وجوده معك غير مُخرج إنه لطيف، فإذا رافقك إنسان ساعتين مثلاً تقول لك: والله بقدر مللت وجوده.. أما أن له أن يذهب، أما الله فهو دائماً معك دون أن تشعر، ودون أن تُرهق..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(سورة الحج)

أي هو معك بلطف، خبير بكل أعمالك دون أن تشعر، فلذلك أحد أكبر دوافع المؤمن إلى طاعة الله أن الله معه، وأن الله يراقبه، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان، وأنه مُطلع عليه، أي كلمة تنطق بها يعلم الله صحتها من كذبها، إخلاصها من خيانتها، صوابها من خطئها، أي تصرف، أي نظرة، أي حركة، أي موقف..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

خبير بما تفعل لكن دون أن تشعر، دون أن يكون هذا عبئاً عليك..

(لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

(14)

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تسخير الكون وعقوبة الغافلين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة الملك، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

هو أي الله جلّ جلاله:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا)

آيات الأرض:

ومعنى أن الأرض ذلول ؛ أي: مُيسّرة، فلو أن تربتها صخرية كيف يمكن لنا أن نزرعها ؟ و لو أنها مضطربة كيف سنستقرّ عليها ؟ و كيف سنبنّي ؟ لو أن الماء كان غائراً فكيف سنستخرجه ؟ أو أن الحر لا يُطاق فكيف سنعيش على سطح الأرض ؟ فجو الأرض مناسب لنا، و الهواء مناسب كذلك، نسب الأوكسجين إلى الآزوت هي نسب متوازنة، وقد أودع الله في الأرض الينابيع وأجرى الأنهار، فتت الثربة و جعلها صالحة للزرع، خلق البذور و أرشد الإنسان إلى زرع النبات وإلى جني ثماره، أودع في الأرض فلذات المعادن فلو أن الحديد الذي يستخدمه الناس في كل شؤون حياتهم كان حديداً صرفاً فكيف نستخرجه ؟ لكنه جعله مخلوطاً بالتراب نستخرجه فلذات ثم نعالجه ونستفيد منه ونجعله حديداً صرفاً.

فلو درست حجم الأرض و دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، ولو درست ميل محورها، و بعدها عن الشمس و حرارتها، لو درست قانون الجاذبية فيها و طبيعة تربتها، و طبيعة تضاريسها، و هواءها وماءها، و أنواع المخلوقات فيها ؛ من حيوانات برّية، و بحرية، وحيوانات تحلق في الجو (الطيور)، لو درست نظام الحياة فيها ونظام الفصول و نظام الليل والنهار، و نظام الشمس والقمر، لو درست الأرض لوجدتها مهياًة بشكلٍ كامل للإنسان، فالله جعلها ذلولاً..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا)

فأي شيء متحرك صنع الإنسان يضطرب، و لو أن الأرض تضطرب فمن الصعب أن نبني عليها بناء، فالأرض مستقرةً وحينما تُزلزل يصبح عاليها سافلها، وتفقد استقرارها واستقرار الأشياء عليها، وهي بحجم يتناسب مع وزن الإنسان، فوزن الإنسان على القمر هو سدس وزنه على الأرض، فمن يزن ستين كيلو غراماً وزنه على القمر عشرة كيلو غرام، إذا جعلها بحجمها وكثافتها وشكلها و دورانها حول نفسها وحول الشمس، وتوزع اليابسة والماء فيها، وتنوع اليابسة من جبال، إلى هضاب، إلى سهول، إلى صحارى، إلى أغوار و كذلك التنوع في التضاريس، و التنوع في الجو و المناخ، كل ذلك جعل الأرض مهيأة للإنسان:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

أي وضعها خصيصاً لهذا الإنسان..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

(سورة الملك: آية " 15 ")

أيها الإخوة بعض الأماكن في الأرض صخرية كاللجأة عندنا، هي أرض صخرية لا يُنتفع بها، فهي لا تُزرع، ولا تُغل المحاصيل، ولا تقبل أن تستفيد منها بشيء، تصور أن الأرض كلها صحارى أو صخور بازلتية، و تصور أن الأرض كلها منحدرات قاسية فكيف نستفيد منها ؟ تصور أن الأرض بحجم أكبر و بدورة أسرع، أو بليل أقصر، و نهار أطول فكيف نستفيد منها، إذا هذه الآية معها مجال رحب، يمكن أن تفكر في كل شيء على أن الله خلقه وسواه، فهو الذي:

(خَلَقَ فُسُوءَى)

(سورة الأعلى)

آيات النبات:

فالنبات مذل، تقطفه وأنت مرتاح، فإذا كانت الثمرة كبيرة جداً جعلها على الشجر، كما أنه جعل الشجر متناسباً مع طول الإنسان، وجعل الفواكه تنضج في أوقات متتابعة، وجعل الفاكهة الواحدة تنضج في شهر أو شهرين لأنها لا تُخزن، فهذه آية واسعة جداً:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دَلُولاً)

آيات الحيوان:

ضرب لكم مثلاً ذكرته كثيراً: هذه البقرة من ذلها ؟ الله جلّ جلاله، فحينما جُنت في بريطانيا اضطروا إلى إعدامها، أو إلى حرقها، و البقرة هي هي، فمع أنها تقدم للإنسان خدمات لا تقدر بثمن، لكنها حينما تتوحش لا يستطيع الإنسان إلا أن يقتلها، وقد ذكرت لكم من قبل: أن أخاً عنده بقرة توحشت فقتلت رجلين وهمت بقتل الثالث، فما كان من صاحبها إلا أن أطلق عليها النار، فحينما ترى بقرة مذلة وجملاً

مذلاً و غنمة ذليلة، فاسأل نفسك، من ذلها ؟ هب أن الله رغب طباع الحيوانات المفترسة في الحيوانات الأليفة فكيف سننتفع بها ؟ فلو رغب طباع الضبع في الغنم فلن تتمكن من أن نستفيد منه.

الماء الفرات:

لو أن هذا الماء الذي نشربه كان ملحاً أجاباً فكيف نشربه ؟ كم يكلف تحلية اللتر منه ؟ إنه يكلف أعلى من ثمن البنزين.

(عَذْبُ فِرَاتٍ)

(سورة فاطر: آية " 12 من)

فمن يحليه لنا ؟ الله جلّ جلاله، إن أصل هذه الأمطار من البحار والبحار ملحٌ أجاج، يموت الإنسان على سطح البحر عطشاً، فكم من باخرة غرقت وركب بعض رگابها بقارب النجاة، وكم من إنسان على قارب النجاة مات عطشاً وهو على سطح البحر، فالماء الملحُ الأجاج على اتساع مساحته، وعلى عمقه لا ينتفع منه في الشرب فلا بدّ من أن يُحلى، ولا بدّ من أن يُقَطَّر، فمن جعله عذباً فرائاً ؟ الله جلّ جلاله، من أودعه في الينابيع ؟ الله جلّ جلاله، ونحن حينما أردنا أن نُنشئ مستودعاً للماء قلّدنا فعل ربنا تقليداً فجعلناه تحت الأرض بأربع مائة متر، ومستودعات مياه عين الفيحة تتصل من منبعها إلى قريب من حمص، ومن سيف البادية إلى منتصف لبنان، حوض هذا النبع الذي يروي هذه البلدة الطيبة، من الذي صمم مستودعه ؟ ومن جعله يعطينا كل ثانية ستة عشر متراً مكعباً من الماء ليروي هذه المدينة بأكملها؟

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر: آية " 22 ")

الهواء مُسَخَّر ومذلل تستنشقه أينما ذهبت بنسبٍ دقيقة جداً، فلو أن نسبة الأوكسجين في الهواء ارتفعت لاحترق كل ما على الأرض لأقل حرارة، لكن نسبة الأوكسجين إلى الآزوت نسب متوازنة في الهواء، والماء مُقَطَّر، لكن الماء المقطر تقطيراً كاملاً لا يصلح للشرب لا بدّ من بعض المعادن التي تُذاب في الماء بنسبٍ دقيقة جداً، فمن الذي جعل هذه النسب ؟ في بعض البلاد التي تُحلى فيها مياه البحر لا تصلح فيها هذه المياه المحلاة للشرب إلا إذا خلطت بمياه الآبار المعدنية، فالماء المقطر كلياً لا يصلح للشرب أبداً، تقول: مياه معدنية فيها كالسيوم، فيها يود ومغانيزيوم وفوسفور، فمن صمّم هذه المياه ؟ و من أودعها في هذه المستودعات التي لا تفسد فيها ؟ كم من مستودع للماء صنعه الإنسان يُسهم في إفساد هذا الماء، النتيجة هي أن كل شيءٍ مذللٌ لك.

القمح:

هذا القمح الذي تأكله من جعله ينضج في يوم واحد ؟ لو أنه ينضج كما تنضج الفاكهة تباعاً فكيف

نحصده ؟ لكان حصاده أمراً شاقاً، فالمحاصيل تنتضج في يوم واحد، و الفواكه تنتضج تباعاً وكل نوع من الفواكه ينضج أيضاً على مدار شهر أو شهرين، فمن صمّم هذا ؟ الله جلّ جلاله..

(فَاْمَشُوا فِي مَنَاصِبِهَا)

هذا أمر إباحة، وتعلمون أن الأمر في القرآن الكريم إما أن يكون أمر وجوب..

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة المدثر: آية " 20 من)

وإما أن يكون أمر ندب..

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور: آية " 32 من)

وإما أن يكون أمر إباحة..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

(سورة البقرة: آية " 187 من)

وإما أن يكون أمر تهديد..

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا)

(من سورة الإسراء: آية " 107)

فيوجد إذاً أمر للوجوب و أمر للإباحة و أمر للندب و أمر للتهديد، أما هذا الأمر فهو للإباحة:

(فَاْمَشُوا فِي مَنَاصِبِهَا)

معاني هذه الآية:

أي تحرّكوا، فالأرض مذلة وما عليكم إلا أن تسعوا في مناصبها.. و مناصبها أي جبالها و جوانبها.. قال العلماء في معنى هذه الآية:

(فَاْمَشُوا فِي مَنَاصِبِهَا)

1-أي امشوا في جبالها.

2-وقيل: في طرقها وفجاجها.

3-وقيل: امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم مذلة لا تمتنع، فلكم أن تزرعوا فيها، ولكم أن تبنيوا، ولكم أن تنشئوا البيوت، ولكم أن تحفروا الآبار، ولكم أن تنشئوا الجسور،

(فَاْمَشُوا فِي مَنَاصِبِهَا)

4- تحرّكوا.

5- وبعضهم قال: " امشوا في مناكبها دون أن تغوصوا فيها " أي خذ من الدنيا ما يكفيك، و لا تطلب ما يُطغيك خذ ما يكفيك، عش في الدنيا كأنك مسافرٌ أو عابر سبيل، و لا تجعل الدنيا أكبر همك ولا مبلغ علمك..

(فامشوا في مناكبها)

إما أن تحركوا أينما شئتم فقد دُللت لكم، هذا معنى، أو امشوا في جوانبها دون أن تغوصوا فيها..

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

الله خلقكم ثم رَزَقَكُمْ، فالفعل جاء ماضياً، والفعل الماضي له معنى دقيق ؛ أي: حينما خلقكم و رزقكم، لا تقلقوا من أجل الرزق..

(أليس الله بكاف عبده)

(سورة الزمر: آية " 36 من)

بلى، الله جلّ جلاله جعل أجل الإنسان ورزقه متعلقاً به وحده، فلا يستطيع إنسانٌ كائناً من كان أن يقرر أجلك ولا رزقك على وجه التحقيق هكذا، أما على وجه الوهم قد تتوهم أن زيدا أو عبداً بيده أجلك وبيده رزقك، والحقيقة أن الأجل والرزق بيد الله عزّ وجل، من هنا كانت كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً..

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

أي أن الله عزّ وجل هو الرزاق، هو الذي صمّم البذار التي تُنبت الثمار، و لولا هذا التصميم لم وجد ما نأكل، فهو الذي صمّم أشعة الشمس تُبَخّر البحار وتعود سحباً وأمطاراً في أماكن متعددة، و لولا أن الله شقّ السماء بالماء وشقّ الأرض بالنبات لما كان هناك مخلوقٌ على وجه الأرض..

(وكلوا من رزقه)

آيات النبات:

البذور:

و موضوع البذور موضوع من أدق الموضوعات، بل هو من أدق آيات الله الدالة على عظمتها، فالرُشيم كائن حي له جذير، وله سويق، وله محفظة غذاء، فإن جاءت الرطوبة والدفع تحرك هذا الرُشيم، لقد أخرجوا من الأهرامات قمحاً زرع فنبت، هذا القمح عمره ستة آلاف عام، والرُشيم كائن حي، أي لو أن هذا الرُشيم مات فالقمح فلن ينبُت فهو كائن حي، فمن صمّم هذا الرُشيم ؟ من صمّم له محفظة الغذاء ؟ و من جعل جذيره يخرق الصخر أحياناً ؟ ربنا جلّ جلاله جعل في نهاية الجذير مادةً تذيب الصخر، ترى أحياناً الجذر ينفذ إلى شق في الصخر ليأخذ الماء، و نظام النبات نظامٌ عجيب، لقد

قرأت في موسوعة علمية أن أعظم معملٍ صنعه الإنسان على الإطلاق يبدو تافهاً أمام الورقة الخضراء التي فيها من التعقيد، وفيها من الدقة، وفيها من الإعجاز الشيء الكثير.

الخاصة الشعرية:

هذا الماء الذي يأخذه النبات من الأرض فيه ما يزيد عن ثمانية عشر معدناً مذاباً فيه، فالماء وسيطٌ تُذاب فيه المعادن ويصعد إلى أعلى النبات، فما هي القوة التي تجعله يصعد نحو الأعلى بعكس الجاذبية الأرضية ؟ قالوا: إنها الخاصة الشعرية.. وشرحها يطول.. فشجرةٌ عملاقة طولها ثلاثون متراً تأخذ ماءها من الأرض، والماء يصعد إلى أقصى ورقةٍ فيها، هذا الماء أذيب في المعادن التي في التربة ؛ الحديد، و البوتاس والفوسفور، فهناك معادن كثيرة جداً على شكل أملاح مُذابة في التربة، يحلها الماء ويصعد بها عن طريق خاصيةٍ شعريةٍ دقيقةٍ جداً، يقال: إن هذه الشعريات التي يصعد فيها الماء إلى أعلى النبات مصممةٌ بدسّامات تسمح للماء أن يذهب نحو الأعلى دون أن يرجع نحو الأسفل، فمن صمّم هذه الدسّامات في أقبية هذا النُسُع الصاعد ؟ الله جلّ جلاله.

النسغ النازل:

هناك الورقة الخضر و ورقة الأزوت، في الورقة تتم عملياتٌ كيميائيةٌ بالغة الدقة، فالماء المُذاب فيه بعض المعادن، وهذه الطاقة الشمسية التي تُخترن في الورقة (الفوتون) وهذه المادة الخضراء (الخضر) هذه كلها تتفاعل جميعاً وتصنع ما يسمّى بالنسغ النازل، فالشجرة تنمو عرضاً، ولو أنها نمت عرضاً لصاقت لمعة الأوعية، لذلك كانت الأوعية مجهزةً بألياف حلزونية تمنع ضيق لمعتها، تصميم من هذا ؟

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولاً)

و هذا النُسُع النازل شيءٌ عجيب فهو سائلٌ موحدٌ يصنع الورقة، ويصنع الجذر، ويصنع الجذع، ويصنع الفروع والأغصان، والأوراق والأزهار والثمار، هل عندنا في الأرض سائلٌ واحد يصنع كل شيء ؟ تصوّب فيكون تارةً خشباً، وتارةً مطاطاً، وتارةً حديداً، وتارةً نحاساً ؟ هذا شيءٌ مستحيل، آية النبات آية دالة على عظمة الله عزّ وجل، من النبات تأكل، وتصنع الأثاث، و تصنع الدواء، و تصنع الأصبغة، و تصنع الأدوية، والأصبغة وأكثر الحاجات تُصنع من النبات..

كما تعلمون أيها الإخوة... هناك نباتٌ مهمته تقديم الخشب، مائة نوع من أنواع الخشب نستعملها، فهناك نوعٌ للنوافذ تتحمل المطر والبرد والحر وتقلب الحرارة والبرودة، و نوعٌ نستخدمه للأثاث، و نوعٌ نستخدمه للصناعة، و نوعٌ جماليٌّ جداً نستخدمه للقصور والأبهاء، وهناك نوعٌ نستخدمه للأثاث، و نوعٌ نستخدمه للآلات.

حدثني رجلٌ قال: استخدمت آلاتٍ نسيجية وضعت على قواعد أسمنتية فلم أنجح في استعمالها، جيء بخبير نزع القواعد الأسمنتية ووضع لها قواعد من شجر التوت، هذا الشجر أليافه الخشبية متينة ومرنة فإذا تحرّك المَكوك في أثناء الآلة وارتطم بالطرف الأول امتص هذا الشجر أو هذا الخشب الصدمة فلم ينقطع الخيط، فهناك شجرٌ مصمَّم للآلات، و شجر مصمَّم للأثاث، و شجر مصمَّم للصناعات الخشبية، أنواعٌ متنوعة، حتى بعض الأبنية أساسها من الخشب إذا جاءه الماء توسّع الخشب فكان متيناً، آيات الله لا تنتهي.

إذا الأرض مصممة، فمثلاً: حجاج بيت الله الحرام يطوفون في البيت الحرام، على أي شيء يطوفون؟ على رخام، وهذا الرخام حجر يمتصُّ أشعة الشمس المحرقة.. ستة وخمسين، ثمانية وخمسين، أربعة وخمسين.. فالرخام الذي في الحرم سابقاً لو وَضَعْتَ أصبعك عليه وقد بللتها بلعابك لسمعت صوتاً كصوت المَكواة تماماً، كيف يطوف الناس على هذا الرخام؟ هناك رخامٌ في الأرض من أندر أنواع الرخام لا يمتصُّ الحرارة، تطوف على هذا الرخام وهو إلى البرودة أقرب والشمس فوقه مسلطة عليه.. ستة وخمسين درجة.. فمن صمم هذا الرخام؟ من الذي جعله مذكلاً؟ الله جلّ جلاله، إذا كل شيء أنت بحاجة إليه.

فإذا أردت أن تضع حديداً على حجر فما الطريقة؟ هناك معدن اسمه الرصاص ينصهر في الدرجة مائة فقط على موقد بسيط ينصهر هذا المعدن، هذا المعدن إذا صهرته ثم برد فإنه يتمدد، يكفي أن تحفر حفرة في الحجر وأن تضع الحديد عليه وأن تصب الرصاص، ليس هناك من قوّة يمكن أن تنزع الحديد من الحجر، فمن سخّر هذا المعدن لتثبيت المعادن بالأحجار؟ الله جلّ جلاله.

المعادن (الحديد والذهب والألماس):

أنواع المعادن التي بين أيدينا لا تعد ولا تحصى، فكل معدن له خاصّة، هناك معدن قويٌّ جداً خفيفٌ جداً لصنع الطائرات، هناك معدنٌ مرّن لصنع النوابض، هناك معدنٌ يتأكسد لصنع أملاح المعدن، و لولا أن الحديد يتأكسد لما كان هناك كائن حي على وجه الأرض، لأن الحديد مادةٌ أساسيةٌ جداً في خُضاب الدم، ولولا أن الحديد يتأكسد بالأوكسجين فيكون أملاح الحديد لما أمكن استخدامه، يوجد في كل إنسان مئاً حديد ما يكفي لصنع مسمار كبير.. ستة عشر ميلي.. و إذا كان الإنسان يعاني من فقر دم يعطى الحديد، وبعض الأدوية تنطوي على حديد، والنبات يحتاج إلى حديد، فمن جعل هذا الحديد يتأكسد؟

أما الذهب فإنه لا يتأكسد، فقد جعله الله معدناً يُستخدم كقيمة للتعامل.

لقد نظرت إلى مقالة في مجلة تقول أن باخرة غرقت قبل مائة وخمسين عاماً وعليها خمسة أطنان من سبائك الذهب، وقد كان هذا الذهب قد استخرج قبل عامٍ أو أكثر وغسل، فكان بلمعته كأنه قد سكب

الآن، على الرغم من مضي مائة وخمسون عاماً عليه وهو في قاع البحر، هذا هو الذهب إنه لا يتأثر لا بالأحماض ولا بأي عامل من عوامل التأثير.

أما الألماس، فإنهم قد حاولوا أن يصنعوا ألماساً مشابهاً تقليدياً لكن هذا الألماس الاصطناعي بعد الاستعمال ينطفئ وهجه، بينما الألماس الطبيعي له وهجٌ يفوق حدَّ الخيال، فمن أعطاه هذه الخاصة ؟ بالمناسبة: الألماس فحم، لكن تحمّل ضغطاً كبيراً وحرارةً عالية جداً فصار ألماساً، وهذا مثل يفيدنا، فإذا كان الإنسان جاءه ضغوط كثيرة وتحملها، وجاءته مواقف صعبة جداً وتحملها صار نادراً كالألماس، الله عزّ وجل يسوق الشدائد لعباده لكن هذه الشدائد رحمةً بهم من أجل أن تجعلهم أناساً متفوّقين..

(وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

أي أن الله الذي خلق لكم الأرض ذلولاً قادراً على أن يعيدكم إليه ليحاسبكم، هذا المعنى أي هو الذي خلق لكم..

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

الله الذي سخر لكم كل الأرض، وكل ما في السماوات من أجلكم قادراً على أن يعيدكم خلقاً آخر ثم يحاسبكم عن كل صغيرة وكبيرة، ثم يقول الله عزّ وجل:

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك: آية " 16 ")

الزلازل:

حينما يعصي الإنسان الله عزّ وجل فعلى أي شيء يكون معتمداً ؟ كلكم سمع أخبار بعض الزلازل، بلدةٌ مستقرّةٌ تعيش في بحبوحة، أبنية شاهقة، شوارع عريضة، أجهزة اتصال، خدمات رائعة، خمس درجات من الاهتزازات تجعل هذه المدينة قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، إذا هذا الذي يأمن مكر الله إنسانٌ مغفل، فبأية لحظةٍ يمكن أن يصيب الزلزال أرضاً ما أو بلدةً ما فتكون خربةً كأن لم تغن بالأمس..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي تضطرب، فقد توجد أجهزة إنذار مبكر أحياناً، يقال: زلزلة أربعة ريختر، لا يحصل شيء به، فليس هناك خسائر ولكنه لفت للنظر، وهؤلاء الناس الذين غرقوا في المعاصي والآثام من يضمن لهم أن تبقى بيوتهم هي هي ؟

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

هذا قارون الذي قال:

(إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

وهذا درسٌ بليغٌ لنا، فإياك أن تعزو الأشياء إليك بل يجب أن تعزوها إلى الله عزّ وجل، إلى فضل الله، إلى رحمة الله، لا تقل: لقد أخذت احتياطاتٍ بالغة، فلا ينفع ذكاءٌ مع الله عزّ وجل، ولا احتياطاتٌ لأن الحذر يؤتي من مأمنه.

معاني (من في السماء):

أما كلمة من في السماء فإنها تحتاج إلى شرح دقيق..

(أَمْ أَمِئْتُمْ مَنَ فِي السَّمَاءِ)

1- قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته، هذا معنى.

(أَمْ أَمِئْتُمْ مَنَ فِي السَّمَاءِ)

2- قيل: خصّت السماء لا لأن الله في السماء وحدها، فهو في كل مكان، بل لأن الناس يعظمون أهل الدنيا في الأرض فكان لفت نظرهم إلى السماء.. هذا معنى ثاني..

3- المعنى الثالث:

(أَمْ أَمِئْتُمْ مَنَ فِي السَّمَاءِ)

أي الملائكة الذين أوكل الله إليهم إنزال العذاب بالخلق أحياناً.

4- وقيل:

(أَمْ أَمِئْتُمْ مَنَ فِي السَّمَاءِ)

أي سيدنا جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب أحياناً.. هذا معنى رابع..

(أَمْ أَمِئْتُمْ مَنَ فِي السَّمَاءِ)

أي أمنتك خالق من في السماء..

(أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

كما خسفها بقارون..

(فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أيضاً..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

5- أي بمعنى من هو فوق السماء علواً وقهراً، الآية الكريمة:

(فسيحوا في الأرض)

(سورة التوبة: آية " 2 ")

أي سيحوا على الأرض، وعلى تفيد الاستعلاء لا تفيد المكانية بل تفيد القهر والسيطرة..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

6- المعنى أيضاً أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن التحت وعن السفل تعظيماً لله عزّ وجل، وقد وصف الله بالعلو وبالعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام، وإنما تُرفع الأيدي دائماً إلى الله نحو السماء، و السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)

7- إلى السماء تُرفع أعمال العباد، هذا أيضاً من معنى من في السماء، وفوق السماء عرشه وجنته، كما جعل الله الكعبة قبلةً للدعاء والصلاة، هذه بعض المعاني التي ترد في التفسير حول قوله تعالى:

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي أن المؤمن لا يأمن مكر الله، و لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون، و المؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً، يرى أن صحته و حركته وأجهزته و رزقه وسلامته بيد الله عزّ وجل، فهو خاضع له دائماً مفتقرٌ إليه، تائبٌ إليه، منيبٌ إليه، عندئذ يحفظه الله عزّ وجل، الإنسان أحياناً يجهل ويتوهم أنه ملك كل شيء، وفي أية لحظة يمكن أن يجعل الله حياته جحيماً، فيجب أن تعرف مكانك.. " رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده " .. فأنت لست بشيء والله كل شيء، فإذا كنت معه كان معك، إن استعنت به أعانك، إن استنصرته نصرتك، إن تقوّيت به قوّاك، إن اعتمدت عليه لبّاك، إن لجأت إليه ألجأك، إن خضعت له حماك..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

وأخبار الزلازل كثيرة.. فهناك زلازل ذهب ضحيتها مائتا ألف إنسان في ثوان معدودات..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ)

هناك فندق في مدينة في المغرب عدد طوابقه ثلاثون، أصاب هذه المدينة.. وهي مدينة أغادير.. زلزال فسقط هذا الفندق بطوابقه الثلاثين في الأرض ولم يبق منه إلا الطابق الأخير الذي كُتب عليه اسم الفندق وكان هذا الاسم شاهدةً على قبر هذا الفندق..

(أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

وعندي صور لبعض الزلازل شيء لا يُصدّق ؛ مدن، أبنية شامخة أصبحت على الأرض في ثوان معدودات، بناءً في القاهرة شامخ خلال ثوان أصبح كتلة من الركام بمن فيه ؛ بأشخاصه، بأساسه، بكل ما فيه..

(أُمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي إن هذه الزلازل تحت سمعنا وبصرنا، فما يمضي يوم إلا وهناك خبر عن زلازل في بعض بلاد العالم، وأحياناً تأتي الزلازل بنسب مضعّفة، ليس هناك أضرار ماديّة ولكنها لفت نظر.. يا عبادي انتبهوا، هذا أسلوب تحريك العصا..

(أَمْ أُمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

(سورة الملك: آية " 17 ")

قد تُمطر السماء حجارةً..

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4))

(سورة الفيل)

أهلك الله أبرهة الذي أراد أن يهدم الكعبة..

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4))

وإذا لم توجد حجارة الآن فقد وجدت الصواريخ، ووجدت القنابل، و وجد القصف الجوي، ووجدت الطائرات المخيفة، ووجدت القنابل التي تركب أشعة الليزر، وتوجد طائرات لها أسماء محيرة، وتوجد قنابل ذكية و قنابل عنقودية و قنابل تعمل على الرادار، أنواع لا تعد ولا تُحصى، هذا كله من:

(أَمْ أُمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا)

أي حجارةً أو ريحاً فيها حجارة، وقيل: سحباً فيها حجارة..

(فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

النذير: هو المنذر وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فالإنسان أحياناً يتلقّى دعوة الأنبياء دون أن يبالي بها، يقرأ القرآن دون أن يقف عند أمره ونهيه وعند حلاله و حرامه، أما حينما تأتي المصائب يعرف أن الله سبحانه وتعالى كان قد أنذره ولم يستجب، الحقيقة أن دعوة الأنبياء أحياناً تُصدّق بعد أن يُحقّق وعيدُ الله عزّ وجل، لكن البطولة أن تؤمن بها قبل أن يأتي وعيد الله عزّ وجل، الوعيد وَرَدَ لكن تحقيق الوعيد هو يحمل الإنسان على أن يؤمن بهذا الكتاب، فالبطولة أن تؤمن به قبل وقوع الوعيد، أما بعد وقوع الوعيد فالإيمان حتمي، ففرعون وهو يرى قال:

(أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس)

من السهل أن تقرأ وعيداً في القرآن..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

هذا وعيد للمرابين لكن الإنسان قد يقرأ هذه الآية ولا يستجيب لله عزّ وجل، أما حينما يُدْمَر ماله كله يؤمن يقيناً أن هذا الوعيد قد وقع لكن الإيمان ساعته لا قيمة له، فالبطولة لا أن تنتظر الوعيد حتى يقع البطولة أن تستجيب قبل أن يقع الوعيد.. هذه نقطة مهمة جداً.. فحينما يقع الوعيد كل الناس يؤمن من دون استثناء، وهذا الإيمان لا قيمة له ولا يُنْجِي صاحبه أبداً، أما هذا الذي يؤمن بالغيب، يؤمن بالوعيد قبل أن يقع..

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

يستجيب لله قبل أن تأتي حرب الله عزّ وجل، نتابع الآية الكريمة:

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

(سورة الملك)

طبعاً الإنسان يستفيد من دروس الأمم السابقة، فانه سبحانه وتعالى كلما أرسل رسولا لأمة فكذبوا هذا الرسول أذاقهم العذاب الأليم، ينبغي أن نستنبط قانون أن الله سبحانه وتعالى إذا أُنْذِرَ أعذر، فانظر إلى قوم عاد كيف أهلكهم الله عزّ وجل، وإلى قوم ثمود، وإلى قوم نُجْع، وإلى فرعون، كل هذه الأمم التي كذبت أنبياءها استحققت الهلاك، ثم يُشير الله جلّ جلاله إلى آية دقيقة جداً وهي قوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمُنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك: آية " 19 ")

طيران الطير من أعظم الآيات:

كما جعل الله سبحانه وتعالى الأرض ذلولاً نمشي في مناكبها، فإنه جعل الجو مذلولاً للطير يطير في أجوائه كيفما شاء، وطيران الطير آية عظيمة من آيات الله.. عندي موسوعة علمية عن الطيران، في مقدمة هذه الموسوعة كتبت ملاحظة تثير الدهشة، قال: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان حتى الآن، تزيد سرعتها عن سرعة الصوت، و هناك طائرات تحمل ستمائة وخمسين راكباً يأكلون و ويشربون ويستمتعون، و هناك طائرات بأحجام كأنها مدينة تطير، والطيران معقد جداً بل هو خلاصة علم الإنسان، فستمائة وخمسين راكب يركبون في مكان واحد ويجلسون على مقاعد وثيرة، تأتيمهم الأطعمة الطازجة، يستمتعون بكل شيء وهم على ارتفاع أربعين ألف قدم في الجو، هناك علم كبير جداً، لأن ضغط الجو في الطائرة لا يسمح للإنسان أن يستنشق الهواء لا بد من أن تُحَقَّن الطائرة ثمانية أحجامها من الهواء كي يكون الضغط على هذا الارتفاع العالي مساوياً لضغط الأرض، فالأمور معقدة جداً.. كُتِبَ على هذه الموسوعة: إنَّ أعظم طائرة صنعها الإنسان تبدو ساذجة وسخيفة أمام الطائر.. طائر

يطير سبعة عشر ساعة من دون توقف !! طائر يطير أكثر من اثنتين وعشرين ألف كيلو متر من الشمال إلى الجنوب !! الشيء الذي يحير حتى الآن وليس له جواب، فقد جهد العلماء خلال مئات السنين ليعرفوا أن هذا الطائر الذي يطير كيف يهتدي إلى هدفه ؟ هل عن طريق التضاريس ؟ فوجدوا أنه يطير على سطح البحر من دون تضاريس، أم عن طريق أشعة الشمس ؟ فوجدوا كذلك أنه يهتدي إلى هدفه من دون أشعة الشمس ليلاً، فما من نظرية طرحت إلا وثبت بطلانها، لذلك يقول العلماء: هناك قوة خفية توحى لهذا الطائر بخطة سيره، لأن الطائر يقطع من سبعة عشر ألف كيلو متر إلى عشرين ألف كيلو متر، فلو أنه انحرف في طيرانه درجة واحدة.. فمثلاً إذا كان عشه في الشام ذهب إلى مصر، فلو انحرف نحو اليسار لذهب في العراق، درجة واحدة.. طبعاً هو يذهب من الشام مثلاً إلى جنوب إفريقيا ويعود في الشتاء إلى عشه، أو في الصيف إلى عشه، فهذا لو انحرف في طيرانه درجة واحدة يمشي فوق يابسة، فوق بحار، فوق بحيرات، فوق جبال، في الليل في النهار، البحوث عن الطيران شيء لا يُصدق، و هذا الطائر حينما يستنشق الهواء آلة تعمل باستمرار لا بد لها من تبريد، لذلك الهواء الذي يستنشقه يتغلغل إلى كل أنحاء جسمه ليبرد عضلاته لأنه يطير باستمرار، فمن أودع في هذا الطائرة قوة إبصار تزيد ثمانية أضعاف عن قوة إبصار الإنسان ؟ السبب ؟ لأنه يريد أن يأكل، فلو أن بصره قاصر ينزل ليأكل فلا يجد طعاماً فيعود، لا ينزل إلى الأرض ليأكل إلا وقد رأى طعامه على الأرض من فوق مسافات شاسعة في الجو، لذلك العلماء قالوا: "ليس هناك أي نظرية ثبتت عندنا في موضوع حركة الطائر في السماء إلا أن تكون هناك قوة خفية تُلهم الطائر ". فطائر ولد حديثاً أخذ إلى شرق الأرض إلى استراليا فلما كبر عاد إلى بريطانيا، إذا قلنا أن حركته جنوب شمال الآن أصبحت حركته شرق غرب، فما من فرضية وضعت لطيران الطائر إلا وثبت عكسها، لذلك الآن استسلم العلماء، الجواب هو هذه الآية:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ)

أي أجنتها..

(وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ بِأُيُودِ الرَّحْمَنِ)

أحياناً يأتي فعل الله بواسطة، أحياناً الإنسان يموت بحادث وأحياناً يموت مباشرة بلا سبب ظاهر، أحياناً أفعال الله عز وجل تبدو لنا عن طريق سبب، وأحياناً تبدو أفعال الله بلا سبب، فطيران الطائر وتحليقه في الأجواء، وانتقاله من قارة إلى قارة، ومن شمال الأرض إلى جنوبها، ومن جنوبها إلى شمالها بلا بوصلة ولا توجيه.. أما الطيار فكيف يطير ؟ هناك محطات أرض تبتُّ للطائرات أماكن طيرانها.. و الطيار دائماً يعرف أين هو على سطح الأرض، في أي مكان في العالم محطات أرضية تبتُّ، هذه المحطة تقع على خط طول كذا وخط عرض كذا، فالطيار عن طريق بعض الأجهزة يعرف

أين هو دائماً، فلا توجد طريقة ثانية، محطات أرضية تثبت للطائرات أماكن طيرانها فلهذا الطيار يهتدي في الليل لأن معه رادار، معه أجهزة إنذار، معه أجهزة تحكم، أما هذا الطائر هل يتلقى من أجهزة أرضية أين هو في السماء ؟ من يدلّه على طريقه ؟ لذلك هذه الآية تفسّر هذا اللغز المحير الذي حار فيه العلماء..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

أيها الإخوة الأكارم... آية الطيران وحدها من آيات الله الدالة على عظمته.

آية الأسماك:

آية الأسماك لا تَقَلَّ عن آية الطيور، فسمك السلمون ينتقل من شواطئ أوروبا إلى رؤوس الأنهار في أمريكا، ينتقل السمك من شواطئ أوروبا باتجاه الغرب، أيضاً لو انحرف درجة واحدة لجاء في أمريكا الشمالية، لو انحرف درجتين نحو الجنوب جاء في أمريكا الجنوبية، هذا السمك الذي انطلق من رأس النهر في أمريكا يعود إلى النهر ذاته ليموت هناك ويلد هناك.. أما سمك السلمون فله قصة.. إنه حينما يدخل إلى النهر الذي خرج منه يعكس أو يعاكس تيار النهر، أحياناً يصعد في الشلال من تحت إلى أعلى ليصل إلى هدفه.

و هناك سمك كالأفعى ينطلق من ينابيع النيل ليصل إلى البحر المتوسط فينتجه غرباً إلى مضيق جبل طارق وشمالاً ليحاذي إسبانيا ثم يدخل مضيق المانش.. بحر المانش.. ليموت في بحر الشمال، هذه رحلة يعجز عنها أكبر ربّان سفينة، من منابع النيل إلى بحر الشمال، من يهديه إلى طريقه ؟

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

هذه هداية الله للحيوان، وأما هداية الله للإنسان أودع فيه هذا العقل الذي جعله أكرم مخلوق على الله عزّ وجل، أعطاه عقلاً هو أداة معرفة الله، وهو مناط التكليف.

في الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(اَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 20-26

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

غرور الكافرين وهداية المؤمنين

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس السادس من سورة الملك، ومع الآية العشرين:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي

يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21))

أيها الإخوة الكرام... آيات القرآن الكريم مترابطة، وهذا معنى قوله تعالى:

(كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ)

(سورة هود: آية " 1 ")

فالإحكام هو الترابط، فربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(أَلَمْ نُنْثِمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك: آية " 16 ")

عذاب الله غير مأمون:

قد يأتي بالعذاب من تحت أرجلنا..

(أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)

وقد يأتي العذاب من فوق رؤوسنا، وهناك آية تؤكد هذا المعنى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ

بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: آية " 65 ")

فقد يأتي العذاب من السماء حاصباً، وقد يأتي من تحت الأرض خسفاً، وقد يأتي لُغمًا، أو قصفاً، و كل

من أنواع العذاب..

(أَلَمْ نُنْثِمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ)

فإن كنتم قد أمنتُم عذاب الله، فلعلكم تعتمدون على جندٍ لكم يحمونكم من هذا العذاب، فمن هؤلاء الجند الذين يحمونكم ؟ هذا هو أصل الآية..

(أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

أي تضطربُ من تحت أرجلكم..

(أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(18))

لقد أهلكنا المكذبين ودمرناهم، أما الآن فإن هذا الذي يعصي الله وهو مطمئن ثم لا يفكر في أن يرجع إليه تائباً، يقترب المعاصي والآثام دون أن يعبا بالمستقبل، فعلى أي شيء يعتمد ؟ حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ غَنًى مُطْغِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ

مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

فهذا الذي لا يعبا بمنهج الله و لا يلتزم به، و لا يفكر حينما يتحرك أهو على صواب أم على خطأ ؟ يفعل ما يجوز و ما لا يجوز، لا يأبه بكون ربه راض عنه أو ساخط ؟ يتحرك حركة عشوائية و همّه أن يستمتع بالحياة الدنيا دون أن يعبا بخالق خلق، وأمر، ونهى، ولا يعبا بمنهج قويم أرسله الله هداية للعالمين، يعصي الله ولا يعبا بقصص الأنبياء السابقة، ولا بهلاك الأمم السابقة هذا ما موقفه ؟ لعله يعتمد على جندٍ إذا جاء عذاب الله عز وجل يمنعون عنه هذا العذاب !! فهل الأمر كذلك ؟

(أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

أنت في قبضة الله:

أي: أنت في قبضة الله ونحن جميعاً في قبضة الله، ولو كنت مع أقوى الأقوياء، فماذا يستطيع أن يفعل هذا القوي لو أن نقطة من الدم تجمدت في عروق الدماغ فشكّلت خثرة دماغية فأصابته بالشلل أو بالعمى أو بالصمم أو بفقد الذاكرة ؟ فنقطة دم إذا تجمدت في أحد فروع شرايين الدماغ تجعل حياة الإنسان جحيماً، حتى و إن كنت في الدنيا مع أقوى الأقوياء مُلَازماً له، لو كنت كظله، فماذا يستطيع أن يفعل هذا القوي من أجلك ؟

(أَمِنْ هَذَا الَّذِي)

هذا اسمه استفهام إنكاري، ليس لكم جندٌ يحمونكم من عذاب الله..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

((مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ))

(سنن أبي داود)

(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

((اعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ))

(سنن الترمذي: عن ابن عباس)

هذا هو التوحيد، فالإنسان حينما يوحد يرتاح قلبه، كأن الله سبحانه وتعالى يبين لنا قائلاً: أيها الإنسان المعتثر الواهم الجاهل أنت حينما تعصي و تقترب الآثام على ماذا تعتمد ؟ أتعتمد على جند يحمونك من عذاب الله ؟ أتعتمد على قوة تحول بينك وبين قضاء الله وقدره ؟ إنك في قبضة الله..

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

من يملك السمع والأبصار والأفئدة ؟ من يملك الحركة ؟ من يملك العقل في الرأس ؟ إن الذي يفقد عقله يتوسط له أقرب الناس ليجعلوه في مستشفى الأمراض العقلية، فأنت لا تملك عقلك، ولا حركتك، ولا سمعك، ولا بصرك، ولا من حولك، ولا ما حولك..

(أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

إنك حين تُخاصم قوياً وتعتمد على قوي ند له فالأمر معقول، فإن أراد أن يصل إليك احتميت بالقوي الذي تعتمد عليه، هذا هو المنطق، أما إذا كنت تجترئ على الله عز وجل فمن هي الجهة في الأرض التي تستطيع أن تمنع عنك عذاب الله ؟ من هي الجهة في الأرض التي تستطيع أن تحول بينك وبين أمر الله..

(أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ)

إنك حينما تعصي لعلك تعتمد على جهة تحميك من الله عز وجل ؟! و إن هذا لمنتهى الجهل و الغباء و الجنون..

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

حدثني أحد المرضى وهو مصاب بمرض خطير في القلب و مرض خطير في المعدة قال لي: إن أدوية مرض القلب تؤذي المعدة، وأدوية المعدة تؤذي القلب، فماذا أفعل ؟
إننا في قبضة الله، نحن لا نحتمل أي أذى حتى ولو كان مساً، فهناك آلام لا تُحتمل، و هناك آلام تُخرج الإنسان عن طوره.

أيها الإخوة الأكارم... الآية دقيقة، الإنسان حينما يعصي الله على ماذا يعتمد ؟ أحميه ماله ؟.. مرة كنت عند طبيب، فجاءه اتصال هاتفي وقد سمعت بأذني ما يقوله المتصل، لقد كان يقول: أي مكان في العالم أذهب إليه، وأي مبلغ أدفعه، فقال له: والله لا يوجد أمل فالمرض الخبيث للدرجة الخامسة.. فماذا يفعل المال ؟ لا يفعل شيئاً، فلو أنك معتمد على قوي، فالقوي يتخلى عنك في الوقت الحرج أحياناً..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

فالإنسان بالمنطق السليم حينما يخاصم قوياً ينبغي أن يعتمد على قويٍّ ند له، أما إذا أراد أن يخاصم الله عزَّ وجل وأن يعصيه جهاراً، وأن ينتهك حرَّماته ويؤذي مخلوقاته و يتطاول عليهم و يأخذ أموالهم، و ينتهك أعراسهم ولهم ربُّ كبير، فعلام يعتمد في فعله هذا ؟ إنه ضعيف، و الإنسان في قوته، وطغيانه، وجبروته كل حياته متوقفة على نبضات قلبه، فلو توقَّف القلب فجأةً لانتهى الإنسان.

نريد أيها الإخوة أن نأخذ هذه الآية ونطبِّقها تطبيقاً عملياً، كل واحد ممَّا إذا خرج عن منهج الله فما الذي يحميه من عذاب الله ؟ ما الذي يحميه من قضاء الله ؟ ما الذي يحميه من حكم الله ؟ لا شيء، أي أن الله عزَّ وجل له علينا مليون سبيل وسبيل، فكل مكان في الجسم مُعرَّضٌ لورم خبيث، بل إن أحدث الأبحاث الآن تشير إلى أن في الإنسان مورثاً متعلِّقاً بالورم الخبيث، و هذا المورث إما أن يُجمَدَ وإما أن يُفَعَّلَ، ففي أي مكان تنتهي حياة الإنسان عندئذ ؟ إنها قد تنتهي بعد سنواتٍ طويلة يذوق العذاب فيها والشقاء و الإنسان ضعيف، فعلام يعتمد ؟

على ماله ؟ قد تنشأ مشكلة لا يحلها المال.

على من حوله ؟ قد تأتي مصيبة لا يحلها من حوله، فأنت حينما تعصي على ماذا تعتمد ؟.. هنا السؤال..

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

إذا جاء قضاء الله وقدره ما الذي يحميك ؟

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23))

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أي قبل أن تخالف منهج الله و تخترق خطَّ الاستقامة، قبل أن تصل مع الله إلى معصية فُكِّر هل هناك جهة تحميك من عذابه ؟ وعذاباته لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فالذي نسمع عنه أن الإنسان بأجهزته المعقدة، وأعضائه المعقدة، وتركيبه المعقد، هناك مليون خطر ينتظره في جسمه، مليون خطر ينتظره في بيته، في عمله، في سفره، في إقامته، فإن لم يكن على منهج الله، و لم يكن مطيعاً لله، و لم يحتم بحمى الله، و لم يستظل بظل الله و لم يفتقر إلى الله فمن الذي ينجده ؟ من الذي ينقذه ؟ من الذي يحميه ؟

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ)

أيها الإخوة الكرام...

(إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

(سورة الملك)

غرور الكافرين:

الغرور هو أن تتوهم شيئاً لا أصل له، لا أساس له، فالإنسان أحياناً قد يرى عُلْبَةً ثمينة فيظن أن بها شيئاً ثميناً فإذا فتحها لم يجد فيها شيئاً، فنقول: إنه قد اغتر بها، كما أنه قد يُعطي بعض الأشياء حجماً كبيراً فإذا تعمق فيها لم يجدها شيئاً، فالمال مثلاً، الإنسان يظنه شيئاً عظيماً في أول حياته، أما في منتصف حياته يظنه شيئاً ولكن ليس كل شيء، ثم حينما تتكشف الحقيقة يراه ليس بشيء، وهكذا كل حظوظ الدنيا..

(إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

أي أن الكافر لا يوجد لديه إلا حلّ واحد، فإما أن تعرف الحقيقة أو أن تجهلها، فإن عرفت الحقيقة تأدبت مع الله و التزمت أمر الله و بادرت إلى طاعة الله و كنت مستسلماً لله، واعتمدت عليه وحده، فالمؤمن لا يعتمد لا على ماله ولا قوته ولا على ذكائه، لقد قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

فإن عرفت الحقيقة اعتمدت على الله وحده وافتقرت إليه ولذت بحماه، وكان الله ملجأً وحصناً وقوةً لك. أيها الإخوة الكرام... أي شيء نعتمد عليه سوى الله يزيحه الله من تحتنا من أجل أن ننعط، وهذا من محبة الله و تربيته لنا، وذلك من أجل أن نقبل عليه و لا نختر، يقول الله عز وجل:

(إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

معنى ذلك أن الكافر الذي استغنى عن طاعة الله مغرور، فمثلاً: إذا كان هناك شخص معه شيك بمائة ألف، ولكن الشيك مزور وليس هناك رصيد، هو واهم أنه شيكٌ صحيح و مليء.. و كل إحساسه بالقوة مبني على اعتقاده أنه صحيح، فلو اكتشف أنه مزور أو أنه لا رصيد له انهار.. فالكافر على شيء من الغرور، فكل من اعتمد على غير الله فهو مغرور، فقد تعتمد على شخص قوي يتخلى عنك في أخرج الأوقات و أصعبها لأنك كنت مُعْتَرّاً به..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

(سورة فاطر)

قد تعطي الدنيا حجماً أكبر من حجمها بكثير فأنت مغتر بها، وقد يأتي الشيطان فيوسوس فتصدق فكان الشيطان هو الغرور، أي هو الذي أغر الإنسان و غرر به، يقول الله عز وجل..

(اَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ اِلَّا فِي غُرُورٍ)

الكافر حينما يعتمد على جهة غير الله عز وجل يكون مغترّب بها، أي إنه أعطاهها حجماً غير صحيح، توهم شيئاً لا أصل له، هذا فيما يتعلق بالوجود.

البقاء والرزق بيد الله وحده:

أما فيما يتعلق بالرزق، فالإنسان حريصٌ على شيئين: على بقائه وعلى رزقه، أما بالنسبة لبقائك فأنت حيٌّ تُرزق لأن الله شاء لك أن تبقى حيّاً، فإذا أراد الله شيئاً وقع، و كل شيءٍ أراد الله وقع، وكل شيءٍ وقع أراد الله، و أما الرزق..

(اَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

(سورة الملك: آية " 21 ")

فالرزق أصله عند الله عز وجل، فبعض البلاد في إفريقيا أصابها الجفاف سبع سنواتٍ متتالياتٍ فهلك كل شيءٍ، فيقال لك: صقيع بسيط أصاب الغوطتين أنلف المحاصيل، فثمن الفواكه التي تلفت في صقيع بسيط قبل أسابيع مائة مليون، فكانت الخسارة مائة مليون.. أحياناً يصل صقيع إلى محصول أساسي فتبلغ الخسارة ألف مليون، أو ثلاثة آلاف مليون، فالله هو الرزاق، فلو أن الأمطار جاءت موزعة توزيعاً مناسباً لرأيت الخيرات ولأكل الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم..

(وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَقْتَبَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وقس على ذلك القرآن الكريم..

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

(اَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

إذا أقلعت السماء عن أن تمطر فماذا نفعل ؟ إننا سننفد عندئذ معظم المحاصيل، لقد أنتجت بلادنا مرة - بفضل الله ورحمته- ثلاثة ملايين طن من القمح، واحتياجاتنا القصوى مليون طن فقط، وأحياناً تنتج مائتين ألف طن، فلو أن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت فماذا نأكل ؟ فهناك كوارث في بعض البلاد تجعل المحاصيل كلها تالفة، عندئذ ينبغي علينا أن نستورد كل شيء، فترتفع الأسعار إلى درجة جنونية..

(اَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)

هنا توجد نقطة دقيقة: كل واحد منا له عمل، فهو في عمله مادام يملك هذه الإمكانيات.. إمكانيات العمل.. فلو فقد عقله فجأةً انتهى عمله، و كل واحد الله عز وجل يسر له عمل لأن عنده قدرات و إمكانيات، فهذا عمل في التعليم، و هذا عمل في طب، و هذا في الهندسة، هذا في الصناعة، هذا في التجارة، هذا في

الزراعة، هذا في الخدمات، و لولا أن الله سبحانه وتعالى أعطاك بعض القدرات التي توظفها في كسب الرزق، و وَقَفَكَ بعد ذلك لما أتقنت شيئاً، و كل واحد منا له مكان يأوي إليه، له طعام يأكله، له بيت يدخله مساءً، فلولا أن الله تفضل علينا لما أمكننا أن نكسب أرزاقنا، إذاً رزق الله عز وجل يبدأ بماء السماء، يبدأ بالسماء ثمطر، و الأرض تُنبِت.

شيء آخر: لو أن الإمكانات التي أودعها الله في الإنسان سلبت، فلو كان هناك إنسان يحتل مكانة رفيعة وعمل جيد ففقد بصره فجأة، طبعاً إنه سيسرّح من عمله ثم يقول لأحد أصدقائه: والله أتمنى أن لا أملك من الدنيا إلا معطفاً أتسول به على الطريق وأن يُردَّ إليّ بصري، فهناك مصالح أساسها البصر، ومصالح أساسها اليد، يقول الله عز وجل:

(اٰمَنَ هَٰذَا الَّذِي يَرٰزُقُكُمْ اِنْ اٰمَسَكَ رٰزِقُهُ بَلْ لٰجُوا فِيْ عُتُوٍّ وَنُفُوْرٍ)

العتو: العناد، لجوا: ضجروا، فالإنسان المؤمن يتلقى أمر الله عز وجل بالرضا والقبول، أما الكافر يرفض أمر الله عز وجل، لذلك قال العلماء: " هناك معصية أساسها الكبر "، فالكافر الذي يُعاند الحق يستكبر عن أن يطيع الله عز وجل.

(بَلْ لٰجُوا)

أي اضطربوا..

في إصرار ونفور: أي ؛ نفوسهم ابتعدت عن منهج الله عز وجل، فهناك من يحب أمر الله، و يحب طاعة الله، و يحب أن يقوم بشعائر الله عز وجل، وهناك من يرفض هذا كله. ثم يقول الله عز وجل:

(اٰمَنَ يَمْشِيْ مُّكِبًا عَلٰى وُجْهِهِ اٰهْدٰى اٰمَنَ يَمْشِيْ سَوِيًّا عَلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ)

(سورة الملك)

(اٰمَنَ كَانَ مُّؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُوْنَ)

(سورة السجدة)

(اَفْجَعَلُ الْمُسْلِمِيْنَ كَالْمُجْرِمِيْنَ)

(سورة القلم)

(سَآءَ مَا يَحْكُمُوْنَ)

(سورة العنكبوت)

(اٰمَنَ وَعَدٰنَاْهُ وَعَدَاْ حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيْهِ كَمَنْ مَّتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مِنَ

الْمُخْضَرِيْنَ)

(سورة القصص)

(اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اجْتَرَحُوْا السَّيِّئٰتِ اَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ سَوَآءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

سَآءَ مَا يَحْكُمُوْنَ)

(سورة الجاثية)

لا يستوي الأحياء ولا الأموات، لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور..
(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

هنا:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ)

طريق الإيمان وطريق الضلال:

معاني (مكباً):

1- الطريق غير الصحيح طريق وعر فيه مرتفعات و منخفضات وأشواك و حُقر و أكمات، فطريق الباطل طريقٌ وعر فيه ألغامٌ كثيرةٌ جداً، و كل معصية فيها بذور نتائجها، فالمعصية عدوان، عدوان على حق الله، عدوان على الناس، فالإنسان إذا تقلت من منهج الله يكون كمركة خرجت عن الطريق المعبد إلى طريق كلها أحجار وصخور وحفر وأوحال، فالذي يمشي على غير منهج الله عز وجل يمشي مُكِبًّا أي يمشي في طريق وعرة تستلزم أن يقع. و هذا معنى.

2- المعنى الثاني: إذا أغمض الإنسان عينيه وقع، وإذا مشى في طريق وعرة وقع، و حينما ينقطع الإنسان عن الله عز وجل يفقد رؤيته الصحيحة، فما دُمت متصلاً بالله فهناك رؤية صحيحة تهديك إلى سواء السبيل، و هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

هناك من يرى الحق باطلاً، وهناك من يرى الباطل حقاً..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ)

يمشي في طريق وعر، هذا الطريق الوعر من لوازمه أن الذي يمشي فيه يقع على وجهه، والإنسان إذا وقع على وجهه تشوّه، أو أن المنقطع عن الله عز وجل أعمى لا يرى، والإنسان يمشي على طريق معبّدة وفيها منعطفات فلو أطفأ أنوار مركبته فلا بدّ من حادث الإنسان ما دام موصولاً بالله عز وجل فهناك نورٌ يقذفه الله في قلبه..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحديد)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

الإنسان قبل أن يتحرك يتحرك برؤية، فإما أن تكون هذه رؤية صحيحة أو رؤية غير صحيحة، فالمؤمن موصول، إذا نوره في قلبه و رؤيته صحيحة و عمله طيب..

(أَفْمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لم يقل الله عز وجل: أفمن يمشي مكباً على صراط غير مستقيم.. لا.. لأن هذا الذي يتحرك بلا منهج يتحرك بعيداً عن أي طريق، لا سيما الطريق المرسومة المعبدة المسهلة الممهدة، أما الإنسان إذا خرج عن منهج الله لا يُسمى هذا الخروج طريقاً، فقد صار في أرض وعرة ليست طريقاً.. فالآية دقيقة..

(أَفْمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا)

فرافع الرأس أولاً يرى، والطريق ممهد.. إذا يوجد هنا شيان، فعوامل التعثر إما العمى وإما وعورة الطريق...

(يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

المؤمن يحيا على بصيرة:

جمال حياة المؤمن أيها الإخوة وروعته هي أن كل شيء في حياته له حكم شرعي ؛ هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا يفعله وهذا لا يفعله، فالأحكام الشرعية كما تعلمون تبدأ بالفرض، ثم بالواجب، ثم بالمندوب، ثم الإباحة، ثم الكراهة التنزيهية، فالكراهة التحريمية، فالحرام، فأى شيء في حياته إما مباح، أو محرم، أو فرض، أو واجب، أو سنة، أو مستحب، أو مندوب، أو مكروه كراهة تنزيهية أو تحريمية، أو حرام، فهو يمشي على منهج، ومنهج الله عز وجل دقيق جداً يُغطي كل أحواله من دون استثناء، في أخص خصوصياته، في أخص العلاقة بينه وبين أهله، بينه وبين أولاده، بينه وبين جيرانه مع من فوقه، مع من دونه، مع من هم في مستواه، في عمله وفي الطريق، في السفر وفي الحضر، في العلاقات العامة، في العلاقات الدولية، فهو شرع كامل..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

فالإنسان أيها الإخوة حينما يعرف الله المعرفة التي تحمله على طاعته، فهناك معرفة لله عز وجل لا تكفي لطاعته.. فمن قال: " لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله ".

فهل كل إنسان قال: لهذا الكون إله عظيم يكون مؤمناً ؟ هذا الإيمان لا يكفي، فإبليس اللعين قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

هذا إيمان ولكن هذا الإيمان لا يكفي، هذا إيمان إبليسي، لذلك الإنسان حينما يبلغ في الإيمان درجة تحمله على طاعته، فلا شيء أحوج إليه من أن يعرف منهجه..

أهمية المنهج:

أيها الإخوة... الإنسان قبل أن يفكر في طاعة الله قد لا يحتاج إلى منهج الله فسواءً عليه عرفه أو لم يعرفه فإنه لن يطبقه، أما حينما تتنامى قناعاته وينمو إيمانه إلى درجة يعزم على طاعة الله فهو الآن في أمس الحاجة إلى منهج الله، الآن يكون قد دخل في المرحلة المدنية، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله عاشوا في مكة مرحلة مكّية فلما انتقلوا إلى المدينة دخلوا في مرحلة التشريع.

فيتفكر في الكون، يتفكر في السماوات والأرض، يتفكر في خلق الإنسان، يتفكر في طعامه وشرابه، في خلقه، مما خلق ؟ إلى أن يقول: لهذا الكون إله عظيم لا بد من طاعته، و الآن بعد أن يحملك إيمانك على طاعة الله، و بعد أن تعقد العزم على طاعة الله ليس هناك شيء أنت في أمس الحاجة إليه إلا أن تعرف منهج الله، لذلك معرفة الأحكام الشرعية جزء أساسي من الدين، لأنك بالكون تعرفه لكن بالشرع تعبد، ألم يقل الله عز وجل:

(أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

فكيف أعبد ؟ علة وجودنا على هذه الأرض أن نعبد، فلا بد من معرفة أمره، لذلك كل إنسان لا بد من أن يعرف منهج الله في حياته، فالتاجر يجب أن يعرف أحكام البيوع، و كل إنسان في بيته يجب أن يعرف أحكام الزواج، حقوق الزوجة، حقوق الزوج، تربية الأولاد، حقوق الوالدين، حقوق الجيران، البيع و الشراء، صحة البيع، الإنسان في بيته وفي عمله يجب أن يتقن الأحكام الفقهية المتعلقة في بيته وعمله من أجل أن يعبد الله..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

فالعبادة علة وجودنا، فلذلك كان في الدين فيه شيان أساسيان: معرفة الله وطاعته، فإن فعلت ذلك فإنك تسعد بقربه، فمن الممكن أن ينضغط الدين كله إلى كليات ثلاثة: جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، فالمعرفي هو السبب، والسلوكي هو الأصل، والجمالي هو الثمرة، إذاً لا بد من أن نعرف منهج الله..

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فالمنهج الإلهي مفصل إلى درجة أنه لا يجوز لك أن تسوق غنمتين للذبح معاً.. رأى النبي أحد أصحابه يذبح شاة أمام أختها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هلا حجبته عن أختها أتريد أن تميتها مرتين))

رَأَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلًا يَسْحَبُ شَاةً مِنْ رِجْلِهَا لِيَذْبَحَهَا قَال:

((قَدْهَا إِلَى الْمَوْتِ بِرَفْقٍ))

فمنهج الله عزَّ وجلَّ يصل إلى ذبح الحيوان، يصل إلى أدق تفاصيل الحياة، فلا بدَّ من أن نعرف منهج الله، معنى ذلك أن شغل المؤمن الشاغل بعد أن يعرف الله المعرفة التي تحمُّله على طاعته، فالمعرفة المطلقة لا توجد، فلا يعرف الله المعرفة الكاملة إلا الله، وأعظم البشر عرفوا جانباً من كمالات الله، و أنا أقول: حينما تعرف الله معرفةً تكفي أن تعتقد العزم على طاعته عندها أنت في أمسِّ الحاجة إلى منهجه، لذلك المؤمن عرف الله وعرف منهجه، فلم يعد هناك صراعات، ولم يعد هناك تردد..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

فإذا كانت القضية فيها أمر إلهي قطعي أو أمر نبوي قطعي فلا بد من طاعة هذا الأمر أما حينما تأخذ هذا الموضوع وتضعه على بساط البحث وتدرسه، تأخذ به أو لا تأخذ به، فإن قُنِعْتَ به تأخذه، فاطمئن عندئذ أنت لست مؤمناً، فحينما تأخذ أمراً إلهياً، أمراً قرآنياً، أو أمراً نبوياً وتُخضعه للدراسة العقلية تأخذ به إذا قنعت به، ولا تأخذ به إن لم تقنع به فصف نفسك بأنك لست مؤمناً والدليل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

الحرامُ حرام، والمُبَاح مباح، والفرض فرض، والمندوب مندوب، والمستحب مستحب، المكروه مكروه، والمحرمُ محرم، هذا هو المؤمن، وهذه العبادة لله عزّ وجل، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ (أَيَّ أَمْرٍ اللَّهُ) وَرَسُولُهُ (أَيَّ أَمْرٍ رَسُولُهُ) أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

(صحيح البخاري: عن أنس بن مالك)

قد تتألقُ الدنيا أمامك لكن الطريق الذي تسلكه إليها طريق غير صحيح، هذه الدنيا تركلها بقدمك لأنك مؤمن، فالدنيا كلها تحت قدمك أمام طاعة الله عزّ وجل، و هذا هو الحق فالأمر الإلهي لا تخضعه لعقاك وتفكر فيه أفعله أم لا؟ فإن فعلت ذلك فاطمئنن إلى أنك لست مؤمناً حقيقياً...

(اَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ اُهْدَىٰ اَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لذلك رتبة العلم أعلى الرُّتب، فكان الوقت الذي تُمضيه في معرفة الله ومعرفة أمره ونهيه هو أخطر وقتٍ في حياتك، فليس هناك شيءٌ في الحياة الدنيا يعلو على أن تعرف الله وتعرف أمره ونهيه لأنك تسعد بطاعة الله وتشقى بمعصيته، وما من مشكلةٍ على وجه الأرض وفي كل الأزمان إلا بسبب معصية الله، وما من معصية لله إلا بسبب جهل بأمره ونهيه.

فإنّ الإنسان إذا ركب طائرة خاصّة وهو لا يعرف كيف يحركها، فكم هي نسبة وقوع الحادث بالمائة ؟ النسبة هي مائة بالمائة، فأنت تتركب طائرة لا تعرف كيف تحركها ؟! كيف تحلق بها ؟! كيف تهوي بها؟ كيف تخفف سرعتها ؟ معنى هذا أن الحادث محقق، والإنسان في حياته توجد مطبات كثيرة و مغريات كثيرة، فالفتن يقظة، و الشهوات مستعرة، و هناك ضغوط كثيرة ومغريات كثيرة، فلن تستطيع أن تنجو من هذا كلّهُ إلا بمعرفة منهج الله، لذلك المؤمن الصادق يطبّق منهج الله ولا يعبأ بأحد.. قل الله ثم ذرهم في غيهم يعمهون وهذا هو المؤمن. لا يستون .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا)

فالمؤمن رافع الرأس، صحيح الرؤية والطريق أمامه معبّد ؟ أوضح لكم مثلاً: اركب مركبة جديدة على طريق معبّد جيد، إنك لا تسمع لها صوتاً، لكن هذه المركبة لو نزلت بها إلى طريق وعر لكسرتها، لأن هذه المركبة ليست لهذا الطريق بل لطريق معبّد، وإن بُنيتك، ونفسيّتك، وفطرتك، وجسمك، وكل إمكاناتك مصممة بمنهج الله، فالإنسان عندما يتزوّج، وعندما يؤدي العبادات، يضبط لسانه، يضبط سمعه، يضبط بصره، يضبط يده، يضبط رجله، يتحرك وفق منهج الله، يسعد، فالحياة جميلة جداً في طاعة الله، والحياة مريرة في معصية الله، والدليل الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: آية " 124 ")

من: اسم شرط جازم تفيد معنى الشرط، والشرط في الأساس حدثان لا يقع الثاني إلا إذا وقع الأول، يوجد ترابط حتمي بينهما، فإذا قرأت في القرآن جملة شرطية مُصدّرة بمنّ الشرطية فمعنى هذا أنه قانون..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

والله أيها الإخوة... لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفّت، إذا وجد شخص واحد في الخمس قرأت أعرض عن ذكر الله ويحيا حياة طيبة فإن هذا الكلام يصبح ليس كلام الله.. مستحيل.. لأن الله عزّ وجل مُطلق، كلامه مطلق، كلامه قانون..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

قال له: " يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني ؟ قال: عبي قد عاقبتك ولم تدري ".. من مصيبة إلى مصيبة، من مشكلة إلى مشكلة.. شيء ثان:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

اطمننوا أيها الإخوة..

(فَلتُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

رغم أنف كل الظروف، رغم أنف كل العقبات، رغم أنف كل المشكلات..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلتُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً)

آية ثالثة.. والله أيها الإخوة لو أرددها مليون مرّة لا أشبع منها، وهذه الآية تقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: آية " 21 ")

تقول: هذا في الآخرة، لا في الدنيا..

(سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ)

الآخرة مضمونة.. أما الدنيا..

(وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا كلام ربنا، هذا كلام خالق الكون، جربه، لا يمكن لإنسان محسن أن يُعامل كالمسيء، فالشباب مستقيم لا يمكن أن يُعامل بالمنحرف، والإنسان أمين لا يُعامل كالخائن، إنسان صادق لا يُعامل كالكاذب، إنسان مخلص لا يُعامل بالمنافق، إنسان رحيم لا يُعامل كالقاسي.. مستحيل.. كل شيء بثمنه والتمن باهظ.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

شاب مستقيم يغض بصره، يصدق في لسانه، يقيم منهج الله في بيته وفي عمله، يرجو رحمة الله، الملائكة تحوطه من كل جانب، موفق في عمله، سعيد في بيته، هذا قرآن كريم، هذا كلام رب العالمين..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إنسان صادق هل هو كالكاذب ؟ هل الأمين كالخائن ؟ هل المخلص بالمنافق ؟ هل المحسن كالمسيء ؟ هل المتكبر كالمتواضع ؟ هل الرحيم كالقاسي ؟

أقول لكم أيها الإخوة: وعلى مستوى المسلمين كذلك، فعندما يرون أعداءهم بغطرسة واستعلاء وانحراف فلا بدّ من أن يُظهر الله آياته فاطمننوا، مهما تغطرس العدو، مهما تكبر فلا بدّ لله عزّ وجل من أن يظهر آياته الدالة على عظمته..

(قُلْ هُوَ)

(سورة الملك: آية " 23 ")

أي أطيعوا الله الذي يستحق الطاعة، وسيروا على منهجه القويم فهو المنهج الصحيح..

(قُلْ هُوَ)

هناك طاعات لغير الله، وتوجد مناهج غير منهج الله..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أي أطيعوا الذي خلقكم، سيروا على منهج من فطركم..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

الفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر يعني العقل، أي أعطاك سمعاً تتعلم به الحق، وعيناً ترى بها الآيات، وعقلاً يُحاكم ويصل للحقيقة، فأنت من الممكن أن تؤمن بالله من خلال عينيك.. ترى بهما آياته الظاهرة.. وتعرف منهجه من خلال أذنك، وتصدر أحكاماً صحيحة من خلال عقلك، أي أن الله أعطاك قوة إدراكية، فأنت مخلوق تدرك، فهذه الطاولة.. الخشب فيها خلقه الله عزّ وجل.. ولكن الخشب لا يُدرك، الحجر لا يُدرك، الحديد لا يُدرك، الحيوان لا يُدرك، مَيِّزَكَ الله على كل المخلوقات بأن جعلك مدركاً..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أي أطع الذي أنشأك وسر على منهجه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

كيف نشكر نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة العقل ؟ قال: نشكر نعمة السمع بأن نوظفه فيما خُلق له، أي أن نستمتع بالأذن إلى الحق لا أن نستمتع إلى الغناء، كيف نشكر نعمة العين ؟ أن نرى بها الآيات لا العورات من خلال الصحون، كيف نشكر نعمة العقل ؟ أن نُعمَلُهُ فيما خُلق له بالتفكر في خلق السماوات والأرض..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

أي لعلّ الإنسان يوم القيامة يرى نفسه في النار يتلوى في لهيبها، لعل الله عزّ وجل يعاتبه، يقول: أنت وصلت إلى القمر، ووصلت إلى قاع المحيطات، ونقلت الصورة الملونة عبر القارات الخمس، وفعلت المستحيل، وصنعت الهاتف الفضائي، ونقلت كل شيء، ولو بذلت من هذه الإمكانيات التي أعطيتك إيّاها واحد بالمليون لعرفتني.. هناك منجزات في العصر مذهلة، فهناك أشياء مألوفة ولكنها في الواقع مذهلة.. تكتب رسالة وترسلها عن طريق جهاز فتصل في الوقت نفسه إلى أمريكا ؟ هذا شيء منظور للناس جميعاً، هناك أجهزة تقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرفاً في ثانية واحدة ؟ و الآن توجد مؤتمرات صحفية تتم عبر خمس قارات بالأقمار الصناعية.. وهذا إنجاز كبير جداً، فلو بذل الإنسان واحد

بالمليون من هذه الطاقات الفكرية لعرف الله و لسعد به، وقد ورد في بعض الأحاديث في الجامع الصغير.. قال:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى،
وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

الندم لا يُحتمل، إنسان يخسر الآخرة، يخسر الأبد من أجل سنواتٍ معدودة أمضاها في المعاصي والآثام؟!..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24))

سوف تعودون للحساب، كل حركة، وكل سكون، وكل عطاء، وكل منع، وكل غضب، وكل رضا، وكل ابتسامة، وكل عبوس مسجلٌ عليك لماذا فعلت ؟ البطل هو الذي يُهيئُ الله إجابة عن كل شيء يفعلُه الآن..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

لماذا فعلت، لماذا عبست ؟ لماذا ابتسمت ؟ لماذا نظرت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا ظلمت، كل شيء في حسابه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الملك)

(إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الملك)

استهزاء..

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الملك)

أي: أنا أنذركم هذا اليوم أما متى يأتي ؟ فهذا علمه عند الله، قال الإمام مالك - فيما أذكر- أنه رأى في المنام ملك الموت فقال له: يا ملك الموت كم بقي لي من حياتي ؟ أشار له ملك الموت بهذه الإشارة.. خمسة.. فلما استيقظ قلق، يا ترى خمس سنوات ؟ أم خمس شهور ؟ خمس أسابيع؟ خمسة أيام ؟ خمس ساعات، فسأل الإمام ابن سيرين فقال له: يا إمام ما تفسير هذه الرؤيا ؟ قال له: يقول لك ملك الموت: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله..

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الملك)

إخواننا الكرام... هذه الآيات دقيقة جداً، فالذي يعصي الله عز وجل على أي شيء يعتمد ؟ هل يضمن سلامة أجهزته لساعة واحدة؟! من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أعوذ بك من فجأة نفقتك وتحول عافيتك وجميع سخطك))

أحياناً يأتي المرض فجأة.. فيصيب الإنسان بشلل.

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولك العُتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

تلخيص الأفكار:

- 1- أول فكرة: هذا الذي يعصي الله على ماذا يعتمد ؟ هل عنده جندٌ يمنعونه من أمر الله ؟
 - 2- الشيء الثاني: إنسان يعرف الله وله رؤية صحيحة ويمشي على طريق مستقيم كإنسان أعمى يمشي في طريق وعر من مطبٍ إلى آخر، هل يستويان ؟
 - 3 - الشيء الثالث: الله عز وجل أعطانا السمع كي نستمع إلى الحق، والبصر كي نرى الآيات، والفكر كي نحكم الأمور ونأتي بقرار صحيح، فإن عطّلنا وسمعنا وأبصارنا وأفقدتنا كنا كالبهائم.. أي هبطنا عن مستوى الإنسانية.. ثم إن الله سبحانه وتعالى يُنذِرنا:
- (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26))**

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الملك 067 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 23-30

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-05-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم الله على عباده

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع والأخير من سورة الملك، ومع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24))

أيها الإخوة الكرام... الله جلّ جلاله هو الذي خلقنا، إذاً هو الذي يستحق أن نعبدّه وأن لا نعبد سواه.. ((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبدُ غيري، أرزق ويُشكر سواي، خيرني إلى العباد نازل وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبعضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إليّ، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقيطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعائب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أراف بعبدني من الأم بولدها))

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

إذاً هو الذي يستحق أن تعبدوه و تحبوه و تخلصوا له و تطيعوه، و هو الذي يستحق أن تعلقوا عليه الآمال، و هو الذي يستحق أن تتوكلوا عليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ)

أنشأكم وشنق لكم الطريق إليه بأن أعطاكم قدرةً تعرفية (إدراكية) من أجل أن تعرفوه و هذه القوة الإدراكية هي السمع والبصر والفكر.

الأذن:

أيها الإخوة الكرام... إن حاسة السمع من أدقّ الحواس، وحتى هذه اللحظة لا نعرف كيف يستطيع الإنسان أن يفرق بين النغم والضجيج، فكلاهما صوت، و كلاهما موجات صوتية و تبدلات في الوسط المرّن الذي هو الهواء، فلو لا الهواء لما كان هناك صوت.. و رواد الفضاء وهم على سطح القمر يتخاطبون باللاسلكي، فليس هناك صوت بسبب عدم وجود الهواء على سطح القمر، فمن خلق الهواء ؟

إن هذا الوسط المرن إذا أحدثت فيه اضطراباً انتقل هذا الاضطراب إلى أذنك ؟ ومن نعم الله علينا أن هذا الاضطراب يتخامد، ولولا أنه يتخامد لسمعت هنا في الشام كل أصوات الأرض، كل هيجان البحار، كل ضجيج المعامل، كل أصوات الرعود في الأرض، فلولا أن الموجة الصوتية تتخامد لكانت حياتنا جحيماً لا يطاق، وقد جعل الله الصوت ينشأ عن إحداث اضطراب في هذا الوسط المرن، فإنك إذا ألقيت حجراً في ماء راكد رأيت أن حلقات تتباعد، فقد حدث اضطراباً في هذا الوسط المرن فانتقلت أمواج الماء متنامية.. كذلك الصوت في الهواء، فمن الذي خلق هذين الصيوانين بتعاريجهما واتجاه سطوحهما، واختلاف أشكالهما، إنهما المسؤولان عن التقاط الصوت من كل الجهات، و هذا الصيوان من أبدع ما صنع الله عز وجل، فحينما يلتقط هذا الصيوان الأصوات من كل الجهات يسوقها إلى قناة الأذن حيث تصطدم بغشاء الطبل و هذا الغشاء المرن -غشاء الطبل - ترتبط به عظيمات السمع، و عظيمات السمع تكبر الصوت عشرين مرة، فإذا كان الصوت فوق الحد المعقول تخفضه عشرين مرة و نحن لا نعلم في عالم الآلات آلة واحدة تكبر وتخفص في آن واحد، ثم ينتقل هذا الصوت في دهاليز حلزونية فيها أربعون ألف قوس سمعي، هذه الأقواس مرتبطة بالعصب السمعي، إلى أن تصل إلى القنوات وإلى الأذن الداخلية وعندئذ يقف العلم عاجزاً عن فهم كيف أننا نطرب للنغم ونضجر من الضجيج وكلاهما صوت.

ثم إن هذه الأذن تنقل هذا الإدراك إلى الدماغ، والدماغ يفسر ويدرك، و هناك ذاكرة سمعية، فهذه الأذن هي الحاسة الأولى التي نعتمد عليها في الليل، فالإنسان يرى بعينه إلى أن يأتي حاجز يمنع الرؤية، فإذا كنت في غرفة فإنك ترى ما في الغرفة، و إذا كنت قابعاً في البيت فإن أذنك تُعطي كل البيت، فأى حركة وقعت في غرفة أخرى أو خارج البيت تصل إلى أذنك، فأنت بالعين تغطي المكان الذي أنت فيه، و بالأذن تغطي المكان الأوسع ولو كان هناك حواجز تمنع وصل الصورة..
أيها الإخوة الكرام.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ أَفَلَا

تَسْمَعُونَ)

(سورة القصص)

جعل الله السمع الحاسة الأولى في الليل..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ

أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة القصص)

فهذه الأذن تتلقف فيها الأصوات، فلو فرضنا إنساناً يقبع في بيت و عينه تغطي غرفة الجلوس، وأذنه تغطي كل البيت بالأصوات، فلو أنّ حشرة ماتت وتفسّخت لما كشفتها العين ولا سمعتها الأذن فما الذي يكشفها ؟ إنها حاسة الشم، فأنت بهذه الحواس تتصل مع العالم الخارجي، و من أجل التوافق والتكيف مع المحيط جعل الله لك السمع والبصر، ولكن السمع له هدف أكبر وأجلّ و هو أن تستمع إلى الحق، فاللغة أرقى أداة اتصال بين أفراد النوع، فإذا كان هناك إنسان يتكلّم ومجموعٌ كبير يُصغي، فهناك اتصال بينه وبينهم وهذا الاتصال أداته اللغة، واللغة مقاطع صوتية يعبر بمقتضاها عن الفكر وعن الشعور، قال ربنا عزّ وجل عن اللغة:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فالبيان من أخصّ خصائص الإنسان، فالبیان تفهم الكلام المسموع، وبالكلام تفهم النصّ المقروء، وبالكلام تعبر عن أفكارك وعن مشاعرك مشافهة، وبالبیان تعبر عن أفكارك ومشاعرك كتابةً، فهناك أربعة نشاطات ؛ قراءة وسماع، وكتابةً وطق، أما بالكتابة تنتقل المعارف من جيل إلى جيل، وبالترجمة من أمة إلى أمة، فمعارف البشر مترجمة، لذلك قال بعضهم: " ثقافة أمة هي بمثابة عسل استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مرّ الأجيال ". فبالترجمة و اللغة تنتقل المعارف من جيل إلى جيل ومن أمة إلى أمة فإذا معارف البشر مترجمة.

إذا هذه الأذن أداة السمع، أداة سماع الحق، أداة سماع الخبر الصادق، أداة سماع الوحي..

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

العين:

أما العين فقد حارَ فيها الأطباء، فالعين فيها قرنية، والقرنية غلاف شفاف سمّاه الأطباء (غلافًا نبيلاً)، بمعنى أن الغلاف النبيل لا تعترضه أوعية دموية، فلو أن القرنية تتغذى كبقية خلايا الجسم لرأيت الأشياء من وراء شبكة ولكانت الرؤية غير صحيحة (مغبّشة)، فلا بدّ من شبكة أوعية تغذي القرنية، لكن و لأن القرنية يجب أن تكون شفافة مائة في المائة فإن الله قد جعل خلايا القرنية من النوع النبيل، فكل خلية تأخذ الغذاء إلى أختها دون أن تُمدد أوعية بين الخلايا، هذا بالنسبة للقرنية، بعدئذ تأتي الفزحية، وتأتي العدسة المرنة التي حار فيها الأطباء، لأن الشبكية هي المحرق (محرق العدسة)، والشبكية ثابتة والمسافة ثابتة فكيف تقع الأشياء بحركتها العشوائية على الشبكية ؟ فلا بدّ من تحريك المحرق أو لا بدّ من تغيير شكل العدسة، ففي العين العدسة يتغير شكلها من احتدادٍ شديد إلى احتدادٍ قليل، فمن الذي يُعطي الأمر أن يزداد الاحتداد واحد بالألف من المكرون كي يقع الخيال على الشبكية

أثناء مشاهدتك لكرة تتحرك في ملعب أو سيارةً تنتطق من مكان إلى آخر؟ وهذا ما يسميه العلماء (المطابقة) وهي شيءٌ تُحار به العقول، فشبكة العين مؤلفة من عشر طبقات: الطبقة الأخيرة فيها مائة وثلاثين مليون مخروط وعُصيّة، هذه المخاريط والعصيّات تنتهي إلى العصب البصري الذي هو تسعمائة ألف عصب ينتقل إلى الدماغ كي تُقرأ الصورة.

أيها الإخوة الكرام العين من آيات الله الدالة على عظمتها، فبالعين ترى الشيء بحجمه الحقيقي، وبألوانه الطبيعية، وأوضح دليل على ذلك: أنك إذا نظرت إلى مائة رجل ترى كل واحد بلون، أما لو صورتهم بأرقى الأفلام تراهم جميعاً بلون واحد، فالعين البشرية عندها القدرة على التمييز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، العين السليمة تميز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، فترى الأشياء بحجمها الحقيقي وبألوانها الدقيقة، وتراها مباشرة من دون وقتٍ لإظهار الصورة. أيها الإخوة الكرام هذه آية من آيات الله الدالة على عظمتها، فالعين تميز بين درجتين من ثمانمائة ألف درجة للون الواحد، والشيء الذي يُحير العقول هو: لماذا جعل الله للإنسان عينين وجعل له أذنين ؟ لأن الله عزّ وجل لو خلق لك أذنًا واحدة لما عرفت جهة الصوت، فلو كنت بأذن واحدة وسمعت بوق سيارة من خلف فتقترب منها وأنت تحاول الابتعاد عنها فتدهسك، لكن هناك جهازاً في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين والتفاضل بين الصوتين يقدّر بواحد على ألف وستمائة وعشرين جزء من الثانية، والدماغ يعرف عن طريق التفاضل جهة الصوت فيعطي أمراً إلى العضلات للتحرك بعكس جهة الصوت، فأنت بالأذنين تعرف مصدر الصوت، وبالعينين تدرك البعد الثالث، وبعين واحدة ترى الأشياء مُسطّحة، وإنك لن تستطيع بعين واحدة أن تضع الخيط في الإبرة (في سَمّ الخياط)، قد تحاول هذا ولكنك لن تستطيع بسبب وجود عشرة سائتي بينهما، أما بالعينين فإنك ترى العمق، ترى البعد الثالث، فإن الصورة التي تراها العين الأولى تنطبع في مكان في الدماغ، وصورة العين الثانية تنطبع في مكان منزلق عنه، وهذا الانزلاق يشكّل البعد الثالث، فأنت ترى الطول والعرض والعمق بالعينين..

(أَلَمْ نُجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا

أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُ رَقَبَةً (13))

(سورة البلد)

أن تُعَيّق رقبتك من أسر الشهوة، أن تتحرّر من الشهوات، قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الفرج))

فإذا تحرّرت من أسر الشهوات انطلقت إلى رب الأرض والسموات، إذا أشياء كثيرة يمكن أن تُقال عن العين، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

فهو الذي خلق الأذن لا يسمعك ؟ هو الذي خلق العينين لا يراك ؟
(أَيْحَسَبُ أَنْ لَنْ يَغْفِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ
عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

أي هذا الذي خلق العينين يراك، وهذا الذي خلق لك الأذنين يسمعك، ويسمع صوت نفسك، يسمع
خواطرك، يسمع ما تدور به أفكارك، أنت أمام الله مكشوف..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ)

(سورة الملك: آية " 24 ")

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

الدماغ والذاكرة:

هذا الدماغ.. والله أيها الإخوة أقول ولا أبالغ: إن أعظم شيء في الكون هو الدماغ، هناك مائة وأربعون
مليار خلية استنادية في الدماغ، و في أحدث كتاب قرأته عن الدماغ جاء فيه أن هذه الخلايا لم تُعرف
وظيفتها بعد، فالدماغ عاجزٌ عن إدراك ذاته و كيف يعمل ؟ فهناك أربعة عشر مليار خلية قشرية فيها
التخيل و التصوّر و المحاكمة والذاكرة، فما هي هذه الذاكرة ؟ ذاكرة إنسان يعيش ستين عاماً تقريباً فيها
سبعين مليار صورة، ما بين الصور السمعية، والصور البصرية، والصور الشمية، وهناك ذاكرة
للأصوات، فأني إنسان يتصل بك بالهاتف يقول لك: أعرفتني ؟ تقول له: فلان، والشيء الذي يحير
العقول أن كل إنسان انفراد بنبرة صورة خاصة وذلك لكرامته على الله، ففي الأرض يوجد خمسة آلاف
مليون إنسان، كما توجد خمسة آلاف مليون نبرة صوت، وتوجد خمسة آلاف مليون رائحة خاصة بكل
واحد منهم، فليس هناك إنساناً في الأرض يشبهك في الرائحة، وهذا أساس عمل الكلاب البوليسية،
يُعطي قطعة من لوازم المجرم فيبحث عنه بين مائة ألف رجل، فإذا اشم الرائحة نفسها عرف أن هذا
هو المجرم، فالإنسان ينفرد برائحة جلد خاصة، وينفرد بنبرة صوت خاصة، وينفرد بفُرحية لا يشركه
فيها أحدٌ من البشر، لذلك الآن أحدث الأقفال أقفال تعمل على الفُرحية، يضع صاحب القفل عينيه على
التقبين فيُفتح الباب، وأي إنسان آخر لا يُفتح الباب له، وكذلك بصمة اليد، وبلازما الدم، وأحدث بحث
في الزمر النسيجية أنه يوجد اثنين ونصف زمرة حتى الآن، ولا يُستبعد بعد حين أن يُكتشف أن لكل
إنسان زمرة نسيجية خاصة به.

فالإنسان فرد، ولكرامته على الله جعله فرداً ؛ فرداً بشكله، وفرداً ببلازما دمه، وفرداً بقزحيته، وفرداً
بنبرة صوته، وفرداً برائحة جلده، ثم سمح له أن يُشرّع من الآيات الكلية أحكاماً تفصيلية، ثم سمح له أن
يُبدع، ثم سمح له أن يختار، فالإنسان مريد والإرادة من صفات الله، والإنسان مُبدع والإبداع من صفات

الله، والإنسان يُشَرِّع استنباطاً والتشريع من صفات الله عز وجل، والإنسان فَرَدَ والله سبحانه وتعالى فرد، وهذا كله لكرامته على الله..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

ما هي هذه الذاكرة ؟ إنسان في الخامسة والخمسين من عمره انطلق من معمله فلم يتعرّف إلى بيته، فبقي ساعاتٍ طويلةٍ يقود سيارته في شوارع الشام من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها غاب عنه بيته، هذا فقد جُزئي للذاكرة، ويوجد فقد كلي، فإن دخل عليه ابنه فقال له: من أنت ؟ فكل واحد منا خبراته أساسها الذاكرة، كل إنسان صاحب حرفة، أو صاحب شهادة، صاحب اختصاص، طبيب، مهندس، محامي، تاجر، ما خبرته ؟ هي عبارة عن خبرات متراكمة كلها مودعة في الذاكرة، من أعطانا هذه الذاكرة ؟ ولا يزيد حجمها عن حبة العدس، فيها سبعين مليار صورة، وهذه الذاكرة بعضها شمي، وبعضها صوتي، وبعضها شكلي، وبعضها ألوان، أما الأعجب من هذا أن هذه الصور تُرَبَّب في أماكن ثلاث: أماكن في متناول اليد، وأماكن متوسطة، وأماكن بعيدة، وأماكن مهملة، فأني أنت حينما تقتني جهاز هاتف وتُبَلِّغ برقمه فإنك تحفظه فوراً، فهذا يوضع في أقرب مكان ؛ كذلك أسماء أولادك، مهنتك، خصائص حرفتك في أول مكان، أشياء تحتاجها في الشهر مرة فإنها توضع في المكان المتوسط، أما ذهبت إلى بلد بعيد و أعطاك إنسان رقم هاتف أو عنوان، أو رأيت شكله واسمه فإنه يوضع في مكان بعيد، وهذه أشياء تُسْقَطُها من التسجيل، هذا كله تفعله الذاكرة من دون أن تشعر أنت، فهي تصنّف هذه الصور، لكن ما دمنا في الحديث عن الذاكرة فلا بد من أن نذكر أن الاهتمام هو الذي يقوّي الذاكرة، فإذا كنت مهتماً بشيء نمت ذاكرتك وحفظته..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

أي أعطاك قوة إدراكية، أنشأك وسمح لك أن تعرفه، أنشأك وأعطاك أجهزة كي تعرفه، أنشأك وذلك عليه، أنشأك وشق لك الطرق إليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

كيف نشكر هذه النعم ؟؟

أيها الإخوة... ذكرت في الدرس الماضي: أن شكر هذه النعم ؛ نعمة السمع، ونعمة البصر، ونعمة الدماغ أن تعملها لما خلقت له، فهذه العين إذا نظرت بها إلى آيات الله وعظمت الخالق فقد شكرت الله عليها، وهذه الأذن إذا استمعت بها إلى الحق وتأثرت به شكرت الله عليها، وهذا الدماغ إذا أعملته في التعرف إلى الله، وفي محاكمة القضايا المصيرية، وفي فهم القرآن وفي تعليمه فقد شكرت الله عليه.

وكم من إنسان يستخدم هذه الحواس في المعاصي والآثام ؛ يطلق بصره في الحرام، يملأ عينيه من الحرام، يتتبع بهما عورات المسلمين، يستمع إلى اللهو الرخيص، إلى اللهو الذي يَصُدُّ عن سبيل الله، يقتني هذه الصحون ليبقى إلى ساعة متأخرة من الليل يُتابع الفُحش والخنا، هذا كله بالعين، وقد يستمع إلى الأغاني الساقطة بهذه الأذن، ويفكر في المعصية بالدماغ، فشكر هذه النعم أن تعملها لما يرضي الله عزَّ وجلَّ..

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

ذراكم ؛ أي: خلقكم ونشركم، انظر إلى الطرقات في المدينة مليئة بالأشخاص ذاهبين وآيبين، ففي أحد البلدان مشينا أربعمئة كيلو متر ولم يكن هناك انقطاع في البُنيان إطلاقاً، لم يعد هناك مدن وقرى.. مكان واحد متصل، أبنية متصلة.. من ذراً هؤلاء الناس في هذه البلاد ؟ في هذه السهول ؟ في هذه الجبال ؟ في هذه الوديان ؟ في هذه السواحل ؟ في هذه الصحارى ؟ فاركب طائرة وانظر كيف وزّعت هذه البلاد وكيف امتلأت بالناس..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

العودة إليه..

(إِنْ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (25) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

الإنسان حينما يعرف مصيره ينبغي أن يحسب حساباً لهذا المصير..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

أي تحرك كيفما تريد، افعل ما بدا لك، قل ما تريد، وكما قال الله عزَّ وجلَّ:

(اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

كله مسجلٌ عليك..

(سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية " 181 ")

كل حركات الإنسان وسكناته وتصرفاته، قطيعته ووصله، رضاه وغضبه، عطاؤه ومنعه، بشاشته وعبوسه، كل هذا مسجلٌ عليه، ومحاسبٌ عليه..

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

المصير إليه، فالإنسان حينما يُدفن تحت الأرض يُقال له:

((عبيد رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي

الذي لا يموت))

فالمصير إلى الله وهو مطلع علينا وسيحاسبنا على كل أعمالنا، لذلك فإن العاقل هو الذي يفكر في هذا اللقاء الذي لا بد منه، والأحمق هو الذي يعقل عن هذا اللقاء..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

كل متوقع آت وكل آت قريب.. نحن في حياتنا الدنيا نكون في الصيف فإذا بالشتاء قد أتى، و نكون في الشتاء فإذا بالصيف قد حل، فبينما نحن نبحث عن التدفئة إذا نحن نبحث عن المراوح، نبحث عن ثياب تقينا البرد فإذا بنا نبحث عن ثياب خفيفة، إذاً البرد يأتي، والحر يأتي، والأشهر تتتابع، والسنوات تأتي خلف بعضها بعضاً، والفصول تأتي تباعاً، والدنيا ساعة اجعلها طاعة، بربكم أنتم جميعاً كيف مضت أعماركم ؟ كل واحد له عُمر ؛ ثلاثين، أربعين، خمسين، خمسة وخمسين، ستين، كيف مضى هذا العُمر ؟ كساعة من نهار، وهكذا تمضي بقية الأعوام، والدنيا حلم.. " الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ". البطولة تكون عند الساعة التي يُقال لك: اذهب معنا، فتقول: إلى أين ؟ إلى الدار الآخرة، و الإنسان أحياناً ينخلع قلبه من هذه المغادرة، فإذا كان مرتاحاً في بلد ما و يحمل إقامة ثم أُعطي مغادرة بلا عودة، ينخلع قلبه، فكيف إذا كان الأمر مغادرة الدنيا بلا عودة وكل شيء سوف نحاسب عنه؟.. هكذا..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26))

التوقيت عند الله، أما الحدث واقع لا محالة..

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

أي قريباً منهم.

شباب نشأ في طاعة الله:

إخواننا الكرام... الإنسان وهو شاب يكون قوي الجسم، قوي البنية، خفيف الحركة، نشيط، وتوجد عنده آمال كبيرة وعريضة و قد يغفل عن لقاء الله عز وجل، لكن العمر قد يمتد فيصل إلى عمر قريب من المغادرة عندها يعود إلى الله.

ففي بعض الأحيان يكون هناك أربعون أو خمسون إنساناً بسن واحدة، جيران أو طلاب مدرسة، أو زملاء في العمل، أو زملاء في الحرفة، ثم يصلون جميعاً إلى السن الحرج، سن مغادرة الدنيا، فالبطولة أن تعرف الله وأنت شاب، وأنت في ريعان الشباب، وأنت صحيحٌ شحيح، وأنت معافى في جسمك، و قوي في بنيتك، هنا البطولة، ففي خريف العمر أكثر الناس يعودون إلى الله، فتجده يلزم المسجد ولكن أين أمضى شبابه ؟ أين أمضى فتوته ؟ أين صرف قوته ؟ أين أنفق ماله ؟ كيف أمضى السهرات الطوال خلال خمسين عام مع من التقى ؟ إلى أين سافر ؟ ماذا فعل في السفر ؟ أما حينما يصل إلى

السن الحرج.. سن مغادرة الدنيا.. يلزم المساجد، ويؤوب إلى الله و هذا جيد، لكن هذا رجوع فيه ضعف شديد، لأن ريح الجنة في الشباب، فيجب عليك أن تكون مستقيماً وأنت شاب، وأنت في ريعان الشباب، أما:

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

فأنا أقول كما قال هارون الرشيد عندما نظر إلى سحابة فقال: اذهبي أينما شئت يأتيني خراجك. والحقيقة أهل الدنيا مهما امتد بهم العمر، ومهما استمتعوا بالملذات في النهاية إذا حُكموا عقولهم ثانية فإنهم سيعودون إلى الله، فقد يكون الإنسان مُلحداً فيصبح مصلياً، كان فاسقاً ثم بدأ يلتزم، كان لا يعرف أن يقرأ شيئاً من القرآن على الإطلاق فبدأ يتعلمه، كان يمضي السهرات الطوال في أماكن لا ترضي الله والآن عاد إلى الله، لكن الذي لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، أنا لا أغبط إلا شاباً نشأ في طاعة الله، بالبدايات.

إخواننا الكرام... يوجد أشخاص أنا والله أحترمهم، عرف الله في الخمسين، أو في الستين، ولكن بيته غير منضبط وغير إسلامي، فلم يستطع أن يضبط أهله ولا أولاده، الإنسان كلما كان مبكراً في معرفة الله استطاع أن يشكّل حياته تشكياً إسلامياً، فأحياناً يختار حرفة لا ترضي الله فيضع كل خبراته فيها، كما يضع كل رأس ماله ولا توجد عنده غيرها، فيفعلها مضطراً، فكلما كنت مبكراً في معرفة الله المعرفة الحقيقية شكّلت حياتك وفق منهج الله، وهذا معنى قوله تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَاٍ جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة التوبة)

عملك جزء من بنيانك، فالمؤمن الصادق يختار عملاً شريفاً..

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله وأجملوا

(في الطلب واستجملوا مهنتكم))

فلذلك الإنسان حينما يؤمن بالله في الوقت المناسب في سن مبكرة يُشكّل حياته تشكياً إسلامياً، فعملك جزء من بنيانك، وزواجك جزء من بنيانك، ومعارفك وأصدقائك جزء من بنيانك، أحياناً ينشأ الإنسان في بيئة سيئة فهو لاء يشدونه إليهم فكلما تاب توبةً نقضوها له، وكلما عزم على طاعةٍ أفسدوا عليه طاعته، أما إذا آمن مؤمن في سن مبكرة فسيكون كل أصدقائه مؤمنين على شاكلته، لأن هؤلاء يقوونه على الطاعة..

((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))

(مسند أحمد: عن النعمان بن بشير)

((فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

(مسند أحمد: عن ابن ربيعة عن أبيه)

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ الْقَاصِيَةَ))

(سنن الترمذي: عن أبي الدرداء)

فأنا أنصح إخواننا الشباب وأخواننا الشابات أن يتعرفوا على الله في سن مبكرة كي يشكلوا حياتهم وفق منهج الله، فالإنسان أحياناً عندما يتقدم في السن يتكلس عقله ؛ أي: يجمد وهذا التعبير يستخدمه الأطباء، فإذا كان إنسان صالحاً وثبت على شيء صالح فليست هناك مشكلة، فالإنسان إذا نشأ في طاعة الله وتمسك بهذه الطاعة تكلس، ولكنه تكلس تكلساً صحيحاً، أما حينما ينشأ على معصية، أي إذا أمضى حياته في لعب النرد فلا توجد قوة تصرفه عنها، عندها يقول لك: لا أقدر لأنني نشأت عليها، كأن يكون مثلاً قد أدمن التدخين، و توجد أشياء كثيرة إذا الإنسان استعملها تصبح جزءاً من حياته، فالبطولة أن تعرف الله في سن مبكرة كي تشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً بدءاً من زواجك، إلى عملك، إلى أصدقائك، ومن سعادة المرء أن يعيش الإنسان مع من كان على شاكلته، بل إن العلماء يقولون: " إن من أكبر إكرام الله للنبي الكريم أنه اختار له أصحابه ". فإذا كان للإنسان جماعة مؤمنة، صالحة، مستقيمة، نظيفة، طاهرة فهذه من نعم الله الكبرى، فليس هناك أجمل من أن يعيش الإنسان بين أصدقاء مؤمنين يحبهم ويحبونه، يخلص لهم ويخلصون له، ينصحهم وينصحونه، يأخذ بأيديهم ويأخذون بيديه إلى الله عز وجل..

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ)

(سورة الملك)

أنا أعرف رجلاً أصيب بمرض خبيث ولم يُبلغ بهذا المرض، كان في الثامنة والثلاثين من عمره، وكان تاجراً من أبرع التجار، وكان منغمساً إلى قمة رأسه في المِلذَّات، فلما علم الخبر اليقيني جاءته نوبات هستيرية فكان يقول: لن أموت، فلما جاءه ملك الموت أقسم لي رجل يسكن في الطابق الأخير من نفس البناء، قال لي: صرخ صرخة سمعها كل من في البناء. فالإنسان حينما يغادر الدنيا وهو متلبسٌ بمعصيةٍ يُصعق صعقة لو سمعها أهل الأرض لصُعقوا، الإنسان حينما يأتيه ملك الموت إما أن يرى مقامه في الجنة أو مكانه في النار، المؤمن يقول: لم أر شراً قط.. وإن كانت حياته مفعمة بالمتاعب يقول: لم أر شراً قط.. والفاسق وإن كانت حياته مفعمة بالملذات يقول: لم أر خيراً قط..

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً)

أي قريباً منهم..

(سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ)

أَوْ رَحِمًا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (28))

هذا المعنى دقيق جداً أيها الإخوة، إنك تجد همّ الناس الوحيد هو العالم الفلاني والعالم الفلاني، هذا غير فهمان وهذا فهمان، هذا اشترى وهذا فعل، فإذا كان صالحاً فله صلاحه وإن كان سيئاً فعليه إثمه، فلماذا تتدخل أنت في الموضوع ؟ إنك محاسب على عملك، فإذا لم يعجبك كل العلماء فهل تنجو أنت من عذاب الله ؟ لا إنك لن تنجو، فكل إنسان محاسب عن عمله، قد تجد شخصاً عادياً جداً وهمه الوحيد هو أن يُقيم الناس، وأن يوزّع ألقاب المديح والذم كيفما اتفق وهو منغمس بآلاف المعاصي، فإذا أعجبك هذا الإنسان أو لم يعجبك فإن هذا لا يُقدم ولا يؤخر بالنسبة لك..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا)

فهؤلاء الكفار امتلئوا غيظاً من رسول الله، فلو أن الله أهلك النبي وأصحابه فهل ينجو الكافر من عذاب الله ؟ و لو أن الله رحمَ النبي وأصحابه فهل ينجو من عذاب الله ؟ لا، فكل إنسان محاسب عن نفسه، فالنقطة الدقيقة: أنه لا علاقة لك بالآخرين، فلو أن الله شفى نفوس هؤلاء المؤمنين وأكرمهم، فإن الكفار معذبون، ولو أن الكفار شفوا غيظهم من رسول الله فأهلكه فإنهم معذبون أيضاً، فالإنسان لا ينبغي أن يمضي وقتاً في التقييم، وفي القيل والقال، فتقييم الناس من شأن الله.

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً)

(سورة الإسراء)

فأنت أرح نفسك من تقييم الآخرين.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس..

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

كلام دقيق واضح كالشمس.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.. العبرة أن تكون أنت مستقيماً، يولد الإنسان كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا جاء ملك الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، فاعمر قلبك بالإيمان، واجعل علاقتك بالله طيبة ولا تعباً بأحد.. قل الله ثم ذرهم في غيهم يعمهون.. فلو أن الله سبحانه وتعالى أهلك النبي وأصحابه فهل معنى ذلك أن هؤلاء الكفار لن يُعذبوا ؟ أو أن الله رحم النبي وأصحابه فهل معنى ذلك أن هؤلاء لن يُعذبوا أيضاً ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ

الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

(سورة الملك)

أيها الإخوة... من سعادة الإنسان في هذه الدنيا أن يتوكل على الله..

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ)

(أَمَّا بِهِ)

أما بوجوده، وأما بأسمائه الحسنى، وأما بصفاته الفضلى، أما بكماله، أما بوحدانيتها، أما أنه كل شيء، إليه يُرجع كل شيء، وهو القاهر فوق كل شيء.

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

فالتوكل على الله مُريح، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس قاطبة فتوكل على الله، ولكن الناس يجعلون التواكل مكان التوكل، التوكل محلّه القلب، والسعي محلّه الأعضاء، فالناس يجعلون التوكل في الأعضاء أي يتكاسلون، لا يعملون.

تحدثت مرّة عما يسمى بفقر الكسل، وفقر القدر، وفقر الإنفاق، وغنى البطر، وغنى الكفاية، وذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن أحبه بغنى الكفاية:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

غنى الكفاية، أما غنى البطر جعله النبي عليه الصلاة والسلام أحد أكبر المصائب، قال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ غِنًى مُطْغِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

ففقر الكسل مدمّة، وفقر القدر عُذر، وفقر الإنفاق وسام شَرَف..

((يا أبا بكر ماذا أبقيت لك))

قال: الله ورسوله " .. إذا:

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

فمن الصعب أن يحتاط لإنسان لكل شيء، فلا بدّ له من أن يتوكل، و بالتوكل تترتاح أعصابك.. فالיום في الخطبة ذكرت: أن كتاباً عنوانه الشفاء الذاتي من أخطر كتب الطب، يؤكّد فيه مؤلفه أن ثلاثة أرباع الأمراض إما أن تُشفى ذاتياً، وإما أنه لا شفاء لها، وأن هناك أمراضاً مستعصية منذ أن عُرف الطب تُشفى ذاتياً، وهذا شيء يحار به الأطباء، ثم أكتشف إن في جسم الإنسان جهاز مناعة مُدهش، هذا الجهاز جوّال، وهو عبارة عن خلايا بيضاء تجوب في أنحاء الجسم، هذه الخلايا عددها كبير جداً، عند هجوم مرضٍ تتضاعف، وفي حالاتٍ نادرة تتضاعف خمسة أضعاف، وهذه الخلايا البيضاء (الكريات

البيضاء) يستطلع بعضها تركيب الجرثوم أو الخلية الهجينة ويأتي بشفرتها إلى العُقْد اللمفاوية، وفي العُقْد كريات بيضاء مهمتها تصنيع المصل المضاد (معامل سلاح) وتوجد كريات بيضاء مهمتها حمل هذه الأسلحة الفتاكة والذهاب إلى ساحة المعركة ومقاتلة هذا الجرثوم، وتوجد خلايا بيضاء رابعة مهمتها تنظيف أرض المعركة من بقايا الجُثث، فهناك خلايا استطلاعية وخلايا مصيعة، وخلايا مُقاتلة، وخلايا منظفة، ثم اكتشف في أواخر السبعينات أن هناك كريات بيضاء اسمها قاتلة بالفطرة، تستطيع أن تكتشف شذوذ الخلايا قبل أن تُشَدَّ، أي جهاز الشفاء الذاتي، (وهذا متعلق بالأورام الخبيثة) فقبل أن تُشَدَّ هذه الخلايا في نموّها تكتشفها وتقضي عليها.

ثم إن هناك خلايا لتنظيف الجسم، فالإنسان حينما يمتنع عن التدخين تذهب هذه الخلايا إلى قصباته الهوائية وتُأكل ما علق على هذه القصبات من آثار التدخين، أما أهم عمل لهذه الخلايا هو ضبط نمو الخلايا، لذلك أكثر المصابين بالإيدز يصابون بأورام خبيثة لأن هذا الجهاز يتعطل، ففيروس الإيدز هو الذي يقضي على هذا الجهاز المناعي المُدهش، وأغرب ما في هذا الجهاز ذاكرته العجيبة، فإذا هاجم جرثوم، أو عرف تركيب جرثوم (شفرته الكيماوية) فإنه ينقلها إلى معامل تصنيع المصل المضاد، ويصنع مصلاً مضاداً، وهذا المصل المضاد يُحَفِّظ في ذاكرته عشرين سنة، فإذا جاء جرثوم مشابه بعد عشرين عام عرف نوع المصل المضاد فيصنعه ويهاجمه به، ولولا هذه الذاكرة العجيبة لهذا الجهاز لم يكن للتطعيم معنى إطلاقاً، ويقول مؤلف الكتاب: (أما أغرب ما في الأمر فهو أن لهذا الجهاز قيادة من خارج الجسم فلا يُعرَف لهذا الجهاز قيادة داخلية)، ثم يقول: (إن الرضا، والهدوء، والتوازن والحب يقوِّي جهاز المناعة، وإن القلق والحزن والخوف والألم يُضعف جهاز المناعة، ولا شيء كالشرك يجعل حياة الإنسان جحيماً)، ولا شيء كالإيمان يجعل حياة الإنسان نعيماً، لذلك فإن الشرك يُضعف جهاز المناعة ومع ضعف جهاز المناعة تنشأ الأمراض..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللّٰهُ وَمَنْ مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِیْرِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ

الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (29))

السين للاستقبال، أي أن الأيام المستقبلية تكشف الحقائق..

(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللّٰهُ وَمَنْ مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِیْرِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ)

(سورة هود)

يقول الله عزَّ وجل في نهاية هذه السورة: هناك عذاب أقرب من الآخرة، فالآخرة عذابها حق:

فما قيمة هذه البلدة بلا المياه ؟ إنها تُهجر، و ما قيمة هذه البساتين بلا مياه ؟ لقد سمعنا وقرأنا عن أقاليم في إفريقيا أصابها جفاف سبع سنوات فهجرها أهلها، تركوا بيوتهم، و تركوا مدنهم، فما قيمة الحياة بلا ماء ؟ قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنبياء)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا)

والله في بعض الأيام يذيقنا بعض الجفاف، قد تأتي سنواتٌ عجاف تجف المياه، يموت النبات، يموت الحيوان..

(فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

الله جلّ جلاله، أي هناك عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، وعذاب الدنيا تذكري بعذاب الآخرة..

(وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (1-7): تفسير الآيات 1-3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-05-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

قيمة العلم وخطورة الجهل

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة القلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

إن آخر آية في هذه السورة:

(وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

فقد ختمت هذه السورة بوصف الكفار للنبي بأنه مجنون، و الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

من العاقل؟؟

أيها الإخوة الكرام... تروي كُتُب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى مع أصحابه في الطريق مجنوناً، فسألهم سؤال العارف قال: من هذا ؟ قالوا: مجنون، قال:

((لا بل هذا مبتلى، المجنون من عصى الله. " ابن آدم أطمع ربك تسمّ عاقلاً ولا تعصه فتسمّ جاهلاً "،

" وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أيها الإخوة الكرام... يقول عليه الصلاة والسلام:

((أَرْجَحُكُمْ عَقْلاً أَشَدَّكُمْ لَهَاجاً))

لقد مرّة ضربت هذا المثل: لو وضعنا أمام إنسان (قطرميز) من البلور ثمنه عشرون ليرة، وكأس كريستال ثمنها ألف ليرة، وقطعة ألماس ثمنها مليون ليرة، وقلنا له: خذ أيّاً شئت، فأخذ القطرميز لأنه كبير، ألا تحكمون على عقله من نوع اختياره ؟

أيها الإخوة... كل الناس يبحث عن سعادته، يبحث عن سلامته، يبحث عن علوه، وكبر شأنه وتفوقه، فكلنا يحب التفوق والفلاح، والنجاح، والفوز، والرفق، ولكن المؤمن وحده هو الذي عرف كيف يختار؛ إنه يختار الباقية على الفانية، يختار أصل الجمال وهو رب العالمين، أما غير المؤمن فيختار من آتاه الله مسحة من جمال فانية تنقلب وبالاً عما قريب.

لذلك -أيها الإخوة - كان هناك علاقة بين العقل و القلب (أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً) إن المؤمن وغير المؤمن على جبلة واحدة، لكن المؤمن عرف كيف يختار، فكل مخلوق يبحث عن سلامته وسعادته، ويتمنى التفوق في كل مجال، أما المؤمن فإنه قد عرف أصل الجمال، وعرف أصل الكمال، وعرف أصل النوال فأحب الله، لذلك:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)

(سورة البقرة: آية " 165 ")

المؤمن اختار الأصل

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتِكَ فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من

كل شيء))

فالمؤمن جعل الهموم همّاً واحداً فكفاه الله الهموم كلها، المؤمن عمل لوجه واحد فكفاه الله الوجوه كلها..

((من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

والعقل هو الذي يعرف الله، ويعرف منهج الله، ويتقرب إلى الله، والمجنون هو الذي غرته الحياة الدنيا وأضرته " فالدنيا تغرّ وتضر وتمر ". و الدنيا فانية.. " الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ وَلَهَا يَسْعَى مِنْ لَا عَقْلَ لَهُ ".

((الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ))

(مسند أحمد: عن السيدة عائشة)

الدنيا مطيئة.. نفق.. ممر، فهي وشيكة الزوال، سريعة الانتقال، هي دار بلاءٍ وانقطاع، و الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، و هي دار الجزاء والخلود، فالمجنون هو الذي يعصي الله، والعقل هو الذي يطيع الله، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

جواب القسم:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

أيها الإخوة الكرام... لو أنَّ كل من في الأرض كفروا، وانحرفوا، وفسقوا، فالمؤمن الصادق موقن أنه على حق ولا يتأثر ولا يغيّر ولا يبذل، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يكن أحدكم إمعة))

من هو الإمعة ؟ هو الذي إذا أحسن الناس أحسنَ وإذا أسأؤوا أساء، وطن نفسك على أن تكون متيقناً من الحق الذي تعتنقه ولا تبالي بأحد ولا تأخذك بالله لومة لائم.

المدرس أحياناً يمتحن الطالب فيسأله سؤالاً فيُعطي إجابةً صحيحة، فيقول المدرس: لا هذا خطأ، فعندما يكون الطالب غير المتأكد من علمه يتراجع فوراً، أما الواثق يقول له: لا يا أستاذ هذا هو الصواب، فالعبرة أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله حينما عاهدوا الله عز وجل عاهدوه على السمع والطاعة، متى ؟ قال: في السراء والضراء، في المنشط والمكره، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، فأنت عندما تعاهد الله عز وجل فينبغي أن لا تغيّر، وأن لا تبدل..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب)

(ن)

هذا الحرف الذي هو أحد حروف اللغة العربية..

(وَالْقَلَم)

أهمية العلم:

الواو واو القسم، والله سبحانه وتعالى أقسم بالقلم، والقسم بالقلم له معنيان.. فالمعنى الأول: أن الله عز وجل يلفت نظرنا إلى عظمة القلم، والمعنى الثاني للقلم: هو العلم المكتوب الذي ينتقل من إنسان إلى إنسان، ومن بلد إلى بلد، ومن جيل إلى جيل، ومن قارة إلى قارة، فلو لا الكتابة لما انتقل العلم من إنسان إلى آخر، ولا من جيل إلى جيل، ولا من بلد إلى بلد، ولا من قارة إلى قارة، أي كأن الله سبحانه وتعالى يقول: العلم قوام حياة الإنسان لأن الله جلّ جلاله في سورة الرحمن يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

جاء تعليم القرآن قبل خلق الإنسان، هذا الترتيب رُتبي بمعنى أن وجود الإنسان من دون منهج لا معنى له، ولا قيمة له إطلاقاً، فبريكم لو أن أحدكم اشترى آلة غالية الثمن عظيمة النفع ومعقدة جداً، استقدمها من بلد المنشأ ولم يُرسل إليه تعليمات التشغيل والصيانة، فإن أعملها بلا علم أتلفها، وإن لم يُعملها جمدَ ثمنها، ففي مثل هذه الحالة النادرة أليست تعليمات الصانع أهم من هذه الآلة ؟ فماذا يفعل بها ؟ إنها

ستكون عبئاً عليه، فإن شغلها بلا علم أتلّفها، وإن خاف على سلامتها عطّلها، لذلك كتاب التعليمات يعدّ أهمّ من الآلة نفسها، ومن هنا قال الله عزّ وجل:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

فربنا سبحانه وتعالى يُقسِمُ بالقلم ليُلفت نظرنا إلى قيمة العلم، و الإنسان له قوة إدراكية هي سمعه، وبصره، وعقله..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ)

(سورة الإسراء: آية " 36 ")

الفؤاد مع السمع والبصر هو العقل..

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

و الإنسان إذا لم يُعمل هذه القوى الإدراكية يكون دون الحيوان في المرتبة، فما من حيوان إلا ويتفوّق على الإنسان ؛ إن في وزنه، أو في حجمه، أو في سرعة جريانه، أو في طيرانه، أو في قوة إبصاره، أو في قوة شمّة، أو في قوة سمعه، أو في حسن تملّصه، أو في قوة دفاعه، فلا يوجد إنسان إذا قُطِعت يده تنمو له يدٌ جديدة، و هناك حيوانات كثيرة إذا قطعت لها أحد أطرافها نما له طرفٌ جديد من دون جهد، فالنسر مثلاً يرى ثمانية أمثال الإنسان، و الكلب يشم مليون ضعف شَمّ الإنسان، و هناك حيوانات تدرك الزلازل قبل أن تقع، و الإنسان إذا عطّل قواه الإدراكية ولم يعملها في طاعة الله صار الحيوان أفضل منه، لذلك ربنا عزّ وجل أقسَمَ بالقلم لأنه أداة العلم (أداة العلم المنقول) و اللسان أداة العلم المسموع

فمثلاً الإمام الغزالي على علو قدره كان يحضر درسه أربعمئة عمامة، وقد عاش حياته، فلمّا انتهت هذه الحياة انتهى درسه، فما الذي بقي من الغزالي ؟ لقد بقي إحياءه، بقي ألف عام، و الإمام القرطبي كذلك كان له درسٌ في حياته ثم مات القرطبي وانتهى درسه، فماذا بقي ؟ تفسيره، و الإمام الشافعي مات فماذا بقي ؟ فقهه، إذاً ربنا عزّ وجل يلفت نظرنا إلى العلم المكتوب الذي ينتقل من جيلٍ إلى جيل، ومن أمةٍ إلى أمة، ومن قارةٍ إلى قارة، العلم.. فأول آية نزلت في كتاب الله:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

(4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ))

(صحيح البخاري)

فلذلك والله لا أبالغ إن قلت: إنَّ أقدس أوقاتك هو وقتُ تمضيهِ في طلب العلم لأن أعلى مرتبةً عند الله هي مرتبة العلم، و رتبة العلم أعلى الرُّتب، الله عالمٌ يحب كل عالم..

((العالم واحد أشدَّ على الشيطان من ألف عابد))

((إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب))

(سنن أبي داود)

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدنائكم))

(سنن الترمذي)

هكذا قال عليه الصلاة والسلام، فلا يليق بالإنسان إلا أن يكون عالماً أو متعلماً..

قال:

((الناس عالمٌ ومُتعلِّمٌ ولا خيرَ فيما بعد ذلك))

(سنن الترمذي رواه: أبي الدرداء)

((يا بني الناس رجلان عالمٌ رباني ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعا ع أتباع كل ناعق لم

يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق فاحذر يا كميل أن تكون منهم))

فالإنسان إذا لم يطلب العلم، ولا حدَّثته نفسه بطلب العلم، ولم يكن عالماً، ولا متعلماً، ولا مستمعاً، ولا محباً فهو هالكٌ لا محالة، (كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك)، و أبشع شيء في حياة الإنسان أن يكون جاهلاً، وليس هناك أبشع من الجهل لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوّه أن يفعله به، فالجهل أعدى أعداء الإنسان.

أيها الإخوة... والله لا أبالغ إن قلت: إنَّ تسعين في المائة من مصائب الناس بسبب الجهل، وهذه فكرة دقيقة جداً سأضعها بين أيديكم: قوانين الله واقعة لا محالة، إنك إن لم تؤمن بها، أو لم تعبأ بها، أو لم تتفهمها، أو لم تحترمها فهي نافذة فيك شئت أم أبيت، أي إن عدم إيمانك بقانون الله عز وجل و عدم احترامك له، عدم تقديسك إيّاه و عدم تفهمك له لا يحول بينك وبين وقوعه، فهو واقعٌ لا محالة..

((إن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً))

و منهج الله هو تعليمات الصانع، فالذي ينطلق من حبّه لذاته يطبّق تعليمات الصانع لأن العلاقة بين المقدمات والنتائج في هذا المنهج علاقة علمية، فكل سبب له نتيجة.

أيها الإخوة... لقد ورد في الأثر القدسي أن الله عندما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، بك أعطي وبك

أخذ))

فالإنسان في لحظة تفكير مقدارها ثوان ينقذ نفسه من النار.

قصة واقعية:

مرة سمعت قصة قديمة جداً تقول: إن شاباً افتتح مكتبة في بعض أحياء دمشق، و قد أتيح له أن يحج بيت الله الحرام في وقت مبكر، عاد من الحج وله دكانٌ صغيرة يبيع فيه بعض الكتب والقرطاسية، جاءته فتاة غمزت ولمزت، وألانت القول وكأنها تغريه أن يتبعها، وهو شابٌ في مقتبل الحياة، فأغلق محله وتبعها، و في منتصف الطريق فكر.. أنا حجبت بيت الله الحرام فإلى أين أنا ذاهب ؟ فعاد، عاد واستغفر الله و ألق عن هذه النية، وهذا الرجل الحي يُرزق.. في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي، وقد ألقى الله في روعه، وسأله: يا بني هل أنت متزوج ؟ فقال: لا، قال: عندي فتاة مناسبة لك، أرسل أهلك إلى بيتها، فظنَّ هذا الشاب أنَّ في هذه الفتاة علةً منعت زواجها، فلما أخبرته أمه بأنها من أفضل الفتيات وافق على الزواج منها، وجعله عمه شريكاً له في تجارة الزيت، وصار من التجار المرموقين الذين عاشوا حياةً سعيدةً راقية، و كل هذا العطاء بسبب أنه فكر لحظة وعاد واستغفر الله عزَّ وجل. لما خلق الله العقل قال:

((أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ منك، بك أعطي وبك

أخذ))

سيدنا نعيم بن مسعود كان في معسكر المشركين في الخندق، فكر لماذا أنا هنا ؟ لماذا أحارب هذا الرجل ؟ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه رجل يدعو إلى الله، يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر، فكيف أحاربه ؟ و يوجد حديث في السيرة رائع جداً عما دار بينه وبين نفسه من حوار ؟ يُعقل أن أحارب رجل يقول: ربي الله ؟ يدعو إلى الخير ؟ يأمر بصلة الرحم ؟ فتسلل في جنح الظلام إلى رسول الله وأعلن إسلامه، وقال: يا رسول الله مرني ماذا أفعل ؟ قال:

((أنت واحد ماذا تفعل ؟ خذل عنا ما استطعت))

هذا الرجل الصحابي الذي مضى على إسلامه ربع ساعة ذهب إلى قريش ولم يعلموا بإسلامه، وقال لهم كلاماً ذكياً جداً، وذهب إلى اليهود ولم يعلموا بإسلامه وقال كلاماً ذكياً جداً، ووقع الشقاق بين قريش و اليهود..

(وكفى الله المؤمنين القتال)

(سورة الأحزاب: آية " 25 ")

وتفرق الجمع، وولوا الدبر، و كان النصر في هذه المعارك على يد هذا الرجل الذي فكر في دقائق معدودة، لماذا أنا أحارب هذا الرجل ؟ هذا رجل يدعو إلى الله.

أيها الإخوة... لو أن كلاً واحد منّا فكر أنا لماذا أفعل هذا ؟ هذه معصية والأمر بيد الله، صحّتي بيده، أولادي بيده، زوجتي بيده، عملي بيده، رزقي بيده، مكانتي بيده، فكيف أعصيه ؟ كيف أعصيه وأطلب رحمته ؟ فكر فقط، فإن لحظة تفكير تغنيك عن عمل كثير.

أيها الإخوة الكرام... قوام حياتنا العلم، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّه، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً. " يا بني العلم خيرٌ من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق ".

وقصة أخرى...

سائق سيارة أشارت إليه امرأةٌ فوقف لها، فصعدت مركبته، فقال لها: إلى أين يا أختي ؟ قالت: إلى أين تحب، إلى أين تريد أذهب معك، فهم وظنّ أن هذه غنيمة وفرصة لا تتكرر، حقق مطلبه منها، وأعطته فوق ذلك رسالةً وظرفاً فيه خمسة آلاف دولار، بتعبير الجهلة.. شاف ليلة القدر.. هو (شاف) جهنم الحمراء، فتح الرسالة مكتوب عليها سطر واحد وهو: مرحباً بك في نادي الإيدز، وكان المبلغ مزوراً فوضع في السجن.

فلو كان لهذا درس علم، و لو أنه طلب العلم، فإنه لو قالت له: خذني إلى أين تريد فإنه يفتح الباب ويركلها بقدمه، ويحفظه الله عندئذٍ، فالعلم سلاح، و الوقت الذي تمضيه في طلب العلم هو استثمارٌ للوقت وليس هدراً له، أنا يشتدّ عجبني من إنسان تدعوه إلى مجلس علم فيقول لك: ليس عندي وقت فراغ، الجواب: عندك وقتٌ لأي شيء ؟ إذا لم يكن لديك وقت فراغ تعرف أصل دينك، وتعرف كلام ربك، وتعرف منهج رسولك، وتعرف سرّ وجودك وغاية وجودك، إذا لم يكن لديك وقتٌ تعرف الحلال والحرام، ما ينبغي وما لا ينبغي فماذا تفعل إذا ((أم ماذا كنتم تعملون)) فمثلاً لو أن طبيباً أخذ بورداً وجاء لبلده وأسس عيادة، والعيادة بالدين، وهو مختص، وكتب (المراجعة بين الخامسة والثامنة مساءً)، وجاءه إنسان مريض فقال له: والله أنا مشغول، إنني أقرأ جريدة، فإنه يكون مجنوناً حينئذٍ، فهذا وقت العيادة وأنت عليك دين، وأنت مختص وهذا عملك، فأعظم عملٍ تفعله في الدنيا أن تطلب العلم لأن العلم أساس صحة العمل، فلا يصح عملك إلا إذا صحّ علمك، يصح العلم فيصح العمل، و العمل أساس السعادة والشقاء.. فلذلك أقسم الله بالقلم وبناتج القلم..

(وَمَا يَسْطُرُونَ)

الملائكة، العلماء، هذا القلم هو أداة العلم، وهذا الكتاب هو مصدر العلم، القلم أداة والكتاب مصدر..

(ن)

من هذا الحرف، من هذه الحروف نُظِم القرآن، فهو كلام الله، فالحروف بين أيديكم فمثلاً البقرة تأكل الحشيش فتُعطي الحليب، والدجاجة تأكل كل شيء فتعطي بيضاً فيه زلال، و دسم و بروتين، و فيه أربعة عشر فيتاميناً و معادن و أشباه معادن، فهل تستطيع أنت أن تحوّل الذي تأكله الدجاجة إلى بيض؟ هل بإمكانك أن تحول هذا الحشيش إلى حليب ؟ إلى لبن سائغ للشاربين ؟ هذه الحروف بين يديك ؛ ألف، باء، تاء، ثاء، جيم، حاء، خاء.. إلخ، الحروف بين أيدينا فهل يستطيع الإنسان أن يصوغ كلاماً ككلام الله عزّ وجل ؟

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

جواب القسم:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

قد يبدو الإنسان أحياناً أبله عند البلهاء، أما عند العقلاء فهو عاقل، لذلك لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، فصاحب المؤمن الصادق، المخلص، الطالب للعلم، و لا تجالس الأغنياء الجاهلين لأن هؤلاء لا يقيمون لعلمك وزناً، ولا يعجبون إلا بالدرهم والدينار، إنهم ماديّون، يقيمون الناس في حجمهم المالي فقط، فصاحب العلماء، أو طلاب العلم، صاحب الأتقياء الأنقياء، صاحب المتواضعين، صاحب الذي يدلّك على الله حاله، ويدلك على الله مقاله، صاحب المؤمنين لتقتبس من علمهم وأخلاقهم و أحوالهم، لذلك فإن طالب العلم عند المجانين مجنون، أما عند العقلاء فهو عاقل، الآن يوجد سؤال: هؤلاء الذين اتهموا النبي عليه الصلاة والسلام بالجنون، اتهموه في حياته، فلماذا أثبت ربنا جلّ جلاله هذه التهم في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ؟ فلو أن واحداً تكلم معك كلاماً لا يليق بك، فإنه يكون قد تكلم وانتهت القضية وطويت، فلماذا أثبتها الله في كتاب يُتلى إلى يوم القيامة؟؟

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

((يا أيها الذي نزلّ عليك القرآن إنك لمجنون))، لماذا أثبت الله هذه التهم في قرآنه الكريم الذي يُتلى إلى يوم الدين ؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام أسوتنا وقودتنا، فكل من جاء بعد النبي ملتزماً بالحق فعارضه أقرب الناس إليه و عارضه من حوله، و اتهموه بالسفه والجنون فإن له في رسول الله أسوة حسنة، فيقول له: لا تستوحش، و لا تقلق، لأن سيّد الخلق وحبیب الحق، سيد ولد آدم قد اتهم بالجنون، فلا تعباً، فمن عرف نفسه ما غرّته مقاله الناس به..

(قُلِ اللَّهُ تَعَالَى دَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الإنعام)

المؤمن واثق من نفسه، واثق من الحق الذي هو عليه، و واثق من أحقية منهجه، و حتمية النصر، و أن الله عزّ وجل لن يتخلّى عن المؤمنين، فمن ظن أو توهم أن الله لا ينصر دينه، ولا ينصر رسله، ولا

ينصر المؤمنين أبداً، وأنه يقوي الكفرة والفجار تقوية دائمة فهو لا يعرفه، فمن المستحيل أن يبدو إنسان منحرف قوياً جداً ثم ينجح إلى ما لا نهاية فلا بد من أن يُظهر الله آياته في الحياة الدنيا، فماذا يقول الله عز وجل ؟

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

كلام رب العالمين، فأني إنسان قام إلى الله ليدعو إليه، يجب عليه أن يفرّ إلى الله..

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الذاريات: آية " 50 ")

فاتجه إلى الله بإخلاص، وبعزيمة، وبصبر، وبيقين من نصر الله، فإن فعلت ذلك فلا بد لك عندئذ من أن ترى نتائج عملك في الدنيا والآخرة...

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

لا تعبأ بكلام الناس، فالناس الآن يقولون.. متزمت، متفوق، بعيد عن واقع الحياة لا يعرف عن مباحج الدنيا شيئاً، من بيته إلى مسجده، همّ الكتاب والعلم، لا تعبأ بكلام الناس، فلو أنك تأكل أطيب طعام عرفته في حياتك وأحدهم يقول لك: هذا الطعام غير طيب، فمن تصدّق ؟ إنك أنت من يأكل ويتذوق ويتنعم، فالإنسان الذي يسعد بقربه من الله لو عارضه كل الناس لا يعبأ بكلامهم لأنه يزوق طعم القرب من الله عز وجل..

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

غير منقطع بل هو مستمر..

((يا علي لنن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

والله أيها الإخوة... لو كشف لنا الغطاء لوجدت أقوى الناس في الدنيا يتمنى أن يلقي كلمة حق في أذن إنسان، كلمة حق واحدة، ((ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً)) فالدعوة إلى الله صنعة الأنبياء، ((الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً غير الله)) هؤلاء في أعلى مرتبة عند الله عز وجل، لذلك لا تكن قنوعاً في شأن الآخرة، كن قنوعاً في الدنيا ولا تكن قنوعاً في الآخرة، اطلب الجنة في أعلى مراتبها.. لقد قالت السيدة عائشة عن عبد الرحمن بن عوف: " أخشى أن يدخل الجنة حبواً، فقال: والله لأدخلنها خبياً، وما عليّ إن كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ". لذلك إذا عرف الإنسان الله، وعرف سر الحياة كما قال سيدنا علي (ودققوا في هذه الكلمة) قال: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي"، إنه منطلق بأقصى سرعة، هذا الوقت هو أثن شيء تملكه، فبالوقت تطلب العلم، وبالوقت تصلي، وبالوقت تقرأ القرآن، وبالوقت تعلم القرآن، وبالوقت تأمر

بالمعروف، وبالوقت تنهى عن المنكر، وبالوقت تربي أولادك، وبالوقت تهدي الناس، وبالوقت تعمل وتكسب قوت يومك، وبالوقت تسعد، فالوقت وعاء العمل، و الوقت رأس مالك الوحيد فاحرص عليه، لقد هلك المسوفون، فلا تقل: غداً أتوب، غداً أفعل، افعل هذا اليوم..

(وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

أجر مستمر..

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

مرة قرأت آية في تفسير وقد تأثرت من تفسيرها تأثراً كبيراً فجعلتها موضوعاً للخطبة وكانت الخطبة ناجحة جداً، و بعد يومين فكرت فقلت: هذا الذي ألف التفسير قبل ألف عام هو الآن تحت أطباق الثرى، لكن الخير الذي فعله انتقل من إنسان إلى آخر، إلى آخر، إلى مجموعة كبيرة، فترك أثراً قبل أن تموت..

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(صحيح مسلم رواه: أبي هريرة)

حدثني أخ قال لي: في بعض الأماكن أسس أحدهم مسجداً على نفقته الخاصة من أرض، وبناء وأثاث، قال لي: في أول جمعة فُتِحَ فيها المسجد اجتمع الناس فيه، وألقيت خطبة، فجلس الشخص الذي أسسه على كرسي في نهاية المسجد وبكى بكاء لا يوصف من شدة فرحه أن كل من يصلي في هذا المسجد في صحيفته إلى يوم القيامة، فترك أثراً قبل رحيلك، اعمل مثلاً عملاً في مسجد، أو عملاً في العلم، أو اترك أثراً علمياً، اترك دار عبادة، اترك دار أيتام، اعمل مشروعاً خيراً، سنُّ سنة حسنة ليكون لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فما قيمة الحياة الدنيا ؟

انظر إلى هؤلاء الذين يموتون فجأة على غير استعدادٍ للموت، هناك إنسان ترك ثلاثة آلاف مليون وهو من كبار التجار، فمات بحادث، ففقد كل هذه الثروة في ثانية واحدة وسيُحاسب عن أعماله كلها خيرها وشرها، فالإنسان أيها الإخوة حياته محدودة، و السيدة رابعة العدوية سئلت ما الإنسان؟ قالت: هو بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.. " ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فأني لا أعود إلى يوم القيامة " ..

(وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

والله أيها الإخوة لو نعلم ماذا أعدَّ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من أجرٍ كبيرٍ لاستحيا الإنسان منا أن ينام، ورد في بعض الأحاديث:

((ما من يومٍ إلا وملك الموت يقف في البيت خمس مرّات فإذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والصارخة لويلها، والممزقة ثوبها، يقول ملك الموت: فيم الفرع؟ ومم الجزع؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرّبت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودةً ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحداً، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم))

ثم يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه،

ولذهبتُم إلى الصُّعدَات تبكون على أنفسكم))

الانتقال إلى الدار الآخرة سهل؟ كل شيء في الدنيا إلى لا شيء، إلى قبر صغير؟ هل هذا معقول؟ فأعقل عقلاء الأرض هو الذي يعمل لساعة فراق الدنيا. كنت مرة في تعزيةٍ فألقيت كلمة فضربت هذا المثل: إنسان يسكن في بيت مستأجر، ونظام الإيجار في البلد الذي يسكنه أن مالك البيت يستطيع إخراجهِ من البيت بلا سبب، وبلا إنذار مُسبق، وكان لهذا المستأجر بيتاً آخر على الهيكل، وله دخلٌ كبير، فهذا الدخل الكبير أين ينفقه؟ في تزيين البيت المستأجر أم في إكساء البيت الذي على الهيكل الذي سينتهي مصيره إليه؟ القضية تحتاج إلى عقل، فمعظم الناس كل دخلهم ينفقونه على هذا البيت المؤقت، والدليل: اقرؤوا كل النعوات (وسيشيع إلى مثواه الأخير)، معنى هذا أن المثلوى الحاضر هو مثوى مؤقت، فلا نعرف في أي لحظة يصدر الأمر بمغادرة البيت، سيخرج الإنسان عندها مكرهاً، وهذا الخروج من دون عودة، ففي الساعة الثانية عشرة مساءً مثلاً لا يتساءل الأهل: أين فلان؟ لمَ لم يحضر إلى الآن لقد تأخّر، لا يوجد تأخّر عندئذٍ إنه لن يرجع، انتهى إنه ذهب ولن يعود، فلا بدّ من أن ندخل المسجد أفقياً ليُصلّى علينا.

كنت مرّةً في بلدٍ في المغرب فرأيت لوحة صغيرة مكتوب عليها: صلّ قبل أن يُصلّى عليك.
أيها الإخوة...

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ)

لذلك كان العقل في طاعة الله وفي معرفة الله، فالعقل يقتضي أن تفهم كلام الله، وأن تعمل بكلام الله وأن تفهم سنّة رسول الله، وأن تعمل بسنّة رسول الله، والعقل يقتضي أن تفهم سيرة رسول الله فتتأسّى برسول الله، والعقل يقتضي أن تفهم أحكام الفقه وأن تطبّقها، والعقل يقتضي أن تهب حياتك لله..

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

العقل يقتضي أن تفكر في ملكوت الله، أن تعظم الله..

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكّرهم بآلاني، ونعمائي، وبلاني))

لابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم الله من خلال النظر في آيات الله، ولابدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن محبة الله من خلال التفكير في نعم الله، ولا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن خوف من الله من خلال التفكير في بلاء الله.

امرأة أصيبت بمرض خبيث في معيها الغليظ فاستوصل، وكان هناك فتحة خارجية، والكيس ثمنه ثلاثمائة ليرة وكلما امتلأ بولاً وغائطاً كان لابدّ لها من أن تستبدله بآخر، إنسان يغسل كل أسبوع مرتين كليتيه، إنسان لابدّ له من إجراء عملية تكلف الملايين، وإنسان معافى..

((أَحْيُوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ))

(سنن الترمذي: عن ابن عباس)

كان للنبي عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ صباحاً لصلاة الفجر أدعية رائعة، يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روعي))

لأنه قبل أن ينام قال:

((يا رب إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))

و عندما استيقظ قال:

((الحمد لله الذي ردّ إليّ روعي))

فقد وقف بجاهزية تامة، حركته جيدة، سمعه وبصره، عقله في رأسه،

((الحمد لله الذي عافاني في بدني))

وصلّى الفجر

((الحمد لله الذي أدن لي بذكره))

هذا دعاء النبي يومياً..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

هذه إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم إن أراد الله

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (2-7): تفسير الآية 4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-05-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من دروس تفسير سورة القلم، ومع الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

(سورة القلم)

نعمة ربك:

قال بعض المفسرين:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

هي: نعمة النبوة، ونعمة الرسالة و نعمة الهدى و نعمة القرآن، فإذا أراد المؤمن أن يقيس على هذا المعنى كانت هدايته إلى الله عزّ وجلّ من أجلّ النعم، فهناك نعمة الوجود (نعمة الإيجاد)، ونعمة الإمداد، لكن نعمة الهدى والرشاد من أجلّ النعم على الإطلاق، فنعمة الوجود تستمتع بها ما دُمت موجوداً في هذه الدنيا، ونعمة الإمداد تستمتع بها ما دمت موجوداً أيضاً، لكن نعمة الهدى هذه تستمر إلى أبد الأبد، لذلك كانت نعمة الهدى أجلّ نعمة على الإطلاق، فانه عزّ وجلّ قد أنعم على نبيّه الكريم بنعمة النبوة ونعمة الرسالة، ونعمة القرآن الكريم فإذا وصلت لك هذه الرسالة وأمنت بها واستوعبتها و التزمتها، وسعدت بها، فهذه نعمة من أجلّ النعم، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

يقول الإمام علي رضي الله عنه: " فليُنظر ناظرٌ بعقله، هل أكرم الله محمداً أم أهانه حينما ذوى عنه الدنيا ؟ فمن قال: أهانه فقد كذب، ومن قال أكرمه فقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".
الهدى تمام النعمة:

و النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يصلي قيام الليل لم تتسع عُرفته الصغيرة جداً لصلاته ونوم زوجته، فهو لم يؤتَ من الدنيا شيئاً، لقد جاء إلى الدنيا وغادرها ولم يترك شيئاً، لكن أجلّ نعمة على الإطلاق أنعم الله بها عليه أنه قد عرف الله، وكان نبياً و رسولاً وأوتي القرآن، لذلك فإن كل إنسان اهتدى كان في صحيفته إلى يوم القيامة، لقد أرسله الله رحمةً للعالمين، فهو نعمة مزجاة ورحمة مهداة، فإذا أردت أن تفهم هذه الآية فهماً شخصياً و أن تطبقها على نفسك، فاعلم بأن الله قد أكرمك بأفك تعبد

خالق السماوات والأرض، فهناك شعوبٌ تعبد البقر، وهناك شعوبٌ تعبد النار، وهناك شعوبٌ تعبد الأعضاء الجنسية، وهناك شعوبٌ تعبد الجرذان..

نعمة الهدى أيها الإخوة هي أجل نعمةٍ على الإطلاق، قد لا يبدو لك حجم هذه النعمة وأنت في الدنيا، فهناك أناسٌ كثيرون كلهم يأكل ويشرب ويتحرك ويعمل، ويشترى البيت، ويتزوج، وينجب، أما حينما يقوم الناس لرب العالمين ويمتاز المجرمون عن المؤمنين، وتكون أنت في صف المؤمنين، عندئذٍ تعرف معنى نعمة الهدى، لذلك قالوا: (إن تمام النعمة الهدى)، فإذا أردنا أن نفهم ذلك بشكل توضيحي نقول: إذا فرضنا أن الصحة هي صفر إلى جانب الواحد، والزوجة صفر آخر إلى جانب الواحد (صار المجموع مائة)، والأولاد صفر ثالث، والدخل الكافي صفر رابع، والصحة صفر خامس، والمكانة صفر سادس، فالهدى هو الواحد، فإذا ألغيت الواحد قلن تجد شيئاً أبداً..

يا رب ماذا فقد من وجدك؟ إنه لم يفقد شيئاً، وماذا وجد من فقدك؟ لم يجد شيئاً، وهذه الفكرة أيها الإخوة فكرة دقيقة وخطيرة، فحينما تشعر أنك تملك أجلاً نعمةٍ على الإطلاق؛ - نعمة الهدى ونعمة الالتزام - اهتديت إلى الله، والتزمت شرعه، وما فاتك شيءٌ من الدنيا، ولم تأسَ على ما فات، يقال عن سيدنا الصديق رضي الله عنه أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فالإنسان أحياناً قد يفوته البيت المناسب وبيته صغير، وقد تفوته الزوجة التي كان يتمنى أن تكون له، وقد يفوته الأولاد الحُباء، وقد يفوته الدخل الكبير كذلك، فيبقى طيلة حياته نادباً حظه، لكن المؤمن الحق حينما يعرف الله عزَّ وجل لا يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، فحينما تعرف الله حق المعرفة لا تندم على شيءٍ فاتك من الدنيا قط، تقول الآية الكريمة:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

إلا أن أهل الدنيا يقيسون الناس بالمادة، بالمال، بمُتَع الحياة الدنيا، بالبيت، بالمركبة، وإنَّ من علامات آخر الزمان أن يكون قيمة الرجل متاعه، أي أنه يستمد مكانته من موقع بيته، ومن مساحة بيته، ومن تزيينات بيته، ومن أثاث بيته، ومن نوع مركبته، ومن رقم يضاف إلى نوع مركبته، فيستمد مكانته فقط من متاعه، بينما قيمة الرجل الحقيقية هي ما يُحْسِنُهُ، إذا:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

من عرف الله وعرف منهجه ومكُنَّه الله من طاعته لا ينبغي أن يندم على شيءٍ فاته من الدنيا، فكل ما في الدنيا عرضٌ زائل يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل، وكل ما في الدنيا إلى زوال ويبقى الواحد الديان، يبقى الواحد القهار، تبقى الجنة بنعيمها، والنار بعذابها.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

مقام النبي عليه الصلاة والسلام:

أيها الإخوة.. إنني أريد أن أقرب هذه الآية إلى الواقع، فالآية تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أي: لقد قالوا عنك إنك مجنون لكنك سيد الخلق وسيد ولد آدم، وأنت الرابع الأول و الناجح الأعظم وأنت المفلح المتفوق.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

وقد منحك الله النبوة.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ)

وقد جعلك الله رسولاً، و أقول لكم هذا الكلام الدقيق، إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فقد أعطاه لقارون وأعطاه لعبد الرحمن بن العوف، و الله يعطي الملك لمن يحب ولمن لا يحب، فقد أعطاه لسليمان وأعطاه لفرعون، لكن العلم والحكمة لا يعطيها إلا لمن يحب..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص)

فإذا كان أحدكم أيها الإخوة على شيء من الهدى و معرفة الله و طاعته، وكان يرجو رحمته ويخشى عذابه و يعمل للجنة، فينبغي ألا يندم على شيء فاته من الدنيا، لأن الدنيا تنطوي بكل ما فيها، و الإنسان حينما يموت ماذا تنفعه مساحة بيته ؟ أو موقع بيته ؟ أو حجم دخله ؟ أو مستوى زوجته ؟ أو مكانته الاجتماعية ؟ كله انتهى، و لا يبقى إلا العمل الصالح.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ)

لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

الممنون:الأجر المنقطع، من (مَنْ) بمعنى: قطع، و الآن دققوا أيها الإخوة: الدنيا كل ما فيها لا يعدُّ عطاءً لأنه منقطع، فمهما كنت متمتعاً بصحةٍ عالية، فإن الموت سينهي صحة الصحيح، و مهما كنت متمتعاً بدخلٍ كبير، فإن الموت سينهي المال، و مهما كنت متمتعاً بمكانةٍ عليية فإن الموت سينهي هذه المكانة، و مهما كنت متمتعاً بأسرةٍ راقية فإن الموت سينهي هذه الأسرة، إذاً فعطاء الدنيا ممنونٌ أي مقطوع، لكن عطاء الآخرة غير مقطوع..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)

و الإنسان مفطور على حب وجوده وسلامة وجوده و كمال وجوده واستمرار وجوده، فكل عطاء في الدنيا ينهي الموت، لكن عطاء الآخرة عطاءٌ أبديٌّ سرمدي، لذلك لا يليق بك ولا بعقلك الراجح أن تسمي عطاء الدنيا عطاء، فالعطاء الحقيقي عطاء الآخرة.

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))

فكفار قريش نعيمهم ممنون مقطوع، انتهى بهم عند الموت، و النبي عليه الصلاة والسلام رأى قتلى بدر من كفار قريش فخطبهم بأسمائهم واحداً واحداً فقال لهم:

((يا فلان، يا فلان، يا فلان، يا فلان.. بأسمائهم.. هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتُموني وصدقني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس، وخذلتُموني ونصرني الناس، قالوا: أتخطب قوماً جيفوا يا رسول الله ؟! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)) بطولتك عند هذه الساعة التي لا بدّ منها، فإما أن تكون من الفائزين، وإما أن يكون الإنسان الضال من الخاسرين.

الآن الآية التي إن قرأتها مائة ألف مرة لا تشيع منها:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

أولاً ربنا جلّ جلاله هو ذاتٌ كاملة في أسمائه الحسنی وصفاته الفضلی فهو رحيمٌ، كريمٌ، عدلٌ، غفورٌ، قويٌّ، عزيزٌ، لطيفٌ، فلا يستطيع مخلوقٌ أن يتقرّب إليه ويسعد بقربه إلا بالكمال، لذلك كان دين الله دين الكمال و دين الرحمة و دين العدل و دين المصلحة العامة و دين الإنصاف، فالله جلّ جلاله ذاتٌ كاملة، ولا يتقرب إليه المتقربون إلا بكمالٍ هو وسيلتهم إليه، و أحكام الشريعة كلها عدلٌ و رحمةٌ و إنصافٌ و لطفٌ، فقد قال أحد العلماء: (الشريعة عدلٌ كلها، رحمةٌ كلها، مصلحةٌ كلها)، فكل قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة و لو أدخلت عليها ألف تأويلٍ وتأويل، فلو قرأت الفقه في أبوابه كلها و دققت في كل مسائله ؛ العامة والخاصة، الشخصية والاجتماعية، والنفسية، والتعبديّة، لوجدت أن كل هذه الأحكام ترشدك إلى الموقف الكامل، الموقف العدل، الموقف المنصف، الموقف الرحيم، الموقف اللطيف، إذاً فمنهج الله عزّ وجل قائمٌ على الخُلُق، والنبي عليه الصلاة والسلام لو لم يكن في أعلى درجة أخلاقية، لما قنعت أنت بهذا المنهج فالمنهج بشكل نظري لا يقنع إلا أن يجسد بسلوك، فذلك كان للأنبياء مهمتان: مهمةٌ بيانية ومهمةٌ قيادية، فالمهمة البيانية أن يبيّن لك ما تفعل وما لا تفعل، لكن مهمة القدوة هي أن يكون كاملاً، لذلك يقول الله تعالى:

(وَإِنَّكَ)

يا محمد، و(إن): حرفٌ مشبّه بالفعل يفيد التوكيد..

(لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

و(اللام) لام التوكيد أيضاً، فاللام الواقعة في جواب إن هي لام التوكيد، (على): تفيد الاستعلاء، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس ذا خُلُق، بل هو على خلق وشتانَ بين المعنيين، إذا قلت: النبي على خلق أي متمكنٌ من مكارم الأخلاق، و الإنسان أحياناً قد يقع في صراع بين أخذٍ ورد، وإقدام وإحجام، وإنفاذٍ ومنع، ثم ينتصر على نفسه بعد شق النفس، هذا ذو خُلُق، لكن الذي (على خلق عظيم) هو في أعماق الكمالات لأنه متمكنٌ من أخلاقه فلا يحتاج إلى أن يشعر بالصراع مع نفسه.

بيان الشيء إما وصفي أو كمي:

أيها الإخوة... أريد أن أضع بين أيديكم الحقيقة التالية: إن الشيء إما أن يبين وصفيًا أو كميًا، فقد يقول لك أحدهم: أنا معي مائة ليرة، فكلمة مائة ليرة هذه هي مبلغ كمي، أما إذا قال لك أحدهم: أنا معي مبلغ كبير، فهذا بيان وصفي، فهناك بيان كمي و بيان وصفي، و قد يقول لك قائل: بيتي كبير و يقول لك آخر: بيتي مساحته ثلاثمائة متر، فتلاثمائة متر بيان كمي، أما (كبير) فهي بيان وصفي، و ربنا عز وجل وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم، فكلمة (عظيم) هل هي كميّة أم وصفية ؟ هي وصفية.

الآن نقطة ثانية: لو أن طفلاً صغيراً قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فبكم تقيم هذا المبلغ ؟ طفل عمره ثلاث سنوات قال لك: أنا معي مبلغ كبير، قد يكون مبلغه الكبير خمس ليرات، وقد يكون عشر ليرات.. أما إذا قال لك أحد أكبر أغنياء العالم: أنا معي مبلغ كبير، فهل تشبه كلمة الصغير كلمة الغني، فالصغير قال: أنا معي مبلغ كبير، وهذا الثري قال: أنا معي مبلغ كبير، كلمة كبير من الصغير كم، وكلمة كبير من الكبير كم كذلك، فالله العظيم الذي خزائن الكمالات و مكارم الأخلاق كلها من عنده يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

فكم تبلغ أخلاق النبي ؟ فالعظيم يَصِفُ النبي بأنه ذو خلق عظيم، و قد كان للنبي عليه الصلاة والسلام صفات أخرى كان من الممكن أن يمدحه بها، فقد كان خطيباً من الطراز الأول، وكان القائد الأول وكان السياسي الأول، وكان أعلم العلماء و أنزه القضاة و أعظم المجتهدين وكان ذا ذاكرة قوية، فقد حفظ القرآن الكريم من دقته إلى دفته وقد كان يتلى عليه مرة واحدة، فكل الصفات التي يفخر بها الناس كان عليه الصلاة والسلام قمة فيها، فلماذا أهملها الله كلها، وحينما أراد أن يمدحه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

لأن الإيمان هو الخُلُق، والذي يُفَضِّلُكَ في الخلق يفضلك في الإيمان..

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

صور من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم:

وفاؤه للأنصار:

النبي عليه الصلاة والسلام بعد غزوة حُنين، وبعد توزيع الغنائم جاءه سعد بن عبادة فقال له: يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، قال:

((يا سعد أين أنت منهم))

أي هل أنت معهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اجمع لي قومك))

فجمعهم، وقام النبي عليه الصلاة والسلام فيهم خطيباً.. لكن قبل أن أتابع القصة أريد أن أسأل: متى كان هذا ؟ كان هذا بعد أن فتح النبي عليه الصلاة والسلام لمكة المكرمة التي ناصبته العداء عشرين عاماً، وبعد أن انتصر على هوازن في حنين و دانت له الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وصار النبي صلى الله عليه وسلم سيّد الجزيرة كلها، وأصبحت بيده أقوى قوة، وجد عليه الأنصار في أنفسهم، قال:

((أين أنت منهم يا سعد))

قال له: ما أنا إلا من قومي، قال له:

((اجمع لي قومك))

فماذا فعل النبي ؟ لقد كان من الممكن أن يُلغي وجودهم كما يفعل الأقوياء، هذا احتمال ممكن، وكان من الممكن أن يهدرَ كرامتهم، و إذا قال: هم منافقون، انتهوا إلى الأبد، وكان من الممكن أن يهملهم، وكان من الممكن أن يعاتبهم لصالحه، فماذا فعل ؟ لقد وقف فيهم خطيباً.. ودققوا فيما سأقول.. وذكرهم بفضلهم عليه، فقال:

((يا معشر الأنصار أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، و مخذولاً

فنصرناك، و عائلاً فأغنيانا))

لو قلتم هذا لكنتم صادقين والناس يصدقونكم..

((يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي))

لم يقل: فهديتكم، فانظر إلى التواضع

((ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألّف بين

قلوبكم، يا معشر الأنصار أوجدتم عليّ في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى

إسلامكم ؟ أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ لو سلّك

الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء
(أبناء الأنصار))

قال: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم.
هذه وفاء للذين نصرّوه في بادئ الأمر فهو لم يتخلّ عنهم، و لم ينسَ فضلهم عليه، أكان هذا رحمة أم
حكمة أم حسن سياسة أم تواضع ؟

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

رحمته بالأطفال:
كان عليه الصلاة والسلام يصلي صلاة الفجر وكان يطيل القراءة فيها وهذا من السنة، فسمع بكاء طفل
صغير ينادي أمه ببيكائه فقرأ الإخلاص وسلم، قال:

((سمعت طفلاً يبكي فرحمت أمه))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تجاوزه عن المسيء:
ارتكب أحد أصحابه وهو حاطب بن أبي بلتعة ما يسمى بالخيانة العظمى في العُرف الحديث، فقد
أرسل كتاباً إلى قريش قبيل فتح مكة قال فيه: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذرکم " فهذا كتاب سري
يذهب من صاحبي اسمه حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش، أرسله مع امرأة وضعت في ضفيرة
شعرها، فجاء النبيّ الوحي وأخبره بما حدث، فأرسل سيدنا علي إلى منتصف الطريق بين مكة والمدينة
ليأخذ الكتاب من المرأة، وأخذه منها، وجاء به إلى النبي، فتحه وقرأه " من حاطب بن أبي بلتعة إلى
قريش: إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذرکم " فماذا قال سيدنا عمر ؟ قال: يا رسول الله دعني أضرب
عنق هذا المنافق، فقال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((لا يا عمر إنه شهد بداراً))

فما هذا الوفاء و ما هذه الرحمة ؟ قال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت))

((قال: والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتدت ولكني لصيقٌ في قريش ففعلت هذا لتكون لي عندهم

يدٌ أحمي بها أهلي ومالي، فاغفر لي ذلك يا رسول، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

لقد أنهضه من كبوته، فقد رأى البعض الذنب خيانة عظمى فتمنى قتله، لكن النبي صلى الله عليه وسلم
رأى صاحب الذنب، رأى منه زلة قدم، ونكسة طارئة ألمّت به، فأنهضه، وبعد حين جعله مندوباً
شخصياً له عند بعض الملوك وذلك لينسى زلته السابقة.

خلق جديد

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يلهو مع الأطفال، فقال له أحدهم: تعال نلّه، ولكنه حينما كان صغيراً دُعي إلى اللهو، فقال:

((أنا لم أخلق لهذا))

و حينما جاءت رسالته الهدى وحُمِلَ أمانة التبليغ دعت زوجته السيدة خديجة لأخذ قسطٍ من الراحة، فقال لها:

((انقضى عهد النوم يا خديجة))

إنه شعور بثقل الرسالة وبِعَظَم هذه المسؤولية.

عفوه عن أهل مكة:

لقد آذاه أهل مكة و أخرجوه منها، واثتمروا على قتله، ونگلوا بأصحابه وعذبوهم، وهجوه بأشعارهم، وناصبوه العداء عشرين عاماً، ولكنه لما فتح مكة وجد عشرة آلاف سيفٍ تنتظر كلمة منه، و كان بإمكانه أن يلغي وجود كفار قريش جميعاً، لكنه قال:

((ما تظنون أي فاعلٌ بكم؟))

قالوا: أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

و حينما ذهب مكة فاتحاً كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بغيره تواضعاً لله عزّ وجل.

لقد ذهب إلى الطائف مشياً على قدميه مع سيدنا زيد وعلق على هدايتهم الآمال فإذا هم يردون دعوته ويسفهونها، ويكذبونه، ويسخرون منه، بل أغروا سفهاءهم بضربه، وسال الدم من قدمه الشريفة، وألجؤوه إلى حائط إلى بستان، وجاءه جبريل وقال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، فلو شئت لأطبقت عليهم الجبلين.. فقد مكّنه الله من أن ينتقم منهم، وأن يلغي وجودهم.. لكنه قال:

((لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

صبره على أزواجه:

جاء السيدة عائشة مرة طبقُ طعامٍ من السيدة صفية، فأصابتها الغيرة فأمسكت الطبق ورمته أرضاً من شدة غيرتها، فماذا بإمكان النبي أن يفعل ؟ لقد كان بإمكانه أن يفعل كل شيء، لكنه قال:

((غضبت أمكم، غضبت أمكم))

و كان إذا دخل بيته بَسَاماً ضَحَاكاً، وكان يقول:

((أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم، وأنا

أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

قال مرةً:

((أوديت في الله وما أودى أحدٌ مثلي، وخفت وما خاف أحدٌ مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً لم يدخل

جوفي إلا ما يواريه إبط بلال))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

دخل بيته مرةً فقال:

((هل عندكم من طعام))

قالوا: لا، قال:

((فإني صائم))

جوده عليه السلام:

حينما أكرمه الله بالمال سأله واحدٌ من الناس: لمن هذا الوادي من الغنم ؟ قال:

((هو لك))

قال: أتَهْزَأُ بي ؟ قال:

((هو لك))

قال: اشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

امُتُّنَ بالنصر فكان كاملاً، و كان ذا خلق عظيم، و امُتُّنَ بالقهر في الطائف فكان ذا خلق عظيم

وقال:

((إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي ولك العتبي حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

امُتُّنَ بالفقر فكان ذا خلق عظيم، امُتُّنَ بإشاعةٍ طارت في أرجاء المدينة بأن السيدة عائشة وقعت في

الفاحشة، فمن منا يتحمّل هذا الخبر ؟ تأخر الوحي أربعين يوماً فماذا فعل ؟ كان صابراً.

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تأثيره على من حوله:

جلس عمير بن وهب في مكة المكرمة مع صفوان بن أمية و قال: يا صفوان لولا ديون لزممتي ما

أطيق سدادها، ولولا أولادٌ صغار أخشى عليهم العنتُ لذهبتُ إلى محمد وقتلته وأرحتكم منه، فقال

صفوان: أولادك أولادي ما امتدت بهم الحياة، وديونك علي بلغت ما بلغت فامض لما أردت، فسقى

سيفه سماً وحمله على عاتقه وتوجّه لتقاء المدينة، وصلها رآه عمر فقال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً، فقيّده بحمالة سيفه وقاده إلى النبي، قال له:

((يا عمر فك قيده، فك قيده، قال: "يا عمر ابتعد عنه"، فابتعد عنه، قال: "يا عمير إدن مني" فدنا منه، قال: "ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟" قال: جئت لأفدي ابني، قال له: "وهذه السيف التي على عاتقك؟" قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال: " ألم تقل يا عمير لصفوان كذا وكذا وكذا))

فوقف وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله، وأسلم، يقول سيدنا عمر: دخل عمير على النبي الكريم والخنزير أحب إلي منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أبنائي، لا شك أن هناك شيئاً مؤثراً في النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه قوة تأثير عجيبة، جعلت عميراً يتغير خلال دقائق، فهذه النورانية، وهذا الحب الشديد، وهذه الصلة بالله عزّ وجل، أعطته قوة تأثير مذهلة، جعلت عدواً يقف أمامه، يقول له: والله يا محمد دخلت عليك وما على وجه الأرض أحدٌ أبغض إلي منك، والآن ما على وجه الأرض أحدٌ أحب إلي منك، فما هذا السر ؟

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

تفاضل المؤمنين بأخلاقهم:

إخواننا الكرام... المؤمنون يتفاضلون فيما بينهم بخلقهم، دققوا في هذه المقولة التي قالها أحد العلماء: من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان، والإيمان بلا خلق شيء لا قيمة له على الإطلاق، هو ثقافة، عادات، تقاليد، فلكلور، الدين بلا خلق يفقد قيمته، لذلك ترى قلة قليلة من أصحاب رسول الله وصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا، وترى كثرة كثيرة من المسلمين يعدّون مليار ومائتين مليون ليست كلمتهم هي العليا، وللکفار عليهم ألف سبيل وسبيل.

فمن منا يصدّق أن سيدنا الصديق أرسل سيدنا خالداً إلى بلاد فارس على رأس جيش قوامه ثلاثون ألفاً ليفتح بلاد فارس، فلما وصلها واجهه الفرس بجيش قوامه مائة وعشرون ألفاً، فما كان من سيدنا خالد إلا أن أرسل رسولا إلى الصديق يطلب فيه المدد، فانتظر و انتظر، ثم جاءه المدد، فهل جاءه خمسون ألفاً ؟ ثلاثون ؟ لا، لقد جاءه رجل واحد، فسأله: من أنت ؟ قال أنا القعقاع بن عمرو، قال: فأين المدد ؟ قال له: أنا، قال له: معي كتاب، قال: افتح الكتاب... من عبد الله أبي بكر إلى خالد بن الوليد أحمد الله إليك، لا تعجب يا خالد من القعقاع بن عمرو، والله الذي لا إله إلا هو إن جيشاً فيه القعقاع بن عمرو لا يمكن أن يهزمه أحد، وانتهت المعركة بالنصر، هكذا ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه.

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أيها الإخوة، نحن الآن بحاجة إلى خلق عظيم، لا إلى معلومات كثيرة وسلوك منحرف لا... فهذا الخلق هو الذي ينفعنا عند الله، هو الذي يكون سبباً لاستحقاقنا النصر من الله عز وجل.

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

لذلك جاءت الآية الكريمة.

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

قصته مع عدي بن حاتم:

سيدنا عدي بن حاتم ملكاً من ملوك الغساسنة، جاء إلى المدينة قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "من الرجل ؟" قال: عدي بن حاتم، فرحب بي أيما ترحيب وقام وانطلق بي إلى بيته، فهذا تكريم له، ولم يكن عدي متأكداً من كون هذا الرجل ملكاً أم نبياً ؟ لأن أخته سقانة قالت له: إن كان نبياً تسعد به، وإن كان ملكاً تأخذ منه، لقد اتضح الآن أنه نبي، ففي الطريق.. استوقفته امرأة طويلاً فوقف معها يكلمها في حاجتها، فقال: والله ما هذا بأمر ملك، فلما دخل بيته قذف إلي وسادة من آدم محشوة ليفاً ليس عنده غيرها، قال:

((اجلس عليها))، قلت: بل أنت، قال: " بل أنت))، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض، قال: "إيه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً" قلت: بلى، قال: "أو لم تسر بقومك بالمرباع" قال: قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل في دينك ((

مناقشة دقيقة، أنت ركوسي، وتأخذ من قومك الربع، وهذا لا يحل لك في دينك، فكيف تفعل هذا ؟.. قال: فعلت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل، قال:

((إيه يا عدي بن حاتم لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجته))

أي أن المسلمين فقراء..

((وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي أن يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوك، وايم الله ليوشك أن تسمع بالمرأة البابية تحج هذا البيت على بغيرها لا تخاف، ولعله يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من ضعفهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابية مفتحة لهم))

وعاش عدي بن حاتم ورأى كل هذا بعينه.

تواضعه الشديد:

كان إذا دخل أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أيكم محمد ؟ ألم يكن له مقعد خاص ؟ لا، فقد كان يجلس مع أصحابه، و كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس.

قراءة السيرة فرض عين:

اقرؤوا سيرة النبي أيها الإخوة، اقرؤوها لأن قراءتها فرض عين، هل تصدِّقون ذلك؟؟ إن قراءة سيرة النبي فرض عين، طالبوني بالدليل إن شئتم، الدليل: أن هناك قاعدةً فقهية تقول: ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، فالصلاة فرض، والوضوء فرض، لأن الصلاة لا تتم إلا به، و ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، لكن الله جلّ جلاله حينما أمرنا قال:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

فكيف يكون النبي أسوةً حسنة لك ؟ إن لم تعرف سيرته، إن لم تعرف أخلاقه، إن لم تعرف أخذه وعطاءه، إن لم تعرف رحمته، إن لم تعرف لطفه.

لطفه عليه الصلاة والسلام:

مرة كان في مجلس فصلى أصحابه الظهر ثم أكلوا لحم جزور، ثم دخل وقت العصر، ثم اشتموا رائحة لا ترضي، فمن الذي ينبغي أن يتوضأ ؟ هذا الذي انتقض وضوءه، فقدر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سوف يخجل خجلاً شديداً، فقال:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضأ قالوا : كلنا أكلنا، قال:كلكم فليتوضأ))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تحمروا الوجوه))

لا تخجل إنساناً، وهذا من خلقه العظيم، فيجب علينا أن نقرأ سيرة النبي كي نقتله، لأن الله عزّ وجل لم يقبل دعوة محبته إلا باتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

في بيته، في ثيابه، في طعامه، كان عليه الصلاة والسلام يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد، قال:

((لو دُعيت إلى كراع بالغنيم لأجبت))

لو دعي إلى مؤدم خارج المدينة للبي الدعوة، دخل مرة إلى أحد أصحابه فقدم له خلاً وخبزاً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الخل))

ما عاب طعاماً قط في حياته ولم يمدحه، فهناك كثير من الأشخاص يتحدث عن الطعام بطريقة تجعلك تشتهيها، أما هو عليه الصلاة والسلام فما عاب طعاماً قط ولا مدحه، وما رُئي ماداً رجليه قط بين أصحابه وهو سيد الخلق.

حلمه صلى الله عليه وسلم:

وعده شخص فانتظره ثلاثة أيام، فلما رآه قال:

((يا أخي لقد شققت علي))

أتعبتني، أما الآن فلو تأخر أحدهم عن الموعد ربع ساعة لقامت عليه الدنيا ولم تقعد، أما النبي عليه الصلاة والسلام فتأخر الرجل عليه ثلاثة أيام ما زاد عن أن قال:

((لقد شققت علي يا أخي))

أما في بيته كان يركب الحسن والحسين على ظهره ويقول:

((نعم الجمل جملكما ونعم الحملان أنتما))

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

اقرأوا سيرة النبي وقُلُودُه واقتفوا أثرها، واتبعوه كي نسعد في ديانا وأخرانا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (3-7): تفسير الآيات 4-9

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-05-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الالتزام بمنهج الله وضرورة البعد عن مداينة الكافرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة القلم، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

بين الفطرة والكسب:

أيها الإخوة الكرام... هناك نقطة دقيقة جداً في موضوع ثناء الله عز وجل على نبيّه الكريم بأنه ذو خلق عظيم لم تذكر في الدرس الماضي وهي: أن الإنسان لا يتقرب إلى الله إلا بما هو كسبي، أما ما هو فطري فلا يتقرب به إلى الله عز وجل فمثلاً: لقد أودع الله في قلب كل أم محبةً أبنائها، فالأمّهات جميعاً في الأعم الأغلب يحببن أولادهن، لكن الرحمة

التي تتقرب بها إلى الله هي الرحمة العامة؛ وهي أن ترحم جميع الخلق، أن ترحم كل الأولاد وكل الناس الذين من حولك، فالشيء الفطري لا يمكن أن تتقرب به إلى الله لأنه من عند الله فلو أن هناك مخلوقاً مثلاً يرى ثمانية أضعاف الإنسان، فهل يعقل أن يكون هذا المخلوق أقرب إلى الله من الإنسان؟ إن الله هو الذي أعطاه هذه القدرة على الرؤية، ولو أن هناك مخلوقاً له قدرة على الشم تفوق قدرة شم الإنسان بمليون ضعف، فهل يعدّ هذا أقرب إلى الله؟ لا لقد أردت من هذين المثليين أن أنفد إلى السؤال الآتي: لماذا حين أراد ربنا جلّ جلاله أن يثني على النبي عليه الصلاة والسلام لم يثن على علمه، ولا على اجتهاده، ولا على خطابته ولا على قيادته، ولكنه أثنى على خلقه؟

الخلق أيها الإخوة بتعريف جامع مانع هو ضبط الذات، وأي أمر إلهي يحتاج إلى الصبر، فالصلاة تحتاج إلى صبر لأن الاستلقاء (أريح) أكثر راحة للجسم من الصلاة، فصلاة الفجر قبل الشمس تحتاج إلى صبر، و الصوم أيضاً يحتاج إلى صبر، و الحج يحتاج إلى صبر، كما أن غضّ البصر و ضبط اللسان و الأذن يحتاج إلى صبر، و البيع والشراء كذلك، ففوق البيع والشراء وفق منهج الله عز وجل تماماً أمر يحتاج إلى صبر، و أن يكون احتفالك وفق منهج الله أمر يحتاج إلى صبر، فأساس الأخلاق ضبط الذات، وأساس ضعف الأخلاق التقلت من الضبط، فالضبط شيء كسبي، أي أن الله عز وجل أودع في الإنسان الشهوات، فهذا الإنسان حينما يخاف مقام ربّه ينهى نفسه عن شهواتها، فهذا شيء كسبي يُرقي الإنسان ويقربه من الله، و هذا هو الخلق، فبالخلق نرقي إلى الله، أما الذي أوتي قدرات معينة فتفوق بها، فالتفوق بهذه القدرات لا يقربه إلى الله.

والله عز وجل وزع القدرات بين الناس بشكل عجيب، فهناك إنسان يملك ذاكرة قوية جداً، و إنسان يملك قوة محاكمة قوية جداً، و إنسان يملك طلاقة لسان كبيرة جداً، وإنسان يملك قوة شخصية، وإنسان يملك قوة إقناع، إنسان يملك ذكاءً اجتماعياً، فهذه القدرات العامة والخاصة التي أودعها الله في الإنسان إذا تفوق بها لا يرقى بها عند الله لأنها ليست من كسبه إنما هي هبة من الله عز وجل، فالله قد أعطى الفيل حجماً كبيراً، و أعطى الطاووس منظراً جميلاً، و أعطى الكلب حاسة شم عالية جداً، و أعطى الصقر رؤية قوية جداً تبلغ ثمانية أضعاف رؤية الإنسان، و أعطى كل حيوان شيئاً، فهذا الشيء الفطري الوهبي، لا يرقى به إلى الله.

أما الشيء الكسبي فهو الذي يربيك عند الله عز وجل، وإن من أعلى أنواع الكسب ضبط الذات، فعلى الإنسان أن يضبط ذاته، فقد أودع في الإنسان مثلاً حُب المرأة، فغض البصر ضبط للذات، و أودع فيه حُب الفضول، فضبط اللسان عن قصص الناس وعن سقطاتهم يحتاج إلى جهد، و من هنا كان التكليف، و التكليف ذو كلفة، فأنت بحاجة إلى كلفة، تتكلفتها من أجل أن تصل إلى الله عز وجل، فلذلك يجب أن نأخذ من هذه الآية حقيقة خطيرة وهي أن القدرات التي أودعها الله فيك، والتي تزهو بها على الناس أحياناً، أو تتفوق بها لا تقربك إلى الله عز وجل، ولكن ضبط الذات الناتج عن شعور بأن الله عظيم، وأن طاعته واجبة، وأنه ينبغي عليك أن تنتهي نفسك عن الهوى، هو الذي يقربك من الله، لذلك كان غرض البصر، وضبط اللسان، وحسن الخلق، والمسامحة والعفو، والسخاء والكرم هو الذي يرقى بك إلى الله عز وجل، فحينما أراد الله أن يثني على النبي صلى الله عليه وسلم ما أثنى على كونه أعظم خطيب في العالم، ولا على أنه أعظم قائد في العالم، ولا على أنه يملك ذاكرةً مدهشة، رغم أنه عليه السلام قد حفظ القرآن الكريم من أول مرة أنزل، عليه، فمن يملك هذا ؟ فهناك قدرات عالية جداً أعطاها الله للنبي عليه الصلاة والسلام، أما حينما أراد مدحه مدحه بأخلاقه.

وبالمقابل فلو أن الإنسان تفوق في علم شرعي ولم يكن ذا خلق حسن فإنه لا يرقى عند الله على الرغم من أنه أتقن علماً من علوم الشريعة و تفوق فيه حتى أصبح مرجعاً، فإن لم يكن ذا خلق عظيم فإنه لا يرقى عند الله عز وجل.

فعندما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن حقيقة الإسلام قال سيدنا جعفر: " كُنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ".

فالإسلام ذو مضمون أخلاقي، بل إن أحد العلماء الكبار يقول: " الإيمان حُسْنُ الخلق فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الإيمان ". والخلق هو ضبط للذات، وقد وصف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الإيمان في بعض الأحاديث الجامعة المانعة التي فقال:

((الإيمان الصبر والسماحة))

فذكر الصبر، و معنى هذا أنك في دار التكليف، والتكاليف كلها في الأصل تتناقض مع الطبع وتتوافق مع الفطرة، وهذا كلام دقيق، فالطبع أقرب إلى الجسد، والفطرة أقرب إلى النفس، وأوضح مثل على ذلك أنه عندما ينام الإنسان الساعة الثانية ليلاً ويستمتع إلى أذان الفجر في الساعة الرابعة يكون أمامه فراشٌ وثير، ونومٌ لذيذ، لكن المنادي يناديه لصلاة الفجر، فلو أن الإنسان استجاب لنداء جسده وبقي نائماً واستيقظ الساعة التاسعة، لشعر بانقباض شديد. وسبب هذا الانقباض أن جسده مُرتاح لكن التكليف الذي تركه أزعج نفسه، أما حينما يزعج جسده ويستيقظ ويصلي ثم ينام فإن نفسه ترتاح، إذاً فالتكاليف تتناقض مع الطبع، والطبع مرتبط بالجسم، والتكاليف تتوافق مع الفطرة، والفطرة مرتبطة بالنفس. فيا أيها الإخوة الأكارم... عندما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((بني الإسلام على خمس))

عنى بكلامه أن الإسلام شيء، والخمس شيء آخر، فالخمس هي أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وهذه أعمدة، أما الإسلام فهو بناء أخلاقي قائم على الصدق الأخلاقي، أما الصدق المبني على الذكاء وانتزاع إعجاب الآخرين فليس هذا هو المراد، فإنسان لا يصلي مثلاً لكنه لا يكذب ولا يغشّ الناس، هو ذو أخلاق ناتجة من ذكاء ومصلحة، فمصلحته تقتضي أن لا يكذب، و ليست هذه الأخلاق هي التي أرادها الله عزّ وجل، لكن الأخلاق التي أرادها الله عزّ وجل هي أخلاقٌ اشتقت من اتصالك بالله، كالصدق الأصيل الذي لا تبتغي به إلا وجه الله، والأمانة المذهلة التي لا تبتغي بها إلا وجه الله أيضاً، فالصدق، والأمانة، والإخلاص، والعدل، والإنصاف، هذه كلها هي القيم الأخلاقية التي اشتقت منها من خلال اتصالك بالله وهي التي أرادها الله، أما التي تمارسها انطلاقاً من مصلحتك الدنيوية لتنتزع بها إعجاب الآخرين فلا ترقى بك عند الله عزّ وجل أبداً، فأخلاق المصلحة أخلاقٌ تنتهي مع الدنيا، أما أخلاق العبادة فتتفعلك إلى أبد الأبد.

الدين حسن الخلق:

إخواننا الكرام... إن الدين هو حسن الخُلق، و إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، إنّ أفضل المسلمين إسلاماً أحسنهم أخلاقاً، و أفضل شيء ترقى به عند الله هو حُسْنُ الخُلق، والنبي عليه الصلاة والسلام وصفه الله عزّ وجل بأنه ذو خُلق عظيم، فالحقيقة التي سأخصّها الآن هي أنّ القدرات الوهبية

الفطرية التي أودعها الله فيك ووهبك إيّاها لا تقرّبك إلى الله مهما تفوّقت بها على الناس، أما الذي يقرّبك إلى الله فهو ضبط الدّات، و ضبط الدّات يعني الأخلاق، فالأخلاق تعني أنك إذا أردت وجه الله و رضاه والقرب منه ضحييت بحظوظ نفسك، فلا بدّ لك من أن تضحي بشيء من أجل شيء وهذه سُنّة الله في خلقه، فهذه الدنيا خضرة نضرة إن ضحييت بها من أجل أن ترضي الله عزّ وجل نلت رضاه، فلذلك جاء الحديث الشريف:

((ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما))

أي أن يكون تنفيذ أمر الله، وتنفيذ أمر رسوله أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، فأحياناً قد يتعارض النصّ القرآني والنبوي مع مصلحتك، فقد يكون الإنسان مثلاً يسكن بيتاً فخماً جداً على قانون الإيجار القديم و أجرته في الشهر مائة ليرة والقانون في صالحه، فهو محميّ من أن يُخالف، لكن أحياناً يرى أن القرب من الله عزّ وجل أثمر عنده من هذا البيت فيضحي به ويُقدّمه لصاحبه من دون أن يأخذ شيئاً ليرقى عند الله عزّ وجل، فمعنى أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، أي من الدنيا وما فيها، فحينما تؤثر طاعة الله و تطبيق سنة رسول الله على حظّ من حظوظ الدنيا، و تؤثر أن تكون مع الله على أن تكون الدنيا بحوزتك فإنك عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان، والله عزّ وجل إذا أذاقك حلاوة القرب منه أنساك الدنيا وما فيها..

فليتك تحلو والحياة مريّة
وليتك ترضى والأنام غضاب
ويا ليت الذي بيني وبينك عامرٌ
وبيني وبين العالمين خرابُ
وليت شرابي من وداك سانعٌ
وشربي من ماء الفرات سرابُ
أقول لعدّالي مدى الدهر أقصروا
فكل الذي يهوى سواه يعاب
* * *

هذا القرب من الله لا يعلمه إلا من ذاقه فذاق حلاوة الإيمان

((ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما))

والحقيقة أنه لن يُفتح لك باب السماء و لن تذوق حلاوة الإيمان إلا إذا استوى عندك التبرُّ والتراب.. لقد سأل رجل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: لمن هذا الوادي ؟ وكان وادياً من الغنم، فقال: " هو لك"، قال: أنهزأ بي ؟ قال: " لا والله هو لك"، فقال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر..

فإن قَدِّمْتَ المالَ لإنسانٍ لتقرِّبه إلى الله كنت أنت الرابح الأكبر، وأحياناً قد تضحي بالدنيا من أجل هداية إنسان، والله عزَّ وجل لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

أيها الإخوة.. إن قضية الأخلاق من أهم القضايا، فبالأخلاق تستطيع أن تجذب الناس إليك، فلماذا يخرج الناس من دين الله أفواجا؟ لأن هناك شخص يصلي ويكذب، يصلي ويأخذ ما ليس له، يصلي ويحتال على الناس، يصلي وينغمس في ملذاته ويغطيها بفتاوى ضعيفة، فهذا الإنسان الذي ليس أخلاقياً، لا يرقى عند الله ولا يستطيع أن يجذب الناس إليه ولو أدى العبادات كلها كما جاءت، أما حينما تؤثر طاعة الله على حظوظ نفسك لتكون أخلاقياً إلى أعلى درجة عندئذٍ يسمح الله لك أن تكون باباً له، و لا يسمح الله لك أن تكون باباً له حتى تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

لذلك -أيها الإخوة- عندما مدح ربنا عزَّ وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه ((ذو خُلُقٍ عَظِيمٍ)) فمعنى ذلك أن الخُلُقَ العظيم هو الذي يقرِّبك إلى الله عزَّ وجل.

وهناك شيء آخر أود ذكره: وهو أنه حينما سئلت السيدة عائشة عن خُلُقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن، إنه حلم ما بعد حلم، و لطف ما بعده لطف، ووفاء ما بعده وفاء، و تواضع ما بعده تواضع، و إنصاف ما بعده إنصاف.. قال عليه السلام:

((إنما أهلك بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))

هذا عدل ما بعده عدل، و رحمة ما بعدها رحمة.. لقد كان يصلي بأصحابه صلاة الفجر فسمع بكاء طفلٍ صغير ينادي أمه ببيكانه فقرأ الإخلاص وسلم، رحمةً بهذا الصغير. وقد كان أصحابه أيضاً ذوي قلوبٍ مفعمة بالرحمة و العدل و الإخلاص و الحب، أما الآن فإنك تجد ملياراً ومائتي مليون يصلون، والمساجد عامرة والحمد لله، والأعداد غفيرة، وكل المساجد تحتاج إلى توسعة والحمد لله، لكن أين نصر الله؟ أين وعد الله عزَّ وجل.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور 55)

فأين الاستخلاف؟ وأين التمكين؟ وأين التطمين؟ والسبب ما جاء في قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَـدْهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

تأديب الله عز وجل لعباده المؤمنين:

أيها الإخوة الكرام... سئل عليه الصلاة والسلام: ما هذا الخُلُقُ العظيم؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

دققوا في إجابته، بماذا أجاب ؟ إن هناك خُلُقاً أساسه التفكير، فإذا كان الإنسان ذكياً جداً انتزع إعجاب الناس بصدقه و أمانته، وحقق مصالحه بإنصافه، فهذا الخُلُق هو خلق المصلحة، و خلق الذكاء لا يرقى بك إلى الله.

فهذا هو تأديب الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمؤمن أيها الإخوة له في النبي أسوة حسنة، فالله هو من يؤدِّبه، فأحياناً قد يتكلم المؤمن كلمة فيها شطط فيحجبه الله.. قال له: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرملك لدّة مناجاتي ؟.. فالله أحياناً يحجب، فإذا كان الإنسان غالياً على الله فكيف يؤدِّبه ؟ معاذ الله أن يفضحه، معاذ الله أن يشمت به أعداءه، إنه يحجبه عنه، وهذا أحد أنواع التأديب (الحجاب)، يحجبك عنه فتبحث عن السبب، فلذلك قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

أحياناً قد يتكلم الإنسان كلمة تكون سبباً في حجابه.. لقد ذكر لي أخ كريم أنه تكلم كلمة ينبغي أن لا يقولها فكانت السبب في فشله، و قد كان متفوقاً جداً في عمله، لقد قال: إن تصليح هذه الآلة يكلف ساعة ساعتين، فمضى أول يوم و ثاني يوم ثم ثالث يوم ورابع يوم حتى مضى ثمانية أيام بالتمام والكمال والطريق أمامه مسدود، ثم راجع نفسه قائلاً: أين الخلل ؟ لقد تكلم كلمة كان ينبغي أن لا يقولها مع صاحب المعمل فتأب منها، واعتذر إلى الله وأغلب الظن أنه تصدّق، و في اليوم التالي حُلّت القضية في ربع ساعة، فهذا من تأديب الله عز وجل، فالإنسان قد يتكلم كلمة فيحجبه الله بها، أو يعامله معاملة خاصة.. فما هذا الأدب ؟ قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

إخواننا الكرام... إذا كان ربنا عزّ وجل قد تولانا بالتأديب فهذا من فضل الله علينا، فمعنى ذلك أنه مازال فينا خير، فإذا أدب الله إنساناً فهذا يعني أن هذا الإنسان لازال فيه خير فالله لا يغضب عليه، وإذا أحب الله الإنسان أدبه ؛ و حاسبه على الكلمة وعلى النظرة، وعلى الهمة وعلى الخاطر، وكلما أخطأ حجبه، ومعنى ذلك أن هذا الإنسان لديه إمكانيات عالية جداً، وقد تولاه الله بالتربية والعناية، أما حينما يشرّد الإنسان عن الله شرود البعير عندئذ:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام44)

فكرة ثالثة:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

استمداد الأخلاق من القرآن:

وصفت السيدة عائشة خلق النبي عليه الصلاة والسلام فقالت:

((كان خلقه القرآن))

و معنى ذلك أنَّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا لو تلوناه حقَّ تلاوته، ووقفنا عند أوامره و نواهيه، وعند آدابه لتخلّقنا به، فسيدينا يوسف عندما التقى بأخوته - انظروا إلى هذا الأدب - قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف-100)

أيهما أخطر بربكم كونه في السجن وقد كانت حياته مضمونة فيه وطعامه وشرابه مضموناً كذلك ؟ أم كونه في الجُبِّ وهو عرضة للموت والهلاك جوعاً وعطشاً ؟ فلم لم يذكر الجُب ؟؟..

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

قيل: لم يذكر الجُب مع أنه أخطر لنّلا يذكرهم بفعلتهم و خطيئتهم فيحمر وجوههم، وهذا أدب من أدب الأنبياء، لذلك إذا قرأت القرآن واستوعبت أوامره ونواهيه و حلاله وحرامه، واستوعبت قصصه وعبره ومواعظه، واستوعبت قصص الأنبياء من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، لتخلّقت بأخلاق القرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام بتعريف جامع مانع قالت عنه السيدة عائشة:

((كان خلقه القرآن))

والقرآن بين أيدينا..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْئِدَتِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6))

(سورة المؤمنون)

أليس هذا من الخلق ؟

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

(إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

لو تتبعنا مكارم الأخلاق في القرآن لوجدت العجب العجيب، فلذلك إن أردت أن تقترب إلى الله فإن التقرب إليه يكون بالخلق العظيم، وتطبيق آيات القرآن الكريم سبيل لك إلى هذا الخلق العظيم..

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5))

السين للاستقبال..

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

أنواع الأدلة (عقلي، شهود، معاينة):

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنك إذا كنت أمام وعد، فإن هذا الوعد له أدلة، و من هذه الأدلة الدليل العقلي و الشهود، فأنت إذا رأيت جداراً ورأيت خلف الجدار دخاناً فالدماغ البشري يجري محاكمة، فيقول: لا دخان بلا نار، إذاً هناك نار وراء الجدار، و هذا يسمى استدلالاً عقلياً، أما حينما تذهب إلى خلف الجدار وترى بعينك النار فهذا يسمى شهوداً، أما إذا اقتربت من النار ولمست يدك وهجها فهذا اسمه معاينة، فأني إنسان حينما يرى الشيء بحواسه الخمس يؤمن به، وهذا شيء بديهي، فكل البشر قاطبة من دون استثناء حينما يأتيهم ملك الموت ينتقلون إلى عالم الشهود، لذلك فإن كل الحقائق التي جاء بها الأنبياء سيؤمن بها الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم وملحدهم، وسيكون إيمانهم جميعاً سواء فالقضية إذاً قضية وقت..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق22)

معنى ذلك أن هناك غيبٌ وشهود، فالغيب أن تستنبط الحقائق من أدلتها، أما الشهود فهو أن تُعاين هذه الحقائق، و النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال الله له:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(فُسْتُبْصِرُ)

فنتائج إيمانك و إقبالك وأخلاقك و صدقك واتصالك بالله ملموسة في الدنيا..

(وَيُبْصِرُونَ)

كذلك حال نتائج انحرافهم وكفرهم، وعصيانهم وتفلتهم، فمعنى ذلك أن هناك نتائج في الدنيا، فالنبي عليه الصلاة والسلام رفعه الله إلى أعلى عليين، بينما أعداؤه الكفرة كانوا في أسفل السافلين في الدنيا، فحينما قتلوا في بدر خاطبهم النبي واحداً إثر الآخر:

((يا فلان، يا فلان، لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ لقد كذبتموني

وصدقني الناس، أخرجتموني وآواني الناس، خذلتهموني ونصرني الناس، قالوا: أتخاطب قوماً جيّفاً؟

قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))

كلمة:

(فَسْتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

معنى ذلك أننا في عالم له آخر.. فهناك قرآن، و الله ذكر الآخرة في القرآن الكريم، فهناك كونٌ عظيم ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، و من لوازم الإيمان بالله أنه لن يدع خلقه بلا حساب، فلا بد من يوم آخر، وهناك دليل عقلي ودليل نقلي على اليوم الآخر، أما الإنسان فحينما يموت ويرى اليوم الآخر رأي

العين فإن إيمانه صار حتمياً، لكن هذا الإيمان لا فضل له به، و ليس له قيمة إطلاقاً، لقد صار إيماناً حسياً، لذلك قال الله عز وجل:

(فَسْتُبْصِرُ)

يا محمد في الدنيا كيف أن الله سينصرك، وسيعلي قدرك، وسيخذل عدوك ؛ ويا أيها الكفرة المشركون ستبصرون دناءة أخلاقكم، وسقم تفكيركم، وانحراف سلوككم، وكيف أنكم في أسفل سافلين..

(فَسْتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بَأْيَكُمْ الْمَفْتُونُ (6))

فمن هو الذي فُتِن في الدنيا وكان ضحية لها أنتم أم النبي ؟ النبي ليس بمجنون ! أحياناً يكون الإنسان بين أصدقائه قبل أن يعرف الله، فإذا عرف الله واستقام على أمره نشأ بينه وبينهم نوع من المجادلات ؛ يقال له: أنت على حق، لا نحن على حق، لا أنت غلطان، و نحن لسنا على غلط... ثم تدور الأيام، فهذا الذي استقام على أمر الله وأخلص له وأطاعه، يرفع الله شأنه ويعلي قدره، بينما هذا الذي انحرف وشرذ عن طريق الحق يضعه الله عز وجل، فتجده خامل الذكر، بعيداً عن الأعمال الطيبة، مهموماً بمشكلات كبيرة جداً تسحقه، فهناك إذا نتائح في الدنيا قبل الآخرة، لذلك:

(فَسْتُبْصِرُ)

يا محمد نتائح عملك..

(وَيُبْصِرُونَ)

مثال بسيط:

إذا كنت راكباً دراجة، والدراجة مريحة جداً في الانحدار، وهناك طريق صاعد، وهذا الطريق الصاعد ترابي فيه صخور وأكمامات وغبار، والحر شديد، والطريق النازل معبّد وعلى جوانبه حدائق، وكنت راكباً دراجة فأبي الطريقين تختار ؟ بالطبع ستختار الهابط لكن لو كُتِبَتْ لك لوحة عند مفترق الطرق تقول: إن هذا الطريق الهابط ينتهي بحفرة سحيقة ما لها من قرار فيها وحوش مفترسة وجائعة لم تأكل شيئاً من سبعة أيام، وإن نهاية هذا الطريق إلى هذه الحفرة، وعلى الطريق الصاعد لوحة أخرى تقول: هذا الطريق الوعر الصعب ينتهي بقصر منيف وهو لمن يصل إليه، فالحقيقة هي أنك لم تر الوحوش الكاسرة ولم تر القصر المنيف لكنك رأيت اللوحة، وإذا أردت دليلاً أقوى فهناك منظر، فأصبح لديك لوحة ومنظر، فما مثل الكافر هنا ؟ إن مثله كمثل الذي لم يقرأ اللوحة ولم يستخدم المنظر وأثر الطريق السهل، فلما وصل إلى آخره رأى الحفرة السحيقة والوحوش الكاسرة فأمن الآن ولكنه متى ؟ بعد فوات الأوان، فهذا الإيمان لا قيمة له، لأن هذا الإيمان شهودي لمن شهد الحقيقة، ولكن جاء هذا الشهود بعد فوات الأوان، والذي وصل إلى القصر المنيف أيقن أن هذه اللوحة صحيحة، وأن المنظر سليم، وأنه كان موقفاً في اختياره، وقد نسي هذا التعب فوراً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزنٌ بربوةٍ وعمل النار سهلٌ بسهولةٍ))

(فَسْتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

فالذي قرأ اللوحة واستخدم المنظار، ورأى ملامح الجنة، ولامح الحفرة السحيقة، واختار الطريق الصعب هو المؤمن، فقد تجد المؤمن في آخر الزمان ذا دخل قليل جداً، وقد يكون هناك أناس حوله معهم أموال لا تُحصى ولكنهم لا يعبؤون بمصدر رزقهم، حرام هو أم حلال، لأنهم منحرفون، و هذا المؤمن ليس له غير زوجته، أما هؤلاء فهم يذهبون

كل يوم إلى النوادي والملاهي مع النساء، فيبدو للإنسان أن هذا المؤمن قد اختار اختياراً صعباً، فقد اختار طاعة الله و رضوانه، اختار الجنة على ما بينه وبينها من أمدٍ بعيد، والذي اختار الشهوات العاجلة نسي الآخرة وعاش لحظته، وإذا نظرت الآن رأيت أن أكثر الناس يعيشون لحظتهم، فهم يأتون بأي شيء مستحدث دون أن يأبهوا لمخاطره، كالمستقبل الفضائي مثلاً، يقولون: (نحن نريد أن نعيش وقتنا، نريد أن نفهم ماذا يوجد في العالم، فقط نريد أن نرى الصلاة في الكعبة..)، هذا ما يدعيه الناس اليوم وينسون أنهم يتابعون أشياءً بذيئة لا تُذكر ولا تُتصور حتى الساعة الخامسة فجراً، فأين صلاتهم؟ أين ذكرهم؟ أين تلاوة القرآن؟ أين علاقتهم بزوجتهم؟ لقد انهارت لأنهم خرجوا عن منهج الله عز وجل

فلذلك كانت العبرة أن تقرأ اللوحة وأن تستفيد منها، أو أن تستخدم المنظار، أما إذا أعرضت عن اللوحة المرشدة والمنظار الذي يُريك الحقائق وعشت لحظتك التي تقول إن الطريق النازل أهون والصاعد أصعب كان في ذلك هلاكك، والآن ينام أكثر الناس كيفما يشاؤون، ويتكلمون ما يريدون، لا يوجد عندهم ضابط، يغتابون، ينمون، يقعون البلاء بين الناس وهم في ذلك مرتاحون، لا توجد لديهم مشكلة، يرتكبون كل الموبقات وبراءة الأطفال في عيونهم ويقولون لك: لم نفعل شيئاً، فهذا الذي يعيش لحظته هو المقصود في الآية:

(فَسْتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

بأيكم قالوا: إن الباء زائدة.. تبصر ويبصرون أيكم المفتون.. أو في أيكم الفتون، من هو الذي وقع ضحية عمله وسوء فهمه؟ لكن:

(إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(سورة القلم)

الحكم على العباد بيد الله وحده:

إن تقييم الخلق من حيث صلاحه وسوءه من اختصاص الخالق، أما نحن فنحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فإذا رأيت شخصاً يصلي في المسجد، و لم تسمع عنه معصيةً و لم تر منه شيئاً خلاف الشرع

فإنك تحكم بصلاحه، ولا تزكّيه على الله بل إنّي تقول: أنا أراه صالحاً والله أعلم ولا أزكّي على الله أحداً، هذا هو الموقف الإيماني الأديب، لقد قالت امرأة في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم لرجل متوفّي جاء النبي ليودّعه: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، فلو أن النبي عيله الصلاة والسلام سكت لكان كلامها صحيحاً، لكنه قال:

((ومن أدراك أن الله أكرمه ؟ قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيّ مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا

بكم))

إذاً ليس من شأن العبد أن يعرف المستقبل على وجه اليقين، إنه بذلك يصير إلهاً، لكن من شأن العبد أن يرجو رحمة الله وأن يخشى عذابه، أما أن يقول لك: أنا من أهل الجنة، فمن قال لك ذلك ؟ نحن في عقيدتنا عشرة رجال بشّرهم النبي بالجنة على وجه اليقين ومن سوى هؤلاء فنحن نرجو لهم دخول الجنة، قال لها:

((قولي أرجو الله أن يكرمه))

أما حينما قالت: لقد أكرمك الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((ومن أدراك أن الله أكرمه))

هذا تألّ على الله، لذلك:

(إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

الله وحده هو الذي يعلم على الوجه الصحيح، وعلى الوجه اليقيني من هو على الهدى ومن كان في ضلالٍ مبين، أما نحن فلنا دلائل ظاهرة، فإذا رأينا إنساناً يشرب نقول له: هذه معصية لعله يتوب، وله أن يتوب، وإذا تابّ تاب الله عليه، فنحن نحكم أن هذه معصية، أما أن تحكم على المستقبل فإن هذا ليس من شأن الإنسان.

فسيدنا خالد خاض عدة حروب ضد رسول الله ؛ بدرأ، وأحداً، والخندق، وجاء إسلامه متأخراً، ولما أسلم قال له النبي الكريم:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

وسيدنا خالد سمّاه النبي سيف الله المسلول، وخاض مائة معركةٍ أو زهاءها، وما في بدنه موضعٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو طعنةٌ برمح، فالذي يحكم على سيدنا خالد يوم كان يحارب النبي فحكمه غلط، لقد خُتم له بأعلى درجات الإيمان، وكان سيدنا خالد أحد كبار الصحابة مع أنه أسلم متأخراً. فأنا أحكم فقط على أن هذه معصية، وأن هذه طاعة، أما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، لذلك إذا زكّيت قل: أعلمه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً..

(إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

وهذه الآية لها معنى آخر: أي ؛ إذا كنت أيها الإنسان عند الله مهتدياً فلو أن الناس جميعاً اتهموك بالضلال فلا تعباً بذلك، و الآن يوجد الآن خمسة آلاف مليون من البشر، فلو أن خمسة آلاف مليون اتهموك بالضلال وأنت عند الله من المهتدين، فأنت مهتدٍ ورب الكعبة ولا تعباً بأقوالهم جميعاً، لا تعباً بأقوال الناس، فهؤلاء الشاردون عن الله عز وجل تقييّمهم باطل، تقييّمهم لا يقدم ولا يؤخر، لذلك:

(إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به..

(فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ)

فاستنباطاً من هذه الآية الكريمة أنه لا ينبغي لك أن تستشير إنساناً شارداً في شأن حياتك، ولا في شأن تربية أولادك، ولا في شأن تزويج بناتك..

(فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

المداهنة:

فالمداهنة هي التلحين، يقال لك: هذه مواقف متصلبة و جريئة و يقينية، أما المداهنة فهي تلين هذه المواقف، فلو أنك داهنت الكافر قليلاً لداهنتك قليلاً، ولو أنك سرت معه إلى نصف الطريق لسار معك إلى نصف الطريق، ويصبح بينكما مصالح، أما الآن فتسمى المداهنة تقريباً وتوفيقاً، فعلى الرغم من وجود تناقضات جذرية، فإذا أردنا أن نوقّق أو أن نقارب بين المتناقضات فمعنى ذلك أننا نلغي أفكارنا، فهناك جهة تؤمن بكذا، وجهة تؤمن بكذا، فكيف نوقّق بينهما ؟

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

أيها الإخوة... الإسلام حق، والحق لا يحتاج إلى مداهنة، والحق لا يُستحيا به، والحق لا يُخشى البحث فيه، والحق هو الله، والله مع الحق، والحق لا يحتاج إلى أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، و لا يحتاج إلى أن تقلل من خصومه، ولا أن تبالغ فيه، الحق حق، و الحق أقوى من أن تبالغ فيه، وهو أقوى من أن تكذب عليه أو أن تستحيي منه، الحق حق، والحق لا يتجزأ، فنحن لا نستطيع أن نقول: إن هذه الجزئية من الإسلام يمكن أن نتساهل فيها، لأن الإسلام منهج كامل بتفاصيله وجزئياته، فإذا ألغينا جزئية فإن هذه الجزئية ستساهم في تقويض البناء كله، فتصور أن هناك بالونا منفوخاً، وهو كبير قليلاً وسنقوم بتصغيره فنحضر دبوساً، ونثقبه قليلاً لكي نصغره فإذا فعلنا ذلك انتهى كله، فالحق لا يقبل أنصاف الحلول، الحق حق، لذلك:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

الفرق بين المداهنة والمدارة:

توجد نقطة دقيقة وهي المداهنة والمدارة، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بعثت بمدارة الناس))

فأنت مأمور أن تداري، ومحظورٌ عليك أن تداهن، و المدارة على حساب الدنيا، أما المداهنة فهي على حساب الدين، فالمدارة أن تبذل الدنيا من أجل الدين، أما المداهنة فهي أن تبذل الدين من أجل الدنيا، فأحياناً يقبل إنسان بمعصية أو يقبل بترك طاعة حتى يرضي الطرف الآخر فهذه مداهنة، وحينما تقبل بهذا سوف تُنقض عرى الإسلام عروة عروة، فإذا أنت قبلت بترك طاعة الله أو قبلت أن تعصي الله مداهنة للطرف الآخر فتأكد أنك سوف تتخلى عن دينك حلقة حلقة إلى أن تغدو بلا دين، فلذلك لا يوجد أنصاف حلول في الحق، وحينما اختلط المسلمون بغيرهم وداهنوا انتهى دين بعضهم، وصارت عباداته جوفاء لا تقدم ولا تؤخر، فإذا أصبحت حياتنا وتجارتنا، وبيعنا وشراؤنا، ونزهاتنا، وأماكن إقامتنا، وأحزاننا وفقاً للتقاليد الغربية فنحن عندئذ نكون قد انتهينا..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

فإذا كان هناك عرس مختلط، النساء فيه بأبهى زينة كاسيات عاريات، وعلى البطاقة الطيبون للطيبات فهذه مداهنة..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

أما المؤمن فيداري، يبذل شيئاً من ماله و شيئاً من وقته و شيئاً من إمكاناته من أجل هداية الناس، وهذه مداراة، فنحن مأمورون بالمدارة، منهيون عن المداهنة، والمداهنة ينتقض بها الدين عروة عروة بالتدريج، فإذا لم نصل اليوم، فإننا غداً لن نصوم، ثم نأكل الربا بعد ذلك، ثم نستحل ما حرم الله، ولن تجد بعد ذلك فرقاً بين المسلم وغير المسلم يقال لك: المسلم وغير المسلم، كلاهما يأكل الحرام، وكلاهما نساؤه كاسيات عاريات، وكلاهما يتعامل بالربا، وكلاهما يبتعد عن طاعات الله عز وجل، فما هذا الانتماء الشكلي؟ هذا انتماء تعصب لا قيمة له إطلاقاً..

(فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

ضرورة التزام الجماعة المؤمنة:

أيها الإخوة... صار من الواجب أن يُقال: لابدّ لنا من مجتمع إسلامي نظيف، لابدّ من أن تكون مع جماعة مؤمنة، فإذا كان الإنسان يعيش مع غير المؤمنين فإن ذلك يشكل أمامه صعوبات كبيرة جداً، ولو أن إنساناً مؤمناً شارك إنساناً غير مؤمن فإن ذلك قد يدفعه إلى مزالق خطيرة جداً، فتنشأ عن ذلك صعوبات لا تنتهي، فلو أنك صاحبت إنساناً غير مؤمن مثلاً فإنك عندما تدخل إلى بيته تأتيك زوجته وتقدّم لك الضيافة، ثم يدعوك إلى مشاهدة فيلم ما، فإذا خرج الإنسان عن نقائه وصفائه وصار لديه

اختلاط مع الطرف الآخر، وصار هناك مداينة انتهى دينه، " فدينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا " ..

مرة في بعض المساجد كنت ألقى درساً، فقام أحدهم في أثناء الدرس.. وهذا على غير المألوف.. قال لي: يا أستاذ نحن نستمع إلى الدرس فنشعر براحة كبيرة، فإذا ذهبنا إلى البيت نسينا كل هذا وعشنا حياتنا السابقة فما الحل ؟ قالها بحرقة وقالها وهو صادق، وخالف بها التقليد العام، فمن غير المعقول أن يقطع إنسان الدرس ويتكلم (مداخلة) فألهمني الله عز وجل جواباً موجزاً فقلت له: (غير الطقم)، إذا عندك أصدقاء متفلتين، غير مؤمنين، تسهر معهم، تلعب النرد معهم، حديثهم عن النساء، يدعونك إلى مشاهدة التلفاز، فهؤلاء يبعدونك عن دين الله..

ذهب رجل إلى الحج وكان يشرب الخمر، فعاد من الحج وهو تائب، سهر مع أصدقائه القدامى فدعوه إلى شرب الخمر، وهو تاجر من تجار حلب، فامتنع، فقال له صديقه: كم كلفتك الحجة خمسين ألف ؟ هذه خمسين ألف واشرب، ثم أعد الحج، فشرب، فلا بد من أن تتخلى عن أصدقاءك القدامى الذين تداهنهم ويداهنوك..

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

لابد من أن تنتقي إخوة مؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (4-7): تفسير الآيات 8-16

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-05-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

التحذير من المداهنة وعاقبة المتكبرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة القلم، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

(سورة القلم)

لا مساومة في الدين:

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية الكريمة تنفي مبدأ المساومة في الإسلام، وتنفي أنصاف الحلول، وترفض أن يمشي كل فريق إلى منتصف الطريق، و أن يتخلى المؤمن عن بعض مبادئه، فالمساومة تكون في التجارة ؛ فأنت قد تخفض السعر أو ترفعه وقد تضيف إلى المبيع مبيعاً، وهذا كله في عالم التجارة، أما في عالم العقيدة فلا مساومة على المبدأ، لأن المبدأ كل لا يتجزأ، صغيره ككبيره -وليس فيه صغير- أما التجارة فهي صفقة تجزأ، وسعر يقسّط وخصائص قد تدنو أو تبتعد.

أيها الإخوة الكرام... الإسلام منهج الله عزّ وجل (منهج السماء) وهو منهج رباني، لا يمكن أن يلتقي مع الجاهلية في منتصف الطريق، والأصح من هذا أنه لا يمكن أن يلتقي معها في طريق، لأن الإسلام في وادٍ، والجاهلية في وادٍ آخر، وإن منطلق المسلم هو طاعة الله عزّ وجلّ والعمل للأخرة وأن يضع كل شهواته تحت قدمه، فيصبح التّبرّ عنه كالتراب، فطاعة الله عنده هي كل شيء، أما غير المسلم فمنطلقه المال، فالدنيا عنده هي كل شيء، فيفعل ما يشاء من أجل أن يصل إلى هدفه، والغاية عنده تبرر الوسطة، لذلك لم يكن من الممكن أن يلتقي الإسلام مع الجاهلية ؛ و تتساوى في ذلك الجاهلية القديمة والجاهلية المعاصرة وجاهلية الغد، فلا يمكن لأحدهما أن يلتقي مع الإسلام في منتصف الطريق، بل إنه لا يمكن أن يجمع بينهما طريق، فهذا في وادٍ، وهذا في وادٍ.

فهذا الحائط مثلاً فيه لونٌ أسود ولونٌ سُكري فهما إذاً يجتمعان، و يمكن أن نقول: هذان اللونان متعاكسان، إلا أن الظلام والنور متناقضان، بمعنى أن أحدهما ينفي وجود الآخر، فإذا حل النور فلا ظلام، وإذا كان الظلام فلا ضياء، فيجب أن نعتقد أن منهج الله عزّ وجلّ متميّز، فهو منهج خالق الكون، فله خصائص علوية و له أهدافٌ ربّانية و له وسائل شريفة، فلا يمكن أن يلتقي منهج الله مع منهج البشر، فكلاهما ينطلق من منطلق، وكلاهما يتّجه إلى هدف، و هذا معنى قول الله عزّ وجلّ:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

ثلاث صور تجسد هذه الآية:

أيها الإخوة... أضع بين أيديكم ثلاث صور من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجسد هذه الآية.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

1- ماذا فعلت قريش لما رأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله و يسقّه آلِهتها وأحلامها، وأن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لها ؟ لقد مشى أشرافها: عُتْبَةُ، وشَيْبَةُ، وأبي سفيان، والعاص بن هشام وأبو جهل، والوليد بن مغيرة، مشى هؤلاء وهم عليه القوم وأشراف قريش وزعماءها إلى أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلِهتنا، وعاب ديننا، وسقّه أحلامنا وضللَّ آبائنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، و نحن نكفيك فدعه لنا، فقال لهم أبو طالب كلاماً رقيقاً وردّهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه ليظهر دين الله ويدعو إليه، ثم تفاقم الأمر بينه وبينهم، حتى تباعدوا وتضاغنوا فالتقوا مرة ثانية بأبي طالب و قالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلاً فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا الأمر من شتم آلِهتنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آبائنا فكفّه عنا أو ننزله وإيّاك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فحزن أبو طالب (لأنهم جعلوه طرفاً في القضية)، و عظم عليه فراقه لقومه وعداوتهم له، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق: حدّثني يعقوب بن عقبة بن المغيرة أنه حدّث أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، فبعث عندئذٍ أبي طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه وقال له: يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق (وهنا أول بوادر التخلي)، قال: فظن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قد بدا لعمّه فيه بداء (أي غير موقفه و اتخذ موقفاً جديداً و بدأ يتخلّى عنه)، وأنه خاذله و مسلمّه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال عليه الصلاة والسلام، هذه المقولة التي جَسَدَت هذه الآية، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى

يظهره الله أو أهلك دونه))

وبكى النبي عليه الصلاة والسلام ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب وقال له: أقبل يا بن أخي، فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

فكان هذا موقفه، ففي الدين لا يوجد أنصاف حلول و لا توجد مداينة ولا مشي إلى منتصف الطريق لأنه منهج الله عز وجل كامل كملاً كمياً وكماً نوعياً.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(المائدة: آية " 3 ")

و لا بد أن يكون هذا موقف كل مسلم صادق في أي عصر، فالمسلم قد يتساهل في كل شيء إلا في أمر عقيدته وعبادته وأمر الحلال والحرام، فيجب أن يكون له موقفٌ صُلْبٌ في أمر الحق والباطل، إنه قد يكون ليناً إلى أقصى درجة إلا في الحق فله فيه موقفٌ لا يتزعزع، فكلمة: لا، يقولها بملء فيه ولا يخشى لومة لائم، هذه صورة من صور مواقف النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال الله له:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

أي لا يوجد في الإسلام أنصاف حلول، و لا يمكن أن يلتقي حقٌ وباطل لأنه لا يمكن التوفيق بينهما، كما لا يمكن أن نوفق بين النور والظلام، فإما نور وإما ظلام.

2- صورةٌ ثانية.. عتبة بن ربيعة كان سيداً من سادة قريش، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمدٍ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، (وذلك حينما أسلم سيدنا حمزة، ورأوا أن أصحاب الرسول يزيدون ويكثرون)، فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلمه (فلا يوجد لديهم مانع) فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا بن أخي إنك منا حيث علمت من السبطة (أي بأعلى مكان) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فرقت بهم جماعتهم وسقته به أحلامهم، وعبت بهم آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل بعضها.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((قل يا أبا الوليد أستمع إليك))

وكان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب، كما أنه محدثاً لبقاً و مستمعاً أديباً قال:

((يا أبا الوليد قل أستمع إليك))

قال: يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً (سيادة، رئاسة) سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكانا علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً نراه لا تستطيع ركّه عن نفسك طلبنا لك الطب

وبذلنا فيه أموالنا حتى تُبْرئَكَ منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه(أي إذا كان معك هوس، أو مرض، أو لوثة).

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(الآن هذه الشواهد أو هذه المشاهد تفسّر هذه الآيات)، حتى إذا فرغ عُتْبَة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إليه قال:

((أَقْدَ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ))

(أي انتهيت) قال: نعم فقال:

((فَاسْتَمِعْ مِنِّي))

قال: أفعل.. (أي تفضل).. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم:

(حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُ غَيْرَ مَا نَحْمَلُ وَأَنْتَ خَالِدٌ فِيهِ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6))

(سورة فصلت)

ثم مضى النبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليه هذه السورة بأكملها، فلما انتهى إلى السجدة قام عليه الصلاة والسلام وسجد، ثم قال:

((سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ ؟، أَنْتَ وَذَاكَ))

(هذا هو جوابي) جوابه أنه قرأ عليه هذه السورة، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (تغيّر وكأنه اقتنع بقول النبي) فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسير، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، (أي دعوه وشأنه، دعوه يتكلّم، دعوه يبلغ هذه الرسالة)، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفّيتموه، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به (أي إذا حاربتهم العرب كفتمهم إيّاه، وإن فازوا عليه فملكه ملككم)، قالوا: سحرَكَ والله يا أبا الوليد، لقد سحرَكَ بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي رواية ثانية: النبي تابع الآية..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

(سورة فصلت)

فقام مذعوراً فوضع يده على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أَشْهَدُكَ الله والرحم يا محمد، (ذلك مخافة أن يقع النذير)، وقام إلى القوم فقال ما قال.

3- الصورة الثالثة: اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبة الأسود بن المُطَلِّب، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم (أي عليّة القوم) فقالوا: يا محمد هَلَمْ فلنعبد ما تعبد (فنحن سنطيعك) وتعبد ما نعبد (نصف حل)، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6))

(سورة الكافرون)

أيها الإخوة الأكارم... أردت من هذه القصص الثلاث، ومن تلك المقدّمة أن يعتقد المسلم أن إسلامه من عند الله، وأن منهج الله متميّز، وأنه لا يلتقي مع الجاهليّة، فليس في الإسلام أنصاف حلول، لأن الإسلام منهج كامل، فلا يمكن أن تأخذ منه ما يُعجبك وأن تدع ما لا يعجبك، ولا يمكن أن يلتقي منهج الله مع منهج أرضي وضعه أناس لهم حظوظ من الدنيا، إذا فقله تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

وتحدّثت في الدرس الماضي عن المداينة، و هي بذل الدين من أجل الدنيا، أما المداراة فهي بذل الدنيا من أجل الدين، فالمؤمن منهجٌ عن أن يُداهن، مأموراً بأن يداري، ورأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس، و أن تبذل شيئاً من دنياك من أجل أن تقنعهم بالدين، ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

(سورة القلم)

الحلاف:

الحلاف: صيغة مبالغة أي كثير الحلف، فلماذا يحلف كثيراً ؟ لأنه غير واثق من نفسه أو لأنه يكذب، والكاذب يتوهم أن الناس يكذبونه ولا يصدقونه فيسارع إلى الحلف، وهذا الحلاف الذي يكذب ويحلف كثيراً مُهانٌ عند نفسه، فالكاذب يحتقر نفسه ولا يحترمها، والصادق محمودٌ عند الله، وعند الخلق وعند نفسه أيضاً.

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ)

فالحلف سبيله إلى إقناع الناس، فكأنه يتوهم مسبقاً أنه يكذب فيسارع إلى الحلف، فيحتقر نفسه، والإنسان أدري بنفسه من غيره.

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

والإنسان أعرف الناس بنفسه، فحينما يكذب يستنجد بالحلف ليصدقهُ الناس وما درى أنه بهذه الأيمان الكثيرة يضعضع مكانته، ويصبح مهاناً عند الله، وعند الناس، وعند نفسه..

(وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّاز)

الهماز النمام:

من هو الهمَّاز ؟ هو الذي يهمز الناس و يعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم، وخُلُقُ الهمز واللمز يكرهه الإسلام،

((المؤمن ليس بالطَّعَانِ واللَّعَانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ))

فأهل الدنيا يطعنون في كل شيء و يعيبون كل شيء، قد يدخل أحدهم إلى بيت فيسألك عن مساحته ويقول: كيف تعيش في هذا البيت ؟ هذا البيت لا يعاش فيه، ثم يسأل عن دخلك ويقول: هذا الدخل قليل، هل يكفيك ؟ و يسألك عن زوجتك و أثاثك وأسفارك و رحلاتك، فهو دائماً يسأل ليطعن و يحتقر و يعيب و يُحَرِّج و يصعِّر، فهذا هو شأن أهل الدنيا، لكن المؤمن ماذا يفعل ؟ المؤمن يُطَيِّب قلب الناس بدنياهم و يثني عليهم.

فمرة دخلت إلى بعض بيوت إخوتنا الكرام، كان هناك غرفة الضيوف لا تزيد عن مترين في ثلاثة أمتار، ضيقة جداً لا تتسع للأثاث إطلاقاً، فهذا الأخ استحياء، فقلت: والله يا أخي إن سيد الخلق وحبیب الحق و سيد ولد آدم و حبیب الله عزَّ وجل و الإنسان الأول في الكون كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، فمن نحن ؟ هكذا كان عليه الصلاة والسلام، فهو الذي قال:

((والله لو دُعيت إلى كراع بالغنيم لأجبت))

لقد دعي عليه السلام إلى خل، فهل يوجد واحد من الحاضرين يُدعى إلى خبز وخل، لقد وضع له صحن من الخل ورغيف خبز، ليغمس و يأكل، فمن منا يرضى بهذا الغداء ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الخل))

فالمؤمن يطيب قلب الناس فلا يصعِّرهم و لا يزدريهم من أجل دنياهم المتواضعة بل بالعكس يثني عليهم، و قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم الإدام الجوع))

فلم يقل اللحم بل قال: الجوع، فإذا كنت جائعاً رأيت كل طعام طيباً، فالمؤمن ليست مهمته أن يضعضع ثقة الناس بأنفسهم، ولا أن يزدري أثاث بيتهم، ولا مساحته ولا دخلهم المتواضع، ولا صحتهم المتعبة، بل مهمته أن يرفع معنويات الناس، ويقنعهم بما هم فيه...

(وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ (10) هَمَازٍ)

فلسانه دائماً ينتقد، ينتقد بيتك ودخلك و أولادك، ينتقد كل ما أنت فيه، فلا يوجد عنده إلا النقد، والتصغير، والاستعلاء، والكبر، والزهو، قال: هذا لا تستمع لكلامه.

(وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ (10) هَمَازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ (11))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة قتات))

فالنميمة من الكبائر التي تمنع من دخول الجنة، فما النميمة ؟ النميمة: أن تنقل لإنسان قولاً قاله فيه إنسان آخر، فتقول له: فلان قال عنك كذا وكذا، فماذا فعل النمام هنا ؟ إنه بقوله ذلك لم يفعل شيئاً ملموساً، فلم يقتل إنسان، ولم يزن، ولم يشرب الخمر، ولكنه قال كلمة فقط، لقد قال: فلان قال فيك: كذا وكذا، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة قتات))

أي نمام، وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال عليه الصلاة والسلام: ((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة))

فهو يعذب في قبره، لأن النمام يمزق شمل المسلمين، يمزق شمل الأسرة الواحدة، يمزق شمل الشركة، يمزق شمل القبيلة، يوقد العداوات، و إنك إذا ذهبت اليوم إلى أي مكان وجدت إنساناً ضد إنسان، وذلك ضمن الأسرة الواحدة و المجتمع الواحد و الدائرة الواحدة و المدرسة الواحدة و المستشفى الواحدة، ففي أي دائرة كانت، هناك فلان ضد فلان، فلماذا يحدث ذلك ؟ لأنه يوجد بينهم مشاء بنميم، يقول: فلان قال عنك كذا وكذا، ينم له، وينم عليه، وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر))

فلو أنّ إنساناً يحب إنساناً فلا تكن السبب في زعزعة العلاقة بينهما، لا تقل له: إنه تكلم عنك كذا وكذا بغيابك، و صرّح أنه لا يحبك ولا يطيقك لكنه يجاملك فقط، لأنك بذلك تكون قد أقمت هوةً بينهما، فهذا الذي يكذب بالدين..

(حَلْفٍ مَّهِينٍ (10) هَمَازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ (11))

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذين إذا رُؤوا ذكر الله بهم))

فإذا حلّوا بمجلس كان حديثهم عن الله و عن رسول الله و عن أصحاب رسول الله، وعن محبة الله و طاعته وعن العمل الصالح، فالإنسان إذا رآهم يذكر الله بهم، وهكذا ورد في الحديث:

((أولياء أمتي إذا رُؤوا ذكر اللهم بهم))

((ألا أخبركم بخياركم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل بهم، ثم قال:

ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى. قال: المشّاعون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء

(العيب))

فالنمام إذا جلس في مجلس قال: والله فلان (ما شاء الله عليه)، أخلاقه عالية، سمته حسن، مستقيم، أما فلان فهو دجال كبير، لا تصدقه، و كلما شعر أن هناك إنساناً يحب إنساناً و يقدره يبدأ بالطعن به لأنه يغار، وقد يطعن وغير محق، وقد لا يوجد معه دليل على ما يقول، لكنه لا يحتمل أن يرى إنسانين متعاونين متحابين متآخيين

((ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا: بلى قال: المشّاعون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرءاء

(العيب))

(مَنَاعُ الْخَيْرِ)

معاني (المناع للخير):

1- ينهى نفسه عن فعل الخير وينهى غيره، أي فاسد مفسد، ضال مضل، مانع نفسه، ومانع غيره، فإذا جلست مع إنسان من أهل الدنيا قال لك مثلاً: أتتصدق !! أمجنون أنت ؟ هذا المال أبقه ليوم أسود، وإنما يقول ذلك لأن أيامه في الأصل سود كلها، فهو يدعو للبخل، يأمر بالبخل، وينهى عن فعل الخير.

(مَنَاعُ الْخَيْرِ)

2- هناك معنى دقيق جداً: وهو أنك إذا فعلت معه معروفًا رد على معروفك بالإساءة، فمعظم الناس إذا رُدَّ عليهم بالإساءة حلفوا ألا يفعلوا خيراً، فأحياناً قد تكون أنت وسيطاً بين اثنين، فتأتيك متاعب لا حصر لها، فالإنسان بحكم فطرته يبتعد عن هذه المشكلات، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من خالط الناس وصبر على أذاهم، خيرٌ ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم))

(مَنَاعُ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم)

فإذا أقرض إنساناً آخرَ قرضاً ولم يؤدّه إليه حلف هذا المقرض ألا يفعل هذا مرةً ثانية مع أحد، فهذا الذي أخذ مال الناس ولم يؤده هو مناع للخير، لأنه حمل هذا الإنسان على ألا يفعل خيراً، و إذا استعار إنسان حاجة من إنسان ولم يردّها إليه في الوقت المناسب يكون هو الذي يمنع الخير، وإذا سمح إنسان

لآخر أن يركب في مركبته وكان ذلك الشخص معه شيء ممنوع، وصودرت المركبة فإنه لن يدع إنساناً في الأرض يركب معه مرة أخرى، والآن تجد شخصاً راكباً لوحده في المركبة فيجد إنساناً فلا يقف لأنه يخاف، فربما يكون معه تهريبية أو معه شيء غير نظامي، فيتورط معه، فكل إنسان يُفعل معه خير ثم يقابل هذا الخير بالإساءة هو الذي يمنع الماعون.

كان هناك إنسان في الصحراء فرأى رجلاً يعتلي فرساً، فأشار إليه أنه متعبٌ جداً ويتمنى أن يركب خلفه، فَرَقَّ له هذا الفارس لأن الحر شديد، فدعاه إلى ركوب الفرس خلفه، فما إن اعتلى هذا الإنسان ظهر الفرس حتى دفع صاحبها إلى الأرض وعدا بها لا يلوي على شيء، فماذا قال له صاحب الفرس ؟ قال: يا هذا لقد وهبت لك الفرس ولن أسأل عنها بعد اليوم ولكن إياك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها.

هناك خمسمائة ألف بيت في الشام مغلق بالمفتاح لا يُوجَرُ لأن آلاف المستأجرين قد دخلوا شهراً، فمكثوا في البيت اثني عشر سنة لا يخرجون منها، ويقول له: هذه المحاكم بيننا، فالمستأجر الذي لا يرضى عهداً ولا ذمة هو الذي يمنع الخير، ونحن نعاني من أزمة إسكان لا أزمة سكن، فهناك خمسمائة ألف شقة في دمشق مغلقة ولا تُوجَرُ، فمن هو سبب هذه الحالة المستعصية المسدودة ؟ إن السبب في ذلك هم أولئك الذين استأجروا بيوتاً فلم ينقذوا ما وعدوا به، يقال: إذا أجرت هذا البيت فقد انتهى، وذهبت الشقة، وانتهى الأمر، فهذا هو منع الخير، فإذا أقرض إنسان آخر ولم يرد له ماله، فانتظر شهراً، وسنة، وخمس سنين، و المدين يقول له: هذه المحاكم اشتك علي لا يوجد معي لأعطيك، يقولها بقسوة، بلؤم، فتجده وديعاً لطيفاً عندما يطلب المبلغ، و بعد أن يملك المبلغ لا يعبأ بك، ولا بتوسلاتك، يستدين بضاعة و لا يعطيك الدين، يبيعه، يضع ثمنها في جيبه، يزوج أولاده، يرقه نفسه يقول لك: لا يوجد معي، فأين البضاعة ؟ بعناها، (وصرقناها)، وهذا هو الحاضر، اشتك علي، هذا هو منع الخير، فيخشى أنه إذا باعك بضاعة بالدين أن لا تؤدي ثمنها له، و إذا أقرضك أن لا تؤدي الثمن و إذا أجرك بيت أن لا تخرج منه، وإذا أركبك بالمركبة أن يكون معك بضاعة مهربة.

وقد يرى الإنسان حادثاً، فيدفع من مروءته لينجد هذا الجريح، فيضعوه ثلاثة أيام في السجن، - طبعاً الآن القوانين تعدلت والحمد لله، و لم يعد هناك مسؤولية، عليك فقط تبرز هويتك ثم يدعونك تذهب، وإلا لمات ناس كثير بسبب النزيف - فهذا الذي يشدد على من نقل هذا المصاب فيضعه في السجن بلا عدل بسبب منع الخير، فلذلك كان المنع للخير إما باللسان أو بالفعل، فكلماً واجهت إنساناً له عمل طيب بالإساءة منعت الخير.

وقد انتشر هذا حتى صار الناس إذا رأوا إنساناً يفعل الخير يستغربون، يقولون: هذا مجنون، فأصبح الأصل ألا تفعل خيراً، وأصبح الأصل اللؤم و الإساءة، فصار الخير نادراً، حتى إذا فعل إنسان الخير

بدا وكأنه شاذ، وشكَّ الناس فيه، وتجدهم يقولون: ما مقصده من ذلك ؟ ليس له مقصد، إنه يفعل الخير، و الآن أصبح لفعل الخير تفسير سيّء، فصار الأصل في المجتمع أنه مَناع للخير، ففي فرنسا أرادوا أن يمتحنوا الدافع الإنساني في المجتمع، فجاءوا بسيارة إلى أكثف طريق بين مدينة باريس ومدينة ليون، ووضعوا سيارة كأنها مصابة بحادث، و جاؤوا بإنسان فصبغوه بحبر أحمر فأصبح كأنه جريح يستغيث، فمضت ست ساعات قبل أن تقف أول سيارة لتسأل ما به.

(مَناعُ الْخَيْرِ)

لي صديق كان في لندن قال لي: رأيت امرأة قبل مائة متر وقعت على الأرض، وكان على الرصيف كثافة كبيرة جداً، فلم يخطر في بال واحد من الناس أن ينهض هذه المرأة ليسأل ما لها، فلما وصل إليها أنهضها، فقالت له: أنت غريب عن هذه البلاد، فقد عرفت أنه غريب، لأنه أنهضها، وسأل عن حاجتها.

(مَناعُ الْخَيْرِ)

صفة المؤمن أنه فعّال للخير ؛ والكافر مَناع للخير، يكبر عليه أن يتعاون الناس وأن يرحمهم و ينصحبهم، فمرة جاء إنسان وقابلني، سألتني عن دروس المسجد، وهو يحضر لدرجة دكتوراه في بلاد الغرب، و عنده موضوع فقال لي: ماذا يأتيك من هذه الدروس ؟ لماذا تفعل هذا كله ؟ فهو لم يفهم ولم يستوعب، فالإنسان الغربي لا يستوعب العمل الصالح فهو لا يتحرّك إلا بالمال، و مرة عرض صديق لي على مندوب شركة كلمة حق، فقال له: هذا الأمر لا يعنيني إطلاقاً، أنا تعنيني امرأة جميلة وسيارة فارهة ومنزل واسع فقط.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال)

كلمة:

(مَناعُ الْخَيْرِ)

كل إنسان يُسيء إلى من أحسن إليه فهو مَناع للخير، وما أكثر الأعمال الصالحة التي كانت في السلف الصالح، أما الآن فقد تضاعلت وتضاعلت إلى درجة أنك لا تجد إنساناً يفعل خيراً، يقال: - وهذه ليس آية ولا حديثاً إطلاقاً كما أنها ليست حكمة _: " اتق شر من أحسنت إليه " هذه كلمة يتندرّع بها الناس ليمتنعوا عن فعل الخير.

(مَناعُ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ)

فكل إنسان يعتدي على أموال الناس، أو على أعراض الناس، أو على قلوب الناس بالغيبة والنميمة، أو ينظر إلى نساءهم، أو يأخذ أموالهم، فهو معتدٍ، فهذا الذي يرفع المذياح إلى أعلى درجة أيام الامتحانات هو معتدٍ، وهذا الذي يطلق لأهوائه العنان دون أن يرعى حقاً لجار هو معتدٍ أيضاً، و هذا الذي يتأمل

محاسن امرأة لا تحل له هو معتدٍ، و هذا الذي يدبر حديثاً عذباً مع امرأة أجنبية معتدٍ، و هذا الذي يحتال على الناس فيأخذ أموالهم ابتزازاً هو معتدٍ كذلك.

(مُعْتَدٍ أَثِيمٌ)

الأثيم:

الأثيم: المتلبس بمعصية دائمة حتى صارت صفة مشبهة له، و أثيم على وزن فعيل، فكل حركاته وسكناته إثم، فأينما جلس يبحث عن اللذة المحرمة، و أينما حل يبحث عن معصية يعصي بها الله.

(مُعْتَدٍ أَثِيمٌ)

أي إن هذا الذي يرفض هذا الدين..

(حَلَّافٌ مَّهِينٌ (10) هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِمِيمٍ (11) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ (12) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (13))

العُتْلُ:

هو الغليظ الجافي، والأكل الشروب، والشره المنوع، اللفظ في طبعه، اللئيم في نفسه، السيئ في معاملته، و هذا تعريف العُتْل.

(عُتْلٌ)

الغليظ الجافي، فإذا قال له زوج أخته: أختك (تغليني)، قال له: طلقها، فهو غليظ جافٍ، وهو الأكل الشروب أيضاً، والشره المنوع، اللفظ في طبعه، اللئيم في نفسه، السيئ معاملته.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

((العُتْلُ كل رغيذ الجَوْفِ وثيق الخلق أكل شروب جموع للمال منوع له، شر الناس من يعيش

فقيراً، ليموت غنياً))

يموت ويدع ثروة طائلة لأولادٍ جهال، يقال لابنه: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال: لأشرب الخمر على روح والدي، لقد جمع فأوعى ومنع فلما توفي ورث هذا المال جهولٌ منحرفٌ شاذ، فأنفقه في المعاصي والآثام، وأندم الناس من عاش فقيراً ليموت غنياً، وأندم الناس من دخل بماله النار.

أيها الإخوة الكرام... هذه صفات أهل الدنيا، عتل: أي يأكل أطيب الطعام، ففي بعض البلاد النفطية تُجرى ولائم تكلف مئات الألوف، فيصنع جمل صغير محشي، فيأكل الضيف منه أوقية، أما الباقي فيرمى في القمامة، وهناك مئات ألوف الليرات والريالات يرمى في القمامة، فالعتل هو: الأكل شروب، اللفظ اللئيم، المنوع للخير، ثم يقول:

(عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ)

الزنييم:

هو الذي لا نسب له، فلا ينتمي إلى أمته بل هو لصيقٌ بها فرغم أنه وُلد في بلاد المسلمين إلا أن فكره

غربي و عاداته أجنبية، و يرى أن الإسلام تخلف، فهؤلاء يعيشون مع أولئك الذين يتبادلون الزوجات ويرتكبون المحرمات، فقد سمعت أن هناك وزير صحة بريطاني في الوزارة الجديدة، قال في مؤتمر صحفي: أنا شاذ جنسياً، وهو وزير صحة: فما هذا ؟ قال عليه السلام:

((من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً))

فهذا الزنيم لصيق ليس من هذه الأمة، ليس من ثرائها ولا من دينها، ولا يمت إلى أخلاقها و مروءتها بصلة، فهو زنيم، و عُرفَ الزنيم أيضاً بلؤمه، وخبثه، وكثرة شروره، والعوام تعبّر عن هذا الإنسان الشرير بقولهم: (ابن حرام) فهذا هو الزنيم، ثم يقول الله عزّ وجل:
(أنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

(سورة القلم)

فقد يكون غنياً، وقد يكون له أولاد، وله مكانة لكنه..

(حَلَّافٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ (11) مَنَاعٍ لِخَيْرٍ مُّعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14))

فالمال لا يرفع صاحبه، و الله عزّ وجل أعطى المال لمن يحب و لمن لا يحب، فما دام قد أعطى المال لمن يحب ولمن لا يحب فالمال إذاً ليس مقياساً..

(أنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

أي أن الله عزّ وجل إذا أكرمه بالمال استعلى على عباد الله فعصى الله به، وأنفقه في المعصية.. و بالمناسبة أيها الإخوة كل الحظوظ التي يؤتيك الله إيّاها ليست نعماً و تأكّد من ذلك، كما أنها ليست نقماً فهي ابتلاء، فإذا أنفقت هذه الحظوظ في طاعة الله انقلبت إلى نعم، وإن أنفقتها في معصية الله انقلبت إلى نقم، فالمال ليس نعمة، إنما هو نعمة إذا أنفقت في طاعة الله، فسيدنا ابن عوف قالت عنه السيدة عائشة: " أخشى أن يدخل ابن عوف الجنة حبواً "، فلما بلغه هذا الكلام قال: "والله لأدخلنها خبياً، وما عليّ إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء". فالمال إذا أنفقت في طاعة الله انقلب إلى نعمة، فطلاقة اللسان مثلاً إذا أنفقتها في ذكر الله وفي إقناع الناس بالخير، فهي نعمة كبيرة، أما إذا كانت فصاحة بالباطل فهذه نقمة، و الوسامة كذلك إذا كانت من أجل أن تجذب الناس إليك فهذه نعمة، أما إذا كانت من أجل أن توقع النساء في شباكك فهذه نقمة، فكل حظٍ من حظوظ الإنسان إن وُظّفه في الحق كان نعمة، وإن أنفقت في الباطل كان نقمة، إذا..

(أنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15))

(سورة القلم)

قال: هذه غيبيات، تخلف، فكر مهزوز، غيبيات لا تقدّم ولا تؤخّر، دعك من هذا، حدّثنا بالواقع، حدّثنا بالمال، بالبيوت، بالتجارات.

(إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

هذا الذي كُذّب بآيات الله وكان..

(حَلَفَ مِهِين (10) هَمَّاز مَشَاءٍ بَنِيم (11) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيم (12) عَثَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15))

فمصيره هو:

(سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

أكرم شيء في الإنسان هو رأسه، وأجمل ما في رأسه وجهه، وأشرف مكان أنفه، وقيل: فلان عنده أنفة: أي عنده عزة، و فلان يَأْنَفُ أن يفعل هذا، و نقول: رغم أنفه، و أنفه راغَمٌ في التراب، فالأنف أبرز شيء في الوجه وأشرف عضو، قال: هذا الأنف..

(سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

أي: سوف نذله، و نسمة ؛أي: بالوسم، فكان هذا العبد له وسمة خاصة، فتحمى أداة حديدية ويكوى بها وجهه، فهذا عبد قال الله فيه:

(سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

سوف يذل الإنسان حينما يستكبر على الحق، سيذله الله عزّ وجل ويضعه في أسفل سافلين، وهذا شيء دقيق جداً، وهو كائن في الدنيا قبل الآخرة على الذي يعادي أهل الحق فلما قال ربنا عزّ وجل مثلاً:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

(سورة التحريم)

فهل من المعقول أن يقول الله عزّ وجل من أجل امرأتين:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

أفمن أجل جندي تكلم كلمة تُستنفر خمس فرق، وسلاح الطيران، أيعقل هذا ؟ فمعنى الآية أيها الإخوة أن الإنسان إذا حدثته نفسه أن يقف في خندقٍ معادٍ للدين أو أن يطعن في الدين و بأنبياء الله الصالحين، أو أن يضعضع مركز الدين في المجتمع، فليعلم عندئذ من هو خصمه، إنّ خصمه الله ورسوله وصالح المؤمنين والملائكة، فأشقى الناس قاطبة هو الذي يقف في خندقٍ معادٍ للدين، و هو الذي يريد أن يطفئ نور الله بغمه و يريد أن يمنع مساجد الله الذي أن يذكر فيها اسمه ويسعى في خرابها، فأى إنسان يقف في خندقٍ معادٍ للدين فهذا أشقى الناس قاطبة..

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

سوف نذله في الدنيا والآخرة و نمرِّغ أنفه في الوحل، سوف يلقي عذاباً مهيناً، وهذا شيء ثابت، و أوضح دليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله بإخلاص شديد وتضحية بالغة هو وأصحابه فأين هم الآن ؟ كيف يذكر النبي في مجتمع يزيد حجمه عن مليار ومائتي مليون ؟ إنه يذكر بالتعظيم، فكلما ذكر النبي نقول: صلى الله عليه وسلم، سيدنا الصديق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا بلال الحبشي، سيدنا زَيْد، وسيدنا زيد كان أسود اللون أفطس الأنف، و نقول سيدنا أسامة بن زيد حُبُّ رسول الله ؛ أما هؤلاء الذين عارضوه وكفروا به، وائتمروا على قتله، وإخراجه، كأبي جهل، وأبي لهب، فقد لعنهم الله، فهم الآن في (مزبلة) التاريخ، فهذه أمثلة بين أيدينا، وكل من جاء بعد ذلك وقدم للإسلام شيئاً يذكر باحترام، فنقول: سيدنا صلاح الدين الأيوبي رد الكفرة، ومسيلمة الكذاب لعنه الله، فالذي يقف مع الدين يرفعه الله، والذي يقف مُعارضاً للدين يذله الله في الدنيا قبل الآخرة، و هناك إنسان ادّعى نبوة في الهند أو الباكستان، وكان هناك موجة كوليرا كبيرة جداً، فأراد أن يتخذ من هذا المرض أداة للتأكيد على أنه نبي، فقال: أنا لن أصاب بهذا المرض لأنني نبي، فمات بهذا المرض في المرحاض..

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

فأشقى الناس قاطبةً هو الذي يقف في خندق معادٍ للدين، فيأيك، إياك أن تطعن في دين الله، إياك أن تطعن في كتاب الله، إياك أن تطعن في رسول الله، في أصحابه الكرام، إياك ثم إياك، لأنك إن فعلت هذا فالطرف الذي سيكون ضدك هو الله، ورسوله، وصالح المؤمنين والملائكة جميعاً.

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)

وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (5-7): تفسير الآيات 17-33

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-06-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة أصحاب الجنة

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة القلم، ومع الآية الكريمة السابعة عشرة من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

أيها الإخوة الكرام... قبل أن نبدأ بشرح تفاصيل هذه القصة لابد لنا من الحديث عن محورها أو عن مغزاها، ومغزاها أو محورها يتصل أشد الاتصال بحياة كل مسلم، لأنه ما من إنسان إلا وساق الله له من الشدائد ما ساق، وهذه الشدائد واقعة و لا أحد يُنكرها، ولكن يوجد بونٌ شاسع بين فهم المؤمن وفهم الكافر لها، فالجاهل يراها تضيقاً من الله، أو إزعاجاً لهذا الإنسان، أما المؤمن فيراها محض رحمةٍ و لطفٍ و تربية من الله عز وجل، وهذه القصة _ كما ذكرت قبل قليل - لها مغزى أو محور، ومغزاها أو محورها يتصل اتصالاً وثيقاً بحياة كل إنسان.

فبعد أن حدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين كذبوا رسول الله، واعتدوا بمالههم ومكانتهم، ورأينا كيف سخروا من الحق وكذبوه، يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَاكِ مَهِينَ (10) هَمَزَ مَشَاءٍ بَنِيمَ (11) مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمَ (12) عَثَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمَ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (16))

فقد جاء بين يده هذه القصة قوله:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

معاني (بلوناهم):

1- بلوناهم: الأولى تعود على هؤلاء المكذبين، و معنى بلوناهم أي امتحناهم، ومعناها أيضاً: أصبناهم بالمصائب، فإما أن يكون البلاء امتحاناً وإما أن يكون عقاباً..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

وقال بعض المفسرين: " البلاء لم يقع بعد ولكن الله إذا توعد إنساناً فكأنه وقع ". وسأضرب لكم مثلاً على ذلك: لو أنك تعلم علم اليقين أن هذه السيارة ليس فيها مكبح، وأن راكبها (سانقها) ركبها وسيّرهما

إلى طريق هابطٍ وهذا الطريق الهابط ينتهي بمنعطفٍ حاد، وكان سائق هذه السيارة يبتسم ويضحك، وأنت تعلم علم اليقين أن مكبح السيارة معطل، وأن الحادث حتمي، فتقول: لقد هلك صاحب هذه السيارة، و هو لم يهلك بعد، فهذا الكلام يعني أن المنحرفين والكفار والفاستدين والضالين و العصاة ينتظرهم عقابٌ أليم، وهذا العقاب الذي توعدّه الله في الدنيا أو في الآخرة واقعٌ لا محال، وكأنه قد وقع، و يؤكد هذا المعنى قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: آية " 1 ")

لا تستعجلوه أي لم يأت بعد، وأتى: فعل ماضٍ..

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

وأنت أحياناً ترى مقدمة الأحداث فتحكم قطعاً بنتائجها، فتقريب النار من البارود يوقع انفجاراً لا محالة فكأنه قد انفجر ولو أنه لم ينفجر بعد، وإلقاء الماء في المنحدر يجعل الماء يسيل بشكل حتمي (وكانه سال)، فهذا علمٌ بالقوانين، وإنّ أي إنسان يكذب و يرفض الحق ويستكبر عليه ويكيد لأهل الإيمان ويستعلي بماله و مكانته وقوّته ويريد أن يطفئ نور الله عزّ وجل، فهو هالكٌ مع وقف التنفيذ ولا بدّ من أن يأتي التنفيذ ولو بعد حين، فبإمكانك أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه هالكٌ لا محالة، والمؤمن لشدة يقينه بكلام الله عزّ وجل يقول: هذا الإنسان المستقيم نرجو له التوفيق، وهذا المنحرف نخشى عليه من العقاب، فالسيدة خديجة رضي الله عنها حينما حدّثها النبي صلى الله عليه وسلم عن الوحي الذي جاءه قالت له:

((والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوابه الدهر))

فمن الذي علم السيدة خديجة ذلك؟ إنها الفطرة.

وهذا الكلام أيها الإخوة مفيد لنا جميعاً، فلو أن شاباً تعرّف إلى الله، واستقام على أمره، وابتغى رضوانه، ورجا رحمته، وانضبط بالشرع، وحرر دخله، وضبط جوارحه فلك أن تقول له وأنت واثق: والله لا يخزيك الله أبداً، فالتوفيق حليفك، و الله سيرعاك ويؤيدك ويحفظك، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

هناك معيّة عامّة ومعيّة خاصّة..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

فالمعِيَّةُ عامَّة (معية العلم) أما المعِيَّةُ الخاصَّة التي جاءت في قوله تعالى:

(أَنْ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

فهذه للمؤمنين، فهو معهم مؤيداً وناصرأً، وحافظاً وموقفاً، فلك أن تقول للمستقيم: لا تخش شيئاً فالله معك، أما المكذب بالحق ؛ الذي يأكل المال الحرام و يبني ماله على إفقار الناس و يبني حرفته على إيذاء الناس و يعتدي على أعراضهم و أموالهم و يُضللهم و يبني ثروته على إفساد أخلاقهم ؛ فينشئ ملهياً أو يتاجر بأفلام لا تُرضي الله عزّ وجل فبإمكانك أن تتوقع له الدمار، وأنت لا تعلم الغيب ولكنها قوانين الله عزّ وجل، إذاً يجب أن تتلقّى وعد الله وكأنه وقع..

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

هل جرى هذا الحوار ؟ إنه لم يجر بعد، بل سيجري يوم القيامة، لكن لماذا عبر الله عزّ وجل بالماضي، فقال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

طبعاً عبّر عن هذا الحدث بالفعل الماضي لأنه محقق الوقوع، ولماذا قال الله عزّ وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

فمن منكم رأى ماذا فعل الله بأصحاب الفيل ؟ فمعنى ذلك أنه ينبغي أن تتلقّى إخبار الله لك وكأنه شيءٌ تشاهده مشاهدة يقينية، وقد قال بعض العلماء:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

أي: إن كفّار مكة و زعماءها و أغنياءها الذين عتّوا عن أمر ربهم، ورفضوا الحق وكذبوا النبي واستعلوا، فهؤلاء سيقع بهم الهلاك لا محالة. لذلك قال بعض المفسرين:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي سنبلوهم مع وقف التنفيذ، فأحياناً قد يبني إنسان مجده على المال الحرام، فيتنيه بماله و بيته وما عنده، ولكن الله سيدمره، والأمر واقع لا محالة فكأنه دمره و أهلكه..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

فالحديث هنا هن أولئك الكفّار الذين يمثّلهم الوليد بن المغيرة والذي ذكرت قصّته في الدرس الماضي..

(وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِيحُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17))

وقال بعض المفسرين: لقد أصابت الشدة أهل مكة في بعض السنوات، وكان هذه الشدة تأديباً من الله عز وجل، أو عقاباً لهم على كفرهم و تأمرهم على نبيهم صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي امتحناهم، أو أصبناهم بالمصيبة..

(كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

2- وهناك معنى آخر يقول: إن أي شيء بين يديك تتمتع به _ كالصحة مثلاً_ هو ليس نعمة ولا نقمة، بل هو امتحان، فإذا أنفقت هذه الصحة في طاعة الله انقلبت إلى نعمة، وإذا أنفقتها في معصية الله انقلبت إلى نقمة، فالمال الوفير مثلاً هل هو نعمة أم نقمة ؟ ليس هذا ولا ذاك، بل هو مادة امتحان، فإن أنفقت هذا المال في طاعة الله كان سلماً ترقى به، وإن أنفقت في معصية الله كان دركاتٍ تهوي بها، والزوجة ليست نعمة ولا نقمة، إنها امتحان، فإن أخذت بيدها إلى الله ورسوله والدار الآخرة كانت نعمة من أجل النعم، أما إذا أفسدتها وأفسدت بها الآخرين كانت نقمة من أعظم النقم، والأولاد كذلك هل هم نعمة أم نقمة ؟ إذا نشأَتْهم على طاعة الله كانوا لك نعمة وكانوا لك صدقةً جارية، وإن تركتهم وشأنهم فلم تودبهم ولم تعلمهم كانوا نقمة عليك، و كل أعمالهم الخسيسة ستكون مكتوبة في صحيفة والدهم الذي لم يعتن بهم، فمعنى ذلك أن كل حظوظ الدنيا ليست نعماً ولا نقماً إنما هي ابتلاء، فإذا أنفقت في طاعة الله كانت نِعْماً، وإن لم تنفق في طاعة الله كانت نِقْماً ويؤكد ذلك قول الله عز وجل:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا)

(سورة الفجر)

كلا: أداة ردع ونفي ؛ أي: كلا ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، فعطائي ابتلاء وحرمانني دواء، و من السذاجة وضيق الأفق والغباء أن يتوهم الإنسان أن المال الذي بين يديه نعمة عظيمة، إنما هو نعمة إذا أنفقت في طاعة الله، أما إذا أنفقت في المعاصي والآثام كان نقمة وأية نقمة، و قس عليه الزوجة والأولاد والصحة وطلاقة اللسان، والقدرات العقلية، والاختصاص والمهن الراقية، فكل هذه الحظوظ ليست نعماً وليست نقماً، إنما هي سلّم ترقى به إن أنفقتها في طاعة الله، أو دركاتٍ تهوي بها إن أنفقتها في معصية الله..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي: سنبتليهم و نعاقبهم، وكأننا عاقبناهم...

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ)

أي: جعلنا هذا المال الذي بين أيديهم مادة امتحان لهم، ألم يقل الله عز وجل:

(أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

(سورة القلم)

3- إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ، و هذا المعنى الثالث..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

قصة أصحاب الجنة:

كان أصحاب الجنة - فيما تروي التفسير- في اليمن بالقرب من صنعاء، وقد كان هناك رجلٌ صالح وله بستانٌ فيه من كل الثمرات، وكان هذا الرجل الصالح يؤدي حق الله للفقراء والمساكين عند حصاد الثمار وقطفها، فتوفي هذا الرجل وخلفه عدة أولاد.

وقبل أن أتابع القصة أود أن أصغرها لكم في قصّة قصيرة سمعتها: كان هناك شجرة ليمون في بيت من بيوت الشام القديمة، تحمل من الثمرات ما لا يُعد ولا يُحصى، و يوجد في هذا البيت امرأةٌ صالحة، فكلما طرق باب هذا البيت وطلب منهم ثمرة من هذه الثمار قدمتها، وكان هذه الشجرة وقفٌ لأهل الحي، فماتت هذه المرأة الصالحة وجاءت من بعدها زوجة ابنها الشابة، فلما طرق الباب وطلب الطارق ثمرةً من هذه الثمار طردته ومنعته، وبعد حين ييست هذه الشجرة وماتت. فهذا تلخيص بسيط جداً لهذه القصة " إن الله عباداً أعطاهم من النعم الشيء الكثير يقرهم عليها ما بذلوا فإن منعوها حوّلها إلى غيرهم ". فإذا كان بيدك شيء ثمين ينفع الناس فياك ثم إياك أن تمتنع عن نفعهم به، لأنه إن فعلت ذلك أخذ منه وحوّل إلى غيرك.. نعود إلى القصة:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

لقد كان بستاناً جميلاً فيه من كل الثمرات، و صاحبه رجلٌ صالح يؤدي حق الله ويطعم الفقراء والمساكين، وكان من عادة هؤلاء الفقراء والمساكين أن يأتوا إلى هذا البستان يوم الحصاد أو يوم قطف الثمار فيأخذون حقهم ونصيبهم طيبةً به نفوسهم، فتوفي هذا الرجل وترك أولاداً، وكان هؤلاء الأولاد من نوع آخر كما هي العادة..

(إِذْ أَقْسَمُوا)

فاجتمعوا ليلاً وتدارسوا الأمر، ورأوا أن لا يعطوا أحداً من المساكين، بل عليهم أن يقطفوا هذه الثمار دون أن يشعر بهم أحد، وأن يبيعوها و يقبضوا أثمانها دون أن يعطوا حق الله عز وجل..

(إِذْ أَقْسَمُوا)

أي: إن العمل كان مؤگداً، فالإنسان أحياناً قد يفعل شيئاً عن غير قصد أو تصميم، أما هؤلاء فقد اجتمعوا وتدارسوا، وتناقشوا وتحاوروا، وقرروا وأقسموا..

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

أي: أن يذهبوا بعد منتصف الليل قبل أن يأتي هؤلاء الفقراء، ليقطفوا الثمار، ويضعوها في الصناديق- إن صحَّ التعبير - ثم يسوقوها دون أن يعطوا هؤلاء الفقراء شيئاً..

(وَلَا يَسْتَنْتُونَ)

(سورة القلم)

معاني (ولا يستنتون):

1- قال بعضهم: " لا يستنتون من هذه الثمار الفقراء، فكلها للبيع ". لقد قرأت مرةً أن زارعي البرتقال في أمريكا أرادوا إتلافه للحفاظ على الأسعار المرتفعة، فقد خافوا من هبوط الأسعار فأرادوا إتلاف هذا المحصول، فتسلل الزوج الفقراء تحت الأسلاك الشائكة ليأكلوا هذا البرتقال الطيب الذي أراد أصحابه إتلافه، و في العام القادم فعلوا الشيء نفسه ولكن مع تصميم هذا المحصول لنلا ينتفع منه إنسان، فهذا هو الكافر.. شحيح دائماً..

(مَنَاعُ لِلْخَيْرِ)

وفي أستراليا أيضاً قبل عدة أعوام تمَّ إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص، وحُفرت الحفر ودُفِن هذا العدد الكبير للحفاظ على أسعارها المرتفعة.. بينما هناك شعوبٌ قد أهلكتها المجاعات، ولا يُستبعد أن يكون أصحاب الأغنام في أستراليا هم أنفسهم أصحاب البقر الذي جنَّ في إنكلترا، لأن العقاب كان شديداً، فقد توجب إحراق ثلاثة عشر مليون بقرة قيمتها ثلاثة وثلاثون مليار جنية إسترليني، فهذا هو الكافر..

(مَنَاعُ لِلْخَيْرِ)

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَنْتُونَ (18))

2- أي: لا يعطون أحداً، هذا معنى.

3- المعنى الثالث:

قد تقول مثلاً: أنا سأذهب إلى الجامعة غداً، فإن قلت: إن شاء الله تعالى، فإنك في هذه الحالة تكون قد استثنيت، وإنَّ أيَّ يمين استثنيتي معه لا يُحْنِثُ فيه إطلاقاً إذا فعل، فإذا قلت: لن أفعل هذا إن شاء الله فقد انتهى الأمر، لأن هذا يمين لا حنث فيه بسبب الاستثناء، والمؤمن الصادق لا يتكلم كلمة إلا أن يقول:

إن شاء الله تعالى، وقد فهم بعض الناس هذا الاستثناء فهماً شيطانياً - والعياذ بالله -، فإن أراد أن يدفع يقول: سأدفع لك غداً، أما إن لم يرد أن يدفع يقول: أدفع غداً إن شاء الله، فهو يستثني إن لم يرد الدفع، لكن المؤمن وهو في أعلى درجات العزم والتصميم على أن يفعل يقول: إن شاء الله..
(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الكهف)

فهناك إذاً (إن شاء الله) الإيمانية، و(إن شاء الله) النفاقية، ف(إن شاء الله) الإيمانية مقترنة مع العزم على الفعل...

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (18))

وماذا يعني أن يقول الإنسان: سأفعل ذلك غداً ثم لا يستثني؟ قد يظن البعض أن القضية سهلة وهي ليست كذلك، لأن الذي قال: سأفعل ذلك غداً دون أن يستثني، معنى قوله أنه متأكد من أنه سيعيش غداً، و متأكد من أنه سيتمتع غداً بالصحة، و متأكد من أن ماله سيكون بين يديه غداً، وهو لا يملك كل ذلك، لذلك قالوا: " من عَدَّ غداً من أجله فقد أساء صُحْبَةَ الموت ". أي إن كل إنسان قال: سأفعل هذا غداً دون أن يكون قوله مقترناً بتصميم وعزم، ومن دون أن يستثني فهو مشرك لأنه يعتقد أنه مستقل بإرادته وفعله عن الله، فأنت حينما تستثني تكون عبداً صالحاً وتكون مؤمناً وعالمناً، فأصحاب الجنة هنا لا يستثنون جزءاً للفقراء من الثمار التي سيقطفونها، ولا يستثنون بقولهم فيقولون: إن شاء الله...

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (18))

((أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، إن سلّمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي

في ما أريد أتعبتك في ما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

أهكذا اجتمعتم وقرّرتم وتعاهدتم وأقسمتم وصمّتم؟.. إذا:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

الشيء المألوف الآن أن موجة صقيع واحدة لبضع دقائق تتلف محاصيل بمئات الملايين، وهذا شيء يعلمه كل من يعمل بالزراعة، لقد جاء صقيع بالغوطة فأتلف كل محصول المشمش، فكان هذا طائفة من ربك، فكل إنسان يفكر أن يضمّن بمائتي ألف أو بخمسمائة ألف أو بمليون، جاءه طائفة من ربك، وكل إنسان يؤدي زكاة الزروع - و زكاة الزروع للأرض المسقية نصف العشر، و للأرض البعل العشر دون أن تُحسب النفقات -، فمن أدّى زكاة مزروعاته حفظ الله له هذه المزروعات، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته، وهناك أدلة كثيرة جداً على هذا، فقد يزرع مزارعان أرضين متجاورتين

يسقيهما نهرٌ واحد، والذي زرع هذه وتلك مزارعٌ واحد، ونوع البذار واحد، ونوع السماد واحد، والأمطار التي هطلت واحدة، ثم تجد أن هذا الحقل قد أعطى أضعافاً مضاعفة، وهذا الحقل أعطى شيئاً نزرأً يسيراً، فما السبب ؟ لأن هذا نوى أن يؤدي زكاة مزروعاته، وهذا أراد أن يمنع حق المسكين. سمعت قصةً قديمةً جداً، تقول: قبل خمسين عام جاءت موجة جرادٍ إلى هذه البلدة فلم تُبق شيئاً، أكلت الأخضر واليابس، وأهلكت كل المزارع والبساتين، إلا أن هناك بستاناً بقي يتمتع بأعلى درجات النضرة، فسألوا صاحبه: ما السر في أن الجراد لا يأتي إلى بستانك ؟ فقال: عندي دواء، قالوا: وما هذا الدواء ؟ أتمنع الناس من هذا الدواء ؟ قال: تأدية الزكاة ! هذا هو الدواء، ويُقسم أحدهم بالله أنه جاء بكيس جراد من الحقول المجاورة وألقاها في هذا البستان، فطارت كلها بعيداً، وفي أقل من دقيقة لم تبق في حقله جرادةٌ واحدة، وهذا لأنه يؤدي زكاة ماله.. سألتني أحدهم مرةً: هل على العسل زكاة ؟ قلت له: نعم، قال: فإذا لم ندفع ؟ قلت له: القراض جاهز، وهذه حشرة تأكل النحل وتتلغ الخلايا، وقد جاءت موجة قراض منذ أعوام فأتلفت معظم خلايا النحل، فإما أن تدفع الزكاة وإما العلاج جاهز، فهو لاء..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

لك أن تفهم (الطائف) بأنه الصقيع، ولك أن تفهم -كما تروي بعض التفاسير والله أعلم- أن ملائكة اقتلعت هذه الأشجار كلها ووضعتها في الطائف، وما يعيننا نحن أن هذا الثمر تَلَفٌ بطريقةٍ أو بأخرى..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

وهذا الطائف موجود دائماً في كل عصر، فموجة الصقيع طائف، والفيضانات التي تُتلف المحاصيل طائف، والرياح العاتية التي تقتلع البيوت البلاستيكية طائف.

فمرة يكون الطائف فأر الحقل، ومرة يكون الذبابة البيضاء، و عدد الحشرات التي تقضي على المزروعات لا تُعدّ ولا تحصى، ومن الحشرات، إلى الآفات، إلى الفيضانات، إلى الرياح العاتية، إلى الصواعق، إلى الصقيع، وهذا كله من الطائف..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

وهذا للمزارعين، أما للتجار فتوجد الحرائق، فقد يحترق مستودع فيخسر صاحبه عشرين مليوناً، وهذا طائف أيضاً، فالحريق طائف، والمصادرة طائف، وتلف البضاعة طائف، وأن تشتري بضاعة فتأتيك أخرى غير التي اشتريتها فتخسر خسارة كبيرة طائف، أي: إن عدد الأدوية التي يعاقب بها الله هؤلاء الذين منعوا حق الفقير لا تُعدّ ولا تُحصى..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

لقد كانوا يحلمون بقطف الثمار، وجني المحاصيل، وبيع هذه الثمار، ووضع أثمانها في جيوبهم، ثم يرفلون بأثواب العز والغنى، فاجتمعوا وقرروا، وأقسموا واتخذوا القرار، وتعاهدوا وهم يحلمون بالثروة طائلة..

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم﴾ (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ

كالصريم ؛ أي: كأنها مقطوعة، فإما أنها أرضٌ خلاء لا شيء فيها وقد اقتُلعت أشجارها، وإما أن هذه الثمار احترقت من الصقيع فأصبحت وكأنها قد قُطِعت ثمارها..

(فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم)

استيقظوا مبكرين بحسب ما اتفقوا..

(فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ اْعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22))

(سورة القلم)

هيا قوموا إلى جني المحاصيل، وبيع الثمار، ومنع حق الفقير..

(أَنْ اْعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَفُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23))

لم يشاؤوا أن يُشعروا أحداً أنهم سيقطفون الثمار اليوم، لأن الفقراء من عادتهم أن يأتوا إلى البستان ليأخذوا حقهم، فأرادوا أن يقطفوا الثمار في وقت مبكر جداً..

(فَانْطَلَفُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (24))

و نقف هنا قليلاً لندخل موضوعاً في العقيدة مهم جداً، وهو تسيير الإنسان وتخييره...

هل الإنسان مسير أم مخير ؟؟

حينما خلقك الله عزّ وجل من أبٍ وأم في بلدٍ معين، وزمن معين، وبيئة معينة، وإمكاناتٍ معينة، وخصائص وقدرات، وشكل وطول ولون.. إلخ، فهذه القدرات التي أودعها الله فيك نوعٌ من التسيير و هي قطعاً لصالحك، فإذا بلغ الإنسان رشده كلفه الله ؛ فأصبح يأمره وينهاه، يأمره مثلاً أن يصلي ويصوم و يحج، و أن يضبط جوارحه و يغضّ بصره عن محارم الله، وأن يصون سمعه عن الذي لا يرضي الله، ثم أمره أن يقيم شرع الله في بيته وفي عمله.. إلخ، فالإنسان مكلف و مخير، وهو مكلفٌ ومخيرٌ فيما كُلف، فإما أن يستقيم وإما أن ينحرف، و إما أن يستجيب وإما أن يتبع الهوى، و إما أن يُحسن وإما أن يُسيء، و إما أن يصدق وإما أن يكذب، وإما أن ينصف وإما أن يجحد، و الإنسان يختار شيئاً من هذين الشئيين، فإذا اختار الانحراف يتركه الله جلّ جلاله إلى أن يموت فيذهب إلى جهنم، فماذا يفعل به رب العالمين هنا ؟ إنه يسيره إلى دفع ثمن اختياره تربيةً وتعليماً.

ولو أن إنساناً مخيراً خُير في ما كُلف فاختر الاستقامة فإن الله يسيره بعد اختياره ذلك توفيقاً، أي: يوفقه ويحفظه و يرعاه ويصونه و يؤيده، و لو أنه اختار المعصية لساق له من الشدائد ما يردعه، وذلك

حاصل عليه ولو كان ذكياً لأن الذكاء لا ينفع مع الله أبداً، " يؤتى الحذر من مأمنه ". " لا ينفع ذا الجـد منك الجـد ". " إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه ". فالإنسان مخير في ما كُلف، و أمام الإنسان الخير والشر، الطاعة والمعصية، الصدق والكذب، الإحسان والإساءة، الاستقامة والانحراف، الإنصاف والجحود، فإذا اختار شيئاً من هذين الشيئين اقتضت عند ذلك حكمة الله ورحمته وتربيته لنا أن يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء، فيكون قد سيره إلى دفع ثمن اختياره، فالمستقيم يُسَيَّر ليكافئه الله، ويلهمه الصواب، فيلهمه هذه الصفقة فيربحها، و يلهمه هذا العمل فيسعد به، أما المنحرف فيُسَيَّر لدفع ثمن اختياره السيئ، فالإنسان إذا كُلف واختار الشيء السيئ يسيره الله لتربيته، وهذا الذي يحصل..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اعْبُدُوا عَلَىٰ حَرَّتِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخَافُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24))

تصميم واضح..

(وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26))

(سورة القلم)

الحَرْدُ: هو المَنع، أي اعتقدوا أنهم قادرون على منع حق المساكين والفقراء..

(وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا)

لقد صُغِقُوا، أين الثمار ؟ و أين الأشجار ؟ هذا ليس بستانهم لقد سلكوا له طريقاً خطأ..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ)

ليس هذا هو البستان، لقد أخطأنا في الطريق، بستاننا مُثْقَل بالثمار والمحاصيل طيبة، والأسعار فيه غالية، والثروة مقبلة..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ)

ثم اكتشفوا أن هذا هو بستانهم، وأن الطريق هي هي، وأن المحاصيل قد تلفت، وأن الثمار قد أُحْرِقَتْ، أو أن الأشجار قد اُقْتُلِعَتْ - وهذا على رأي بعض المفسرين..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27))

فهذا هو التأديب الإلهي، وهذه هي التربية الإلهية، وهذا هو التسيير الإلهي لدفع ثمن الاختيار، فلو أن الله سبحانه وتعالى أحرَّ الثواب والعقاب إلى يوم القيامة لهلك معظم الناس، ولكن رحمة الله جلَّ جلاله اقتضت أن يُتَابَعَ الإنسان، فإن اختار اختياراً سيئاً أدبه في الدنيا، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِأَ كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم: آية " 41 ")

أليس من الممكن أن يُظَهَر الفساد دون أن يذيق الله الناس بعض ما كسبوا ؟ أليس من الممكن أن تكون الإباحية على أشدها في العالم الغربي دون أن يظهر مرض الإيدز ؟ هذا ممكن، فلو أن الله لم يخلق هذا الفيروس في الأصل، لكانت الإباحية على قدمٍ وساق، فيغرق الناس في ملذاتهم إلى أن يأتيهم الأجل إلى جهنم وبئس المصير، لكن تربية الله تقتضي خلاف ذلك، قال تعالى:

(**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

لماذا يذيقهم بعض الذي عملوا ؟

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)

تصوّر لو أن صاحب مؤسسة أعلن عن حاجته إلى موظف، وجاء موظف وبيّن له أن هناك عدة أشهر للتدريب، فإما أن نقبلك وإما أن نرفضك، وكلّما أخطأ هذا الموظف المدرب سجّل عليه المدير العام خطأه، فلما تراكمت أخطاؤه فصله واستغنى عن خدماته، فهذا أسلوب من الممكن أن يتبعه المدير. أما الأسلوب الآخر فهو: أن يحاسبه كلّما أخطأ و يبيّن له الصواب، فإذا صار بعد حين موظفًا متفوقًا أبقيه عنده، فأيهما أرحم ؟ وأيهما أحكم ؟ وأيهما أكمل ؟ أن تحصي على الناس أخطاءهم ثم تهلكهم، أم أن تربيههم يوماً بيوم وساعة بساعة ؟ و هذا ما يفعله الله عزّ وجلّ.. " إذا أَحَبَّ الله عبده عَجَّلَ له بالعقاب " .. " إذا أَحَبَّ الله عبده ساقَ له بعض الشدائد " .. " إذا أَحَبَّ الله عبده حاسبه حساباً عسيراً " أي: في الدنيا كي يرقى ويستقيم، و يبدو أن الله يحبّ أصحاب الجنة هؤلاء، فأُتلف مزروعاتهم عندما غفلوا عن حق الفقير ليحذرهم، وهناك آلاف القصص حول هذا الموضوع.

فقد حدّثني صديق أنه حسب في رمضان ما عنده من مال، فكانت زكاة ماله إحدى عشر ألفاً وخمسمائة وستين ليرة، فدخل في خصام مع زوجته، فقالت له: لا تدفع زكاة هذه السنة لكي تتمكن من دهن البيت، و ضغطت عليه إلى أن استجاب لها وألغى دفع الزكاة، قال: أصيبت مركبتي بحادث فأخذتها للتصليح، فكانت مجموع الفاتورة الكاملة إحدى عشر ألف وستمائة وستين ليرة، فهذه هي التربية الإلهية، فكل إنسان يمتنع عن تطبيق أوامر الشريعة كإداء الزكاة - يؤدّبه الله بالإتلاف، فأحياناً يتلف له بقدر الزكاة، و أحياناً يتلف ضعف الزكاة، وأحياناً أربعة أضعاف، وهذا بحسب الحكمة، و هذه قصّة متكررة لكنها نموذجية، فهي نموذج لإنسان ضنّ بماله فلم يزلْ و أثر المال على تأدية حقّ الله فيه.

(**فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ**)

أي أقربهم إلى الله..

(**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**)

(سورة البقرة: آية " 143 ")

وسطاً ؛ أي: وسطاء بيني وبين عبادي، فأقرب هؤلاء الإخوة إلى الله أوسطهم..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

معنى ذلك أنه عارضهم حينما اجتمعوا، وقرروا، واتفقوا، فلماذا أثلّف الله حصّته معهم ؟ لأنه في النهاية سايرهم، لقد عارضهم في بادئ الأمر فضغطوا عليه فاستجاب لهم فشمّله عقاب الله عزّ وجلّ..

(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ)

إذا لا يكفي أن تقول ثم ترضخ، ولكن يجب عليك أن تقول و تفعل، لا أن تقول وترضى، فأحياناً يقول أحدهم: شريكي لم يدفع الزكاة وقد أقنعتة كثيراً ولم يرض، فأقول له: لابد أن يصيبك ما يصيب صاحبك إن لم تدفع الزكاة، فإذا كنت صادقاً فقل: لابد من دفع الزكاة، أنا سأدفع زكاة نصيبي و أنت لك الاختيار، أما الاعتراض اللطيف الذي يتلاشى مع الضغط شديد فهو غير مجدٍ.

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ أَنَّا تُسَبِّحُونَ)

أي: هلنا سبّحتم الله و نزّهتموه عن الشرك، لقد ظننتم أنكم قادرون على استيفاء ثمن محاصيلكم وثماركم ووضعها في جيوبكم من غير أن يكون لله عزّ وجلّ علاقة في ذلك، أنتم بفعلتكم هذه قد أشركتم، فلم تنزّهوا الله عزّ وجلّ عن الشريك، وهو الذي بيده كل شيء، إذاً:

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ أَنَّا تُسَبِّحُونَ)

أي: لو نزّهتم الله عن الشريك ولم تشركوا أنفسكم معه في علم الغيب والمستقبل، لما حدث لكم ما حدث..

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ أَنَّا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

اعترفوا بذنبيهم، وهذه نعمة كبرى، فالاعتراف بالخطأ والاسترجاع ومحاسبة النفس والعودة إلى الحق نعمة كبرى و فضيلة من الفضائل..

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ (30))

أخذوا يتلاومون قائلين: الحق عليك، لا الحق عليك، أنت لم تصر عليّ، وأنت كذلك اتخذت موقفاً قاسياً.. فبدؤوا يتراشقون النّهم..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

طغيانا، تجاوزنا الحد المعقول..

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

أيها الإخوة... مرّة ثانية.. إذا جاءتك مصيبة وعرفت سرّها وعُدّت إلى الله فهذه نعمة كبرى قد منّ الله بها عليك..

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

((من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر))

(عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا)

سَمِعْتُ أُمَ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا أَصِيبَ إِنْسَانٌ بِمَصِيبَةٍ أَنْ يَدْعُو قَائِلًا:

((اللَّهُمَّ أَوْجِرْنِي فِي مَصِيبَتِي وَأَبْدِلْنِي خَيْرًا مِنْهَا))

فتوفي زوجها أبو سلمة، وكانت لا تعلم في الرجال من هو أفضل منه ؛ رجولة، و مروءة، وكرمًا، وشهامة، وطاعة، وتفوقًا، وعلمًا، و حين بدأت تدعو كما علمها النبي قالت: هذا غير معقول ليس هناك أفضل من أبي سلمة، ثم فوجئت أن رسول الله قد خطبها لنفسه، لذلك:

(عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا)

أي إذا جاءتك مصيبة -لا سمح الله - وأتلفت المال، فاستفدت من هذه العقوبة، فأنت الرابح الأكبر لأن المال يُعَوِّضُ (ما ضاعت عبْرُهُ كانت لصاحبها عبْرَةً)، فلو ذهب نصف مالك وحملك هذا على طاعة الله فأنت الرابح الأكبر، و لو فقدت أئمن شيءٍ تملكه وحملك هذا الفقد على طاعة الله فأنت الرابح الأكبر، فلو فقدت وظيفتك العالية ومِلْتَ إلى الله وطاعته وطلب العلم فأنت الرابح الأكبر، و أي سببٍ يضيع منك إذا كان سبب هداك إلى الله أو سبب معرفتك بالله أنت الرابح الأكبر، فالمحاصيل تلتفت لكنهم عادوا إلى الله و طاعته. فأنا أعرف رجلاً كان الدّين خارج حساباته، وكان يعيش لدنياه، فاتهم بتهمة وهو بريء منها، فسيقت له بذلك شدة قاسية جداً، فحملته هذه الشدة على التوبة وأداء الصلوات وطاعة الله، فهل هو رابحٌ أم خاسر ؟ إنه الرابح الأكبر..

(عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنا رَاغِبُونَ)

تَلَفُ هذه المحاصيل جعلهم يرغبون إلى الله ويعترفون أنهم طَغَوْا وَبَغَوْا و ظلموا أنفسهم..

(إِلَى رَبِّنا رَاغِبُونَ)

كل هذه القصة مطوية بكلمتين هي حكمتها، ومحورها، ومغزاها، وهما:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: آية " 33 ")

أي: يا عبادي كل أنواع العذاب التي أسوقه لكم في الدنيا مِنْ هَمٍّ و خوف و نقصٍ في الأموال و الأنفس و الثمرات، و موت الأقارب، و الأمراض بشئٍ أنواعها حتى العُضال منها كل هذه الشدائد التي أسوقها لعبادي إنما أصيبهم بها كي أُقَرِّبَهُمْ، كي أنقلهم إلى الهدى والطاعة و التوبة والإقبال على الله و الرغبة فيما عند الله..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فهناك خياران ؛ إما عذابٌ أكبر يوم القيامة في جهنم، أو عذابٌ أصغر في الدنيا، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

إن هذه القصة تصوّر كل أنواع المصائب التي يسوقها الله للناس على اختلافها في الدنيا من أجل أن يقولوا:

(إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

من أجل أن يقولوا:

(إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم)

من أجل أن يقولوا:

(يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ)

(سورة القلم)

فالإنسان يجب أن يعلم علم اليقين أنه إذا كان في انحراف و تقصير وعدوان و أكل مال حرام، فهناك علاج و تأديب من الله ينتظره، وأن الله لن يدعه هكذا لأنه يحبه، وقد قال الله عز وجل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

فهذه القصة مفتاحها و مغزاها وكلمة سرّها.. إن صحّ التعبير..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فالشرّ للشر لا وجود له في موازين الله، بل هو يتناقض مع وجود الله، فإما أن تؤمن بوجود الله، وإما أن تؤمن بالشر للشر، بل الشرّ للخير، وقد يبدو لك الشرّ شرّاً وهو ليس شرّاً في الأصل..

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

أعرف رجلاً متعلقاً بابنته الجميلة تعلقاً لا حدود له، وقد كان متفلاً، فأصيبت هذه الفتاة بمرض خبيث، فجعل الأب والأم ينفقان كل ما يملكان لعلاجها، حتى إنهما اضطرا لبيع بيتهما، ثم خطر في بالهما خاطر، فقالا: ربما شفى الله ابنتنا لو أننا ثبنا إليه، فتابا إلى الله، والتزما أمره ونهيه وبعد حين شُفيت من مرضها، كان هذا المرض المخيف بالنسبة لهما كأنه ضيف أتى فدفعهما إلى طاعة الله ثم انسحب..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فيجب أن تعلم علماً يقينياً أن العذاب إنما هو عقوبة عن ذنب مضى، أما الآن ما يحصل الآن فهو أننا نرى آلاف الحوادث أمامنا ؛ فهناك إنسان يصاب بمرض عُضال، وإنسان يفتقر فجأة، وإنسان يُعَذَّب،

ونحن لا نعلم إلا الفصل الأخير، أما الفصول السابقة فلا نعرفها.. لكن يجب أن نعلم أنه ما من نتيجة إلا وهي متطابقة مع المقدمات تطابقاً رائعاً، لكننا لا نعلم كل شيء، فيجب أن نستسلم..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

قس عليه كل شيء، كل أنواع الشدائد ؛ المادية، والمعنوية..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

لذلك ورد في الحديث القدسي: ((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ؛ سُقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الدر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))
إخواننا الكرام... مفتاح هذه القصة في كلمة:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي إن كل أنواع العذاب التي أسواقها لعبادي من هذا النوع، وعلى هذه الشاكلة، ثم قال:

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة القلم)

فهل من الممكن أن يوافق أب على قطع يد ابنه ؟ طبعاً لا، لكن إذا كان الولد يعاني من مرض الغرغرينة فليس أمامه إلا أن يوافق على ذلك، فقد يأتي العذاب للإنسان في اليوم الأول من هذه الناحية، وفي اليوم الثاني من ناحية أخرى، وهكذا.. والإنسان العادي إذا أيقن أن هناك خطراً متفاقماً يحيق به يسارع إلى دفعه، و ربنا عز وجل يسوق الشدائد، لئلا يذوق صاحبها نار جهنم.
فملخص الآية أو القصة:

(وَلَنَذِيقَنَّكَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

في الدنيا لأنه:

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة القلم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (6-7): تفسير الآيات 34-43

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أسس المنطق السليم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السادس من سورة القلم، ومع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:
(**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفْجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَآتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ (41))**

(سورة القلم)

محور الآيات:

أيها الإخوة الكرام... إن المحور الذي تدور حوله هذه الآيات هو أن الله سبحانه وتعالى ينفي أن تكون معاملة المؤمن كمعاملة غير المؤمن، فهو سبحانه لا يعامل المسلم كالمجرم، ولا المستقيم كالمنحرف، ولا الصادق كالكاذب، ولا الأمين كالخائن.

فإما أن تؤمن أن لهذا الكون إلهاً قَيُّوماً عادلاً، وإما أن تؤمن بالعبثية، والعبثية تتناقض مع وجود الله، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)**

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)**

(سورة القيامة)

ما الذي يحمل الناس على معصية الله ؟

إن الذي يحملهم على معصيته هو توهمهم أن العاصي سيكسب شيئاً من معصيته، وأن المؤمن باستقامته قد حُرِمَ من مباحج الدنيا، وهذا الوهم الخطير هو الذي يدفع الناس إلى مخالفة منهج الله، ولو أن الناس عَلِمُوا علم اليقين أن لكل معصية عقاباً، وأن كل خروج عن منهج الله هو هلاكٌ وشقاءٌ في الدنيا والآخرة، لما خرج أحدهم عن منهج الله، إنها أزمة علم، و الآية الكريمة تقول:

(**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)**

(سورة القلم)

فهؤلاء الذين اتقوا ربهم قد عرفوا أمره ونهيه، فالإنسان يتقي الله ويتعد عن معصيته إذا عرف أمره ونهيه، فهؤلاء الذين طلبوا العلم، وبحثوا عن النظام الذي شرّعه هذا الإله العظيم، وبحثوا عن دستور الإنسان المؤمن، فقرأوا القرآن، وتَفَهَّمُوا آياته، وعرفوا حلاله وحرامه، وما ينبغي وما لا ينبغي، ثم اتقوا أن يعصوا ربهم، هؤلاء المتقون في جنات النعيم، و كل نعيم الدنيا ليس بشيءٍ أمام نعيم الآخرة، بل كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المَخِيط إذا غمس في مياه البحر))

إذا غمست إبرةً صغيرة في مياه البحر ثم أخرجتها بماذا ترجع ؟ هذا الماء الذي رجعت به هو نسبة ما في الدنيا من نعيم إلى ما في الآخرة من نعيم، فقد سألت زوجة أحد الصحابة زوجها شيئاً من الدنيا فقال لها: اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلِبَ نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلئن أضحي بك من أجلهن، أهون من أضحي بهن من أجلك.. موازين الآخرة..

إن محور هذه الآيات يقول: من المستحيل أن يتساوى المسلم و غير المسلم، والمؤمن غير المؤمن، والمستقيم وغير المستقيم، و الصادق والكاذب، وما يعتقدُه الناس من أن الإنسان المال يحل كل المشكلات هو وهم باطل، يقول الله عزَّ وجل:

(أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

في الآية لفظة دقيقة جداً، فالله عزَّ وجل لم يقل: أفجعل المسلمين كغير المسلمين، بل قال:

(أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

أي إما أن تكون مستسلاً لأمر الله، خاضعاً له، مطبقاً لتعليماته، أو أن تكون مجرماً، وإجرامك يكون بحق نفسك أولاً لأنك أبقيتها في جهالة جهلاء، وأطلقت شهواتها إلى أن تفلتت فهلكت في الدنيا والآخرة، والإجرام يكون أيضاً في حق مَنْ حولك الذين لم تأخذ بيدهم إلى الله عزَّ وجل، وبحق من تتعامل معه من الناس، إذا لم تطبق منهج الله عزَّ وجل فيهم فأخذت ما ليس لك منهم واعتديت على أموالهم و أعراضهم، وظلمتهم. أيها الإخوة الكرام...

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وجنات النعيم التي وعد الله بها المؤمنين تختلف عن النعيم الذي يعيشه بعض المترفين في الدنيا، فالنعيم الدنيوي مشوبٌ بالقلق و الحُزن و توقع المصيبة والخوف من المُستقبل والمجهول، فكل إنسان حاز الدنيا وملكها في أعماقه قلقٌ كبير، وخوفٌ عميق، وشعورٌ بالحيرة.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

أما نعيم أهل الجنة فهو نعيم لا يزول ولا يشوبه شيء.

أيها الإخوة.. إنني أتمنى على كل أخ كريم ألا يسمح لنفسه أن توازن بين إنسان مترفٍ متفلسٍ من أمر الله ونهيه، وبين إنسانٍ متعبٍ يعاني من شظف العيش لكنه يعرف الله ويستقيم على أمره، فلا تسمح لنفسك أن توازن بين إنسانين، ما لم تضمّ إلى دنيا كل منهما آخرته، وإنك لو ضمنت آخرة المؤمن إلى دنياه، وضمنت آخرة الكافر إلى دنياه، لوجدت أن المؤمن هو المفلح و الرابع والسعيد.

قصة:

يروى عن عبد الله بن المبارك – وهو أحد العلماء الأجلاء- أنه كان يمشي في ثلّةٍ من أصحابه، وهو في أبهى حُلّةٍ و أجمل حالة، فرآه رجلٌ غير مسلم كان يعيش معيشةً ضنكاً، فسأله هذا السؤال: يا إمام يقول نبيكم عليه السلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأَيُّ سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها؟ فأجاب هذا الإمام: " إنَّ ما أنا فيه من النعيم إذا قيس إلى نعيم الجنة فأنا في سجن، وما أنت فيه إذا قيس إلى عذاب الآخرة فأنت في جنة "، فلا تسمح لنفسك أن توازن بين جهتين، سواء كانت هاتين الجهتين إنسانين أو أُمَمَيْنِ، ما لم تضم آخرتهما إلى دنياهما، فإذا ضمنت الآخرة إلى الدنيا كان المؤمن منهما هو الأفضل والأكمل، فهو الذي عرف الحقيقة، فالدنيا ليست دار استقرار، إنما هي ممر، والآخرة هي المقر، و الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فالمؤمن الذي عرف الله واستقام على أمره ينتظره نعيمٌ مقيم، لذلك قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ

الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

و المؤمن في بعض حالات غفلته و فتوره، يشعر بأنه يعيش بعض المشكلات، وقد ينظر إلى رجلٍ من أهل الدنيا فيراه يتقلب في النعيم والمال الوفير والصحة الطيبة و المكانة العلية، ففي بعض حالات الفتور والغفلة قد يتوهم أن هذا الإنسان هو المفلح الناجح، وأنصح في هذه الحالة أن يعود إلى قول الله عزَّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فالمؤمن لا ينبغي أن يشعر بهوان..

(وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)
(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

حقيقة الدنيا:

إذا كانت الدنيا خشنة و مفعمة بالمشكلات وكنت فيها مستقيماً على أمر الله، ترحو رحمة وتخشى عذابه، فإنك فيها الراح والمفلح والمتفوق والعاقل والفائز.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وهذه الدنيا ستمضي، ثم يأتي الموت فينهى كل شيء، فيموت إنسان وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، ويموت آخر وهو يملك الملايين المملينة، فيكونان في القبر سواء، فكلاهما يموت وهو لا يملك شيئاً، فالموت يلغي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقير الفقير، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، ودماة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض، لذلك -أيها الإخوة- لا يجوز ولا ينبغي أن نسمي العطاء الذي يناله الإنسان في الدنيا عطاءً بالمعنى الحقيقي، إنه ليس بعطاء بل هو ابتلاء، لأنه ينقطع بالموت، وإذا كان الشيء ينقطع بالموت لا يسمى عطاءً، فالعطاء لا يسمى عطاءً حقيقياً من قبل الله عز وجل إلا إذا كان متصلاً بالآخرة، وقد ورد بعض الأدعية عن السلف الصالح تقول: " اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة ".

و الخط البياني للمؤمن - كما أقول دائماً - صاعد صعوداً مستمراً، بينما قد يصعد الخط البياني لغير المؤمن صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً، فالعبرة أن تكون في طاعة الله والدنيا لا تقدم ولا تؤخر، فأصحاب النبي رضوان الله عليهم، عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وفي إقبال الدنيا وإدبارها..

فبعد أن ذكر الله عز وجل أصحاب الجنة الذين تحدثنا عن قصتهم في الدرس الماضي وكيف أنهم أرادوا أن يمنعوا حق الفقير، فأصاب الله سبحانه وتعالى محاصيلهم بالبور وأتلفها، فندموا على ما فعلوه، بعد ذلك يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن أهل الجنة قائلاً:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

فنعيم هذه الجنة خالد إلى أبد الأبد، فهل يمكن لعاقل أن يضحى بها ويعرض عنها ؟ أيطمع الإنسان بسنواتٍ معدودة مشحونة بالمتاعب، ويضحى بالآخرة الأبدية؟! هذا قول الله خالق الأكوان، فأنت - أيها الأخ الكريم - قد تصدق إنساناً قوياً يفعل ما يقول، فتأتمر بأمره وتنتهي عما ينهى، أفلا تصدق ربنا جل جلاله وهو خالق السماوات والأرض ؟ أفلا تصدقه وهو يقول إن بعد هذه الحياة حياة أبدية فإما جنة يدوم نعيمها، أو نار لا ينفد عذابها، لقد قال الإمام الغزالي حينما خاطب نفسه: " يا نفس لو أن طبيباً

منعك من أكلة تحبينها فلا شك أنك تمتنعين " .. وكل واحد منا لو شكنا من بعض أعضائه وجعاً، فمنعه طبيب حاذق ورع من أكلة معينة أو من شيء كان يفعله، لتركه فوراً حفاظاً على صحته.. وهنا يقول الإمام الغزال: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها فلا شك أنك تمتنعين.. دققوا في هذا القول: " أكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذا ما أكفرك !! " .. أيعقل أن تصدق الطبيب وتأتمر بأمره وتنتهي عما نهاك عنه لأنه عندك صادق أمين، ثم ينهاك خالق السماوات والأرض عن أشياء ويأمرك بأشياء، ويعدك بالجنة ويحذر من النار ثم لا تأتمر ؟ .. أكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ فما أكفرك إذا فعلت ذلك، ثم يقول: " أكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذا ما أجهلك ". فالإمام الغزالي يرى أن الذي يقترب معصية هو عند الله قطعاً كافراً وجاهلاً..

(إِنْ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

و معظم المسلمين اليوم يعيشون دنياهم، وأصبح للدنيا وجود قوي في حياتهم ؛ سواء في مالها أو تجارتها أو نسائها أو متاعها أو مباحها أو ببوتها أو مركباتها، فالدنيا موجودة في حياتهم وجوداً صارخاً، أما الآخرة فهي ليست داخلية في حساباتهم أبداً، بل قلما يذكرون الآخرة، على الرغم من أن الإيمان بالآخرة هو أحد أركان الإسلام، فالمؤمن -أيها الإخوة- لا يكون مؤمناً حقاً حتى يُدْخَلَ الآخرة في حساباته الساعية لا اليومية، يقول في نفسه: هذه الكلمة سوف أسأل عنها، و هذا المبلغ من المال سوف أحاسب عليه، و هذه النظرة سوف أعاتب عليها، و هذه الحركة سوف أدفع ثمنها، و هذا العطاء قد لا يرضي الله، وهذه القطيعة قد تغضب الله عز وجل، فهو يحاسب نفسه في كل كلمة، وفي كل حركة وسكنة، ووقفه وعطاء ومنع وابتسامه، فيضبط كل مواقفه بمنهج الله عز وجل، فإذا لم تدخل الآخرة في حسابات الإنسان فلن ينجو من عذاب الله، فإذا كان في أحد الدوائر مدير قوي، وله عيون في كل غرفة، فإن وجود هذا المدير سيدخل في كل حسابات الموظفين، فلا يجرؤ أحد على أن يتكلم كلمة يخشى أن تصل إليه فينتقم منه، والأمر في الآخرة كذلك أيها الإخوة... يقول الله عز وجل عن هذا اليوم العصيب..

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

فيجب علينا أن ندخل هذا اليوم في حساباتنا، و القضية عند المؤمن سهلة جداً، فهو لا يأخذ ما ليس له، ويعطي الذي عليه، طلباً للنجاة من حساب الله عز وجل.

(إِنْ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (34) أَفْنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35))

فيا أيها الإخوة... والله الذي لا إله إلا هو إني لا أجد شيئاً يدفعنا إلى طاعة الله كاعتقادنا أنه لا يمكن للطائع أن يكون خاسراً، كما لا يمكن للعاصي أن يكون رابحاً، وإلا ساد العبث وغاب العدل، فلا يمكن

للمسيء المنحرف أن ينجو، كما لا يمكن للمحسن المستقيم أن يقع، فالصادق لا يقع، والكاذب لا ينجو،
و الأمين لا يقع، والخائن لا ينجو، هذا هو اعتقادنا، والآيات في ذلك كثيرة جداً:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

في الحقيقة هناك فرق كبير جداً بين المؤمن والفاسيق، والمسلم والمجرم، فالمؤمن صادق أمين رحيم
منصف محب متواضع عفو سخي لطيف ؛ أما غير المؤمن فهو وقح عنيد متكبر مستعجل جاحد.

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

و الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتقولون على الله بغير علم، فقد كانوا في بحبوة
وغنى ولهم دنيا عريضة، فكانوا ينظرون إلى أصحاب رسول الله الفقراء الضعاف على أنهم في
الدرجة الدنيا من المجتمع، فيقولون: ربنا يحبنا لذلك أعطانا، وإذا زعمتم أن هناك آخرة فنحن فيها كما
نحن في الدنيا أغنياء وأقوياء ومكرمون، هذه دعواهم لكنها دعوى بلا دليل، ولولا الدليل لقال من شاء
ما شاء، فإذا ألغي الدليل أقول لك: أنا أملك كل الشام، لكن هذا القول بلا دليل ولا مستندات، وقد رد
ربنا عز وجل عليهم، فقال: هؤلاء الذي ترونهم صغاراً ضعافاً محتاجين، هؤلاء لهم الآخرة.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ)

وقد أشار النبي عليهم الصلاة والسلام إلى هذه الحقيقة الدقيقة حينما خاطب سيدنا عدي بن حاتم، هذا
الملك الذي لقي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يظن أنه سيلقى ملكاً، فلما دخل عليه قال: "من الرجل ؟
" قال: عدي بن حاتم، فرحب به النبي عليه الصلاة والسلام وانطلق به إلى بيته تكريماً له، و في
الطريق استوقفته امرأة ضعيفة فوقف معها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال: والله ما هذا بأمر ملك، فلما
دخل بيته، لم يجد فيه إلا وسادة واحدة ألقاها النبي إليه وقال:

((اجلس عليها))

فقال عدي بن حاتم: بل أنت فاجلس عليها، قال: " بل أنت"، قال: فجلست عليها وجلس هو على
الأرض، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، قال:

((إيه يا عدي بن حاتم))

دققوا في هذا الكلام الذي يحتاجه كل مؤمن في هذه الأيام

**(("لعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجته.. فقراء.. وإيم الله
ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من دخول
في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية**

**تحجّ البيت على بغيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك يا عدي من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة
عدوهم))**

كما هي حال المسلمين اليوم..

((وايم الله يا عدي لتوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للمسلمين))

وقد عاش عدي بن حاتم ورأى بعينه كل ما وعد به النبي عليه الصلاة والسلام.
وقد نظر كفار قريش إلى المسلمين فرأوهم ضعافاً فقراء من الطبقة الدنيا في المجتمع، فقالوا: نحن
على حق لأننا أغنياء و أقوياء، فالدنيا بين أيدينا، وإذا زعمتم أن بعد الموت حياةً أخرى فنحن في الجنة
قبلكم، ولنا صدْرُها، وهذا كلامٌ بلا دليل و لا أساس، فرد عليهم ربنا عزّ وجل فقال:

(أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

لماذا يقوّي الله سبحانه الكافرين أحياناً ؟؟

أيها الإخوة: إنني أكاد أصل إلى الحقيقة الآتية: إن مساواة المسلمين بالمجرمين أمر يتناقض مع وجود
الله، فإن شئت قل: بل هذا يتناقض مع عدله بديهية، فالله موجود ومع وجوده لا يوجد عبثية على
الإطلاق، أما قولهم إن المجرم هو الفائز والمسلم هو الخاسر فهذا القول هو العبثية بعينها، فهل من
المعقول أن يكون المستقيم هو الخاسر والمنحرف هو الفائز !! و أن يكون الصادق هو الخاسر والكاذب
هو الفائز !! و الأمين هو الخاسر والخائن هو الفائز !!.

(أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

هكذا تعتقدون و تتوهمون و تحلمون..

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

فأين عقولكم ؟ أين منطقتكم ؟ إنه إله كريم وكل الخلق عباده، وبيده كل شيء، فهل يمكن أن يقوّي
الكافر، ويعلي قدره، ويعطيه المال الوفير والبنين، ويجعله سيّداً، يتحكم ببقية الناس إلى ما شاء الله ؟! قد
يرفعه إلى حين ليمتحنه.

قد يقع بعض الأشخاص في اليأس، لأن الأعداء أقوياء جداً، و يملكون أسلحة كثيرة ومتطورة جداً،
ونحن ضعفاء ومترقون، وأريد أن أسأل: أية جهةٍ بنتُ مجدها على أنقاض الآخرين ثم نجحت خطتها
إلى ما شاء الله ؟؟ إن نجاح خطتها هذا يتناقض مع وجود الله، لذلك قال أحدهم: "عرفت الله من نقض
العزائم"، فالإنسان قد يعتدّ بقوته فينهار لأتفه سبب، وقد يجعل الله تدميره في تدبيره.

إخوننا الكرام... أنا لا أجد شيئاً يدفعنا إلى طاعة الله، وإلى بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس،
كأن نعتقد اعتقاداً جازماً أنه يستحيل أن يكون المسلم كالمجرم، أو أن يكون المجرم كالمسلم، والآيات
كثيرة، كثيرة جداً.

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

لامنطقية الكفر:

أين المنطق ؟ أين العقل ؟ الأمر بيد الله عز وجل، حياتنا بيد الله، قوتنا بيد الله، مالنا بيد الله، مكانتنا بيد الله، فلماذا يقوي الله الكفار ؟ يقويهم تربية للمؤمنين.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَثَرِيَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

معنى ذلك الله عز وجل يُضَعِّفُ الْمُؤْمِنِينَ تَأْدِيبًا لَهُمْ، وَيُقَوِّي غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ كَشْفًا لِحَقِيقَتِهِمْ، أَمَا عَلَى الْمَدَى الْبَعِيدِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْحَقَّ، وَلَا يَتَخَلَّى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ.

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

بأي منطق تحكمون ؟.

فقدان المرجعية:

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)

أعندكم كتابٌ تأتون منه بهذه الأفكار، فأبي كتابٌ هذا ؟ إن الحق واحد لا يتعدد، وكتاب الله هو الحق.

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخِيرُونَ (38))

الإنسان أحياناً حينما يعصي و يميل مع هواه وشهوته، يختل توازنه الداخلي بسبب فطرته، فكل إنسان له فطرة، و كل مولودٌ يولد على الفطرة السليمة.

أيها الإخوة... هناك نقطة دقيقة جداً، الإنسان له فطرة، و هذه الفطرة هي جيلة تكشف له خطأه، فيقول لك: إني أشعر بضيق و كآبة وبوخز الضمير، و كل هذا الكلام صحيح، فالإنسان حينما يحيد عن منهج الله عن وعي أو عن غير وعي يختل توازنه الداخلي بسبب هذه الفطرة، وعلى هذا الأساس يحاسب الإنسان، فلو لم يأت رسول مبلغ أبداً، لكشفت فطرته خطأه، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

هذه المعاذير التي يلقيها للناس هم في الحقيقة يكشفون أمرها تماماً، فالإنسان فطرته سليمة، فإذا انحرف و حاد و أكل ما ليس له و ظلم و استعلى و تحكّم بالناس و أخذ بعض ما في أيديهم قهراً و ظلماً شعر باختلال توازن داخلي، و هذا الاختلال يجعله يتعلّق بأية فكرة تطمئنه، فهناك كتاب فيه ضلالات ودعوة إلى الإباحية و قد غُطي بتأويلات مضحكة لكتاب الله قد أقبل الناس عليه إقبالاً كبيراً، وقد طبع

منه الطبعة الخامسة، فما السبب ؟ السبب بسيط جداً، وهو أن الإنسان حينما ينحرف يختل توازنه فيتعلق بقشة، فأى فكرة ولو لم يكن لها أصل وكانت بلا دليل تطمئنه و يتعلق بها، لذلك كانت الأفكار التي تُعطي انحراف الإنسان يتمسك بها أناسٌ كثيرون، لا لأنها صحيحة ومعقولة و مدعمة بالبراهين، أبداً، بل لأنها تدغدغ مشاعرهم، أو لأنها تحل مشكلات انهيارهم الداخلي، فقد كان كفار قريش، في بحبوة و قوة و غنى، وكانوا يقولون ليغطوا انهيارهم الداخلي: الدين غير صحيح، و يجب عليهم أن نردّه، نحن أقوىاء و أغنياء، وإذا متنا فلنا في الجنة ما لنا في الدنيا، فهذا كلام مريح بالنسبة لهم، لكن ما أصله ؟ و بأي منطق يتقولون هذا الكلام ؟ ومن أي كتاب جاءوا به ؟؟؟

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38))

طبعاً هذا الكلام لا ينسجم مع منطق سليم، كما أنه لا يستند إلى مرجع قويم، وقد بقي لديكم حالة ثالثة.. فقدان المواثيق والوعود الإلهية:

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

أي كأنكم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أقسم لكم أيماناً بالغة إلى أقصى الحدود أنه سيكرمكم على كفركم يوم القيامة، وهذا غير صحيح، أرأيتم أيها الإخوة إلى منطق أهل الدنيا ؛ إنه منطق منهار متناقض، ليس فيه نص، ولا وعد من الله موثق بأيمان بالغة، فلا يوجد لديهم منطق معقول ولا كتاب يزعمون أنهم يدرسونه.

(سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

(سورة القلم)

فمن يتكفل لهم وعلى من يعتمدون ؟ يقول لك شخص: فلان أفتى بكذا وكذا، فهل يمكن لهذا الإنسان أن يتكفل لك بالجنة يوم القيامة ؟؟ قلت لكم البارحة أيها الإخوة: لو أنكم استطعتم أن تنتزعوا من فم النبي عليه الصلاة والسلام حكماً لستم محقين فيه لحوسبتم عليه يوم القيامة، فالنبي بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، لذلك قال:

((لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر، فإذا قضيت له بشيء فإِنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

أي أن لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أفتى لك ولم تكن محققاً فلن تنجو من عذاب الله.

(سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)

من الذي يستطيع أن يجادل عنك يوم القيامة ؟ من الذي يستطيع أن يدافع عنك ؟.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)

(سورة النحل: آية " 111 ")

الآية الكريمة:

(لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا)

(سورة الإنفطار: آية " 19 ")

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

(لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا)

(سورة الإنفطار: آية " 19 ")

لا تجادل النفس إلا عن نفسها، و هذا يوم القيامة. لذلك:

(سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِرِزْقِكُمْ رَاغِبُونَ)

فقدان الكفالة:

من هو المتكفل لهم أن يكونوا يوم القيامة في أعظم حال ؛ في مركز الصدارة والوجاهة والغنى والترف كما هم في الدنيا ؟.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)

(سورة القلم)

أي هل معهم شركاء يدعمونهم و يدافعون عنهم ؟، انظروا كيف يحاور ربنا جلّ جلاله هؤلاء، إنه يحاورهم نقطة، نقطة، فيقول لهم: هذا كلام غير منطقي، و بأي منطق تحكمون بهذا ؟ و منطقكم الذي يقول أن الكافر والمجرم والمنحرف والمعتدي والظالم والغارق في شهواته له السيطرة حتى يوم القيامة هو منطق فيه ظلم، و هو منطق ساقط.

ثم يقول لهم: هل عندكم كتاب تأتون بهذا الكلام منه ؟ ليس هناك كتاب، أم هل لكم علينا أيمانٌ بالغة أنكم ستكونون في الآخرة من الفائزين ؟ أم هل هناك من يتكفل لكم هذا المكان في الجنة ؟ هل لهم شركاء يدعمونكم و يدافعون عنكم ؟ لا شركاء، ولا كفيل، ولا أيمان، ولا كتاب، ولا منطق، فعلى أي شيء تعتمدون إذا ؟ فالإنسان العاقل لا يتكلم كلمة اعتراض أو نقد إلا إذا كان عنده شيء يعتمد عليه، أما إذا لم يكن عنده ما يعتمد عليه فلا يوجد منطق لكلامه، ثم يبين ربنا عزّ وجل قائلاً:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

(سورة القلم)

مصير المكذّبين يوم القيامة:

معاني (يكشف عن ساق):

لقد وقف العلماء وقفة متأبّية عند هذه الآية:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاق)

هذا يوم القيامة.

(يُكْشَفُ عَنْ سَاق)

1- فهذه عبارة تُفيد أنه يوم الهول الشديد، وقد بينت هذه الصورة ذلك الهول، فالإنسان مثلاً إذا رأى عدواً مفترساً يكشف عن ساقه ويعدو لا يلوي على شيء، و إذا رأى زلزالاً فإنه يكشف عن ساقه ويهرّب، وإذا رأى حريقاً كذلك، فالإنسان في الدنيا ؛، يكشف عن ساقه ولا يُبالي بهندامه ولا بمظهره ويعدو لا يلوي على شيء إذا رأى زلزالاً أو حريقاً أو فيضاناً أو عدواً مخيفاً، أو ناراً مُلتهبة، فأراد ربنا عزّ وجل أن يصف يوم القيامة بهذا الوصف.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاق)

2- وهناك معنى آخر وهو أن ساق الشيء أصله، وساق الشجرة مثلاً هو أصلها، وحقائق الأشياء ستكتشف في هذا اليوم:

(فَكْشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: آية " 22 ")

فسيكشف عن حقيقة الدنيا، فهي دار عمل وليست دار متعة ونعيم، وسيكشف عن حقيقة الإنسان، و يكشف عن حقيقة الدار الآخرة، و يكشف عن حقيقة الأنبياء والمرسلين، و يكشف عن حقيقة المؤمنين، فالحقائق ستكون بادية للعيان يوم القيامة.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فأعمالهم حالت بينهم وبين السجود، فأراد الله عزّ وجل أن يبين أن أعمالهم السيئة ؛ من كفر و ظلم وجحود و إيذاء للناس واستعلاء على خلق الله ورد للحق، هذه كلها حُجُبٌ حُجبت عنهم حقيقة العبادة..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فهؤلاء الكبراء، المستعلون، المتعطرسون، المتباهون، الذين يتيهون كِبَراً و يميلون أعطافهم علواً، هؤلاء:

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ)

فهذا مصيرهم يوم القيامة، فالعبرة لمن يضحك أخيراً و ينجو آخر الأمر.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

ونحن الآن ندعى إلى السجود و ندعى إلى معرفة الله و طاعته ونحن سالمون، والقلب فينا لا زال ينبض، ولا زال في العمر بقية و فسحة الصحو.

فيا أيها الإخوة... الدنيا وقت المعرفة و الطاعة و الإنابة و الإقبال.

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

الإنسان أحياناً يتألم أشد الألم إذا أدرك الحقيقة بعد فوات الأوان، و إدراك الحقيقة بعد فوات الأوان شيء لا يحتمل.

(وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى

السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

لذلك قالوا: " ألا يا ربّ نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ". فالإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، و حينما يموت يبكي كل من حوله، والفائز من يضحك وحده، فهذا هو يوم الفوز العظيم، لذلك:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

نحن في بحبوحتين...

أيها الإخوة... نحن في بحبوحتين، البحبوحة الأولى إذا طبّقنا سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

فالإنسان إذا طبّق سنة النبي كان في بحبوحة، وإذا وقع في خطأ واستغفر فهو في بحبوحة أخرى، والآن هو وقت السجود و وقت المعرفة و طلب العلم و إنفاق المال، هذا وقت أن تجلس على ركبتيك في المسجد لتفهم كلام الله، هذا وقت مساعدة الضعفاء وإطعام المساكين و تعلم القرآن، فنحن الآن في بحبوحة، أما حينما تدرك الحقيقة...

وما أصعب أن تدركها بعد فوات الأوان..

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

لذلك يقول النبي الكريم:

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك))

فمع الهرم هناك أدوية وأطباء، وتحاليل، وقسطرة، فتكون عندها مهموماً بصحتك، أما الآن فأنت مفرغ من أمور صحتك

((اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل

فقرك، وحياتك قبل موتك))

و الإنسان قبل الزواج لديه وقت فارغ، أما بعد الزواج فيكون لديه زوجة و أولاد وهموم، فهو قبل الزواج في فراغ، أما بعد الزواج فهناك مشاغل، وهو في ربيع العمر أفضل، أما في الخريف فهناك مشكلات

((اغتنم خمساً قبل خمس))

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

أيها الإخوة الكرام... إن الشيء الذي يتناقض مع وجود الله عزّ وجل هو أن يستوي المحسن والمسيء، المسلم وغير المسلم، المؤمن وغير المؤمن، الأخلاقي وغير الأخلاقي إن الاعتقاد اليقيني بهذا هو الذي يدفعنا إلى طاعة الله وإلى نيل رضوانه والفوز بما عنده، فالإنسان حينما يثق بأن المستقبل لصالح المؤمن يندفع، لذلك لا عبرة للماضي، بل العبرة في المستقبل، فالناس في شبابهم متشابهون، لكنهم في خريف أعمارهم متفاوتون، وهذا التفاوت مُتَعَلِّقٌ بما مضى من أعمارهم.

تلخيص:

أيها الإخوة... ينبغي علينا أن نعقل هذه الآيات وأن ننطلق إلى طاعة الله من خلالها، ففي هذه الآيات نقد الله عزّ وجل خمسة أشياء، وهذه الأشياء تنطلق من أفكار، والآيات تطالب بأصل الأفكار، فمن أين جئت بأفكارك ؟ هل هي في كتاب مقدّس من عند الله ؟ وهل ينتظمها منطق سليم ؟ هل هي منطلقة من وعدٍ إلهي ؟ وهل معك من يكفل لك تلك الأفكار ؟ فربنا عز وجل يعودنا المنطق السليم من خلال هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القلم 068 - الدرس (7-7): تفسير الآية 42-52

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-06-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاق الدعوة إلى الله ووجوب تحلي الداعية بالصبر

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع والأخير من سورة القلم، ومع الآية الثانية والأربعين وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

قال بعض علماء التفسير: يُدْعَوْنَ إلى السجود؛ أي: إلى الصلاة لأن الصلاة عماد الدين، فقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون في الدنيا، وإن أول ما يُحَاسِبُ العبد عليه هو صلاته فإن صحَّت سعد ونجح، وإن لم تصح خاب وخسر.

و (يوم يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) : مُصْطَلَحٌ يعني: يوم الشدة البالغة، ويوم النقاش العسير، ويوم الحساب الدقيق..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

فهذا اليوم العصيب هو يوم الدينونة و الجزاء، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيأتي فيه الناس ربهم فُرادى فليس هناك تجمعات أبداً..

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً)

(سورة النفاطار: آية " 19 ")

(أَقْمَنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفَذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

ففي هذا اليوم..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

هذا اليوم هو يوم الحساب والجزاء، وهو يوم شديد جداً على الكافرين، ففيه تُسَوَّى الحقوق والحسابات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، ومن القوي للضعيف، ومن الفقير للغني.

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ)

يقال: كشفت الحرب عن ساقها؛ أي: حمي فيها اللوطيس، و كشف اليوم عن ساقه ؛ أي: كان يوماً عسيراً عصبياً..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

فما الذي يمنعهم من السجود ؟ إنها أعمالهم السيئة التي أقامت حجاباً بينهم وبين ربهم.
فأنت _ أيها الأخ الكريم _ بإمكانك اليوم أن تقف وتتوضأ و تتجه نحو القبلة، و بإمكانك أن تكبر تكبيرة الإحرام، و تضع يداً فوق الأخرى، و تقرأ الفاتحة وسورة، بإمكانك أن تركع وأن تسجد، وأن تقعد القعود الأخير ولكن العمل السيئ قد يحول بينك وبين الله، فالأعمال السيئة والانحراف في الدنيا، يمنع الإنسان من أن يصلي..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ)

قانون الذل والعز:

الإنسان المستقيم عزيز النفس رافع الرأس، أما المنحرف فهو خافض الطرف ذليل، وعلاقة الذل بالانحراف علاقة واضحة، كما أن علاقة العز بالاستقامة علاقة واضحة أيضاً، فإن أردت أن تكون عزيزاً فاستقم كما أمرت، وإن أردت أن تقف موقفاً مهيناً ذليلاً فتحرّك في الدنيا كما تشاء، و أوضح مثل على ذلك: هذا الذي يسرق، ويقتل، وينهب، وحينما يقع في قبضة العدالة تراه في أشدّ حالات الذل، لقد كان يدّعي ويتججّج ويتحرّك وينهب الأموال وينفقها على المعاصي والآثام، أما حينما يقع في قبضة العدالة فتراه ذليلاً بائساً حقيراً.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ)

الآن لا يستطيعون السجود، لقد وصلوا مع الله إلى طريق مسدود...

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

(سورة القلم)

فالآذان هو دعوة إلى السجود، ف (حي على الصلاة حي على الفلاح)، ما هي إلا دعوة إلى السجود، دعوة إلى أن تعبد الله وتخضع له و تعترف بعبوديتك له..

(وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

فالإنسان إذا كان معافى في صحته فهو سالم، و إذا كان معه قوت يومه فهو سالم، وإذا كان أهله بخير فهو سالم أيضاً، و إذا كان عقله في رأسه فهو سالم، و إذا كانت أعضاؤه تامةً وأجهزته سليمةً فهو سالم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اغتتم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك))

والإنسان أيها الأخوة إذا بگر في معرفة الله استطاع أن يُشكّل حياته تشكيلاً إسلامياً ؛ فيستطيع عند ذلك اختيار الزوجة الصالحة و الحرفة الجيدة، وألصق شيء في الإنسان زوجته وحرفته، فإذا آمن بالله في وقت مبكر اختار الزوجة الصالحة والحرفة الصالحة، وعندئذ لا يجد حجاباً بينه وبين الله، فكثيراً ما

تقف الزوجة المنحرفة حجاباً بين زوجها وربّه، كما أن الحرفة التي لا ترضي الله عزّ وجل هي حجاب بين العبد وبين الله عزّ وجل.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

نحن -إن شاء الله - من الذين تنطبق عليهم هذه الآية، فنحن الآن سالمون في بحبوحة التوبة والاستغفار والصلح مع الله و العودة إليه، فما دام القلب ينبض وما دام في العمر بقية فنحن سالمون، فكأن الله سبحانه وتعالى هنا ينقل لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ونحن لا زلنا في الدنيا..

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43))

نحن الآن حينما يؤدّن المؤدّن ندعى إلى السجود ؛ أي: إلى الصلاة، وأحبّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها، ومن آخر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمر، وتأديتك الصلاة هي تأدية لحق الله عزّ وجل وإظهار لعبوديتك له، فتطمئن نفسك عندئذٍ ويرتاح قلبك، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أرحنا بها يا بلال))

دققوا أيها الإخوة هنا... إنك حينما تسمع النداء وتتجه لتصلي، وتصلي صلاة كما أراد الله عزّ وجل تشعر براحة كبيرة، راحة تشعر أنك عبدٌ مطيعٌ لله. أيها الإخوة الكرام... الآيات التالية دقيقة جداً:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ)

(سورة القلم: آية " 44 ")

ربنا عزّ وجل يخاطب نبيه الكريم، فيقول له:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ)

إن هؤلاء الذين دعوتهم فلم يستجيبوا، و ألقيت عليهم الحق فلم يأخذوه، و أمرتهم أن يؤمنوا فلم يؤمنوا بل كذبوا و أعرضوا و سَخروا، هؤلاء دعهم لي، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام إذا دعاهم إلى الله واستجابوا له، كان طريق الهداية بالنسبة لهم هو الطريق الطبيعي والسليم، لأن الأعراض المرضية في الجسم تُعالج بأدوية، فحينما يرفض المريض المعالجة يقتضي أن نجري له عملية جراحية..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

فالذي لا يستجيب للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستجيب لله عزّ وجل في حقيقة الأمر، و هذا الذي لا يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى المعجزات النيرات الباهرات و لا يعبأ بوحى أنزل على رسول الله علاجه عند الله هو..

(فَرْنِي)

هذا تهديد، بل هو من أشد أنواع التهديد، أي: إن لم يستجب لك بالدعوة البيانية فلا بد من سلوكٍ تأديبي.

مراحل استجابة الإنسان لله تعالى:

هناك أربع مراحل يمر بها الإنسان في استجابته لله تعالى:

1- مرحلة الدعوة البيانية: وهي أول مرحلة وأسلم مرحلة ؛ وهي أن تستجيب مثلاً لإنسان دعاك إلى الله، أو لخطبة ألقىت على مسامعك دعاك فيها الخطيب إلى التوبة و طاعة الله وكسب المال الحلال وضبط الجوارح والأعضاء وإقامة الإسلام في بيتك، فهذه دعوة بيانية، وهي أول مرحلة، و الكمال في هذه المرحلة أن تستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

(يحييكم) هنا تعني: الحياة الحقيقية، حياة القلب و النفس، الحياة التي تليق بك أيها الإنسان لتتصل بالله، و تتعرف عليه، و تتقرب إليه، فهذه هي الحياة الحقيقية..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

2- مرحلة التأديب التربوي: وهو المرحلة الثانية: فإن لم تستجب بالدعوة البيانية فلا بد من التأديب التربوي، و الله عزَّ وجل - كما تعلمون - قد يسوق بعض الشدائد، و هذه الشدائد مرّت بنا قبل درسين في قوله تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم: آية " 33 ")

فقد أترف الله لهم محاصيلهم، فقالوا:

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة القلم: آية " 29 ")

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فإن لم يستجب الإنسان بالدعوة البيانية فهناك التأديب التربوي، والله عزَّ وجل عنده أدويةٌ تربوية لا تُعد ولا تُحصى، ففي جسمك وحده آلاف الأساليب التربوية، وفي أولاد الإنسان و أهله وتجارته وعمله و علاقته مع من حوله سواء من هم دونه أو من هم فوقه، هناك آلاف آلاف الأدوية التي يمكن أن تُعالج بها أيها الإنسان، و حينما تدخل مرحلة التأديب التربوي فالوضع الصحيح هو أن تتوب إلى الله، فإن لم تُتُبْ فهناك مرحلة ثالثة...

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

3- مرحلة الإكرام الاستدراجي: قد يأتي الإنسان الإكرام، لكن هذا ليس إكراماً بالمعنى الذي نفهمه نحن بل هو استدراجٌ من قِبَل الله عزَّ وجل، فهذا الإنسان لم يُعمل عقله فيتوب إلى الله، ولم يستجب للتأديب الإلهي فيرعو، كما أن الإحسان لم يؤثر فيه. و إذا دخل الإنسان المرحلة الثالثة فالكمال فيها أن يشكر الله على هذا الإكرام وأن يعود إليه تائباً، وإلا لم يبق له إلا القسم، ويؤكد هذا آياتٌ كريمة في كتاب الله عزَّ وجل..

(فُذْرْنِي)

يقول الله عز وجل: ما دام هذا الإنسان لم يستجب في المرحلة الثانية، فلم يصدق ولم يتب و لم ينصرف إلى الحق فدعه لي يا محمد، لأنك مكلف أن تبين له فقط، أما ربنا عزَّ وجل فيعالجه بالشدة، فالبيان على عاتق النبي عليه الصلاة والسلام، والتأديب التربوي من فعل الله عزَّ وجل، و ربنا عزَّ وجل هو الذي يسوق الشدائد لهذا الإنسان المعرض..

(فُذْرْنِي)

و يجب على الإنسان الذي لا يستجيب لله عزَّ وجل أن ينخلع قلبه لهذه الكلمة..

(فُذْرْنِي)

فإذا نصحت أم ابنا آلاف المرات فلم يرعو، قال لها الأب: دعيه لي، أنا سأقوم بتأديبه.

(فُذْرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ)

أنواع التكذيب بالقرآن:

قال العلماء: الحديث: هو القرآن الكريم.

التكذيب إما أن يكون اعتقادياً، أو قولياً أو سلوكياً.

1- التكذيب الاعتقادي: لو اعتقد الإنسان أن هذا الكلام هو كلام محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا التكذيب هو تكذيب اعتقادي، وهو كفر، فعلى الرغم من أن هذا الإنسان لم ينسب ببنت شفه و ظل ساكتاً، إلا أنه لا يعتقد أن هذا كلام الله، فهذا كفر اعتقادي، و قلما نجد هذا النوع من التكذيب في عالم المسلمين إلا ما ندر.

2- التكذيب القولي: يوجد عندنا تكذيب آخر وهو التكذيب اللفظي، كأن يقول بلسانه، أو بقلمه في كتاب يؤلفه، أو مقالة يدبجها: إني لا أعتقد أن هذا القرآن كلام الله.. وقد مرَّ معنا مرَّةً في كتاب في النقد أن الأديب الفلاني قال: يقال أن محمداً عليه الصلاة والسلام أخذ القرآن الكريم عن فلان الفلاني، ثم يقول هذا الأديب: ولا أدري مبلغ هذا القول من الصحة، لعله كذلك.. فهذا نطق وشكك في أن هذا القرآن كلام الله، وهذا كفر قول، و قلما نجد هذا في عالم المسلمين، فهو قليل جداً.

3- التّكذيب السلوكي: (وهو أخطر أنواع التّكذيب) وهو أن يسلك الإنسان سلوكاً مخالفاً لتوجيهات الله، فهذا التّكذيب سلوكي عملي، و هذا التّكذيب شائعٌ ومنتشر، فحينما يقول الله عزّ وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 221 ")

قد يأتي الأب المسلم فيختار لابنته الإنسان الغني دون أن يلتفت إلى دينه، فماذا يفعل هنا؟ إنه يكذب القرآن الكريم لا باعتقاده ولا بلسانه و قلمه ولكن كذبه بفعله وسلوكه، وهذا أخطر أنواع التّكذيب، فالتّكذيب السلوكي: أن تسلك طريقاً مخالفاً لما تسمع.

فمثلاً: لو أنك زرت طبيباً في عيادته ففحصك فحصاً دقيقاً، ووصف لك الدواء الذي يراه مناسباً، فبالغت في شكر الطبيب والثناء على علمه واختصاصه، لكنك لم تشتري الدواء لأنك لست مقتنعاً بجودة هذه الوصفة، فعدم شراء الدواء تكذيبٌ بعلم الطبيب، فمع أنك أثبتت على علمه وشكرته وبجلته واحترامته، لكن عدم شراء الدواء نوعٌ من أنواع التّكذيب بل هو أخطر أنواع التّكذيب، فالإنسان حينما يجد في القرآن الكريم آية تقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

فإذا ارتكبت معصية الربا بعد هذه الآية، يكون قد كذب تكديباً عملياً بها، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ)

وهذا حتى لا يظن أحداً أنه لم يكذب كلام الله سابقاً، ولم ينطق بكلمة واحدة تبين أنه لا يصدق كلام الله، كما أنه لا يعتقد بذلك، نقول له: هناك تكذيبٌ أخطر، فأنت لا تعتقد أن هذا ليس كلام الله، كما أنك لم تصرّح أن هذا ليس كلام الله، لكنك حينما تقول لك خالق الكون: افعل، وأنت لا تفعل، أو يقول لك خالق الكون: لا تفعل، وأنت تفعل، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنه تكذيبٌ عمليٌ لكلام الله عزّ وجل..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

سنستدرجهم ؛ أي: نسوقهم درجةً درجةً إلى هلاكهم، فمهما كان الإنسان ذا عقلٍ راجح وفكرٍ ثاقب فإنه إذا ارتكب ما يستوجب الاستدراج فإن الله سوف يستدرجه خُطوةً خُطوةً، وحركةً حركةً، و درجةً درجةً..

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

ففجأةً يقع هذا الإنسان في قبضة الله فيدمر ويهلك و يفقد كل شيء، و يقع في حجابٍ شديد.

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

ننقلهم درجةً إثر درجةً إلى هلاكهم دون أن يشعروا..

(وَأَمْلِي لَهُمْ)

(سورة القلم: آية " 45 ")

أي أمهلهم..

(وَأَمْلِي لَهُمْ)

أمدهم بالقوة، والصحة، والمال، إلى درجة يتوهمون فيها أنهم أقوىاء وأغنياء، فيقولون: إن الله يحبنا وعلامة محبته لنا أنه أعطانا ؛ أعطانا المال الوفير، والسلطان الكبير وأعطانا كل شيء، فهذا اسمه استدراج.

(سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45))

الكيد: هو التدبير، ومعنى (الكيد المتين): لن يستطيع الإنسان إطلاقاً أن يتفكك من تدبير الله عز وجل، و كلُّكم يعلم أيها الإخوة أن (القساوة والمتانة) صفتان تلصقان بالمادة، فمقاومة قوى الشد تعني المتانة، ومقاومة قوى الضغط تعني القساوة، فكأن تدبير الله عز وجل شبكة وقع فيها الإنسان، فمهما أبدى من حركات قوية فلن يستطيع أن يتفكك منه..

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

و أحياناً إذا دخل الإنسان حراماً قد يُستدرج إلى عقد صفقة يُفلسُ بها، أو يُستدرج إلى مصاحبة إنسان يدمره، أو يُستدرج إلى سفرٍ يدمرُ بها، أو إلى ركوب باخرةٍ يصيبها الهلاك، فالاستدراج من الله مُخيف، لأنه يأتي عندما يكون الإنسان في أعلى درجات الذكاء و أعلى درجات الحيلة والحذر و أعلى درجات خبرته المتراكمة، وعندما يكون حاملاً لأعلى شهادة ومالاً لأكبر قوة..

(سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45))

إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبه، فالإنسان إذا عصى الله، وكان الله جلّ جلاله يمدّه بالقوة فليحذرهُ لأن هذا استدراج، فالنعم إذا رافقت الطاعات كانت إكراماً، أما إذا رافقت المعاصي فهي استدراج، و الفرق بين الإنعام والاستدراج واضح، فالنعم مع الطاعات إكرام، وهي مع المعاصي استدراج، فلا تفرح بالاستدراج لأن عاقبته وخيمة..

(سَتَسْتَدْرِجُهُمْ)

ما دام هذا الإنسان قد أعرض عن ذكر الله، ولم يستجب لدعوة الأنبياء، ولا لدعوة الدعاة..

(فَذُرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ)

فالتكذيب النظري قلما نجده في العالم الإسلامي إلا ما ندر، فهناك كتابٌ قليلون جداً يُصرّحون في كتبهم بعدم قناعتهم بأن هذا كلام الله، و هذا تكذيبٌ بالقرآن، أما التكذيب الشائع فهو التكذيب العملي، فعندما تدخل إلى بيوت المسلمين فلا تجد فيها الإسلام مطبقاً، وكذلك عندما تدخل إلى محلاتهم التجارية

و معاملهم و حقولهم و علاقاتهم و أفراحهم وأتراحهم، فلا تجد الإسلام مطبقاً في كل مناحي حياتهم، فماذا نُسَمِّي هذا ؟ هذا تكذيب عملي، وهذا التكذيب العملي شائع وخطير، فحينما يُقيم الإنسان حفلة مختلطة، وعُرساً مختلطاً، ويأتي بالتصوير ويفضح أعراض الناس وهو من أسرة مسلمة، ويسمح أو يعين على علاقات غير مرضية لله عز وجل، إنه يكذب بفعله ذلك، فهناك آلاف المعاصي والآثام يرتكبها المسلمون وهم يصلون وهم يصومون، و هذا نوعٌ من التكذيب..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

يُستدرج دون أن يشعر..

(وَأَمْلِي لَهُمْ)

أعطيتهم فرصة ؛ من صحة طيبة و دخل كبير ومكانة جيدة و شعور بالاستعلاء، وعجرفة، و عُجْهِيَّة..

(وَأَمْلِي لَهُمْ)

لكن هؤلاء ينتظرهم مطبٌ كبير و عقابٌ أليم و حسابٌ عسير و هلاكٌ محقق..

(وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

لا تستطيع قوة على وجه الأرض مهما بدت قوية أن تنقلت من قبضة الله عز وجل..

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَاجٍ أَوْ نَهَاراً

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ

السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25))

(سورة يونس)

إخواننا الكرام... مرَّةً ثانية وحرصاً على سلامتنا جميعاً يجب عليك أن تنتظر: إذا كان الله يغدق نعمه عليك وأنت تعصيه ولا تقيم منهجه ولا تطبق ما في كتاب الله وسنة رسوله فاحذره عند ذلك، لأن هذا استدراج، إذا: اعلم أن النعم مع الطاعات إكرام، وأن النعم مع المعاصي استدراج، والاستدراج عاقبته وخيمة..

(فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأَمْلِي لَهُمْ)

أملِي لهم ؛ أي: أفسح لهم مهلة، وأعطيتهم من المال والصحة والأهل والأولاد..

(وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

لا يستطيع أحدٌ أن ينجو من عقاب الله ولا من تأديب الله، وكما قلت قبل قليل: إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبَّه.

فربنا عزَّ وجل بيَّـن لنا ما الذي يحول بين هذا الإنسان وبين طاعة الله:
(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلُونَ)

(سورة القلم)

لا يستطيع أي إنسان منا أن يدخل إلى عيادة طبيب أو مكتب محام أو مكتب مهندس أو محل البيع والشراء إلا إذا كان في جيبه أجور لهؤلاء، فكل شيء له ثمن، لكن بإمكانك أن تدخل إلى بيوت الله عزَّ وجل مجاناً فلا يوجد رسم اشتراك، ولا رسم دخول ولا ضريبة ولا مغرم..

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلُونَ)

لعلك كلفتهم ما لا يطيقون ؟ لعلك ألزمتهم بدفع مبالغ طائلة عندئذٍ أحجموا عن تلبية دعوتك حفاظاً على ثروتهم أو على مالهم ؟

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (47))

معنى عندهم الغيب ؛ أي: هل عندهم مفاتيح القضاء والقدر ؟ هل عندهم ضمانات لمستقبلهم ؟ أم يعرفون ماذا كُتِبَ في اللوح المحفوظ ؟..

(أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ)

فيأخذون منه ضماناً لمصالحهم ؟

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

أوامر الله تكليفية وتكوينية:

1- أمره التكليفي: الحقيقة أنَّ المؤمن مكلف أن يصبر عن الشهوات المحرَّمة، ومكلف أن يصبر على الطاعات، ومكلف أن يصبر على القضاء والقدر، و مكلف أن يصبر على حكم الله، و الله عزَّ وجل يُعطي كل إنسان حظوظاً متفاوتة، فأنت حكَمَ الله لك بأن تنجب بنات فقط فهذا حكَمَ الله، وحكم الله لإنسان آخر أن يجعله عقيماً، وحكم لإنسان ثالث أن يكون ذا دخل كبير، ولإنسان رابع ذا دخل محدود، ولإنسان خامس أن يؤدَّب بهذه الطريقة، فهذا كله حكَمُ الله، و الله عزَّ وجل له أمر تكليفي، وله أمر تكويني.

2- أمره التكويني: (أفعاله) مثلاً: إذا كان هناك خصمان يتخاصمان فقد يربح أحدهما الدعوة على أخيه ولكنه قد يكون ظالماً، وقد يكون أخوه مظلوماً، فحكم الله هنا يأتي مُعاكساً لحكم القاضي، فقد يعوِّض المظلوم و يبطش بالظالم، فهذا حكم الله، و أفعال الله هي حكمه، فقد يطلق الزوج زوجته مثلاً، و تكون الزوجة مظلومة في هذا، لذلك كانت حكمة ربنا عزَّ وجل مع الزوجة المظلومة أن يكافئها بزواج يكرِّمها، وحكم الله مع الزوج الظالم أن يعاقبه بزوجةٍ تكيل له الصاع صاعين، فهذا حكم الله،

فحكم الله عزَّ وجل هو أفعاله، فأحياناً يُكرم و يُعلي و يعز، وأحياناً يهين و يذل، وقد يُعطي و يمنع و يشفي و يعافي و يرفع و يخفض و يقبض و يبسط، فهذا هو حكم الله..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

معاني (فاصبر):

1- أي: إذا كان عندك إكرام فاشكر، وإذا كان هناك شيء مخالف لرغبتك فاصبر..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

2- أي: فاصبر للأمر والنهي، فالأمر والنهي يحتاجان إلى صبر، فهما تكليف، والتكليف ذو كلفة، و يقول الله في سياق الآية التي يخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام مسلماً له: اصبر على هؤلاء الذين يكذبونك، ويجحدون دعوتك، ويسخرون منك، ويأتون بشيء يؤلمك.

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ)

قصة يونس عليه السلام:

لقد قال الله تعالى لسيدنا يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

و الحقيقة أن ربنا عزَّ وجل ذكر لنا قصة سيدنا يونس، هذا النبي الكريم الذي أرسله الله إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يستجيبوا له، فضاق بهم ذرعاً، وشعر بضجر وتركهم وولى إلى جهة أخرى، فهام على وجهه ضجراً من تكذيبهم وإعراضهم وجحودهم، فقال الله له:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى)

دعا الله أن يهلكهم لأنه لا خير فيهم..

(إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49))

تروي الأخبار أن سيدنا يونس حين ضجر من قومه وئس من هدايتهم بعد أن أصرَّوا على تكذيبه وعدم الاستجابة له هام على وجهه ودعا الله عليهم بالهلاك، واتجه إلى شاطئ نهر أو بحر، وركب سفينة، و تروي الأخبار أن رُكَّاب السفينة كانوا أكثر من قدرة السفينة على التحمل، فأشرفت السفينة على الغرق وكان لا بدَّ من تخفيف وزنها، فأجروا قرعةً فوقعت على سيدنا يونس، فكان لابدَّ من أن يُلقى في الماء، فأُلقي في الماء والتقمه الحوت.

أيها الإخوة... ما من مصيبةٍ يمكن أن تصيب إنساناً أكبر من أن يجد نفسه فجأةً في بطن حوت، في ظلمة الليل، و ظلمة البحر..

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

(سورة الزمر: آية " 6 ")

هناك ثلاث ظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، فهل هناك أمل ؟ هذا الإنسان قد أصبح لقمة في بطن الحوت، و الحوت وزنه مائة وخمسين طناً، و لقمة الحوت المعتدلة من السمك تبلغ أربعة أطنان، فالحوت يفتح فمه ويمشي فيطبق على أربعة أطنان، و هذه وجبة خفيفة بالنسبة له، فبكم تُقَدَّر الأحماض التي تفرزها معدته ؟ لقد دخل سيدنا يونس وهو النبيُّ الكريم في بطن الحوت، فماذا يفعل ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

(سورة الأنبياء: آية " 87 ")

من يسمعه الآن ؟ وهو في ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، وظلمة الليل، هل يوجد معه مكبرات صوت ؟ هل يوجد معه تليفون خلوي ؟ من يسمعه ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

قال العلماء: " إذا أثنى الإنسان على الله فتناوّه دعاء "

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)

لقد قال: هذا الفعل فعلك يا رب وأنا أستحقّ ذلك لأنني ضجرت من قومي، وبئست منهم، وهمت على وجهي، ودعوت عليهم بالهلاك..

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ)

فمعنى هذا أن ثناء دعاء..

(فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

لكن أجمل ما في هذه القصة، وهو ما يعيننا منها قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

وهذا يحدث في أي زمن و مكان، وفي أي حال و وضع، وفي أي عصر ومصر..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

من كل المصائب ؛ من مرض عُضال، أو ضائقة مالية، أو عدو شرس، أو همّ ساحق، أو قلق مخيف، فلا شيء أصعب من أن يكون الإنسان في بطن حوت وفي ظلمات ثلاث، فربنا عزّ وجل قد ذكر لنا أصعب مصيبة يمكن أن تصيب إنسان، ومع ذلك نجّاه الله منها، لقد نجّاه ثم قلب هذه القصة إلى قانون فقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

فهل يوجد يأس مع الله عز وجل ؟ الآن أقول لكل إخواننا الحاضرين: هل من الممكن أن يصاب أحدا بمصيبة أشد من هذه المصيبة ؟ لقد نجى ربنا عز وجل يونس منها وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لقد سبّح، ووجد، واستغفر..

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: آية " 87 ")

هذا دعاء..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

(سورة القلم: آية " 48 ")

والحقيقة أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كصاحب الحوت، فعندما ذهب عليه الصلاة والسلام إلى الطائف ودعا أهلها إلى الله عز وجل كذبوه، وسخروا منه، وضربوه، فأراد الله عز وجل أن يظهر كماله ليستحق أن يكون سيد الأنبياء والمرسلين، فأرسل له ملكاً، فقال له:

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوعاً وإرادتك لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين))

أي: إن الأمر لك، أعطني إشارة فقط لأجعل سكان الطائف يبادون عن آخرهم، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون))

فلم يتخل عنهم، بل دعا لهم، واعتذر عنهم وتأمل أن يكون أولادهم صالحين..

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ)

(

فمعنى ذلك أن الله قبل توبته، فإذا وقع الإنسان في ذنب ماذا يفعل ؟ عليه أن يتوب، كما فعل يونس عليه السلام، و قوله (تداركه نعمة من ربه)؛ أي: إن الله قبل اعتذاره وتوبته و استغفاره، وعفا عنه وأنقذه..

(لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

(سورة القلم)

لقد لفظه الحوت إلى اليابسة بأمر من الله عز وجل، و لولا أن الله غفر له لكان شقياً إلى أبد الآبدين، لكن الله رحيم..

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(سورة القلم)

أيها الإخوة الكرام... لا يجتمع اليأس و القنوط و الحزن و القهر و الخوف مع الإيمان بالله، فإن أمنت بالله علمت أن كل شيء بيد الله عز وجل، فاجعل هذه القصة دائماً تُصب عينيك، وكل مهمة أَلَمْتُ بك

هي أقل بكثير من مصيبة صاحب الحوت، سواء كانت مشكلتك مشكلة دخل قليل، أو غير ذلك، فتذكر أن ذلك النبي الكريم دخل إلى بطن الحوت..

(لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

مذمومٌ: من قبل الله، فلولا أن الله عفا عنه وقبل توبته ورحمه لكان مذموماً من قبل الخالق، ومن قبل المخلوقين، ومن قبل نفسه..

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ)

أي تاب عليه وقبله..

(فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

وعاد إلى قومه، وأمنوا معه جميعاً، وأكرمه الله بهم. هذه الآية تُعدُّ مثلاً أعلى للدعاة، فالداعية قد يحتمل التكذيب و الطعن، والسخرية، والاستخفاف، والمعارضات، فهناك دائماً من يكيد له و يُشكِّك فيه، فيجب أن يكون هذا النبي الكريم قدوة لكل داعية على الإطلاق..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِفُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

(سورة القلم: آية " 51 ")

أي: من شدة عداوتهم و حقدهم و غيظهم كانوا ينظرون إلى النبي عليه الصلاة والسلام نظرة الحقد والحسد، وكأن هذه النظرات من شدة قسوتها تحمِلُ النبي على أن يَقَعَّ..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِفُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

ولا سيما..

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)

فهناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، فكل من دعا إلى الله له من يُعارضه، وَيَسَوِّهُهُ و يقف أمامه ويشكك فيه، فبدت هذه الآية واضحة عند النبي عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء الذين كفروا كرهوا دعوة النبي، وحقدوا، وبغضوا، وتآلموا فكانوا إذا نظروا إليه وهو يقرأ القرآن تمتلئ قلوبهم حقدًا، وغيظًا، وحسدًا..

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

والحقيقة أن المجنون من عصى الله..

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(فَسُتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ (6))

وقد ذكر ربنا عز وجل هذه التهمة التي اتهم بها النبي عليه الصلاة والسلام ظلماً، في قرآن يُتلى إلى أبد الآبدين، ليجعل ذلك تسليّة للمؤمنين، فقد اتهم سيد الخلق وحبیب الحق بأنه مجنون، فمن أنت ؟ أنت إنسان أقل من ذلك.

أيها الإخوة الكرام... ذكرت مرّة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه فرأوا إنساناً مجنوناً في الطريق فسألهم سؤال العارف:

" من هذا ؟ فقالوا: هذا مجنون، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله))

لذلك يجب علينا أن نعتقد أن المجنون هو الذي يعصى الله.. قال رجل لأحد الصالحين (لسيدنا جعفر الصادق): إن جاري ظلمني، فقال له: اصبر، فقال له: أخاف أن أكون ذليلاً، فقال هذا الإمام العظيم: " الذليل من عصى الله، والذليل من ظلم الناس "؛ أي: هو ذليل في المال، أما إذا كنت في طاعة الله فأنت العزيز..

(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِفُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ)

(هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 119 ")

فالمؤمن سليم الصدر طيب..

(وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

(سورة القلم)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-06-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

عاقبة المكذبين

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة الحاقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارَعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِنَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (10))

أيها الإخوة الكرام... ورد في بعض التفاسير: أنه من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة أُجِيرَ من فتنة الدجال، وأن من قرأها كانت له نوراً يوم القيامة.

الحاقة: القيامة، وإن أخطر شيء في حياة الإنسان هو هذا اليوم الذي يُحاسب فيه عن كل أعماله، فيُعطي حقه كاملاً.

أسباب تسمية يوم القيامة بالحاقة:

وقد سُمِّيَ هذا اليوم بالحاقة لأسباب كثيرة:

1- السبب الأول:

سمي يوم القيامة بالحاقة لأن الأمور تُحقَّق في هذا اليوم ؛ أي: تستقر، فهناك أشياء باطلة و كاذبة ومزورة وطاغية، فكل شيء في هذا اليوم يعود إلى وضعه الطبيعي، ويستقرُّ على حجمه الطبيعي و قيمته الحقيقية ؛ فهناك من يعلو، وهناك من يخفض، و هناك من يقوى، و هناك من يضعف، و هناك من يغتني، و هناك من يفقر، فتستقر حركة الناس التي كانت في الحياة الدنيا استقراراً دقيقاً، و كل إنسان منهم يُعطى حجمه الحقيقي، و يُقيَّم عمله تقييماً صحيحاً، و سُمِّيَت الحاقة لأن الأمور تُحقَّق فيها، أي تستقر..

لقد ضربت مُرَّةً لكم مثلاً فقلت: هناك كرةٌ في بعض جوانب جدرانها قطعة من الرصاص، فمهما دحرجت هذه الكرة لا تستقر إلا إذا كانت قطعة الرصاص في الأسفل، لأن هذا هو الوضع الطبيعي، والإنسان كذلك قد يعلو بغير حق، و قد يغتني و يقوى بغير حق، كما قد يضعف من دون سبب، وقد يفقر لأنه أطاع الله عزَّ وجل، فالدنيا دار ابتلاء، و عمل وامتحان و تكليف، و ربنا عزَّ وجل يقول:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء: آية " 21 ")

قد تجد إنساناً في الدنيا يملك ألف الملايين، وقد تجد مائة مليون إنسان لا يملكون درهماً واحداً، كما قد تجد في الدنيا إنساناً قوياً جداً، يستطيع بحركة وإشارة منه أن يفدي آلاف مؤلفة، وقد تجد إنساناً ضعيفاً لا يستطيع أن يغضّ بصره أو أن يحدّ النظر في شيء، ففي الدنيا يوجد القوي والضعيف، والغني والفقر، والوسيم والديميم، والصحيح والمريض، وذلك لأن الحظوظ موزعة توزيع ابتلاء..

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

أيها الأخ الكريم... أنت ممتحن في الدنيا، وأنت ممتحن مرتين ؛ والامتحان الأول هو فيما أعطاك، والثاني هو فيما سلب منك، فأنت ممتحن إذا كنت قوياً، وممتحن إذا كنت ضعيفاً، وممتحن إذا كنت غنياً، وممتحن إذا كنت فقيراً..

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)

الفرق بين مراتب الدنيا ومراتب الآخرة:

و في الدنيا مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، فقد لا يكون الغني القوي الصحيح مكرماً عند الله، وقد يكون الفقير المريض الضعيف هو الولي المكرّم، فمراتب الدنيا لا تعني شيئاً وهي مؤقتة، وقد تعني عكس ظاهرها، بينما تعني مراتب الآخرة كل شيء، وهي مستقرة، الحاقة ؛ أي: يحق في هذا اليوم الحق، فقد يكون الإنسان غنياً في الدنيا، لكن الغنى في الجنة يكون باستحقاق وجدارة مع رضا الله عز وجل، وإذا كان في الدار الآخرة محروماً فهذا الحرمان هو استحقاق دقيق ناتج عدل مطلق، فمراتب الدنيا لا تعني شيئاً إذاً، وهي مؤقتة، وقد تعني عكس ظاهرها ؛ بينما مراتب الآخرة تعني كل شيء، وهي متوافقة مع عمل صاحبها، كما أنها أبدية لا نهاية لها، لذلك كان السعيد من تحرّك إلى مراتب الآخرة، وطمح إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، و طمح إلى الغنى بعد العرض على الله، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: " الغنى والفقر بعد العرض على الله ".

فأول معنى من معاني الحاقة هو: اليوم الذي تحق فيه الأمور ؛ أي تستقر على وضعها الطبيعي و تُعطى حجمها الحقيقي وقيمتها الحقيقية، فالحق حق والباطل باطل، والخير خير والشر شر، و المعروف معروف، والمنكر منكر ؛ أما في عالم الدنيا فقد يغدو المنكر معروفاً، وقد يغدو المعروف منكراً، و قد يَصْدُق الكاذب وقد يُكذَّب الصادق، وقد يخون الأمين وقد يؤتمن الخائن، كما قد تكون المراتب ليست وفق أعمال اجتهادهم أصحابها بل وفق نفوذهم وانتمائهم، هكذا هي أمور الدنيا، أما أمور الآخرة فهي مستقرة على وضعها الصحيح و قيمتها الصحيحة وحجمها الصحيح، لذلك هنيئاً لمن كان متفوقاً بمقياس الآخرة، والويل لمن ظنّ التفوق بمقياس الدنيا، لأن الدنيا تذهب من بين يدي الإنسان

في ثانية واحدة، فكل ما جمعه الإنسان في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة إذا توقف قلبه، أو تجلّط دمه، فإذا حدث ذلك انتهى، أما المؤمن فتراه ينطلق إلى حياة أبدية كلها خيرٌ وهناك.. فقد سميت الحاقة حاقة لأن الأمور تُحقّق فيها، أي تستقر على وضعها الطبيعي، و تأخذ حجمها الحقيقي و تُعطى حجمها الصحيح و تُقيّم تقيماً مطلقاً، فرب الكائنات هو الذي يحكم، و رب الوجود هو الذي يفصل، و خالق الأكوان هو الذي يعطي أو يمنع..

2- السبب الثاني:

قيل: سُمّيت الحاقة حاقة لأنها محققة الوقوع، فما من حدث في حياة الإنسان أشد واقعية وتحققاً من هذا اليوم، فإذا ضربنا الجامعة مثلاً وسألنا: ما أخطر يوم في الجامعة؟ إنه يوم الامتحان، فإن لم تنجح في هذا اليوم فلا قيمة لكل هذا العام الدراسي، و لا قيمة لكل الدوام، و لا قيمة للمصاريف التي دفعتها ولا الكتب التي اقتنيتها ولا الدروس التي حضرتها، ولا الوظائف التي أدّيتها، لأن الامتحان حسم كل ذلك وأنهاه، فأخطر يوم في العام الدراسي هو يوم الامتحان، وما من يوم محقق الوقوع كيوم الامتحان، فأبي طالب غفل عن هذا اليوم فهو أحمق..

سُئِلَ مرّةً أحد الطلاب الذين نالوا الدرجة الأولى على طُلاب القطر: بم نلت هذه الدرجة العالية؟ فأجاب إجابةً أعجبتني، قال: لأن يوم الامتحان ما غاب عن ذهني ولا ساعة واحدة طوال العام الدراسي. وكل واحد من المؤمنين إذا جعل هذا اليوم (الحاقة) أمام عينيه وأدخله في كل حساباته؛ في تجارته، و بيعه، و شرائه، و حديثه، و نظره، و سماعه، و بطشه، و سيره، و شؤون بيته، و شؤون عمله، و شؤون أفراده و أترابه، إذا أدخلت هذا اليوم المحقق الوقوع، و الذي يكون فيه الحساب دقيقاً والعمل مقيماً فقد نجحت وفزت، أما إذا غفلت عن هذا اليوم المصيري فقد وقعت في خطئٍ وخطأٍ كبيرين.

(الحَاقَةُ)

فالأمر يُحقّق فيها، أي: تستقر على وضعها الصحيح، و تقيمها الدقيق و حجمها الحقيقي، وذلك بميزان خالق السماوات والأرض.

والسبب الثاني لهذه التسمية هو أن هذا اليوم مُحَقِّق الوقوع، فلا يمكن إلا أن يقع، لأنه حتمي الوقوع، فالإنسان أحياناً يتوقع أن هذا الشيء قد يقع أو لا يقع، وهو في شكٍ منه، فسمّى الله يوم القيامة:

(الحَاقَةُ)

لأنها محققة الوقوع..

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا)

(سورة الحج: آية " 7 ")

(فاصفح الصفح الجميل)

(سورة الحجر)

(فُورَبِّكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْنُوُونَ)

(سورة الصافات)

من العاقل الذكي الفائز الفالح الناجح المتفوق ؟ إنه ذلك الذي أدخل هذا اليوم في دقائق حياته ؛ في نظراته و كلمته و حركته و سكنته، و منعه و عطائه و ابتسامته و عبوسه و غضبه و رضاه و عمله في بيته و تجارته و كسبه للمال و إنفاقه له..

(الْحَاقَّةُ)

فالحساب فيه دقيق، وأعمال الإنسان ستُعرض عليه بكل تفاصيلها ؛ صغيرها وكبيرها..

(مَالٌ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ إِلَّا أَصْحَابُهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

السبب الثالث:

سُمِّيَ هذا اليوم (يوم القيامة) بالحاقة لأن هذا اليوم يُعطى فيه كل صاحب حق حقه، فكم من مظلوم في عالم الدنيا، و كم من خاسر يستحق أن يكون رابحاً، و كم من رابح يستحق أن يكون خاسراً، و كم من قوي ينبغي أن يكون ضعيفاً، و كم من ضعيف ينبغي أن يكون قوياً، و كم من متطاول حقه أن يُتطاول عليه، فالدنيا دار ابتلاء..

" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي وبيّتي ليجزي "

و سُمِّيَ يوم القيامة بالحاقة لأن كل إنسان يُعطى حقه كاملاً غير منقوص..

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ

بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

(مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

سُمِّيَ يوم القيامة بالحاقة لأنه في هذا اليوم يُعطى كل ذي حق حقه كاملاً، فلا يُمكن لأحد أن يقول: أنا مظلوم، لم آخذ حقي، لقد هُضمَ حقي، و لم يعرف الناس قيمتي، و لم يعطوني استحقاقي، فهذا يقال في الدنيا، أما الآخرة، فقد قال تعالى عنها:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

(كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة الزمر)

أيها الإخوة الكرام... هذا هو السبب الثالث لتسمية يوم القيامة بالحاقة ؛ لأن هذا اليوم يُعطى فيه كل ذي حق حقه.

4- السبب الرابع:

سمي يوم القيامة بيوم الحاقة لأنه يوم الغلبة للباطل، يقولون في اللغة: حاققته فحققته ؛ أي: غلبته فغلبته، فأعداء الدين الذين يُريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم فيقعون في الخندق الآخر، و يَسْعَوْنَ جاهدين في حياتهم الدنيا لإعلاء كلمة الباطل و إطفاء نور الله عزَّ وجل، هؤلاء سوف يُغلبون..قال تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَهُمْ يُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

في هذا اليوم يُفْهَرُ الباطل بكل فرقته و جماعته و قواه، فقد تجد الباطل الآن قوياً جداً، كما قد تجد للباطل قلاعاً و مكانة كبيرة في عالم الدنيا، وقد يكون الباطل بيده مقاليد الأمور، فهناك من يدعي أن العالم كله في قبضته، قال تعالى:

(حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فُجِعَتْهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: آية " 24 ")

فإذا رأيت للباطل جولة، إذا رأيت لأهل الكفر والضلال قيمة وقوة، وهيمنة، واستطالة، وسيطرة، وتحكماً، وتغطرساً، إن رأيت لهؤلاء شأنًا في الحياة الدنيا يجب أن تعلم علم اليقين أنهم مغلوبون في يوم القيامة لأن هذا اليوم يملكه الله وحده..

(مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

حاققته فحققته ؛ أي: غالبته فغلبته، وسُمِّيَ هذا اليوم بالحاقة ؛ لأن الباطل في هذا اليوم يُدْحَرُ وَيُغْلَبُ، فقد يكون في الدنيا شأن للباطل..

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

إن هذه التجمعات في الدنيا لا قيمة لها في الآخرة، و هذا التعاضد على الباطل والتكاتف من أجل إطفاء نور الله سيتلاشى يوم القيامة والله وحده هو الذي يحكم بين الناس. والحاقة والحققة والحق: لغات ثلاث بمعنى واحد، فالحق هو الله، والآية الكريمة تقول:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

أي: إن الحق لا بسَ خَلَقَ السماوات والأرض، وإن أردنا أن نعرف معنى الحق في هذه الآية، فإننا نعرفه بالقرآن الكريم نفسه، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

فالحق يتناقض مع اللُّعْبِ، وقد خلق الله السماوات والأرض بالحق..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

و الحق نقيض اللُّعْبِ..

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

و الحق نقيض الباطل، فالباطل هو الشيء الزائل، والحق هو الشيء الثابت، والباطل اللُّعْبُ والعبث، والحق هو الشيء الهادف، فالحق من خصائصه الثبوت والسمو، فإذا قلت: خلق الله السماوات والأرض بالحق ؛ أي: خُلِقَتْ لتبقى من أجل الهدف كبير، وقد كان خلق الإنسان بالحق ؛ أي: إنه خُلِقَ ليسعد إلى أبد الأبد، فالحق يعني الثبات والسمو، و هذا اليوم يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، ويعلم الذين كفروا أي منقلب ينقلبون، و في هذا اليوم يعرف الإنسان الشارد أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعاً لِيُسْعِدَهُمْ و يرحمهم..

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط !!

أيها الإخوة... هناك نقطة دقيقة جداً: وهي أن خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض، فهناك أشياء كثيرة خيارك معها خيار قبول أو رفض، فقد يُعرض عليك بيت فترفضه لصغر مساحته أو وضاعة مكانه أو بعده عن الشمس، وقد يُعرض عليك عمل فترفضه لأن الراتب قليل، وقد تُعرض عليك تجارة فترفضها لأن فيها مخاطرة، فهناك أشياء كثيرة خيارك معها خيار قبول أو رفض، غير أن خيارك مع الحق هو خيار وقت فقط، فلا بد من أن تؤمن بما جاء به الأنبياء شئت أم أبيت، ولكن يكون هذا الإيمان قد يكون بعد فوات الأوان في الوقت غير المناسب، و بعد أن تخسر الآخرة، فالخيار مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فذلك:

(الحَاقَةُ)

هذا اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين..

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي)

(سورة الفرقان)

فنحن خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط، فإن آمنا في الوقت المناسب سعدنا ونجحنا، وإن آمنا بعد فوات الأوان خبنا وخسرنا.

(الحَاقَةُ)

فالحاقة إذا لها أربعة معاني..

(الحَاقَةُ)

ما: اسم استفهام ؛ أي: ما هي الحاقة ؟ و هذا أسلوب قرآني معجز للفت النظر إلى خطورتها و قيمتها و هوئها، وإلى العدل المطلق الذي يكون فيها، لأن أخطر أيام الإنسان هو هذا اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن كل أعماله..

(وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

(سورة الصافات)

ورد في الأثر:

((أن الأغنياء يُحشرون أربع فرق يوم القيامة ؛ فريقٌ جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار.. حسابه سريع.. وفريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار.. حسابه سريع.. وفريقٌ جمع المال من حرام وأنفقه في حرام.. حسابه أسرع.. فيقال: خذوه إلى النار.. بقي الفريق الرابع الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال هذا يقال له: قفوه فاسألوه هل تاه بماله على عباد الله؟ هل قصر في أداء فريضة أو صلاة ؟ هل قال جيرانه من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: تركته وما زال يُسأل ويُسأل))

الحاقة أخطر يوم في حياتنا، ففي الدنيا لك أن تقول ما شئت، و لك أن تدعي ما شئت، و لك أن تستعلي على خلق الله، و لك أن تبذر المال، و لك أن تجمع المال من أي طريق شئت، و لك أن تنفقه في الحلال والحرام، و لك أن تقول كلاماً غير صحيح، لكن هذا اليوم تحق فيه الحقائق، وتستقر فيه الأمور، ويُعطى كل ذي حق حقه هو محقق الوقوع، وهو اليوم الذي لا شك فيه..

(مَا الْحَاقَّةُ)

أسلوب للتهويل، والتعظيم، وبيان خطورة هذا اليوم..

(مَا الْحَاقَّةُ)

هل أنباك أحدٌ عنها ؟ هل عرّفتَ خطورتها ؟ هل عرفت مصير الناس فيها ؟ هل عرفت أنها يوم الفصل، أنه يوم العدل، أنه يوم الدين، أنها يوم الدينونة ؟ ثم قال:

(اَوْ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

قال العلماء:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

أي: لأن أحداً لم يُعلمك من قبل ما الحاقة، و ذلك من أجل أن يكون هذا المعنى قوياً في نفوسنا.

الفرق بين (أدراك)، و(يدريك):

ما قال العلماء: لقد قال الله تعالى:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي: إن الله لم يعلم النبي عنها لكن سيعلمه، وقد الآن أعلمه عن الحاقة عن طريق هذه الآيات، أما إذا

قال: وما يدريك، أي أنه لن يُعلمه، لأن هذا من شأن الله عز وجل..

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)

(سورة الشورى: آية " 17 ")

إذا قرأت القرآن ورأيت فيه (وما أدراك)، فاعلم الله عزَّ وجل سيخبر نبيه بذلك، أما إذا قرأت في القرآن قوله تعالى:

(وَمَا يُذْرِكْ)

فاعلم أن الله عزَّ وجل لن يخبر نبيه بذلك، وأن هذا من شأن الله وحده، لذلك قال العلماء: " حينما قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

فالمعنى هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يدري وصفها ولكن لم يعاينها ". وشئان ما بين الوصف والمعاينة، فليس الخبر كالعيان، و قد تقول: لا دخان بلا نار، وتكون بذلك قد استعملت العقل، واستنبطت استنباطاً يقينياً أنه لا دخان بلا نار، فلو رأيت دخاناً علمت أن وراء الجدار نار، وقد تأتي خلف الجدار وترى النار بعينك، فتكون بذلك قد دخلت في علم اليقين، وقد تقترب من النار فتشعر بوهجها، أما حينما تضع يدك فوقها فهذا يكون شيئاً آخر، لأن هذا العيان، وليس الخبر كالعيان، والله سبحانه وتعالى أخبر النبي عن هذه الحاقة ولكن النبي لم يعاينها، ونحن في حياتنا نعرف أن وصف الألم شيء وأن تذوق الألم شيء آخر، وأن وصف الفقر شيء وأن تذوق الفقر شيء آخر..

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي لم تعاينها، فليس الخبر كالعيان، ومهما وصفنا يوم القيامة وصفاً دقيقاً فإننا لا نكون كمن يعاينها، فقد تقرأ أحياناً عن زلزال، أو عن طائرة سقطت فمات جميع ركابها، فلو كان هناك إنسان في طائرة فاضطربت وشعر أن هناك خطراً ما، ثم اضطربت واضطرب طاقم الطائرة، و صار هناك إنذار، فإن قلب الإنسان عندئذ يكاد ينخلع، فإذا احترقت في الجو وأتيح لإنسان أن ينجو، ثم قيل له: صف ماذا حدث، فهذا الوصف شيء وقراءتك الخبر عن طائرة سقطت ومات جميع ركابها هو شيء آخر، فالخبر شيء والمعاينة شيء، فهذا اليوم ينسى فيه الإنسان كل شيء، و قد تقع عين الأم على ابنها يوم القيامة فتقول: يا بني جعلت لك في الدنيا صدري سقاءً، وحجري وطاءً، وبطني وعاءً فهل من صدقة يعود علي خيرها اليوم ؟ يقول لها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنما أشكو مما أنت منه تشكين..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ (9))

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11))

(سورة القارعة)

قال بعض العلماء: " بلغني أن كل شيء في القرآن.. وما أدراك.. قد أدراه إياه وعلمه ". إذا قال الله:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

لقد أدري ربنا نبيه وعلمه، وكل شيء في القرآن جاء بلفظ.. وما يدريك.. فهو مما لم يعلمه ولن يعلمه، أي: إن مضمون (وما يدريك) متعلق بذات الله، فهو من شأن الله عز وجل، أما الذي قال الله عنه:

(وَمَا أَدْرَاكَ)

أي أن الله جل جلاله أدري نبيه بعد ذلك، وقال أحد العلماء أيضاً: " كل شيء قال الله فيه: وما أدراك فإنه أخبر نبيه به، وكل شيء قال الله فيه: وما يدريك فإنه لن يخبر نبيه به ".

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

بها أي أنظر إلى هؤلاء الذين كذبوا بهذا اليوم ما مصيرهم ؟ الآن يوجد درس عملي..
معاني القارعة:

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4))

القارعة من أسماء يوم القيامة، وسميت بالقارعة لأنها تفرغ الناس بأهوالها، وتقول العرب: نعوذ بالله من قوارع فلان ونوازعه وقوارص لسانه، وتقول: العبد يفرع بالعصا، أي: بالضرب القاسي، والخبر المفزع، و الشيء الصاعق هي القارعة.. فقد تقرأ أخباراً كثيرة في الصحف عن عالم التجارة فلا تعيرها اهتماماً، أما الخبر الذي يقول إن كل المستودعات أو إن كل هذا المال صودر احترقت أو إن كل التجارة أخفقت فهو ليس بخبر عادي، فالتاجر قد يقف أمام هذا الخبر وقد يضرب التاجر جبهته بعد سماعه، كما أنه قد يقع مغمياً عليه، وقد يُصاب بجلطة، فتوجد أخبار في الدنيا صاعقة.. والدنيا مؤقتة، أما الخبر الذي يشيب له الولدان فهو: القارعة، فال تعالى:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)

سميت القارعة قارعة لأنها تفرغ الناس بأهوالها، وقيل إن قوارع القرآن هي الآيات التي يقرأها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس ؛ كآية الكرسي، و سورة الفلق، وسورة النّاس، فإذا خاف الإنسان قرأها لتهدأ نفسه، وبعضهم قال: " القارعة مأخوذة من الفرعة أي القرعة ترفع قوماً وتخضع آخرين، تعطي وتمنع ". أي يوجد في الآخرة ميزان آخر، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

إنك قد تجد إنساناً في أعلى درجات الغنى، لكنه يوم القيامة مع الفقراء المحرومين، وقد تجد إنساناً فقيراً جداً في الدنيا، و هو يوم القيامة مع الأغنياء المرموقين..

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

و هذه القارعة..

(خَافِضَةُ رَافِعَةٍ)

من الثَّعْرَة، فقد تسحب قرعة فإذا بها ينالها فلاناً ويخسرهما فلاناً. يوجد معنى آخر: القارعة هي العذاب الذي ينزل في الدنيا، فثمود في بعض معاني هذه الآية كدَّبت بالقارعة ؛أي: كدَّبت بوعيد الأنبياء..

(وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا)

(سورة الجن)

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

فالذين يتعاملون بالربا كدَّبوا هذه الآية، ولم يعبئوا بوعيد الله عزَّ وجل. إذاً يمكن أن تكون القارعة يوم القيامة لأنها تفرع الناس بأهوالها، ويمكن أن تكون القارعة العذاب الذي توعَّد الله به العصاة في الدنيا، وهناك من الناس من هو عاص منحرف متلبس بالمال الحرام، تذكِّره بوعيد الله فلا يأبه بل يسخر، فهذا يمكنك أن تقول له:

(كَدَّيْتُ ثُمُودَ وَعَادَ بِالْقَارِعَةِ)

أي كدَّبوا بالعذاب الذي نزل بهم في الدنيا..

(اكَدَّيْتُ ثُمُودَ)

ثمود هم قوم صالح، وعادٌ قوم هود..

الطاغية:

(أَقَامَا ثُمُودُ فَأَهْلَكُوا بِالتَّطَاغِيَةِ)

(سورة الحاقة)

أي بالفعللة الطاغية، أو بالصيحة الطاغية المجاوزة للحد، وما هي إلا صيحة واحدة جعلتهم صرعى كهشيم المحتظر، و الآية تقول:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

(سورة يس)

فلو أنك لو وجدت حشرة صغيرة جداً حجمها أقل من حجم النملة فإنك لا تحتاج معها إلا إلى ضربة واحدة، و لا تحتاج ضربتين، و مهما كان الإنسان قوياً فهو ضعيفٌ ضعيفٌ أمام عظمة الله عز وجل..

((أنا ملك الملوك ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرافة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخطة والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

إذا:

(فَأَمَّا تُمُودُ فَأَهْلِكُوا بالطاغية)

أي: بفعل الله، بفعله الله الطاغية التي طغت عليهم فسحقهم، أو بالصيحة الطاغية، ومعنى الطاغية ؛ أي: المجاوزة للحد الطبيعي.. فالشام شهدت عشرات الزلازل في هذا العام ؛ منها ثلاث درجات على مقياس ريختر ومنها أربع، أما لو كانت سبع درجات لأصبحت الأرض أثراً بعد عين..

(قاعاً صَفْصَفاً (106) لَأُتْرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أُمْتاً (107))

(سورة طه)

فهناك حد، و سرعة الرياح الطبيعية مائة وخمسون كيلو متر، فماذا يحدث لو أصبحت سبعمائة ؟ إنك لن تجد بيتاً قائماً، ولو كان الصقيع عشرين درجة تحت الصفر فإنك لن تجد ثمرة في الصيف تأكلها..

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

(فَأَمَّا تُمُودُ فَأَهْلِكُوا بالطاغية)

أي: بعقاب تجاوز الحد الطبيعي ؛ فهناك برد مقبول، و رياح مقبولة، و زلزال مقبول ؛ يبلغ درجتين أو ثلاث، أما إذا بلغ سبعاً أو ثمانية لكان هذا دماراً كاملاً، و هناك رياح عاتية مقبولة، أما إذا جاوزت الحد لكان الدمار الكامل، وهناك صقيع مقبول، أما إن أصبحت درجة الحرارة سبعين تحت الصفر لكان هذا دماراً كاملاً..

(فَأَمَّا تُمُودُ فَأَهْلِكُوا بالطاغية)

أي: بالصيحة المجاوزة للحد، والآية المؤكدة لهذا المعنى هي:

(أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

(سورة القمر)

أي كانوا كالهشيم وهو شيء مُبَعَثَر، وقالوا: الطاغية: الصاعقة، وقال مجاهد وهو أحد العلماء:

(فَأَمَّا تُمُودُ فَأَهْلِكُوا بالطاغية)

أي: بسبب طغيانهم ومجاوزتهم للحد ". وقال بعضهم: " بطغيانهم وكفرهم " وقال بعضهم الآخر:

(فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)

" أي بعاقب الناقة " و عاقب الناقة واحد فما ذنب الباقيين ؟ قال: لأنهم أقرّوا ذلك وشجّعوه على عمله، وأيدّوه بفعلته فاستحقّوا جميعاً الهلاك..

(وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

الريح الصرصر:

هي الريح الباردة التي تُحرق ببردها، فإذا أمسك الإنسان أداة معدنية حرارتها عشرين تحت الصفر فإن جلده يلصق بها، وتحترق يده من شدة البرد، فاليد تحترق من شدة الحر ومن شدة البرد، و قد تسقط بعض أعضاء الإنسان في بعض المناطق القطبية، فريح صرصر ؛أي: باردة تُحرقُ الناس، وكلمة صرصر مأخوذة من الصر وهو البرد الشديد، أو ريح ذات الصوت الشديد، والرياح إذا هبّت عاتية لها صوتٌ مخيف..

(بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

أو شديدة السموم، عاتية ؛ أي: عنت على خزّانها فلم تطعمهم.. وهذا معنى جديد.. تفلّنت؛ أي: تفلّنت من السيطرة، كأن الملك موكلٌ بهذه الريح، فقد تفلّنت هذه الريح أحياناً من سيطرة الملك، و ورد في الحديث الشريف أنّه:

((ما أرسل الله من نسمةٍ من ريح إلا بمكيال، ولا قطرةٍ من ماءٍ إلا بمكيالٍ إلا يوم عادٍ ويوم نوح،

فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزّان فلم يكون لهم عليه سبيل))

ثم قرأ قوله تعالى:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

(سورة الحاقة)

والريح لما كان يوم عادٍ عنت على الخُزّان فلم عليها سبيل، ثم قرأ:

(بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ)

أي أرسلها وسلّطها، والتسخير استعمال الشيء بالاعتقاد..

(سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

متتابعة..

(إِنِّ بَطِشَ رَبِّكَ أَشَدِّدًا)

(سورة البروج)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

((2))

(سورة الحج)

أنتم تقرؤون عن بعض المصائب التي وقعت في بعض البلاد، فيقال: هناك إعصار دمر ما قيمته ثلاثين مليار دولار، وهناك صقيع أتلّف مئات الملايين من المحاصيل، و نحن في حياتنا الدنيا نسمع أخباراً كثيرة عن مصائب، وكوارث، وزلازل، وأشياء ينخلع لها القلب ونحن لم نزل في الدنيا قبل الآخرة، الآية الكريمة:

(وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)

أي: متتابعة، فإذا طالت موجة الحر لبعض الوقت فإن الناس يضجرون، وإذا كالت موجة البرد طالت يضجر الناس أيضاً، فهناك مشكلات لا يحتملها الناس إن استمرت..
حسوماً...

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُحْلُ خَاوِيَةٍ)

معنى حسوماً ؛ أي: متتابعات، ومعنى حسوماً ؛ أي: حسمتهم و استأصلتهم من شأفتهم.. وانتهوا..
فهناك معالجة، و تأديب، و مصيبة، و قصم، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

فالإنسان في قبضة الله دائماً وكأنه مربوطٌ بحبلٍ مرخى، و في أية لحظة يُشدّ الحبل فإذا هو في قبضة الله، يقال: حُسمَ الأمر ؛ أي: انتهى، فإذا ارتكب إنسان جريمة فأعدم فإن إعدامه حسم، أما إن سُجِنَ فقط فهناك أمل في أن يخرج، وذلك بإصدار العفو عنه، وهناك أمل أن يهرب مادام مسجوناً، أما إذا أُعِدِمَ فقد انتهى الأمر ؛ أي: حُسمَ..

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)

الحسمُ هو الاستئصال، ويسمى السيف حُساماً لأنك به تستأصل المشكلة، فإذا ضربته بالسيف فقطعت رأسه انتهى الأمر، ولذلك سمّي الحُسام حُساماً، وحسمتهم ؛ أي: قطعتهم وأذهبتهم، و لم أبق منهم أحداً، و الحُسُوم: الشُوم، فهذه الرياح تحسم الخير عن أهلها، فقد تجد أحياناً بعض الرياح التي تتلفت كل المحاصيل، كما أن هناك صقيعاً يحرق كل الثمار، و الحسم الشوم أيضاً، وفي آيةٍ أخرى قال تعالى:

(فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ)

(سورة فصلت: آية " 16 ")

من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نفمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك))

فجأة ينصبّ العذاب صبّا، فيفقد الإنسان بصره، ويفقد حركته، وعند الله مصائب لا تُعدّ ولا تُحصى..
نسأل الله السلامة " لكن عافيتك أوسع لنا يا رب "، فالإنسان لا ينبغي أن يصل له إلى طريق مسدود،
وقد كنت أضرب هذا المثل:

إذا ارتكب إنسان جريمة قتل فحكم بالإعدام، و صدّق الحكم، و سيق إلى حبل المشنقة، وهو على حبل المشنقة فقد وصل إلى طريق مسدود، فإن أراد أن يبكي فليبك لأنه لا بدّ من أن يُشنّق، و إن أراد أن يضحك فليضحك، و إن أراد أن يستعطف فليستعطف، و إن أراد أن يبقى جلدًا فليبق جلدًا، فأى شيء يفعله لا بدّ من الشنق بعده، فهذا الحسم، والبطولة أن تبقي لك مع الله صلة، و ترجع إليه، وتستغفره، و تتوب إليه، و تصطلح معه ؛ لا أن تركب رأسك و تبالغ في الطغيان لأن الله عزّ وجل جبار..

(إِنْ بَطَشَ رَبُّكَ شَدِيدٌ)

وحسوماً ؛ أي: رياحاً أفنتهم عن آخرهم، حسوماً: استأصلتهم من شأفتهم، والله عزّ وجل يوجد عنده عذاب استئصال وهلاك..

(فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى)

والآن قد تسمع في بعض الأخبار عن خمسمائة ألف قتيل في جنوب أفريقيا خلال يومين، و مائة ألف في مقبرة جماعية.. وهذا الشيء يتكرر..

(فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

صرعى جمع صريع ؛ أي: موتى من الريح..

(فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

لا يوجد أحد، هل ترى لهم من فرقة باقية ؟ من نفس باقية ؟ هل ترى لهم من بقية ؟ من بقاء ؟ كانوا سبع ليالٍ وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقته في البحر، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، والآن توجد قنبلة حديثة جداً إن ألقيت على مدينة لا تؤذي بناءً، ولا طريقاً، ولا جسراً بل تقتل الإنسان فقط وهي القنبلة (النيترونية).
أيها الإخوة... لا بدّ من الصلح مع الله، و لا بدّ من طاعته، و لا بدّ من معرفته قبل فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 9-36

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-07-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مصير المؤمنين ومصير الكافرين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة الحاقة، ومع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)

(سورة الحاقة)

إن الإنسان يوم القيامة رهين عمله، وإنما تكون نجاته أو هلاكه بحسب عمله، فالدنيا دار ابتلاء، بينما الآخرة دار جزاء، ففي الدنيا قد تستطيع أن تتحرك حركة لا تتأثر بعملك السابق، أما في الآخرة فيكون عملك الذي يتلبسك هو سبب فوزك أو هلاكك، ففرعون كان فرعون مصر عندما كان في الدنيا، لكنه في الآخرة جاء بعمله متلبساً وسوف يلقي جزاء عمله تاماً ووفق أدق موازين العدل. مصير فرعون ومن قبله..

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ)

من قبله ؛ أي: من تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية ؛ أي: جاء فرعون ومن تقدمه من الأمم الخالية والقرون الماضية.. انحراف قوم لوط..

(وَالْمُؤْتَفِكَاتُ)

هم قوم لوط الذين انصرفوا عن سواء السبيل، و ذكرت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكر والأنثى، والحكم الشرعي لعلاقتهم هو الزواج، وليس من علاقة بين الذكر والأنثى إلا علاقة الزواج، فمن خرج عن هذا المنهج فقد خالف حكماً شرعياً ووقع في جريمة الزنى المخالفة للحكم الشرعي، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6))

فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المعارج)

لكن عمل قوم لوط عمل ليس مخالفاً للحكم الشرعي فحسب، بل هو مخالف أيضاً للفطرة السوية أيضاً، ومخالفة الفطرة شيء أكبر من مخالفة الحكم الشرعي، لذلك أهلك ربنا عزّ وجل قرية لوط فجعل عاليها سافلها، فأرسل عليهم حجارةً أهلكتهم، لأنهم خالفوا الحكم الشرعي و الفطرة الإنسانية، والذي يلفت النظر أنه في هذا العصر الأخير، فشّت الفاحشة إلى درجة شيوع ذلك المرض الخطير الذي أعياى

الجامعات ومراكز البحوث والعلماء أن يجدوا مصلاً مضاداً له، و هو بسبب الشذوذ، والشذوذ هي مخالفة الفطرة السليمة والحكم الشرعي معاً، فربنا عز وجل سمى قوم لوط:

(وَالْمُؤْتَفِكَاتُ)

و الله جعل عاليهم سافلهم، وأرسل عليهم حجارةً فأهلكتهم، وقد استنبط العلماء أن الذي يرتكب جريمة قوم لوط يستحقُّ القتل أو أن يُلقَى من شاهق، و لا يعاقب بالجلد ولا الرجم، لأنه يخالف الفطرة ويخالف الحكم الشرعي ويعمل على إفساد المجتمع، وقد لفت نظري قبل أسابيع، أو قبل شهر تقريباً، أن هناك وزيرَ صحةٍ في أحد بلاد الغرب يحمل دكتوراه في العلوم الإنسانية، يعقد مؤتمراً صحفياً ويصرح بملء فمه أنه شاذٌ جنسياً، قلت: سبحان الله في أي عصر نحن!! يقول عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن

المعروف))

وفيما أعلم أن هناك منظمات في العالم الغربي تنظّم هؤلاء الشاذين، وتعطيهم بطاقات، تدافع عن حقوقهم، و تدعو إلى دخولهم الجيش في أمريكا، كما تدعو إلى رد اعتبارهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما ظهرت الفاحشة في قوم))

دققوا في هذا الحديث الذي يعدُّ من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم))

انظروا إلى هذه الأمراض الجنسية الجديدة، هناك مرض الأكلة بالذي قضي على الإنسان في أربع وعشرين ساعة، فتتفتت أنسجته العضلية تفتتاً، وهناك أمراضٌ جنسيةٌ لا تعد ولا تحصى، إلا أن أبرزها وأشهرها مرض الإيدز.

أيها الإخوة الكرام... قد يبذل العالم ألف مليون من العملة الصعبة لقيادة بحوثٍ تكتشف مصلاً مضاداً لهذا المرض، وما إن يتوصلوا جدلاً إلى مصلٍ مضاد لهذا الفيروس إلا يغيّر الفيروس شكله فتذهب كل هذه الأموال سدى، والحقيقة أن أضعف فيروس على الإطلاق يتحدى أقوى الحكومات، و يتحدى أقوى الجامعات و أقوى بحوث العلماء، و كل العالم مكتوف اليدين أمام هذا المرض، وجاء في أحد إحصاءات الأمريكية قبل سنةٍ أو أكثر أنه في كل عشر ثوان يموت إنسان بهذا المرض، والشيء الذي لا يصدّق أن بعوضةً تقف على جسم مصاب فتغرز خرطومها في جسمه وتمتص من دم المصاب وتقف على جسم صحيح فتغرز خرطومها الملوّث بهذا الفيروس فلا تنتقل العدوى من هذا إلى هذا، وذلك الله جلّ جلاله أراد عقاباً للانحراف ولم يريده مرضاً كبقية الأمراض يبتلى به الإنسان، إذاً:

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ)

أي بالمعصية والكفر، و الإنسان حينما يكفر يعصي، و حينما يؤمن يُطيع، فالكفر تكذيب وإعراض وانحراف ؛ والإيمان تصديق وإقبال وانضباط.

(وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (10))

من هو رسول ربهم ؟

1- قال علماء التفسير: هو سيدنا لوط، لقد عصوه وأبوا إلا أن يحققوا شهواتهم وفق انحرافهم لا وفق منهج الله عز وجل، قال:

(يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)

(سورة هود: آية " 78 ")

هذه المرأة خلقها الله لتكون زوجة، وهذا الذي تبحث عنه يجب أن يُروى من خلال امرأة واحدة فقط، وهي الزوجة..

(فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ)

(سورة الحاقة)

2- وقال بعض المفسرين: الرسول هنا هو سيدنا موسى، وفرعون هو الذي عصى أمره، أما سيدنا لوط فقد عصى قومه أمره.

(فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً)

أي: أخذة زائدة عن الحد المعقول، لأن ربنا عز وجل يقول:

(إِنْ بَطَّشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

((2))

(سورة الحج)

(رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً)

أي أخذة عالية زائدة على العذاب الذي يتقبله الإنسان، ثم يقول الله عز وجل: مصير قوم نوح..

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

(سورة الحاقة)

فكيف يخاطب الله قريشاً ؟ إنه يقول:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ)

ولو أنه قال: حملناهم لكان المقصود قوم نوح، لكن لما قال:

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ)

استنبط العلماء أن الذين عاشوا على وجه الأرض هم من نسل سيدنا نوح ومن نجا معه من السفينة، لأن الله سبحانه وتعالى أهلك كل من عاصر هذا النبي الكريم إلا من ركب السفينة..

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

(سورة هود)

فربنا عز وجل لم ينج إلا ركاب السفينة، و البشرية كلها انحدرت من نسل هذا النبي الكريم وهو سيدنا نوح، و نحن من أبنائه.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

قال بعض العلماء: طغا الماء ؛ أي: طغى على خزانة من الملائكة غضباً لربه، وكأن هذا الماء أُعطي ما يسمى بالتشخيص، أو أُعطي نفساً مدركة، فلم يحتمل كفر هؤلاء، فكأنه تقلت من ضبط خزانة الملائكة.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ)

يروى أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال: " طغى على خزانة من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدروا على حبسه ".

لذلك حينما فار التتور نبع هذا الماء من كل مكان وشكل بحراً هائجاً، ولم ينج من سكان الأرض إلا من ركب سكان نوح، وقال بعضهم: ليس من الماء قطرة تنزل قبله، ولا بعده إلا بكيلٍ معلوم غير ذلك اليوم، فالأمور دقيقة جداً، إلا أنه في هذا اليوم فار الماء من كل ينبوع وملا الأرض وطغى حتى أهلك كل من كفر بهذا النبي الكريم.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

الجارية: السفينة، كلما مرّ عليه ملاً من قومه سخرها منه، في النهاية لم ينج إلا ركاب السفينة.. مراحل الدعوة الإلهية:

(لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْثَى وَاعِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال بعض المفسرين: أراد الله سبحانه وتعالى أن يبقي ألواح السفينة على جبلٍ هو الجودي، لتكون آثار هذه السفينة عبرةً للناس من بعد نوح عليه السلام، وقال بعضهم: إن إغراق قوم نوح الذين كذبوه هو الموعظة الباقية التي ينبغي أن نتعظ بها وأن نتخذها درساً بليغاً في حياتنا، أي أن ربنا عز وجل يدعونا

دعوةً بيانية، فإن استجبنا وسلمنا سعدنا، وإن لم نستجب دخلنا في مرحلة جديدة من مراحل الدعوة إلى الله، وهي مرحلة التأديب التربوي، فإن استجبنا وتبنا إلى الله عز وجل نجونا وسلمنا وسعدنا، وإن لم نستجب دخلنا في مرحلة ثالثة وهي الإكرام الإستدراجي، فإن ثبنا وشكرنا نجونا وسلمنا، وإن لم نفعل قصمنا الله عز وجل، وهذه هي سياسة ربنا جل جلاله، مع عباده، يدعوهم دعوةً بيانية، ثم يربّيهم تربيةً تأديبية، ثم يكرمهم إكراماً استدراجياً، فإن لم يستجيبوا ولم يتوبوا ولم يشكروا أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلَتْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْثَى وَاعِيَةٌ (12))

استجابة!!

السماع

الحقيقة أن ربنا عز وجل حينما تحدّث عن السماع وصف السماع بأنه استجابة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

فعلامه السماع الصحيح هو الاستجابة، من هنا قال الله عز وجل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية " 4 ")

لا يسمّى سماعاً ولا إصغاءً إلا إذا تاب الإنسان إلى الله عز وجل، أما أن يُلقَى الإنسان سماعه ويستوعب الكلام ثم لا يتحرك ولا يأخذ موقف، ولا يحاسب نفسه، ولا يدع مُنْكَراً ولا معصية، فهذا السماع لا قيمة له، فهذا الذي يسمع ولا يستجيب هو في حكم الذي لا يسمع. أيها الإخوة...

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلَتْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْثَى وَاعِيَةٌ (12))

الأُنْثَى الواعية هي التي تعي الوقت، فما دام الإنسان في بحبوحة و صحة و شباب، و غنى و فراغ و قوة و فسحة من عمره، فيجب أن يستجيب إلى الحق وأن يصغي إليه، وأن يستوعبه، وأن يأخذ موقفاً عملياً، أما إذا ألقى السمع ولم يفعل شيئاً، فهذا يؤكّد أنه لم يستمع، فأنت إذا قلت لإنسان: على ظهرك عقرب. فبقي هادئاً جداً والتفت إليك وقال: إنني أشكر منك هذه الملاحظة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكّنني أن أكافئك عليها، فهل يكون قد فهم ما قلت له ؟ بالتأكيد لا، فلو أنه فهم أن على كتفه عقرب لقفز وصاح وخرج من جلده خوفاً و فرقا، لكنه حينما بقي هادئاً، ثم انتبه إلى هذه الملاحظة وشكرك عليها وتبسّم فمعنى ذلك أنه ما سمع ما قلت له، فالذي لا يستجيب كأنه ما سمع.

(فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال العلماء: هذه النفخة هي النفخة الأولى لقيام الساعة التي لا تبقى أحداً على قيد الحياة..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14))

الأرض والجبال حُمِلَتَا وارتطمتا ودُكَّتَا وسويتا، الآية الكريمة:

(وَازْيَنْتَ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فْجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة يونس)

(وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)

(سورة الحاقة)

أي: سويتا ببعضيهما ؛ جبال شاهقة، ووديان ساحقة، تلال، أكمات، وهاد، أرض وعرة، أرض مستوية، سواحل، أغوار، كل هذه التضاريس أُلغِيَتْ، فدكت دكة واحدة وأصبحت مستوية مع بعضها بعضاً..

أهوال يوم القيامة:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15))

(سورة الحاقة)

والواقعة هي التي لابد من أن تقع.

(وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

فوقوعها محقق، لذلك تأخذ أكثر الكلمات التي يعبر عنها في القرآن عن المستقبل الكريم صيغة الفعل الماضي لتحقق الوقوع..

(فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16))

(سورة الحاقة)

أي إن السماء انشقت وأصبحت ضعيفة، فتفكك هذا التماسك وهذا النظام التجاذبي الحركي، وتخلخل نظام هذا الكون المبني أقوى البناء، وتفتت الأرض، وتبعثرت الكواكب وأصبحت السماء واهية.

(وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

أي: ضعيفة...

(وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَانِهَا)

أي: على أطرافها..

(وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

قال العلماء: ثمانية أصناف من الملائكة، أو ثمانية أزواج من الملائكة.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

بيت القصيد:

دخلنا الآن في بيت القصيد..

يومئذ تعرضون على الله عز وجل ؛ فكل إنسان مخبوء بين ثوبين يعرض عمله و نيّته و مطامحه، و أفعاله، و حركاته، و سكناته، و نشاطاته، و مواقفه، و عطاؤه، و منعه، و غضبه، و رضاه، و وصله، و قطعه، و رحمته، و قسوته، و عنايته، و إهماله، و إخلاصه، و ثقافته، و استقامته، و انحرافه..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

تربية أولاده، و معاملة زوجته، و معاملة جيرانه، و معاملة شركائه، و معاملة زبائنه، و معاملة من فوقه، و معاملة من تحته، و معاملة من عاصره، في لهوه، في جدّه، في فرحه، في ترحه، في سفره، في إقامته، في أتراحه.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

أي: كأنك تشاهد شريطاً فيه كل تفاصيل حياتك، و كل دقائقها، فكل ما فعلته في الدنيا معروضٌ عليك بأدق التفاصيل والجزئيات !!

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

لا تستطيع أن تخفي عن الله شيئاً، فأنت بإمكانك الآن أن تُخفي عن معظم الناس أشياء كثيرة، و قد توهم أناساً كثيرين أنك في وضع وأنت في خلافه، كما قد توهم أناساً كثيرين إلى أمدٍ طويل أنك في حال وأنت في خلافه، لأن الإنسان في الطرف الآخر علمه محدود، و نافذته كلامك وتصريحك، لكن الله سبحانه وتعالى مُطلعٌ على ما في النفوس، مطلعٌ على ما في القلوب. الله مطلع على الخواطر:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

إخواننا الكرام... إن أكبر دافع لطاعة الله أن تعلم أن الله يعلم، وأنه مطلعٌ عليك ومحيطٌ بك، ولا تخفي عليه خافية، وأن تعلم أن الله يحول بينك وبين قلبك، وأن خواطرك في علم الله، و أن تدرك أن خاطراً بسيطاً يمر في ذهنك يعلمه الله ويحاسب عليه، والدليل: هناك من الناس من ينوي نيّة فيرى نيّته أمامه، فإن كانت طيبة رأى التوفيق والفوز، وإن كانت سيّئة رأى الدمار، هذا أكبر دليل على أن الله مطلعٌ على خواطرك الداخلية، وإن آلاف القصص تؤكد هذه الحقيقة.

قصة:

أخ كريم قال لي: إنه انتهى من خدمته الإلزامية ولا يملك من الدنيا شيئاً، أعطته أخته سواراً من حلّيتها، واشترى بها تذكرة طائرة إلى الخليج، قال لي: وأنا في الطائرة نويت نية في قلبي، والله ما حرّكت شفتاي، إلا أنني قلت في نفسي: إن أكرمني الله فسأبني له بيتاً في منطقتي، وغاب سنواتٍ عدّة وأكرمه الله، لكن الله عزّ وجل كان عالماً بخاطره فأكرمه وأعطاه، فجاء ليقيم هذا المسجد، وهناك إجراءات لا بدّ منها لبناء المسجد، فرأى من التسهيلات ما لا يوصف، وبنى المسجد، وقد صليت بهذا المسجد، وهذا يعني أن أي خاطر يخطر في بالك، و أي نية تنعقد في نفسك، و أي طموح تتمناه هو في علم الله عزّ وجل..

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

هنيئاً لمن كانت سريرته كعلانيته، وسره كجهره، وباطنه كظاهره، لأنه عند الله مكشوف، فقد تخدع أناساً كثيرين إلى أمدٍ طويل، وقد تخدع أناساً قليلين إلى أمدٍ طويل، أما أن تخدع الله عزّ وجل فهذا مستحيل..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

كما أنك لن تستطيع أن تخدع نفسك، فتُعْطِيهَا قِيمَةً لَا تَسْتَحْفُهَا هذا مستحيل، فقد قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

فموطن الثقل في هذا الدرس، هو هذه الآية:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ)

إن الله يعلم خيانة الإنسان وكذبه،

((كفى بها خيانة أن تحدّث أخاك بحديث هو لك به مصدّق وأنت له به كاذب))

فخيانة الإنسان، وظلم الإنسان، والكذب، والنفاق، والدجل، والإيهام، والاحتيال، والتدليس، هذا كله في علم الله عزّ وجل.

الناس يوم القيامة نوعان:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

نحن في الدنيا لنا تقسيمات لا تُعدّ ولا تحصى، فهناك شرق وغرب، شمال وجنوب، و جهة تؤمن بالفرد على حساب المجتمع، و جهة تؤمن بالمجتمع على حساب الفرد، وهناك أناس من أعراق مختلفة؛

أعراق سامية، أعراق آرية، أعراق أوروبية، كما أن هناك لغات مختلفة، وعادات و تقاليد و عقلية و مشارب و أنماط و أصول مختلفة، أما يوم القيامة فالناس نوعان:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

(سورة الحاقة)

إيتاء الكتاب باليمين دليل الفوز والنجاة، فالعرب كانت تتبارك باليمين، بل إن هناك بعض التقاليد الجاهلية ترى أنه إذا طار طائرٌ عن يمين إنسان تفاعل، وإن طار عن شماله تشاءم، وهذا لا أصل له، لكن ورد في القرآن الكريم..
فرحة الفوز !!

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ)

فهو دليل فوزه ونجاته..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَهْ)

اقرؤوا كتابي، فالإنسان حينما ينجح ويتفوق، يعطي جلاءه لكل من حوله ؛ ويقول: انظروا إلى الدرجات و المكافآت و التقدير و الامتياز و الثناء، فالإنسان يزهو بنجاحه وتفوقه، ونجاح الآخرة هو النجاح الذي يبعث على الفرح، فقد تجد أحياناً إنساناً يفرح بالدنيا، و فرحه بالدنيا ناتج عن ضيق أفقه، فهذه الدنيا من عرفها لم يفرح برخائها، وقد عَزَى أحد إخواننا الكرام بيتاً من بيوت دمشق، فقال لي: البيت مساحته سبعمائة متر، و فيه من التزيينات ما لا يصدق العقل، و كل شيء في البيت من أعلى مستوى، فهو مزودٌ بكل ما يطرب له الإنسان، قال: وأنا في التعزية قلت: أين صاحب البيت ؟؟ لقد مضى.. فهذا الذي يؤخذ منك عند الموت ليس عطاءً، لذلك وصفت الدنيا بأنها..

((من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة،

فجعل الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي

ليجزي))

يقول الإمام عليّ رضي الله عنه: " الغنى والفقر بعد العرض على الله "

يجب أن تعتقد أن الذي أنت فيه في الدنيا لا يسمى عطاءً،

((لو أن الدنيا تَعْدِلُ عند الله جناح بعوضة ما سقا الكافر منها شربة ماء))

و الله عز وجل يقول:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهُ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ (20))

(سورة الحاقة)

كلمة: (ظن) إذا قالها مؤمن فهي اليقين، وإذا قالها الكافر فهي الشك.

(إِنِّي ظَنَنْتُ)

أي: أيقنت.

(أَلَيْسَ مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ)

أيها الإخوة... وقفة متأنية، هذه الآية تشير إلى أن الذي ينجو من عذاب الله هو الذي يخافه فقط، لا تقل: ضمير، ما معنى الضمير؟ لا تقل: رادع، قل: الذي يخاف الله عز وجل هو الذي ينجو من عذابه في الدنيا والآخرة، و ما سبب نجاة هذا الإنسان الذي أوتي كتابه بيمينه؟.

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهُ)

سبب النجاة أنه قال:

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ)

إن أردت قاعدة ذهبية تُعينك على طاعة الله، وعلى ضبط أمورك، فتمثل هذه القاعدة: قبل أن تقول كلمة، وقبل أن تُعطي أو تأخذ، قبل أن تتبسم أو تتجهم، قبل أن تغضب أو ترضى، قبل أن تخضع، قبل أن تصل، قبل أن تحسن، قبل أن تعفو، هيئ لربك جواباً.

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهُ)

قال لي أخ كريم مرة: إنه استطاع أن يحوز أرضاً عن طريق مناقصة وهمية تمثيلية، فجاء بأشخاص عديدين، ودخلوا في المزايدة، ورست المزايدة على سعر قليل جداً بالنسبة إلى ثمن الأرض، وهناك أيتام يملكون هذه الأرض وأرامل، فلما ذكر لي ذلك، قلت له: كيف تواجه الله يوم القيامة؟ إن هذا مقياس دقيق، فقبل أن تأخذ ما ليس لك، وقبل أن تعطي، وقبل أن تحابي، وقبل أن تظلم، و قبل أن تستغل، و قبل تغتصب، و قبل أن تفعل شيئاً لا يُرضي الله اسأل نفسك هل هيأت لله جواباً؟.

مرة سألني أخ، وهو يعمل في التمويل قال لي: ماذا أفعل؟ قلت له: افعل ما تشاء، اكتب (الضبوط) كما تشاء، أدخل الناس إلى السجن كما تشاء.. فنظر إلي هكذا مستغرباً ما هذا الكلام !!! قلت: ولكن إذا كنت بطلاً فهنيئاً لربك جواباً عن كل شيء تفعله، فإذا كان هناك إنسان يؤذي المسلمين في طعامهم فيجب أن توقفه عند حده، وإذا كان هناك إنسان يطعم الناس طعاماً فاسداً، أو لحماً فاسداً فيجب أن توقفه عند حده، وذلك لأن علاقتك مع الله، لا مع عبد الله، فهنيئاً لربك جواباً.

وأنا أقول لكم أيها الإخوة وأقول لنفسي أيضاً: قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تتساهل، قبل أن تتشدد، قبل تُطلق، قبل أن تتزوج، قبل أن تحرم، قبل

أن تمنع، قبل أن تذهب إلى هذه النزهة، قبل أن تجلس مع هؤلاء في سهرة، قبل أن تفعل شيئاً هيئ الله جواباً، لأن يوم الحساب يوماً آتٍ..

(إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21))

عيشة مرضي عنها، وعيشة ترضى عنك أيضاً ؛ ترضى عنك فلا تذهب عنك، وترضى عنها فلا تملها..

عيشة راضية !!

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أدنى سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

حتى إن الذي يطيب لنا في الدنيا ليس بينه وبين ما في الجنة من شبه إلا الاسم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً

(19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22))

(سورة الحاقة)

فيها من الحور العين، وفيها من الولدان المخلدين، وفيها ما تلذُّ الأعين وتشتهيه الأنفس، فيها من كل فاكهة زوجان، وفيها من كل شيء يُسعد الإنسان إلى أبد الأبد، لا تقدم في السن، ولا مرض، ولا كبر، ولا حسد، ولا قلق، ولا شيء مما يؤذي الإنسان في الدنيا، وفوق هذا قد ينظر المؤمن إلى الله عز وجل يوم القيامة فيغيب خمسين ألف سنة من نشوة النظرة..

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: آية " 26 ")

الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وفوق ذلك..

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(التوبة: آية " 72 ")

هذه الجنة التي يزهد بها الناس ويسعون إلى جنات في الدنيا، وهذه الجنات الدنيوية ما إن تكتمل حتى يأتي ملك الموت فيقول: تفضل، الآن ؟ الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، فالذي يضع كل آماله في الدنيا مقامر لأنه قد يخسرها في ثانية واحدة، وكم سمعنا عن أناس يملكون عشرات ألوف الملايين، وماتوا في ثوان معدودات، بحادث، فهناك إنسان أحياناً يسعى لتجارة عريضة، ويخسر كل ما يملك في ثانية واحدة، فلذلك أمرنا الله عز وجل أن نسعى إلى الآخرة..

(فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

بمعنى أُنْك مُضْجَع تَأْكُل من ثمارها، وإن كنت قاعداً تأكل من ثمارها، وإن كنت واقفاً تأكل من ثمارها، ففيها راحة إلى درجة غير معقولة، كيفما أردت.

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

هي دانية منك..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

هذه أيام الدنيا هي أيام بذل المال و غض البصر و البعد عن الفتن و البدع التي جاؤوا بها إلينا كي نسهر إلى ساعة متأخرة من الليل في معصية الله عزّ وجل، فقبل أن نجلس، وقبل أن نستمتع، وقبل أن نفعل ما يفعله معظم الناس، هل فكرنا في هذا اليوم؟.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

صلاة الليل، صلاة الفجر في المسجد، تلاوة القرآن، حضور مجلس العلم، تربية الأولاد، خدمة الزوجة، إنصافك من نفسك، الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، هذه الأعمال الطيبة تجد ثمرتها يوم القيامة..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

إخواننا الكرام... إن الإنسان حينما يدرس في الدنيا ويتعب تعباً شديداً ثم ينجح، ينسى كل تعب له لحظة النجاح، و هذه الدنيا التي مرّت تمرّ كلمح البصر، تذهب منها متاعب الطاعات وتبقى ثمارها، وتذهب لذائذ المعاصي وتبقى تبعاتها، لذلك يقول الله عزّ وجل:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

أي: الأيام السابقة في الدنيا، و الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((سجن المؤمن وجنة الكافر))

هناك ممنوعات و محرمات، هناك أشياء أنت ممنوع من أن تشربها أو تأكلها أو تنظر إليها، وهناك أوامر ونواه و حقوق و واجبات و مسؤوليات و تبعات، و عليك واجب نحو الله عزّ وجل، و واجب نحو أمك وأبيك، و واجب نحو زوجتك، و واجب نحو أولادك، و واجب نحو من تتعامل معهم. ندم الخسران..

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي)

لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةً (25) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ

بشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةً (25))

لأنه شيء مخز، فيه فضائح و أعمال سيئة، و معاص، و آثام، وهذا الكتاب ينطق عليه بكل ما فعل.

(وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27))

(سورة الحاقة)

الموت للكافر أهون من أي شيء بعده، والموت للمؤمن أصعب من كل شيء بعده، فبعده سعادة أبدية، أما ما يعانيه الكافر حينما يموت، من سكرات الموت فهي أهون شيء مما سيراه بعد الموت..

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ)

يا ليت الموت الذي مثله كان قاضياً علي كلياً..

(مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي)

أين المال ؟

(هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّة)

ماذا يفعل المال بعد الموت ؟ بالعكس قد يكون وبالاً على صاحبه، قد ينفقه أولاده في المعاصي والآثام، لقد جمعه وتعب به ودخل به النار.

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّة (29))

لقد فقد مكانته ووظيفته وشأنه وحجته...

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

ضعوا الأغلال في يديه..

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32))

(سورة الحاقة)

قال بعض المفسرين: تدخل من فمه وتخرج من دُبُرِهِ، أو العكس..

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لأنه ما آمن بالله العظيم، وما استقام على أمره، و حينما لم يؤمن بالله العظيم تقلت من منهجه، ففعل ما يحلو له، فالإيمان بالله من ثمار الطاعة، والطاعة من ثمار السلامة، والسلامة تنتهي إلى الجنة، آمنت فانضبطت، فسلمت، فسعدت، يمكن أن نقول: الناس رجلان: متصلٌ بالله، منضبطٌ بأمره، محسنٌ إلى خلقه، فهو سعيدٌ في دنياه وأخراه، وإنسان مقطوع عن الله، ما آمن بالله العظيم، وتقلت من منهجه، و أساء إلى خلقه، فهو شقي في الدنيا والآخرة..

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

وفضلاً عن كفره كان يحارب الأعمال الصالحة.

(وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

أي: لا يحضُّ على إطعام المسكين بل يُتَبَّطُّ الهمم والعزائم..

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ)

ليس له صديق، فالإنسان في الدنيا له أصدقاء و له أتباع، و له من يدافع عنه، و له من يتفقده، أما هنا...

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36))

(سورة الحاقة)

كأنه قيح..

(لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)

مصيران لا ثالث لهما:

أيها الإخوة الكرام... هذان المشهدان من مشاهد يوم القيامة ؛ رجلان، رجل قال:

(هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ)

ورجل قال:

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ)

رجل:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

ورجل:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

أي أن لا توجد حالة وسط، ففي الدنيا قد نجد إنساناً بوضع غير جيد وغير سيئ، أما في الآخرة فلا يوجد..

((فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، إما في نعيمٍ مقيم

(فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (55))

وإما " الأغلال في أعناقهم يُسْحَبُونَ إلى النار"، فما في حل وسط، إما في قمم السعادة أو في دركات النار، فلذلك: إذا آمنت بالله العظيم طبقت منهجه القوي فسلمت وسعدت، وإن لم تؤمن بالله العظيم تفلتت من هذا المنهج القويم فشقيت وأشقيت.

إخواننا الكرام... من المناسب أن نعيد قراءة هذه المشاهد في البيت، وأن نذكر ما قيل حولها لأن هذه السورة سورة الحاقة سورة مباركة، تذكر الإنسان بهذه المشاهد وهذه النهايات التي لا بد منها، وكلنا على هذا الطريق سائرون، و ما منا واحد إلا وسيكون في أحد هذين المشهدين، ما في حالة ثالثة، في

بالدنيا واحد درس، وواحد لم ديرس، و الذي لم يدرس هو (عايش)، (ماشي الحال)، أما في الآخرة فلا يوجد شيء من هذا، فإما أن تكون قد آمنت بالله العظيم وتبعته، فأنت في سلامة وسعادة إلى أبد الآبدين، وإما أنك لم تؤمن، فمن لوازم عدم الإيمان التقلت والمعصية والانحراف والعدوان، ثم شقاء إلى أبد الآبدين، فلذلك: هنيئاً لمن اتعظ في الدنيا قبل الآخرة، و هنيئاً لمن قال: الله ربي قبل أن يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

فساعات الندم تعتصر القلب، وربنا عز وجل كأنه قد ذكر لنا ما سيكون كي نقف الموقف المناسب، و هذه السورة بين أيديكم، وهذان المشهدان الصارخان الدالان على نهاية الإنسان الحتمية ؛ إما مع هؤلاء وإما مع هؤلاء.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الحاقة 069 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 37-52

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-07-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كلام الله

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث والأخير من سورة الحاقة، ومع الآيات الأخيرة التي تبدأ بقوله تعالى:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

أيها الإخوة... القرآن الكريم آياته محكمة، فحينما قال الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةَ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة المعارج)

اللهم اجعلنا من هؤلاء..

(وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةَ (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَّةَ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةَ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةَ (29) خُدُوهُ فَعُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَئْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37))

كيف السبيل إلى دخول الجنة ؟ كيف السبيل إلى أن نكون من هؤلاء الأوائل الذين أوتوا كتابهم بيمينهم؟ الذين هم..

(فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

هؤلاء الذين يتنعمون بما أسلفوا في الأيام الخالية، كيف نكون من هؤلاء ؟ ربنا جلّ جلاله في آخر هذه السورة رَسَمَ لنا الطريق، يقول الله عز وجل:

المرئيات وغير المرئيات:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ما معنى لا أقسم ؟ إن هذه كأس الماء ترونها جميعاً، فهل يحتاج إلى أن أقسم على أنها كأس ماء ؟ الشيء البديهي المسلم به الواضح كالشمس لا يحتاج إلى قسم، فالمسلمات التي تتفق مع الفطرة لا تحتاج

إلى قسم، هل تحتاجون إلى أن أقسم لكم أن الأب أكبر من الابن ؟ من مَنَّا يُصدّق أن الابن أكبر من الأب من حيث السن ؟ مستحيل لأن الفرع يكون دائماً أصغر من الأصل، والجزء أصغر من الكل، هذه مسلمة، فلو أن إنساناً أقسم لكم أن عُمرَ الأب أكبر من عمر الابن لكان هذا القسم لا معنى لأن هذه الحقيقة تُدرك بالفطرة، ولو أنك سألت أهل الأرض جميعاً: من هو الأكبر الأب أم الابن ؟ لقليل لك: الأب.. و توجد حالات نادرة و قضايا اجتماعية أخرى، هذه موضوع آخر..

سئل سيدنا العباس: أيهما أكبر أنت أم رسول الله ؟ فقال: " هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله "، هذا أدب رفيع جداً، أما من حيث العمر الزمني ؛ من حيث عدد السنوات التي يعيشها الإنسان فليس مَنَّا واحدٌ يصدّق أن عمر الابن أكبر من عمر الأب، هذه الحقيقة البديهية الواضحة الناصعة البسيطة التي يُدركها الإنسان بالفطرة التي تنطوي تحت المُسلمات لا تحتاج إلى قسم، و هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَلَا أَقْسِمُ)

أي أن هذه الحقيقة لشدة وضوحها ونصاعتها وبديهيته، وانسجامها مع فطرة الإنسان لا تحتاج إلى قسم..

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

هذه الآية فيها لفظة علمية عميقة جداً..

نجوم السماء:

لو نظرنا مثلاً إلى السماء، فماذا نرى ؟ قرأت مرّةً أن بعض المراصد المتواضعة تستطيع أن تعدّ عشرة آلاف نجمة، أما الحقيقة التي عرفها العلماء اليوم، والتي لا تُرى بالعين هي أن في الكون قريب من مليون مليون مجرة، وفي المجرة الواحدة قريب من مليون مليون نجم، أي مليون مليون (x) مليون، أي: واحد أمامه اثنا عشر صفراً (x) واحد أمامه اثنا عشر صفراً، والعملية ضرب وليس جمع، فالنتيجة هو عدد النجوم التي توصّل إليه العلماء بالمراصد العملاقة، أما هذه العين التي في رؤوسنا في إحدى الليالي التي غاب فيها القمر، فلو نظرنا بها إلى السماء لا نستطيع أن نعد أكثر من عشرة آلاف نجمة، فعشرة آلاف النجمة هذه هي مما نبصر، والمليون مليون (x) مليون مليون نجم مما لا نبصر، فكأن الذي لا نبصره أعظم بكثير من الذي نبصره، فالله سبحانه وتعالى أشار إشارةً إلى أن في الكون حقائق لا أحد يُبصرها..

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

محدودية الحواس نعمة كبرى:

رأيت قرصاً عليه كثيرة، ما يقرب من مائة واثنين وستين مليون معلومة، و ثمن كتبه مائتا ألف ليرة سورية، وهو قرص صغير، فانظر إلى المعلومات فهل تستطيع بعينك أن تنظر إلى هذه المعلومات ؟

مستحيل، فالحواس محدودة، و محدوديتها هذه نعمة كبرى، فأحدنا الآن يُمسك بكأس ماء فيراه صافياً، فتتنوق نفسه إلى شربه، أما لو وضعت هذا الماء تحت مجهر لرأيت فيه من الكائنات الحيّة والبكتريا ما تعاف نفسك أن تشربه، فلا تشربه أبداً، لكن الحواس محدودة، فقد تنتظر إلى ابنك الصغير ذي الجلد المتألق الأملس، ولكنك لو وضعت هذا الجلد تحت مكبر مجهرى إلكترونى لوجدت أخاديد، وجبالاً وتلالاً وودياناً على خذه، فمن نعمة الله عزّ وجل أن الحواس التي أودعها الله فينا حواس محدودة، و أحياناً تُجرّح يدك قليلاً فإذا أكلت طعاماً حامضاً تشعر بالألم لأن الأعصاب الحساسة في الطبقة الثانية من الجلد، و لو أنها مكشوفة لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، من هنا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

فالحواس محدودة، و هذه العين لها عتبة ودنيا، و عتبة قصوى، لذلك توجد أشعة فوق الحمراء وتحت البنفسجية لا نراها نحن، فالحواس إذاً لها عتبات، فالعين لها عتبة رؤية، والأذن لها عتبة استماع، وكل شيء له حدود، فحواسنا محدودة، وعدم الرؤية لا يدل على عدم الوجود، وأكبر حماقة ارتكبتها الإنسان في مطلع عصر النهضة أنه أصبح حسياً لا يؤمن إلا بما يرى..

وقد سأل معلّم طلابه: هل ترون الله ؟ قالوا: لا، قال: إذاً هو غير موجود، فقال له أحد الطلاب: هل نرى عقلك يا أستاذ ؟ قال: لا، فقال له: إذاً أنت ليس لك عقل. ليس كل شيء لا يرى لا يوجد، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، و هذه حقيقة مهمة جداً وهي محور الدرس..

(فَمَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

البحار..

لو أنك وقفت على ساحل بحر ماذا ترى ؟ إنك ترى مياهاً زرقاء، فلو أن إنسان غاص إلى أعماق البحر لرأى العجب العجائب ؛ من الجزر المرجانية، والنباتات البحرية والطحالب، و مليون نوع من السمك، وقد ورد في الموسوعة العلمية أن الحقيقة الثابتة أن في البحر مليون نوع من السمك، فماذا رأيت من البحر ؟ و باطن البحر مما لا نبصر.

الحقيقة تقول: أن الذي لا نبصره أكبر بكثير إذا قيس إلى الذي نبصره، بل إن الذي نبصره لا شيء إطلاقاً أمام الذي لا نبصره، فربنا عزّ وجل يشير إلى هذه الحقيقة.

الأحياء الدقيقة:

مرّة رأيت في مجلة علمية مكعباً من التراب.. وفي داخل هذا المتر المكعب من التراب ما يزيد عن عشرة آلاف مخلوق، من البكتيريات والحشرات و ديدان التربة، و هذه لا تراها، فأنت ترى حقلاً، لكنك

لا تعلم كم حيواناً يعيش تحت التراب ؟ هذا مما لا تُبصر، ونحن نتحدث هنا عن الحشرات والأشياء التي يمكن أن نراها، أما التي لا تراه الأعين فهو أكبر بكثير.

الزغابات المعوية و شعر الرأس:

من ممّا رأى أن أمعاءه الدقيقة فيها زُغابات تتبدل كل ثمانية وأربعين ساعة ؟ عمر الخلية في زُغابة الأمعاء ثمانية وأربعون ساعة، تتبدّل كل يومين، أي منذ أن ولدت إلى الآن كل يومين يوجد تبدل في خلايا الأمعاء الدقيقة التي تمتص، وهذا الشعر الذي في رأسك من ممّا يصدق أن لكل شعرة وريداً، وشرياناً، وعصباً، وعضلة، وغدّة دهنية، وغدّة صبغية ؟

خلايا الدماغ والعصب البصري:

من ممّا يصدق أن في رأسه مائة وأربعين مليار خلية استنادية في الدماغ لم تُعرف وظيفتها بعد ؟ من ممّا يصدق أن في شبكية الدماغ مائة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط ؟ وأن العصب البصري قد يصل إلى تسعمائة ألف عصب، وهذه الخطوط لا تتداخل، فقد تتصل أحياناً بإنسان فتسمع مكالمته ثانية، فمن أين جاءت هذه المكالمات الثانية؟ من تداخل هذه الخطوط، أما تسعمائة ألف عصب فلا يمكن أن تتداخل فيما بينها، وهي تنقل الصورة إلى الدماغ حيث الإدراك، فأنت وحدك كونه كامل، فالحديث عن العين لا ينتهي بأشهر، والحديث عن الدماغ لا ينتهي بأشهر، و الحديث عن أعضاء النطق كذلك، فكل حرفٍ تنطق به تسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة، فكم حركة عضلية يحتاجها إلقاء كلمة خلال ساعة حتى لتصنع هذه الحروف ؟ وكم حرفاً صنع كلمة ؟ وكم كلمة صنعت جملة ؟ وكم جملة صنعت محاضرة ؟

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

الحوينات والنسج:

في اللقاء الزوجي الواحد هناك خمسمائة مليون حوين هل تراها أنت ؟ هل بإمكانك أن تعدّها واحدة واحدة ؟ كل حوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وكائن حيّ فيه مكونات، وفيه مليون معلومة مورثة، أين هذا كله؟ و الآن توجد مجاهر إلكترونية تكبّر بعض النسج أربعمائة ألف مرّة، و الشيء الذي يُرى بالصور لا يُصدّق، توجد صور للسان، و صور لشبكية العين، و صور لأعضاء الأذن، و صور لجدار المعدة، و صور للأمعاء، وصور لخلايا الكبد، و صور للجلد، و صور للخلية العظمية، فأنت ترى عظماً أملس ولكن هل تصدّق أنّ عظمك إسفنجي ؟ لأنه لو كان أصمّ لأصبح وزنك الضعف، ومعنى أن يكون وزنك الضعف هو أنك تحتاج إلى قلب مضاعف، و تحتاج إلى طاقة مضاعفة، فيجب أن تأكل الضعف، أما العظم المخلخل فهو أمتن، لأن المُفرّغ أمتن، و عنق الفخذ يحمل خمسمائة كيلو، وعظم الفخذ له عنق لكي يكون الإنسان منظره جميل، فيكون من الوسط أعرض من الصدر ومن الأرجل،

ولهذا يوجد عنق لعظم الفخذ، هذا العنق يحمل خمسمائة كيلو، فهل تبصر خلية العظم كيف تكون ؟ عظمة الكون:

الآن طبعاً يوجد تقدّم علمي مذهل ؛ فقد وصلوا إلى الفضاء، و تراهم يقولون: غزونا الفضاء.. تأدّبوا مع الله، الفضاء الذي غزوتموه سابقاً يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة.. و القمر يبعد عن الأرض ثانية ضوئية واحدة..، وقد حطّت مركبة على كوكب المريخ، لكن الأرض، والمريخ، والزهرة، وعطارد، والمشتري، وكل هذه المجموعة الشمسية أقصى قطر لها هو ثلاثة عشر ساعة، و القمر ثانية ضوئية، ولكن هذه المجرة التي تبعد عنّا ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية لا يمكن لك أن تراها، فهي ثلاثمائة ألف بليون، وقبل عام ونصف أذاعت إحدى محطات الأخبار العالمية خبراً عن اكتشاف مجرة من خلال مرصدٍ عملاق رُكّب على مركبة فضائية أرسلت إلى المشتري، وبقيت تسير في الفضاء الخارجي ست سنوات، وإلى جانب المشتري التقط هذا المرصد العملاق صورة مجرة تبعد عن الأرض ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، فهل ترى أنت هذه المجرة ؟ إنّ أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنّا أربع سنوات ضوئية، و لو أردت أن تصل إليه فإنك تحتاج إلى خمسين مليون سنة، و الأربع سنوات ضوئية تحتاج إلى أن تصل إليها خمسين مليون سنة، فهذا الإله العظيم الذي يقول لك:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فهل من الممكن أن تكتشف الخلية الإنسانية، ولتكن هذه الخلية الحوين المنوي، أو خلية من الثدي التي تستخدم في الاستنساخ، إنّ هذه الخلية يوجد عليها أكثر من مليون معلومة مبرمجة ؟ وكل معلومة لها علاقة بتكوينك، فيوجد مورث للطول، و مورث للون، ومورث للشعر، ومورث للمرض الفلاني، ومورث للسرطان، و كل مورث عبارة عن أمر مبرمج معقد جداً، العلم الأول الآن في علم الطب هو الهندسة الوراثية، فهم يريدون أن يعرفوا سرّ تكوين الإنسان، لماذا هذا الإنسان يتحمّل بعض الجراثيم وهذا لا يتحمّل ؟

أيها الإخوة... هذه الآية الكريمة:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ماذا ترى في الجو ؟ في أحد السنين كانت الحرارة في المملكة العربية السعودية أثناء أداء فريضة الحج ست وخمسين، ونحن في الطائرة قلوا: نحن على ارتفاع أربعين ألف قدم والحرارة خمسين تحت الصفر، أما على الأرض فهي ستة وخمسين فوق الصفر، فيوجد فرق مائة درجة، فهل ترى ذلك أنت ؟ الآن توجد طائرات ومركبات فضائية ومراصد، و مجاهر الإلكترونيّة ترى هذه الخلايا ؛ وهذه الكريات الحمراء و البيضاء، فهل تعلم أنه في كل ثانية يولّد نقي العظام اثنين ونصف كرية حمراء ؟ وأنه في

كل ثانية تموت اثنان ونصف مليون كرية حمراء ؟ وأن هناك مرضاً عضالاً يوقف هذه المعامل عن تصنيع الكريات واسمه فقر الدم اللامنع ؟ و هذا المرض لا يوجد له الآن شفاء..

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ومن يحرك هذا الطفل حينما يبلغ التسعة أشهر، فيقلبه رأساً على عقب ؟ قيل: هو أمر هرموني، لكن هل رأيت أنت هذا الأمر ؟ ومن الذي يوسع عظم الحوض في المرأة؟ قيل: أمر هرموني ثان، و من الذي يجعل الرحم يتقلص تقلصاتٍ لطيفةٍ متزامنةٍ متقاربة ؟ أمر هرموني ثالث، هذا شيء لا يُصدّق، لأن آلية الولادة من آيات الله الدالة على عظمته.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ)

(سورة عبس)

أنا لا أتكلّم الآيات بشكل مُنظّم، قال تعالى:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

الذي لا نبصره من حيث الكم يساوي ملايين ملايين الملايين الأضعاف عن الذي نبصر، ومن حيث التعقيد أقول: إن الأشياء التي تراها بسيطة أما الأشياء التي لا تراها فهي معقّدة جداً. تضيق الأوعية الدموية عند إرادة الوقوف:

الإنسان أحياناً قد يكون مُضجّعاً فيستيقظ من فراشه وهو لا يشعر بشيء، فهذا الدم يكون موزّعاً على طول جسمك وأنت مضجّع، فإذا وقف الإنسان فجأةً وجب أن ينساق الدم إلى الأسفل وذلك بحسب قانون الجاذبية، و معنى ذلك الإنسان يصاب بإغماء مباشر فوري، فحينما تنوي أن تستيقظ يكون هناك أمر يأمر كل الأوعية الدموية بالتضيّق ليبقى الدم في الرأس، والإنسان مع التقدّم بالسن تضعف عنده هذه الآلية، فيُنصح أنه إذا استيقظ ينبغي أن لا يقوم فجأةً، فهل ترى أنت هذه العوامل التي تؤثر في الأوعية فتجعلها ضيّقة ؟

الغدة النخامية:

فأنت حينما ترى - لا سمح الله - أفعى في بستان وتُدرك أنها أفعى، فإنك تجري في جسمك عمليّات معقّدة جداً وأنت لا تشعر، ويكون ذلك خلال ثوان، فهذه العين تنطبع على شبكيّتها صورة الأفعى، فتنتقل هذه الأفعى إدراكاً إلى الدماغ، و الدماغ ملك الجهاز العصبي، يتصل فوراً بملكة اسمها الغدة النخامية وهي ملكة الجهاز الهرموني، وهذه الملكة من أخطر غدد الإنسان ؛ لأنها لو اضطربت لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، أما وزنها "الكبير جداً" فهو نصف غرام، لكنها رغم ضآلة وزنها تفرز اثني عشر هرمون، فأحد الهرمونات ينظّم السوائل في الإنسان، و لو أن هذا الهرمون لم يُفرَز فإن الإنسان يجب أن يقضي كل وقته جانب صنبور الماء والمرحاض، فسيشرب عشرين تنكة

ماء في اليوم وسيطرحها، و هذا الهرمون ينظم توازن السوائل، فهل ترى أنت هذا الهرمون ؟ و هل ترى الغدة النخامية كلها ؟ إن رئيس الجهاز العصبي هو الدماغ، وهو يتصل برئيسة الجهاز الهرموني وهي الغدة النخامية المحترمة، فهناك خطر تصرفي، فهذه الملكة تعطي أمراً لغدتي الكظر اللتين هما فوق الكليتين، والكظر توجد عنده أجهزة و آلات، فيُصدر خمس أوامر فورية هرمونية لا عصبية، منها أمر إلى الأوعية الدموية بتضييق لمعتها، فالخائف يصفرّ لونه فوراً، لأن الخائف بحاجة إلى الدم للعضلات لا إلى المنظر الوردي الجميل، لأنه الآن خائف فعليه أن ينجو بجلده.

1- الأمر الأول: هرموني هو تضيق الأوعية الدموية في جسم الإنسان ولا سيما المحيطية، فالخائف يصفر.

2- الأمر الثاني: فهو إلى القلب حيث يرتفع النبض إلى مائة وثمانين نبضة، فالخائف يحتاج إلى تدفق دم سريع لا إلى سير بطيء، فعلى قدر النبضات تكون سرعة الدم، فالنبضات ثمانية نبضة فيمشي الدم بهذا الشكل، أما في مائة وثمانين نبضة فغن يسير الدم سريعاً.

3- الأمر الثالث: إلى الرئتين كي يتناسب وجيب الرئتين مع ضربات القلب.

4- الأمر الرابع: إلى الكبد وهو طرح كمية سكر إضافية في الدم، و توجد الآن مشكلة جديدة طارئة، فيحتاج الإنسان إلى غذاء استثنائي.

الأوامر معقدة جداً ؛ إلى الرئتين، و القلب، والجلد، و الكبد، فالكبد يجوز أن يكون فيه صدام مباشر، ويصير فيه جرح.. فيذهب أمر إلى الكبد بمضاعفة هرمون التجلط لكي لا ينزف الدم كله، فخلال ثوان يصبح هناك إحساس و إدراك وأنت لا تدري، كما يحدث اتصال بين رئيسي الجهازين، فالغدة النخامية أعطت أمراً موحداً للكظر، والكظر أعطى خمسة أوامر وأنت لا تشعر، فالخائف يضطرب قلبه، ويزداد وجيب رئتيه، ويصفر لونه، فلو فحصت سكر دمه لرأيت مرتفعاً، فهل ترون هذا أنتم ؟ أبدأ. جهاز في الدماغ لمعرفة اتجاه الصوت:

هناك جهاز في الدماغ يكشف تفاضل وصول الصوتين للدماغ، وعن طريقه تعرف جهة الصوت والفرق بين الصوتين، فلو صرخنا وراء إنسان وكنا على جهة على اليمين فإن الصوت يصل للإذن اليمنى قبل اليسرى بواحد على ألف وستمائة جزء من الثانية، و هذا الجهاز يكشف التفاضل فيعرف جهة الصوت، فهل عرفت أنت ذلك ؟

فيا أيها الإخوة... والله لا أريد أن أطيل عليكم بالأمثلة، و لو أننا أمضينا في تفسير هذه الآلية سنوات وسنوات فلن تنتهي، وهذا كله يدور حول ما لا نبصره، فالأحمق هو الذي يقول: أنا لا أؤمن بشيء إلا إذا رأيته:

وفي كل شيء له آية.. تدل على أنه واحد

العضلات الهدبية:

و توجد الآن بديهيات في العلم، فعينك مثلاً لها عدسة، والعدسة لها محرّق، والشبكية هي المحرّق، فلكي يقع الخيال على المحرّق يوجد لدينا احتمالان: إما أن نغيّر حركة المحرّق، أو أن نغير احتداد العدسة، فالمحرّق ثابت، وبعد الشبكية عن العدسة ثابت، وما بقي هو تحريك العدسة، فإما أن نزيد في احتدادها أو نقّص، فمن المسؤول عن ذلك ؟ إنها عضلات هدية بسيطة جداً، والله لو أن هذه العضلات تحمل دكتوراه في الفيزياء لما استطاعت أن تقيس المسافة وتضغط ضغطاً يتناسب مع وقوع الخيال على الشبكية، و عملية المطابقة هذه من أعقد عمليات العين..

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فالذي لا نبصره أضعافُ أضعافِ الذي نبصره، وعظمة الذي لا نبصره أضعافُ أضعافِ الذي نبصره، فماذا ترى بعينك ؟ إنك ترى أن الشمس شرقت من الشرق وغربت من الغرب، والحقيقة هي عكس ذلك، فنحن ندور حولها، وندور حول أنفسنا دورة كل يوم، لذلك يجب على الإنسان أن يعلم الحقيقة كيفما تحرّك ؛ فكأس الماء الذي تشربه، والطعام الذي تتناوله، والبيت الذي تسكنه، و الطاقة التي تستخدمها (الكهرباء) من خلقها؟ الله جلّ جلاله، وقد ترى شجرة فماذا تبصر ؟ إنك تراها في الشتاء حطباً و خشباً فقط، أما في الربيع فهي تزهر، ثم تورق، ثم تثمر، وهذا الذي رأيته.

ورقة الشجر:

أيها الإخوة.. لقد قرأت في موسوعة علمية مترجمة عن النباتات كلمة عن ورقة الشجر أذهلتني، قال: إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان حتى الآن يبدو تافهاً أمام الورقة، فما هذه الورقة ؟ إنها تستقبل النّسْغَ الصاعد، وهو عبارة عن ماء محلول فيه أملاح ثماني عشر معدن تقريباً ؛ الفوسفات، والآزوت، والكالسيوم.. إلخ، وهذه هي الأسمدة التي يضعونها الآن في التربة، وهي أملاح معادن وليست معادن، إنها أملاح معادن قابلة للذوبان، تذوب هذه في الماء ويصعد الماء بخاصيّة شعريّة معقّدة جداً. فهل عند الإنسان سائل يُحقن فيكون حديداً تارّةً، وإسفنجاً تارّةً، وعصيراً تشربه تارّةً؟ هل يوجد عندك شيء هكذا ؟ هذا السائل الواحد يعطيك مادة صلبة، ومادة رخوية، ومادة إسفنجية، ومادة غذائية ؟ هذا غير معقول، والنّسْغُ الصاعد وهو يصعد قد يرجع، لكن قيل: إن النبات يحتوي على دسّمات، والدسّمات شيء لا يُصدّق، ونحن أيضاً توجد عندنا دسّمات، فإذا وقفت خمس ساعات لصعد الدم من الأسفل إلى الأعلى خلاف الجاذبية، إنه يصعد بدفع القلب لكن ما الذي يمنعه من أن يرجع ؟ توجد دسّمات في الأوردة (ثلاث وريقات كل فترة) عندما يأتي النبض تفتح، وعندما ينتهي النبض تغلق، فلا يرجع الدم، وحينما تتعطل يصاب الإنسان بمرض الدوالي، وهو ينتج عن تعطل الدسّمات الصاعدة، وهناك دسّمات مشابهة في النبات، فالماء الذي يصعد لا يرجع، وذلك عن طريق دسّمات، أما النسغ النازل فهو

لخطورته الوعاء مُحَصَّنٌ بخلزون لكي لا يضغط نمو النبات على لمعته، فهل ترى أنت هذا ؟ وأذكر لكم أن عندنا شجرة حملت هذه السنة فقط والحمد لله، وأكلنا منها، فهل تعرف أن الشجرة معمل صامت؟ هي معمل صامت ينقي لك الجو، فيأخذ فضلاتك الغازية ويعطيك ما تحتاجه من أكسجين، هل تعلم ذلك ؟ الإنسان حينما يمشي في غابة صنوبر يشعر بانتعاش لأنها تُعطي الأكسجين بأكبر كمية وتأخذ غاز الفحم، فهل أنت تبصر ذلك ؟

الحليب:

عندنا بقرة تعطي أربعين كيلو في اليوم الحمد لله، فهل تعلم كيف يتحول الدم إلى حليب من بين فرثٍ ودمٍ ؟ إن بعض إخواننا المهندسين الزراعيين اطلع على بحث جميل وأطلعني عليه، أن كلمة (فرث) تعني الفضلات السائلة، فتوجد فضلات غازية هي الزفير، و توجد فضلات سائلة وهي حمض البول الموجود في الدم، وتوجد فضلات صلبة وهي الغائط، فهذه الخلية.. خلية الحليب.. تختار من الدم ما تحتاج ؛ من البروتين و الشحوم والفيتامينات و المعادن، من أجل أن تصنع لك حليباً كامل الدسم، يعدُّ غذاءً كاملاً، يمكن أن تقيم عليه حياتك، و حتى هذه الساعة لا يعلم أحدٌ كيف تعمل هذه الخلية الثديية في البقرة، هي خلية توجد فوقها شبكة أوعية كأنها تنتقي من الدم ما تحتاج، فهي كالعقل، وفي الحليب ثلاثة بالمائة بوتاسيوم، وأربعة بالمائة من الفيتامين الفلاني، و فيه بروتين و شحوم، وسكريات، وهو مادة غذائية كاملة، وهناك شيء آخر يقول: أن أربعمئة حجم من دم يساوي حجم حليب واحد، فكل كيلو حليب تشتريه قد ساهم بصنعه أربعمئة لتر دم من البقرة، وهذا الضرع الكبير مقسّم بجدارين متعاكسين من الداخل، فلو أن هناك أربعة إخوة لهم بقرة واحدة فإن كل حلمة من البقرة تُعطي ربع الكمية بالتمام والكمال، و هي بقرة ساكنة تأكل الحشيش فتعطيك الحليب، فتأكل منه الجبنة، واللبن، والسمن، والقشطة، ومشتقات الألبان، والبوظة في الصيف، و الأرز بحليب في الشتاء، والشمندور، وأشياء لا تعدُّ ولا تحصى من هذا اللبن السائغ للشاربين..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل: آية " 66 ")

هل ترى ذلك ؟ فهذا الذي لا تراه هو أعظم بمليار مرّة من الذي تراه، فربنا نبّهنا فقال:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

ديدان التربة:

مرّة اطلعت على مقالة بمجلة مترجمة يقول كاتب هذه المقالة: يمكن أن يُلغى وجود الإنسان [وهو المخلوق الأول]، فلو فني البشر قاطبةً لكانت الحياة مستمرة، كما لو فني الحيوان بأكمله فإن الحياة مستمرة، إلا أن في التربة ديداناً لو ألغيت لتوقف الحياة، فهل تصدق ذلك ؟ إن الدود في التربة يقوم

بعمل يعجز عنه العلماء، فهو يأكل التراب ويعطيه تراباً صالحاً لإنبات النبات، وهذه الديدان إذا أُبِيدت انتهت حياة الإنسان من على الأرض لأن التراب لا ينبت، والحيوان يموت، والإنسان يموت بعدها، وهذا لا تراه أنت.

والله هذا الكلام لم يكن مُحَضَّرًا، ولكنه خواطر آنية حول هذه الآية، أما لو كان هناك دراسات منهجية في عالم النبات و الحيوان و الأسماك و الفضاء و التربة لرأيت العَجَب العُجَاب، وتوجد كل حقيقة لا يصدّقها العقل.

جهاز المناعة:

أنت لا تعرف ما معنى جهاز المناعة، بل إنك تقول: الحمد لله الصحة طيّبة، والصحة طيّبة لأنه يوجد جهاز مناعة، هذا جهاز المناعة هو عبارة عن جيش يفوق أرقى جيش في العالم، له قيادة، له أسلحة.. وهو يمثل سلاح الطيران، وسلاح المدرعات، وسلاح الإشارة، فيوجد فيه سلاح الاستطلاع، فإذا دخل إلى جسم الإنسان جرثومة أعطت القيادة المركزية أمراً لسلاح الاستطلاع، فينطلق سريعاً إلى هذا الجرثوم، لا يقاتله ولكنه يأخذ معلومات فقط، عن تركيبه أو عن شفرته الكيماوية ويعود بها إلى معامل الأسلحة، ففي العقد للمفاوية توجد معامل أسلحة، ويسلم هذا العنصر شفرة هذا الجرثوم وتنتهي مهمته، لأن هناك تنسيقاً، و توجد قيادة حكيمة، فالعنصر الذي في العقد للمفاوية مهمته أن يُصنّع مصلاً مضاداً لهذا الجرثوم، فيصنّعه فوراً، وتنتهي مهمته هنا، و توجد خلايا ثالثة وهي خلايا مقاتلة.. هؤلاء سلاح المشاة.. يحملون هذا السلاح وينتقلون إلى هذا الجرثوم، ويقاقلونه حتى يقتلوه وتنتهي مهمتهم، و هناك سلاح الخدمات.. سلاح الهندسة.. وهو يأتي لينظف أرض المعركة من الجثث، ويوجد سلاح (كوماندوز) وهذا أعلى شيء، وعنده قدرات عالية جداً، فمن الممكن أن يكتشف شذوذ خلية قبل أن تشذ فيقضي عليها، ولولا هذا السلاح لكان السرطان يعمّ البشر كلهم، و هذه الخلية تكتشف الشذوذ قبل أن يبدأ وتقضي عليه، أما الشيء الذي لا يصدّق هو أن هذا الجيش العرمرم الذي في الجسم له قيادته خارج الجسم، و كل جهاز له قيادة، فالعصب له الدماغ، والهرمونات لها الغدة النخامية، والدوران له القلب، إلا هذا الجهاز، فقيادته من خارج الجسم، ويقول مؤلف كتاب حول هذا الجهاز: ولا نعلم من أين يأخذ أوامره، فيكفي أن ترتفع قدراته القتالية حتى تُلغى كل الأمراض، فإذا تضعض هذا الجهاز فإن أقل مرض يقضي على الإنسان، قال: إن الحب، والطمأنينة، والشعور بالأمن يرفع قدرة هذا الجهاز ؛ وإن الخوف والقلق، والحقد والبغض يضعفان هذا الجهاز.

والآن فسّر.. لماذا يصاب الناس بأمراض عضالة ؟ إنه من الشرك، الشرك يعطي خوف، وقلق، واضطراب، والتوحيد أساسه الثقة بالله عزّ وجل، فالعالم الآن لا يعنيه إلا هذا الجهاز.. جهاز المناعة المكتسب.. فما الذي يضعفه ويدمره ؟ إنه الانحراف الجنسي.

فقد قرأت قبل شهر -ولم أصدّق ما قرأت - لقد قرأت عن وزير الصحة البريطاني عقد مؤتمراً صحفياً وهو يحمل دكتوراه في العلوم الإنسانية، قال في المؤتمر: أنا شاذ جنسياً، والله هذا شيء غريب في مؤتمر صحفي ! فهذا الإنسان في آخر الزمان

((كيف بكم إذا أصبح المعرفة منكراً والمنكر معروفاً ؟ كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف))

كيف بكم ؟

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

إن كل هذا الكون المرئي وغير المرئي، وكل ما فيه من مجرّات و كازارات، ومذنبات، و كواكب، ونجوم، و أقمار، و سُحُب، والأرض بجبالها، وصحاريها، وبحارها، وأنهارها، وأسمائها، وأطيّارها، ونباتاتها، و الإنسان.. فكل ما في الكون يدلّ على أن هذا القرآن كلام الله، و هذا جواب القسم..

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40))

القرآن من عند الله:

إن الرسول ليس مُبتدع، وهذا القرآن ليس من عنده..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: آية " 67 ")

(إنما أنا مُنْبِئ)، وقد قال العلماء: " إما أن هذا الرسول هو سيدنا جبريل، أو هو محمدٌ عليه الصلاة والسلام ". و كلاهما جائز..

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ)

وهذا القرآن ليس شعراً، ولا نثراً، ولا قصّة، هذا كلام الله، فمن الغباء أن توازن بينه وبين الشعر، أو بينه وبين القصّة، أو بينه وبين النثر، إنه كلام الله..

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)

فليس من العقل أن ينكر الإنسان شيئاً لم يدرسه، ولا بحث فيه، ولا درس جوانبه، ولا تعمّق بفهمه، فهل سمعت عن إنسان طرق عليه ساعي البريد وأعطاه رسالة فجاء الذي تسلمها فمزّقها ولم يقرأها ؟ هذا مستحيل، وهناك من الناس من لا يعظم هذا الكتاب دون أن يقرأه أو يتعمّق فيه أو يفهم أحكامه، هذا القرآن هو كلام رب العالمين، فكل الكتب في الأرض بكفّة، وهذا القرآن بكفّة أخرى، و الآن يُطبع في اليوم الواحد من كتب في العالم وباللغة الإنكليزية فقط ما لا يستطيع الإنسان أن يقرأه في مائتي عام.. فكم من كتاب في الأرض ؟ وكل هذه الكتب بجميع اللغات في كفّة وهذا كلام الله في كفّة ثانية، هذا كلام الله.

قصة:

دخل مُعَنَّ إلى مكتبة في إيطاليا فلفت نظره القرآن الكريم باللغة الأجنبية، فسأل صاحب المكتبة: مَنْ مؤلف هذا الكتاب؟ قال له: الله. فسخر من هذا الكلام واشتراه لينقض هذه الدعوى التي ادّعاها صاحب المكتبة، قرأه فآمن، وأسلم، وترك الغناء، وأنفق ثروته كلها في شراء اسطواناته وإتلافها لعل الله يغفر له ذلك، ففي بدء الهداية قيل له: هذا الكتاب ألفه خالق الكون، و أشار إلى السماء، ففضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، فكم هي المسافة بين خالق الكون وبين إنسان حقير؟ إنها نفس المسافة التي تكون بين كتاب ألفه إنسان شاعر أو كاتب أو مفكر، وبين كتاب الله، و لا يؤلمني إلا أن يُعدَّ كتاب الله كأي كتاب، هذا قرآن.. هذا كتاب الخالق!

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية " 42 ")

وهو كتاب من عند الله فيه الحق المطلق، ولا يوجد فيه خطأ أبداً، فما من كتاب قرأته إلا وجدت فيه ثغرات بعد حين، وقد قرأت كتاب الله كتاب كثيراً فما وجدت فيه ثغرة واحدة، وهو من أعظم الكتب الدينية، وقد قرأت كتاباً ذكر فيه المؤلف أن الإنسان عندما يأكل يصعد بخار الطعام إلى الدماغ، فكأن الجسم مُفَرَّغٌ، والمعدة صحن وضع فيه الطعام الحار وبخار هذا الطعام صعد إلى الدماغ، وهذا شيء مضحك لأنه كلام بشر، فهل وجدتم حقيقة في الأرض تُصادم آية قرآنية؟ هذا مستحيل لأنه كلام خالق الكون.

طبعاً أيها الإخوة...

(فَلَا أَقْسِمُ)

هي عند علماء التفسير بحكم أقسم، بمعنى أن الله عز وجل حينما قال:

(فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

فجواب هذا القسم المنفي هو:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

أي أن الكون كله في كفة وكلام الله في كفة، والدليل:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

فإنَّه عزَّ وجل خلق الكون ونورَه بالقرآن الكريم، إذا:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلََّا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43))

أحياناً يكون للإنسان دعوى بالقضاء، فيصدر اجتهاد محكمة النقض بخمس كلمات فيقول: لقد ارتحت.. لأن هذا الاجتهاد يغطي دعواي، و دعواي ناجحة.. فكلمة قالها إنسان من اجتهاد بسيط قد لا يؤخذ به يشعرك بالطمأنينة، وربنا عزَّ وجل يطمئن المؤمن في ستمائة صفحة، و يعد المؤمن بجنة عرضها السماوات والأرض، أفلا ينبغي أن نطمئن ؟

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة ابراهيم: آية " 27 ")

والقرآن الكريم..

(تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

وعد الله عزَّ وجل المؤمن بحياة طيبة، وهو وعد قطعي، كما وعد المعرض بمعيشة ضنك، فلا بدَّ من أن يحيا هذه الحياة، ووعد المستقيم بالرزق الوفير، ووعد الخائن بالحق، فأى شيء وعد الله به محقق الوقوع، وأي شيء أوعد الله به محقق الوقوع ما لم يثب صاحبه..

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة المعارج)

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام تكلم كلمة لم يقلها الله عزَّ وجل، قال:

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46))

الوتين: هو عرق في القلب إذا انقطع يموت الإنسان..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

أي: أهلكناه..

(ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

أي أن النبي عليه الصلاة والسلام اسمه أمين وحي السماء، فلا توجد كلمة أوحى الله إليها به إلا وذكرها، فهناك أمانة مطلقة، فأنَّه عزَّ وجل يوحي إليه وهو الرقيب عليه..

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ)

تقول ؛ أي: قال عنا قولاً لم نقله..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

بطشنا به..

(ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

لأن كل إنسان في قبضة الله..

(وَإِنَّهُ)

القرآن الكريم..

(لَتَذْكُرَةَ الْمُنْفِقِينَ)

لأن الإنسان مفطور على الكمال، فإذا توافقت فطرته مع كتاب الله شعر براحة كبيرة.

أنواع التكذيب:

(وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةَ الْمُنْفِقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49))

إما تكذيب قولي، أو اعتقادي، أو سلوكي، فالإنسان عندما يخالف نص القرآن الكريم يكون فعله هذا أحد

أنواع التكذيب، لكن التكذيب العملي هذا خطير جداً..

حسرة الكافرين:

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المعارج)

و الحسرة لا تكون الآن، لكنها تكون حينما يكتشف أن هذا القرآن الذي أهمله، واتخذته وراء ظهره، وأعرض عنه، ولم يتله أثناء الليل وأطراف النهار، ولم يأخذ بأحكامه، ولا بحلاله ولا بحرامه، ولا التصور الذي جاء به القرآن للكون، والحياة، والإنسان، وأنه سبب هلاكه عندئذ تأتيه الحسرة..

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

فمثلاً: إذا باع إنسان بيته وهو لا يملك غيره، وباعه بعملة صعبة، ومعه جهاز في جيبه لكشف الزيف في العملة ولكن لم يستخدمه، ثم اكتشف أن الثمن كله عملة مزورة ألا يُصْعَق ؟ لكن لماذا يتضاعف ندمه ؟ لأن معه جهاز كشف الزيف ولكن لم يستخدمه، فانه عز وجل أعطانا منهج وأعطانا عقل، فلا استخدم الإنسان عقله ولا استخدم المنهج..

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51))

كل ما فيه حق يقين، وخيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط، لأنه لا بد من أن يؤمن ولكن بعد فوات الأوان حينما يأتيه ملك الموت..

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

(سورة المعارج)

سبحان الله العظيم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1-4 حتمية الحساب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-07-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة المعارج:
العذاب الواقع:

بسم الله الرحمن الرحيم
(سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

(سورة المعارج)

إذا قال الله عز وجل:

(بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

فلا بد للعذاب من أن يقع، والإنسان- أيها الإخوة مخير، فالشهوات التي أمامه محسوسة، لكن عقابها خبر في القرآن الكريم، والطاعات التي يتحمل من أجلها جهداً جزاؤها خبر في القرآن الكريم، فلو أن الشهوات و الطاعات مع نتائجها كانت جميعاً محسوسة لما كان الإنسان مخيراً، بل إنه يصبح عندئذ مضطراً، والشيء الدقيق هو أن المؤمن سُمِّيَ مؤمناً لأنه يؤمن بالغيب، و يؤمن بجنة لم يرها، لكن الله أخبره عنها، و يؤمن بنار لم يذق حرّها لكن الله أخبره عنها، فلو كانت الجنة و النار محسوستان كالشهوات التي بين أيدي الناس، لما اقتترف إنسانٌ معصيةً، ولا رقي بطاعة لأنه في هذه الحالة يكون مضطراً.

مثال:

أوضح مثلاً على ذلك: ضع على طاولةٍ مبلغاً من المال، وليقف أمامه إنسان، ثم قل له: إن أخذته بغير حق أطلقت عليك النار، فهل يأخذه ؟ إطلاقاً، وضع على طاولةٍ ثانية صندوقاً، وقل للإنسان: ادفع مائة ليرة وخذ ألفاً، إنك ستجد الناس جميعاً يقفون وراء بعضهم بعضاً ليأخذوا هذه الميزة، فلو أن نتائج الطاعة كانت محسوسة كمقدّماتها، ولو أن نتائج المعصية كانت محسوسة.. حسيّة.. كأسبابها، لما عصى إنسانٌ ربّه إطلاقاً ولما ارتقى بهذه الطاعة، إنها طاعة اضطرارية، وأنت لا ترضى و لا ترقى عند الله عز وجل إلا إذا آمنت به غيباً وأطعته على ثوابٍ أخبرك به، ولا ترقى إطلاقاً إلا إذا اجتنبت معصيته على عقابٍ أخبرك الله عنه، و لذلك كانت مشكلة غير المؤمن أنه يتعامل بحواسّه، فما دام في صحة وحبوحة، فهو قادر على أن يمارس كل نشاطات حياته، وتكون الشهوات التي بين يديه مستعرة

فينغمس فيها، وينسى أن الله أوعد هؤلاء العصاة بعذابٍ شديد، بينما ربنا عز وجل في هذه السورة يقول:

(سَأَلَ سَائِلٌ)

إن هذه السورة مكيّة بإجماع العلماء..

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

قد يقول الكافر أحياناً -لاستهزائه بحقائق الدين ولعدم تصديقه لكلام الله عز وجل-: أين العذاب ؟ فليأت، وحينما يقول أحدٌ هذا الكلام يكون كتلة من الجهل، لأنه يقول ذلك لخالق الكون، فأنت لا تقول لإنسان قوي يفعل ما يقول: افعل ما تريد، فهذا كلام فيه تحدّ، لكن الإنسان لجهله ولعدم معرفته أحياناً يستعجل عذاب ربّه، فيقول: أين العذاب ؟ أين المرض ؟ أين الدمار ؟ نحن أقوياء، يقول لك: أنا قوي، وكأنّه لن يموت، و لن يمرض، وكأنّه يضمن ما هو فيه من شهواتٍ وموات.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ)

أي: التمس ملتمسٌ عذاباً للكافرين، هذا العذاب قال الله عنه:

(لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

(سورة المعارج)

لو أن أهل الأرض كلّهم و الإنس والجن اجتمعوا على أن يمنعوا عذاباً عن إنسان لا يستطيعون. قال عليه السلام:

((وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ))

[من سنن الترمذي: عن ابن عباس]

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[من مسند أحمد: عن أبي الدرداء]

الخوف دليل العقل:

أيها الإخوة الأكارم... إن الله جلّ جلاله يبيّن في هذه الآية أن العذاب الذي توعدّ به الكافرين واقعٌ لا محالة، وأن القضية هي قضية وقت فقط، فالعذاب واقعٌ بهم لا محالة مع وقف التنفيذ إلى أن يستكملوا

أجلهم، فالإنسان المحكوم عليه بأن العذاب سوف يصبُّ عليه في الوقت الذي يراه الله مناسباً، لو عرف هذه الحقيقة لما نام الليل.

يا أيها الإخوة الكرام... كلما نما عقل الإنسان نما خوفه، فالخوف متعلق بالعقل، وقد قال لي مستهزئ مرة إنسان: أنا لا أخاف من الله، قلت له: معك الحق، قال لي: كيف ؟ قلت: إن بعض الفلاحين يذهبون ليحصدوا القمح مع أطفال صغار في سن السنتين، فقد يمر أمام هذا الطفل الصغير ثعبانٌ ضخم، لكن هذا الطفل لا يخاف أبداً، بل يضع يده عليه، قلت له: إذا انعدم الإدراك انعدم الخوف، فالذي لا يخاف ليس عنده إدراك أبداً، وهذه قاعدة أيها الإخوة: " إن صح الإدراك كان الخوف، وإن كان الخوف نقتلك إلى السلوك ".

وأوضح مثل على ذلك أنك إذا كنت في بستان فرأيت أفعى، فخبراتك السابقة، والقصص التي سمعتها، والكتب التي قرأتها، والمشاهدات التي شاهدتها، هذه كلها كوَّنت في ذاكرتك مفهومات أن الأفعى قد تكون قاتلة، وسمها قاتل، فهذه المفهومات التي أودعت فيك ؛ من خبرات و تجارب و مطالعات و قراءات شكَّلت لك إدراكاً، فإن رأيت أفعى تتحرك أمامك وكان الإدراك صحيحاً فلا بدَّ من أن تشعر بالخوف منها، فعلامة الإدراك الصحيح الشعور بالخوف، وإن خُفَّت منها حقيقة فلا بدَّ من أن تتصرف، فلما أن تهرب وإما أن تقتلها، وصحة الإدراك تنقلك إلى الشعور، وصدق الشعور ينقلك إلى الحركة، الإدراك أولاً ثم الانفعال ثم الحركة، وإذا لم يكن هناك حركة فلا يوجد انفعال، ومعنى عدم وجود الانفعال هو عدم وجود الإدراك، فالإنسان حينما لا يخاف يكون إدراكه للخطر غير صحيح، فقد تجد إنسانين ؛ أحدهما جاهل والآخر طبيب، أما الجاهل فيُمسِك بالفاكهة ويأكلها والتراب عليها، لكن الطبيب يغسلها كثيراً، لأن إدراك الطبيب بحسب معلوماته ومشاهداته للجراثيم والأمراض والأوبئة والأمراض المعدية يدفعه إلى غسل الفاكهة، بينما الذي لا يعلم هذه الحقائق كلها قد يأكلها بترابها وما يدري أنه ماذا يفعل، فالخوف متعلق بالإدراك، فالذي لا يخاف الله إدراكه معدوم، ومن هنا جاء الحديث:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

فكلما نما إدراك الإنسان نما خوفه من الله، وأذكر أنني زرت بعض المعامل فرأيت صاحب المعمل في وضع صعب جداً، فوجهه مُصْفَر، ونفسه مضطربة، فقلت: ما الذي حدث ؟ قال: تعال انظر، لقد كان المعمل قائماً والآلات تعمل بانتظام وكل شيء على ما يرام.. لكنه قال لي: تعال انظر، فنظرت فإذا بجسر مركزي في السقف فيه خط بسيط، قال: جننا بدكتور في الهندسة وقال: هناك انزياح في أساسات المعمل، وإصلاح هذا الانزياح يحتاج إلى خمسمائة ألف ليرة، فقلت: لو نظر إنسان عادي لهذا الشق في هذا الجسر لقال: إنه يحتاج إلى معجون وطلاء وانتهى الأمر، أما العالم فيقول: هناك انزياح في أساسات، وهذا آيلٌ إلى السقوط، فلا بدَّ من إصلاح هذه الأساسات بأقرب وقت.

فالعالم معه خوف، ويصعب إدراك للتأثير، والإنسان إذا خاف بعينه كان في مستوى البهيمية، أما إذا خاف بعقله فإنه يكون في مستوى الإنسان، وأقرب مثل على ذلك الدخان، فالمدخن يدخن دون أن يشعر بشيء، ويقول لك: (الدخان ما فيه شيء مضر)، أما حينما يُداهمه المرض الخبيث، ولا يسمح له الدخان أن يعيش ولا ساعة أو ولا سنة يدرك أنه خاف بعينه ولم يخف بعقله، أما إذا خاف الإنسان بعقله تصوّر المستقبل قبل أن يصل إليه، فمن أدق تعريفات العقل: أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

نحن عبيد وعباد..

أيها الإخوة... أردت من هذه المقدمة أن أقول: إننا جميعاً عبيدُ الله عزَّ وجل، فنحن عبيد وعباد، و(عبيد) جمع عبد، وفيها معنى القهر، فكلنا عبيدُ الله ؛ بمعنى أننا مقهورون في وجودنا وفي سلامة وجودنا، وفي استمرار وجودنا إلى الله عزَّ وجل، وكلكم يعلم أن أي خلل في جسم الإنسان يجعل حياته جحيماً لا يُطاق، وأن أحداً لا يملك أجهزته، ولا خلاياه، ولا سيولة دمه، ولا دماغه، ولا قلبه، ولا رئتيه، ولا أمعاءه، ولا أي غدة في جسمه، فإذا كنا عبيداً مقهورين لله عزَّ وجل فكيف نعصيه ؟ كيف نعصيه وكل مقومات سلامتنا وسعادتنا بيده سبحانه؟؟

قال أحدهم لأحد العلماء: أريد أن أعصي الله، فقال له: لا شيء عليك، اعصه إذا شئت، ولكن احتط لخمس نقاط، قال له: ما هي ؟ قال: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكان لا يراك فيه، و إن أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، فقال: أين أسكن إذا ؟ قال: تسكن أرضه وتعصيه ؟ هذا ليس معقول، قال له: هات الثانية، قال: إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: وماذا أكل إذا ؟ قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه ؟ قال: هات الثالثة، قال: إن أردت أن تعصيه فاجهد أن تعصيه في مكان لا يراك فيه، قال: هو معنا دائماً، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟! قال: هات الرابعة، قال: إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، ارفض، قل لا أريد أن أموت، قال: لا أستطيع ذلك، قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تتفكك من ملك الموت !! قال له: هات الخامسة، قال له: إذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم، قال له: لا أستطيع، قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تتفكك من ملك الموت ولا من زبانية جهنم ؟؟ فكيف تعصيه إذا ؟.

أيها الإخوة.. إن الإمام الغزالي لما خاطب نفسه قال: " يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحببها فلا شك أنك تمتنعين "، فأنت تطيق تعليمات الطبيب بحذافيرها من أجل صحتك و قلبك، "أكون الطبيب أصدق عندك من الله "، إنك تصدق الطبيب، وقد تبع بيتك الذي في الطابق الرابع في اليوم التالي، وقد تعبت في شرائه، وتزيينه، وهندسته، وتأثيثه، قد تبيعه فوراً لأن الطبيب أمرك بهذا، فأنت تصدقه دون

أن تصدق الله عز وجل؟! " إن منعك طبيباً من أكلة تحبينها فلا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ فإن كان كذلك فما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله "، فالطبيب يقول لك: هذا الدرج قد يؤثر على قلبك، وهذا الطعام قد يرفع ضغط الدم عندك، و الوعيد هو ضعف في القلب أو ارتفاع في الضغط، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ! إذاً فما أجهلك. إخواننا الكرام... إن أي إنسان يعصي الله هو مدموغ بالكفر والغباء والجهل، لأننا بيد الله، وفي قبضة الله ؛ حياتنا، وأجهزتنا، وأعضاؤنا، وأنسجتنا، فهذا نمو الخلايا إما أن ينمو نمو نظامياً فالوضع سليم، وإما أن تنمو هذه الخلايا نمواً عشوائياً فالوضع مميت، فمن منا يملك قلبه ورنثيه ومعدته وأمعاءه وكبدته، وكلتيه، وحركته، ودمه السائل إن أصبح لزجاً، من منا يملك ذلك ؟ إذا كنا في قبضة الله عز وجل فكيف نعصيه ؟ ماذا تقول له إذا قال لك: يا عبي لم عصيتني ؟ هل معك جواب ؟

لا تدع الدنيا تستهلكك:

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

(سورة المعارج)

العذاب الذي أوعد به الكافرين واقع لا محالة، لكن الإنسان أحياناً يكون كالنعامة ؛ فالنعامة تماماً يتبعها عدو لها ليفترسها، فتجد أن أفضل شيء أن تغمس رأسها في الرمل، عندئذ لا ترى عدوها فالمشكلة في نظرها قد حلت ؟ فتسهل بذلك لعدوها أن يفترسها بلقمة سائغة، فالحقيقة هي أن هناك مشكلة، وهي أن الإنسان أحياناً الحياة تستهلكه ؛ فمن يوم إلى يوم، ومن فصل إلى فصل، ومن سنة إلى سنة، ومن عمل إلى عمل، ومن مشروع إلى مشروع، تستهلكه الحياة ويغفل عن ساعة لقاء الله عز وجل، فيؤسس مشروعاً، و يحضر دكتوراه، ويفكر في الزواج، وينهمك إلى قمة رأسه في الأمور الدنيوية، ويغيب عنه أنه في لحظة واحدة قد يكون من أهل القبور، فيغدو خيراً بعد أن كان رجلاً، لقد كان رجلاً له وزن و حجم و فكر و عاطفة و نشاط و حركت و مكانة في بيته و مركز تجاري و سمعة، لكنه فجأة يصبح خيراً على الجدران.

فيا أيها الإخوة الكرام... وقفني عند قوله تعالى:

(بَعَذَابٍ وَاقِعٍ)

إنه واقع لا محالة، ولا نستطيع أن ننجو من عذاب الله إلا بطاعة الله، ولا نستطيع أن ننجو من هذا العذاب الواقع إلا بالصلح مع الله.

الوهم المريح والحقيقة المرّة:

إخواننا الكرام... إن أخطر شيء في الحياة هو الوهم المريح، وأصعب شيء هو الحقيقة المرة، فالإنسان إذا كان رجلاً بالمعنى الصحيح، لا يأبه للوهم المريح بل يبحث عن حقيقة مرة تقلقه، وقد ذكرت الوهم المريح في درس سابق، فقد يسمع طالب في أول عام الدراسي كلمة غير صحيحة تقول: أنك إن قدمت هدية للأستاذ قبيل الامتحان فإنه يعطيك الأسئلة، فالتألم هنا يرتاح راحة كبيرة جداً، لأن الدراسة قد انتهت، فلن يحضر، ولن يدرس، ولن يذاكر، ولن يلخص، ولن يؤدّي واجباته على إطلاقاً اعتماداً على هذا الوهم المريح، فهو سيطر على باب الأستاذ قبل الامتحان بيوم ليقدم له الهدية ويأخذ الأسئلة مكانها، فقد يفعل ذلك، فيصفه الأستاذ على وجهه وبطرده ويركله بقدمه، وهذه هي الحقيقة المرّة، فالأستاذ لا يفعل هذا أبداً، ولو أنه علم هذه الحقيقة في أول العام لدرس ونال الشهادة، لكنه علمها بعد فوات الأوان؛ قبل الامتحان بيوم، فالأمر في ذلك الوقت يكون قد انتهى، فيجب على الإنسان ألا يكون ضحية وهم كاذب، وانهماك في الدنيا، وألا يجعل الدنيا تستهلكه، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

ذكرت من قبل أن العبيد جمع عبد القهر، أما العباد فهو جمع عبد الشكر قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)

(سورة الفرقان)

ما معنى: هَوْنًا؟ أي بتؤدة، فهذا الذي يمشي على الأرض هوناً لا يسمح لعمله أن يستهلكه، وما أكثر الذين استهلكتهم أعمالهم، فهو مُنْغَمِسٌ في علمه إلى قمة رأسه؛ لا يفقه شيئاً ولا يعي شيئاً ولا يهتم بشيء، فقد استهلكه عمله وأنهاه، لكن العبد الذي يمشي على الأرض هوناً لا يسمح لأسرته أن تستهلكه، ولا يسمح لبيته أن يستهلكه، ولا يسمح لمشكلة أن تستهلكه، يمشي هوناً، ويسأل دائماً من أنا؟ أين كنت؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ أما هذا الذي يعيش لحظته فهو إنسانٌ تافه، يعيش لأنه يعيش، ويعيش لأن قلبه ينبض، لا يعرف من أين؟ ولا إلى أين؟ ولا لماذا؟.

السلامة والسعادة مطلبان أساسيان:

يا أيها الإخوة الكرام... إننا لا نحتمل العذاب أبداً، فلو أنك سألت خمسة مليارات إنسان يعيشون على سطح الأرض في القارات الخمس: هل هناك مطلبان ثابتان دائماً أساسيان؟ لقليل لك: نعم هما السلامة والسعادة، فمن منا يحب المرض؟ من منا يحب أن يصيبه مرضاً عضالاً؟ -لا سمح الله ولا قدر- من منا يحب الفقر المدقع؟ من منا يحب الذل؟ من منا يحب أن يكون مهاناً؟ أن يكون شقياً في بيته؟ أن يكون دنياً أمام الناس؟ كلنا نحب السلامة، فباستقامتك على أمر الله تسلم، وكلنا نحب السعادة،

وبإتصالك بالله تسعد، فالسلامة ثمنها الاستقامة، والسعادة ثمنها العمل الصالح، فإن استقمت على أمره سلمت، وإن عملت الأعمال الصالحة سعدت، والذي يطلب السلامة والسعادة عليه أن يصطلح مع الله وأن يطيع الله عز وجل وأن يتقرب إليه بالأعمال الصالحة.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعَتْ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2))

(سورة المعارج)

الحساب على الله:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 1ل ")

هناك أناس يتوهمون أن فلاناً رجل صالح، فإذا كنت معه أنجوا، فهو يحاول أن يغطي أشياء بأشياء، وقد ذكرت اليوم في الخطبة: أن الإنسان إذا كان في أعلى درجة من الذكاء وطلاقة اللسان وقوة الحجة، والتقى مع النبي عليه الصلاة والسلام وكان في خصومة مع أحد أصدقائه، وعرض أمره على النبي، واستطاع بطلاقة لسانه وقوة حجته وحجته أن ينتزع من فم النبي فتوى لصالحه، و أي فتوى أهم من فتوى النبي وهو سيّد الأمة وسيد ولد آدم المعصوم الذي يوحى إليه، لو أنك انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى لمصلحتك بقوة حجتك وبطلاقة لسانك ولم تكن محققاً فإنك لن تنجو من عذاب الله، ف(العَلَقَةُ) مع من إذا ؟ إنها مع الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضَى لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

(من صحيح البخاري: عن أم سلمة)

هذا الحديث وحده أيها الإخوة يكفي لئلا نعتد إلا على الله، وألا نرجو إلا الله، وألا نخاف إلا من الله، وألا نضع آمالنا إلا على الله، فلو أفتى لك النبي عليه الصلاة والسلام، و سمح لك و قضا لك و حكم لك، ولم تكن محققاً فإنك لن تنجو من عذاب الله، وهذا الحديث صحيح،

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضَى لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ))

(من صحيح البخاري: الرواي "أم سلمة")

فالإنسان كلما زاد عقله زادت طاعة الله، وزاد حرصه على القرب من الله.

معاني (العذاب الواقع):

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعَتْ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2))

[سورة المعارج]

وقال بعضهم: هذه الباء زائدة، أي: سأل سائلٌ عذاباً واقعاً للكافرين، فإما أن نفهم هذه الآية على أن الكافر لجهله وبعده وتكذيبه واستهزائه يستعجل عذاب الله عزّ وجلّ، فيقول: أين العذاب ؟ لينزل بنا العذاب، وإما أن المؤمنين ينتظرون أن ينزل الله عقابه بالكافرين، وإما أن المسلمين سألوا: على من يقع عذاب الله ؟ ومتى ؟ فهذا من علم الله عزّ وجلّ، أي إما أن يسأل مسلم الله عزّ وجلّ أن يدمّر الكافرين، والله عزّ وجلّ يقول:

(وَإِمَّا تُرِيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ)

(سورة يونس: آية " 46 ")

أي: إنك يا محمد قد لا تستطيع أن ترى نتائج أو عقاب الكافرين، فقد ترى وقد لا ترى، فإذا كان النبي وهو أكرم الخلق على الله عزّ وجلّ يرى أو لا يرى، فنحن ليس هذا من شأننا، فأنت عليك أن تطيع الله عزّ وجلّ، والإنسان حينما يستقيم على أمر الله ويصل إلى هدفه مع الله، فلا علاقة له بالطرف الآخر، عذّب أو لم يُعذّب، " كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله "، فالإنسان لا يعلّق أهمية فيقول: لم لا يدمّر الله هؤلاء الكفار الذين أخرجوا الشعوب من بلادهم وتغطرسوا، وافتخروا، وتحذوا، وهدموا بيوت الناس ؟ أين الله ؟ لماذا لا يدمّرهم ؟ إن هذا استعجال، و هذا ليس من شأنك، بل هو من شأن الله عزّ وجلّ، و أنت عليك أن تطيع الله وانتهى الأمر.

(بَلِ اللَّهُ فَاعِبٌ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

تنتهي مهمة الإنسان المؤمن حينما يلتزم أمر الله ونهيه، وحينما يرجو الله عزّ وجلّ أن ينصر المؤمنين، وهو يفرح حينما يُنزل الله عقابه للكافرين، و لا ينبغي عليه أن ينتظر وأن يسأل وأن يتعجّب، إذاً: إما أن السائل هو مسلم ينتظر أن يُنزل الله عقابه بالكافرين، وإما أنه مستهزئ كافر يقول: متى وعد الله ؟ وإما أن السائل يسأل متى وأين ؟ فالجواب عند الله عزّ وجلّ.

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2)))

وقد قال الله تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة الحاقة)

آيات الدرس الماضي..

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

(سورة الحاقة)

فلا تعتمد -أيها الأخ الكريم- على مالك، لقد قال شخص هذه الكلمة: إن المال يحل كل مشكلة، وقالها وهو يجهل أن هناك مشكلات لا يحلها المال، فوقع في ورطة، فدامت ثلاثة وستين يوماً، وكانت في محل لا يُحتمل أن تبقى فيه ساعة، وكان يأتيه هذا الخاطر كل يوم.

وهناك رجل توفّي، وقبل أن يتوفاه الله عزّ وجل خرج من معمله في جهة الجنوب وكان بيته في المهاجرين، فبقي ساعاتٍ طويلة يبحث عن بيته، فقد ضاع من ذاكرته مكان بيته، وهذا فقد جزئي للذاكرة.. وهناك فقد كلي..، فأصبح لا يعرف أبناءه، فمن اعتمد على ماله فإن المال يذهب بأدنى سبب، ومن اعتمد على عقله وذكائه فالعقل يذهب بأدنى سبب، ومن اعتمد على من حوله فقد يتخلّى الذين حوله في أخرج المواقف، لذلك:

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخٌ وصاحبٌ في الله))

إخواننا الكرام... هذه كلمة من القلب: من اعتمد على غير الله فقد أشرك ؛ فلا تعتمد على زوجة، ولا على ولد، ولا على أقرب الناس إليك، ولا على قوة في جسمك، ولا على ذكاء في عقلك، ولا على مال بين يديك، ولا على مكانة تتمتع بها بين الناس، ولا على رصيد من أي نوع، اعتمد على الله، فحينما توحّد تجد أن الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وحينما لا توحّد تجد أن الله سبحانه وتعالى قد يتخلّى عنك، وإذا تخلّى الله عنك لا تجد حولك أحداً.

سمعت عن رجل له ولدٌ وحيد، وقد قدم لهذا الولد كل شيء، فكسب مالا حراماً لينفق عليه في دراسته، وكان يعلّق آمالاً عريضة على هذا الابن، فأرسله ليدرّس ويأتي بالدكتوراه، فتزوَّج هناك وتجنّس واستقر، وقطع عن أبيه كل صلة، فكل من يعتمد على غير الله يلقي تأديباً من الله عزّ وجل، فمُ بكل واجباتك تجاه أولادك و زوجتك وإخوانك، وجيرانك، ولا تعتمد إلا على الله، فمُ بواجباتك ولا تعلّق أملاً إلا على الله، و افعل كل عملٍ طيب ولا تجعل لعملك سندا لك في حياتك الدنيا.

أيها الإخوة... إن الشرك الخفي تأديبه قاس، لأن الله عزّ وجل يغار تتكل على غيره و أن تضع ثقتك في غيره، فلذلك ثفاً بكل جهة تضع ثقتك عليها، فتتخلّى عنك في أخرج المواقف.

معاني (المعارج):

(مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

(سورة المعارج)

قال العلماء:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

1- أي: ذي العلو والدرجات الفواضل والنعم.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي الدرجات العالية الرفيعة، و هذا ثناءً على الله عز وجل، وقال بعضهم:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

مراتب إنعامه على الخلق.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي الدرجات العُلا، وهذا ثناءً على الله، و:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

2- مراتب إنعامه على الخلق، فقد أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنعم عليك بنعمة الإمداد، وأنعم عليك بنعمة الهدى والرشاد، فجعلك إنساناً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، وأعطاك أسرةً، ومنحك زوجةً و أولاداً، وأعطاك عقلاً وحواساً أعضاء، وأنت تتحرك، فهناك نعمٌ كثيرة.

(ذِي الْمَعَارِجِ)

أي: ذي المراتب في إنعامه على الخلق، وقيل:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

ذي العظمة والعلاء.

3- وقال بعض العلماء:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

معارج السماء، أي طبقات السماء، ف (المعارج) : إما الدرجات العُلا وهذا ثناءً على الله، أو درجات الإنعام على الخلق، وهذا نوعٌ آخر، أو (ذي المعارج) ؛ أي: ذي العظمة والعلاء، أو ذي معارج السماء، الذي خلق السماء على هذه الطبقات، أو:

(ذِي الْمَعَارِجِ)

4- معارج الملائكة.

5- وقيل: المعارج: العُرفُ التي جعلها لأوليائه في الجنة، و كل هذه المعاني تُصَدَّق على كلمة:

(مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)

الملائكة والروح:

الملائكة هي هذه الأجسام النورانية التي تُسَبِّح الله عز وجل.

(لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

والروح هو جبريل، وهذا من عطف الخاص على العام، فالملائكة وعلى رأسهم جبريل، أو الروح اسم جنس لكل نفوس البشر حينما تموت، فالإنسان حينما يموت تَعْرُجُ روحه إلى السماء لتلقى حسابها عند الله، فإما أنه جبريل، وإما أن الروح اسم جنس لأرواح بني آدم.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

(سورة المعارج)

(يوم مقداره خمسين ألف سنة):

لهذه الآية وقفة متأنية، قال بعض العلماء: هو يوم القيامة، فهو يومٌ طويل على أهل الكفر قصيرٌ على أهل الإيمان، فربنا عزَّ وجلَّ عَيَّرَ عن طول هذا اليوم بخمسين ألف سنة، أيها الإخوة.. لقد جعل الله يوم القيامة على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون بعدها النار للاستقرار فيها، أي أن يوم الحسان يطول ويطول حتى يصل إلى خمسين ألف سنة، والقاعدة الدقيقة تقول: أن الألم ساعة، و اللذة دقيقة، والزمن يطول ويَقْصُرُ، فهو يطول على المعذبين ويقصر على المحبين:

إِنْ يَطْلُ بِعَدِكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكَو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكُمْ

وقد أراد الله جلَّ جلاله أن يبيِّن أن هذا اليوم يوم القيامة هو على الكافرين عسير، فهو عليهم طويلٌ طويل، ومقداره خمسون ألف سنة، وإما أن يكون هذا الرقم معبراً عن طول هذا اليوم، أو أن طوله خمسين ألف سنة من سني الدنيا، فهو إما رقم للتكثير أو رقم للتحديد، فإما أن هذا اليوم مقداره خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، أو أن هذا اليوم طويلٌ طويل طويل فهو يزيد عن خمسين ألف سنة ليُكْثِرَ الله هذا اليوم ويجعل هذا اليوم نخافه جميعاً في الدنيا، ومما يؤكِّد معنى أن هذا اليوم يوم القيامة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والذي نفسي بيده إنه ليُخَفَّفَ عن المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يصلِّيها في

الدنيا))

أي أن هذا اليوم الذي هو خمسون ألف سنة على الكافرين يَقْصُرُ وَيَقْصُرُ على المؤمنين ليصبح مقدار صلاةٍ مكتوبةٍ في الدنيا ؛ أي: ربع ساعة، ويطول على أهل الكفر ويقصر على أهل الإيمان، فهذا الذي يؤكِّد معنى أن هذا اليوم يوم القيامة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما من رجلٍ لم يؤدِّ زكاةَ مالٍ إلا جعل الله شجاعاً من نارٍ تكوى بها جبهته وظهره وجنباه في يوم

كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس))

هذا الحديث أيضاً يؤكِّد أن هذا اليوم هو يوم القيامة.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ)

فكلمة الروح تعني اسم جنس لأرواح البشر، أي: إن كل إنسان ستصعد روحه إلى السماء لتحاسب عن كل أعمالها، فإن كانت هذه النفس كافرة طال عليها اليوم طويلاً لا حدود له، أو كان مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة، وقال إبراهيم التيمي: " قدر ذلك اليوم على المؤمن لا يزيد على ما بين الظهر والعصر "، وهذا قول آخر.

ومن حديث معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين، ولذلك سمي نفسه سريع الحساب وسمي نفسه أسرع

الحاسبين))

تقريب للأذهان:

بالمناسبة أقول لكم: إن الله عز وجل قال تقريباً لإفهام الناس: يُبقي هذا اليوم في الآخرة للمؤمن ربع ساعة مقدار صلاة مكتوبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا تقريب، و ربنا عز وجل سريع الحساب، وهو أسرع الحاسبين، فإذا كان فهمنا هذه الآية فهماً علمياً قلنا: الآن هناك بعض الأجهزة في أمريكا تقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية، والذي يمتلك الحاسوب يعرف ما معنى هذا الكلام، فقد تطرح سؤالاً: أن ابحث لي في الأحاديث عن حديث في هذه الكلمة، فيقرأ لك ستين أو سبعين ألف حديث خلال ثوان، فإذا وصل الإنسان إلى سرعة الحساب بهذه الطريقة، فكيف الله سبحانه وتعالى وهو أسرع الحاسبين؟! فالوقت عنده لا يوجد إطلاقاً، والحساب فوري، وكل إنسان معه نتائج عمله، لكن ربنا عز وجل يقول كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أنه مقدار صلاة مكتوبة))

وهذا تقريب للأذهان، وقد قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

فكلمة:

(كُنْ فَيَكُونُ)

تحتاج إلى وقت، فهي تحتاج إلى ثوان، وهذه أيضاً للتقريب، وأحياناً ربنا عز وجل يقول:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام: آية " 12 ")

الله لا يكتب، لكننا نحن نثق بالشيء إذا كان مكتوباً ثقة أكبر، يقول لك: أنا معي عقد أو سند أو تصريح أو تنازل، فالإنسان يرتاح للشيء المكتوب، فربنا عز وجل حينما قال:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

إنما قال ذلك ليطمئننا، أو لنفهم ما معنى أن وعد الله حق، فحتى كلمة:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام: آية " 62 ")

فلا يوجد وقت على الإطلاق، فالإنسان كاد أن يلغي الوقت، والإنسان بحساباته على الحاسوب كاد أن يلغي الوقت، فكيف الله عز وجل ؟ والله تعالى يقول:

(صَحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)

(سورة الفرقان)

الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن:

لذلك قال العلماء عن ربهم: إنه لا يشغله شأن عن شأن، فأنت قد تكون مشغولاً بقضية، وحينما تنتهي تلتفت إلى قضية ثانية، فهذا شأن العباد، لكن شأن رب العباد أنه لا يشغله شيء عن شيء، فلو كنت محاسباً وأردت أن تعطي عشرة موظفين الرواتب، فإنهم يقفون أمامك واحداً تلو الآخر، فتبحث عن اسم كل واحد منهم، كما تبحث عن مبلغه، وتتقده راتبه، ويوقع لك، ثم يمشي، ويأتي الثاني، فأنت لا تستطيع أن تدفع للعشرة في ثانية واحدة، لأن هذا ليس من شأن البشر، فأنت مشغول بالأول عن الثاني، وبالثاني عن الثالث، وبالثالث عن الرابع، لكن الله جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء..

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

قال بعض العلماء: كما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم في لحظة واحد، فالحساب فوري، ويؤكد هذا قوله تعالى:

(مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة لقمان)

وعن ابن عباس:

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ)

(هذه الآية في سورة السجدة)، قال: أيام سماها الله عز وجل هو أعلم بها كيف تكون ".

الآيات المتشابهة:

أحياناً قد يوجد بعض الآيات -وهي قليلة جداً - متعلقة بذات الله، منها قوله تعالى:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر: آية " 22 ")

فأين كان ؟ وإلى أين أتى ؟

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

هل لله يد ؟

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

هل له نفس الله عز وجل ؟

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن)

هل الله له وجه ؟ له نفس ؟ له يد ؟ له سمع ؟ له بصر ؟ هل يأتي ؟ ينتقل ؟

(أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

(سورة الملك)

هو في السماء ؟ والأرض ؟ وهذه الآيات قليلة جداً، ولا تزيد عن أصابع اليد وهي تتعلق بذات الله عز وجل، وإن أسلم وأكمل موقف هو أن تفوض معناها إلى الله، فأيات التكليف واضحة، وآيات الأمر والنهي واضحة، وآيات افعل ولا تفعل واضحة، وهي لا تحتاج إلى مفسر.

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً)

(سورة الإسراء)

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْفُوتاً)

(سورة النساء: آية " 103 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

وإن أكمل فهم لها أن تفوض الله عز وجل أمر معناها، والموقف الثاني هو أن تؤلفها تأويلاً يليق بجلال الله، فيده قوته، وسمعه وبصره علمه، ومجيئه مجيء أمره، ووجهه هو ذاته، ونفسه هي ذاته، أما أن تُعطل هذه الصفات، فهذا انحراف في العقيدة، أو أن تجسد هذه الصفات فهو انحراف آخر في العقيدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (2-6): تفسير الآيات 5-18

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-07-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاهد من يوم القيامة

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المعارج، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

ضيق أفق الكافرين:

إن هؤلاء الكفار المعرضين، العصاة، المنغمسين في ملذاتهم المحرمة يرون هذا اليوم بعيداً لأنهم لا يؤمنون به، ومعنى بعيد: أنه لن يأتي، فهو في رأيهم بعيداً عن الواقع و غير صحيح، إنهم يرونه: علام تعود هذه الهاء ؟ قال تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

(سورة المعارج)

هذا اليوم طويل جداً على أهل المعصية والعدوان..

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ)

وأرواح المؤمنين و نفوسهم تعرج إلى بارئها لثحاب في يوم طويل جداً..

(كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

فاصبر يا محمد على تكذيبهم صبراً جميلاً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

كل آتٍ قريب:

الهاء تعود على يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الحساب و الجزاء و تسوية الحسابات، يوم أن يؤخذ المظلوم من الظالم، ومن القوي للضعيف، ومن المقهور لمن قهره..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

أيها الإخوة الكرام... لقد زرت قبل أسبوع بلدة عملت فيها مدرّساً قبل ثلاثين عاماً، وأنا في الطريق تذكرت كيف مضت هذه الثلاثون عاماً ؟ لقد مضت كلمح البصر، وقد كنت مرّة في حفل، فقام خطيب في الحفل وذكّرني أنه كان تلميذاً لي قبل أربعين عاماً.. فقلت: سبحان الله كيف مضت هذه الأعوام الأربعون ؟ والأربعون، والخمسون، والعشرون والعشرة.. كلها تمضي سراعاً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

" كل متوقع آت وكل آت قريب " فنحن الآن في الصيف، وسريعاً ما يمضي الصيف ويأتي الشتاء، وإذا دخلنا في الشتاء، فإنه سريعاً ما يمضي ويأتي الربيع، فندخل في الربيع، وسريعاً ما يمضي الربيع ويأتي الصيف، وإذا دخلنا في أول العام انقضت الأشهر سريعاً ليأتي العام الثاني، وما إن ندخل رمضان حتى ينتهي ويأتي رمضان الثاني.. فالزمن يجري.. وهؤلاء المكذبون الكفّر المنغمسون في الشهوات يرون يوم الدينونة بعيداً، وهو يوم تسوية الحسابات الذي يُحاسب فيه الإنسان عن أعماله صغيرها وكبيرها.

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

يوم يحاسب فيه المرء على كل صغيرة وكبيرة، و كل بسمّة، وكل عبوس، وكل عطاء، وكل منع، وكل صلة، وكل قطيعة، وكل كلمة ؛ هل هي قاسية أو حامية أو رحيمة أو منصفة، كما يحاسب على كل صلة و زيارة و سفر و إقامة و حفلة، فكل شيء تفعله مسجلاً عليك وسوف تُحاسب عنه..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

(يَهَاتُ هِيَ هَات لِمَا تُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

فالمسافة بين حياة الإنسان وبين أن يكون تحت سطح الأرض تقدر بثوان، فقد يفقد حياته فجأة، وفي ساعات معدودة يُصبح تحت أطباق الثرى. لقد ذهبت مرّة إلى تعزية وسألت عن المتوفى فقيل لي: إن عمره خمسة وخمسون عاماً، وقد ترك مبلغاً فلكياً، فكيف مات ؟ لقد مات في الفندق ؛ جاءت سكتة دماغية فأنتهت بثوان، وفي ذهنه آمال لا تنقضي بعشرين ولا بثلاثين عاماً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

ما من إنسان توقاه الله إلا وجاءته الوفاة حسماً لآمال طويلة، وقد رسم النبي عليه الصلاة والسلام على الرمل مستطيلاً بقضيب بيده، ورسم خطأ داخل المستطيل، ثم مدّه إلى خارج المستطيل بمسافة طويلة، فأشار إلى المستطيل بأن هذا أجل الإنسان، وأما الخط الممدّد إلى ما بعد المستقيم فقال عنه: وهذا أمله. وقال بعض العلماء أن الأمل يُهلك الإنسان، أي أنه يتأمل أن يعيش سنوات طويلة جداً وقد تكون أكفانه نُسيجت وهو لا يدري.

مرةً حدثني أخ فقال: هناك رجل يريد أن يكسو بيته، فحير المهندسين ماذا يفعل بالتدفئة المركزية ؛ يجعل تمديداتها خارجاً ؟ أم يجعلها داخل الجدران ؟ و بقي في حيرة ستة أشهر، فإن جعلها من الخارج أعطت فاعلية أكبر لكن منظرها غير أنيق، وإن جعلها من الداخل فلعلها تتعطل فيضطر إلى تكسير البلاط، فمرت ستة أشهر وهو يضع حساباته ماذا يفعل ؟ ثم اهتدى إلى الحل الآتي، فقال: يجعلها داخلية، و حينما تفسد بعد عشرين عاماً يجعلها خارجية ولا يكسر البلاط.. وكأنه ضامن لأن يعيش عشرين سنة بعد هذا العمر.. فكم من إنسان انتهى من كسوة البيت فأنتهى أجله، و كم من إنسان أنهى دراسته وانتهى مع إنهاء دراسته أجله، و كم من إنسان نال شهادة ولم يستخدمها، واشترى بيتاً ولم يسكنه، وكم من شاب مات في ليلة عرسه.. أعرف شاباً مهندساً وقد كان متفوقاً جداً، وأراد الزواج فهيئوا لحفلة العرس أوزاناً من الحلوى لا يمكن أن تُصدّق، وفي أحد المشاريع مدّ رأسه من النافذة ليتفقد شيئاً فوق رأسه قطعة صلبة قتلتته فوراً، فوزعت كل هذه الحلوى يوم وفاته أثناء التعزية.. وهناك قصص كثيرة جداً من هذا القبيل ؛ فهناك من يُسافر فلا يعود، ويأتي إلى بلدٍ فلا يرجع إليها، ويعقد قرانه فلا يدخل، وينال شهادة فلا يستمتع بها، ويبني بيتاً فلا يسكنه.

حدثني أخ عن رجل اشترى بيتين متصلين في طابق واحد، وأمضى سنتين كاملتين في كسوتهما، وبعد أن انتهت الكسوة بأسبوع واحد انتهى أجله..

(إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

أيها الإخوة... إن المؤمن الصادق يجب أن يكون مستعداً لمغادرة الدنيا في أية لحظة والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران)

أي لا يأتيئكم الموت إلا وأنتم مستسلمون لأمر الله عز وجل، خاضعون له..

(إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

فلا يوجد إنسان يموت إلا وكانت في مذكراته أعمال لا تتقضي بعامين أو بعشرة أعوام ؛ مشاريع وخطط، وطموحات، وشركات، وعقود، ومنجزات، فيأتي الموت فيهمم اللذات، ويفرق الأحباب، ويشتت الجماعات.. " عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به " ..

إخواننا الكرام... بعضهم يقول: إن ذكر الموت فيه تشاؤم، لكن الموت فيه معنى إيجابي، فإذا كنت على طريق فأنت معرضٌ لخطرٍ ؛ خطر التوقف والتعطل، وخطر الانزلاق، فالتفكير بالموت يحول بينك وبين الانزلاق وبين الوقوف، فأنت متحرك، والموت يدفعك إلى طاعة الله والعمل الصالح وإنفاق المال

و تلاوة القرآن و طلب العلم و الذكر، والموت يمنعك أن تعصي الله عزّ وجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أَكْثَرُوا ذَكَرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ))

فلم يقل: اذكروا، بل قال: أكثرُوا، فالأمر لا ينصبُّ على الذكر بل ينصبُّ على كثرة الذكر، فما الذي يمنع أن يسأل الإنسان نفسه: هل بقي لي بقدر ما مضى؟ إنه سؤال صعب، ولكن ليتصوّر أحدنا أنه مات، ماذا سيكون بعد موته؟ هل يباع بيته؟ هل تتزوج امرأته؟ هل ينضبط أولاده أم يتفرّقون؟ هل يجتمعون أم يتنافسون؟ ماذا سيحصل؟ وهذه الأشياء التي يقتنيها من سيأخذها ويستخدمها؟ وماذا سيكون؟

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يوماً على آله حذاء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة..

فاعلم بأنك بعدك محمول

هناك رجل ورث من رجل مبلغاً ضخماً جداً يزيد عن تسعين مليون، ولكن هذا المبلغ لا يحصل إلا بمعاملات طويلة جداً، فترك عمله، وترك متجره وشمّر وانطلق من دائرة إلى دائرة، ومن مكان إلى مكان، ومن ورقة إلى ورقة، ومن وثيقة إلى وثيقة، ومن براءة ذمّة إلى براءة ذمّة من أجل أن يحصل هذا المبلغ الكبير، وجاءته المنيّة قبل أن يقبض درهماً واحداً..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

سبحان الله.. إنه شيء يحير، فهناك إنسان يُلقى على الفراش ثلاثين عاماً، وإنسان يُخطف بثانية واحدة وهو سليم لا يشكو من شيء على الإطلاق، فهناك رجل قبل بيوم من وفاته أجرى تخطيط قلب وتبين أن لا شيء فيه، كما أجرى (إيكو) فتبين ألا شيء فيه، فاطمأن..

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

والإنسان أحياناً يفر من عدو يتبعه، وكم تكون المفاجأة صاعقة لو رأى عدوه أمامه في الاتجاه المعاكس؟ وهذه الآية دقيقة جداً أيها الإخوة:

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً)

الذي أهلك الكافر هو طول الأمل، فقد يكون على مشارف الموت وهو يلعب بالنرد للساعة الثانية، وقد يكون على مشارف الموت وهو لا يصلي، أو يأكل المال الحرام، أو يعتدي على أعراض النفس، أو

يسهر إلى الساعة الخامسة صباحاً على أفنية (المجاري) فينتقل من قناة إلى قناة، وعمره ستين سنة وهو على وشك أن يغادر الدنيا..

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَرَأَهُ قَرِيباً (7))

ما النذير؟؟

قال تعالى:

(أُولَئِكَ نَعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

ما النذير ؟ قيل: هو الشيب..

((عدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحيي مني فأنا أستحي

منك))

إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

الشيب نذير، وسنّ الأربعين نذير، المصائب نذير، وموت الأقارب نذير..

(أُولَئِكَ نَعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

افتراض:

وعلامة المؤمن أنه يرى أجله قريباً و مجهّزاً، وقد ضربت مرّة مثلاً، وهو افتراضي وغير واقعي، ولكن قصدت منه فكرة دقيقة جداً فقلت: افترض أن هناك بطاقة الطائرة إلى أمريكا بخمسمائة ألف، وقد قصدت هنا مضاعفة المبلغ خمس مرّات، فجعلته خمسمائة ألف ؛ أي: نصف مليون، وافترض أنك إن لم تسافر فلن تأخذ قيمتها إطلاقاً ؛ أي: إنها ستضيع عليك.. وهذا افتراض ثان.. فأول افتراض هو مضاعفة قيمة البطاقة خمسة مرّات، والافتراض الثاني هو أنك إن لم تسافر و تصعد إلى الطائرة خسرت قيمة البطاقة، وافترض أن الشركة الناقلة هي التي تأخذك من البيت، وأنها تأتي في حدود عشر ساعات ؛ أي من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، وأنها لا تنتظر إلا دقيقة واحدة، والشركة الناقلة هي التي تأخذك من البيت، وتأتيك من الساعة الثامنة وحتى الساعة الثامنة مساءً..وأنت لا تدري متى تأتي، وهي لا تنتظر إلا دقيقة واحدة، فماذا تفعل أنت من أجل مبلغ خمسمائة ألف ؟ إنك تقف وراء الباب من الساعة الثامنة صباحاً، تقف مع المحفظة، وكل شيء جاهز، لأنك إن لم تكن جاهزاً فالقضية خطيرة جداً، وهذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَا إِيَّاهُ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران)

الموت ليس بيدي يا رب بل بيدك، فإذا كان ليس بيدك فمعنى ذلك أنه ينبغي أن تكون مستعداً له دائماً ؛ بأداء الحقوق، بالتوبة الكاملة، والعمل الصالح، وأداء الصلوات، وإنفاق زكاة المال، وهذا الاستعداد سببه أن الموت قريب، وإنك قد تجد شخصاً ملء السمع والبصر فيصبح فجأةً خيراً، وقد كان رجلاً فصار خيراً على الجدران، وكان رجل يركب الدرجة الأولى في الطائرة وتقدم له أنواع الطعام من الشراب و الشاي و القهوة و أنواع الأطعمة الساخنة و المجلات والجرائد، فيرجع بصندوق على أنه بضاعة وتوجد معه أوراق تخليص، فنحتاج إلى موظف جمركي ليخلص هذا الطرد، لقد كان رجلاً فصار بضاعة !!

لقد ركبت مرة في الطائرة إلى المغرب، فانتظرنا في تونس ساعة، فنظرت إلى مكان البضاعة فخرج فجأةً نعش عليه اسم صاحبه.. سبحان الله.. هذا الرجل جاء بالطائرة وعاد بضاعة..

(إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7))

إخواننا الكرام... لا تتشاءموا لأن التفكير بالموت صحة نفسية، فأكثر من ذكره لأن هذا الموت ما ذكر في كثيرٍ إلا قلله، ولا في قليلٍ إلا كثره.. وله مفعول عكسي.. فإذا كنت في غنى فاحش فلن تأخذ معك شيئاً مما تملكه إلا الكفن، وإذا كنت في فقر مدقع وكنت مستقيماً على أمر الله فالموت بداية الغنى المطلق، " الغنى والفقر بعد العرض على الله ".

المهل:

(إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَتَرَاهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8))

(سورة المعارج)

قيل: المهل ما أذيب من الرصاص، والنحاس، والفضة، و المعادن المذابة، و قال علماء الفلك: " الكواكب الآن عبارة عن معادن منصهرة و متبخرة ". فهي غازات معادن، والعنصر حينما تسخنه ينتقل من حالة الصلابة إلى حالة اللزوجة، إلى الميوعة، إلى الحالة الغازية، فأكثر الكواكب في السماء عبارة عن غازات منصهرة ومتبخرة، وقد قال الله عز وجل:

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)

(سورة التكويد)

ومعنى (انكدرت) ؛ أي: انطفأت و عادت إلى سيولتها..

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

فالسما معادن مذابة كدرة ليس لها لون صافٍ، وقال بعض العلماء: " كالمهل ؛أي: قيق من دم وصيد"، وكالمهل: المعادن المذابة ". ويوجد تفسير ثالث: " المهل أي دردي الزيت وعكره ". فهو إما زيت أو قطران يغلي، أو معادن منصهرة، أو قيق من دم ومصل، هذا هو وضع السماء..

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9))

(سورة المعارج)

العهن:

الصوف المنتوف، فالجبل شامخ و الصخر القاسي يصبح كصوفٍ منتوف لا وزن له، أي أن هذه الجبال تلين بعد الشدة وتتفرق بعد التجمّع، أو تصير رملاً مهياً، ثم عهداً منقوشاً، ثم هباءً منبثاً.. فمن من صخور صماء، إلى رملٍ و عهدٍ و هباء، ففي يوم القيامة يوجد تبدل جذري.

لكل امرئ شأن يغنيه..

قال تعالى:

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج)

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

(سورة عيس)

قد تقع عين الابن على أمه، و قد تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنة يعود عليّ خبرها اليوم ؟ فيقول لها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين. لذلك يبين ربنا عزّ وجل في آياتٍ كثيرة هذه الحقيقة، أي: يوم لا يسأل قريبٌ قريبه، ولا صديقٌ صديقه، ولا ذو نسبٍ نسيبه من شدة الهول، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أن الناس يحشرون حفاة غراء غرلاً))

أي غير متطهرين (من الطهور وهو الختان) تقول السيدة عائشة: يا رسول الله أيرى بعضنا بعضاً هكذا ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا أمّ المؤمنين الأمر أفظع من أن يعنيه ذلك))

وذلك لشدة الهول، فإذا كان الإنسان محكوماً بالإعدام، وسيق إلى حبل المشنقة، ورأى امرأةً تلفت النظر بثيابها الفاضحة فهل يفكر في جمالها ؟ إطلاقاً، إطلاقاً، إنه لا يراها إطلاقاً، فهناك شيء ينسيه كل شيء..

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج: آية " 5 ")

أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ حال، و الإنسان الصحيح إذا عاد مريضاً فإنه يسأله عن صحته، وعن الطبيب الذي عالجه والدواء الذي وصفه، وعن الآلام التي تشكو منها، وذلك لأن السائل مرتاح تماماً، فتراه يسأل، وقد يقع الإنسان أحياناً بمصيبة يفقد ماله كله، فتجد السائل يسأل:

متى صودر ؟ ولماذا ؟ وما المخالفة ؟ ومن فعل هذا؟ ويبحث عن إجابة، فهناك فضول، أما حينما يكون السائل في مصيبة كمصيبة المسؤول فإنك تجد هذا ساكتاً وهذا ساكتاً..

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

قال: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ حال تشغله نفسه عن غيره، و قال بعضهم: " يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون ثم يفرُّ بعضهم من بعض ". أي أنه يراه كما لو أن أناس اتفقوا على سرقة، فهم يعرفون بعضهم بعضاً جيداً، أما حينما يُلقى القبض عليهم فلا يتمنى الواحد منهم أن ينظر إلى الآخر.. وهذا المعنى الثاني.. و ربنا عزَّ وجل يقول:

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

(سورة عبس)

كل واحدٍ مشغولٌ بشأنه الخاص..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

(سورة لقمان: آية " 33 ")

لا الأب يُسأل عن ابنه، ولا الابن يُسأل عن أبيه..

(وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلَتِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ)

(سورة فاطر: آية " 18 ")

نحن لا نزال في الدنيا، وإذا تورط الآن إنسان في مخالفة كبيرة جداً مخالفة للقوانين النافذة فقد يعاقب بعشرين سنة في سجن، فمن يتبرَّع أن يدخل مكانه السجن ؟ هذا مستحيل، فإذا وقع إنسان في الدنيا يقول لك أقرب الناس إليه: تورط، غلط، الله يصلحه، ثم لا يتكلم كلمة، فهو غير مستعد لأن يدافع عنه بكلمة، ويوجد في الدنيا علاقات وصلات، وتجمعات وقرابات، ونسب ومصالح، وشركات، وأصدقاء، ومع كل هذه التجمعات يتخلَّى كلٌّ منهم عن صاحبه، فكيف بالآخرة حينما نأتي ربنا فُرادى لا مجتمعين؟

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

هناك علاقات النسب في الدنيا، فيقال لك: هذا ابني، وهذا أبي، وهذه أمي، وهذه أختي، وهذا زوج ابنتي، هذه في الدنيا..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37))

(سورة عيس)

(يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14))

(سورة المعارج)

أيها الإخوة.. قال تعالى:

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا)

فكل إنسان مشغول بمصيبته، و كل إنسان مشغول بهمه.

" يبصرونهم ":

أيها الإخوة... في درسنا هذا كلمة ينخلع لها القلب وهي قوله تعالى:

(يُبْصِرُونَهُمْ)

إن الله عزّ وجلّ يُرى المؤمن مصير الكافر ليتحقق المؤمن من عدالة الله، فأسماء الله كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل، وهذا الاسم يتحقق في الدار الآخرة، فالذي ظلم يرى ظالمه، والذي أخذ ماله ظلماً يرى الذي أخذ ماله ظلماً، والذي قهره أين مصيره، والذي عذّب يرى مصير الذي عذّبه، فكل إنسان مظلوم لابدّ في هذا اليوم أن يرى ظالمه، وأن يرى مكانه، ن كيف يُعذّب و يُقتصّ منه..

(يُبْصِرُونَهُمْ)

شيء آخر أيها الإخوة... قيل في معنى يبصرونهم: ليس في القيامة مخلوق إلا وهو نُصِبُ عين صاحب له من الجن والإنس، فيبصر الرجل أباه، وأخاه، وقرابته وعشيرته، ولا يسأله ولا يكلمه لاشتغالهم بأنفسهم، فيتعارفون ساعة من نهار ثم لا يتعرفون بعد تلك الساعة، و أهل يوم القيامة يفرون من المعارف مخافة المظالم، فأخطر ما في هذه الآية أن الإنسان يرى مكانه لو أنه لم يطع الله عزّ وجلّ، كما يرى مكان الذي عصى الله عزّ وجلّ، و في الدنيا يوجد قلق دائم.. قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ

يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104))

(سورة الكهف)

أحياناً ترى إنساناً فاجراً كافراً منحرفاً بذيئاً منحرف الأخلاق، ويعتدي على أعراض الناس.

أيها الإخوة... جاء في بعض التفاسير أن معنى قوله تعالى:

(يُبْصِرُونَهُمْ)

أي: يُبْصِرُ المظلوم ظالمه، ويُبْصِرُ المقتول قاتله، ويُبْصِرُ كل ذي حق الذي أكل حقه، وتشتقي نفسه حينما يرى عدل الله مطلقاً قائماً في كل شيء، الآن:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنِذٍ بَيْنِيهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

يود ذلك الإنسان الذي أجرم في حق نفسه، وغفل عن الله و انغمس في الشهوات و عصى الله عز وجل:

(لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنِذٍ بَيْنِيهِ)

هناك من الإخوة الكرام من لديه أولاد صغار في السنوات الأولى ؛ كسن السنتين، والثلاثة، إن كلام الطفل في هذا العمر يعزف على أوتار قلب الأب والأم، كذلك منظر وجهه الجميل و ملامحه اللطيفة و حركاته البريئة و عذوبة حديثه و حركاته، هذا الطفل كما قال عنه الأدباء: " فِلْذَةُ الْكَبْدِ ". (أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض)، و في مقياس المؤثرة نقول أن الطفل الصغير هو أغلى شيء على قلب والديه على الإطلاق، فربنا عز وجل في آية الفداء قال:

(لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنِذٍ بَيْنِيهِ)

فمع أن هذا الحب الجارف لهذا الابن الصغير وهو في أجمل أطوار حياته، يتمنى أبوه أن يضعه مكانه و ينجو من عذاب النار..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنِذٍ بَيْنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ)

زوجته التي عاش معها عُمرًا وسعد بها يتمنى أن يلقيها في النار لينجو هو من هول عذاب الناب..

(وَأَخِيهِ)

الذي ساعده في حياته، وكان كلما ناباه أمر يقول: أخي، فيقوم أخوه ويمدّه ويعينه ويدافع عنه..

(وَفَصِيلَتِهِ)

الفصيلة ليست القبيلة، ولكنها أقل من القبيلة، وهي تعني أقرب الناس إليه ؛ أولاد عمومته، أولاد خالاته، جيرانه، زملاؤه في العمل.. خاصة نفسه.. هذه الفصيلة..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِنِذٍ بَيْنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)

((13))

ففي ميزان الحب وتعلق القلب بمخلوق يقع الابن في المكان الأول، وفي ميزان المساعدة يكون الأخ في المقام الأول، و في ميزان الاعتزاز الاجتماعي يُعدُّ الأب في المقام الأول، وفي موضع الشهوة تُعدُّ المرأة في المكان الأول، فربنا عز وجل في خمس آيات قرآنية ذكر الأقرباء مرتبين، كل منهم مرتب حسب زاوية معينة..

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة: آية " 34 ")

بدأ بالأب لأن الأب موضع اعتزاز اجتماعي، فيقال لك: أنا ابن فلان، والذي فلان أما في موضع الشهوة فقد ذكر المرأة.
وقد قال تعالى:

(زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

و في موضع المعاونة واللجوء والاستغاثة قال:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

(سورة عبس)

إذا كان أبوه كبير في السن، وابنه صغير، فمن الذي يعينه؟ إنه أخوه الذي هو في مستوى سنّه، ففي موطن المساعدة والاستغاثة والمعاونة ذكر الأخ، أما في موطن الأثرة والحب فقد ذكر الابن..
فدية من العذاب:

(يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذِ بَيْنِيهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

وقد يقع الإنسان في الدنيا في ورطة، وكل ورطة لها ثمن يغطيها، فمن الممكن أن يدفع ألفاً و يتخلص بعد ذلك من هذه الورطة، وهناك ورطة يدفع المرء لها مائة ألف، وهناك ورطة ثانية بمليون، وهناك ورطة يدفع من أجلها عشرة ملايين، فإذا كان الأمر يتعلق بخمس سنوات سجن يقول لك: خذ عشرة وخلصني ؛ فكلما كبرت الورطة يكون الدفع أكبر، لكن الإنسان عندما يرى عذاب النار الأبدي يتمنى أن يضحى بابنه الذي هو فلذة كبده، وبزوجته التي صاحبها طوال عمره، وبأخيه الذي أعانه وساعده، وبفصيلته كلها التي تؤويه وتعيّنه، فلو إنسان.. فرضاً.. دهس آخر، وكانت الدية مائتاً ألف، فمن يدفعها؟ إنهم عاقلته، وهم أقرب الأقرباء إليه، فإنهم يتعاونون على دفعها، أما في الآخرة..

(وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

(سورة المعارج: آية " 14 ")

فإنه يتمنى أن يضع خمسة آلاف مليون إنسان – وهم سكان الأرض الآن -جميعاً في النار لينجو وحده منها..

(وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ)

ثم.. للاستبعاد..

(ثُمَّ يُنْجِيهِ)

لا والله.. هناك شخص حصل مبلغاً قريباً من ألف مليون بالقمار، و حينما كان شاباً كان يجمع هذه الأموال الطائلة، ويدير هذه المقامر العديدة، ويأتي بالأموال يضعها في خزانته، ويأكل ويشرب، وينتشي، ويركب المركبات، وقد كان غافلاً، فلما قُربَ أجله وكان على فراش الموت عرف إلى أين هو ذاهب، فطلب أحد العلماء وقال: أنا معي مبلغ قريب من ثلاثمائة مليون ن فماذا أفعل ؟ فقسا عليه هذا العالم وكان محقاً، فقال: والله لو دفعته كلها لا تنجو من عذاب الله، لأن هذا الطريق صار مسدوداً. أيها الإخوة... إن البطل هو الذي لا يصل مع الله إلى طريق مسدود، فليفعل الآن ما شاء ولكن.. عندما يأتي الأجل يجب عليه أن يجد طريقاً موصلاً إلى الله، فإذا قتل إنسان رجل وحكموه بالإعدام، و استؤنف الحكم، ثم مُيز، ثم أقرته محكمة النقض، ثم رُفع إلى الرئاسة كي تصدقه، وصدقته، ثم سيق إلى المشنقة، فإذا أحب أن يضحك وهو أمام حبل المشنقة فليضحك، وإذا أحب أن يبكي فليبك، وإذا أحب أن يتوسل فليتوسل، وإذا أحب أن يتجلد فليتجلد، وإذا أحب أن يشتم فليشتم.. افعل ما شئت فلا بد من أن يُنفذ الحكم، فهذا بدأ بابنه..

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِنِ بَيْنِهِ)

(سورة المعارج: آية " 11 ")

فإن كان ابتته لا يكفي، فإنه يتمنى أن يفتدي بزوجه..

(وَصَاحِبَتِهِ)

لا يكفي..

(وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

قال تعالى:

(ثُمَّ يُنْجِيهِ)

هذا استفهام إنكاري ؛ أي: إن هذا لا ينجيك هذا..

(كَلَّا)

(سورة المعارج: آية " 15 ")

أداة ردع ونفي، فهذا كله لا يجديه شيئاً، و لا بد من أن يُعَذَّب..
نار لظى..

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى)

إذا كان هناك نار مشتعلة، ملتهبة، ونحن في الدنيا، فجرّب وضع إصبعك على مدفأة مشتعلة، هل تحتل ذلك ؟ إن آلام الحريق أيها الإخوة لا تُحتمل..

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

هذا عذاب أبدي..

(وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُتُونَ)

(سورة الزخرف)

سنوات وسنوات، ومصير آل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

(سورة غافر: آية " 46 ")

ستة آلاف عام، وكل عام ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وكل يوم مرتين..

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

هذا كلام خالق الكون، وإننا -أيها الإخوة- إذا كنا أشخاص من جلدتنا وجنسنا و كانوا أقوىاء وكانت تعليماتهم واضحة، وعندهم قدرة على كشف المخالفات، فإننا لا نستطيع أن نعصيهم وهم بشر من جلدتك، من بني جنسك لكنهم أقوى منك، وهم قادرون على أن يكشفوا المخالفة ويوقعوا بك عقاباً أليماً، إنك لا تفكر إطلاقاً في أن تعصيهم، فكيف بخالق السماوات والأرض ؟

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى)

نارٌ ملتهبة..

(نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى)

(سورة المعارج)

تنزع جلد الوجه، ومكارم الوجه، و جلد الأعضاء، و كرامة الإنسان، فالإنسان حينما يُعَذَّبُ يُهان، فهناك عذاب مهين، و عذاب أليم، و عذاب عظيم..

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16))

أي إنها تنزع جلد الرأس، فتصور إنساناً بلا جلد، بجمجمة فقط، هذا شيء مخيف، وتصور إنساناً بلا أعضاء، وقد احترقت معالم وجهه، هذه النار:

(تَدْعُوا)

(سورة المعارج: آية " 17 ")

نحن في الدنيا نُدعى إلى الله، فنستجيب أو لا نستجيب، لكنه في الآخرة قال: النار تدعوا من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان، قال بعض العلماء: " تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان فصيح ". تعال أنت يا فلان ادخل، تعال أنت وادخل، النار، وقد شبَّهها ربنا عز وجل بمخلوق مدرك يخاطب هؤلاء الكفار والفجار بأسمائهم..

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16))

أي مشتعلة، متقدة تنزع جلد الوجه..

(تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)

أو تقول: إليّ يا كافر، إليّ يا منافق، أو تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَب، وقال بعض العلماء: " دعوتها لهم تمكينها من تعذيبهم أو أنها تلتقطهم كما يلتقط الحَب، أو أنها تقول: إليّ يا كافر يا منافق، أو أنها تخاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً " ..

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17))

من أدبر عن الإيمان بالله وتولى أن يطيعه، الآن:

(وَجَمَعَ فَأُوَعَى)

(سورة المعارج)

همُّه جمع المال و تخزينه، وهمُّه أن يزهو بين الناس، فحجمه المالي كذا، و رصيده في المصرف كذا، وقد ذهب إلى بلدٍ غريب بعيد وأنفق هذا المبلغ الكبير، و أقام عقد قران في المكان الفلاني، ودفع ستين مليون، و فعل كذا، و قدّم خاتماً هدية إلى زوجته بنصف مليون، و سافر إلى المكان الفلاني، ونزل في فندق كلفه في اليوم مائة ألف.. مثلاً.. وجمع المال وأنفقه، وتباهى بإنفاقه.. ثم:

(فَأُوَعَى)

أي إنه خزن المال ولم ينفق به المسلمين..

(كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأُوَعَى (18))

توجد مفارقة: الدعاة إلى الله يدعونك إلى الله وأنت حرّ فقد تستجيب أو لا تستجيب، والإنسان حينما لا يستجيب و يعصي و ينجس في الملذّات، يُدعى يوم القيامة إلى النار لكنه ليس مخيراً أن يستجيب أو أن لا يستجيب، فهذا الخيار كان في الدنيا، أما في الآخرة فأنت لست مخيراً..

(تَدْعُوا مَن أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأُوَعَى (18))

وفي درس آخر إن شاء الله نبدأ قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(الْمُصَلِّينَ (22))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 19-26

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

طباع الإنسان، وصفات المؤمنين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة المعارج، ومع الآية التاسعة عشر، وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

أيها الإخوة الكرام... هذه الآية تذكرنا بآياتٍ مثيلاتٍ لها..

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

(سورة الأنبياء: آية " 37 ")

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

ضعف الإنسان لصالحه:

يقصد بالإنسان هنا جنس الإنسان، فالألف واللام هنا: أداة الجنس، أي أن جنس الإنسان قبل أن يعرف الواحد الديان ضعيفٌ هلوغٌ عجول، و نقاط الضعف هذه موجودة في أصل خلقه، كما أنها لصالحه، وأضرب على ذلك مثلاً: لو أن الله خلق الإنسان قوياً، لاستغنى بقوته عن الله، فشقي باستغنائه، لأن السعادة كلها عند الله، فإذا استغنى الإنسان عن ربه شقي، فخلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، و خلقه عجولاً، ولو خلقه مهولاً واختار الدار الآخرة فإنه لا يرقى بها، فخلقه عجولاً يريد الشيء الذي أمامه، فإذا أعرض عنه واختار الشيء الآجل ارتقى عند الله عز وجل، وكما خلق الله عز وجل الإنسان هلوغاً، هذا هو موضوع درسنا اليوم.

الصفة قيد:

أيها الإخوة الكرام... قال المناطقة ؛ أي: علماء المنطق: إن الصفة قيد، فإذا قلت مثلاً: أريد أن أعين موظفاً يحمل شهادة ثانوية، أتك عشرات الألوف، وإذا قلت: أريد موظفاً يحمل شهادة ثانوية ومعفى من الخدمة الإلزامية ضاقت الدائرة، وإذا قلت: أريده دون الثلاثين، ضاقت الدائرة أكثر، كذلك إذا قلت

كتاب تفسير جزء تبارك لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

المقصود بالإنسان هنا الإنسان في أصل خلقه، قبل أن يعرف ربه، فالإنسان أيها الإخوة فردي، فإذا ما عرف الله ولا عرف منهج الله كان فردي النزعة، لكن تعاونه مع إخوانه المؤمنين فيه تكليف، فالإنسان في أصل خلقه يحب الشهوات، فإذا اتبع منهج الله عز وجل أحب الفُرُبات، والإنسان في أصل خلقه يحب أخذ المال، أما إذا اتبع منهج ربه فإنه يُنفقُ المال، وهكذا.. فهناك طبعٌ و بنيةٌ و جبلةٌ في الإنسان، وهناك تكليف له، فالإنسان قبل أن يعرف ربه، أو قبل أن يتبع منهج ربه، هلوع في أصل خلقه، كما قال الله تعالى..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

قالوا في الهَلْع: هو أشد الحرص وأسوأ الجَزَع، وأشد الحرص البخل، والحقيقة أن الإنسان إن لم يكن مؤمناً كان حريصاً على الدرهم والدينار حرصاً مضحكاً، وحرصه هذا مرضي، فهو حريصٌ على كنز المال و عدم إنفاقه وعلى حيازته إلى درجة أنه يُضحى بمكانته وكرامته من أجل المال. من هو الهلوع؟؟

إن الإنسان إن لم يعرف الواحد الديان:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

الهلوع: أشدُّ الحرص وأساء الجزع و أفحشه، وقال بعضهم: الهلوع هو الذي لا يصبر على خير ولا على شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي، فالخير يدفعه إلى البطر، والشر يدفعه إلى اليأس والقنوط، فمن هو الهلوع ؟ هو الذي لم يتصل بالله، فالشر سحقه والخير أبطره، ومن تعاريف الهلوع الوارد في قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

أي: الذي يصيبه الخير فيفجر، ويصيبه الشر فيبيئس، ويصيبه الخير والشر فيفعل فيهما ما لا ينبغي، بل هو أشد أنواع الحرص، وأشد أنواع الجزع، وقال بعض العلماء: الهلوع أي الضجور، الملول الذي لا يصبر، وقال بعضهم: هو الذي لا يشبع مهما أعطيته.. " منهومان لا شبهان طالب علم وطالب مال" ..

المنوع:

والمنوع الذي إذا أصاب المال منع منه حق الله تعالى، وقال بعض العلماء، خَلَقَ الله الإنسان على حب ما يسره وعلى بغض ما يكرهه، ثم تَعَبَّدَ الله الإنسان بأن ينفق ما يحب وأن يصبر على ما يكره، فالعبادة دائماً وأبداً تتناقض مع طبع الإنسان، وهذا هو ثمن الجنة

و بشكلٍ مختصرٍ مضغوط أقول: إن الجنة لها ثمن، وقد أودع الله فيك الشهوات وجاء التكليف فأمرك أن تتضبط وفق منهج دقيق، فما حَرَمَكَ هذه الشهوات ولكن نَظَمَها، فهو لم يحرمك المرأة ولكن سمح

لك بالزواج فقط، فليس في مجتمع المسلمين علاقة بين رجل وامرأة إلا أن تكون زوجة له، أو أمًا، أو بنتًا، أو أختًا، أو عمّة، أو خالة، فلا يوجد امرأة يستمتع بها خارج الزواج إطلاقاً، فثمن الجنة ضبط الشهوات، فلو أن الإنسان جُبِلَ على بغض المرأة لما ارتقى الإنسان بغض البصر، و لو جُبِلَ على بغض المال لما ارتقى الإنسان بإنفاق المال، فسر الرقي عند الله عزّ وجل أنّك تنفق شيئاً تحبه، وأنك تمنع نفسك عن شيئاً تحبه، وأنك تصبر على ما تكره، ولولا هذا التناقض الذي أراده الله عزّ وجل بين طبع الإنسان وبين منهجه لما ارتقى إنسانٌ إلى الآخرة إطلاقاً، فالإنسان خلق هلوغاً، لولا أنه هلوغ لما دخل جنة ربه، لماذا ؟ لأنه خلقه شديد الجزع، لذلك لا يطمئن إلا بالاتصال بالله عزّ، ولا يستقر له قرار إلا أن يكون مصطلحاً مع الله، ولا يشعر بالأمن إلا إذا كان مطيعاً لله، ولا يشعر بالطمأنينة إلا إذا ذكر الله، فلو ألغيت ذكر الله و الاتصال به و الصلح معه، لعاش حياةً كالجحيم لا تطاق..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126))

(سورة طه)

لولا أنه هلوغ جذوع، يفرق من الشر والمُصيبة، لما التجأ إلى الله عزّ وجل خوف أن تصيبه، ولولا أنه جزع لما استقام على أمره، لولا أنه جزوع لما غض بصره وترك أكل المال الحرام، فحيالته تدعوه إلى الجزع، والجزع هو سبب إقباله على الله و توبته إليه وصلحه معه، فهو سبب كف نفسه عن شهواتٍ حرمها الله عزّ وجل.

وقال بعض العلماء: الهلوغ هو الذي إذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر، وهذا ضعفٌ خلقي في أصل بُنية الإنسان، وهذا الضعف الخلقي سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، فلو لم تكن تخاف لما خفت من المرض، ولا من الفقر، ولا من قهر الرجال، والذي لا يخاف لا يطيع الله عزّ وجل، لكن الإنسان قد يخاف مرضاً عُضالاً، أو قهراً مُذلاً، أو موتاً مُجهزاً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مُقَدِّداً، أو فقراً مُدْقِعاً، لذلك تراه يصطلح مع الله حتى يطمئن.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

لو أن الله عزّ وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لاختلف المعنى، فيصبح المعنى عندئذ أن القلوب تطمئن بذكره وبغير ذكره، أما حينما قال:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد: آية " 28 ")

أي أن قلب الإنسان لا يطمئن ولا يسكن ولا يتوازن ولا يطمئن إلا إذا ذكر الله عزّ وجل..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ)

جنس الإنسان قبل أن يعرف الله جُبِلَ على الهلع، فهو شديد الخوف عند الضراء، وشديد الحرص عند السراء، وهذه صفته قبل أن يعرف الله، وهاتان الصفتان تدفعانه إلى التوبة و الذكر و الطاعة و التقرب من الله عز وجل، ولولا صفات الهلع و الجزع والحرص لما ارتقى الإنسان إلى الله عز وجل، فقد يكون مع الإنسان مبلغ من المال محبوب إليه، وهو حريص عليه ليكون دائماً في حوزته وفي خزنته، وهو حريص على أن ينمو هذا المال، فحينما ينفق منه كان هذا معاكساً لطبع الحرص فيرقى عند الله عز وجل.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

فمن صفات الإنسان صفة الهلع بشقيها: الحرص والجزع، وصفة الضعف

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28))

وصفة العجل

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)

وهذه الخصائص والصفات ضعف في أصل خلق الإنسان ولكنها لصالح إيمانه.

مثال موضح:

وأوضح مثلاً على ذلك ؛ إنك قد تقنتي آلة كهربائية غالية جداً، وهناك من الآلات ما يصل ثمنه إلى بضعة ملايين، ويوضع في هذه الآلات قاطع على طريق اتصال الكهرباء بها، فهناك سلك ضعيف جداً، ومهمة هذا السلك الضعيف أنه إذا جاء التيار فوق مائتين وعشرين (ساخ) وانقطع، فنضمن بذلك سلامة الجهاز، فهناك ضعف في أساس هذا الجهاز، ويتمثل هذا الضعف في وصلة ضعيفة في الجهاز، وحينما يأتي التيار الذي يمكن أن يحرق الآلة بأكملها يدخل من هذا السلك الضعيف فينصهر هذا السلك، فإذا انصهر قطع التيار وضمنت الآلة، فهل نعد هذا الجزء من الآلة خطأ في التركيب ؟ لا، بل هو عين الكمال، و قمة الكمال، فهذا جهاز صيانة، وصمام أمان، فضعف الإنسان سبب رقيّه عند الله، والإنسان يخاف، فلو شعر أن في جسمه شيئاً غير طبيعي وأخذ خزعة وحلل، وكانت النتيجة إيجابية فإنه يبرك وذلك لأنه جزوع، وتراه يقول له: يا رب أعاهدك على التوبة، وهذا الشيء يقع مئات ألوف المرات، فشبح مرض عضال يدفع المرأة إلى الحجاب الكامل، وشبح مرض عضال يدفع الرجل إلى التوبة النصوح، وشبح أزمة مالية مُدْمِرَة يدفع صاحبها إلى دفع زكاة ماله، فتسعة أعشار الناس الذين اصطالحوا مع الله، كان سبب اصطلاحهم معه أزمة جاءت مفاجئة ماحقة ساحقة، فكيف هرب منها صاحبها ؟ لقد هرب منها بالصلح مع الله، إذاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

و لولا هذه الصفة لما أقبل أحدٌ على الله، ولما اصطلح معه، ولما تاب على منهجه، ولا فعل أي شيء من هذا، قال:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

أي إذا ناله الشر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله الخير بَخْلَ وَمَنَعَ، وإنك تعجب أحياناً من أناس يملكون أرقاماً فلكية ومع ذلك يبحثون عن دُريهمات يأخذونها ظُلماً، ويبحثون عن بضع ليرات و بضع مئات يأخذونها قهراً من فقير، وهذا واقع، كما أن هذا إنسان مريض.

(وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه:

((شر ما أعطي العبد شحّ هالِع وجبنٌ خالِع))

لذلك استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الجُبْن والبُخل، فالجبن جزع، والبخل حرص، والجبن والبخل صفتان مركبتان في طبع الإنسان إن لم يعرف الواحد الديان، والمصلون مستثنون من الهلع ومن الجزع ومن الحرص.

" إلا المصلين "

قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(الْمُصَلِّينَ (22))

و (المصلين) هنا بالمعنى الذي أراده الله، وبالصلاة التي أرادها الله، والتي هي عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، فلا خير في دين لا صلاة فيه، والصلاة غُرّة الطاعات، وعصام اليقين، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسموات، والصلاة حسن العلاقة مع الله،

((أرحنا بها يا بلال))

ولم يقل أرحنا منها، وهذا فرقٌ بين الواجب وبين الحب، فبالحُب ترتاح في الصلاة، وحينما تؤدّيها كواجب ترتاح منها، فينبغي أن تؤدّيها كمحب لا كمضطر.

أيها الإخوة... قال تعالى:

(وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

يمكن أن نوسّع هذه الحقيقة: أينما وردت كلمة الإنسان في القرآن فإنها تعني الإنسان قبل أن يعرف الله، وتعني الإنسان في أصل جيلته و طبيعه، ولم أقل فطرته لأن الفطرة متوافقة مع الشرع، لكن الطبع

متناقض معه، فالطبع أقرب إلى المادة من الفطرة، فالفطرة نفسية، أما الطبع فمادي، وأوضح مثل على ذلك أن الإنسان حينما يؤدي ما عليه من زكاة مال يؤتبه طبعه حينما يدفع هذا المال، لكنه حينما يدفعه نفسه ترتاح، فتنفيذ الطاعات متعب للجسم، لكنها مريحة للنفس، فحينما تفعل عبادة ما فإنك تشعر بالتعب في أثناء القيام بها وقد تعاكس طبعك، أما حينما تؤديها كاملة فإنك تشعر بالراحة النفسية، إذاً:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

وتدل هذه الآية على أن هؤلاء المصلين مستثنون من الهلع والجزع، قال العلماء: المصلون هم الذين يؤدون الصلوات المكتوبة، فهذه فرائض، والله جلّ جلاله لا يقبل النوافل ما لم تؤدّ الفرائض، فالفرائض أولاً والنوافل ثانياً، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إلا المصلين الذين يصلون الصلاة لوقتها، وخير الأعمال أو تؤدي الصلاة على وقتها، وقال بعض العلماء: هم الصحابة الكرام الذين حققوا من الصلاة غايتها، وقطفوا من الصلاة ثمارها، وهم الذين سعدوا بالصلاة، وكانت سبب سعادتهم في اتصالهم بخالقهم.

أيها الإخوة...

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

معاني ((دائمون)):

الصفة الأولى لهؤلاء المصلين:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

1- قال بعضهم: دائمون ؛ أي: ساكنون لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، فهم في خشوع، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يصلي ويتلقت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

فمن معاني:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

أي: هم ساكنون، خاشعون، وقال بعض العلماء: الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها بل من فرائضها.

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

2- وقال بعضهم: الذين يكثر من الصلوات النافلة.

3- وهناك معنى ثالث ربما كان مقبولاً ؛ وهو أن المؤمن بين الصلاتين يصل بالله عن طريق الدعاء والاستغفار والتفكير والتأمل، والتسبيح والحمد والتكبير، فإذا قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفرت الله، وتلوت القرآن، ودعوت الله، وتفكرت في

خلق الله، فإن هذه الأنشطة الفكرية واللسانية تجعلك على صلة مع الله دائماً، وهذا قد يقبل إضافة للمعنيين السابقين:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

أي: يتصلون بالله عز وجل بطريقة أو بأخرى، من خلال الدعاء و الذكر و التفكير، و التسبيح و الحمد و التوحيد و التكبير، فهؤلاء المصلون على صلاتهم دائمون..
الإِنْفَاق في سبيل الله:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الصدقة برهان))

فقد حُبب المال إلى الإنسان، وهو يرقى بإنفاقه لا بقبضه، فالذي يُنْفِقُ ماله ابتغاء وجه الله يؤكد أن الله عز وجل أغلى عليه من المال، لذلك أنفقه ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فمن صفات المصلين..

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

أي: حق ثابت، وقد رجح العلماء أن هذا الحق المعلوم هو الزكاة، فقد قال في آية أخرى:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

لم يقل: معلوماً، فالمعلوم هي الزكاة، وحينما نخفل معلوم يكون المعنى: الصدقة..

(وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ

الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة)

إيتاء الزكاة شيء، وإيتاء المال على حب الله عز وجل أو على حب المال شيء آخر، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((في المال حق سوى الزكاة))

والأشياء التي نصبو إليها لا تحتلها الزكاة، بل تحتلها الصدقة، فالناس يودون أن يقدّموا زكاة أموالهم فقط، مع أن الله سبحانه وتعالى يثني على من يؤتي من ماله صدقة فوق الزكاة.

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

لذلك كان هذا الذي يُقَدَّر الزكاة تقديراً يعصي الله عز وجل، فيجب عليك أن تجرد، وقد يقول لك قائل: هذا المحل فيه مائة ألف، فإذا سمحنا للتاجر أن يُقَدَّر الزكاة تقديراً عشوائياً أو تقديراً غير دقيق لم تعد الزكاة حقاً معلوماً، فهناك من يقدر زيادة الألف، وهناك من يقدر أقل، لذلك لا تصح الزكاة إلا بحساباتٍ

دقيقة..

السائل والمحروم:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

من هو السائل ؟ قالوا: الذي يسأل الناس لفاقته، فهو فقير يسأل، ومن هو المحروم ؟ هو الفقير الذي يستحي أن يسأل فيُحْرَم، فالسائل هو الذي يسأل، فيقتحم عليك، ويقول لك: أعطني، أنا فقير، معه وسائل، أما المحروم هو الذي يغلبه الحياء فلا يسأل فيُحرم، لذلك أثنى ربنا عز وجل على هؤلاء الذين يغلبُ عليهم الحياء فقال:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

(سورة البقرة)

كأن الله يحب هؤلاء المتعففين الذين يَسْتَحْيُونَ، فما واجب المؤمنين في ضوء هذا الشرح ؟ أن تبحث أنت عنهم و تستقصي أحوالهم و أن تسألهم بنفسك، وأن تستحلفهم وتنتظر في معيشتهم وتنفقدهم، وفي بعض الحالات يجب عليك أن تسأل، وحتى أكون دقيقاً معكم أود أن أورد هذا المثال: إنسان عنده ابن مريض يحتاج إلى عملية، فإذا استحي أن يسأل مات ابنه، وهذا لا يجوز، فهذه حالات استثنائية يجب أن تسأل فيها، وإن لم تسأل فأنت آثم، أما في الأعم الأغلب فلا يجب ذلك، فهناك من يسأل من أجل تأمين حاجات ليست ضرورية جداً، وهناك من لا يسأل، فالذي لا يسأل قال تعالى فيه:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

لذلك كان واجبك _أيها الأخ المؤمن_ ألا أن تنتظر من يسألك، بل تَسْعَى أنت إليه، وتزوره في بيته، و تسأله عن أحواله و معيشته، وأن تستحلفه هل عليه دين ؟ وأن تحاول أن تحفظ له ماء وجهه، لتجعله عزيزاً كريماً، وهذا الذي ينبغي أن يكون بين المؤمنين، لكنك حينما تنتظر من يسألك فقد يأتيتك المحترفون الذين هم أغنى منك لكنك تظنهم فقراء.

حدثني أخ قال لي: كنت في محل تجاري ورأيت امرأة ترتدي ثياباً مضي عليها أكثر من عشرين عام، فاللون الأسود أصبح فاتحاً لامعاً، وقد سألت التاجر مبلغاً من المال في مطلع العيد، فأعطاه المال لأنه رقق لها، فهي تلبس ثياباً مهترئة، وبعد ذلك التقى بها في المصرف، و سأل عنها بعض الموظفين فقال: رصيدها سبعمائة ألف، وتسأل الناس إلحافاً، فنحن نريد هؤلاء المؤمنين الصادقين، الأعفة، الأعزة، ابحت عن هؤلاء قبل أن تُلقي المال جزافاً، فهناك من المحترفين من يأخذ أضعاف ما يأخذ أولئك الذين تبحث عنهم.

أيها الإخوة الكرام... هناك الآن جمعيات لمنع التسول، وقد نجحت نجاحاً كبيراً، وكل إنسان متسول يحاسب حساباً شديداً ويُلقَى في السجن ستة أشهر، وأغلب المتسولين محترفون، لكن.. إذا صدق السائل هلك المتسول، لذلك لا تقل: لا إلا بعد تربيث، فابحث، و اسأل، و تحقق، والنقطة الدقيقة أن هناك من يظن أنه يرتاح لمجرد إعطائه المال، وهذا غير صحيح، فلا بدّ من أن تضع المال في المكان المناسب، للشخص المناسب وهو الإنسان المؤمن، وتذكر طرفة أن هناك امرأة كانت تتسول من أجل أن تجمع ثمن إبرة، فظن الناس أنها إبرة طب، فاتضح بعد ذلك أنها إبرة دس، فالمحروم هو الذي حُرِمَ المال، وهو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، فلا يعلم أحدٌ حاجته، والمحروم الذي يأتي بعد الغنيمة وليس له فيها سهم، والمحروم الذي لم يبقَ له مال فقد احترق محله مثلاً، أو جاء الصقيع فأتلف مزرعته بأكملها، فالمحصول صفر، وعليه ديون من ثمن البذور والأسمدة وما إلى ذلك.. والمحروم الذي أصيب ثمره أو زرعه أو ماتت ماشيته، والمحروم الذي أصابته جائحة، وهذه كلها معاني المحروم، لقوله تعالى:

(إِنَّا لَمُعْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67))

(سورة الواقعة)

وقال بعضهم: المحروم هو الحيوان الذي لا يجد من يُطعمه، فالذي يقتني الخرفان يطعمها من أجل أن تسمن ليأكلها أو يبيعها، والذي يقتني الدجاج يطعمها من أجل البيض، وكن هناك من الحيوانات ما لا ينتفع به أحد، فهي حيوانات محرومة، فمن أطعم هرةً أو كلباً جائعاً فهو يدخل في باب الحرمان، هكذا قال بعض المفسرين.

والمحروم هو الذي وَجِبَتْ نفقته بالفقر على أقربائه، فقد يفقد الإنسان أحياناً عمله فجأةً وعنده زوجة وأولاد، ويجب أن ينفق عليه، وأقرب الناس إليه هم أقرباؤه، والمحروم الذي حُرِمَ كسب نفسه حتى وجبت نفقته على غيره، فهو لا يستطيع أن يكسب إما لعجز أو لفقدان عمل، وأحياناً يكون هناك عاجز فيه عاهة وهذا يندرج ضمن المحرومين، وقد يكون هناك شخص ليس له عمل، لتقشي البطالة، رغم كونه شاباً قوياً.

ولما امتحن سيدنا عمر والي قال: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذا إن جاءني من رعيّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، قال: إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسُد جوعتهم ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم، إن وقينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمسيت في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية ".

وإن أكبر مشكلة تواجه العالم بكل قاراته الآن البطالة، لذلك كان تأمين الأعمال من أعظم الأعمال، وحينما يلد المالُ المالَ عن طريق الربا تفشو البطالة وترتفع الأسعار، وحينما تلد الأعمال المال تقلُّ

البطالة وترخص الأسعار، وهذه قاعدة، لأن أي محل تجاري يؤمن أعمالاً للمئات دون أن يشعر، و بشكل غير مباشر.

فإذا افتتح محل تجاري، فإنه يحتاج إلى دفتر فواتير و محاسب، كما يحتاج إلى شاب يعمل عنده، ويحتاج إلى مراسل و آلة كاتبة و مراسلات و حارس لمستودعاته، و موظفين، و طلاء محله، و خطاط، و يحتاج إلى أشياء لا تعد ولا تحصى، فحينما تزد الأعمال المال تقل البطالة وترخص الأسعار، وحينما يلد المال المال تفشو البطالة وترتفع الأسعار، وحينما ترتفع الأسعار ترتفع الأسعار توزع الكتلة النقدية توزيعاً غير صحيح، فقلة قليلة تملك كل شيء، وكثرة كثيرة لا تملك شيئاً، هذا التوزيع العشوائي للثروة، أما إذا كان المال كله من أعمال فإن الأعمال تتزاحم، والأسعار ترخص، وعندنا ألف دليل ودليل على هذا، ومن هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أن ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون: ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم،

فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم))

فالغنى والفقر بعد العرض على الله، لذلك قال سيدنا علي: " قوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيَع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنياه غيره ".
التصديق بيوم الدين:

أيها الإخوة الكرام...

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ)

إن صدقت بيوم الدين ملكت ميزاناً خاصاً، وإن لم تصدق بيوم الدين استعملت ميزاناً آخر، إن آمن الإنسان بيوم الدين كان ميزانه ميزان الشرع، فلا يأكل المال الحرام ولا يعتدي على أعراض الأنام، وتجده حيث أمره الله، وتفقدته حيث نهاه، فلا يتعدى على أحد، ولا يبني مجده على أنقاض أحد، ولا يأخذ ما ليس له، فميزانه ميزان الشرع، فالحلال والحرام، والخير والشر، الحق والباطل هو ميزانه، أما إذا لم يؤمن بيوم الدين صار لديه ميزان آخر، وصار إلهه الدرهم والدينار، فيأخذه بأي طريق كان، ومن أي إنسان كان، وبأية وسيلة، و يعدُّ الاحتيال شطارةً، والكذب والخداع ذكاءً، وجمع المال تفوقاً، وإنفاق المال على ملذاته رقيّاً وحضارةً، فالقضية دقيقة جداً، فإن لم تؤمن بيوم الدين كان ميزانك دُنيوياً، وإن آمنت بيوم الدين صار معك ميزان أخروي وهو ميزان الشرع، فالإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، فإن آمنت بيوم الدين فلن تستطيع أن تبتغي إلى أهدافك إلا الوسائل المشروعة، أما إن لم تؤمن بيوم الدين اخترت إلى أهدافك أقذر الوسائل وأخطرها وأبشعها، وتؤمن عندئذ وتقول: الغاية تبرر

الواسطة، فهناك فرقٌ كبير بين من آمن بالدنيا وزينتها، و زينتها ومالها ونسائها وشهواتها ومتعتها ومباهجها، وبين من آمن بالآخرة فجعل الدنيا مطيةً لها، فهؤلاء المصلون:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

هؤلاء يصدّقون بيوم الدين، فالمؤمن -يا إخواننا الكرام -مسؤول أمام الله عن كل عملٍ يفعله، أما غير المؤمن -كائنًا من كان -فهو مسؤول أمام إنسان عن أعماله، فالإنسان ليس معه دائماً، وبإمكانه أن يحتال عليه و يوهمه و يكذب عليه و يعطيه صورةً غير صحيحة، لذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ)

فأن تجعل الآخرة ميزاناً لك هو شيءٌ أساسيٌّ جداً جداً في الإيمان.

أيها الإخوة... هذا بحثٌ يقول:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ)

فإذا اختلف الأمر، واختلف دخله أو إنفاقه أو بيته أو زواجه، أو اختلف كل شيء لم يختلف ميزانه، فإذا أيقنت أن هناك يوم تقف فيه أمام الله عزّ وجل ليسألك عن كل شيء صار هوسك في كل لحظة من لحظات حياته أن تهيب لله جواباً عن أعمالك، فالمؤمن يمنع عن المال الحرام خوفاً من الله، فقد يكون قوياً متمكناً ولا يسأله أحد لكنه لا يعصي الله تعالى، فهناك أخ من إخواننا قد وضع لي ورقة والله لا أعرف اسمه قال فيها: سمعت درس الأمانة، وأنا معي عشرين مليون ليرة مودعة عندي لرجل مات فجأةً ولا يعلم أحد بها، فذهبت إلى ورثته وسلمتهم إياها.. فما الذي دفعه إلى ذلك ؟ إنه خوفه من الله، وخوفه من عذاب القبر، والسؤال، والحساب، "عبيد خفني وخف نفسك وخف من لا يخافني"، فإذا لم يخف الإنسان من الله فهو جاهل وغبي و أحمق، فعليك أن تؤمن أن هذا الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء، وأن هذه الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف، وأن كل أعمالنا مسجلة علينا في هذه الدنيا..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

حينما تؤمن بيوم الدين يكون ميزانك ميزان الشرع وميزان الآخرة، ويكون هدفك الآخرة والميزان هو الشرع، أما الذي لم يؤمن بيوم الدين فميزانه الدنيا و إلهه المال والشهوة، أما الطامة الكبرى فهي في هذه الآية:

(فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (4-6): تفسير الآية 27-31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

التصدق بيوم الدين

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة المعارج، والآيات التي شُرِّحت في الدرس الماضي هي قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِلنَّاسِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ (26))

التصدق بيوم الدين:

أيها الإخوة الكرام... في اللحظة التي تُصدَّق فيها بيوم الدين تستعمل ميزاناً خاصاً، وهو ميزان الآخرة و الشريعة، وهؤلاء الذين يَزينون الأمور بالمكاسب المادية فقط ؛ فلا يعبئون بحلال ولا بحرام، ولا بشيء مشروع أو غير مشروع، ولا يعبئون بأن مكتسباتهم كانت على حساب آخرين هم يزينون كل شيء بميزان المكاسب المادية، وهؤلاء لا يُصدِّقون بيوم الدين، فلو أنهم صدَّقوا بيوم الدين لاستعملوا ميزان الشريعة و ميزان الآخرة، فهذه الموازين الدقيقة توزن بها أعمال الإنسان يوم القيامة، لذلك يقول الإنسان العاقل كلما وقف موقفاً: ماذا أُجيب الله يوم القيامة ؟ هل هذا العمل أَقرَّه الشرع ؟ هل أنا مغطى بالشرع ؟ هل الحكم الفقهي إلى جانبي ؟ هل لي حجة يوم القيامة أمام الله عزَّ وجل ؟ ولمجرد أن تصدِّق بيوم الدين لابدَّ من أن تتخذ ميزاناً جديداً هو ميزان الشريعة، أما إن لم تُصدق بيوم الدين فإنك تزين كل شيء بموازين المكاسب المادية، لذلك قد تجد إنساناً يسعى إلى كسب المال بأي طريق ؛ مشروع أم غير مشروع، صحيح أم غير صحيح، فيه ظلم أو فيه عدل، لابدَّ من أن يأخذ هذا المال ليستمتع به في الحياة الدنيا، و هذا ميزان المكاسب المادية، وهو ميزان من لم يُصدِّق بيوم الدين، اسأل نفسك هذا السؤال: هل يمكن أن تقبل دخلاً غير مشروع ؟ هل يمكن أن تَبْتَزَّ مال إنسان ؟ هل يمكن أن تغشَّ إنسان ؟ هل يمكن أن تأخذ ما ليس لك ؟ هل يمكن أن تبني مالك على إفقار الناس ؟ ثق وآمن وتيقن، فإن فعلت هذا فأنت لا تُصدِّق بيوم الدين، أي إنسان عاقل إذا صدَّق أن الله سيُحاسِبُه عن كل شيء فلا بدَّ أن يعد للمليون قبل أن يعصي الله عزَّ وجل..

ميزان الآخرة:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ)

حينما صدّقوا بيوم الدين استخدموا ميزاناً جديداً، وهذا الميزان لا يسمح لهم أن يكذبوا، ولا أن يُدّلسوا، ولا أن يغشّوا، ولا أن يوهموا، ولا أن يبتزوا أموال الناس، ولا أن يبنوا غناهم على فقر الناس إطلاقاً، فراقب نفسك وراقب ما الميزان الذي تستخدمه في حركتك اليومية ؟ إن كنت تستخدم ميزان المكاسب المادية فأنت لا تُصدّق بيوم الدين، ولو أعلنت بلسانك ألف مرّة أنك مؤمن بالآخرة، الإيمان بالآخرة يجب أن يُجسّد باستخدام ميزان الشريعة، وكل من ترك من يده لحظة ميزان الشريعة هلك، فقد تكون قوياً جداً وزوجتك ضعيفة جداً، قد توفي والدها، وإخوتها مسافرون، وهي تحت إمرتك و هيمنتك، فإن ابتزرت أموالها أو ظلمتها فأنت لا تُصدّق بيوم الدين، و قد يأتيك إنسان جاهل وأنت تحمل أعلى شهادة، وكلامك عنده مُصدّق، وأي شيء تقوله له يُصدّقه، وبإمكانك أن تأخذ من أمواله الشيء الكثير وهو يشكرُك على هذا ولا يعلم، إن فعلت هذا فتتبنّ أنك لا تُصدّق بيوم الدين، فالمهين الراقية التي هي موضع ثقة الناس، فإن أخلص أصحاب هذه المهنة، وصدقوا الناس وأخلصوا لهم في التعامل معهم فهم يصدّقون بيوم الدين.

تصنيف الناس وفق الآية:

أيها الإخوة... لعل هذه الآية تُفرز الناس إلى فرقتين ؛ فرقة ناجية استخدمت ميزان الشريعة، وفرقة هالكة استخدمت ميزان المقاييس اليومية، فقد تسكن في بيت وتدفع أجره رمزية لا تساوي واحد بالألف من أجرته الحقيقية والقانون معك، وعندك بيت آخر، إنك إن فعلت هذا فأنت لا تُصدّق بيوم الدين، فماذا ستقول لله عزّ وجل يوم القيامة إذا كانت صاحبة البيت امرأة أرملة تعيش من أجره هذا البيت، والقانون معك وأنت مستأجر قبل السبعين، إنها لا تستطيع أن تقول كلمة واحدة، وأنت متمتع ببيت وبأجرة رمزية، وتذهب إلى المسجد وتصلّي في أول صف، إنك لا تصدّق بيوم الدين، إن الذي يصدق بيوم الدين يحاسب نفسه على الدرهم والدينار، والذي يصدق بيوم الدين يحاسب نفسه على كلمة والنظرة، ويستغل وقته أعلى استغلال في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي تعليم العلم، و الدين لا يضيع وقته في مباحات لا تقدّم ولا تؤخّر.

إخواننا الكرام... إن القضية خطيرة جداً، فأنت حينما تصدّق أن إنساناً قوياً سيستدعيك بعد يومين، وسيسألك كذا وكذا فإنك لا تنام الليل لأنك أيقنت أنه سيسألك، وقد يُعاقبك أو يحجز حرّيتك، فإذا قيل لك: إن الله جلّ جلاله خالق السماوات والأرض سيسألك عن كل صغيرة وكبيرة، وعن كل كلمة، وعن كل نظرة..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

كيف تُقنع نفسك أنك مصدّق بيوم الدين، وأنك تفعل أشياء لا تُرضي الله عزّ وجل ؟

إخواننا الكرام... هناك عشرات ألوف الأعمال التي يقتزفها المسلمون فيها مخالفة صريحة لمنهج الله عزَّ جل، وإذا سألتهم عدد أركان الإيمان يقول لك: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.. لا والله ما آمنت باليوم الآخر، فهذا الذي يفعل المعاصي والموبقات، ويبني مجده على أنقاض الناس، ويبني ماله على إفقار الناس، ويبني عزَّه على إذلال الناس، ويبني كل مكتسباته على حساب الناس هذا والله ليس مؤمناً بيوم الدين.. فإن أنت إذا تيقنت أن إنساناً من بني البشر أقوى منك سيحاسبك فإنك تعد للمليون قبل أن تفعل شيئاً يغضبه.. وهو إنسان من بني البشر، فكيف تفعل كل هذه المعاصي وأنت تقول: إني مؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين؟
الإيمان قيد:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ)

إخواننا الكرام... سأذكر أمامكم هذا المصطلح: إنك حينما تُدخل في حساباتك اليومية أن هناك يوماً لا بدَّ واقفٌ بين يدي الله فيه، ولا بدَّ أنك سوف تطلع على أعمالك كلها واحدةً واحدة، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فلن تستطيع عندئذ أن تعصي الله.. " الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن ".. فالإيمان قيد، وهذا الطليق المتفليت الذي لا يعبأ لا بمالٍ ولا بشيءٍ، وهمُّه أن يجمع مالا كثيراً ليستمتع به في الحياة الدنيا لا تنفعه هذه العبادات الجوفاء التي يؤديها وهو يبني مجده على أنقاض الناس، إن هذه العبادات لا تقم ولا تؤخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون من المفلس؟ قالوا: الذي لا درهم له ولا دينار، قال: لا، المفلس من جاء بصلاةٍ، وصيامٍ، وصدقةٍ، وضرب هذا وشم هذا وأكل مال هذا، فيُعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته طرحوا عليهم سيئاتهم حتى يُطرح في النار))

هذا هو المفلس.

إخواننا الكرام... وقرروا وقتكم لأن الوقت ثمين، لا تحاول أن تخادع الله..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

لا تحاول أن توهم أنك تُصلي، وأنت تصوم، وأنت حجبت بيت الله الحرام عشرات المرات

((ترك دائق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

لا بدَّ من أن تقف عند الحلال والحرام و تحاسب نفسك حساباً عسيراً على كل صغيرة وكبيرة.. فقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى واقفاً في ظل بيت يحدث رجلاً فأمسكه من يده ونقله إلى الشمس،

قال: " هذا البيت مرهونٌ عندي وإنني أكره أن أنتفع بظليّه .. هكذا كان السلف الصالح يحاسبون أنفسهم حساباً يبدو لنا غير معقول، لكنهم عقلاء، فهذا سيدنا عمر يقول: " والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها لما لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ " ..

وقد كان سيدنا عمر مرة في جولةٍ مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في المدينة، فرأيا قافلة قد نُصبت خيامها في ظاهر المدينة فقال: تعال نحرسها.. نحرس هذه القافلة.. فسمع طفلاً يبكي فقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته، ثم بكى، فقال لأمه: أرضعيه، فأرضعته ثم بكى فغضب وقال: يا أمة السوء أرضعيه، فقالت له: وما شأنك بنا ؟.. وما دخلك أنت ؟ قال: لما لا ترضعيه ؟ قالت: إنني أفطمه، قال: لم ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام [أي: التعويض العائلي]، ويروي كُتاب السيرة أنه ضرب جبهته وقال: ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين.. فقد عدّ نفسه قاتلاً لأنه حمل الأمهات على فطام أولادهن قبل الوقت المناسب من أجل أن يأخذوا من عمر العطاء. فما لم تحاسب نفسك حساباً عسيراً فلن تكون مصداقاً بيوم الدين، فالتصديق بيوم الدين أن تتصور أنك في كل ثانية واقفٌ بين يدي الله عزّ وجل.

هناك طالب من الطلاب الذين أدوا امتحان الشهادة الثانوية نال الدرجة الأولى على طلاب القطر، فسأله صحفيٌّ في مقابلةٍ: ما الذي أعانك على أن تنال هذه الدرجة الأولى ؟ أجاب إجابة رائعة فإنه قال: إن لحظة الامتحان لم تُغادر مُخيلتي ولا ثانية.

وأنت حينما تتصور أنه في أية لحظة سوف تُسأل من قبل الله عزّ وجل: لماذا فعلت؟ لماذا تركت ؟ لماذا وصلت ؟ لماذا قطعت ؟ لماذا تكلمت ؟ لماذا سكوت ؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت ؟ لماذا ابتسمت ؟ ولماذا عبست ؟ لماذا فعلت هذا ؟ لماذا طلقت ؟ لماذا تزوّجت ؟ لماذا دلّست ؟ هيئ جواباً لله عزّ وجل عن كل ما تفعله في يومك وإلا فإنك لا تعدّ مصداقاً بيوم الدين، لأن الله سيسأل: ما حُجَّتكَ ؟

وقد دخلت زوجة سيدنا عمر بن عبد العزيز عليه مرة فرأته يصلي ويبكي، فلما انتهى من صلاته قالت له: ما لك تبكي ؟ قال: دعيني وشأني، قالت: أستحلفك بالله ما لك تبكي؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحّت عليه قال: إنني وليت أمر هذه الأمة فعلمت أن الله سيسألني عن الفقير، وعن الأسير، وعن صاحب العيال الكثير، وعن ذي الدخل القليل، وعن ابن السبيل.. ولا أذكر النصّ بكامله لأنه ذكر عشرات من النماذج المعذّبة في الحياة.. ثم قال: أيقنت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً وأن خصمي دونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخفت أن لا تثبت حجّتي فلهذا أبكي. فأنت حينما تتولى أمر عشرة، تكون في دائرة تحت يدك عشرة موظفين، فلا بدّ من أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ؛ هل أعطيتهم حقهم ؟ هل عدّلت بينهم ؟ هل منحتهم ما ينبغي أن تعطيتهم إيّاه؟

إخواننا الكرام... حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطأنا إلى غيرنا وسيخطئ غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى، فلا توهم نفسك أنك مصدق ليوم الدين إذا كنت مقيماً على معاصي تغضب الله عز وجل، و لا تتصور أنك مؤمنٌ بيوم الدين إذا كان في ذلك جزءٌ من مالٍ حرام، إياك أن تفعل هذا، فهو لاء الذين يُصلّون..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا

الْمُصْلِينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23))

فلو جاءك إنسان ليشتري حاجة، وعلمت أنه جاهل فَعَبْنَتْهُ فَإِنَّكَ لا تصدق بيوم الدين، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((إِنْ غَبِنَ الْمُسْتَرْسِلَ رِبَا، إِنْ غَبِنَ الْمُسْتَرْسِلَ حَرَام))

المسترسل: هو الجاهل، ففي بيعك وشرائك، في إقامتك وسفرك، في علاقاتك بأهلك، في علاقاتك بجيرانك، الناس يفعلون ما يشاءون، فهم طلقاء يفعلوا كل ما يرونه صواباً، ولكن المؤمن وحده هو الذي يوفق أعماله مع منهج الله عز وجل، فالذي يُغضب الله لا يفعله ولو قطعته إرباً إرباً، والذي يرضى الله يفعله دون تردد، هذا معنى:

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27))

عذاب الله:

الله عز وجل حينما حدّثنا عن النار قال:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

(سورة الواقعة)

تذكراً.. أشعل شمعة وضع إصبعك على لهيبها فإن تحملتها فافعل هذه المعصية، والشمس تصل حرارتها في ألسنة لهبها إلى ستة آلاف درجة، أما في مركزها فتصل الحرارة إلى عشرين مليون درجة، ولو أن الأرض أُلقيت في الشمس لتبخّرت في ثانية واحدة، وحرارة الشمس من حرارة نار الدنيا، أما نار الآخرة فهي أشدّ حرّاً..

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

قال الله تعالى:

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ)

هذا كلام الله جلّ جلاله، وهو إلهنا و ربنا وخالقنا، وقد ذكر نار جهنم فقال:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

فهذا الذي لا يأخذ بهذا الوعيد إنسان أحمق، ومن الذي لا يخاف الله ؟ إنه الإنسان الذي عطل تفكيره و إدراكه، لذلك تراه لا يخاف، وأضع لك مثالا على ذلك: قد تأتي بطفل عمره سنة واحدة، فيجلس في أثناء الحصاد، وقد يمرّ أمامه ثعبان لو رآه رجل شديد لولّى هارباً، لكن هذا الطفل لا يتأثر ولا يبكي بل إنه يضع يده عليه، لماذا لا يخاف منه ؟ لأنه لا يُدرك، لو أدرك لخرج من جلده و صاح صيحة ملأت الأُفق، لكنه لا يُدرك، فالذي لا يخاف قد عطل إدراكه. قال:

(وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

فلو كان عند إنسان قدرة على أن يفعل لك بعض الأشياء المزعجة التي لا تحتملها، فإنك تحسب له مليون حساب، وذلك لأنك تخاف أن يعذبك، لكن الإله تبارك وتعالى يقول لك عن نار جهنم..

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

إن الناس يتحركون في الطرقات، وفي دور اللهو، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويستعلون على غيرهم وكأن شيئاً لم يقع، إن هؤلاء عطلوا إدراكهم، وهم عديمو الإدراك لأنهم لو أدركوا لخرجوا من جلودهم، وقد ورد في بعض الآثار:

((أنه ما من بيتٍ إلا وملك الموت يقف فيه في اليوم خمس مرّات، فإذا رأى أن الإنسان قد انتهى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة لويلها، يقول: فيما الجزع ؟ ومما الفرع ؟ ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً، ولا قربت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة، ثم عودة حتى لا أبقى منكم أحداً، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم، ولبكوا على أنفسهم))

يقول سيدنا عمر: عجبت لثلاث، عجبت لمأملٍ والموت يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه ولا يدري أساخط عنه الله أم راضي ؟. بينون ويعتنون، ويؤسسون ويزخرفون، ويتشدّقون ويتباهون على خلق الله، والقبر ينتظرهم، فعل أحدكم حضر تعزية، إنه قد يجد بيتاً لا يوصف بجماله، ولكن أين صاحبه ؟ تحت أطباق الثرى، هذا هو البيت الحقيقي، هذا هو المثلوى الأخير.

التفكر بالمصير يسمو بالحياة:

يا أيها الإخوة الكرام... التفكر بالمصير المحتوم لا يعرقل الحياة لكنه يسمو بالحياة، فأنت حينما تؤمن أن الله سوف يحاسبك، فإنك تفعل كل شيء وفق منهج الله عزّ وجل، فالآية الكريمة دقيقة جداً:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

والمعنى المخالف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، فإذا كان هناك إنسان أودع الله في قلبه حب المرأة فتزوج فلا توجد مشكلة أبداً، وإن أودع في قلبه حب المال فعمل بمشروع شريف فكسب المال وأنفقه على نفسه وعلى أهله فلا شيء عليه أيضاً، فأى شيء سمح الله لك به افعله ولا تخاف، لكن التفكر بالمصير المحتوم يسمو بالنفس فيمنعها من أن تزل، ويمنعها من أن تقف، فللموت إيجابيتان مهمتان ؛ فهو يمنعك من أن تعصي الله، ويمنعك من تقف في الطريق لله عز وجل، وقد قال ابن عباس في تفسير آية:

(وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

" هذا لمن أشرك أو كذب بالأنبياء "، وقيل: لا يأمنه أحد، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه.. فالنبي عليه الصلاة والسلام كان عند أصحابه الذين توقاهم الله، وكان من عادته أن يذهب إلى بيت أصحابه الذين توقاهم الله قبل الغسل والدفن، فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، قال: ومن أدراك أن الله أكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي.. هذا يؤكد قول من قال: ينبغي أن لا يأمنه أحد، فهذا سيدنا عمر وهو مبشر بالجنة قد سأل سيدنا حذيفة بن اليمان فقال له: بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ قال له: لا يا أمير المؤمنين، معاذ الله أنت أمير المؤمنين، فينبغي أن تخاف الله دائماً، وينبغي أن ترجوه..
العفاف:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المعارج)

أذكركم بقول سيدنا جعفر حينما سأله النجاشي عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال:
((كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً (دققوا) نعرف أمانته وصدقه وعفافه))
العفاف ثلث الأخلاق الفاضلة، فعلاقة المؤمن بالمرأة أساسها العفاف..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

فالإنسان يحفظ فرجه حينما يتقي ربه، فيفعل الأسباب التي تحفظ له فرجه، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

هذا ترتيب دقيق جداً، جعل الله حفظ الفرج بسبب غض البصر.

خطوات الزنى:

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فأي خطوة تخطوها تُقَرِّبُك من الزنى، فالنظر يقرب، وصحبة رفقاء سوء تقرب، والمشي في طريق من دون حاجة ضرورية وهو مليء بالنساء الكاسيات العاريات تقرب، وأن تأتي بصحن فنتابع ما فيه من أفلام داعرة إلى الساعة الخامسة صباحاً يقرب أيضاً، فالأعمال الفنية الساقطة، والمجلات الخليعة، والقصص المنحطة، ورفقاء سوء، وإطلاق البصر، والحديث عن الزنى هذا كله يقرب، لذلك كان من حكمة الله عز وجل أنه قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا)

حقيقة علمية!!

لم يقل الله تعالى: ولا تزنوا، لأن الإنسان حينما يستثار يفرز الدماغ مادة تعطل المحاكمة، وهذه الحقيقة العلمية تفسر كل تورط في الزنى، لذلك قال عليه السلام:

((ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا كان الشيطان ثالثهما))

وهذا كلام مطلق، فهو يشمل أي إنسان، فالذين يحفظون فروجهم لا يسمحون بخلوة مع أجنبية، ولا يُطلقون النظر إلى محرّم، ولا يملؤون عيونهم من الحرام، ولا يجلسون مع امرأةٍ لا تحلّ لهم، ولا يديرون حديثاً لطيفاً مع امرأةٍ لا تحلّ لهم، ولا يقرؤون شيئاً يثير شهواتهم السفلى، ولا يُشاهدون عملاً فنياً مثيراً، وكل شيء يقربهم من الزنى لا يفعلونه، فتصور أن الزنى تيار كهربائي بثمانية آلاف فولط.. توتر عالي.. وهذا التيار من خصائصه أنه يجذب، وله منطقة حرام ؛ أي: ثمانية أمتار، وكل إنسان دخل إلى أقل من ثمانية أمتار يجذبه التيار ويجعله فحمة سوداء، فلو أن وزير الكهرباء لم يضع لوحة تفيد الناس أن هناك خطر الموت، فماذا يحدث لكل من يقترب منه ؟

و هذه الشهوة خطيرة جداً، ويمكن أن نشبهها بصخرةٍ مستقرةٍ في رأس جبل، وأنت لك أحد خيارين ؛ إما أن تبقىها في مكانها فأنت آمن، أو أن تدفعها من مكانها فلن تستقر عندئذٍ إلا في قعر الوادي، ولن تستطيع أن توقفها بعد مترين من الانحدار، لأنها لن تستقر إلا في قعر الوادي، فبطولتك تكمن في ألا تدفعها في المنحدر، فإنك إن دفعتها في المنحدر استقرت في قعر الوادي.

أيها الإخوة... هذا معنى قول الله عز وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

فلابدّ من أن تدع بينك وبين المعاصي المتعلقة بالمرأة والجنس هامش أمان، فيوجد خط أحمر إن اخترقته كانت الكارثة، فهذه الشهوة لها وَهَجٌ، فإن جذبتك إليها انتهى كل شيء، لذلك قد تعجب أن كل الآيات التي نهت عن الزنى لم تنه عن فعل الزنى نفسه بل نهت عن الاقتراب من الزنى، فإطلاق البصر اقتراب كذلك المصافحة، والخلوّة و ملء العينين من الحرام، وإدارة حديث، وقراءة قصة، و مشاهدة عمل فني رخيص، وصُحبة الأراذل، و مشاهدة الصور الفاضحة، هذا كله يقرب من الزنى، والنهي عن أن تقترب من الزنى..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا)

شيء ثان: ليس في الإسلام حرمان، فأية شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفةً تسري خلالها، وهناك قول لطيف جداً: " ما كان الله ليعذب قلباً بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله ". فإله يريحك.. وقد تجرأ أحدهم جرأة غير معقولة، فقال للنبي الكريم وهو بين أصحابه الكرام وهم قمم في العفة، قال: يا رسول الله انذن لي بالزنى.. أعوذ بالله.. فقام أصحابه، فقال النبي:

((دعوه، تعال يا عبد الله واقترب مني، قال: أتعبه لأملك؟ فاحمر وجهه وقال: لا، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، أتعبه لأختك؟ قال: لا، أتعبه لابنتك؟ قال: لا، أتعبه لعمتك، لخالتك؟ فقال هذا الشاب: والله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وما شيء أحب إلي من الزنى، وخرجت من عنده وما شيء أبغض إلي من الزنى))

فإذا صدق الإنسان في التوبة، وصدق في طلب مرضاة الله عز وجل فإن الله عز وجل لا يعذبه بهذه الشهوة، بل بالعكس، إنه يُفسح له طريقاً مشروعاً. " فإنهم غير ملومين ": اسمحو لي أن أقول كلمة: إذا كان الإنسان متزوجاً، فإنه قد يصلي قيام الليل ويبكي في الصلاة، ويكون ذلك بعد لقاء زوجي.. وهو الشيء مشروع.. وهنا لا توجد مشكلة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30)) وهو ليس ملوماً لا عند الله، ولا عند نفسه، ولا عند الناس أبداً، ولكن لاحظوا شاباً يمشي مع فتاة بشكل غير مشروع، فلو تكلم واحد معه كلمة فإنه يرتعب، أما حينما يخطب ابنتك شاباً، فتوافق عليه ثم كتب العقد، فإنه يسهر مع ابنتك حتى الثانية صباحاً وأنت مطمئن، فهي زوجته، فالشيء المشروع مشروع، والحرام حرام، فلذلك قال ربنا عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ)

وربنا عز وجل يُعلمنا الحياء، فلا توجد كلمة تخدش الحياء..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

ملك اليمين..

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى)

إرواء هذه الشهوة عن غير طريق زوجته:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

إنه معتد على أعراض الناس، معتد على منهج الله، ومعتد على سعادته، و ظالم لنفسه..

(فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

طالب الزواج مرزوق: أيها الإخوة... في الجامع الصغير بضعة أحاديث شريفة تبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم: حق الأب على ابنه، وحق الابن على أبيه، وحق الزوج على زوجته، وحق المسلم على المسلم، وحق الجار على الجار، لكن حديثاً واحداً تقرأه يقشع منه جلدك وهو: " حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف".. " ما شكا إلى النبي أحدٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج ". لأن طالب الزواج مرزوق، وهناك ألف قصة على ذلك، فبعد أن يعقد العقد يأتيه رزقٌ جديد لم يكن في الحساب، ف حينما تقول لله: يا رب أنا أحب أن أطيعك، فأعني على أن أطيعك، فيهبئ الله من علم الغيب ما يسعدك ويحصنك من أن تقع في الحرام..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

(فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

هذه الآية مُجَمَّلَةٌ والتفصيل عندك، فأبي انحرافٍ جنسي ؛ من المثلية وغير المثلية وما إلى ذلك،-كلكم يعلم هذه الانحرافات ويستمتع إلى أخبارها - هو عدوان في نصّ هذه الآية الكريمة، لذلك قال تعالى:

(بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ)

(سورة هود: آية " 86 ")

أي ما بقي لكم من الأشياء المشروعة هو الخير.

أيها الإخوة... نختم الدرس عند هذه الآية:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30))

فالآن لا يوجد ملك اليمين (لكي لا يسن أحد أسنانه) وملك اليمين له حالات خاصة وهو الآن غير موجود..

(فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

أي معتدون، وفي درس آخر ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (5-6): تفسير الآية 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقل الأمانة

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة المعارج، ومع الآية الثانية والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المعارج)

إن هؤلاء مصلين مستثنون من الهلع والجزع، ومن الحرص والمنع، وهذه الصفات هي في أصل خلق الإنسان، وهي نقاط ضعفٍ لصالحه تدفعه للإيمان، والهلع هو شدة الجزع وشدة الحرص، فبالحرص ترقى إذا أنفقت، وبالجزع ترقى إذا خفت، وبخوفك تلمس أبواب الله عز وجل و تنساق إلى العبودية لله عز وجل، وتلجأ إلى الصلح مع الله، وخوفك يحملك على التوبة، وهذا الخوف الشديد هو في أصل خلقك، وهو فيما يبدو نقطة ضعفٍ، لكنه في الحقيقة سببٌ لتوبتك و صلحك مع الله، فالإنسان كما وصفته الآيات:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(سورة المعارج)

وإذا اتصل هذا الإنسان بالله عز وجل أصبح مستثنى من هذا الضعف الخلقي، فهناك فرق واضح جوهري نوعي بين المتصل وغير المتصل.

قسما البشر بحسب الآية:

أيها الإخوة... في ضوء هذه الآية يمكن أن يُقسَمَ البشر إلى قسمين لا ثالث لهما ؛ وهما: المتصل والمنقطع، فالمتصل مُحسن مطمئن كريم منضبط بمنهج الله و يرجو رحمة الله وهو أسعد الناس، أما المنقطع فهو متفلت من منهج الله، مسيء إلى الخلق، قلبه فارغ، ممتلئ خوفاً وذعراً و تشاؤماً، فيؤدي الخلق، وهو أشقى الخلق، ولست مبالغاً إذا قلت: إن البشر في ضوء هذه الآية قسمان: متصل مطمئن، كريم، ومنقطع جذوع، منوع، ولكن ربنا عز وجل قيد هؤلاء المصلين بصفاتٍ كثيرة، لنلا يتوهم الإنسان أنه إذا صلى ركعتين صار من المصلين، وقد تحدثت عن أكثر هذه الصفات في الدروس السابقة:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلِسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25)

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ

مَامُونَ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31))

ودرس اليوم:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

شمول هذه الآية:

أيها الإخوة... لا أعتقد أن في القرآن كلمة تتسع لتشمل كل شيء كهذه الكلمة، والأمانة في أقدم معانيها هي نفسك التي بين جنبيك، فقد جعلها الله أمانة عندك، فإذا زكيتها و عرفتھا وحملتھا على الطاعة و الاتصال بالله فقد زكيتها، فإذا زكيتها أدّيتَ الأمانة ؛ وإذا تركتها جاهلة فقد خنت الأمانة، ومن توابع الجهل المعصية، ومن توابع المعصية القطيعة مع الله، فأول أمانة تحملها هي نفسك التي بين جنبيك، وقد قال الله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

حرفتك أمانة:

إن شؤون الدنيا والدين بأكملها هي أمانة في عنقك، ولو بدأنا بشؤون الدنيا لقلنا: حرفتك التي ترتزق منها أمانة جعلها الله في عنقك، فإذا كنت معلماً فهل أدّيت الأمانة لهؤلاء الصغار ؟ هل علمتهم بإخلاص؟ هل هدّبتهم ؟ هل وجهتهم ؟ هل عرفّتهم بالله عزّ وجل ؟ أم أنك عملت بقدر الراتب ؟ وهذا ما يقوله معظم الموظفين، إن عملت بقدر الراتب فقد خُنتَ الأمانة، فلما أن تؤدي الأمانة بالتمام والكمال، وإما أن تدع هذه الحرفة وتعمل شيئاً آخر، أما أن تقدّم عملاً يتوازى مع راتب الذي لا يكفيك خمسة أيام وتقول: ليس علي شيء لأن الراتب قليل، فإنك في هذه الحال تكون قد خُنتَ الأمانة، و كل واحد منا - أيها الإخوة - حرفته أمانة في عنقه، فيا أيها الأستاذ: هل رفعت مستوى الأسئلة كثيراً، حتى يأخذ الطلاب علامات متدنية كثيراً ليأتوا بك إلى البيت ويأخذوا دروساً خاصة ؟ إذا فعلت ذلك فقد خُنتَ الأمانة، لكنك إن جعلت الامتحان معتدلاً فقد أدّيت الأمانة، وهذا ينطبق على أية حرفة، فلو أنك كنت تعمل في المحاماة فعليك أن تسأل نفسك: هل صدقت الموكل ؟ أم أوهمته أن دعواه رابحة، وأنت توقن يقيناً قطعياً أن دعواه خاسرة، هل أخذت ماله حراماً أم حلالاً ؟

وأبواب الخيانة لا تعدّ ولا تُحصى، وهي في كل الحرف من دون استثناء، كالطب و الهندسة و المحاماة، والتدريس والتجارة، كذلك إذا كان عندك معمل غذائي، فهل تضع فيه مواد من الدرجة الثانية؟ هل تضع مواد انتهى مفعولها ؟ هل تختار مواد قد تكون مُسرّطنة وتعلم ذلك ثم لا تعبأ ؟ هل تدقق في نوعية الإنتاج ؟ إن حرفتك هذه أمانة في عنقك، والإنسان بحرفته عليم وخبير، ولا يستطيع

الناس في الأعم الأغلب أن يكتشفوا الخطأ، و لا يستطيع أن يكشف الخطأ إلا قلة قليلة، لذلك كان جزء كبير كبير من الدين هو أن تؤدي الأمانة في الحرفة التي أقامك الله فيها، فهل نصحت المسلمين ؟ هل رحمتهم في الأسعار ؟ هل استغلّيت ندرة المادة فضاعفت أسعارها أضعافاً مضاعفة ؟ أيها الإخوة... صدقوني أن دينكم في أداء أماناتكم، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

أنت موظف، وهذا الذي أمام الطاولة مواطن يرجوك أن توقع له هذه المعاملة، وبإمكانك بثانية أن توقعها له، فإن قلت له: تعال بعد غدٍ لأنك في حديثٍ مُمتعٍ مع موظف آخر، أو لأنك ترتشف فنجان قهوة، أو تطالع مقالة في جريدة، وهذا الذي أمامك قد يأتي من حلب، وقد يكلفه توجيهك هذا أن ينام في الفندق ليلتين، فأنت بهذا قد خُنت الأمانة.

الدين أيها الإخوة ليس في المسجد، ففي المسجد نتعلم أحكام الدين، لكن الدين يمارس في عملك، في وظيفتك، في دُكانك، في تجارتك، فهل تأتي بهذه المواد و الهرمونات لترشها على النبات فيزداد حجم النبات وتبيعه بأسعارٍ عالية، وتكون بذلك قد عالجته بمادة مسرطنة ممنوع استعمالها، هل تعباً بصحة الناس الذين يأكلون هذه الخضار، أم أنك تبغي الربح فقط؟ إخواننا الكرام.. إن الأساليب التي ينزلق فيها الإنسان لخيانة الأمانة لا تعد ولا تحصى، والإنسان ممتحن ومبتلى.

إذا استأجرت سيارة مثلاً فالشيء مألوف أن هذه السيارة ليست لك، و بإمكانك أن تُحطّمها دون أن تكون مسؤولاً، فتفعل كل الأساليب التي تتعبها وترهقها، لأن هذه ليست لي فهي أجرة، أنت بذلك قد خنت الأمانة، و إن أردت الكلام الصحيح أقول لك: إنك لن تعد عند الله مؤمناً إلا إذا جعلت كل شيء بين يديك أمانة.

و زوجتك أمانة كذلك، فهل دلتها على الله، إنها قد تؤدي لك كل ما تريد من دون استثناء، فمصلحتك محققة معها، ولكن.. هل عرّفتها بالله ؟ هل حملتها على طاعة الله ؟ هل أخذت بيدها إلى الله ؟ هل كانت قرة عين لك في دينها ؟ أم هي قرة عين لك في جمالها ؟ وأولادك و بناتك أمانة كذلك، فهذه البنت الذي أهملها أبوها فزالت قدمها، ماذا تقول لله يوم القيامة ؟ ستقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، والله -أيها الإخوة - إننا لو نفهمها هذه الآية وحدها حق الفهم لانخلع قلبنا خوفاً من الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المعارج)

هل أدبت حق طلابك أيها الأستاذ ؟ هل أدبت حق مرضاك أيها الطبيب ؟ هل أدبت حق هذا البناء أيها المهندس ؟ أحياناً يبقى عند المهندس مسافة صغيرة، فيجعلها درجة غير طبيعية، فكم من حادث تسبب

هذه الدرجة، و كم إنسان يتعثر بهذه الدرجة، مرة كنت في معمل فنبهني صاحب المعمل إلى أن الدرجة السابعة أعلى بسنتيمتر، قال لي: كم من إنسان تعثر على هذه الدرجة ؟ فقلت: لماذا ؟ إن الإنسان - سبحانه الله- إذا صعد الدرج يقيس ارتفاع الدرجة و يقيس على هذا الارتفاع كل الدرجات بشكل آلي، فإذا كان هناك درجة ارتفاعها (سم) زيادة، أو أقل بـ (سم) تعثر صاحبها، فهذا الذي أنشأ هذا الدرج سريعاً ولم يعبأ بسلامة الناس قد كان عمله أمانة فخان الأمانة، وكل من تعثر على هذا الدرج في صحيفته، وأحياناً يُرَكَّب أحدهم بلور بمسامير قليلة، وفي حالات الرياح الشديدة يقع البلور، فإذا وقع على طفل وأرداه قتيلاً فمن المسؤول ؟ إنه الذي ركبه بهذه الطريقة، وقد وقع مرة صحن من صحن السطوح.. فضلاً عن الفساد الذي يحققه هذا الصحن.. وقع فقتل طفلة في عمر الزهور، فلما سألوا: من ركب هذا الصحن ؟ لقد كان مركباً بـ(برغيين) من أصل أربعة (براغ)، ففي أيام الرياح وقع الصحن فأردى الطفلة ميتة.

أيها الإخوة... حدثني رجل قام بتغيير زيت، وصاحب العمل ترك لغلام صغير أن يغير الزيت فلم يحكم إغلاق الغطاء، فسال الزيت في الطريق فتعطلت السيارة والمسير بين جدة وبين دمشق في أيام الصيف، فخرج صاحب السيارة مرتين ليفحص السيارة ضربته الشمس فأردته قتيلاً، فمن الذي يحاسب عن هذه الجريمة ؟ وكم من أخطاء حدثت في غذائنا ومواصلتنا، فخطأ في الطريق أحياناً يذهب ضحيته عشرات، وهذا الذي هندس الطريق هو المسؤول عن ذلك، ففي طريق إلى محافظة جنوبية هناك زاوية قائمة تقريباً، وقد وقع بسببها أكثر من مائة حادث على هذا الطريق، فإذا كان هناك إنسان يمشي بسرعة، ولم يتوقع أن المنعطف زاوية قائمة، و لم يتمكن من أن يبقى على الطريق فإنه يتدهور، وكم إنسان مات بهذا الحادث:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

نفسك وجسمك أمانتان عندك:

هناك حياة أبدية وسوف نحاسب على كل شيء، فاعلم علم اليقين أن نفسك التي بين جنبيك أمانة في عنقك، أفلحت إن زكيتها وخبت وخسرت إن دسيتها، كما أن جسمك أمانة، وهذا الجسم ليس لك، إنه للمسلمين، كما أنه لأسرتك، فإذا حافظت على صحته عشت حياة سليمة، و كم إنسان يدخن ويرديه الدخان في ريعان الشباب قتيلاً ؟ وجسمه أمانة بين يديه، فقد أعطاك الله هذا الجسم ليكون وعاءاً لعلمك، ونفسك وعاءها هذا الجسم، فإذا أهملته وأمضيت الحياة في مرض شديد فقد خنت الأمانة، فجسمك أمانة.

وهذه العين أمانة في يديك، أعطاك الله إيّاها، فكيف تستعملها ؟ فإن نظرت بها إلى عورات المسلمين

فقد خنت أمانة الله، و إن نظرت إليها لما لا يرضي الله خنت أمانة الله، وهذه الأذن مُعك الله بها لتستمع إلى الذكر، فإن استمعت بها إلى الغيبة والنميمة والغناء، والكلام الذي لا يرضي الله خنت الأمانة، وهذه اليد أعطاك الله إياها من أجل أن تفعل الخير لا من أجل أن تبطش بها و تمدّها إلى ما لا يرضي الله عزّ وجل، فيجب أن تعتقد أن عينيك أمانة، وأن أنفك أمانة، وأن لسانك أمانة، وأن أذنك أمانة، وأن يديك أمانة، وأن رجلك أمانة، فهل تقودانك إلى بيتٍ من بيوت الله ؟ أم تقودانك إلى ملهى من الملاهي التي تراها عينك ؟ هذه الآية واسعة جداً، فكل شيء أمانة في عنقك.

قال تعالى:

(إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

و نحن هنا نقف عند الأشياء البارزة، و أهم شيء هو نفسك التي بين جنبيك، فهل عرّفنتها بالله ؟ هل حملتها على طاعته ؟ هل زكّيتها بالقرب من الله عزّ وجل ؟ فإن فعلت هذا فقد أفلحت وإن لم تفعل فقد خسرت.

أهلك أمانة:

و أقرب الناس إليك هم أهلك أولادك، فكم من ابن شقي في حياته لأن أباه أهمله ؟ و كم من بنت زلت قدمها لأن أباه لم يرعها حق الرعاية ؟ فالمراقبة عندها ضعيفة، والوازع ديني ضعيف أيضاً، و ثقافتها مكونة من هذه الأجهزة التي لا ترضي الله عزّ وجل، ففيها تغذية يومية تدعوها إلى الانحراف، والمراقبة ضعيفة، فزلت قدمها، و كشف أمرها فسقطت، فمن أعانها على السقوط ؟ إنه الأب الذي لم يرعها و لم يحفظها، فابنتك أمانة، فإن أدبت الأمانة في ابنتيك ضمنت الجنة، قال عليه السلام:

((من جاءه بنتان فأحسن تربيتهما حتى يزوجهما أو يموت عنهما فأنا كفيله في الجنة، قالوا:

واحدة، قال: واحدة))

ابنتك أمانة، فهؤلاء الفتيات اللواتي يخطرن في الطرقات كاسياتٍ عاريات، أين أبأوهن؟ أين إخوانهن؟ أين أمهاتهن ؟ إن هؤلاء الفتيات أمانة في أعناق آبائهن، فإذا تركوهن يفعلن ما يشأن فقد خانوا هذه الأمانة...

عباداتك أمانة:

ماذا أقول لكم حول هذه الآية ؟ كل شيء بين يديك من أمر الدنيا والآخرة أمانة في عنقك، وقد قال العلماء: الصلاة أمانة، فإن أدبتها على الوجه الصحيح في وقتها، بخشوعها، وركوعها، وسجودها فقد أدبت الأمانة، و الصوم أمانة، والحج أمانة، والزكاة أمانة، و هذا المال الذي بين يديك هو أمانة في عنقك ينبغي أن تؤدّيه على الوجه الصحيح والتام.

أيها الإخوة الكرام... الإسلام صارخ، فوضع المسلم وعلاقاته، وبيته، وعمله، ومعاملته كل هذا صارخ في الكمال، فإن لم تجد بين المسلم وغير المسلم إلا هذه الصلاة وهذه الحركات والشعائر من دون أن ترى في سلوكه شيئاً صارخاً، فيجب أن تعلم علم اليقين أن هذا المسلم بعيدٌ جداً عن حقيقة الإسلام. أيها الإخوة الكرام...

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

إنك لا تكون من المصلين و هؤلاء الناجين من الهلع والجزع إلا إذا رَعَيْتَ الأمانة، فقد يقول العبد مثلاً: " يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام وغذي بالحرام، فأني يستجاب له " هل يمكن أن تكسب رزقك من مسبح مختلط ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من مطعم تباع فيه الخمر ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من تجارة محرمة أو من طريقة في التعامل محرمة ؟ هل يمكن أن تكسب رزقك من نماء المال عن طريق الربا ؟ فالعبد يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرامك وغذي بالحرام فأنى يستجاب له.

يا أيها الإخوة الكرام... موضوع الأمانة موضوعٌ دقيقٌ جداً..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

الإنسان قبلَ حمل الأمانة، فهل تعرف أيها الأخ من أنت ؟ إنك قد حملت الأمانة لأنك من بني البشر و من بني آدم، وما دمت قد قبلت حمل الأمانة فالحمد لله سبحانه وتعالى كرمك ورفع شأنك..

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

فهؤلاء المؤمنون هم لأماناتهم وعهدهم راعون، فقد قال أحدهم لآخر: هل تعرفه ؟ قال له: نعم أعرفه، قال له: هل سافرت معه ؟ قال: لا، قال: هل جاورته ؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدرهم والدينار ؟ قال: لا، قال: فأنت لا تعرفه، لعلك رأيته يُصَلِّي في المسجد.

العبادات التعاملية أساس الدين:

إخواننا الكرام... أريد أن أقدم لكم هذه الفكرة ذكرتها كثيراً لكني لا أشبع من ذكرها، هناك عباداتٌ شعائرية، وهي الصلاة والصوم والحج، وهناك عباداتٌ تعاملية، فالعبادات التعاملية هي أساس الدين، و لما سأل النجاشي سيدنا جعفر عن الإسلام، قال: " كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار.. هذه هي الجاهلية.. حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف

أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان.. والآن دققوا.. وأمرنا بصدق الحديث " صلّ ألف ركعة، فإن لم تكن صادقاً فلا قيمة لصلاتك، لأن المؤمن لا يكذب.

إخواننا الكرام... شيء مخيف، دققوا في هذا الحديث:

((إن فلانة تذكر أنها تكثر من صلاتها ؛ أي: الخمس أوقات، والأوابين، وقيام الليل، والضحي، غير

أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال: هي في النار))

(قلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

((رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ))

فقد صام رمضان و ما ناله إلا الجوع والعطش، و أنفق المال ليقال عنه: محسنٌ كبير، فليس له من هذا الإنفاق شيء إلا الوزر.

أيها الإخوة الكرام... إن العبادات التعاملية هي الأصل في الدين، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بُني الإسلام على خمس))

الإسلام بناء أخلاقي بني على خمس عبادات، فالعبادات ليست هي الإسلام إنما هي دعائم الإسلام، فالعبادة التعاملية هي الأصل، فماذا قال سيدنا جعفر: " حتى بعث الله فينا رجلاً" .. لم يقل: رأيناه يصلي.. لا، بل قال: "نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه".

وإننا —والله— لن نتقدم، ولن نحظى بنصر الله و رضوانه، ولن ننال من الله شيئاً إلا إذا طبقنا الدين كما أراد الله، و نحن أردنا الدين شعائر، والشعائر سهلة، فهي صلاة، وعمره، وحج، وصوم، لكن الله جلّ جلاله أراد منهجاً أخلاقياً كاملاً.

مرة ثانية أقول: يجب على المؤمن أن يكون صارخاً في كلامه كله، فهل يكذب المؤمن؟! إن المؤمن لا يكذب، بل هو "يطبع على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب". أيعقل أن يأتي راوي حديث أو طالب علم من المدينة المنورة إلى البصرة ليس بالطائرة، فلم يكن هناك في طائرة، وليس بالمركبة المكيفة، و لا على ناقه، يأتي من المدينة إلى البصرة، ليأخذ حديثاً عن رجل في البصرة، فلما رآه يكذب على فرسه، لم يسأله وعاد لتوّه، إنه ليس أهلاً لأن يروي عن رسول الله حديثاً، فهو يكذب على فرسه، و المؤمن لا يكذب، أما الصلاة والكذب فهي لا تصلح، فكيف يجمع الناس صلاة وكذب؟! يكذب في بيعه، ويحلف أيماناً مغلفة أن رأس مال هذه السلعة أقل مما يعرضه الشاري، يقول عليه الصلاة والسلام:

((اليمين الكاذبة منفقة للسلعة محقة للبركة))

إخواننا الكرام... دينك في عملك و دكانك و قاعة تدريسيك و عيادك، و غرفة المُحامة، و مكتبك الهندسي، و تجارتك، و زراعتك، و صناعتك، فأنت تصنع غذاءً للمسلمين، فهل اتقيت الله في هذا الغذاء ؟ لقد سمعت أن في بعض البلدان الإسلامية من يشتري طعام الكلاب و يبيعه للبشر، و يغير اللصاقة الخارجية، إن هذا لو صلى ألف ركعة في اليوم، و حج كل عام فإنه يصنف خانئاً للأمانة.. الحيوان أمانة:

((دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

الهرة أمانة عند أصحابها، لها طعامها و شرابها، و هناك من الناس من يقتل الدواب و هي أمانة في أعناقهم، دخل النبي عليه الصلاة و السلام إلى بستان، فرأى جملاً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ، فذرفت دموعه، فجاء النبي و مسح ذفريه، و قال: من صاحب هذا الجمل ؟ فجاؤوا بقتى من الأنصار، و قالوا: هذا هو صاحب الجمل، فقال عليه الصلاة و السلام:

((ألا تتق الله في هذه البهيمة التي أكلها الله إليك، ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه

و تدنيه))

افتح ورقة و أحضر قلماً و اكتب بنود الأمانة ؛ نفسك أمانة، و زوجتك أمانة، و أولادك الذكور أمانة، و بناتك الإناث أمانة، و حرفتك أمانة، و عبادتك أمانة، و صلاتك أمانة، و صيامك أمانة.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

الأمانة تحقق الرخاء في المجتمع:

فنحن أيها الإخوة الآن بحاجة ماسة لا إلى كلام يُلقى، ولا إلى كتاب يُقرأ، ولا إلى شريط يُسمع، ولكننا بحاجة إلى مجتمع مسلم، فهل تصدقون أن سيدنا معاذ حينما بعثه النبي إلى اليمن أقره عليها سيدنا أبو بكر، و أقره عليها سيدنا عمر، فجمع مال الزكاة، و أرسل بثلاث الزكاة إلى سيدنا عمر، فراجع عمر، قال له: " أنا لم أبعثك جابياً ولا جامع مال، ولا جامع مال، ولكن بعثتك هادياً، قال: والله لم أجد من يأخذ مني شيئاً، و هذا الذي فاض ". و في العام التالي أرسل له نصف الزكاة، و في العام الثالث أرسل له كل الزكاة، فحينما أُدِّيت الأمانة عاش الناس في ببحوحة ؛ أما الإنسان حينما خان الناس الأمانة أذهب الله البركة من المال، فأصبح المال يُنفق على الصحة و الكوارث، و المصائب، أما حينما تؤدِّي حق الله عزّ وجل فإن الله يبارك لك في مالك، و موضوع الأمانة -أيها الإخوة- موضوعٌ خطير و دقيق، و موضوعٌ يحتاجه كل مسلم، فعلى كل إنسان أن يصدق و يخلص و ينفع المسلمين.

سعة الإسلام:

إخواننا الكرام... لا تستهينوا بالدين.. فالإسلام واسع جداً، فحرفتكم التي هي أمانة في عنقك يمكن أن تنقلب إلى عبادة ببساطة مذهلة، فالمسلم إذا كان له عمل فابتغى به كفاية نفسه، فهو في طاعة، كذلك إذا ابتغى منه كفاية أهله فهو في طاعة، وإذا ابتغى منه نفع المسلمين فهو في طاعة، فما شغله عمله عن صلاة ولا عن صيام ولا عن عمل صالح، وهو في طاعة، والعمل بهذه الطريقة وبهذا المنطلق ينقلب إلى عبادة، فما قولكم في أن العبادات الشعائرية إذا أدّاها المنافق يحاسب عليه، وأن الأعمال الاعتيادية إذا أدّاها المؤمن يؤجر عليها، فالعبادات إذا رافقتها النوايا الطيبة انقلبت إلى عبادات، وذلك كأن تعمل عملاً تجارياً، أو أن تدير شؤون بيتك، أو أن تدرس و تنال شهادة، أو أن تأسس عمل، فالأعمال العادية التي يفعلها كل الناس تنقلب إلى عبادة إذا عرفت الله وعرفت ما معنى الأمانة، والأعمال العبادية الصرفة ؛ والصلاة، والحج، والصوم، إذا أديت رياءً انقلبت إلى آثام، وهذا شيء خطير، فعليك أن تعرف الله وتعرف ما معنى الأمانة و تؤدّيها بالتمام والكمال، والأمانة هي أحوج ما يحتاج المسلم، فالأم أولادها أمانة في أعناقها، فهل تعتني بهم، و هل تؤمّن لهم الطعام، و الشراب، و اللباس، و هل تهين لهم وسائل النجاح في الحياة، إنها إذا قد أدت الأمانة.

إخواننا الكرام... إن أبواب الجنة لا تعدّ ولا تحصى، فالبنوة الكاملة باب للجنة، والأبوة المثالية باب للجنة، والأمومة المثالية باب للجنة، فكل أم إذا أتقنت عملها وأخلصت لزوجها ولأولادها تدخل الجنة من أوسع أبوابها، فالأم تدخل الجنة، والأب يدخل الجنة، والابن يدخل الجنة، وكل إنسان بحرفته، فأبواب الجنة مفتحّة على مصارعها، وكل حركة من حركاتك، وكل سكة من سكاتك، هي باب للجنة، فلا تظن الدين عبارة عن صلاة تؤدى، أو صوم، أو حج، فالدين في كل ثانية، وكل حركة من حركاتك متعلّقة بالدين، فهذا منهج الله عزّ وجل، ولذلك كان هؤلاء المصلّون مستنئين من الهلع و الجزع و شدة الحرص..

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلِسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32))

قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا لا دين لمن لا أمانة له، ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))

الذي ليس له عهد ليس له دين، و الذي ليس له أمانة ليس له إيمان، و الخيانة تنتقض الإيمان ونقض العهد ينقض الدين.

أدّ الأمانة ولا تعباً بأقوال الناس فيك..

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم هذه المعاني إلى سلوك و انضباط، فالإنسان أحياناً يغدو أكبر داعية وهو صامت، وذلك باستقامته و أمانته و صدقه و إخلاصه، والله عزّ وجل هو الحق ولا بدّ من أن يظهر الحق، فأخلص وأدّ الأمانة ولا تعباً للضحيج، أدّ الأمانة بصمت والله عزّ وجل هو الذي يرفع شأنك، و هو الذي يُعلي قدرك، و هو الذي يرفع ذكرك، أدّ الأمانة في كل شيء.. البر لا يفنى، والذنب لا يُنسى والديان لا يموت.. وقد ذكرت هذه النقطة الأخيرة لأنّ الإنسان أحياناً يكون عنده قدرة على عرض إمكاناته بشكل رائع، وهناك إنسان مخلص ويؤدّي الأمانة لكن بصمت، فماذا يظن الناس؟؟ لإنهم يظنون أن هذا الذي يتحدّث عن نفسه ويحيط نفسه بهالة كبيرة هو الفالح، لا.. إن الذي يؤدي الأمانة بإخلاص هو الفالح، والله عزّ وجل يرفع من قدره بطريقة لا نعلمها نحن..

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء)

أدّ الأمانة ولا تعباً بأحد، و تعامل مع الله وحده، والتعامل مع الله وحده أحياناً يجعلك في التعظيم، والتعامل مع أشخاص يجعلك تحت الأضواء، فالعبرة أن يكون الله راضياً عنك، فإذا رضي الله عنك فأنت أسعد الناس، فالإنسان قد يكون معلماً في صف، والدخل قليل جداً، وليس لهذا المعلم شأنٌ إلا أنه اتقى الله في هؤلاء الصغار الذين هم بين يديه وأدى الأمانة، فهذا يعد أسعد الناس، فالمعلم في صفه، والطبيب في عيادته، والمهندس في مكتبه، والمحامي في مكتبه، فإذا كان هناك تاجر صغير، و بضاعته كلها جيدة، لكنه اشترى مائتين بيضة فاكتشف أنهن فاسدات، وبذكائه كلف الصانع أن يبيعهن في الطريق فوراً، وقال له: سريعا، فهذا البيض فاسد، فإن بعته خنت الأمانة.. و أحياناً يكذب الإنسان مائة كذبة من الصبح حتى الظهر، ثم يصلي في الصف الأول ويقول: الله أكبر..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

دقق في عملك.. لا تكذب، لا تدليس، لا توهم، لا تستغل، لا تمكّن، لا تبتز أموال الناس، لا تضيق عليهم، لا تحمّر وجوههم، لا تحتل عليهم، فإذا فعلت هذا من الصبح حتى الظهر صليت الظهر وأنت أبيض الوجه لله عزّ وجل، فأداء الأمانة -أيها الإخوة- واسع جداً، فنفسك أمانة، وزوجتك أمانة، وأولادك أمانة، وبناتك أمانة، وحرثك أمانة، فهذا الذي يغيّر تاريخ نهاية الاستعمال.. يمحوه ويبيع الدواء.. ألم يخن الأمانة؟ وهناك من يتوهم أن الدواء الذي انتهى مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر، لا بل

إنه يضر، فقد ينشأ تفاعل سلبي بالدواء الذي انتهى مفعوله، وقد يؤدي استعماله المريض، وكم آلاف الأبواب التي تعد مزالق للإنسان في حرفته، وهذا الدرس للتطبيق، لا لأخذ العلم، فحينما تؤدي الأمانة في بيتك وفي عملك يرضى الله عنا جميعاً، وأنت لست مكلفاً إلا ببيتك وعملك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

اضمن لي أن تقيم الإسلام في بيتك وفي عملك وأنا أضمن لك كل شيء.. فهذه:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

(سورة النساء: آية " 58 ")

الأمانة في التأليف:

أحياناً يأخذ إنسان فصلاً من كتاب فيجعله مقالة، ويقول: الكاتب فلان، وهذه سرقة وخيانة للأمانة، و تقتضي الأمانة في التأليف أن تعزو كل فكرة إلى صاحبها، الآية واسعة جداً، وهذا شيء يحير، يا ترى هل تدخل في الأدب، أم في التأليف، أم في العلم، أم في الدين، أم في العبادات، أم في المعاملات؟؟ إنها تدخل في كل شيء، فهذه الآية تدور مع المؤمن حيث ما دار، و أينما ذهبت، فحواسك الخمس أمانة، والسيارة المستأجرة أمانة، وكل شيء تفعله أمانة.

الوقت أمانة:

إن الإنسان الذي يعمل موظفاً في محل تجاري إذا أرسله صاحب المحل إلى سفر، فيمكن أن يعمل ساعة والباقي استجمام، إنه لم يؤد الأمانة في هذه الحالة بل خانها، والوقت أمانة، و هذا الوقت ليس لك، وإذا ذهب لكي يصلي فغاب ساعتين، فقال له صاحب المحل: ماذا تفعل ؟ فأجاب أصلي يا سيدي.. الصلاة ربع ساعة، أما ساعتين وثلاثة أرباع، ساعة وثلاثة أرباع.. إنها خيانة الأمانة، أدخل الوقت في هذه الآية إن شئت، و أدخل التربية، وأدخل الحرفة، و أدخل الحواس، و أدخل دينك، و أدخل كل شيء في هذه الآية، وقد قلت في البداية، ما من آية تتسع لأي موضوع كهذه الآية.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المعارج 070 - الدرس (6-6): تفسير الآية 33 إلى آخر سورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

صفات المصلين ومصير الكافرين
أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السادس وقد يكون الأخير من سورة المعارج، ومع الآية الثالثة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

أيها الإخوة... حينما يُحْمَلُ الإنسان الأمانة ينبغي عليه أن يؤدّيها، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

معنى الآية:

إن المعنى المتبادر لهذه الآية هو أن الإنسان إذا دُعي إلى شهادة ينبغي أن يؤديها على وجهها، ولكن هناك معنى آخر عميق فضلاً عن هذا المعنى المتبادر، وهو من أوجه تفسيرات هذه الآية، وهذا المعنى يتحدث عن إنسان قائم يشهد للناس بوحدانية الله ورسالة رسول الله، ويدعو إلى الله مبادرةً، وحينما يكلف حمل الأمانة يؤديها، وحينما يكلف بعملٍ يؤديه على الوجه التام، وحينما يرزقه الله عز وجل أولاداً فإنه يحفظ هذه الأمانة ويأخذ بيدهم إلى الله.

موضوع الدرس الماضي كان حول حمل الأمانة، وتحدثنا عن أنواع الأمانات التي ينبغي أن تؤدّى على وجهها، لكن الآية التي تليها تقول: ما دام الإيمان قد استقرّ في قلوب هؤلاء المؤمنين، فلا بدّ من أن يعبر عن ذاته بذاته، وذلك عن طريق حركة نحو هداية الخلق، فلا تصدّق مؤمناً استقرت حقيقة الإيمان في قلبه ثم يبقى ساكناً ولا يعنيه أمر الناس، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالمُتَّبِع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، وآية سورة العصر تقول:

(وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر: آية " 3 ")

الدعوة إلى الله سمت المؤمن الحق:

هاتان الآيتان تبينان أن أي مؤمن صادق لابدّ له من أن ينطلق لسانه إلى الدعوة إلى الله، و يؤكد هذا المعنى الوارد في الآيتين هذه الآية:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

و يُسْتَأْنَسُ بِالآيَةِ الَّتِي تَقُولُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّبِيَّ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ..

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

(سورة النساء: آية " 41 ")

أي: أنت شهدت لهم بالحقيقة، وأكبر شيء يشغل بال المؤمن الحق هو أن يوضح للناس الحقيقة و طريق الهدى، فلا يسكت، وهناك إخوة كثيرون يفاجئون من خلال تجاربهم في الدعوة إلى الله، قال لي أحدهم في الأسبوع الماضي: إنه طرق على باب جار له قبل الدرس وقال له: أعندك شيء ؟ فقال له: لا، قال: أتذهب معي إلى المسجد ؟ قال لي: شعرت أنه قد أخرجَ لأنني سألته أعندك شيء فقال: لا، قال: لقد ندمت على هذا العرض لكنه خرج معي وجاء إلى المسجد.. وهو الآن لا يغيب عن درس من دروس المسجد، لا في الفجر، ولا في الظهر، ولا في المساء.. فماذا تكلف هذا الأخ ؟ إنها كلمة فقط، فلا تبتس، ولا تسي الظن بالناس، لعل كلمة حانية صادقة و وفيه تنقذ أخاك من الهلاك في الدنيا والآخرة، فلذلك:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

فالمؤمن أينما جلس، وأينما حلَّ، وأينما ذهب لسانه رطبٌ بذكر الله، وهو يُذكر بالله، ويشرح كيف تفضل عليه الله سبحانه وتعالى عليه وهداه..

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَادْكُرُونِي أذكركم)

(سورة البقرة)

اذكروني لعبادي، والذي يذكر الله لعباده يذكره الله عزَّ وجلَّ في مالا خيرٍ منهم، فأنت حينما تتشغل بذكر الله فالله جلَّ جلاله يرفع لك ذكرك من دون أن تدري..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

أيها الإخوة... مُفادنا من هذه الآية أنك إذا شهدت الحقيقة فأشهدها للآخرين لأن الله عزَّ وجلَّ يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

إن علمت حقيقة على وجه اليقين فلا ينبغي أن تقول: لقد هُديت وما لي وللناس ؟ لا ليس هذا موقف المسلم الصادق، إن علمت حقيقة على وجه اليقين، وشهدت أبعادها فينبغي أن تُشهدا للناس..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

لذلك أيها الإخوة.. يُعَدُّ أوفى الناس هم الذين كانوا أوفياء للناس الذين عاشوا معهم في ربح من الزمن، فإذا كان لك أصدقاء أو جيران أو زملاء و أصحاب، فهؤلاء لهم حقُّ عليك، فإن أكرمك الله بالهدى و

قَدَفَ النور في قلبك و شرح الله صدرك للحق، فينبغي ألا تنسى هؤلاء الذين كانوا معك، وكانوا في جوارك، أو كانوا زملاءك، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة))

وأنا أثني -والله -على إخوة كثيرين لم ينسوا أصدقاءهم في الماضي بل حاولوا معهم مراراً وتكراراً محاولات كثيرة وذكىة إلى أن أخذوا بيدهم إلى الهدى، فلا يوجد إنسان ليس له أصحاب، و جيران، و أقرباء، و إخوة، والذي يأتي إلى الحلقة، و إلى مجلس العلم و يتنور قلبه، ويستقيم سلوكه، ويصح إيمانه فينبغي عليه ألا يكون أنانياً.. إن صح التعبير.. فابحث عن هؤلاء الذين كانوا معك، و الذين تحبهم، و عشت معهم رداً من الزمن، اسأل عنهم ما أحوالهم ؟ وما أحوال دينهم ؟ وما أحوال علاقتهم بالله عز وجل ؟ وأين هم من حقائق الدين و منهج الله ؟ هل هم مطبقين أم غير مطبقين ؟ هل تستطيع أن تمدّهم ببعض الحقائق ؟ أن تقنعهم وأن تأخذ بيدهم ؟ أن تؤنسهم وأن تداريهم ؟ أن تبذل شيئاً من دنياك لأخراهم ؟

((استقيموا يُستقم بكم))

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

توجد نقطة دقيقة جداً قالها النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه نقطة مُبَشِّرَة لكم جميعاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((استقيموا يُستقم بكم))

لمجرد تأديتك لحق الله أحياناً، ولمجرد أن تقف موقفاً نبيلاً فإن الآخرين قد يستفيدوا من هذا الموقف فيقِلُّدوك.

حدّثني أخ أجرى عملية جراحية ناجحة جداً، فجاء وليُّ المريض ليُشكره شكراً جزيلاً ومعه محفظة، فلما فُتِحَتْ لِيُقدِّمَ له هذه الهدية فإذا هي زجاجة خمر من النوع الغالي جداً، فقال هذا الطبيب المؤمن: أعذر عن قبولها لأنني لا أشرب الخمر، فقال له: أهدها لمن تحب، فقال له: أعذر عن أن أهديها لأحد لأن هذا ليس من شأني.. وتمضي الأيام.. وبعد ستة أشهر التقى بهذا الذي قدّم له هذه الهدية، قال له: والله لقد أعجبني موقفك، وتبت بعد شهر عن شرب الخمر، والذي حملني على التوبة هذا الموقف الشريف المبدئي منك. فهذا الطبيب لم يفعل شيئاً، و لم يتكلم ولم يدع، ولم يلق خطبة ولا هو أعطى شيء، إلا أنه وقف موقفاً سليماً

((استقيموا يُستقم بكم))

لقد رأيت في الحج إنساناً ألمانياً غريباً، فعلمت أنه أسلم بسبب طالبٍ سوريٍّ أقام في بيته مستأجراً، وصاحب البيت هذا تمنى أن يرى هذا الطالب ينظر إلى ابنته للحظةٍ واحدة، لكن هذا الطالب غضَّ بصره، وفعله هذا حمل إنساناً ليس مسلماً على أن يتبع الإسلام..

((استقيموا يستقم بكم))

قد تكون أكبر داعيةٍ وأنت ساكت، فاستقامتك دعوةٌ إلى الله، وصدقك دعوةٌ إلى الله، ووفائك دعوةٌ إلى الله.

فتح سمرقند:

أذكر أن الجيوش الإسلامية فتحت سمرقند، ويبدو أنها فتحت بخلاف الطريقة الشرعية، فالطريقة الشرعية هي أن يُعرض الإسلام على هؤلاء، فإن رفضوا، تُعرض عليهم الجزية، فإن رفضوا يُقاتلوا، ويبدو أن هذا الجيش قاتل مباشرةً ودخل المدينة واحتلها ورفع راية الإسلام فيها، وبلغ أهل هذه البلدة بعد حين أن الطريقة التي فتحت بها بلدتهم ليست شرعية فأرسلوا وفداً سرياً إلى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، وعرضوا عليه المخالفة الشرعية في فتح بلدتهم، وهذا الخليفة العظيم قد حكم ثلاثين شهراً فقط، وفي هذا العهد الذي حكمت به ديار المسلمين لم يستطع دافع زكاةٍ أن يُعطي درهماً واحداً لفقير، فلم يعد هناك فقراء، فجاءت أموال الزكاة من اليمن وإفريقيا إلى الشام، فلم يوجد أحد يقبل الزكاة، فتحقق وعد الله في عهد هذا الخليفة الراشد، قيل أن هذا الخليفة أمسك ورقة صغيرة..

قصاصة.. وكتب عليها إلى قائد الجيش في سمرقند: أن أخرج من المدينة وأعرض عليهم الإسلام أولاً، ثم الجزية ثانياً، ثم الحرب ثالثاً، فلم يصدق هؤلاء الناس أن جيشاً محتلاً، احتل مدينة وفتحها ورفع راية الإسلام فيها يخرج بقصاصة! لكن هذا الذي حدث، وحينما أعطي قائد الجيش قصاصة الخليفة قبلها وأعطى أمراً بالانسحاب، فما كان من أهالي سمرقند إلا أن أعلنوا إسلامهم وقالوا: ابقوا نحن راضون بكم.. لا تخرجوا..

إخواننا الكرام

((استقيموا يستقم بكم))

وكل واحد منا له حرفة، فكن صادقاً، ولا تكذب، ولا تغش، ولا تحتل، طبق الإسلام، فإن فعلت فأنت داعية بعملك، والناس قد ملوا الكلام يا إخوان، فالكلام لا يقدم ولا يؤخر لأنه ليس له ثمن ولا يكلف شيئاً، وأنت إن أردت أن تدعو إلى الله فطبق الإسلام في بيتك وفي عملك، وأنا أقسم لك -غير حائث- أن أناساً كثيرين سيستفيدون منك، وسيقتدون بك، وستكون سبب طاعتهم وتوبتهم وإنابتهم، بشرط أن تكون أنت مطبقاً

((استقيموا يستقم بكم))

فلذلك قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَانِمُونَ)

فهم إن حُمِّلُوا أمانةً فإنهم يؤدوها حق الأداء، ولكن قد لا توجد عند الإنسان أمانة، فهو غير مشغول فماذا يفعل ؟ إنه يجب أن يبادر إلى الدعوة إلى الله إلى أن يشهد للناس حقيقة التوحيد.. " وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد " .. والتوحيد نهاية العلم، والعبادة نهاية العمل..

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَانِمُونَ)

شهادة الحق:

إنك قد ترى حادث سير وربما يكون السائق مظلوماً، فإذا ذهب وشهدت حقيقة ما جرى أمام القاضي، فإنك تكون قد رسّخت قيم العدل، وإنك قد تتعطل يوماً من أجل ذلك، وقد تنتظر وقد تنزعج لكن هذا في سبيل الله..

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

و لكن بالمقابل:

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

(سورة البقرة: آية " 282 ")

فالشاهد ينبغي أن يأخذ تعويضاً عن عُطْلَتِهِ، فقد تعطل يوماً وعنده أولاد ينبغي أن يطعمهم..

(وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ)

وبالمقابل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

فعدل ساعة يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً، وأحياناً يُحَقُّ الحق بشهادة منصفة، وهناك حوادث سير كثيرة جداً قد يكون أحد الأطراف أقوى من الطرف الآخر، فتضيع معالم القضية، فالرگاب إذا كانوا من المؤمنين الصادقين فإنهم يذهبون ويشهدون، فالسائق يمشي على سرعة بطيئة جداً والطفل هو الذي قَفَرَ أمامه فدهس، والسائق ليس له ذنب، ولكن من يقول هذا الكلام ؟ قد لا يُصَدِّق السائق، فأنت حينما تدلي بشهادة صحيحة فإن هذا من الأعمال الطيبة.

فضلاً عن معنى: أن تشهد للناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، و فضلاً عن أن تشهد لهم بلسانك أو بعملك، بلسانك متكلماً، أو بعملك قدوةً، هناك معنى آخر متبادر وهو أنك إذا دُعيت إلى شهادة فاشهد ولا تقل: ليس عندي وقت.. لأن هذه عبادة و طاعة لله عزَّ وجل.. وأنت حينما تنقذ أحاً لك من ظلم محقق تكون قد فعلت عملاً طيباً.

أذكر أن امرأة أرادت أن تفتري على إنسان يسكن في بيتٍ لها مستأجر، فادّعت أنه فاسد الأخلاق، فلما جاءت القاضي قال لها: أريد شاهداً على ذلك، فقالت: ابنتي، قال: لا إنَّ شهادة البنت لا تكفي وليست مقبولة، قالت: عندنا طالبة جامعية تشهد، قال: أوافق، فلما عرضوا على هذه الطالبة أن تشهد شهادة زور لا أصل لها، قبلت، فلما قبلت أكرموا إكراماً ما بعده إكرام، لأنها إذا شهدت وصدر الحكم بإخلاء المنزل استردوا بيتاً، فبعد شهر جاء وقت المحاكمة واستدعيت هذه الطالبة وسألها القاضي: هل صحيح أن هذا المستأجر فاسد الأخلاق؟.. وهذا المستأجر مؤمن.. قالت له: والله يا سيدي إن لمح امرأة عن بعد مئة متر فإنه يغضُّ بصره عنها.. فهي قبلت أن تشهد كي لا تسمح لأخرى أن تشهد شهادة زور، وهذا عمل طيب، وقد سقطت الدعوة لأنه فيها افتراء يمس أخلاق الإنسان وهي تعلم استقامته وعفته وطهارته، لكن كيد الكائدين أراد تشويه صورته، فإذا دعيت إلى شهادة رأيته بأمر عينك فضيحت وقتك من أجل أن تشهد للحق فلا تتصور أن هذا عمل سهل، بل هذا يُعدُّ عملاً طيباً وعبادةً عاليةً جداً. معنيان..

فصار هناك معنيان.. المعنى الأول:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَانِمُونَ)

أي: يشهدون للناس أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
والمعنى الثاني: هم إذا دُعوا إلى شهادةٍ تنفيذاً لقوله تعالى:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المعارج)

المقصود بالحفاظ على الصلاة هنا ؛ أي: يحافظون على أدائها في وقتها، وعلى إتمام ركوعها، وسجودها، وقعودها، وقراءتها، وخشوعها، وإن أعمق معاني المحافظة على الصلاة هو أن تحافظ على استقامتك فيما بين الصلاتين، وهذا معنى دقيق، فكيف تستطيع أن تُصلي الظهر وأن تقبل على الله ؟ إن ذلك يحصل لك إذا كنت فيما بين الفجر والظهر مستقيماً، غاضاً لبصرك، ضابطاً للسانك، مسجاً وموحداً، مستغفراً وذاكراً لله عزَّ وجل، أما لو تفلت الإنسان من منهج الله فيما بين الصلاتين وجاء لكي يصلي فإن هناك حجاباً بينه وبين الله، وسبب هذا الحجاب هو المخالفات التي ارتكبتها، فمن قبيل المحافظة على الصلاة أن تحافظ على استقامتك فيما بين الصلاتين، فالذي يحافظ على استقامته فيما بين الصلاتين يستطيع أن يؤدي الصلاة إذا دخل وقتها، وذلك كما قال الله عزَّ وجل..

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

يحافظون على أدائها في وقتها، كما يحافظون على ركوعها وسجودها وقراءتها..

جزاء المصلين:

(أَوْلَيْكَ فِي جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ)

(سورة المعارج)

هؤلاء هم المصلون المستثنون من الجزع، ومن المنع والحرص، وهذه النقاط هي نقاط الضعف التي كانت في أصل خلق الإنسان، والتي هي لصالحه، وهذه النقاط تدفعه إلى باب الله، وتدفعه إلى التوبة والطاعة، وهذه النقاط بالذات أحد أسباب توبته وإقباله وسعادته، وهي في ظاهرها نقاط ضعف، وفي حقيقتها نقاط حث على الطاعة وعلى السير في طريق الإيمان، إلا أن المصلين مستثنون من هذه النقاط، فالإنسان بعد أن اتصل بالله ليس جزوعاً، وإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يدك، وإن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، فبعد أن يتصل الإنسان بالله ويرى رحمته وقدرته و محبته ينسى أنه هلوع جزوع منوع..

(إِنْ أَلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

لكن... ليس كل مصلٍ يُصلي كما قلت في الدرس الماضي..

((إنما أتقبل الصلاة لمن تواضع لعظمتي وكفّ شهواته عن محارمي، ولم يصرّ على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم عليّ فأبرّه، أكأله بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثّل الفردوس لا يمس ثمرها ولا يتغيّر حالها))

(إِنْ أَلَّا الْمُصَلِّينَ)

تكلّمنا في درس سابق وسابق عن أن المصلين كلّما أضفت إليهم وصفاً ضاقت الدائرة..

(إِنْ أَلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّومَ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِنْ أَلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ (35))

(سورة المعارج)

قيمة الصلاة:

لذلك كان أول ما يحاسب المرء يوم القيامة عن صلاته، فإن صَحَّتْ أفلح ونجح، وإن لم تصحَّ خاب وخسر، ولا تنسوا أن أركان الإسلام خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، ويمكن لأربعة أركان من هذه الأركان الخمسة أن تسقط، فالشهادة مرة واحدة في العمر، والحج يسقط عن الفقير أو غير المستطيع، والزكاة تسقط عن الفقير، والصيام يسقط عن المريض والمسافر، أما الركن المتكرر الذي لا يسقط بحال فهو الصلاة، " هي سيدة القُرْبَات، و غرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسموات " .. " ولا خير في دين لا صلاة فيه " ..

و.. " الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين " ..

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

(سورة المعارج)

معاني (مهطعين):

معنى مهطعين ؛ أي: مُسرَّعين..

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

قال العلماء عدة معان:

- 1- المعنى الاول: " ما بال هؤلاء يسرعون إليك ويجلسون حوالبك ولا يأترون بما تأمرهم به ؟ " .
 - 2- المعنى الثاني: ما بالهم مسرعين في التكذيب لك ؟
 - 3- المعنى الثالث: ما بالهم يسرعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهنؤا بك ؟
 - 4- المعنى الرابع: ما لهؤلاء مهطعين ؛ أي: معرضين ؟
 - 5- المعنى الخامس: ما لهؤلاء ينظرون إليك نظر التَّعَجُّب ؟
- المعاني كلها متقاربة، فهم يسرعون إلى أن يجلسوا حولك وهم لا يأترون بأمرك.. وهم مهطعين: يسرعون ليكذبوك، و يسرعون ليعبثوا عن عيوبٍ يذكرونها..
- (عزین):

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37))

أي: يجلسون حولك جماعاتٍ جماعات، و يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جلس جلسَ حوله هؤلاء جماعاتٍ جماعات، حلقاً حلقاً.. العزین.. و هي جماعات متفرقة، وأحياناً قد يكون هناك حفلة فتجد أن كل خمسة أو ستة أشخاص يتكلمون وحدهم فإن هؤلاء عزین، أي جماعات متفرقة غير مجتمعة.

ويوجد مأخذ على بعض الإخوة في بعض الدروس أنهم يجلسون عزين، كل واحد في جهة، في أقصى الجامع و أقصى مكان، فالمنظر غير مألوف وغير مقبول وغير شرعي.. قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب

القاصية))

(سنن الترمذي: عن أبو الدرداء)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أسفاره اختار أصحابه في ساعة راحة كل منهم مكاناً ليرتاح فيه، وكانت الأمكنة متفرقة، فلم يرض النبي بهذا التفرق، فاجتماع الجسم له معنى نفسي، فإذا وقفتم في الصلاة متراصي الصفوف فهذا يعني شيئاً آخر غير تراص الصفوف، فهو يعني وحدة الكلمة و التعاون، يقول أحد الصحابة:

((خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَأْنَا حَلَقًا فَقَالَ: مَا لِي أَرَأَكُمْ عَزِينَ ؟ قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ

الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى

وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصُّفُوفِ))

(صحيح مسلم: عجاير بن سمره)

أي الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وهناك إخوان كثيرون يشكون أن صلاة المغرب في هذا المسجد تكون فيها ممتلئة الصفوف باتجاه الطاولة، لكنها فارغة في الطرف الآخر وهذا شيء غير شرعي..
ثمن الجنة:

(يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

(سورة المعارج)

قال: كان المشركون يجتمعون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى كلامه فيكذبونه، ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لدخلناها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منهم، فقال تعالى:

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

والحقيقة أن هؤلاء فيهم سذاجة، فما الميزة التي تكون لك حتى تستحق دخول الجنة ؟ فهناك أشخاص يحملون دكتوراه، وهناك أناس لا يقرؤون ولا يكتبون، فهل هناك ميزة فيما بينهم ؟؟... يقول الله عز وجل:

(كَلَّا)

(سورة المعارج: آية " 39 ")

أي: هؤلاء الذين يحملون بجنة دون أن يدفعوا ثمنها هم أناس ساذجون أغبياء، فهل يمكن لك أن تأخذ جنة عرضها السماوات والأرض بلا ثمن ؟ فإذا كان هناك شخص واحد لم يأخذ شهادة واحدة في

حياته، ثم تقدم بطلب إلى الجامعة يقول فيه: يرجى منحي دكتوراه.. التوقيع فلان، ثم وضعاً طابع وقدمه.. إن هذا يوضع في مستشفى المجانين، فهولا يحمل شهادة الصف السادس، ولا الكفاءة، ولا البكالوريا، ولا الليسانس، فقدّم فوراً طلب رجاء منحه دكتوراه، و ما السبب ؟ هكذا مزاج، فطلب هذا هو نفس طلب هؤلاء لدخول الجنة..

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

والجنة -أيها الإخوة-تحتاج والله إلى جهد كبير، ولن يدخل الجنة إلا إنسان امْتَحِنَ فنجح، والله جلّ جلاله يمتحن كل عباده، فأنت ممتَحَن دائمًا، ممتَحَنٌ فيما أعطاك، وممتَحَنٌ فيما منعك، فإن أُعطيَت المال فأنت ممتحن بالمال، و إن منعت المال فأنت ممتحن بالفقر، و إن أُعطيَت القوة فأنت ممتَحَنٌ بالقوة، و إن كنت مستضعفًا فأنت ممتَحَنٌ بالاستضعاف، و إن أُعطيَت الوسامة فأنت ممتَحَنٌ بالوسامة، و إن لم تكن وسيمًا فأنت ممتَحَنٌ بعدم الوسامة، و إن تزوّجت فأنت ممتَحَنٌ بالزوجة، و إن لم تكن متزوجًا فأنت ممتَحَنٌ بعدم وجود الزوجة، فأنت ممتَحَنٌ دائمًا، و الجنة تحتاج إلى جهد كبير جدًّا. ذكر مرّة أن هناك شابًا توفي والده، و كان الشاب أميًا لا يقرأ ولا يكتب فذهب ليزور قبر أبيه، وتمنى على أحد الصغار أن يقرأ له بعض الآيات، ثم أعطاه مبلغًا لا يُذكر (ليرة)، وكان أقل مبلغ يدفع لقاء ذلك خمس ليرات.. فقرأ هذا القارئ:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31))

(سورة الحاقة)

تألم الابن وقال: ألا يوجد في القرآن غير هذه الآية لكي تقرأها ؟ ثم قال في نفسه: الآن تأتي آية ثانية وتعديل الموقف.. فجاءت الآية:

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)

فأمسكه من رقبته وقال له: أهكذا تقرأ ؟ فقال له: تريد الجنة بليرة !! فهذا عجيب.. أن يطمع الإنسان بالجنة بلا سبب، فقد يكون غير مستقيم، ولا يغض بصره، و لسانه طليق بعورات الناس، و دخله مشبوه، وبيته غير إسلامي ومع ذلك يطلب الجنة، لذلك قالوا: "طلب الجنة من دون عملٍ ذنبٌ من الذنوب". و ادخل الآن إلى محل سجاد فخم، فيريك البائع قطعة فتقول له: أريد أغلى، فيعطيك أغلى،فتقول: أريد أجمل.. أنعم.. ذات لون فلاني.. لها لمعة.. رقيقة.. حرير، فجعلت البائع ينشغل بك ثلاث ساعات، وبعد هذا أعطاك سجادة جيدة جدًّا، فإذا قلت له: هل تأخذ ثمنها ثلاثة ليرات ؟ فماذا يقول لك ؟ من الممكن أن يضربك، فهذا الذي يطمع بدخول الجنة بلا استقامة و لا عمل صالح ولا عبادات و لا انضباط، ولا يوجد شيء مضبوط في حياته ويقول لك: أنا أدخل قبلك الجنة، هذا فيه تحد ساذج غبي، لقد قالوا: لئن دخل هؤلاء الجنة لدخلناها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئًا لنعطين أكثر منهم..

(كَلَّا)

فجاء الجواب، أداة ردع ونفي، لا.. ليس بأمانيكُم ولا بأمانِي أهل الكتاب، من يعمل سوءً يُجز به..
(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
(سورة البقرة)

والمسلمون يقولون: نبينا عليه الصلاة والسلام يشفع لنا، وهم يرتكبون كل المعاصي ويتعلقون تعلقاً ساذجاً بشفاعته، وهذه الشفاعة ليست هي التي أَرادها النبي عله الصلاة والسلام، أما حينما يقول النبي: أمتي أمتي، فيقال له: لا تدري ماذا أحدثوا من بعدك، فيقول: سحقاً سحقاً..
(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يا فاطمة بنت محمد، يا عباس ابن عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))
(وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

من هو أبو لهب، إنه عم النبي، عاش وراه بعينه وسمع كلامه ومع ذلك قال الله تعالى:

(تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

(كَلَّا)

كلا لا يدخلونها..

(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، كما خُلِقَ سائر أجناسهم، فليس لهم فضلٌ يستوجب به دخول الجنة، إنما يستحق الإنسان الجنة بالإيمان والعمل، لا بالأمل والتمني، كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم.
أصل الإنسان:
قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)

فلا يليق بهم التكبر.. مرة رأيت طفلاً في المطار، وكان في وسطه كرة كبيرة، يبدو أن السفر طويل، فخافوا أن يخرج منه شيء يؤذي الرُّكَّاب، فضاغفوا هذه الفوط حتى أصبح وسطه كالكرة، فقلت في نفسي: لو أن هذا الطفل صار شاباً وأخذه الكِبَر والعُجْب، و رأى صورته يوم كان صغيراً، والإنسان

كلما تذكر أصله يتواضع لله عزّ وجل، ونحن جميعاً من أين أتينا ؟ لقد خرجنا من عورةٍ ودخلنا في عورةٍ ثم خرجنا من عورة، من ماءٍ مهين تستحي به إن كان على ثوبك، هذا أصلنا جميعاً، فلم الكبر ؟ إن الإنسان قد يتكبر بسبب، ولكن لا يوجد سبب يملكه الإنسان للتكبر، فمهما كان عظيماً، فحياته متوقفة على نقطة دم تتجمد في أحد شرابين دماغه، يقول لك: خثرة دماغية.. فانتهى.

يُروى -أيها الإخوة - أن مطرف بن عبد الله رأى المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ يتبختر في مطرفٍ له من خز، وجبةٍ من خز.. أي من حرير.. فقال له: يا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ؟ قال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أعرفك، أولئك نطفةٌ مذرة، وأحرك جيفةً قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العُدرة.. أي الغائط.. أي: أنا أعرفك.

الإنسان أوله نطفة وآخره جيفة، وهو في أناقته وعظمته يحمل الغائط في أمعائه، ولو لم يستطع التحكّم لكانت حالته صعبة جداً، ولأصبح مفضوحاً بين الناس، فكل مكانتك من أين تستمدها ؟ من أن هاتين الفتحتين مضبوطتين، و لو كان هناك تفلت لاحتاج الواحد منا للقوط، فعلام يتكبر الإنسان ؟ وعلام يرفع رأسه ؟ وعلام يستعلي على الناس ؟ و كل مكانتك الاجتماعية بهاتين العضلتين اللتين تحكمان الغائط والبول، فأوله نطفةٌ مذرة وآخره جيفةٌ قذرة وفيما بينهما يحمل العُدرة، قال بعضهم:

يا ابن التراب ومأكول التراب غداً

اقصر فإتك مأكول ومشروب

الإنسان أحياناً قد يقف أمام المرأة فيتنيه بشكله، بطوله، بأناقته، بجماله، بلون جلده، بشعره أحياناً، لو تصوّر بعد حين أنه سيوضع في القبر، فلو فُتح القبر بعد شهر أو شهرين لرأى شيئاً لا يُحتمل ؛ دود، بعض الحيوانات، بعض الحشرات، بعض القوارض، هذا هو الإنسان، علام التَّكَبُّر ؟.

(فلما أقسم ربّ المشارق والمغرب إنا لقادرون)

(سورة المعارج)

المشرق جهة والمغرب جهة أخرى، والمشرقين أقصى شروق الشمس في الشتاء، وأقصى شروقها في الصيف، ففي الصيف تشرق الشمس نحو الشمال، فتكون الأشعة عمودية، وفي الشتاء تشرق نحو الجنوب، فتصبح جنوب شرق، فتدخل إلى البيوت، والغرب كذلك، وإذا كان للإنسان بيت على البحر أو على مكان ممتد، فهو يلحظ هذا واضحاً، فشروق الشمس في الصيف نحو الشمال، وقد تمتد المسافة على الأفق، والمسافة طويلة جداً بين شروقها في الصيف وشروقها في الشتاء، إذ: قرب المشرق جهة المشرق، و رب المشرقين هو النهاية العليا والدنيا، و رب المشارق: كل يوم هناك مشرق، فلو قسمت المسافة على مائة وثمانين تجد أن الشمس في كل يوم تشرق من مكان جديد، فقد ورد أن الله تعالى: رب المشرق، ورب المشرقين، ورب المشارق.

لا قلق على دين الله:

(فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ)

إخواننا الكرام... هناك حقيقة خطيرة جداً أقولها لكم: لا تقلقوا على دين الله، فالله هو يتولى حفظ دينه، وهو يتولى نصره و يتولى دَعْمَهُ، ولكن اقلقوا: هل يسمح الله لكم أن تدافعوا عنه أو لا يسمح لكم ؟
(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

المشكلة: لا تقلق على دين الله، بل اقلق هل سُمِحَ لك أم نُحِيتَ جانباً ؟ إن كنت أهلاً للحفاظ على هذا الدين باستقامتك، وعلمك، وإخلاصك، وسلوكك، فمعنى ذلك أن الله قبلك، وإن لم تكن أهلاً نحاك جانباً واستبدل بك آخرين ليسوا أمثالك.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

(سورة محمد)

(فُذِّرْهُمْ)

(سورة المعارج: آية " 42 ")

هذا تهديد..

(فُذِّرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والله أيها الإخوة سيأتي على هؤلاء الشاردين، العصاة، المنحرفين، الفجار، الذين أكلوا أموال الناس بالباطل، الذين فعلوا ما فعلوا، سيأتي عليهم زمان ينسون فيه الحليب الذي رضعوه من أمهاتهم.

(فُذِّرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (43))

(سورة المعارج)

فكما كان هؤلاء في الدنيا يستيقظون مع طلوع الشمس فيذهبون إلى عبادة الصنم، أو يخرجون إلى شيء مهم جداً، فقال: هؤلاء غداً حينما يأتيهم يومهم الموعود..

(يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ)

(سورة المعارج)

ذليلة، خاضعة، لا يرفعونها خوفاً من الله عز وجل.

(تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

هذا مصير المنحرف والعاصي.

مصير الكافرين:
تقول الآيات الأخيرة..

(فُذِرْهُمْ)

تهديد.. يخوضون في الدنيا ويمرحون، ويلعبون، ويسافرون، ويتاجرون، ويقيمون الملاهي، ويفعلون الموبقات، والمعاصي، والآثام، ويتبجحون، ويستعلون، ويستعلون..

(فُذِرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً

كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ)

أي إلى صنم نُصِبَ أمامهم يعبدونه من دون الله..

(يُوفِضُونَ)

أي يسرعون.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ)

خوفاً من الله، لا خوف الطاعة، بل خوف الذل..

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

وكل واحد منا -أيها الإخوة -لا يدخل هذا اليوم في حساباته اليومية فهو أحمق وغبي فابذ من يوم نقف جميعاً بين يدي الله عز وجل للعرض علينا أعمالنا صغيرها وكبيرها بكل تفاصيلها و ملابساتها وبواعثها و أهدافها، تعرض علينا هذه الأعمال، وهنيئاً لمن كان عمله طيباً..

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةَ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةَ (20) فَهُوَ

فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةَ (25) وَلَمْ أَدْر مَا

حِسَابِيَّةَ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةَ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةَ (29) خُدُوهُ

فَعْلُوهُ (30))

(سورة الحاقة)

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة المعارج)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-4

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الغاية من إرسال الرسول

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

إن الله جلّ جلاله يتحدث عن ذاته العلية تارة بضمير المفرد وتارة بضمير الجمع، قال بعض العلماء:

إن تحدث عن أفعاله كان الحديث بضمير الجمع، وإن تحدث عن ذاته كان الحديث بضمير المفرد..

(أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: آية " 14 ")

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49))

(سورة القمر)

أفعال الله جلّ جلاله تدخل فيها أسماؤه الحسنى كلها، و إن كل أفعاله رحمة، وحكمة، وعدل، ولطف، وعلم، وقوة، ورأفة، و أسماؤه الحسنى كلها متمثلة في أفعاله، وهذا أول شيء أود ذكره.

إرسال الرسل من رحمة الله:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

(سورة نوح: آية " 1 ")

فلو كان توتر التيار الكهربائي في بيتك (مائة وعشرة)، ثم بُدِّل إلى مائتين وعشرين، وأبلغتك المؤسسة أن هذا التيار خطر، فلو كان هناك إنسان يمشي على أرض فيها ماء ولمسَتْ يده التيار فقد يموت، فهل هناك أبٌّ على وجه الأرض يبقى ساكتاً، أم أنه سيحذّر أولاده زوجته و يبين لهم ذلك ؟ إن من لوازم

رحمة الأب أن يبين لأهله الأخطار المحدقة بهم، وهذا حد أدنى، و ربنا عز وجل ذو الرحمة، و من لوازم رحمته جل جلاله أن يبين لعباده دائماً، وذلك من لدن آدم إلى يوم القيامة.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

(سورة الرعد)

لكل قوم هاد على مدى الدوران، فسيدنا نوح أرسل إلى قومه.. أي:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا)

إن إرسال الرسل دليل رحمة الله عز وجل، فالتيار مائتين وعشرين تيار خطر، وقد يؤدي الأولاد، فالأب يبين، فإذا كان جالساً و اقترب أحد أولاده من مأخذ الكهرباء ووضع يده على هذا المأخذ فماذا يفعل الأب ؟ إنه يقوم ويصرخ ويأخذه ويبعده، فهذا المثل.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل: آية " 60 ")

وربنا عز وجل يبين ويربي، يبين تارة ويربي تارة أخرى، فإذا كان هناك حركة نحو المعصية فإن ربنا عز وجل يؤدي وينهر ويردع ويخوف، وإذا لم يكن هناك حركة نحو المعصية فهناك بيان، فمن لوازم رحمة الله جل جلاله أولاً أنه يُرسل إلى كل خلقه، وهو يرسل الأنبياء تارة، والمرسلين تارة أخرى، ومعهم الكتب والمعجزات، ويسخر العلماء، والدعاة، والخطباء، والمدرسين، كما يُنذر بأفعاله، و يحذر من خلال أنبيائه، فإرسال الأنبياء أحد مظاهر رحمة الله جل جلاله.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

ماذا يعني الإنذار ؟

الإنذار يعني أن هناك خطراً متوقعاً، (احذر هذا الخطر)، فربنا عز وجل حينما ينذرنا فهو ينذرنا من خطر متوقع، قال تعالى:

(اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20))

(سورة الحديد)

أي: أنت أيها الإنسان لست كهذه الورقة التي تخضر، ثم تصفر، ثم تيبس، ثم تذروها الرياح، أنت مكلف ومن لوازم التكليف المسؤولية، فلو أن هناك شاباً لا ينتمي إلى أي مدرسة، وأمضى وقتاً في النوم أو في التزهات، فهو لا شيء عليه، أما طالب العلم فعنده امتحانات و رسوب و نجاح و مسؤولية،

والإنسان قد اختار حمل الأمانة، وهو مكلف ومعه منهج، و الله عز وجل سيسأله، فإن سمت نفسه على شهوته كان فوق الملائكة، لذلك كان هناك إنذار، فالإنسان من دون تكليف وأمر ونهي وأمانة يحملها لا يوجد عليه شيء، فلا يكون مؤاخذاً، لكنه حمل الأمانة، وكلفه الله بتزكية نفسه، وأعطاه وعداً بمغادرة الدنيا ووقتاً آخر للحساب والعذاب، فالإنسان يجب أن يُنذَر..

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

هناك آية أخرى يقول الله عز وجل:

(أُولَٰئِكَ نَعَمَّرُهُمْ مَا يَنْذِرُ فِيهِمْ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37))

(سورة فاطر)

ما النذير ؟

النبي هو النذير، و الرسول هو النذير، والقرآن هو النذير، والكتاب السماوي هو النذير، وذا بلغ الإنسان سن الأربعين ومال الميزان فهذه السن تُعدُّ أيضاً هي النذير، وإذا بلغ الستين فقد صار بينه وبين مغادرة الدنيا قاب قوسين، وهذه السن تُعدُّ من النذير، وإذا أصابته مصيبة فهي تُعدُّ من النذير، وقد قال لي أحد الإخوة الكرام اليوم عقب خطبة الجمعة أن سبعين بالمائة من الناس عندهم آلام مفاصل بعد سن الستين، فقلت له بطريقة: كأن هذه الآلام التي يصاب بها الإنسان تذكرة من الله، فيحنى ظهره، و يشيب شعره، و يضعف بصره، و يغيّر أسنانه، فكان هذه المظاهر والآلام الجديدة تذكرة لطيفة من الله: أن يا عبدي قد اقترب اللقاء بيننا، فهل أنت مستعدُّ لهذا اللقاء ؟.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، وضعف بصرك، فاستحي مني فأنا أستحي

منك))

فالنذير ؛ أولاً هم الأنبياء، فالنذر هم المرسلون، والكتب السماوية، و القرآن، وأي كتاب نزل على رسولٍ كان قد أرسله الله لقومه نذير، والمصائب نذير، وموت الأقارب نذير، فكم من إنسان كان ملء السمع والبصر ثم يغادر الدنيا بلحظة واحدة، و يصبح خبيراً و حديثاً، أين هو ؟ تحت أطباق الثرى، فالموت نذير، والمرض نذير، وموت الأقارب نذير، و الشيبُ نذير، و سن الستين نذير، والأربعون نذير، والكُتُب نذير، والأنبياء نُذَر، والمرسلون نُذَر.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ)

(سورة نوح: آية " 1 ")

إذا رأيت لوحة تشير إلى خطر أمامك في تحويلة، ألا تحس أن هذا الذي وضع هذه اللوحة رحيم ؟ إنك قد تسير في طريق السفر بسرعة كبيرة جداً، ولولا هذه اللوحة لتفاجأت ووقعت في حادث، فتوضع لك قبل ألف متر لوحة كبيرة، وقد تكون مُضاعة أو تكون ذات إشعاع: أن هناك تحويلة انتبه، لقد كنت مرة في بلد، وقد وضعت في أحد طرقاتها قبل ثلاثة آلاف متر لوحة وقد كانت تقريباً مترين بمترين، فوسفورية، ومكتوب عليها عبارة: (هناك مطب انتبه)، لقد وضع هذا قبل ألفين أو ألف أو خمسمائة، فكلها لوحات كبيرة ومضاعة، فالإنسان ينتبه عندئذ، فقلت: هذه رحمة بالإنسان.

ومرة رأيت جسراً يوجد عليه أجراس، فلم أعرف لماذا ؟ ثم تبين أن هذا الجسر قد أقيم قبل جسر حقيقي، فالذي معه حمولة عالية يسمع صوت الأجراس.. انتبه، الجسر القادم لن تستطيع أن تمر من تحته، لسوف تفسد هذه الحمولة.. وهذه إنذارات، فالإنذار شيء ينطلق من رحمة و حرص.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

فربنا عز وجل يبين و يُنذر الإنسان إذا تحرك حركة خاطئة.

(إِنْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1))

(سورة نوح)

إن لم تؤمن بالله فلن تستقيم على أمره:

والشيء الذي يلفت النظر هو أن أركان الإيمان خمسة: " أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبى " وإن أكثر ركنين مترافقين في كتاب الله هما الإيمان بالله واليوم الآخر، لأنك إن لم تؤمن باليوم الآخر فلن تستقيم على أمر الله، لذلك كانت كل الدعوات إلى الله تركز على الإيمان باليوم الآخر.. والشيء الذي لا يصدق أن هناك من الناس من يرتكب المعاصي والآثام، ويأكل المال الحرام، ويكيد للآخرين، وكأن الله لن يسأله، ولن يحاسبه، وكأنه متفقت من عذاب الله، ومعنى ذلك أن إيمانه باليوم الآخر ضعيف..

وأحياناً إذا كان هناك إنسان يؤمن بقوة إنسان آخر، ويعلم أن هذا الشخص له عقابٌ أليم ولن يعفو عنه، فإنك تجده ينضبط.. فلو آمنت بإنسان قوي من بني جلدتك يحاسب حساباً عسيراً فإنك تستقيم على أمره، فكيف إذا آمنت بالله، وأن هناك يوماً آخر ؟ فإذا ذهبت إلى ما في حياتنا من مشكلات، ومن دعاوى كيدية، و اغتصاب أموال، و أكل مال حرام، فإنك تشعر أن هذا الإنسان الذي يعصي الله لن يحاسب و لن يموت، وكأن الله عز وجل لن يسأله، مع أن الله عز وجل يقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

العبث يتناقض مع وجود الله:

أيها الإخوة الأكارم... إن العبثية تتناقض مع وجود الله، و العبث يعني أن الكون خُلِقَ بلا هدف، والله عز وجل ينكر هذا المعنى، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

فينبغي أن تنفي فكرة العبث، فهناك حسابٌ دقيق، لكن الإنسان يؤمن بعقله باليوم الآخر، لكنه يرى بعينه بيوتاً ومركبات، ونساء كاسيات عاريات، ومطاعم فخمة، فالإنسان يجب أن يعرف الأمور بعقله، أما الحيوان فهو يعرف الأمور بعينه، وهناك من يرى بعينه الشهوات وينغمس فيها ويبعد عقله عن إدراك الخطر البعيد.. و أوضح مثل هذا المدخن، وضرر التدخين شيء مفروغ منه، فمن الحقائق القطعية أن هذا الدخان ينتهي بصاحبه إلى أمراض بالقلب والشرابيين، أو بالأورام في الرئتين، أو في الأوعية، فلماذا يفعل هذا ؟ لأنه يعيش لحظته، ولم يفكر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزنٌ بربوة، وإن عمل النار سهلٌ بسهولة))

شخص يركب دراجة فوجد في الطريق منحدرًا شديد الانحدار، و راكب الدراجة يرتاح طبعاً لهذا الطريق، أما لو علم أن في نهاية المطاف حفرةً سحيقةً مالها من قرار، فيها وحوشٌ مفترسة فإنه قد يترك هذا الطريق المريح، ويصعد طريقاً متعباً ينتهي بقصر منيف.

(("إن عمل النار سهلٌ بسهولة، وإن عمل الجنة حزنٌ بربوة"))

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1))

(سورة نوح)

الكيس من دان نفسه:

أيها الإخوة الكرام... المشكلة هنا أن المؤمن يعيش المستقبل، وغير المؤمن يعيش الحاضر، كنت أروي قصة موجودة في بعض كتب الأدب، وهي قصة رمزية تقول أن صيادين مرا على غدير، فرأيا في هذا الغدير ثلاث سمكات كيسه و أكيس منها عاجزة، فتواعدة أن يرجعا ومعهما شباكهما ليصيда ما فيه من السمك فسمع السمكات قولهما، فأما أكيسهن فارتابت وتخوفت وقالت: العاقل يحاطل للأمور قبل

وقوعها، فخرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير فنجبت.. وهذه أعقل واحدة.. وأما الكيسة.. الأقل عقلاً.. فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، فذهبت لتخرج من حيث خرجت صديقتها فإذا بالمكان قد سُد، فقالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم أنها تماوتت فطفت على وجه الماء، فأمسكها الصياد ووضعها على الأرض بين النهر والغدير فنجبت، فوثبت في النهر فنجبت، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت، ومعنى ذلك أن هناك إنسان كَيِّس، وإنسان أكيس، وإنسان عاجز، والكَيِّس يحتاط للأمور قبول وقوعها، والأقل عقل يحتاط عند وقوعها، والعاجز لا يحتاط قبل وقوع الأمور ولا بعد وقوعها ولا أثناء وقوعها، تراه (يحوصل)، فلم تزل هذه السمكة في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت، فماذا قال النبي الكريم؟

((الكَيِّسُ من دان نفسه))

فقد ضبط دخله، وإنفاقه، وعينه، ولسانه، وسمعه، ويده، ورجله، و ضبط أعضاؤه، وحواسه و بيته و عمله.

((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله

(الأمانى))

فأكاد أقول لكم: إن الكافر يعيش بحواسه لحظته الحاضرة، والمؤمن يعيش بعقله المستقبل، وهذا هو الفرق، فبالعقل يصل الإنسان إلى الشيء قبل أن تصل إليه.. شخص كان يركب مركبة، فلو أنه ألقى نظرةً على مؤشر الوقود ورآه قُبَيْلَ الأخير، فإنه يملأ وقود المستودع في أول محطة، أما لو لم ينظر إطلاقاً فمتى سيعلم بانتهاء الوقود ؟ حينما ينتهي هذا الوقود، وهناك أمكنة لا يوجد فيها محطة وقود، فإذا تعاملت مع الحواس علمت أن المركبة تسير إلى أن تقف، لكنها تقف في مكان غير مناسب، فقد يقف ساعتين أو ثلاثة، و لكن يجب عليك أن تلقي نظرةً على مؤشر الوقود وتفكر قائلاً: بقي خمسين كيلو، ثم تفكر في محطة وقود.. لذلك أقول مرة ثانية: المؤمن يتعامل مع المستقبل بعقله، والكافر و غير المؤمن يتعاملان مع الحاضر بحواسهما، وهناك شهوات، فأى شيء يلبي هذه الشهوات يفعلها غير المؤمن دون تفكير أو حساب أو مسؤولية أو وجل أو خوف، فما دام هناك شهوات مودعة فيه، فإنه يلبيها بحيوانيةٍ عجيبة.. إذا:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

مُبِينٌ (2))

مبين: معه أدلة، فهو ينطق بلسانهم، بلغتهم.

ليخاطبهم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

(سورة إبراهيم: آية " 4 ")

إما بلغتهم التي يعرفونها، أو بالأشياء التي تفوقوا بها، فقد كان هناك قوم تفوق في السحر، فإذا بسيدنا موسى يأتي بعصاة فتصبح ثعباناً مبيناً، كما كان هناك قوم تفوقوا في الطب فأتى سيدنا عيسى وأحى الموتى، وقد تفوق القوم في اللغة والبلاغة فأتى النبي الكريم بقرآن مُعْجَز، فلذلك كان الأنبياء يأتون ببيان و أدلة وأسلوب واضح وعلامات نيرة وبيان معجز.

(إِيَّيْكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

مرة حدثني أخ أنه كان له جار مسرف على نفسه في المعاصي، فنصحه مرة واثنين وثلاثة وأربعة، ونبهه قائلاً: الموت قريب، وأنت لا تصلي، وترتكب المعاصي والآثام، وتشرب، فما كان ينتبه إطلاقاً إلى أن توفي، فرآه بعض الجيران في المنام يرتدي ثياباً بالية مُمَرَّقة، ويصيح من شدة الألم ويقول: فلان نصحني ولم أنتصح، يا ليتني قبلت نصيحتك.. فأحياناً تأتيك نصيحة من إنسان فلا تراها، ولكن يجب عليك أن تراها من الواحد الديان، فإله سخر لك هذا الإنسان لكي ينصحك، فهناك إنسان تتأبى نفسه قبول النصيحة، وهذا كبير.

وهناك فكرة دقيقة جداً، إن الإنسان أحياناً لا يحب أن يستجيب لداعية، ويقول لك: هو أصغر مني، وأنا أكبر منه، وأنا معي شهادة أعلى منه و لي مكانة اجتماعية أعلى منه، فلماذا ترى أن هذا الأمر منه ؟ إنه ينقل لك أمر الله عز وجل، فهو ناقل أمين، وهذا ليس أمره، بل أمر الله، وهذا النهي ليس نهيه بل نهى رسول الله، فأنت لا تنظر إلى الشخص بل انظر إلى ماذا يقول، إنه يعطيك أمر ونهي، فأحياناً الإنسان يكون ركباً مركبة، ويكون له زميل له بمركبة أخرى، فيعطيه تحذير عن طريق الضوء، فيأخذ بهذا التحذير، ولو كان هذا الذي حذرته عدواً له، فإنه يأخذ بهذا التحذير، فالإنسان يجب أن يقف موقفاً متعقلاً من هذه القضايا الكبرى في حياة الإنسان.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِيَّيْكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2))

أي: إنني نذير أحذركم من عذاب يوم أليم لكن السؤال: إنه نذير مبين ينذرهم ولكن.. من ماذا ؟ عندنا قاعدة في اللغة تقول أن الشيء إذا حُذِفَ أُطْلِقَ، ولم يذكر الله عز وجل: ينذرهم من ماذا ؟ ينذرهم من عذاب في الدنيا، ينذرهم من عذاب في القبر، ينذرهم من عذاب في الآخرة، ينذرهم من تأديب إلهي، من تضيق، من مشكلة، فإله عز وجل رحيم، فإما أن تأتيه طائعا مستسلماً تائباً، وإما أن يحملك على أن

تأتيه سريعاً أو أن يحيطك بمصائب.. لا سمح الله ولا قَدَّر.. تدفعك إلى الوقوف على بابهِ، فلو أنك أتيت الله طائعاً من دون مصيبة فهذا موقفٌ شريفٌ جداً، فهناك نقطة دقيقة، لو أن الله أرادنا أن نعبده خوفاً و يجبرنا على طاعته، لكانت القضية سهلة جداً.. ف لو أراد رئيس جامعةٍ مثلاً أن ينجح كل الطلاب لكانت القضية سهلة بالنسبة له، إنه سيوزع أوراق الأسئلة مطبوعٌ عليها الإجابة الصحيحة الكاملة، واكتب اسمك ورقمك فقط، ويحصل الطلاب على العلامة النهائية، مطبوع عليها بالأحمر علامة مائة بالمائة، هذه سهلة، لكن هذا ليس امتحاناً، وهذا الامتحان لا يُسعدُ الناجحين فيه، ولا قيمة له عند المجتمع، ولا عند الناجح، ولا عند الجامعة، لأنه قسر.. لكن الله عزَّ وجل أرادنا أن نأتيه مُحِبِّين، فكلمة: عبد قد تعني عبد قهر، وعبد القهر يجمع على عبيد، وقد تعني عبد شكر، وعبد الشكر يُجمَع على عباد، فكل إنسان مقهور في وجوده إلى الله، فلو توقّف قلبه انتهت حياته، ولو تجمّدت نقطة دم في دماغه انتهت حياته، وإذا جاءت سكتة دماغية أو سكتة قلبية انتهت حياته كذلك، وقد ذكرت اليوم على منبر أن الإنسان قد يشرب عبّاً، فهناك عصب اسمه العصب الحائر، والعصب المبهم.. له اسمان.. وهذا العصب بين المعدة والقلب، فإذا جاء تأثير شديد جداً على هذا العصب، ربّما أمر القلب أن يَكفَّ عن النبض، وفي كثير من الحالات يموت الإنسان موتاً مفاجئاً من شربة ماءٍ عبّاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((مُصُوا الْمَاءَ مَصّاً وَلَا تَعْبُوهُ عَبّاً، فَإِنَّ الْكِبَادَ مِنَ الْعَبِّ))

فالمعدة حارة، وتأتي بلتر ماء، فتلقيه في جوفك مباشرةً وفوراً، وبشكل مفاجئ، و هذا يعطي تأثيراً قاسياً، فربما كف القلب عن النبض، لذلك:

((قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2)))

عبادة الله:

نذير مبين.. فالإنسان أحياناً يدرك الحقيقة فيلتزم، و كل واحد منا مقهور بوجوده إلى الله عزَّ وجل، فلو توقّف قلبه مات، ولو تعطل دماغه مات، فهناك موت دماغ و موت قلب، ونحن نظن موت القلب هو الموت، ولكن الحقيقة موت الدماغ هو الموت، فنحن مقهورون، أما الذي عرف الله واستقام على أمره وتقرّب إليه فهو عبد الشكر، قال تعالى:

((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)))

(سورة الفرقان)

قال تعالى:

((وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

العبيد غير العباد، فإذا كنت تعرف الله عزّ وجل وتحبه وتتقرّب إليه فأنت من عباد الرحمن، أما إذا كان الإنسان غارقاً في شهواته فهو من عبيد الشيطان.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3))

(سورة نوح)

اعبدوا الله.. فطالب في المدرسة هوّيته في المجتمع هي: طالب، وهو عند والده ووالدته وإخوته وأقربائه وأصدقائه طالب، كما أنه في الحي طالب، ومادام طالباً فما مهمته الأولى في حياته ؟ إنها الدراسة فقط، وأنت عبدُ الله فما مهمتك الأولى في الحياة ؟ أن تعبد.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

المهمة الأولى أن تعبد، والعبادة علة وجودك على وجه الأرض، فأنت هنا من أجل أن تعبد، فإذا قال أحدهم: ليس عندي وقت أن أستمع لدرس علم، أو ليس عندي وقت أن أصلي، فهل تعلمون ماذا يشبه هذا ؟ إنه يشبه إنساناً أخذ شهادة علياً في الطب، واشترى عيادة وأجهزة معقدة جداً كلها بالدين، ويحمل أعلى شهادة، وجاءه مريض بحسب المواعيد التي رسمها.. من الساعة الخامسة إلى السابعة.. فقال: أنا مشغول الآن ولست (فاض)، فإلى ماذا أنت (فاض) إذا ؟ لقد أخذت دكتوراه في ثلاثة وثلاثين سنة، واشتريت عيادة بالدين وهي بمليونين، وأجهزتها بمليون، وجاءك أناس بالوقت الذي أنت خصصته، فقلت: لست (فاض)، إن هذا مجنون، فإذا قال لك الإنسان: أنا ما عندي وقت أصلي، أو ما عندي وقت لأطلب العلم، أو ما عندي وقت لأحضر مجلس علم، أو ما عندي وقت أفهم كتاب الله، أو ما عندي وقت أفهم سنة رسول الله، أو ما عندي وقت لأعرف أحكام الفقه، نقول لك: أنت موجود على وجه الأرض من أجل أن تعبد، ولن تستطيع أن تعبد إلا إذا عرفت، فإذا عرفت أطقته، وإن أطقته سعت بقربه، فلا توجد كلمة أشعر أنها تنطلق من غياب أو من سوء فهم أو من عمى، كقول أحدهم: أنا ليس عندي وقت لأطلب العلم، إن علة وجودك هي أن تعلم..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: آية " 12 ")

لام التعليل، أنا جئت إلى المدرسة لأتعلم..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ)

طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، وتفضي إلى سعادة أبدية، وفي العبادة ثلاث كليات ؛ كلية معرفية، وكلية سلوكية، وكلية جمالية، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، فالذي يعبد الله هو على شيء من العلم، فمن مستحيل أن تعبد على جهل، كيف تعبد ؟ والذي يعبد الله على شيء من خلق مستقيم فهو لا يكذب، ولا يغتاب، ولا يتكبر، ولا يجحد، والذي يعبد الله على شيء من السعادة، فهناك علم، و انضباط، و سعادة، وهذه هي العبادة، فيها جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي.

(أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

أي: اتقوا عذابه، فإن لم تعبدوه فهناك عذاب ينتظركم، فأنت إما أن تعبده لأنك تحبه، وإما أن تفكر أنه ينبغي ألا تقع تحت وطأة عذابه.

(أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

ولن تستطيعوا أن تتقوا الله عزّ وجل إلا إذا اتبعتم سنة رسوله.

(وَأَطِيعُوا)

لذلك لم يقبل ربنا عزّ وجل من إنسان دعوى محبته إلا بطاعة رسوله.. قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

(أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)

محبوبية.

(وَاتَّقُوهُ)

خوفاً..

طاعة الله عين طاعة رسول الله:

(وَأَطِيعُوا)

وهذه وسيلة.. فبطاعة رسول الله تصل إلى محبة الله عزّ وجل.. قال تعالى: (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) قالوا: عين إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، و عين إرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، فالأمر واحد، فالحقيقة النبوية تقريباً كلوح من بلور الشفاف الذي يشفّ عما وراءه، فليس هناك وجود لذات النبي، فإنه يعبر عن حقيقة هذا الدين، و يعبر عن ذات الله عزّ وجل، فإذا أطعت رسول الله وصلت بطاعته إلى الله.

(أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة نوح)

أما هذه الـ:(من) فينطوي فيها معنى خطير ؛ أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، و (من) للتبعيض، فأية ذنوب تقصد هنا ؟؟ قال: الذنوب التي بينكم وبين الله، أما التي بينكم وبين العباد فلا تغفر إلا بحالتين ؛ بالأداء، أو المسامحة، لأن حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، لأما حقوق العباد فهي مبنية على المشاحة.

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

الأجل لا يؤخر:

من أجمل معاني هذه الآية أن الأجل لا يتأخر، فالأجل أجل، وما معنى يؤخركم ؟ أي يمنعكم بصحتكم إلى يوم أجليكم، فمن الممكن أن يعيش إنسان ثلاثين سنة صحيحاً، وثلاثين أخرى بالفراش، وثلاثين مشلولاً، كما أنه من الممكن أن يعيش أربعين أو عشرين صحيحاً، وحينما تعبدوا الله وتتقوه وتطيعوا رسوله، فإنه:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

التي بينكم وبينه..

نهاية مشرقة لبداية محرقة:

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتنعكم بصحتكم وقوتكم، وعقلكم، وسمعكم، وبصركم إلى يوم موتكم، تأخر، أي جعلك نشيط وحركة طوال هذا العمر، وهناك رجل سمعت قصته وقد تواتر عنه هذا الخبر: عاش ستاً وتسعين سنة، لكن قامته ظلت منتصبه، كما أن بصره حاد، و سمعه مرهف، و أسنانه بقمه، و لم يستخدم نظارة، و حينما يسأل يقال له: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، فمن عاش تقياً عاش قوياً.

لقد زرت مرة والد أحد أصدقائي، فقال لي بالضبط: (لقد عملت تحليل البارحة و طلع كله جيد)، وعمره ست وتسعون سنة، وليس لديه مشكلة في التحليل، لا بالكولسترول، ولا بالأسيد أوريك، ولا بالشحوم الثلاثية، ولا بحمض البول، ولا بالسكر، لكنه مرة قال لي: والله يا أستاذ لا أعرف أنني أكلت

قرشاً حراماً في حياتي، ولا أعرف الحرام الذي يعرفه الناس إطلاقاً، لا أعرف الحرام ولا الدرهم الحرام، (حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر).

إخواننا الكرام... الناس يتشابهون في ربيع العمر.. فكلهم شباب.. أما في خريف العمر فهم يتميزون، فربيع العمر يحدد خريف العمر، وإذا كان ربيع العمر في طاعة الله فإنه يحدد خريف العمر في تألق وبهاء، أما إذا كان في ربيع العمر انحراف وخطأ، فلا بد أن يكون في الخريف مشكلات..

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتّعك بمكانتك، فأحياناً هناك الإنسان يَخْرَفُ، قال لي أخ: إننا نقوم بربط والدتي على ديوان، فنربط يديها فوق رأسها إلى طرف السرير، ورجليها إلى الطرف الآخر ؟ قلت له لماذا ؟ قال لي: لأنها تأكل غائطها وتخلع كل ثيابها.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)

(سورة الحج: آية " 5 ")

فإنسان إذا حفظ الله في الصغر حفظ الله عليه صحته وعقله ومكانته، والله لقد زرت إنساناً في بلدة في الشمال وقد دعا إلى الله بإخلاص، وعمره خمس وتسعون سنة، والله ما رأيت ملكاً في عرشه كما رأيت هذا العالم.. لأنه حفظ الله في الصغر ؛ فهو في مكانة، وله شخصية و منطق و أدب و محبة، وهو مخدوم محفوظ محسود، و كل الناس أمامه، فمن كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.. و من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة..

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4))

فالأجل لا يؤخر، أما:

(وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

أي: يمتّعكم بصحتكم طوال عمركم، وقد زرت شخصاً يعمل في الحقل الديني و عمره خمس وثمانون سنة، فقلنا له: كيف الصحة ؟ قال: "الحمد لله، والله على هوى سني صحتي ممتازة " فحركته نشيطة، وهو بكامل الحواس الخمس، وبكامل إدراكه، ويعمل في الإفتاء، قال لي: الحمد لله. وكلما رأيت إنسان بسن متقدمة وصحة طيبة، أقول: سبحان الله، شيء جميل جداً أن الإنسان يكون له بداية محرقة فتكون له هذه النهاية مشرقة.

(إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4))

لا يؤخر، لكنك قد تستمتع بهذه الحياة وأنت في صحة طيبة، و في درس قادم إن شاء الله تنتقل إلى قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7))

(سورة نوح)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 5-14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-09-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الله

أيها الإخوة الكرام.. مع الدرس الثاني من سورة نوح، ومع الآية الكريمة الخامسة وهي قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

(سورة: نوح)

الدعوة إلى الله مهمة كل مؤمن:

أيها الإخوة الكرام... إن الأنبياء والرسل مكلفون بالدعوة إلى الله، وقد أعطاهم الله المعجزات، فمهمتهم الأولى الدعوة إلى الله:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (46))

(سورة: الأحزاب)

ولكن الأنبياء دعاة إلى الله، وقد أعطوا المعجزات، وأمرُوا أن يتحدثوا بها أقوامهم، ولكن ما حال المؤمن في الدعوة إلى الله؟.. إنه كلامٌ دقيقٌ جداً.. سأضع بين أيديكم الآيات وأنتم تكشفون الحقيقة بأنفسكم، قال تعالى:

(وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِنَّا الْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة: الصبر)

إن الإنسان -أي إنسان- خاسرٌ خسارةً محققة لا محالة، ولا ينجو من هذه الخسارة إلا بأربعة أشياء؛ أن يؤمن بالله، وأن يطيعه في أمره ونهيه، وأن يدعو إليه، وأن يصبر على معالجته، فمن طبق هذه الأربعة نجا، ومن لم يطبقها هلك، فربح النجاة في التواصي بالحق، لكن لماذا جعل الله هذه الأمة التي نرجو الله أن نكون منها خير أمة؟ قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران: آية "110")

علة هذه الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

لو أن الإنسان أعرض عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لانتفى إلى أمة ثانية، وهي أمة التبليغ لا إلى أمة الاستجابة، فلا يحق لك أن تقول: أنا من أمة محمد، وأن تقتخر بهذا الانتماء، وأن تتوهم أنك من أمة خير بل هي خير أمة أخرجت للناس إلا بسبب واحد هو: الاستجابة لله ورسوله إذا دعانا لما يحينا..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

إن الحياة التي أرادها الله والتي خلّقنا من أجلها و صمّمت من أجلنا والتي تليق بنا وبإنسانيتنا هي الحياة في طاعة الله ورسوله..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

نحن إن استجبنا لله وللرسول كنّا من أمة محمد الخيرة التي هي خير أمة أخرجت للناس، فإن لم نستجب فنحن من أمة التبليغ وليس لنا عند الله أية ميزة..

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: آية " 18 ")

أي: ليس لكم عند الله شيئاً، وحينما أرى المسلمين يعانون ما يعانون أقول: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فإن أردت أن تكون عند الله مكرماً فليكن أمر الله عندك مكرماً.

(إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

إن أردت أن تكون عند الله مكرماً فاطع الله ليرفع من شأنك ويُعلي قدرك ويمنعك من عدوك. أيها الإخوة الكرام... إننا لا ننجو من الخسارة المحققة إلا بالإيمان بالله وطاعته، والتواصي بالحق، فلو أهملنا هذا كنّا في خسارة محققة.. فقد أرسل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله، فيجب على المؤمن أن يتواصى بالحق من أجل أن ينجو من الهلاك المحقق والخسارة المحققة يجب، كما يجب عليه أن يتواصى بالصبر.. وهذه واحدة..

الشيء الثاني:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: آية " 31 ")

ربنا عزَّ وجل لم يرض منا أن ندَّعي محبَّته إلا إذا قدَّمتنا الدليل، والدليل هو طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

الدعوة إلى الله دليل محبته:

الآن دقق..

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

والله -أيها الإخوة -هذه الآية وحدها تقصم الظهر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي)

واضحة، جليَّة.. قال عليه السلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال))

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)

بالدليل و التعليل والكتاب والسنة..

(أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالذي لا يدعو إلى الله ليس متبعا للنبي عليه الصلاة والسلام، وما دام ليس متبعا للنبي فإنه لا يحب الله عزَّ وجل..

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

الشيء خطير هو أنك إن لم تدعو إلى الله على بصيرة فأنت لست متبعا لرسول الله، وإن لم تكن متبعا للنبي عليه الصلاة والسلام فأنت لست محبا لله، وإن دعوت إلى الله على غير بصيرة وبلا دليل ؛ بخرافة أو كرامة، أو منام، أو شطحة، فهل تعد داعية إلى الله ؟ لا، لأنك دعوت إلى ذاتك بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله، و لن تنجو من الله عزَّ وجل.

شروط الدعوة إلى الله:

إن الدعوة إلى الله لا تُقبل إلا بشرطين ؛ أن تكون خالصة إلى الله عز وجل، وأن تكون موافقة لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، خالصة: ما ابتغي بها وجه الله عز وجل، وصواباً: ما وافقت السنة.. إذاً هناك ثلاث آيات:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

علامة محبته اتباع نبيه، من اتباع نبيه:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فالدعوة ينبغي أن تكون على بصيرة، ومعنى (على بصيرة) ؛ أي: وفق الدليل، ووفق التعديل، ووفق السند الصحيح، ووفق النص الذي جاء من عند الله عز وجل، بدعوة علمية منهجية مستندة إلى صخرة راسخة و أرضية راسخة و حقيقة.

تعليم القرآن جهاد كبير:

أيها الإخوة الكرام... قال صلى الله عليه وسلم:

((ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

(مسند أحمد: عن معاذ بن جبل)

أي: أعلى شيء في الإسلام هو الجهاد، والجهاد غير القتال، بل كما قال الله عز وجل:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

(سورة الفرقان: آية " 52 ")

أي: بالقرآن بتعليمه وتعليمه..

(جِهَادٌ كَبِيرٌ (52))

وسمى الله الجهاد.. جهاد تعليم القرآن الكريم.. جهاداً كبيراً، وهذا جهادٌ متاحٌ لنا جميعاً، فهل يمنعك أحدٌ من أن تقرأ القرآن ؟ بالعكس هناك من يشجعك إذا تعلمت القرآن وعلمته، أليس هذا متاحاً لنا؟ هذا جهادٌ كبير، والجهاد ذروة سنام الإسلام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من مات ولم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلثة من النفاق))

فأي واحد يحضر مجالس العلم لكنه لا يفكر أبداً أن ينصح الناس، ولا أن يلقي العلم على الناس، ولا أن يأخذ بيد الناس إلى الله، ولا أن ينصح أخاه أو صديقه أو جاره أو ابنه أو أباه و أقرب الناس إليه فإنه إن مات مات على ثلثة من النفاق.

لكن الدعوة إلى الله الشاملة الواسعة هي فرض كفاية إذا قام به البعض سقطت عن الكل هي، وهذه الدعوة القادرة على أن ترد على كل الشبهة وأن تأتي بكل التفاصيل والأدلة، فهذه الدعوة إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، وذلك كحال إنسان متخصص بالفكر الغربي وما فيه من شبهات ضد الإسلام وعنده ردود على كل هذه الشبهات، فهذا فرض كفاية، لكن المؤمن مكلف بالدعوة في حدود ما يعلم و هذا فرض عين، ولا تنس الآيتين، الأولى:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر: آية " 2 ")

وفيها ربع النجاة، ولا تنس الآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فعلامه محبتك لله اتباعك لرسول الله، ومن أجل أنواع الاتباع أن تدعو إلى الله على بصيرة في حدود ما تعلم ومع من تعرف من خاصة نفسك ؛ أي: أهلك، أقرباؤك، جيرانك بالسكن والعمل، فلو دعا كل إنسان إلى الله في حدود خاصة نفسه لما وجدت مشكلة، لأن هؤلاء يعرفهم ويعرفوه، فإذا كان لك أخ كريم، أو ابن عم، أو صديق، أو صهر، أو جار أو زميل عمل فينت له آية أو حديث، أو بينت له علة وجودنا، وغاية وجودنا، ودعوته إلى الله بلطف وأدب و موعظة حسنة، فاستقام على أمر الله وسار في طريق الحق فقد انطبق على هذا الشخص حديث

((يا علي لنن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

فهذه صنعة الأنبياء، وهذا العمل لا يقدر بثمن لأنك تسعد به إلى أبد الآبدين، ودقق دائماً في هذه القاعدة: مات إنسان وغُسل وكُفّن ومشت جنازته وأدخل في قبره، فماذا ينفعه في القبر ؟ إذا كان بيته مثلاً أربعمائة متر، فهل ينفعه ؟ لا.. وإذا كان يسكن في كوخ فهل يضره ؟ لا.. فكوخ أربعين متر و قصر أربعمائة متر، هما في القبر سواء، فإذا كان الإنسان من أكبر الأغنياء أو من أفقر الفقراء فهل يرفعه غناه في القبر أو يخفضه فقره في القبر ؟ لا، فما الذي ينفعك في القبر ؟ وما الذي تلقى الله به ؟ وما الذي يبيّض وجهك وأنت بين يدي الله عز وجل ؟ إنه طاعته و محبته و خدمة عباده و الدعوة إليه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تعلم كتابه و تعليم كتابه و تفقد المساكين والعطف على الفقراء، و دفع المال في سبيل الله، فهذا الذي ينفعك وأنت في القبر، فشفير القبر هو الحد الفاصل.. فكل عملٍ يستمر معك إلى ما بعد الموت هو العمل العظيم الذي ينبغي أن تعضّ عليه بالنواجذ، أما العمل

الذي لا يذهب معك إلى القبر فوقته وقيمته خسارة و إن كان مباحاً، أما إن كان محرماً فهو بلاءٌ كبير وسبب الهلاك لهذا الإنسان.

إذاً أيها الأخ الكريم... لست مُعْفَى من الدعوة إلى الله لأن أحد أركان النجاة التواصي بالحق، ولست معفى من الدعوة إلى الله لأن علامة محبتك لله عزَّ جل اتباعك لرسول الله، ولأن من أبرز أنواع اتباعك للنبي الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعوة إلى الله فرض عين وفرض كفاية، لكن الدعوة الكبيرة الواسعة التي فيها اختصاص عميق وأساليب بارعة هي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، أما الدعوة إلى الله التي هي فرض عين فهي أن تبلغ عن الله ولو آية..

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

(مسند أحمد: عن عبد الله بن عمرو)

((فيا ربّ مبلغ أوعى من سامع))

وهذه نقطة دقيقة جداً، فالإنسان الذي لا يحدث نفسه أبداً ولا يفكر في هداية أحد من أقرب الناس إليه، كزميله، أو جاره، أو ابنه، أو أخيه فهو ليس متبعاً لرسول الله، وبالتالي فهو لا يحبُّ الله، فإن كان كذلك فقد وقع في الهلاك لأن الدعوة إلى الله.. أحد أركان النجاة..

الدعوة إلى الله في كل الأحوال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

(سورة نوح)

ما معنى ليلاً ونهاراً ؟ أي: دائماً، في الصباح، في الظهر، في المساء، في لقاء، على طعام، في سهرة، في نزهة، في وليمة، في دعوة، في عقد قران، في مولد، في محاسبة، في مجاورة، في لقاء عابر..

(لَيْلاً وَنَهَاراً (5))

وهذا من خصائص المؤمن، يقول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

الأمر مُنْصَب على الذكر الكثير، ومن صفات المنافقين:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَاراً (6))

(سورة نوح)

لأن الإنسان له اختيار، فلو كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قمة البشر وأفصح الخلق وحبيب الحق، وهو سيد ولد آدم، وأكمل الخلق، وهو الرحيم اللطيف الكريم إذا كان معه ولم يكن هذا الإنسان يبتغي وجه الله، ولا يرجو الله والدار الآخرة فإنه لا يستفيد شيئاً، والدليل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

ولكن.. لكم جميعاً.. لا:

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

إذاً حينما لا يستجيب الإنسان فمعنى هذا أن له طلباً آخر.

إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل !

بالمناسبة.. يوجد شيء خطير أريد أن أقوله لكم: هناك خطآن وطريقتان ومنهجان إن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر حتماً، والله هذا كلام خطير..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل، وإن لم مستقيماً فأنت منحرف، وإن لم تستجب لرسول الله فأنت مع الهوى، فلا يوجد حل ثان..

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6))

فطالب الحق يبحث عنه، وطالب الشهوة يفر من الحق مهما دعوته، فأقول لكم هذه الحقيقة: هناك قرار داخلي، إن اتخذ أحدكم قراراً بطلب الحقيقة فأى شيء يدهله عليها، أما إن كان قد أراد الدنيا فإنه لو التقى بنبي مرسل فإنه لا يستفيد شيئاً، و لو رأى الأموات خرجوا من قبورهم فإنه لا يستفيد شيئاً، فماذا رأى بنو إسرائيل ؟ لقد رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيهاً، و رأوا أن نبيهم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ضرب البحر بعصاه فإذا هو طريق كبير، فلما رأوا بقرة قالوا:

(يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: آية " 138 ")

لم يستفيدوا شيئاً، و قوم صالح قد رأوا الناقة خرجت من الجبل، فإذا أردت الحقيقة فإنك تبحث عنها وتجدها في كأس ماء، و تجدها في طائر، و تجدها في ابنك الذي من صلبك، و تجدها في الليل والنهار و الشمس والقمر، في خلق السماوات والأرض، وفي كل في لقمة تأكلها، تجدها في عينك، في أذنك،

تجدها في القرآن الكريم، أما إن أردت الشهوة وأعرضت عن الحقيقة فإنك لو التقيت بالأنبياء جميعاً واحداً واحداً فإنك لا تستفيد.

الأصل أنت !!

فمرة سألني أخ عن رجل داعية إلى الله، فقلت له: ليس شأني أن أقيم الناس لأن تقيّم البشر من اختصاص خالق البشر، ولكن أقول لك: لو أُتيح لك أن تلتقي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأن تجلس معه، وأن تستمع إليه، وأن تُكجّل عينك بمرآه، ولم تطبق مبدأه ولا سنته فإنك لا تستفيد منه شيئاً وتهلك، ولو التقيت بإنسان قال لك آية أو حديثاً وهو لا يطبقها، فصدّقته وطبّقت هذه الآية فإنك تسعد بها وتنجو أنت وحدك، هو قد لا ينجو بل أنت تنجو.. هذا كلام دقيق أقوله: الأصل أنت.. فلو أُتيح لك أن تلتقي بنبي ولم تطع أمره ولم تطبق سنته فإنك لا تنجو من عذاب الله، ولو أُتيح لك أن تلتقي بإنسان يفعل ما لا يقول، أو يقول ما لا يفعل فصدّقته وأخذت كلامه وطبّقت، وقطفت ثماره نجوت وسعدت في الدنيا والآخرة، فالمعول عليك أنت، وهناك متكلم و مستمع، فالتكلم له حساب والمستمع له حساب، فحساب المتكلم: هل أنت مطبق لما تقول ؟ وهو حساب خاص عند الله، والمستمع له حساب من نوع ثان، الحساب: هل طبّقت ما استمعت إليه ؟ فكل من المتكلم والمستمع له حساب عند الله عز وجل، لذلك لا ينفعنا تقيّمنا ولكن تنفعنا طاعتنا لله عز وجل.

مثل آخر: لو أنك التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام، أو احتكمت إليه في موضوع أنت وصديق لك، واستطعت أن تنتزع من فمه الشريف حكماً لصالحك ولم تكن محقاً في هذا الحكم فإنك لا تنجو من عذاب الله،

((لعلّ أحدم ألحن بحجّته من الآخر، فإذا قضيت له بشيء فإيما أقضي له بقطعة من النار))

إذا المعول عليك أنت، المعول عليك لك عند الله حساباً خاص، هل طبّقت ما استمعت إليه ؟ ماذا فعلت؟

الإصرار على الكفر:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ)

أي: دعوتهم ليؤمنوا بك، ثم ليطيعوك، فتغفر لهم، فالمغفرة لها ثمن، دعوتهم إلى الإيمان بك و طاعتك ليكون الإيمان بك و طاعتك ثمناً لمغفرتك..

(جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ)

(سورة نوح)

وأَصْرُوا على كفرهم ومعصيتهم واستكبروا على أن يطيعوا الله عز وجل استكباراً.. فالإنسان مخير..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: آية " 17 ")

هؤلاء دعاهم نبي كريم وجاء بالمعجزات والبيّنات، وكان في دعوته صادقاً، وفي أخلاقه كاملاً، ومع ذلك لم يصغوا إلى هذه الدعوة لأنهم أرادوا الدنيا، قال بعض الحكماء: " لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد أن لا يسمع ". فالذي يُعرض عن الشيء لا يفهم منه شيئاً، فمتى يستفيد الإنسان ؟ إذا كان هناك شخص يمشي في الطريق وفي ذهنه أن يشتري حاجة معينة، فإنه يقف عند أي محل ويفتّش: هل هذه الحاجة موجودة ؟ فهو يبحث عنها، أما إذا كان هناك حاجة لا يحتاج إليها ولا يهتم بها فإنه لو رآها أمام عينه فهو لا يراها حقيقة، فالعبرة أن تكون أنت طالباً للحق.. فهؤلاء دعاهم نبي كريم..

(وَإِذْ كُنَّا دَعْوَتُهُمْ لِيَتُوبَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا)

(اسْتَكْبَرُوا (7))

(سورة نوح)

هناك من الناس من تتكلم معه كلمة حق واحدة.. فتجده يتنأب، أو يقول لك: عندي موعد، فيعذر ويقوم، فحذّته في أمر من أمور الدنيا تجده يجلس أربع ساعات وينسى مواعيده كلّها، و ينسى أنه متعب، لقد قال قبل أربع ساعات: أنا مستعجل وعندي موعد، تروى قصة عن الحجاج أنه قد مرّ في السوق فرأى رجلاً له دكان وكان يصلي قاعداً وهو بائع أواني، ودكانه عالية وفيها سلم، فقال له: أريد هذا الإناء الذي تضعه في أعلى مكان، فوضع السلم وصعد إليه، فقال له: أصلحك الله إنني أريد الذي إلى جانبه، فصعد مرة ثانية وأتى بالذي طلبه، فقال له: إنك لم تفهم علي إلى جانبه من الطرف الأيسر، فصعد مرة ثالثة، فجعله يصعد وينزل أربعين مرة، وبعد هذه علاه وضربه وقال: تصلي قاعداً ؟! من أجل أنه تباع هذا الإناء صعدت ونزلت عشرات المرات ؟.. فالإنسان حينما يبتغي شيئاً يضع كل طاقته فيه..

(وَإِذْ كُنَّا دَعْوَتُهُمْ لِيَتُوبَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا)

(سورة نوح)

الإصرار على الخطأ مرض في الإنسان، والاستكبار مرض أشد، و الكافر عنده إصرار وتعنّت، و جمود وتكبر..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ)

(سورة نوح)

أي: ليؤمنوا بك ويطيعوك فيستحقوا المغفرة..

(جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة نوح)

تعبيراً عن صدّهم عن طريق الحق، فهم لا يريدون أن يسمعوا. مرّة حدّثت إنساناً أجنبياً بكلمة عن الله عزّ وجل فلم أتمّ كلمتي حتى قال لي: هذه الموضوعات لا تعنيني، ولا أهتم بها، ولا ألقى لها بالاً، أنا يعنيني في الحياة ثلاثة أشياء ؛ امرأة جميلة، وبيت واسع، وسيارة فارهة.. و انتهى الأمر..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة نوح)

دليل الصدود..

(وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ)

(سورة نوح)

دليل العداوة..

(وَأَصْرُوا)

على معاصيهم، وعلى كفرهم..

(وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً (8))

(سورة نوح)

أحياناً يكون هناك دعوة بينك وبين أخ أو صديق أو جار أو قريب، وأحياناً تكون الدعوة على الملأ، فمن أنواع الدعوة ؛ الدعوة العامة، خطيب يخطب، أو محاضر يتكلّم.

(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (9))

(سورة نوح)

نوّعت بين الإعلان والإسرار..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

(سورة نوح)

معنى غَفَّار ؛ أي: صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة إذا نسبت إلى الله جلّ جلاله تعني شينين: تعني مبالغة في الكم، و مبالغة في النوع، أي: إن أكبر ذنب مهما تصوّرتّه كبيراً يغفره الله عزّ وجل.

على كل هذه الآيات تعطي معان، منها أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تكون مستمرة ليلاً ونهاراً، وتعطي أن الإنسان مخير، فقد يستجيب وقد لا يستجيب، و ما على الرسول إلا البلاغ فقط، لأن الله عز وجل يقول له:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)
(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 272 ")

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الزمر: آية " 41 ")

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86))

(سورة هود)

وقال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23))

فتعلمنا من هذه الآيات أن تكون الدعوة مستمرة و متنوعة، أي: إنه دعاهم سرّاً، وجهراً، و الإنسان أحياناً يحب أن تكلمه على انفراد، فلا يوجد لديه مانع عندئذ، وهناك إنسان يحب أن يجلس جلسة عامة، فيشعر بأنفس، كأن يكون لك سهرة، أو لك جلسة مثلاً، و هذه طباع، فادع إلى الله على أنواع كثيرة ؛ سرّاً، وجهراً، ومتلطفاً، ومقرّعاً، ومخاطباً للعقل تارةً، والعاطفة تارةً، آتياً بالدليل والتعليل..

(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا)
(اسْتَكَبَرُوا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10))

مهما يكن الذنب كبيراً يغفره الله، ومهما تكن الذنوب كثيرةً يغفرها الله، مليون ذنب يغفر، وأكبر ذنب يُغفر، والدليل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

فتصور أن حياتك وعلاقتك مع الله لا توجد فيها مغفرة، أو لا توجد توبة، لكن ربنا عز وجل ينتظرك أن تستغفره، لذلك نحن في بحبوحتين ؛ بحبوحة طاعة الله، وبحبوحة الاستغفار، و الدليل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

أي ما دامت سننك مطبقة في حياتهم فهم في بحبوحة من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

أوضح مثلاً يوضح هذه الآية: لو أن هناك أباً مثقفاً بثقافة عالية، وعنده ابن يعلى آمالاً كبيرة على تحصيله العلمي، فجاء هذا الابن بالجلاء وقد نال صفراً في الرياضيات، فأراد الأب أن يؤدبه تأديباً شديداً، ولكنه نظر إلى ابنه فرآه مصفراً اللون، فدعاه إلى الطعام فلم يأكل، وكان مع الابن مبلغ جمعه في الأعياد فبحث عن أستاذ للرياضيات لكي يدرسه دروس خاصة، فلما رأى الأب ابنه مهموماً وخائفاً و متألماً ألم شديداً، فإنه سوف يضحى بكل مذكراته المالية لكي يأخذ عدداً من الدروس الخاصة، و هذه الوضع بالابن يمنع الأب من أن يعاقبه. فأنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة طاعة الله، وبحبوحة الاستغفار، فلا سمح الله لو أن إنسان عصي لوجدت عنده بحبوحة ثانية، وهي أن يستغفر، أي: إما أنك مطيع، أو أنك عاص لا سمح الله، فإذا كنت مطيعاً فليس هناك مشكلة..

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

إذا: بالطاعة لا توجد مشكلة، ولكن ماذا يجب عليك أن تفعل حال المعصية ؟ أن تستغفر..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ)

فأنت في بحبوحتين ؛ بحبوحة الطاعة، وبحبوحة الاستغفار، و حينما تستغفر تؤجل العقاب، لذلك كان الاستغفار من الأذكار، تقول بعض الأحاديث:

((علم عبدي أنني أغفر الذنوب فاستغفرني))

فلا تيأس، و الأكمل أن تكون في طاعة الله دائماً، ولو أخطأت فإن باب الاستغفار مفتوح على مصراعيه..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

((إذا قال العبد مستغفراً: يا رب وهو راعع، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب وهو ساجد،

قال له لبيك يا عبدي: فإذا قال: يا رب وهو عاص، قال الله له: لبيك ثم لبيك ثم لبيك))

ورد في الآثار:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ولमतوا

شوقاً إلي))

((يا داود هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

لا تقنط من رحمة الله، استغفر..

(فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (10))

نتائج الاستغفار:

(يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11))

(سورة نوح)

فإذا كان هناك نقص شديد في الغذاء أو الدخل فهذا دليل على ضعف في الاستغفار.. دخل على الإمام الحسن البصري رجل فقال: يا إمام إنني أشكو الفقر، فقال: استغفر الله، فدخل عليه قوم آخرون فقالوا: يا إمام نشكو شح السماء، قال: استغفروا الله، ودخل عليه رجل وقال: إن امرأتي لا تتجب، قال: استغفر الله، وكان شخص جالس في المجلس فقال: ما هذا الشيخ؟!، فقال له: أو كلما دخل عليك رجل تقول له: استغفر الله؟، فقال له: أما قرأت قوله تعالى:

(فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

(سورة نوح)

فالآية واضحة، فالذي أراد أن يُنجب يستغفر الله، و الذي أراد الله فليستغفر الله، والذي أراد أن تمطر السماء فليستغفر الله، وأقول كثيراً: قد يقنن الله عز وجل على الإنسان، فيقول لك: لا يوجد شغل، لا يوجد مال، لا يوجد دخل، فهل معنى هذا أن الله تعالى ليس معه؟؟ إن الله عز وجل يقنن تأديباً لا عجزاً، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

أي: إن الخيرات في الأرض لا تُعد ولا تُحصى لكن يوجد تقنين تأديب، و الحل أن نستقيم على أمر الله..

(فقلتُ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

فما قولك في أن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيبنا، و غني عن إفقارنا، و غني عن مرضنا، و غني عن خوفنا و همنا، لماذا نهتم ؟ لماذا نمرض، لماذا نفترق ؟ لماذا نخاف ؟ لأنه يؤدبنا

((كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلح لك))

ورد في الأثر القدسي:

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك

فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

أي: اصطلح مع الله وافهم عليه، فهو يريدك تائباً، والدنيا تأتي بشكل عجيب، إن اصطلحت مع الله لم يكن هناك خطر عليك من الدنيا بل إنها تأتيك وهي راغمة..

" أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه "

(وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

أي: إن هذا دافع من دوافع الطاعة لله عزّ وجل.. وقد قيل لأحد الصحابة -وأظنه سيدنا أبا الدرداء -: احترق محلك، فقال: لا إنه لم يحترق، يا أخي احترق ونحن رأيناه بأعيننا، قال: ما كان الله ليفعل.. إنه واثق من طاعته لله عزّ وجل، و واثق من دفع الزكاة.. فلما ذهبوا ليتأكدوا فرأوه كما قال فعلاً، إنه ليس محله، فبشّروه فقال: أعلم ذلك، أعلم أن محلي لم يحترق.. فإذا كنت مع الله عزّ وجل فإن الله يلقي في قلبك الطمأنينة و الأمن..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

الآية الأخيرة أيها الإخوة في هذا الدرس هي قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

أوجه تفسير لهذه الآية: ما لكم لا تطمعون برحمة الله ولا تخافون من عذابه ؟ فقد تجد شخصاً قوياً، وهو من بني جلدتك و جنسك لكنه أقوى منك ولا تقدر تسترحمه فتطيعه..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

كيف تزهّدون فيما عند الله من نعيم أبدي ؟ ومعنى ذلك: أنكم لا ترجون الله وقاراً، وكيف لا تخافون ناره ؟ معنى ذلك أنكم لا ترجون الله وقاراً.

إخواننا الكرام... إذا كان هناك شخص قوي و أنت موقن بذلك، و له عندك وقار، وبيده شيء ثمين، وهو يقدر أن يعطيك أو يمنعك فإنك ترجو ما عنده وتخشى ما عنده، فإذا كان هذا حالك مع إنسان ترجوه فكيف حالك مع الواحد الديان خالق الأكوان ؟ فما بالك لا ترجو جنته ؟ و لا تخاف عذابه ؟ لا يليق بك أن تقرأ كلامه ولا تفهمه ؟

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَاراً (13))

لم لا ترجو جنته و لا تخاف ناره ؟ لم لا تخشى وعيده و لا ترجو وعده ؟ لم لا تطمع في رحمته ؟ لم لا تخش من عقابه ؟ ومعظم الناس الغافلين يحسبون ألف حساب لإنسان و لا يحسبون لله حساباً واحداً، فترى أحدهم يخاف على سمعته و حرّيته و ماله و تجارته، ومكانته، فيُرضى هذا، ويُرضى ذاك، ويدعو هذا، ويبارك لهذا ويهَيِّئ هذا، يزور هذا، إنه يحرص على سمعته..

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَاراً (13))

الله الذي خلقك..

إذا قدّم إنسان لك شيئاً فإنك تشكره مئات المرات، والله عزّ وجلّ منحك نعمة الوجود، و نعمة الإمداد و نعمة الهدى والرشاد ألا يستأهل أن تشكره ؟ ألا يستأهل أن ترجو رحمته وأن تخشى عذابه ؟

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَاراً (13))

فقد تجد شخصاً ما حوله أشخاص كثيرون، وهو شخص مهم جداً، فلو اتصل بأحدهم لأجاب: حاضر، فيقوا: تعال إلي بعد ربع ساعة فإنه يكون عنده، فه وقار، ولو كلفه بتكليف فإنه ينفذ التكاليف بحذافيرها، لاحظ نفسك إذا واحد كلفك وأنت غير مهتم به كثيراً إنك قد تنسى، يقول لك: هل سألت لي ؟ فتقول: والله نسيت لا تؤاخذني، يقول: أمنتها لي ؟ فتقول: والله نسيت، فإذا كلفك شخص وليس له قيمة عندك فإنك تنسى على الفور، فلا تنقذ شيئاً مما يقول، ولكن الله يأمرك، ويوعذك، و يخوفك..

أطوار الإنسان:

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

لقد كنت حويئاً لا يرى بالعين، و خمسمائة المليون حوين يبلغون سنتمتراً مكعباً، فمن حوين إلى بويضة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى جنين، إلى طفل صغير لا يتكلم، وبعد هذا تطور من حال إلى حال، لاحظ الآباء والأمهات يقولون عن الطفل الصغير...: طلّعوا أسنانه.. فيحدث ضجّة في البيت.. وبعد هذا يقال لك: نظّف..و مشى و لم يكن يمشي..، وبعد هذا صار يتكلم أي وصار اجتماعياً ؛ يشكر، يحترم..

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

وبعد هذا دخل إلى المدرسة، ثم حفظ الفاتحة، وحفظ بعض الأناشيد، وبعد هذا كتب الألف مائلة، والباء طالعة، وهذه نازلة، يقول لك: كتب، انظر هذا خط ابني، وبعد هذا يأخذ ابنه الشهادة، ثم يكبر ويغلظ صوته، ثم يبلغ، و يريد أن يشتغل و يتزوج، وبعد هذا ينجب أولاداً، ثم يرّبي أولاده، ثم يريد أن

يزوجهم، وبعد هذا يلتفت إلى صحته، فقد صار يحتاج إلى خمسين نوعاً من الدواء، وبعد هذا تعلق
نعوته على الجدران..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

من طور، إلى طور، إلى طور، تنتظر إلى إنسان في الخامسة عشر يصعد كل خمسة درجات معاً،
وبالنزلة كل عشرة معاً، فإذا كان هناك.. درابزين.. فإنه ينبطح عليه وينزل على الفور، وانظر إليه
وهو في الثمانين تجده يضع رجله على الدرجة ويسحب الثانية، درجة درجة، أليس كذلك ؟

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

أي: إن كل سن له ترتيب و اهتمامات و هموم، قبل الزواج يبحث عن زوجة، داخل في متاهة البحث
عن زوجة، وهذه متاهة، فإذا تزوج تجده يقول خلا السنتين الأوليين: قصيرة، لا طويلة، يا ترى
غلطت، لا لم أغلط، وبعد هذا يُنسخ الموضوع من تفكيره، ثم جاء موضوع الأولاد، هل درسوا، لم
يدرسوا، تعلموا، لم يتعلموا، تزوجوا، لم يتزوجوا، فكل سن له ترتيبات، و هذه أطوار، فالإنسان يمشي
في هذا الطريق الإجباري وآخر محطة الموت..

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

ألا ترجو رحمته ؟ ألا تخاف عذابه ؟ قد يكون هناك إنسان يخيفك، فإن أرسل في طلبك فإنك لا تنام
الليل.. طوال خمسة أيام، وهو إنسان ولست مرتكباً شيء مخالف، فالواحد الديان يقول:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

فهل هذه قليلة ؟

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة نوح 071 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 15-28

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-09-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مظاهر قدرة الله

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة نوح، ومع الآية الخامسة عشر وهي قوله تعالى:
بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15))

(سورة نوح)

علاقة هذه الآية بالتي قبلها:

والآية التي قبلها هي قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13))

(سورة نوح)

أي: مالكم لا ترجون رحمته ولا تخشون عذابه، يقول الله عز وجل:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

(سورة المدثر)

أي: أهل أن يتقيه، وأهل أن ترجوه وتخطب وده، وأهل أن تفني عمرك من أجله، وأهل أن يكون
شبابك في سبيله، وأهل أن تجعل مالك ووقتك وصحتك وجهدك وأولادك وتجارتك وخبرتك
واختصاصك في سبيله، فهذه كلها يجب أن تبذلها في سبيل الله لأن الله عز وجل يقول:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص: آية " 77 ")

حظوظ الدنيا ابتلاءات حيادية:

أيها الإخوة الكرام... إياكم أن تتوهموا أن حظوظ الدنيا التي يتكرم الله بها على الإنسان نعم، لكنها
ابتلاءات حيادية، فهي ليست نعماً ولا نعمةً ولكنها ابتلاء، فإذا وظفتها في الحق انقلبت إلى نعم، أما إذا
وظفتها في الباطل انقلبت إلى نقم، فالمال مثلاً سلّم ترقى به أو دركات تهوي بها، والقوة سلّم ترقى به

أو دركاتٌ تهوي بها، والعلم إما أن يقودك إلى الله فتسعد بقربه، وإما أن يقودك إلى الكبر والاستعلاء والاعتداد بالنفس فيكون دركات يهوي بها إلى النار، فكل حظوظ الدنيا ليست نعماً ولا نِقَمًا إنما هي ابتلاءات حيادية موقوفة على نوع استخدامها..

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا (13))

(سورة نوح)

خلق الإنسان:

مالك لا ترجون رحمته ببذل حظوظكم في سبيله، ومالك لا تخافون عذابه باتقاء معصيته، والدليل:

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14))

(سورة نوح)

إن الأشياء المألوفة -أيها الإخوة- قد تُفَرِّغ من مضمونها، فهذا الطفل الذي بين يديك ابنك، وأنت تعلم بالضبط كيف تم خلقه ؛ من نقطةٍ من ماء دخلت إلى بويضةٍ لّقحتها فانقسمت فزرعت في الرحم، إلى أن أصبحت جنيناً له دماغٌ وأجهزةٌ ؛ من جهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز إفراز، وجهاز تنفس، وعضلات، وأعصاب، وغدد صماء وغير صماء، ثم يخرج هذا الطفل إلى حيّز الدنيا، فينمو شيئاً فشيئاً، وتنمو مداركه وعضلاته، وعظامه ليصبح إنساناً سوياً..

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14))

التفكر جزء من الدين:

إن التفكير في خلق الإنسان -أيها الإخوة- جزءٌ من الدين، بل هو الدين نفسه، لأن المؤمن الصادق يتعرّف إلى الله من خلال خلقه، فينظر إلى الكون بسمواته وأرضه و جباله وصحاريه، وينظر إلى الأرض بجبالها وصحاريها، وسهولها، ووديانها، ونباتاتها، وأطيّارها، وأسماكها، والبحار وما فيها، كلها آياتٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، فيمكن أن نقول: إن الكون أوسع بابٍ ندخل من خلاله إلى الله، وإن الكون أقصر طريق إلى الله.

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

طَبَاقًا (15))

(سورة نوح)

المراد هنا هو هذه السماوات التي فوقنا، قال بعض العلماء: كلمة (سبعة) في اللغة تفيد التكثير لا العدد؛ أي: ما أكثر طبقات السماء التي فوقنا ! فهناك سماء دنيا و سماء عليا و سماء القمر و سماء الشمس و سماء السُحُب الفضائية، وسماوات لا يعلم عددها إلا الله، وأنتم -على كل- تستمعون وتقرؤون عن إرسال مركبة إلى القمر، وقد قطعت هذه المركبة ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر، ووصلت بعد ثلاثة أيام، و كلفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، فماذا قطعنا في الفضاء الخارجي ؟ لقد قطعنا ثانية ضوئية واحدة.. فهناك ثانية ضوئية واحدة بين الأرض والقمر، وبين الأرض والشمس هناك ثمانية دقائق، والمجموعة الشمسية قطرها ثلاث عشرة ساعة، وهناك مجرة تبعد عنا بأربع سنوات ضوئية و أقرب نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، وهناك مجرة تبعد مليون سنة ضوئية، وأخرى تبعد أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، وثالثة بعدها ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، هذه السماوات.. بعض هذه المَجَرَّات يسير بسرعةٍ قريبةٍ من سرعة الضوء ؛ وهي مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الساعة، و بعض العلماء يقول: الكون فيه مليون مليون مجرة تقريباً، والمجرة الواحدة فيها مليون مليون نجم، وما المجموعة الشمسية إلا نقطة صغيرة جداً على شكلٍ معزلي هو درب التبانة، ودرب التبانة هو المجرة التي نوجد فيها، وهي مجرة متواضعة جداً.

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15))

(سورة نوح)

فأنت أيها الإنسان لم تُكَلِّفَ بمعرفة دقائق الكون بالتحديد والتفصيل، ولكنها لفظة من الله عزَّ وجلَّ يَنْبَهُكَ فيها إلى عظمة هذا الكون الذي فوقك، يقال عن مذنب هالي: إن هذا المذنب يعود إلى مكان انطلاقه كل اثنين وسبعين سنة، ويمر إلى جانب الأرض، فحركات النجوم والمذنبات تجري بدقة متناهية، فنظرة إلى السماء..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

هذه العين لا ترى من نجوم السماء إلا عشرة آلاف نجم تقريباً، بينما يوجد في الكون مليون مليون مجرة، والمجرة الواحدة فيها مليون مليون نجم ؛ أي: مليون مليون ضرب مليون مليون، فهناك ستة أصفار في ستة في ستة، أي: أربعة وعشرين صفراً تقريباً.

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا)

(16)

(سورة نوح)

الشمس والقمر من آيات الله الدالة على عظمته، وهذه الشمس المُتَقَدَّة التي مضى على انقائها كما يقول بعض العلماء: خمسة آلاف مليون سنة، ويقولون أيضاً: إنها لن تنطفئ في تقديرهم قبل خمسة آلاف مليون سنة تقريباً، فمن أين تأتي الطاقة لهذه الشمس ؟ كل شيء يحتاج إلى طاقة، فمن أودع في الشمس هذه الطاقات ؟ و من جعل هذه الشمس بحجم يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة ؟ و من جعل السنة اللهب على سطح الشمس تزيد على مليون كيلو متر ؟ إن لسان اللهب في أثناء الكسوف الكامل يغيب قرص الشمس، وتبقى السنة اللهب على الجوانب، و هذه يتراوح طولها من نصف مليون كيلو متر إلى مليون كيلو متر، وقد قُدِّرَ بعض العلماء أن حرارة الشمس على سطحها ستة آلاف درجة، وفي وسطها عشرين مليون درجة، فلو أُلْقِيت الأرض في الشمس لتبخَّرت في ثانية واحدة. والشمس تتسع لمليون وثلاثمائة ألف أرض، قال تعالى:

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (16))

فلولا الشمس لما وجدت حياة إطلاقاً، و لو أن الأرض سارت بعيدة عن الشمس لدخلت في التجمد العام، فتصبح حرارتها ثلاثمائة وخمسين درجة تحت الصفر فتنتهي الحياة على سطح الأرض لذلك، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: آية " 41 ")

الجاذبية:

و لو أن الأرض زالت عن مسارها حول الشمس، واتجهت مستقيمة بعيدة عن الشمس، لدخلت الأرض في التجمد الكامل ولانتهت الحياة من على سطحها، فما الذي يشدها إلى الشمس ؟ إنه جاذبية الشمس لها، و ما جاذبية الشمس لها ؟ إنها قدرة أودعها الله في الكون، فلو تفلتت الأرض من قرص الشمس وأردنا أن نعيدها نظرياً.. لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، قطر الحبل خمسة أمتار، وقوة شد الحبل اثنين مليون طن، فالأرض مربوطة بالشمس بقوة تساوي مليون مليون ضرب (x) اثنين مليون، فلو زرنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس لكان بين الحبلين مسافة حبل واحد، فنصبح أمام غابة من الحبال تعيق الحركة والبناء والزراعة والتنقل وما إلى ذلك.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

إذا.. قال تعالى:

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا)

(سورة نوح)

قوة إضاءة القمر هي واحد على ثمانية عشر جزءاً من مائة من أشعة الشمس، ففي أيام الليالي المقمرة تكون الطرقات واضحة تماماً، فאלله جعل القمر نوراً، وجعل الشمس سراجاً وضاًء.

إنبات الإنسان:

(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17))

انظر إلى طفل يزن ثلاثة كيلو يشرب حليب، وبعد حين يأكل بعض الفواكه والبقول، وبعض أنواع الطعام، فيصير وزنه أربعة كيلو، أو خمسة كيلو أو ستة أو سبعة.. إلى ستين أو سبعين أو ثمانين، لقد جاء إلى الدنيا بثلاثة كيلو، فصار ثمانين، فمن أين جاءت سبعة وسبعين الكيلو هذه ؟ لقد جاءت من نبات الأرض و الطعام الذي يأكله نبات، و النبات يبدأ صغيراً، ثم يكبر و يكبر و يكبر، فماذا تفعل أنت؟ إنك تسقي هذا النبات بالماء، وهذا الماء تذوب فيه المعادن التي في التربة، فيمدُّ النبات بالغذاء وبالمعادن فينمو النبات، وكأن في الكون وحدة كاملة بين أنواع المخلوقات، فالحيوان ينبت، والإنسان ينبت، والنبات ينبت، إلا أن الجماد، يشغل حيزاً ولا يتحرك ولا ينمو، بينما يشغل النبات حيزاً وينمو، ويشغل الحيوان حيزاً وينمو ويتحرك، والإنسان يشغل حيزاً وينمو ويتحرك ويفكر، فأسمى شيء في الإنسان هو هذه القوة الإدراكية التي أودعها الله فيه، فإذا عطّلها عطّل إنسانيته وعاد إلى مستوى البهيمة، والإنسان من دون علم كالبهيمة تماماً، وقد كرّم الله عزّ وجل الإنسان بالقوة الإدراكية، وكرّمه بالبيان..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

فالقوة الإدراكية من أجل أن يعرف الله، والبيان من أجل أن يعرف الناس بالله عزّ وجل، فحينما يتعرّف إلى الله ويعرّف الناس بالله عزّ وجل فقد حقق الهدف الأمثل من خلق هذه القوة الإدراكية، ومن خلق هذا البيان الفصيح.

(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17))

والحقيقة أن تطوّر الإنسان شيء عجيب، فالطفل يولد، و لولا أن الله سبحانه وتعالى قد تفضّل على الإنسان بما يسميه العلماء: (منعكس المَصّ) لمات الإنسان، و(المنعكس): مصطلح علمي، فالإنسان أحياناً تصيب يده دخينة.. شرارة.. فيسحبها سريعاً قبل أن يعرف ما الذي أحرق يده، وقال علماء التشريح: هذا المؤثر قد وصل إلى النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي أعطى أمراً بسحب اليد مباشرة دون أن يصل الأمر إلى الدماغ، فأُسرع استجابة هو استجابة المنعكس الشرطي، وهذا من رحمة الله بالإنسان، وضماناً لسلامته، فأحياناً يحتاج الإنسان إلى أن يتحرّك قبل أن يدرك، فلو أن إنساناً مَسَّت يده طرف مدفأةٍ مشتعلة فإنه يسحبها قبل أن يفكر في أسرع من لمح البصر، لأن العلماء قالوا: قد يصل عن طريق الحس إلى الدماغ حينما يأتي هذا الأثر الحراري، و إلى أن يصل إلى الدماغ و يفكر الدماغ ما هذا الذي أحرق اليد ؟ ثم يعطي أمراً بسحب اليد تكون اليد قد احترقت، لذلك جَهَّز الله الإنسان بآليةٍ دقيقةٍ جداً سريعةٍ جداً.. آلية إسعافية.. فإذا جاء أثر خطر إلى الجسم، فالنخاع الشوكي هو الذي يرُدُّ على هذا الأثر باستجابة عضلية، فالإنسان يسحب يده قبل أن يعرف ما الذي أحرق يده. مَهَّدَت هذا التمهيد لأصل معكم إلى هذا الطفل الذي ولد الآن، فهل تستطيع أن تعلم هذا الوليد لتوّه كيف يَمَصُّ الحليب من ثدي أمه ؟ قل له: يا بني يا حبيبي ضع شفتيك على حلمة ثدي أمك وأغلقهما تماماً ثم اسحب الهواء، هل بإمكانك أن تعلمه ؟ لولا هذا المنعكس الذي خلقه الله في الإنسان لما كنا في هذا المسجد، و لما رأيت على ظهر الأرض إنساناً، فالإنسان مُجَهَّز، فتراه يضع شفتيه على ثدي أمه منذ أن يولد، ثم يحكم إغلاقهما ويسحب الهواء فيأتي معه الحليب، هذا المنعكس سماه علماء نفس الطفل: (منعكس المص)، لولا هذا المنعكس لما عاش إنسان على وجه الأرض.

(أَلَمْ نُجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

النجدان هما الثديان، طعامه معقم، ساخن في الشتاء، بارد في الصيف، وفيه كل مناعة الأم، كما يوجد فيه مواد مضادة للجراثيم، و مواد مضادة للتعفنات المعوية، و مواد تسرّع الهضم، وحليب الأم لا يبقى في المعدة أكثر من ساعة أو أقل، بينما يبقى حليب القوارير ثلاث ساعات، فإله عزّ وجل خلق الإنسان وخلق له طعامه المعقم، فالأم التي تطعم وليدها من حليب القوارير تحتاج إلى أن تعقم الحليب عن طريق الغليان، ثم تبرّده كي يطيقه جسمه، وبينما تفعل ذلك يموت الطفل من شدة البكاء، لكن حليب الأم جاهزٌ في تعقيمه، و حرارته، بل إن العلماء اكتشفوا الآن أن حليب الأم تتبدّل نسبه في أثناء الرضعة الواحدة، فنسبة الماء في أوّل الإرضاع ستون في المائة، وحينما ينتهي من الإرضاع تكون نسبة الماء

أربعين بالمائة، ثم يزداد تركيزه، فتتبدل نسبه في الرضعة الواحدة، فكيف في اليوم الواحد ؟ إنه في كل يوم له نسب خاصة..

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17))

أسنان الطفل:

الطفل لا يستطيع الأكل، فليس في فمه أسنان، ولو كان في فمه أسنان لما عرف معنى القطع، فربما عض على حلمة أمه فقطع حلمة الثدي، و لكن رحمة الله جعلت هذا الطفل بلا أسنان، ثم ينبت الله له أسنان لبنية تتناسب مع بنيته اللطيفة، فإذا كُبر نبتت له أسنان أساسية، فمن رتب هذا الترتيب ؟

جهاز التوازن عند الطفل:

إن الطفل يمشي و يتحرك، فهو في أول الأمر لا يستطيع أن يمشي، فينشأ له جهاز التوازن، و لو وضعت على ركبتيك طفلاً عمره ثلاثة أشهر فما دون لمال ووقع، لكنه إن مال بعد ثلاثة أشهر قليلاً فإنه يعدل جلسته، فقد عمل جهاز التوازن عملاً دقيقاً جداً..

الموت والحياة:

(وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18))

هناك بيت يولد مولود، وهناك بيت يموت إنسان، فالميت يذهبون به إلى القبر، والمولود يطعمونه ويسقونه حتى يكبر، فكأن هذا النبات نما، فلما كبر يبس وعاد إلى الأرض وتحلل مع تراب الأرض..

(ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18))

جاء بكم إلى الدنيا ليمتحنكم، ثم يعيدكم فيها ليحاسبكم، ويخرجكم في النهاية إخراجاً لتلقوا نتيجة أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالله عز وجل قال:

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13))

وقد بين لك من هو الله ؟ فهو الذي خلق سبع سموات طباقاً، وهو الذي جعل القمر فيهن نوراً، و جعل الشمس سراجاً، وهو الذي أنبتكم من الأرض نباتاً، وهو الذي يعيدكم فيها، وهو الذي يميّتكم ويخرجكم إخراجاً، وهو الذي جعل لكم الأرض بساطاً.. فالأرض مستوية و مستقرة..

(أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل 61)

لو أنها ليست مستقرة لما قام بناءً على وجه الأرض، فالأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، فإذا مضى علينا عشر ثوان تكون الشمس قد دارت ثلاثمائة كيلو متر، فإذا مضى علينا دقيقة ؛ أي: ستون في ثلاثين، فالناتج يساوي ألفاً وثمانمائة كيلو متراً في الدقيقة، والناتج في عشر دقائق هو ثمانية عشر ألف كيلو متر، فإذا كنا قد بدأنا الدرس قبل عشر دقائق فقد قطعنا في الفضاء الخارجي ثمانية عشر ألف كيلو متر، و نحن بدأنا من ثلث ساعة، أو من نصف ساعة، فمعنى هذا أننا قطعنا ما يعادل مائتين وأربعين ألف كيلو متر، و ذلك من قول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، حتى الآن، ومع ذلك فإن الأرض مستقرة، و الآن لا توجد مركبة في الأرض إلا وتهتز، فالطائرة تهتز، والسيارة و القطار، وكل شيء يتحرك و يهتز، لكن صنعة ربنا عز وجل..

(صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

و الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمائة كيلو متر في الساعة، وأعلى طائرة وهي النفاثة تطير بسرعة تسعمائة كيلو متر، وقد ركبت طائرات كثيرة، فيها ثمانمائة وسبعمائة وخمسين، ستمائة و تسعمائة، وهي حالة نادرة جداً، وهي ترتفع إلى أعالي الجو، و أسرع طائرة يركبها الإنسان تبلغ سرعتها تسعمائة كيلو متر في الساعة، و الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمائة كيلو متر، و الهواء متمم لها يدور معها، فلو كان الهواء ثابتاً لنشأ من دورتها حول نفسها أعاصير لا تبقي شيئاً على سطحها، فالأعاصير المدمرة الآن التي تقتلع المدينة من جذورها سرعتها في الساعة تسعمائة، ولو كنا على سرعة مائتين وخمسين لانهدمت الأبنية، والهواء على سرعة مائتين وخمسين كيلو متر يهدم أبنية وجدران و يقطع أشجار، وعلى مائة وخمسة وعشرين فيه أذى، فعلى سرعة مائة وخمسة وعشرين يحدث انهدام للبيوت وجدران، واقتلاع أشجار، فكيف يكون الحال على سرعة تسعمائة ؟ وكيف هو على سرعة ألف وستمائة ؟ ولو كان الهواء ثابتاً والأرض لنشأ من دورتها وثبات الهواء رياحٌ عاتية لا تبقي ولا تندر، فالأرض تدور، وهي مع دورتها حول نفسها و حول الشمس مستقرة ثابتة.

(أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا)

مستقرة وهي متحركة، وهذا شيء عظيم جداً، ورغم ذلك تنجذب الأجسام إليها، ولا تستقر إلا عليها، وهذه من نِعَم الله العظمى، و رواد القمر يصلون إلى مكان بين الأرض والقمر تتعدم فيه الجاذبية، و الحياة هناك لا تُطاق ؛ فيستيقظ أحدهم فيرى نفسه في سقف المركبة، لأنه ليس له وزن، فيمسك الأداة

فتطير منه، و حياة رواد الفضاء في مكان انعدام الجاذبية لا تحتل، أما الشيء الذي له وزن فإنك تضعه فيستقر، و هذه نعمة عظيمة لا يعرفها إلا من فقدوها، وهي نعمة استقرار الأشياء على سطح الأرض، إذاً:

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19))

(سورة نوح)

ممهدة، لو كانت جبال حادة فهل يمكننا أن نعيش عليها ؟ لكن هناك سهول و جبال انحدارها معقول، يمكن أن تصير مدرجات، وهناك وديان و صحارى و أغوار، أما لو كان في الأرض صخور بازلتية مسننة حادة فكيف نعيش عليها ؟ و كيف نأكل منها ؟ من مهدها ؟ لقد جعل الله الجبال و الوديان و السهول و الممرات بين الجبال و القنوات و الترع و البحار و الأنهار.

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19))

أي: مبسوطة أمامكم، و هي كروية لكنك تراها مُنْبَسِطَةً.

(لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20))

(سورة نوح)

أي: جعل ممرات، فبين الجبلين تجد وادياً، والوادي له ممر إلى سهل، والسهل يساير البحر، ومن حين لآخر ينحسم الجبل فينشأ طريق بين الساحل البحري والداخل، فمن صمم هذه الطرق، وهذه الجبال، وهذه الوديان ؟.

(وَقَالَ نُوحٌ)

(سورة نوح)

كل هذه الآيات هي تعقيب على قوله تعالى:

(مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13))

أي: هل تعرفونه من هو هذا الذي يدعوكم نوحٌ إلى عبادته ؟ إنه الذي خلق سبع سماوات طباقاً، وهو الذي جعل القمر فيهن نوراً و جعل الشمس سراجاً، وهو الذي أنبتكم من الأرض نباتاً، وهو الذي سميتمكم ثم يحيكم و جعل هذه الأرض ممهدة، فلو أن الأرض خلقت كما هي بلا ماء فكيف نعيش عليها؟ إنك لن تجد تجمعاً سكانياً إلا وفيه نبع، و في إندونيسيا أربعة آلاف جزيرة، لكل جزيرة نبعها، وماذا يعني أن يكون في الجزيرة نبع ماء؟ أي: إن هناك تمديدات من تحت سطح الأرض، وهناك مستودعات في الجبال في اليابسة، فلا يمكن أن يُفسَّر النبع في الجزيرة إلا بهذه الحقيقة، وهناك مستودعات للمياه في قمم الجبال، وهناك تمديدات من تحت سطح البحر إلى هذه الجزيرة، فربنا عز وجل يَسِّرُ الهواء في كل مكان، ويسر الماء في مُعْظَمِ الأمكنة، وجعل التربة تنبت، فالعبرة في أن الله

هو الذي صمم الهواء، وصمم الماء، والتربة، والبذور، والنباتات، والمعادن، وأشباه المعادن، والحيوانات، والأسماك، والأطيّار.

اتباع الباطل:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

لقد اتبعوا الأغنياء واتبعوا الأقوياء وهذا شأن الغافلين، بينما يتبع المؤمنون العلماء الذين يدلونهم على الله عز وجل.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

بالمقابل..

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

فالإنسان المؤمن لا يصاحب إلا مؤمناً، ولا يستشير إلا مؤمناً، ولا يستنصح إلا مؤمناً، ولا يقبل نصيحة إلا بالدليل، فما حكم الشرع في هذا ؟ وما الدليل ؟ وما الآية ؟ وما الحديث ؟ (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم)

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

كما قلت في بداية الدرس: إن المال يزيد الإنسان رفعة عند الله إذا أنفق في طاعة الله، ويزيد الإنسان خسارة يوم القيامة إذا أنفق في معصية الله، فإذا أنجبت مولوداً فإن هذا المولود يزيدك رفعة عند الله إذا دلتته على الله، ويزيدك خسارة عند الله إذا أطلقته إلى المعاصي والآثام، فالمال والبنون إما أن ترقى بنا، وإما أن تهوي بنا، لأن الكافر يربّي ابنه على الكفر، والعاصي يربّيّه على المعصية، والمُنْحَرِفُ يربّيّه على الانحراف، قال سيدنا نوح:

(وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِراً كَفَّاراً (27))

قال تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: آية " 46 ")

إن المال والبنين إذا استعملوا في طاعة الله كانا سُلماً لك إلى الله، أما إذا استعملوا في معصية الله فهما وقود للإنسان في النار.

(وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

المعنى الآخر لهذه الآية.. ينبغي إذا كان معك مال أن يزيدك رفعة عند الله، وينبغي إن كان لك ولد أن يزيدك هذا الولد رفعة عند الله، فالمال بإنفاقه والولد بتربيته، والمال بتوظيفه في الحق والولد بتربيته التربية الإسلامية الصحيحة، وعوام الناس- أيها الإخوة -يؤخذون بالمال والقوة والجمال، بينما يؤخذ المؤمنون بالعلم والعمل، وفي القرآن قِيم، قال تعالى:

(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

وفي القرآن قيم أخرى:

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132))

(سورة الأنعام)

فالقيم التي اعتمدها القرآن كَمُرَجِّحات بين خلقه هي قيم العلم والعمل، والدليل واضح.

(يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة: آية " 11 ")

(وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132))

(سورة الأنعام)

أما الناس فهم يعظمون أصحاب الأموال و أصحاب السلطان، ويعظمون من أتاه الله شكلاً بارعاً جميلاً، لكن المؤمن يقي الله عز وجل فلا يوالي إلا المؤمن..

تطبيق عملي:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

هذه الآية لها تطبيق عملي، فأنت -أيها الأخ الكريم- ما الذي يستهويك ؟ هل يستهويك رجل علم يعلمك مما علمه الله ؛ يعلمك الآداب و الأحكام و القرآن و سير النبي العدنان، أم يستهويك إنسان يعلمك السقوط، والانحراف، والانغماس في الملذات والشهوات ؟ والإنسان يُغْدَى، فانظر ما الذي يَغْدِيك ؟ فهذه الأوعية التي يستعملها الناس للماء لها فتحة علوية ولها صنبور سفلي، فالذي يوضع فيها من فتحته العلوية تجده في الصنبور السفلي، فلو ملأته ماءً فراحاً، أخذت منها الماء الفراح، ولو ملأته ماءً ملوثاً أخذت منها الماء الملوّث، ولو ملأته شرباً طيباً أخذت منها الشراب الطيب، فالإنسان ينظر.. من أين أتغذى ثقافياً ؟ هذا الذي يتغذى عن طريق أجهزة اللهو، وعن طريق أخبار الساقطين والساقطات الأحياء منهم والأموات يغذي نفسه تغذية رديئة، فماذا يتكلم إذا أراد الكلام ؟ أما إذا كان التغذية تغذية إيمان و قرآن وسنة و فضيلة و بطولات، فهذا الإنسان يخرج منه البطولات، فإذا التفتنا إلى أهل الدنيا وانغماسهم في الملذات وقلدناهم هلكنّا.

(وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21))

فإذا سمحنا لأعمال فنية ساقطة أن تربي أولادنا فماذا يوجد في العمل الفني الساقط ؟ هناك خيانة زوجية و تفلت و شرب خمر و اختلاط و احتيال و كذب و سقوط و دناءة.

مكر الكافرين:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21) وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا

(22))

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30))

(سورة الأنفال)

الكافر دائماً يهتئ خططاً لإطفاء نور الله وإبطال الحق، إنه لا يستطيع ذلك، ولكن الله عز وجل يعطيه فرصة ليكشف عن مكنونه، ليعبر عن ذاته، ليأخذ أبعاده، لكن الله سبحانه وتعالى يُفْشِلُ عمله، وقد قال الله عز وجل:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

(وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا (22))

لا تقلق على دين الله عز وجل إنه دينه، ولكن افلق هل سمح الله لك أن تنصره أم لم يسمح ؟ هل منحك الله شرف نصر دينه أم لم يُعْطِكَ هذا الشرف ؟ فقط..

آلهة الكافرين:

(وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا

(23))

هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها الجاهليون، هي خشبة أو تمر، إنها صنم من تمر لما جاعوا أكلوه، أو حجر، إنها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، قال بعض المفسرين: إنهم رجالٌ صالحون لما ماتوا نصبوا لهم تماثيل، وبعد حين عبدوها من دون الله، وحينما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق

الأعلى وقف الصديق رضي الله عنه، وما على وجه الأرض أحدٌ يحبُّ رسول الله كحُبِّ الصديق، ومع ذلك قال: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ". فالخطر أن نتخذ الأولياء آلهة نعبدهم من دون الله، فكل تعظيم للأشخاص يُفضي إلى عبادتهم و تقديسهم كما يُقدّس الإله، وهذا طريق إلى الشرك، لذلك حسم سيدنا الصديق الموقف وقال: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " فهذه أسماء الأصنام التي كانت تعبد في الجاهلية من دون الله، لها قصصٌ طويلة قد لا تغنيا شيئاً، إلا أن الذي نستقيده منها فيما يروي بعض المفسرين، وفيما ورد في الأثر، أنهم كانوا رجالاً صالحين لما ماتوا أراد قومهم أن يذكروهم دائماً، فصنعوا لهم تماثيل، بعد حين ضاع العلم فظنّوهم آلهة فعبدوهم من دون الله.

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24))

و سيدنا نوح لما أبلغ ربنا عز وجل قال له:

(وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36))

(سورة هود)

وبعد هذا الإعلام من الله عز وجل.

(وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26))

الآية التي قبلها:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)

أي بسبب خطيئتهم أغرقوا..

(فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25))

وكل إنسان يقع في الخطأ ويعصي، ويجحد، ويجهل، ويقترف الآثام، ويموت كافراً فهو من حياةٍ كلها شقاء إلى موتٍ حاسم إلى جهنم وبئس المصير.. هكذا..

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ

عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26))

طبعاً لكي نفهم الآية لا بد أن نعلم أن الله أعلمه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، إذاً يا ربي حياتهم لا تجدي.. إذاً..

(لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27))

أي: إن الكفار الله عز وجل وصفهم في آية، فقال:

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45))

(سورة الأعراف)

وقد رأيتم وسمعتم قبل أسبوع عن تلك وفاة إنسانة غارقة في الفساد والفسق والفجور والعصيان والزنى، وقد سار في جنازتها سبعة ملايين إنسان، وعظمتها كل دول العالم، وأرسلت وفوداً لتشجيع الجنازة، وهي تعترف بمؤتمر صحفي أنها زنت مع فلان، ومع فلان، ومع فلان، ومع فلان.. سبع حالات.. هذا هو مجتمع الغرب، مجتمع الكفر والفسق والفجور.

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُعْرِقُوا فَأَذِلُّوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27))

أي: إن ثقافتهم ثقافة زنى، ثقافة فُحش، ثقافة إباحية، ثقافة أمراض، ثقافة شذوذ، هذه ثقافتهم، وطرحهم الفكري لا يوجد فيه إلا الدنيا، فيقال لك: هذا علماني لا يؤمن إلا بالمادة ولا يؤمن إلا بهذه الحياة فقط، ولا يؤمن إلا بالشهوة، ولا يؤمن إلا بالمال، ويكسب المال من أي طريق، وينغمس في أية شهوة، ولا يعبأ بشيء.

(إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)

طبعاً والداه كانا مؤمنين كما يقول المفسرون.

(دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28))

أي: خساراً.

يا أيها الإخوة... هذه ليست قصة هي موعظة، هذه حقيقة تتكرر، إن كل مجتمع فسق، وفجر، وانحرف، وكفر، يُهْلِكُ ويشقى وهو إلى جهنم وبئس المصير.

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا (58))

(سورة الإسراء)

إذا لم يستقم الإنسان أصبحت أمامه مشكلة كبيرة، وقد كنت أضرب مثلاً فأقول: نحن في مسرح، فهناك مقاعد للمشاهدين و خشبة مسرح، وكل إنسان مستقيم له مكان مع المشاهدين، والمستقيم يستمع إلى

قصص غريبة ونادرة وصحيحة وكاذبة، قد تصدّق وقد لا تصدّق، أما إن لم يكن مستقيماً فلا بدّ من أن يُجرَّ إلى خشبة المسرح، ولا بدّ من أن تنزل به نازلة، ولا بدّ من أن يصبح قصةً هو نفسه، فهذه قصة أماننا، كيف أهلك الله قوم نوح، و عندنا هلاك جزئي، فقد تجد إنساناً فسق و فجر وأسس ملهى وأحضر كل الساقطات للملهى، وبعد افتتاحه بأسبوع مات.

(فَأَدْخِلُوا نَاراً)

الذين يبنون رزقهم على المعاصي والآثام، و يأكلون أموال الناس بالباطل، و يبنون مجدهم على أنقاض الناس، هؤلاء جميعاً يموتون.. وسبحان من قهر عباده بالموت ثم يدخلون إلى النار وبئس المصير.. هذه ليس قصة، بل هي حقيقة متكررة، فالإنسان عليه أن ينتبه، وعليه أن يعرف الله وأن يعرف منهجه، وأن يستقيم على أمره لئلا يكون كما قال الله عن قوم نوح، هؤلاء الذين عصوا، وطغوا، وعتوا، وفجروا ثم أهلكهم الله عزّ وجلّ وصاروا إلى النار وبئس المصير.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (1-8): المقدمة 1

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-09-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالجن، وحدود قدراتهم

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة الجن.

إن هذه السورة تتحدث عن نوع من مخلوقات الله عز وجل وهم الجن.

تطرف بعض الناس في اعتقادهم بالجن:

1- هناك من الناس من تطرف فنسب للجن كل الخوارق والعلوم والأفعال، كما نسبوا إليهم كل نفع و ضرر، بل إنهم قد وصلوا إلى أبعد من ذلك حينما زعموا في عهد النبي أن الجن هي التي علّمت النبي عليه الصلاة والسلام.

2- وتطرف أناس آخرون فأنكروا وجود الجن، مع أن الحقيقة تقول: إن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

أين الحقيقة ؟

إن الحقيقة إنما تكون من عند الله عز وجل عن طريق الوحي، لذلك كان أول رد على الذين زعموا أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقى علمه من الجن الذين عاصروا النبي هو أن الجن قد استمعوا إلى القرآن بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوه والنبي لا علم له بذلك، فلولا أن الله أخبره وأمره أن يخبر الناس أن الجن استمعت إليه لما علم ذلك.

أيها الإخوة.. لا أريد في هذه العجالة أن أبدأ بشرح الآيات بل أريد أن أضع بعض الحقائق عن الجن كما هي مستنبطة من الوحي السماوي.. قال الله جلّ جلاله:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

معنى هذه الآية أن الإنسان مخلوق مكرم قبل حمل الأمانة، في حين أشفقت السماوات والأرض من حملها، وقد كان من أبرز المخلوقات الذين أشفقوا من حمل الأمانة الملائكة ؛ فقد ملكوا أنفسهم لله عز وجل وآثروا الإقبال عليه من دون مخاطرة التكليف والاختيار، فكانوا في بحر الأمان، وهم كائنات تسبح الله عز وجل وتمجده وتأتمر بأمره:

(لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

بينما أثر صنف الحيوان النجاة من مخاطرة التكليف، كما أنه أثر الشهوة ؛ فهو يستمد سعادته من الشهوات التي أودعها الله فيه دون أن يكون مسؤولاً.

الفرق بين ماهية الإنسان والحيوان والملك:

إن الملك يسبح الله وهو ناج من مسؤولية الاختيار فقد رُكِبَ من عقلٍ بلا شهوة، أما الحيوان فقد رُكِبَ من شهوةٍ بلا عقل، فالملك يسبح والحيوان يأكل ويسبح، لقوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

إلا أن هناك آيات كثيرة قرنت الجن بالإنس، فقد قال تعالى:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَا تَتَّقُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ)

(سورة الرحمن)

(قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

لقد استنبط من هذه الآيات أن الجن أيضاً هم مخلوقات من نوع خاص، كما هو الحال في الإنسان، فهو مخلوقٌ أول لأنه قبل حمل أمانة التكليف كما أنه قبل أن يغامر، فأودعت فيه الشهوات وأعطى عقلاً في وقتٍ واحد، فالملك رُكِبَ من عقلٍ بلا شهوة، والحيوان ركب من شهوةٍ بلا عقل، لكن الإنسان ركب من كليهما، فعنده نوازع أرضية كما يمتلك تطلعات إلى السماء، وذلك لأن الإنسان مخلوقٌ متميز فهو ليس ملكاً ولا حيواناً، فالحيوان هو شهوة فقط، أما الملك فهو عقل فقط، أما الإنسان ففيه العقل وفيه الشهوة، فإن سمت شهوته على عقله كان دون الحيوان، و إن أحقر حيوان ترونه بأعينكم هو أفضل من الإنسان الشارد عن منهج الله:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

أي: إن هؤلاء هم شر ما برأ الله، ولكن الإنسان إذا سما بعقله على شهوته أصبح فوق الملائكة. أيها الأخ الكريم... إن هويتك الأساسية هي أنك المخلوق الذي قبل حمل الأمانة في حين أن السماوات والأرض أشققتا من حملها، فإذا سما عقلك على شهوتك تفوّقت على الملائكة، لأن الملائكة ليس عندها ما تغامر به، أما الإنسان ففيه نوازع أرضية وتطلعات سماوية، وفيه قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله عزّ وجل وهو بينهما، فحينما قبل الإنسان حمل الأمانة كرّمه الله أعظم تكريم ؛ ومن أعظم

أنواع التكريم أنه سخر له ما في السماوات والأرض جميعاً منه تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، ويا ليت الإنسان يعرف من هو ؟ إنه إذا عرف ذاته فهم أنّ كلّ هذا الكون مسخرٌ له، كما أنه يفهم أن الله إذا أدبَه إنما يؤدِّبُه من أجل أن يرجعه إليه وفي ذلك سعادته، فقد يظن الناس الجهلة أن موارد الأرض قليلة وأن هناك تفجراً سكانيّاً و مجاعات تنتظر أبناء الأرض، و هذا كلامٌ مضحك لأن الله عزّ وجل إذا قنن كان تقنيته تقنين تأديب لا تقنين عجز، فهو يؤدِّب هؤلاء الناس الذين خلقهم ليكونوا مخلوقات في الصف الأول فجعلوا أنفسهم في الصف الأخير، فقد سُخِّرَت لهم السماوات والأرض فكانوا مسخّرين لشهواتهم، أيها الأخ الكريم: إن الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، وأنت لمن ؟ أنت لله الواحد الديان، و لا يليق بك أن تكون لغير الله، ولا يليق بك أن تُحسَب لغير الله، كما لا يليق بك أن تُجَبَّر طاقاتك وتقني شبابك وتنفق عمرك لغير الله، فأنت لله، وقد خُلِّقت لسعادةٍ أبدية.

مثال يوضح معنى (الأبد):

أيها الإخوة الكرام... ما الأبد ؟ إننا قد لا نفهم هذه الكلمة، لقد ذكرت مرة في جامع العثمان هذا المثل: لقد كان أمامي كتاباً أقرأ منه، فقدّرت طوله بخمسة وعشرين سنتيمتراً، وقلت: إذا وضعنا واحداً في طرفه الأول وكان مكان كل ميليمتر صفر، أصبح لدينا مائتين وخمسين صفرًا، فكم هذا الرقم ؟ إن أول ستة أصفار من هذا الرقم تعني مليون، وثاني ستة أصفار تعني مليوناً آخر، و ثالث ستة أصفار تعني مليوناً ثالثاً، فإذا قسمنا مائتين وخمسين صفرًا على ستة لكان الناتج خمسين مليوناً، فلو أن الأصفار كانت إلى مدخل المسجد، فما هو هذا الرقم الناتج عندئذ ؟ لقد كنت أرى ساحة شمدين وأنا على كرسي التدريس، فقلت: تصوروا أن الأصفار ممتدة إلى ساحة شمدين مثلاً، أو أنها ممتدة إلى النبك، و إلى حمص أو حماه أو حلب أو إلى أنقرة أو موسكو أو القطب الشمالي، ولو أننا عُدنّا إلى المحيط الهادي من القطب الجنوبي، ثم عُدنّا صعوداً إلى جنوب إفريقيا ثم إلى مكة، ومعان وعمّان، وبعد ذلك عدنا إلى الشام مرة ثانية، فكم يصبح هذا الرقم، إن الإنسان في هذه الحالة يكون أمام أربعين ألف كيلو متر من الأصفار، وكل ميليمتر من هذه الكيلو مترات هو عبارة عن صفر، فما هذا الرقم ؟ إنه رقم يصعب تصويره، فإذا كان أحدنا أمام أصفار تصل إلى الشمس، وإن المسافة بين الأرض والشمس هي مائة وستة وخمسين مليون كيلو متراً، وكل ميليمتر هو صفر، إن هذا الرقم ضخم جداً، لكنه إذا نُسب إلى اللانهاية كان الناتج صفرًا، وقيمة الصفر هي: لا شيء، فأنت مخلوق للأبد، أنت مخلوق لجنةٍ لا ينفذ نعيمها فيها من السعادةٍ مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمسكينٌ هو ذلك الإنسان الذي يضَيِّع سعادة الأبد من أجل سنواتٍ معدودة مشحونة بالهموم والمتاعب، وكم هو خاسر ذلك الذي يضيع جنة خلقه الله له من أجل دريهمات يكسبها حراماً في سنواتٍ معدودة، أو من أجل أن يمضي وقتاً مع نساءٍ ساقطات يعصي الله بهن، إن الإنسان مسكين إذا نسي لماذا خلقه الله، و ظن أن

الدنيا و المال و المرأة و المكانة الاجتماعية كل شيء، وهو مسكين لأنه ما عرف قيمته و هويته، ولا عرف مكانته عند الله عز وجل، و أنه مخلوقٌ أوّل مكرّم مميز مكلفٌ بالعبادة، إنه يغفل عن أخطر شيءٍ في حياته:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

من أنت؟؟!

أيها الأخ الكريم... يجب عليك أن تعرف من أنت، إن الله جلّ جلاله في عليائه أنزل هذا القرآن ليعرفك من أنت، ثم يعرفك بمهمتك الخطيرة التي أنيطت بك، و يعرفك أن كلّ سعادتك وسلامتك في طاعته، وكلّ شقائك وعطبك في معصيته، و يعرفك أنك زمن، فما أنت إلا بضعة أيام، و إن كل واحد منا له عمر عند الله عز وجل، فالواحد منا مثلاً قد يبلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أسابيع وخمسة أيام وسبع ساعات وثمانين دقائق وأربع ثوان، وهذا هو الإنسان، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، فهو أيامٌ معدودة، ومضي الزمن يستهلكه ويقضي عليه، و هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

إن مضي الزمن وحده يستهلكه وهذه خسارة كبرى لك، وإنك مخلوق سُخِّرَتْ لك السماوات والأرض، فهذه المجرة التي تبعد عنا ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية مسخرةٌ لك وهناك مليون مليون مجرة وفي كل مجرة تقريباً مليون مليون نجم، وكل هذه المجرات مسخرةٌ لك بنص القرآن الكريم، وهو كلام خالق الكون:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

ماذا تعمل ؟ كيف تمضي وقتك ؟ ماذا أعددت ليوم اللقاء مع الله عز وجل ؟ و ماذا أعددت لهذه الحياة الأبدية التي لا تنقضي، فإما أن تكون فيها في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، ماذا تقول إذا وقفت بين يدي الله عز وجل الذي يقول لك:

((عبادي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعيني رغيّاً أسوقه لك كلّ حين؟؟))

أي: أتعصيني من أجل الرغيّف، فتغتصب ما ليس لك، و تغش و تكذب و تحتال على الناس من أجل أن تربح ؟

((لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً))

أيها الإخوة... أريد منكم بعض التأمل و بعض التريث:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

لقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مشى مشى مسرعاً كأنه ينحط من صبيب، وقالت السيدة عائشة عن سيدنا عمر: " رحم الله عمر ! ما رأيت أزهده منه ! كان إذا سار أسرع، وإذا أطمع أشبع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع " .

فما معنى قوله تعالى:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

معنى (يمشون هوناً) ؛ أي: لا يسمحون لهذه الدنيا الفانية أن تستهلكهم، و لا يسمحون لمشكلاتهم أن تشغلهم عن ربهم، و لا يسمحون لعرض الدنيا الزائل أن يصرفهم عن هدفهم الكبير، كما لا يسمحون لعملهم أن يقبرهم:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمَعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

نحن نرى الناس الآن كل منهم في قبر ؛ فهذا غارق في قبر عمله، وهذا في قبر زوجته، وهذا في قبر أولاده، وهذا في قبر صنعته، وهذا في قبر أمله، أم عباد الرحمن فهم لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم ولا أن تصرفهم عن الهدف الكبير الذي خلقوا له، وإذا تأملنا بعض التأمل رأينا أن هؤلاء الذين هم من عمل إلى عمل، ومن لقاء إلى لقاء، ومن حفل إلى حفل، ومن نشاط إلى نشاط يأتيتهم الموت فجأة، فيقال لهم: " أم ماذا كنتم تعملون؟ " أيعقل أن يذهب إنسان إلى بلدٍ غربي لينال الدكتوراه و يعود إلى بلده وهو يحمل أعلى منصب، ثم ينسى سرَّ مجيئه إلى هذا البلد، وينسى أنه أرسل ليحصل هذه الشهادة العليا ؟ فيتلهى بالملهيات، ويغرق في الموبقات و النزهات والمسارح و المتاحف و النوادي الليلية، ثم تمضي الأيام ويعود صفر اليدين بعد ذلك.

يا أيها الإخوة... إن هذه دعوة إلى أن تعرفوا أنفسكم من خلال هذا الكتاب الذي هو كلام الله، فالإنسان مخلوق أول:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

أي: لتطيعه طاعة طوعية مع حبٍ شديد على أساس معرفته، لكي تسعد بقربه، فهؤلاء الملائكة قد يذكرون الله دائماً من دون مسؤولية أو مغامرة، فهم ليس عليهم حساب، لأنهم لا يملكون شهوات يميلون إليها، أما هؤلاء الحيوانات على كثرة أنواعهم فهم ليسوا محاسبين ولا مكلفين، لأنهم يمارسون شهواتهم مسيرين لا مخيرين، فهم معفون إذاً من المسؤولية، كما الملائكة قد أعفوا من المسؤولية أيضاً، لكن هذا الإنسان كائن ازدواجي، فيه قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله، وفيه نوازع أرضية ؛ كحاجته للطعام والشراب والنساء، كما فيه نوازع سماوية ؛ كأن يكون كريماً و عفواً وجواداً و منصفاً ومحسناً، متصلاً بالله متعرفاً عليه متقرباً إليه، ليسعد به، و هنيئاً لمن ضبط شهواته وفق منهج الله. ضبط الشهوات:

إن الله عزّ وجل لم يحرم على الإنسان الشهوات التي أودعها فيه، ولكنه أمره بضبطها وفق منهجه فقط، فقد سُمِحَ له أن يأكل ما شاء إلا لحم الخنزير، وأن يشرب ما يشاء على إلا الخمر، وأن يختار أي امرأة راقته فيتزوجها على أن يدع الزنى وإطلاق البصر إلى الحرام، وقد سُمِحَ له أن يكسب المال الحلال على أن يدع المال الحرام، فمنهج افعل ولا تفعل هو منهج تفصيلي، فيا سبحان الله ! ما شأن هؤلاء المسلمين الذي ضغطوا الدين فجعلوه صوماً وصلاةً وحجاً وزكاةً فقط ؟ إن في الدين _إن صح التعبير_ مليون بند ؛ فالإسلام معك في بيتك حينما تغتسل، و حينما تلتقي مع أهلك، و حينما تربي أولادك، كما أنه معك حينما تخرج من بيتك و تدخل إلى دكانك، وهو معك في لهوك و جدك، و في سفرك و إقامتك، و في حربك و سلمك، و في مسراتك وأحزانك، و هناك منهج دقيقٌ دقيقٌ يجب أن تسير عليه، فهذا الإنسان هو الكائن الأول الذي منحه الله شرف التكليف، وقد أعطاه الله مقومات، فسخر له كوناً ينطق كله بوجود الله ووحدانيته وكماله، و أعطاه عقلاً وقوة إدراكية يتميز بها على كل المخلوقات.

الإنجازات المذهلة للعقل الإنساني:

إن الطائرة التي تحمل سبعمائة راكب يجلسون على مقاعد وثيرة، ويأكلون أطيب الطعام الساخن، و يشربون أطيب الشرابات الباردة، ويحلقون على ارتفاع أربعين أو خمسين ألف قدم، هذه الطائرة قد صُنعت عن طريق هذا العقل الذي أودعه الله فينا، فما هذا العقل ؟ إنه شيء معجز، وإنني لا أبالغ إن قلت: إن العقل البشري هو أعقد شيء في الكون، فقد اخترع الإنسان أشياء مذهلة، وأنا هنا لا أمدح هذا الإنسان ولا أثني عليه، لكنني أبين لكم هذه المخترعات، فهي شيء لا يصدق، ومنها أن يصور إنسان إنساناً آخر في أقاصي الأرض، فيلتقط حركاته وسكناته، فتُنقَل هذه الصورة إلى كل بقاع الأرض في

وقتٍ واحد، وإنك الآن تضرب كلمات بحروف، فتنتقل هذه الكلمات خلال ثانية إلى أقصى المعمورة، وهذا عمل الفاكس أليس كذلك ؟ فهناك منجزات مذهلة للعقل، وقد صنع هذا العقل جهاز يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية.

أيها الإخوة... إن الإنسان قد وصل إلى القمر، ثم أرسل مركبة إلى المريخ وهو يبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليون كيلو متر، كما أنه أرسل مركبة إلى المشتري بقيت تسير ست سنوات بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، وقد اخترع الإنسان الحاسوب الذي يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية، كما اخترع وسائل للمعرفة، منها الأسطوانة التي دُون فيها كتب تملأ أربع جدران، وقد وصل الإنسان إلى أعماق البحر، فحفر فيها آبار النفط، فوالله الذي لا إله إلا هو لو بذل هذا الإنسان من هذه الطاقة الفكرية التي أودعها الله فيه واحداً بالمليون لعرف الله ولسعد بقربه، فمسكين هذا الإنسان الذي يستخدم عقله لغير ما خلق له، لقد استخدمه من أجل السيطرة على الطبيعة فتم له ذلك، كما استخدمه لنقل الأشخاص و الصور و المعلومات بلمح البصر وتم له ذلك، واستخدم عقله لصنع مركبات فارهة و طائرات كبيرة وناقلات تزيد حمولتها عن مليون طن، فحمولة ناقلات النفط العملاقة هي مليون طن، فكان هذه الناقلات مدينة مصغرة، فلو استخدم من عقله واحداً بالمليون لعرف الله وسعد بقربه في الدنيا والآخرة، لكنه يستخدم أثمن شيء يملكه لغير ما خلقه الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104))

(سورة الكهف)

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

حقيقة الدنيا:

لقد أعطى الله الإنسان الشهوات ليرقى بها إلى رب الأرض والسموات صابراً وشاكراً، كما أعطاه حرية اختيار ليثمن عمله، و أعطاه منهجاً تفصيلياً يسير عليه، و أعطاه شرعاً حنيفاً لا يخطئ، فالحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، فمن كون إلى عقل إلى فطرة إلى شهوة إلى حرية اختيار إلى منهج، وذلك لأنه قيل حمل الأمانة، أما الغافل عن ذكر الله و الغافل عن حقيقته و مهمته، والمفتون بهذه الدنيا الفانية القصيرة التي تنقضي بلمح البصر فإنه سيكون تحت أطباق الثرى ما بين طرفة عين وانتباهتها، فقد يكون الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا هو خبير على الجدران، فيقال: انتقل إلى رحمة الله تعالى عميد الأسرة الفلانية وسيُشَيَّع إلى مثواه الأخير، ثم ينتهي بعد ذلك كل شيء، فإلى أين نحن

ذاهبون ؟ إن هذا الذي يعيش يومه و لحظته، فلا يفكر من أين و إلى أين، ولا يفكر في سبب حياته يعيش على هامش الحياة، و هو إنسان يحتقر نفسه.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا مِنْ سَفَاهَةٍ)

(سورة البقرة: آية "130")

هناك أشياء كثيرة يرفضها الإنسان احتقاراً لها، إلا دين الله عزّ وجل فإنك إذا رفضته احتقرت نفسك، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا مِنْ سَفَاهَةٍ)

اعرف نفسك:

أيها الإخوة الكرام... من عرف نفسه عرف ربه، فإذا عرفت نفسك وظفت كل شيء الله أعطاك إياه في الحق، و استخدمته فيما خُلِقْتَ له، فتستخدم عقلك لمعرفة الله، وعينك للنظر إلى آيات الله، وأذنك لسماع الحق، ولسانك لذكر الله عزّ وجل، فإذا عرفت نفسك فهمت خطورة المهمة التي أناطها الله بك، وعرفت أن الله عزّ وجل خلقك ليسعدك، قال تعالى:

((إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم))

فإذا عرفت هذه الحقيقة كنت إنساناً آخر، أما إذا شردت عن منهج الله فإنك ستكون من الذين لا يُقام لهم وزن يوم القيامة، و لهم صغارٌ عند الله..

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

أيها الإخوة الكرام... اكسبوا حياتكم، واعرفوا هويتكم، وافهموا لماذا خلقتكم في الأرض، لقد خلقتكم لمعرفة الله والعمل الصالح، وحينما تحققون هذين الهدفين، تأتيكم الدنيا وهي راغمة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

فماذا يفعل بعذابكم إن أردتم سعادة الدنيا والآخرة، فإذا أردتم ذلك فاعرفوا من أنتم، واطلبوا العلم، لتتعرفوا من خلاله إلى الله عزّ وجل، فتفقهوا منهجه، وتميزوا أهل الحق، و تهتدوا إلى الطريق المستقيم وهو طريق سعادتكم.

من الجن؟؟

لقد أردت من هذه المقدمة أن أقول: إن الجن الذين هم موضوع هذه السورة مخلوقات كالإنس.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن آية "33")

(فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

و في درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نشرع في تفسير هذه السورة التي تعطي الجن الحقيقة التي ينبغي أن نعرفها عنهم دون زيادةٍ أو انحرافٍ أو إسرافٍ أو إنكارٍ، فالجن كائنات خلقها الله عزَّ وجل و أعطاهما حرية الاختيار

الإيمان بالجن:

إن الإيمان بالجن هو من العقائد التي تُعلم من الدين بالضرورة، وهو فرض عين، ففرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، لكن الإيمان بالله و أسمائه الحسنى، والإيمان بالملائكة و الجن، والرسول، والكتب، والقضاء والقدر، هذه كلها عقائد يجب أن تُعلم بالضرورة، فهي فرض عين على كل مسلم. توضيحٌ دقيق:

لو أن إنساناً اشترى سيارةً، وجب عليه أن يعرف أنه إذا تألق الضوء الأحمر في لوحة العدادات فلا بدَّ له من أن يقف فوراً ليضيف زيتاً إلى المحرك، وإلا احترق المحرك، فهذه معلومات يجب أن يعرفها كل من يقود السيارة، لكن معرفة نوع الخلاط التي استخدمت في صناعة المحرك ليست واجبة على كل من يركب السيارة، فهي للذين يتخصصون في صناعة السيارات، فهناك علوم يجب أن يعلمها كل إنسان مسلم ولا عذر له في جهلها، وإذا جهلها زاعت عقيدته فانهرف سلوكه و شقي في الدنيا والآخرة، وموضوع الجن من العقائد التي يجب تعلم بالضرورة، لأنك إذا توهَّمت، أن هذا فلان يعرف الغيب، وأن هذا الشيخ يتطلع على ما سيكون، فإنك في هذه الحالة تمشي في متاهاتٍ لا أساس لها من الصحة.

وقد مرَّ معنا من قبل أن من الجن من هم مؤمنون ومنهم من هم كافرون، قال تعالى:

(وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة الجن آية " 11 ")

مدى تأثير الجن على الإنس ؟

إن كان لخبثاء الجن بعض التأثير الجسمي على أحد من الإنس، فهذا التأثير إنما يكون على من يستكينُ بأوهامه وتخيلاته إلى سلطانهم، فالجن لا يستطيعون أن يؤثروا على أحد إلا إذا استكان وخضع لهم واتبعهم واعتقد بهم وأشركهم مع الله عزَّ وجل، فكلُّ من يستكين بأوهامه لهم من ذكر أو أنثى أو يتخيل أن بيدهم نفعه أو ضرُّه و يخضع لسلطانهم، فإنه يتعرض لمسههم وتخبطاتهم، وسبب ذلك هو استعاذته بهم والتماسه نفعهم أو استخدامه لهم من أجل الإضرار بأعدائه من الإنس، و هذه الحالات محددة، فمن أراد أن يستخدم الجن ليضرَّ بهم إخوانه من الإنس، أو التمس النفع عندهم، أو استعاذ بهم، أو خضع

لسلطانهم، أو اعتقد بهم، أو استكان بأوهمهم لهم، دفع ثمن جهله و شركه و ضلاله، إذ قد يتعرّضون له بالأذى، و قد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نستعِذ بالله من همزات الشياطين ومن حضورهم، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إذا فرغ أحدكم في النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن

همزات الشياطين وأن يحضرون فإنه لم تضره))

فإذا رأى إنسان مثلاً ابنه يبكي في الليل بكاءً شديداً فجأةً فليستعِذ بالله من همزات الشياطين، و هذا هو السلاح الفعّال المجدي.

ومنه ما رواه أبو داود وابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن زيد بن الأرقم قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الحشوش (أي مكان قضاء الحاجات) محتضرة (أي يحضرها الشياطين)، فإذا أتى أحدكم

الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخُبث والخبائث))

و هذا دعاءٌ مأثورٌ عن النبي عليه الصلاة والسلام..

فالفكرة الأولى هي أن الشياطين ليس لهم سلطانٌ على الإنسان إلا إذا اعتقد بهم أو أشركهم مع الله، أو خضع لسلطانهم، أو توهم أنهم ينفعونهم و يضرّونهم، أو ابتغى النفع عندهم، أو استعاذ بهم والتجأ بهم، أو أراد أن يكيد لإخوانه من الإنس عن طريقهم، فإذا فعل هذا مسّه شرُّهم ومسته همزاتهم، ودفع ثمن شركه وبغيه وعدوانه غالباً.

هل يُلقِي الجن للإنس علوماً وأخباراً ؟

إن الجن قد يلقون العلوم والأخبار إلى قُرَائنهم من الكُهَّان، و بالمناسبة: لا يمكن للإنسان الذي يتعاون مع الجن إلا أن يكون كافراً، و هذا قول واحد، لأن أدق التعريفات للساحر أنه الشخص الذي يتصل بالجن، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((من سحر فقد كفر))

فأي اتصالٍ بين الجن و الإنس، لا بد أن يكون هدفه إضلال البشر، ولو تزيّياً هذا الذي يتصل بالجن بألف زي وزي، و قد يكون هذا زي دينياً في بعض الأحيان، فقد يلبس هذا الإنسان عمامة خضراء، لكنه كافر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم فعله ذلك، لأن هدفه إيهام الناس أن بيد الجن النفع والضّر، ليحولهم بذلك من عبادة الله سبحانه وتعالى إلى عبادة خلقه.

و السؤال الآن: هل يلقى الجن للإنس علوماً وأخباراً ؟ ونقول إجابة عن ذلك: أما العلوم والأخبار التي يمكن أن يلقِيها الجن إلى قُرَائنهم من الكُهَّان فصدقها مرتبط بطبيعة مواضيع هذه العلوم التي يُلْقونها.

1- العلوم المشهودة: فإن كانت من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهودة، كأن يخبروا عن الأمطار الغزيرة التي نزلت في حلب هذا اليوم، فنزول الأمطار في حلب هذا اليوم من الأشياء المشهودة التي وقعت، و ليس من الأشياء الغيبية، لكن نقل الخبر قد لا يكون متيسراً للإنس قبل وجود الاتصالات السلكية واللاسلكية، والسفر السريع إلى هذه البلاد، فالجن أحياناً يستطيعون أن ينقلوا هذه الأخبار التي وقعت، وليس التي ستقع، و هذا ليس من عالم الغيب بل هو من عالم الشهادة، فإن كانت هذه الأخبار التي ينقلها الجن من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهودة أو الأخبار عن الوقائع الماضية، فإنها أخبارٌ تحتمل الصدق والكذب، وليس ببعيدٍ أن يكون في الجن كذابين، وقد أثبت الله تعالى أن منهم العصاة الكافرون، ومن جهة ثانية إننا لا يمكننا الثقة بأخبارهم لانعدام المقاييس بحوزتنا في معرفة صدقهم وكذبهم، و من الممكن أن يكون انتقال الجن سريع جداً، والدليل:

(قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)

(سورة النمل: آية "39")

فقبل أن يقوم سيدنا سليمان من مقامه استطاع العفريت من الجن أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى القدس، فانتقاله سريع جداً، قال الله عزَّ وجل:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا

بِأَمْرٍ)

(سورة الرحمن)

فقد قدَّم الله سبحانه وتعالى الجن على الإنس لأنهم أقدر من الإنس على خرق السماوات والأرض لميزاتٍ أعطاه الله إياهم.

قصة تبين كذب بعض الجن:

سأذكر لكم هذه القصة وقد سمعتها بأذني من صاحبها الذي توفي الآن رحمه الله، فقد سُرقت من بيته سجادة ثمينة جداً، فدلّه بعضهم على من يضرب له (المندل)، فقال: ذهبت إلى (ضارب المندل) فجاء بوعاءٍ وضع فيه زيت، وجاء بغلام صغير، وصار يسأل هذا الغلام والغلام يجيب قائلاً: إن هذه السجادة موجودة الآن في بيت كذا، ثم حدد الحي، و(الدخلة) و الحارة، وقال: أمام البيت هناك حجر كبير، و الباب لونه كذا، وهو يفتح على بهو واسع، ويوجد على اليمين غرفة تدخلونها، و في زاوية الغرفة مكان في الحائط يشبه هذا المكان، يوجد عليه فرش ولحف، فتنزعون الفرش و اللحف، فتجدون صندوقاً فيه قطن، و السجادة تحت القطن، فقال هذا الرجل: توجهت إلى هناك وأخذنا معنا المختار وقد كان له عمل في الدرك، واقتحمنا البيت، فكان كل شيءٍ قاله هذا الطفل في (المندل) صحيحاً، من أدقّ التفاصيل إلى أكبرها، فقد دخلنا البيت و وجدنا الفسحة السماوية، ودخلنا إلى الغرفة و وجدنا في

صدرها فراغاً يوجد عليه صندوق وفرش ودُسُر، ففتحنا الصندوق، و وجدنا القطن ولكننا لم نجد السجادة، فذهبوا إلى صاحب البيت، فكان بائع سجاد، فضربوه إلى أن قال: لقد أخذتها وبعثتها، فانفقوا أحد السجادات وخذوها مكانها، قال هذا الرجل: ثم أخذنا سجادة بنفس القياس، و بعد أربعة أشهر قال لي رجل كان في السجن: أتدري من سرق من عندك السجادة ؟ قلت له: أعرف، وقد استرددتها... قال له: لا، فقد كنت في السجن فحدثني أحد السجناء أنه هو الذي دخل إلى بيتك وسرق السجادة.

فأين كلام الجن؟ إنهم كذّابون، لكنهم قد يعرفون معالم هذا البيت بلا شك، فأعطوه كلاماً صحيحاً عنه، لكنهم لا يعرفون من أخذ السجادة، فلذلك كان ضرب المنديل خلط وكذب و دجل، و لكن قد يوجد في أثناء الكلام بعض الحقائق ليست الغيبية بل المشاهدة، فهذا الجني يعرف أن في هذا المكان يوجد الحي الفلاني، والبيت الفلاني، والمكان الفلاني، وقد أردت من هذه القصة الطويلة أن أقول: إن الجن في نقلهم للأخبار المشهودة يكذبون ويصدقون، فهم لا يعوّل على كلامهم إذاً، لأننا لا نملك المقاييس للتفريق بين كذبهم وصدقهم.

2- العلوم الغيبية: إن كانت الأخبار التي يخبرون بها من المغيبات فهي على نوعين:

أ - إما أن تكون من المغيبات التي استأثر الله بعلمها، كعلم الساعة مثلاً، قال تعالى: " إن الله عنده علم الساعة" فهذه العلوم لا يمكن للإنس، ولا جن، ولا نبي أو رسول أن يعرفها.

وقد ألقى أحد العلماء غير المستنيرين محاضرةً في بعض عواصم الدول العربية، عن إعجاز القرآن الرياضي، واجتمع حوله علماء كثيرون، فقد بدت لهم المحاضرة قيّمة، وقد كان هذا المحاضر يعمل على الكمبيوتر، فلَقَم كلمات القرآن لهذا الجهاز فجاء بحقائق مذهشة، لكنه شطّ به الطموح فعَيّن يوم القيامة، فانسحب عندئذٍ كل من في المحاضرة من العلماء، لأن هذا دجل، لأن الله عنده علم الساعة وحده.

إذاً: إذا كانت المعلومات من الحقائق التي استأثر الله بها، فلا يمكن للإنس ولا جن ولا ملك ولا نبي ولا رسول أن يعرفها، و التحدّث بها ضرب من الكذب والافتراء على الله، لكنه وارد على لسان أحد القرينين من الإنس والجن.. قال ربنا عزّ وجل:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

(سورة الأنعام: آية " 59 ")

فلو قال الله عزّ وجل: (ومفاتيح الغيب عنده)، لكان هناك فرقٌ كبيرٌ جداً في اللغة، فإذا قال الله عزّ وجل: (ومفاتيح الغيب عنده)، معنى ذلك أنها عنده، كما أنها قد تكون عند غيره، ولكن حينما قدّم الظرف على المبتدأ فقال:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

كان معنى ذلك أن الغيب محصورٌ ومقصورٌ على الله وحده، وليس لأحدٍ كائناً من كان أن يعلمه، فكل من قال لك: أنا أعلم ما سيكون، فهو دجالٌ و كذاب، فما بال هذه (الصَّرعَة) التي ظهرت حديثاً بين الناس، فجعلت في كل عاصمة كبيرة كاهنة أو كاهن يأتيه رجالٌ من عِلْيَةِ القوم فيسألونه عن المستقبل، فيقولون: هل سَأَبقى في هذا المكان ؟ هل سَأَبقى بهذه البحبوحة ؟ ماذا سيحصل لي في المستقبل ؟ وهذا كله سخفٌ في سَخَفٍ، و دجلٌ في دجلٍ، و كذبٌ في كذبٍ، و غباءٌ في غباءٍ، فلا يعلم الغيب إلا الله. ب- قد تكون هذه المغيِّبات من الأمور التي قُضِيَتْ في السماء، وأصبحت معلومةً لذوي الاختصاص من الملائكة، كما أصبحت معدَّةً لتبليغها للملائكة، ومثال ذلك أن ترتنيَ الحكومة فجأةً أن تقدِّم الساعة أو أن تُؤخرها، فيتداول الأمر من في مجلس الوزراء، لكنه لا يذاع، فلو فرضنا أن أحد الأذنة (المستخدمين) دخل ليقدم لهم الشاي أو القهوة، فسمع أنهم يُزعمون تقديم الساعة، فهذا القرار في الحقيقة لا يزال طيَّ الكتمان، لكن هذا (الأذن) استطاع أن يأخذه بشكلٍ أو بآخر، فلما أذاعه في الناس بين أسرته وأقربائه، ظنَّوه أنه يعلم ما سيكون، وهذا غير صحيح، لأن هذا مما هو كائن، أما ما سيكون فلا يعلمه إلا الله، وقد يُتخذ هذا القرار، وكان هذا الأذن قد دخل ليقدم القهوة فسمع شيئاً عنه، فيأتي إلى أهله ويقول: لقد آتاني الله قدرة على كشف الغيب، ودليله على ذلك، أنهم في يوم الثلاثاء سوف يقدِّمون الساعة، وليس ثمة أحد ذكر هذا الكلام، فيصدق الناس ما يقول، و يعتقدون أنه ولي، والعملية في النهاية ما هي إلا استراق خبر بعد أن اتَّخذ قراره، فأذاعه هذا المستخدم قبل أن يُذاع في الإعلام، و هذا هو الموضوع كله. و قد جاء حديثٌ لرسول الله ما يأتي:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانَ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذَكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ) اتخذ فيه قرار (فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ))

(صحيح البخاري)

(قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34))

(سورة: الذاريات)

فالقريّة كانت لا تزال على حالها ؛ تعيش حياتها الطبيعية، لكن الملائكة أباحوا لسيدنا إبراهيم ما سيُصنع بها:

(قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(34))

(سورة: الذاريات)

فهل هذا من قبيل علم الغيب ؟ لا، إن هذا قراراً اتخذ في السماء وبلغ لأصحاب العلاقة لينفذوه، و من قبل أن ينفذ علمه سيدنا إبراهيم، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ فَتَذَكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكَهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ))

(صحيح البخاري: الرقم " 2971)

فقد يعطون الخبر الصحيح ويخلطون به مليون خبر كذب، "فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ"، فهي عملية استراق أمر قضى الله به في السماء وبلغ للملائكة لتنفيذه، فيأتي الشيطان فيسترق هذا الخبر و يوحيه إلى لكاهن، فيقوله للناس، ثم يوهم الناس أنه يعلم الغيب، و لا غيب في ذلك، إنما هو استراق الشياطين السمع من الملائكة، بعد نزولها إلى جو الأرض، وليس استراق السمع من السماء كما كان دأبهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد منعوا بعد العثة من ذلك بالشهـب:

(وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(9))

(سورة الجن)

إثم المتصل بالجن من الإنس:

إن من يلقي سمعه للشياطين عليه إثمه الكبير، فقد قال تعالى في سورة الشعراء:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (221) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ(223))

(سورة الشعراء)

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت، فهذا الذي يلقي أذنه للشيطان، هو آفَاكٍ أَثِيمٍ كاذب، ضالٌّ مضل:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (221) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ(223))

(سورة الشعراء)

فأي تعاون بين إنسان و شيطان هو دليل قطعي على أن هذا الإنسان آفَاكٍ أَثِيمٍ كاذب، ولو لبس جبة ووضع على رأسه عمامة خضراء، وسمى نفسه الولي الفلاني، فإذا كان على علاقة مع الجن و الشياطين، فهو آفَاكٍ أَثِيمٍ كذاب، مهما يكن زيه، قال عليه الصلاة والسلام:

((عالمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

العلم سلاح يا إخوان.. قال عليه الصلاة والسلام:

((العلم سلاح))

يوجد عندنا آية أعظم وأدق وأوضح، تخبرنا أن الجن لا يعلمون الغيب أبداً، فسيدنا سليمان قد قبضه الله عز وجل وهو مستند إلى عكازه، و قيل إنه بقي مدة طويلة- ولا أدري كم بقي- إلى أن جاءت دابة الأرض (أي السوسة) ونخرت في هذه العكازة حتى أتت عليها كلها، فلما أتت عليها كلها انكسرت فوق سيدنا سليمان، قال تعالى:

(فَلَمَّا قُضِيَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

(منسأته) ؛ أي: عصاه، (فلما خرّ)، أي: لما وقع، (ما لبسوا في العذاب المهين) ؛ أي: لقد كان سليمان عليه السلام قد كلفهم بأعمال شاقة جداً وكانوا يتحملونها خوفاً منه، فلو أنهم يعلمون الغيب لتخففوا من هذه الأعمال بمجرد أن قبضه الله عز وجل، فربنا عز وجل جاء بهذه القصة ليؤكد بشكل قاطع على أن الجن لا يعلمون الغيب:

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

ف نقول قولاً واحداً: إن الجن لا تعلم الغيب، كما أنهم ليس لهم تأثيرٌ جسماني على الإنسان، فإذا كان هناك إنسان يقع به (الساعة) فهذه الحالة يوجد لها سببان ؛ فإما أن يكون هناك مرض عصابي، أو أن يكون في الشخص نوع من تأثير الشياطين، و المرض العصابي كما قال لي بعض الأطباء: هو تخريشٌ في الدماغ، وهو قابل للعلاج، لكن بعض أنواع الصرع قد يكون فيه أثر الشيطان في الإنسان، فإذا اعتقد الإنسان به، أو استسلم له، أو ابتغى النفع من عنده، أو توهم أنه ينفعه أو يضره، أو أشركه مع الله عز وجل، أو خنع له، عندئذ يقع تأثيره عليه، أما لو اعتقد بالواحد الديان، وقال: " أعوذ بالله من همزات الشياطين" فلا يمكن للجن ولا للشياطين ولا للإنس أن يؤذوه.

فإذا وقع واحد في الساعة فقد يؤذون أمامه، و بمجرد أن يؤذّن أمامه يذهب عنه الشيطان والسؤال الثاني يقول: هل للشياطين سلطانٌ على الإنس في عقائدهم وإرادتهم وأعمالهم ؟ هذا ما سنتحدث عنه في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (2-8): المقدمة 2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-09-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج التلقي

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة الجن.

ملخص المقدمة الأولى:

في الدرس الأول قدمت لهذه السورة بمقدمة فحواها أن المخلوقات على أصناف، يقع في أعلاها الإنس والجن لأنهما قبلا حمل الأمانة، أما بقية المخلوقات فمنهم من أشفق منها ولم يحملها وآثر السلامة على المغامرة كالملائكة، كما أن منهم من آثر الشهوة والسلامة كالحيوانات، بينما قبل الإنسان أن يأتي إلى الدنيا وأن يحمل الأمانة، و أرجح الأقوال تقول: إن الأمانة التي حملها الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

لقد أودعت فيه الشهوات ليرقى بها صابراً أو شاكراً لرب الأرض والسموات، كما أعطي العقل وهو أداة معرفة الله الأولى، و أعطي الفطرة وهي مقياسٌ نفسيٌ يكشف له الخطأ من الصواب، ثم جاءت الكتب السماوية وهي المنهج القويم، فكانت حجةً على مقياسي العقل والفطرة، وأعطي حرية الاختيار كي يثمن عمله، و أودعت فيه الشهوات كي يندفع إلى الله عز وجل، و هذا ملخص الدرس الأول، والإنس والجن على سوية واحدة:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن آية " 33 ")

(فَبَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

واليوم أجدني مضطراً إلى مقدمة ثانية تعدُّ أساسية في فهم هذه السورة. يا أيها الإخوة الكرام... إن الإنسان كائن قبل كل شيء، وهو من أرقى الكائنات، وأرقى ما فيه هو هذه الأداة الإدراكية التي يمتلكها وهي العقل، غير أن الإنسان مزوّد بوسائل معرفية غير العقل ؛ فهو يمتلك الحواس و العقل، وهناك وسيلة لمعرفة بعض الحقائق ليس لها علاقةً بالعقل ولا بالحواس.

وسيلة معرفة الأشياء المحسوسة:

(الحواس الخمس):

يمكننا أن نقول إن الأشياء المحسوسة هي الأشياء التي لها وزن و لها حيّز و جسم و طول و عرض و ارتفاع و لون و صوت و رائحة و ملمس، فهذه الأشياء يمكننا أن نعرفها عن طريق الحواس، ونحن والحيوانات الأخرى في معرفتها سواء، فقد ترى بعينك ضوء الشمس، و تسمع بأذنك صوت السيارة، و تشم بأنفك رائحة الزهر، و تمسك بيدك قطعة من القماش تتحسس نعومتها، فهناك سمعٌ وبصرٌ وشمٌ ولمس، و هذه الحواس متعلقة بالمحسوسات، فسبيل معرفة الشيء الذي ظهر جسمه وأثره هو الحواس الخمس، وهذا لا خلاف عليه، فأنت تمسك بالكأس مثلاً فتقول: هذا كأس فيه ماء وله وزن، فتقيّم وزنه بيدك، وقد ترى أن الماء لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، فتشربه و تقول: هذا ماء بارد عذبٌ فرات، و هذه المعرفة الحسية ليست مشكلة، فهي لا خلاف عليها.

فرق الإنسان عن الحيوان والجماد:

و نقول إن صح التعبير: إن الجماد شيءٌ يشغل حيّزاً، فله طولٌ و عرضٌ و ارتفاعٌ و وزنٌ، و حجم، أما النبات فيشغل حيّزاً كالجماد تماماً، فله وزن و طول و عرض و ارتفاع، لكنه ينمو، و الحيوان يشغل حيّزاً كالنبات أيضاً، وله وزن و طول و عرض و ارتفاع نمو لكنه يتحرك، أما الإنسان فهو شيءٌ له طول و عرض و ارتفاع و وزن، و يشغل حيّزاً و يتحرك و ينمو، لكنه يدرك. و هنا يتميز الإنسان، فإذا عطل الإنسان عقله، أو أساء استعماله هبط عن مستوى إنسانيته، إلى مستوى لا يليق به، لذلك يقول أهل النار: في النار:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

فقد يركب إنسان مركبة قديمة جداً من موديل الأربعين، فتتدهور و يموت، نقول: إن سبب تدهورها هو نوعيتها السيئة أو قدمها الشديد الذي أتلّف أجهزتها، و لكن إذا ركب الإنسان أحدث مركبة، وكانت الطريق مليئة بالمنعطفات، وكان على اليمين وادٍ وعلى اليسار وادٍ، فلو أطفأ الضوء مرة واحدة تدهور، فهل علة التدهور الأولى كعلة التدهور الثانية ؟ لا، لقد تدهور الأول بسبب ضعف المركبة، أما الثاني فقد تدهور بسبب عدم الرؤية أو انعدام الرؤية فارتكب حادثاً فأودى به، فقد يكون الإنسان من أدنى البشر، و قد يكون ذا عقلٍ راجح، لكنه حينما لا يرى بنور الله يهلك، وسأضع لكم على ذلك أمثلة تعرفونها جميعاً.

قد يفحص الإنسان درجات عينيّه عند طبيب عيون، فإذا كشف جهة الحروف في السطر الأسفل كانت درجة رؤيته عالية جداً، فيقول له الطبيب: (اثنتا عشرة على عشر)، وقد يقول لإنسان آخر: (عشر على عشر)، أو تسع على عشر وهكذا.

فقد يكون الإنسان حاد البصر، وقد تكون درجة رؤيته اثنتي عشرة على عشر، ولكن.. ما قيمة هذه العين إذا لم يوجد ضوء ؟ إنها لا قيمة لها إطلاقاً، فالعين لا بد لها من وسيط يصل بينها وبين الأشياء، والوسيط هو النور الاصطناعي أو الطبيعي، فكما أن النور أساسي في وظيفة العين فإن الوحي أساسي في وظيفة العقل، فقد يكون عقل الإنسان مجهزاً بتجهيز من أعلى المستويات، ولكن هذا العقل لا قيمة له من دون وحي يهتدي به.

فالعقل جهاز ضخم لكن حيادي، فقد يُستخدم في الخير و قد يستخدم في الشر، فالآلة الطابعة الراقية التي يصل ثمنها إلى نصف مليون، من ممكن أن تطبع بها عملة وتزورها فتدخل السجن، كما يمكن أن تصمم بها أغلفة وبطاقات فتغتني، والآلة واحدة.

وسيلة معرفة الأشياء غير المحسوسة التي لها أثر:

(العقل):

أيها الإخوة الكرام... إن الإنسان يملك قوة إدراكية هي العقل، هذا العقل لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة إلا بالأثر، (الأقدام تدلُّ على المسير، والماء يدل على الغدير، والبرعر يدل على البعير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلّان على الحكيم الخبير)، فمهمة العقل هي أن يصل من شيء محسوس، إلى شيء مغيب.

فإنه عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولكن الكون كله يدلُّ عليه، فالكون أحد آثاره، ونحن نصل من الأثر إلى المؤثر، و من الخلق إلى الخالق، و من التسيير إلى المسير، ومن الحكمة إلى الحكيم، و من العطاء إلى المعطي، و من النعمة إلى المُنعم.

فالأشياء المحسوسة أداة معرفتها الحواس الخمس، أما الأشياء غير المحسوسة التي لها آثار فأداة معرفتها العقل، و العقل في هذا الميدان يجول ويصول، وإذا تعمّقت في التفكير بالآثار وصلت إلى الله عزّ وجل، لذلك يمكن أن أقول لكم بشكل بسيط: إن العقل أوسع بابٍ ندخل منه على الله وأقصر طريق نصل به إليه، فهو يتكامل مع الكون كما أنه قوة إدراكية تكشف المجهول من آثاره، و تكشف الغائب عنك منها، لذلك يصنّف المؤمن دائماً وأبداً المقولات فيقول: هذه قضية حسية، و هذه قضية عقلية، ولكن.. هناك قضية ثالثة، كانت سبب درسنا اليوم، وسبب هذه المقدمة، فقد عرفنا أن الشيء الحسي الذي ظهرت عينه فأدركنا آثاره بحواسنا الخمس، ونحن بهذا نلتقي مع بقية المخلوقات، أما الشيء الذي غابت عينه وبقيت آثاره فلا يمكن أن نصل إليه بحواسنا الخمس، وهناك المغالطة يطرحها الفلاسفة

تقول: (أنا أشعر بوجودي إذا أنا موجود) و الرد على هؤلاء أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فإذا لم تر الله بعينيك ولم تشعر به بحواسك الخمس لم يكن معنى ذلك أنه غير موجود، فأنت الآن تتعامل مع أشياء كثيرة لا تشعر بوجودها لكنها موجودة، فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، وهذه حقيقة.

فمهمة العقل إذا هي أن ينتقل من الأثر إلى المؤثر، و من خلق إلى خالق، و من شيء محسوس إلى شيء مجرد، و من شيء الذي له أثر إلى ذات الشيء، لذلك كان الإيمان بالله يأتي عن طريق التفكير في خلق السماوات والأرض.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

يعني يتفكرون.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

فنحن أيها الإخوة أمام عبادة راقية جداً هي عبادة التفكير، و هذه عبادة أهملها فضعف إيمانهم بعظمة الله، فأصبحوا يؤمنون بوجوده لكنهم لا يؤمنون بعظمته، والدليل:

(خُذُوهُ فَعُلُوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ

كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة)

فبعض المسلمين يجعل الله أهون الناظرين إليه، يقول تعالى في الحديث القدسي:

((عبدى طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظرى ساعة))

فالإي شيء ينظر الله عز وجل ؟ إنه ينظر إلى قلبك، وقد طهرت منظر الخلق ؛ فطليت بيتك و نظفت مركبتك، و غيرت أثاث بيتك، و لبست أجمل الثياب، إنك تُطهر منظر الخلق، ويا ليتك تطهر منظر الله عز وجل، و الله ينظر إلى قلوب لعباده، فلو طهرت منظر الله عز وجل لكنت في حال غير هذا الحال، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

لأن القلب هو قوام الإنسان، وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: " تعاهد قلبك " .

فلو حطت ذبابة سوداء على عينك لرأيت كل شيء أسود، فتذهب إلى طبيب العيون، وقد يقول لك: الموعد بعد شهر، أو بعد شهرين، أو بعد ثلاثة أشهر، فتنتظر وتتأدب وتدفع وتسخو، فلماذا تعتني بعينك ولا تعتني بقلبك؟ إن القلب هو منظر الله عز وجل وهو ذخيرتك ورأس مالك يوم القيامة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إن العقل أداة معرفة الله، والعقل حيادي، فإذا سرقت إنسان عصابة ما آلة حاسبة فإنها تأتي بهذه الآلة و تستخدمها في توزيع السرقة، وقد يستخدم إنسان آخر هذه الآلة في عمل عظيم، فهذه الآلة حيادية فيمكن أن تُستخدم لتوزيع مال مسروق، كما يمكن أن تُستخدم في عمل شريف، فالعقل حيادي، وهو إما أن يكون درجات ترتقي بها أو دركات تهوي بك، وهو أداة معرفة الله، لأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولكن تدركه العقول، غير أن العقل لا يمكن أن يحيط بالله عز وجل لكن يصل إليه، وهناك فرق كبير بين أن تصل إليه وبين أن تحيط به، فقد تركب مركبة و تذهب بها إلى البحر، فنقول: هذه المركبة أوصلتك إلى البحر، لكنك لن تستطيع أن تخوض بها البحر فإن فعلت غرقت، فمهمتها أن تصل بك إلى ساحل البحر، وهذا العقل مهمته أن تصل به إلى الله، فهذا الكون يمكن أن يكون بما فيه من آلاء ومن آيات عظيمة جداً جسراً تعبره إلى الله، فالعبرة في أن تعبره إلى الله.

فالصحاب الكرام رضي الله عنهم أجمعين وصلوا إلى الله وعبروا هذا الكون إليه، ونحن وصلنا إلى دقائق علمية مذهلة، فقد وصلنا إلى الذرة و الهندسة الوراثية والمورثات المبرمجة، كما أن العلوم الطبيعية والحيوية وصلت إلى درجات يصعب أن يصدقها العقل، ولكننا ما زلنا على الجسر لم نعبره إلى الله عز وجل.

أقول لكم هذه الحقيقة وقد ذكرتها من قبل: لو أن هناك مدينة فيها كل شيء مما لذ وطاب، و كان كل شيء فيها ثمين و مباح بلا ثمن، فإنك إن وصلت إليها سعدت سعادة لا توصف، لكن العبرة في أن تصل إليها، فالآن مثلاً توجد مركبات مختلفة؛ فهناك المركبة البدائية وهي الدراجة، وهناك مركبة أعلى وهي الدراجة النارية، وهناك مركبة ثلاثة دواليب، وهناك مركبة أربع عجلات وهي أرقى، و بعد ذلك نجد الطائرة... فالمركبات تتنوع، لكنك حينما تختار أي مركبة فإنك تستعملها لتصل بك إلى هذه المدينة، لكن هذه المركبة ينتهي دورها بعد وصولك، فلم يعد لها قيمة لأنها أدت المهمة، و مهمة الكون هي أن تصل منه إلى الله، وإنك قد تصل إلى الله بمعلومات دقيقة جداً، فالصحاب وصلوا إليه، لكن هؤلاء الذين يعيشون في عصر العلم كانت شهواتهم المنحرفة أو معاصيهم الكثيرة حجاباً بينهم وبين الله عز وجل.

الموضوع الثاني هو أن مهمة العقل هي أن يصل من المحسوس إلى الغائب، و من المحسوس إلى المجرد، و من الأثر إلى المؤثر، و من النعمة إلى المنعم، و من التسيير إلى المسير، و من الحكمة إلى الحكيم، و من العطاء إلى المعطي، وهكذا... ولكن.. ما علاقة هذه المقدمة بدرسنا؟! وسيلة معرفة الأشياء غير المحسوسة التي لا أثر لها:

هناك طريق ثالث إلى المعرفة، وهذا الطريق ليس حسيّاً ولا عقليّاً، لأن موضوع المعرفة شيء غابت عينه وغابت آثاره عن حواسنا، فليس له أثر ولا نراه بالعين، هذا الشيء لا يمكن أن نعرفه إلا بالخبر الصادق فقط، فالعقل ليس له دور هنا، فإياك أن تسأل عن دليل عقلي لوجود الجن مثلاً، فهذا الدليل غير موجود، وقد زلت قدم البعض فأنكروا الجن، وقالوا: أين الجن؟ و إياك أن تسأل: أين الملائكة؟ لأنه لا يوجد دليل عقلي على وجود الملائكة فالعقل يحتاج إلى أثر، كما لا يوجد حسي، لأنها أجسام نورانية لا نراها، فالعقل يتعامل مع الأثر، ثم ينتقل بك إلى المؤثر، و الحواس تتعامل مع الشيء مباشرة، لا مع أثره، فقد جاء في العقيدة الصحيحة موضوعات كثيرة، وسبيل معرفتها ليس الحواس ولا العقل، و هذه موضوعات قليلة، ومنها الجن، فنحن لا نملك عن الجن إلا ما أخبرنا الله به، ولا نستطيع أن نزيد على ذلك شيئاً، ولا أن نحذف شيئاً، و هذا موضوع مسلك الإيمان به الخبر الصادق.

فقد تدخل مثلاً إلى بيت فترى بعينك الأثاث و الثلاجة والمقعد الوثير والمكتب وقد تجد مروحة تتحرك ومصباحاً يتألق، وجواً مكيفاً، فتقول: إن في البيت كهرباء مع أنك لم تر الكهرباء، فقد عرفت الطاولة والأثاث والثلاجة والمكتب بحواسك، وعرفت وجود الكهرباء بعقلك، فلما رأيت المروحة تدور، والمكيف يعمل، ثم طرقت الباب قرن الجرس، تقول: في هذا البيت يوجد كهرباء، فمعرفة الكهرباء تختلف عن معرفة المكتبة والأثاث، فأنت تعرف المكتبة والأثاث بحواسك، والكهرباء بعقلك، أما الغرفة المغلقة فلا تستطيع أن تعرف ما فيها، لا بحواسك ولا بعقلك، مهما كان الإنسان ذكياً و عاقلاً حتى وإن كان يحمل شهادة البورد، فإنك إذا أدخلته بيتاً وأجلسته في غرفة فيها باب، فإنه لا يعلم ما بداخله الغرفة الأخرى، لأن الحائط كاتم يمنع الرؤية، والعقل يحتاج إلى وسائل، و يحتاج إلى آثار لكي يشتغل، فجاء بعد ذلك صاحب البيت وهو إنسان صادق، فقلت له: ماذا يوجد في هذه الغرفة؟ فيقول لك: فيها غرفة نوم لونها بني، وفي ثريا، و منظر طبيعي و ستائر بنية أوبيج، فهذا خبر صادق، فقد رأيت المكتب بعينك وأدركت الكهرباء بعقلك وعرفت ما في الغرفة بالخبر الصادق.

فالآن أصبحت القضية سهلة جداً، فإذا كنت أمام أي موضوع بالدين، فإن أول عمل يجب عليك هو أن تصيِّفه، فهل هو مع الحواس أم مع العقل أم مع الخبر الصادق؟؟ فإذا كان مع الحواس فانظر إليه وأمسكه بيدك، و قيّر وزنه، و قيّر نعومته بجلدك، وقد يكون مما لا يُرى جسمه ولكنه يُرى أثره، فإذا رأيت دخاناً مثلاً قلت: هناك نار، لأنه لا دخان بلا نار، وإذا رأيت الضوء أطفئ فجأةً فمعنى ذلك أن

الكهرباء قد انقطعت، فهل سبب الانقطاع يا ترى من عندنا أم من المؤسسة ؟ فالعقل هنا اشتغل في الآثار، أما حينما ترى غرفة مغلقة في البيت، فلا يمكنك أن تعرف ما فيها مهما كنت ذكياً إلا أن تسأل صاحب البيت: رجاء قل لي ما في هذه الغرفة ؟ وهو عندك صادق، فقد عرفت المكتب بعينك وعرفت وجود الكهرباء بعقلك وعرفت محتوى هذه الغرفة بالخبر الصادق.

فإذا استطعت أن تصنف كل موضوع في أي حقل هو، انتهت كل مشكلاتك في العقيدة، وإن أكثر أعداء الدين الآن يأتون إلى مؤمن ضعيف الإيمان ويقولون له: أنا رجل واقعي، أثبت لي وجود الجن بدليل علمي، أو أحضر دليلاً على وجود الملائكة، أين الملائكة ؟ فيرتبك هذا الإنسان بسبب عدم وجود دليل مادي، لأن الدليل إخباري فقد، فالله عز وجل أخبرني أن هناك مخلوقات تدعى (الجن)، و أن هناك مخلوقات تدعى (الملائكة)، فأياك أن تخوض مناقشة مع ملحد حول موضوعات إخبارية، فالموضوعات الإخبارية ليس لها قيمة لها إطلاقاً إلا إذا صدقت قائلها، و كلامي هذا دقيق، فإذا آمنت بالله أولاً وآمنت بكتابه ثانياً وصدقت أنه كلام الله، وأخبرك الله أن هناك مخلوقات هي الجن، فإنك تؤمن الآن بالجن إيماناً إخبارياً، فأنت لست مكلفاً أن تؤمن بالجن إيماناً عقلياً، فليس هناك دليل عقلي على وجود الجن، ولن تستطيع أن تؤمن بالجن إيماناً حسياً لأنك لا تراها، قال تعالى:

(يَرَاكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

فما دمت لا ترى الجن، فأنت لست مكلفاً أن تؤمن بها إيماناً حسياً، وما دام الجن ليس له أثر فأنت لست مكلفاً بأن تؤمن بالجن إيماناً عقلياً، فالسبيل الوحيد للإيمان بالجن هو الدليل الإخباري وهو الخبر الصادق، وهذا هو حال أية موضوعات يمكن أن تكون في دائرة الخبر الصادق، كالملائكة و الجن والماضي السحيق، قال تعالى:

(مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف: آية " 51 ")

أي: لم يكونوا في ذلك الوقت، فهؤلاء الذين يزعمون أن أصل الإنسان قرد، لم يكونوا شاهدين على خلقه..

(مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً)

(سورة الكهف)

فالملائكة والجن والماضي السحيق، و المستقبل البعيد، و ما بعد الموت، و قصة خلق الإنسان، و ذات الله عز وجل، هذه كلها موضوعات تؤمن بها عن طريق الخبر الصادق، فالله أخبرنا مثلاً أنه على العرش استوى، فما هي كيفية استوائه ؟ قال الإمام مالك لسائل سأله هذا السؤال: " الاستواء معلوم (الله أخبرنا به)، والكيف مجهول، والسؤال بدعة قم عني "، فمن الممكن لك أن تريح نفسك من طريق

شأنك، أو من حقل الغام، إذا عرفت أن هذا الموضوع متعلق بالخبر الصادق فأمنت به، وذلك طبعاً بعد أن تؤمن بالله الإيمان الحقيقي المتين العميق، وبعد أن تؤمن بكتابه المعجز ورسوله الصادق الذي جاء بهذا الكتاب.

مثال موضح:

لقد ضربت مرة مثلاً يوضح هذا الأمر فقلت: إذا كان هناك بقالية فيها عشرة آلاف صنف، وأقل صنف يزن خمسة غرامات، أما أكبر صنف فهو يزن خمسة كيلو، فإذا كان هناك ميزان حساس و غال جداً يؤدي الوظيفة بالتمام والكمال، لكن استيعابه هو من الغرام إلى عشرة كيلو فقط، فهذا الميزان يكفي البقالية، لكن صاحب البقالية أراد أن يستخدم هذا الميزان لوزن سيارته، فوضعه على الأرض وسار فوقه فتحطم، فقال: هذا لا يصلح، فقد استخدمه في غير ما صنع له، و دققوا الآن في كلامي: إن عقلك محدود المهمة، فإذا عددته مقياساً مطلقاً للمعرفة فقد جانببت الحقيقة، فإذا اعتقدت أن عقلك مقياس مطلق للمعرفة أخطأت خطأ كبيراً، وهذه مشكلة المعتزلة الذين عدوا العقل مقياساً مطلقاً وحكموه بالنقل، فقال بعض العارفين بالله: "العقل حصانٌ تركبه إلى باب السلطان فإذا دخلت إلى السلطان دخلت وحدك".

وقد يقول لك الإنسان أحياناً: أريد طبيب هضمية متفوق ؛ فيسأل أصدقاءه ومعارفه وأقرباءه وبعض المرضى عن شهادته و اختصاصه و خبراته وسمعته و أمانته و ذكائه وتواضعه، إلى أن يوصله عقله إلى هذا الطبيب، فإذا دخل إليه أعطاه الدواء، فهل يستطيع هذا المريض بعد ذلك أن يعترض على هذا الطبيب ؟ لا، لقد انتهت حدود عقل المريض، فعقله أوصله إلى باب العيادة وانتهى الأمر، أما الآن فهو يتلقى، و الشيء اللطيف في الموضوع هو أن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، وهذا شيء جميل جداً، فقد جعل لك أشياء محسوسة وأعطاك خمس حواس، وجعل لك أشياء مغيبية عنك وأعطاك عقلاً، فعقلك له مهمة محدودة، فهل يا ترى كلمة (محدودة) نقص في العقل ؟ لا إنها ليست نقص، فإذا كان عندك مثلاً زوجة وثلاثة أولاد فإنك تحتاج إلى مركبة، فهل من المعقول أن نعطيك (تراكس) لتخرج به إلى نزهة ؟ هذا ليس كمالاً، أنت تحتاج إلى مركبة بعشرة أحصنة وليس إلى مركبة بخمسمائة حصان -أحصنة سيارة طبعاً وليس أحصنة عادية-، فلذلك كان كمال عقلك في أن يكون محدوداً بالمحسوس وبالأثار، أما العقل المطلق فهو الله عز وجل، فالشيء الذي عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، والقضية سهلة، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: آية " 2 ")

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

لقد عرّفك بذاته، وعرّفك بأسمائه، وعرّفك بكمالاته، وعرّفك بالأنبياء السابقين، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران: آية " 44 ")

عرّفك بتاريخ الأنبياء وتاريخ الشعوب والأمم السابقة، كما عرّفك بالمستقبل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة: آية " 116 ")

لقد عرّفك بالماضي السحيق، والمستقبل البعيد، وحكمة الأشياء، وعلة الخلق، وسر وجودك، وغاية وجودك، فكل شيء يعجز العقل عن إدراكه أخبره الله به، فهناك أشياء محسوسة أداتها الوحيدة هي الحواس الخمس، كما أن هناك أشياء معقولة غابت عينها وبقيت آثارها وأداتها الوحيدة العقل، وهناك شيء لا يستطيع عقلك ولا حواسك أن تدركه وهو متعلق بالإخباريات التي أخبرك الله عنها، فإذا قرأت القرآن مثلاً شعرت أن هذا كتاب معرفة كامل، ففيه محسوسات، قال تعالى:

(قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

تسلسل عقلي...

هناك معقولات وهناك إخباريات، لكني أريد أن أنصحك بشيء: إياك ثم إياك ثم إياك أن تناقش إنساناً منكراً ملحداً في الإخباريات، والإخباريات لها أربع مراتب، فيصبح التسلسل كالاتي: أولاً تؤمن بالله عن طريق الكون، و الكون شيء موجود و مسلم به، وهناك من يسميه: الشيء الثابت، فإذا أعملت عقلك في الكون وصلت من خلاله إلى خالقه العظيم، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فالخلق لا يمكن أن يكون عبثاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

فلا يمكن للخالق أن يخلق الخلق سدى..

(أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

هذا غير معقول، فلا يمكن لإنسان عاقل أن يرسل شخصاً إلى حلب ثم يدفع له ألفين ليرة أجرة سيارة، ثم يقول له: لا تفعل شيئاً، اذهب وارجع فقط، هذا مستحيل، كما لا يوجد مدير شركة يحترم نفسه يعطي أمراً ليس له معنى أو فيه إتلاف للمال أو هدر للوقت والجهد بلا سبب، إنه إن فعل ذلك لا يسمى مديراً بل مجنوناً، فهل يمكن لإله عظيم أن يخلق الخلق عبثاً !!؟

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

(اَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

إن كمال الخلق يدلُّ على كمال التصرف، و ربنا عزَّ وجل خلق إنسان، ثم دله عليه و أرشدك إليه، ثم حذره و نبهه، فقد يشق الإنسان طريقاً، وبعد أن يشق الطريق يضع عليه لافتات: (ممنوع مرور، ممنوع تجاوز، منحدر خطر، جسر، طريق تحويل)، وهذه كلها إرشادات، والله عزَّ وجل قد خلق الخلق، ونور الخلق بكتابه، فإذا آمنت بالله واحداً وموجوداً كاملاً، ثم آمنت أنه لا بدَّ من أن يُخبر خلقه عن سبب خلقهم، فلا بد لك من أن تؤمن بهذا الكتاب عن طريق إعجازه، كما لا بد لك من أن تؤمن بالنبى عن طريق هذا الكتاب، وهذا تسلسل عقلي رائع، فإذا آمنت بالله عن طريق الكون، وبالقرآن عن طريق إعجازه، وبالنبى عن طريق قرآنه، انتهى دور العقل، ويأتي بعد ذلك دور النقل، لذلك قالوا: " الدين نقلٌ " فأساس الدين وحي من السماء ؛ أي: إخبار الله الخلق، و تعريفهم به، إلهاً و رباً وخالقاً و حكيماً و سميعاً و بصيراً و رحيماً و غنياً و لطيفاً و قديراً، فالدين وحي لكن التأكد من هذا الوحي يكون عن طريق العقل، كما أن فهمه يكون عن طريق العقل، فدور العقل يكون قبل النقل وبعد النقل، فدوره قبل النقل هو إثبات صحة هذا النقل، ودوره بعد النقل هو فهم هذا النقل، فالعقل لا يتناقض مع النقل، ولكن لا يجوز للإنسان أن يُحكَّم العقل بالنقل، فالإنسان المنحرف قد تقول له الآية أو الحديث فلا تعجبه، لأنه جعل عقله هو الأصل، و العقل في الحقيقة وسيلة، وهو محدود المهمة، فلا يمكن له أن يكون العقل حكماً على النقل.

لذلك كان درسنا اليوم متعلّقاً بالخبر الصادق، فانه أخبرنا أن هناك مخلوقات لا نراها لكنها ترانا، و تسمعا لكننا لا نسمعها، و الدليل على ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبیب الحق الذي يوحى إليه، قد حضرت مجلسه الجن واستمعت إلى القرآن الذي يتلوه على أصحابه والنبى لا يعلم، فلولا أن الله أخبر النبى أن الجن حضرت مجلسك وسمعت القرآن من فمه لما علم النبى، فمعنى ذلك أننا لا نرى الجن، كما أننا لا نسمع صوتهم:

(قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

قل يا محمد لإخوانك وأصحابك، وللناس قاطبة:

(أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

فلولا أن الوحي جاءه ما علم أن الجن حضروا معه، فالنبى الكريم -على عظمتة- لا يعلم إلا أن يعلمه الله عزَّ وجل..

هذه السورة تنبذ الخرافات والأوهام..

إخواننا الكرام.. من الممكن الآن بعد أن استمعت إلى هذا الدرس أن تضع تحت قدمك مليون قصة ليس لها أصل، فهناك من الناس من يعيش في أوهام عالم الجن، وقد تجد أشخاصاً محترمين يذهبون إلى أشخاص من أجل إخراج جنّي أو إدخال جنّي أو تعامل مع الجن، فنحن نسمع قصصاً لا تنتهي حول ذلك في كل جلسة نحضرها، وهذه السورة هي الحاسمة، لأنها مقياس دقيق، لقد قلت في بداية الدرس الماضي: إن هناك أناساً تطرفوا، حينما أنكروا الجن، كما أن هناك أناساً تتطرفوا حينما أعطوا الجن كل شيء، فالجن لا نراهم ولا نسمع أصواتهم، ولكنهم يروننا ويسمعوننا:

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ)

و لولا أن الله أوحى إلى النبي لما عرف النبي أن الجن حضرت مجلسه.

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ)

و بالمناسبة: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا لا أعلم الغيب))

" قل لا أعلم الغيب "، فأني مخلوق يدّعي بعد ذلك أنه يعلم الغيب يجب أن تركله بقدمك، لأن الله عز وجل قال:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(الأعراف)

قل: إني لا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، فإذا كان النبي لا يعلم الغيب، فهل نقبل من أحدٍ كائنًا من كان أن يعلم الغيب ؟ فكم من قصة تسمعونها كل يوم عن أناس يعلمون الغيب ! يقولون: يوجد أمامك قبضة (أي قبض نقود)، أو يوجد لك عدو يمكر بك، إن من أتى كاهنًا فصدّقه فقد كفر، و من أتى ساحرًا فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، ولا دعاؤه أربعين ليلة، فهذا شيء كبير جدًا، فمن الكبائر أن تقرأ حظك هذا الأسبوع في المجلات، كيرج الثور، وبرج (الديب) وهذا كله كذب، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله، و هذا ديننا، فأنت عندما تفهم القرآن تركل بقدمك مليون قصة كذب، فلا أحد يعلم الغيب، و النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب كذلك، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

فهل يستطيع مخلوق كائنًا من كان أن يدعي أنه يملك لك النفع والضرر ؟ فإذا كان سيد الخلق النبي على عظّمته يقول:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

وهناك آية أبلغ تقول:

(قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

انتهى الأمر، فأني إنسان يدعي أنه ينفعلك أو يضررك، قل له: أنت كاذب.

إخواننا الكرام... مرة ثانية.. إن الله عز وجل يقول أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب،

((قل لا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء))

فهل يستطيع إنسان آخر أن يدعي علم الغيب ؟ كم من قصة بإمكانك أن تنفيها بآية واحدة ؟ إذا قال الله عز وجل:

(قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

ولا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً: فهل من إنسان بإمكانه أن يدعي أنه ينفعلك أو يضررك ؟ هذا مستحيل، كما قال الله تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

فهل تحترم إنساناً يقول لك: أنا لا تهمني المعصية ؟ يجب عليك أن تحتقر هذا الإنسان، لأن رأس الحكمة مخافة الله، إذاً: هذه آيات تعد مفصلية في القرآن الكريم، وكذلك هو شأن هذه السورة، و إن شاء الله في الدرس القادم سنشرع بتفسيرها بشكل دقيق، لكنك إذا استوعبت آيات سورة الجن، والآيات الأخرى التي تتحدث عن الجن في غير سورة عن الجن، كان بإمكانك أن ترد مليون قصة ولا تعباً بها إطلاقاً، فهناك مقولات وأخطاء وأوهام وخرافات وخزعبلات ومتاهات كثيرة، لا ينجينا منها كلها إلا الاعتصام بالكتاب والسنة، وهذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأي شيء آخر غير القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة، فيه خلط وإضافات وحذف وزيادات وتأويلات خاطئة نحن عنها في غنى.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ابن عمر دينك دينك إنه لحكم ودمك، خذ عن الذين

استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

يجب أن تكون هذه السورة حاسمة لنا في موضوع الجن، فلا نسمح لأنفسنا أن تروج قصة تخالف هذه الآيات أو أن تستمع إليها أو أن تصدقها أو أن تخاف منها، فقد يقال لك مثلاً: إن فلاناً سحروه، فليس هناك تفاهم بينه وبين زوجته، إنه (مكتوب له)، فما هذا الكلام؟! فسبب عدم التفاهم بينه وبين زوجته هو سوء معاملته لها، فقد خالف منهج الله فيها، فيجب أن تكون علمياً في طررك و فهمك للأمور، لأن هذا الدين علم، والصحابه الكرام ما يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالعلم وبالذقة البالغة، وهذه المقدمة

الثانية كانت في منهج التلقي، أما المقدمة الأولى فقد كانت في تعريف الإنسان، و في الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بشرح هذه الآيات آية آية.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق الجن من خلال القرآن

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الجن، و المقدمة الثالثة التي تحدد خصائص هذه المخلوقات التي سُميت بالجن. اعتقادات الناس في الجن:

أيها الإخوة الكرام... إن من الناس من تطرف في إيمانه بالجن، فأمن بقدراتهم الخارقة على أساس أنهم يعلمون الغيب، فينفعون ويضرون ويعطون و يمنعون، كما أن هناك مَنْ تطرف فنفي وجود الجن، لكن الحقيقة تقع بين أن تنفي وجود الجن وبين أن تعقد بقدراتهم الهائلة، فقد زعم كفار قريش أن محمداً صلى الله عليه وسلم تُعَلِّمُهُ الجن، فهو يستقي علمه منهم، بل إنهم جعلوا بين الجن وبين الله نسباً، فهم يزعمون أن الله تزوّج من الجن وأنجب الملائكة، وهذه كلها أفكارٌ وخرافاتٌ وخزعبلاتٌ وأوهامٌ وأساطير تروى عن الجن في الجاهلية، فجاءت هذه السورة لتضع لتبين حدود هذه المخلوقات.

أيها الإخوة الكرام... لقد كان العربي في الجاهلية إذا سار وحده، أو دخل وادياً، أو قطع مفازةً يستعيز بعظيم الجن الحاكم، ويقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيعتقد بعد ذلك أنه إذا باتَ باتَ آمناً لأنه استعاذ بالجن، فقد أله هؤلاء الجن وهذا تطرّف و شرك، كما أنهم كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتنبئ الكهّان به، فإذا أتوا كاهناً عرفوا الغيب من خلاله، لأن الجن تعلم الكهّان، أما الكهان فهم ينبئون بني آدم.

وكما قلت قبل قليل، لقد جعلوا بين الجن وبين الله نسباً، فكانوا يعتقدون أن الله عزّ وجلّ زوجة من الجن أنجبت الملائكة، فالملائكة بنات الله، وقد ذكر القرآن فعلهم هذا، وما هذا إلا ركامٌ وخرافاتٌ و ضلالاتٌ و أساطير ما أنزل الله بها من سلطان، وقد جاءت هذه السورة لتضع حداً لكل هذه الأوهام و الخرافات و الأساطير، و إذا كان هذا اعتقاد الجاهليين، فهل تفاجؤون إذا علمتم أن في مجتمعاتنا الإسلامية جماعاتٌ كثيرة تؤمن بأن الجن عندهم قدرات خارقة، وأنهم يعلمون الغيب، وأن بإمكانهم أن يوفقوا بين الزوج وزوجته وأن يفرقوا بينهما، وقد جاءت هذه السورة لتنفي الشرك والأضاليل و التخرّصات و الأكاذيب، فهذا كله يجب أن ينتهي بعد أن يوضّح الوحي حقيقة الجن.

فهناك الكثير من الناس اليوم من يعتقد بقدرة الجن على فكّ السحر، كما أنهم يتوهمون أنهم يستطيعون أن يخرجوا الجن من الإنسان، وقد يكون هؤلاء من بعض المثقفين، وقد يكونوا للأسف الشديد من

بعض رواد المساجد، فنجد هؤلاء يلجؤون إلى أشخاص من أجل ذلك، و أنا لا أنفي هنا أن هناك علاقة بين الجن والإنس، إن هذه العلاقة موجودة، لكنها غير مشروعة إطلاقاً، لأن الله عز وجل في كتابه والنبي عليه الصلاة والسلام في سنته لم يسمحا لنا أن نقيم علاقة مع الجن، أما الذين أقاموا علاقة مع الجن فقد أُرهبوا وأُتعبوا ولم يجنوا من هذا العمل شيئاً.

هناك الآن جماعات دينية كثيرة منحرفة العقيدة تنفي وجود الجن إطلاقاً، وتزعم أن الجن خرافة لا وجود لها، فهي في اعتقادهم من التخرصات، قد تسألهم كيف تفسر آيات الجن ؟ فيقولون: كل شيء غاب عن عينك فهو من الجن، فإذا وقف الإنسان وراء الباب ولم تره فهو من الجن، فقد وقعت قضية الإيمان بالجن بين هؤلاء الذين ألهموا وأشركوا، وبين هؤلاء الذين اعتقدوا بقدرات الجن الفائقة، كما اعتقدوا بالنفع والضرر وعلم الغيب، وبين هؤلاء الذين أنكروا الجن، فجاءت هذه السورة لتعطي كل شيء حقه، فأعطت الجن حجمهم الحقيقي، و المقياس الوحيد في ذلك هو الوحي، لأن الوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه كلام الخالق الخبير الواحد القهار.

بعض حقائق الجن:

أيها الإخوة... لن أبدأ اليوم بتفسير هذه السورة بعد ولكني سأضع لكم بعض الحقائق المستفادة من هذه السورة، أو من بعض الآيات التي وردت عن الجن في سور أخرى.

- 1- الحقيقة الأولى: إن الجن مخلوقات موجودة، فعالم الجن عالم حقيقة تؤكدها هذه السورة، فأنت لا تستطيع أن تنفي الجن، لأنك إذا نفيت الجن كذبت القرآن، وتكذيب كلمة من هذا الكتاب كفر صريح.
- 2- الحقيقة الثانية: لقد وصف الجن أنفسهم من خلال هذه السورة فقالوا:

(وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا)

(سورة الجن)

إنهم موجودون ومتنوعون، فمنهم الصالحون ومنهم الطالحون، كما أن منهم الضالون المضلون، ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون، فبعضهم مهتد وبعضهم ضال، وبعضهم خير وبعضهم شرير، و بعضهم ماکر خداع مضل وبعضهم ساذج، والدليل قول الله تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5))

(سورة الجن)

فهؤلاء عندهم سذاجة، فقد ظنوا أن الإنس والجن لن نقول على الله كذباً، كما ظنوا أن سفيهم (أي الشيطان): كان يقول على شططاً.

التقول على الله تعالى من أعظم الكبائر:

إن للإمام الغزالي كلمة رائعة يقول فيها: " لنن يرتكب العوام الكبائر فذلك أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".

و حينما تحدث الله سبحانه وتعالى عن المعاصي والآثام ورتبها ترتيباً تصاعدياً، بدأ بالإثم والفحشاء، وانتهى بالشرك والكفر، لكنه جعل القول على الله من أكبر المعاصي، فقال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

فكم من إنسان ضل الطريق لفكرة سمعها فلم ترق له، و كم من إنسان ظن بالله ظن السوء و ظن الجاهلية فأعرض عنه بسبب كلام تحدث به إنسان جاهل، و كم من إنسان أعرض عن الدين لأنه ما استفاد من مصادره الصحيحة، و كم من إنسان كفر بسبب ما يرى ويسمع من تجاوزات يفعلها المسلمون، فلذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنَا تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5))

(سورة الجن)

وإن من أغرب ما قاله الإمام الشافعي قوله: " لأن أرتزق بالرقص أهون عليّ من أن أرتزق بالدين "، لأنك إذا ألقيت على الناس أفكاراً غير صحيحة فأضللتهم وأفسدتهم وحملت بعضهم على أن يكفروا بهذا الدين، فأنت أكبر آثم لأن كل انحراف يجري عن طريقك.

أيها الإخوة الكرام... استمعوا إلى هذه الحقيقة: إنه هناك من يدعو إلى الله بمضمون هزيل سطحي غير متماسك، وبأسلوب غير تربوي وغير علمي، وهناك من يدعو إلى الله بمضمون عميق، لكنه لا يلتزم بأوامر هذا الدين، فعندئذ لا يرى المدعو في هذا الداعية التزاماً بل ازدواجاً، وإن المدعو بهذا المضمون الهزيل، وهذه الازدواجية والتناقض الشنيعين، وبذلك الطريقة غير التربوية وغير العملية، لا يُعَدُّ عند الله مبلغاً، فقد رُكِبَ في أعماق الإنسان أن دين الله عظيم، و أن هذا الدين من عند الله العليم الحكيم الرؤوف الرحيم علام الغيوب أكرم الأكرمين رب العالمين، فهذا الدين لا يحتمل أن يوجد فيه تناقض، ولا ضحالة، ولا خرافة، ولا تجاوز، لأنه الدين يمثل عظمة هذا الإله العظيم.

أيها الإخوة الكرام... إن في الدين مقولات لا تعدُّ ولا تحصى، فلا بد لك من مقياس دقيق تصنف به هذه المقولات، وقد تحدثت في الدرس الماضي عن منهج التلقي، فعن طريق منهج التلقي تستطيع أن تفرز هذه المقولات، فتقبل المقولة التي تنطبق على هذا المنهج، وترفض المقولة التي لا تنطبق عليه، فلا بد من منهج دقيق نعتمده في قبول المقولات الدينية وفي رفضها.

إذا: الجن موجودون، و منهم الصالحون ومنهم الطالحون، فهم فرقٌ كثيرون:
(وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَانِقَ قِدْدَا)

والجن منهم المضلون، الخبيثاء، ومنهم السذج البسطاء.

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5))

(سورة الجن)

3- حقيقةٌ ثالثة: إن الجن لديهم استعدادٌ للهداية، فهم مستعدون لإدراك القرآن الكريم سماعاً وفهماً،
والدليل على ذلك هذه الآيات الكريمة:

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ
وَلَنُؤْثِرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2))

(سورة الجن)

فقد استمعوا إلى هذا القرآن الكريم وأعجبوا به وفهموه وأدركوا أبعاده و آمنوا به، فصاروا جنًا
مؤمنين، وهذه حقيقةٌ ثالثة.

4- الحقيقة الرابعة: إن الجن مكلفون، ومعنى ذلك أنهم مسؤولون ومحاسبون، فتقع عليهم أنواع
العقوبات وأنواع الإكرامات، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

(سورة الجن)

فمن يؤمن بربه ؛ أي: منا، فالجن مكلفون.

(سَنَقْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

أي: سنقصد إلى محاسبتكم، فالملك غير مكلف، و الحيوان غير مكلف، و الجماد غير مكلف، لكن
الإنس والجن مكلفون بحمل الأمانة، وهم مسؤولون، وسيحاسبون ثم يعذبون، أو يُنعمون، و هذه حقيقة
ثالثة.

(وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَمِنَا الْقَاسِطُونَ)

(سورة الجن)

القاسطون: الظالمون، هذا الاسم ذو معنىً دقيق، فالمُقسط هو العادل، أما القاسط فهو الظالم، (فأقسط):
عَدَلَ، و(قسط): ظَلَمَ، و اسم الفاعل من الثلاثي: قاسط، و اسم الفاعل من الرباعي: مقسط، فالمُقسط هو
العادل، والقاسط هو الظالم.

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15))

(سورة الجن)

فالجن مخلوقات مكلفة بحمل الأمانة، فهي مسؤولة عن أعمالها، و لا بد لها من أن تملك حرية الاختيار، فإذا كانت مسؤولة عن أعمالها وتملك حرية الاختيار، فإن مصيرها إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفد عذابها، قال تعالى:

(سَتَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ)

(سورة الرحمن)

و هذه أيضاً حقيقة عن الجن.

(وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى أَمَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ رَبَّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15))

(سورة الجن)

5-الحقيقة الخامسة: إن هؤلاء الجن لن ينفعوا الإنس إذا لاذوا بهم، فأية محاولة يقوم بها الإنسان ليلجأ من خلالها إلى الجن هي محاولة خاسرة يائسة، وقد ورد هذا كله في كتاب الله، فهذا هو حجم الجن الحقيقي، و هذا هو تعريفهم الدقيق، لذلك قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

(سورة الجن)

فلا تستعذ إلا بالله، فالجن لن يقدموا لك شيئاً، و لن ينفعوك إطلاقاً، و لن يخلصوك من أية ورطة، وإن أكثر المسلمين اليوم يلجؤون إلى رجال يزعمون أنهم يعرفون الجن ليفكوا عنهم بعض السحر، ليخرجوا بعض الجن منهم،فهؤلاء لا يزدادون إلا ضللاً وتيهاً.

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

(سورة الجن)

6- الحقيقة السادسة: إن الجن لا يعلمون الغيب إطلاقاً، فهم ليست لهم أية صلة بالسماء، قال تعالى:

(وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9))

(سورة الجن)

وأنا كنا نقعد ؛ أي: قبل رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مثال موضَّح:

سأضرب لكم هذا المثال: لو أن (آذناً) أو حاجباً أو مستخدماً في رئاسة الوزراء كان يطوف على الوزراء ليقدم لهم القهوة أو الشاي، وفي أثناء الاجتماع سمع من أطراف أحاديثهم أن الساعة ستؤخر

ستين دقيقة قبل شهر من موعد تأخيرها، فأشاع بين الناس أنني أعلم الغيب، فبعد أربعة أسابيع سوف تؤخر الساعة لأول مرة، فهل هذا الحاجب أو هذا (الآذن) يعلم الغيب ؟ لا، فقد استرق السمع من خلال اجتماعهم، فأوهم الناس أنه يعلم الغيب، الآية الكريمة:

(وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ)

(سورة الجن)

أي: لقد كنا نستمع إلى بعض الأوامر الإلهية، وننزل بها إلى الأرض، فنلقي هذه المعلومات في آذان الكهّان، فيأتي هؤلاء الكهان إلى الناس ويدعون أنهم يعلمون الغيب، فهذا ليس غيباً، ولكنه استراق سمع.

(وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ

يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9))

(سورة الجن)

أيها الإخوة... إن المشكلة الكبيرة هي أن تعتقد أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، لكن هؤلاء الجن عندهم سرعة تنقل، و قدرتهم على تخطي المسافات مذهلة، فقد يقطعون آلاف الكيلو مترات في لمح البصر، فإذا نقلوا لك معلومة من مكان إلى مكان، توهمت أنهم يعلمون الغيب، و هم لا يعلمون الغيب إطلاقاً، فإذا إنسان مات بظرف غامض مثلاً، ادعى بعضهم أن بإمكانه تحضير الأرواح، فهو بذلك يأتي بقرآنه من الجن.

فيأتي عملاؤهم من الجن، ثم يعرضون على أهل القتل أن يأتوا بابنهم المقتول ليُسمعهم اسم قاتله، فالهدف من القضية كلها أن يتوهم الناس أن الجن يعلمون الغيب، وهم لا يعلمون الغيب إطلاقاً، ولكنهم قادرون على استحضار الأرواح، فهم يستحضرون قرين هذا المقتول من الجن، فيعطيه معلومات دقيقة جداً عن ملابسات و ظروف حياته، مما يوهم الناس أنهم يعلمون الغيب، و لا يعلم الغيب إلا الله. فقد سمعت أن هناك من يزعم أنه استحضر روح امرأة ماتت بحادث، فأخبرت الناس أنها أسلمت وأنها كذا وكذا، و كل هذا خرافة بخرافة، لأن الجن لا يعلمون الغيب إطلاقاً.

(وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ

يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشَرًّا أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا

(10)

(سورة الجن)

لا يعلمون الغيب، لكن:

(وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشَرًّا أَرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

(سورة الجن)

إن الخير إلى الله، والشر ليس إليه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

(عن علي بن أبي طالب)

أي: إن الخير كله بيدك يا رب، والشر ليس إليك، وهذا أدبٌ رفيع.

(وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

(سورة الجن)

فليس هناك علاقة بينهم وبين الله، و لا توجد علاقة مصاهرة، كما يدعي العرب في الجاهلية.

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

(سورة الجن)

لأن المشركين في الجاهلية كانوا يزعمون أن الله تزوج من الجن وأنجب الملائكة، فالملائكة بنات الله. أيها الإخوة... أقول لكم مرة ثانية، إن هذه الحقائق من كتاب الله تعطي الجن حجمهم الحقيقي، وإن أية زيادة على ذلك هي زيادة باطلة، كما أن أي إنكار لذلك هو إنكار باطل، لأننا لا نستطيع أن ننكر شيئاً أثبتته القرآن، ولا أن نزيد شيئاً على ما ذكره القرآن، وهذه السورة إضافة إلى الآيات التي وردت في بقية السور عن الجن، هي المقياس الدقيق لموضوع الجن، وإنك حينما جلست، وأينما التقيت بالناس، وجدت من يطرح قضية الجن، فهناك من يعطي الجن حجماً أكبر من حجمهم بكثير، و هناك من يزعم أن الجن يعلمون الغيب عن طريق القرناء و غيب الحاضر و سرعة التنقل في الأرض، و هذه كلها خرافات ما أنزل الله بها من سلطان، فهم لا يعلمون الغيب ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، وأكبر دليل على ذلك، أن رئيسهم الشيطان قال:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

وما كان لي عليكم من سلطان ؛ أي: آية حاسمة قطعية الدلالة..

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا

بِمُصْرَخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي إِلَيَّ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

فهذه حقائق ناصعة قد أثبتتها الله في كتابه العزيز.

فالجن لا قوة لهم مع الله أبداً، كما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لقول الله عز وجل:

(وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)

(سورة الجن)

فهم في قبضة الله، و ليس لهم إرادة مستقلة عن الله عزّ وجل، كما أنهم ليس بهم قوة يصرفونها في غير إرادة الله عزّ وجل:

(وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنَا تَحَوُّلَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ تَعَجَّرَ هَرَبًا)

و إن من الآيات الأخرى عن الجن التي وردت في غير سورة الجن قوله تعالى:

(فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ)

على موته ؛ أي: على سيدنا سليمان، منسأته ؛ أي: عصاته، الدابة ؛ أي: السوس.

(فَلَمَّا خَرَّ)

فقد سيدنا سليمان كلّفهم بأعمالٍ شاقة متعبة:

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

فأنا هنا أعطيك مقاييس، فإذا كنت جالساً في سهرة مع أصدقائك أو مع إخوانك أو أقربائك أو زملائك في العمل، ثم سمعت قصة مفادها أن الجن يعلمون الغيب، فلا ينبغي أن تبقى ساكناً، بل يجب أن تتطرق بالقرآن الكريم، فنقول: إنهم لا يعلمون الغيب، و لو أنك سمعت قصة أن الإنسان أُوذي من الجن، فذكرهم بقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا

بِمُصْرَخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرَخِي)

(سورة إبراهيم: آية " 22 ")

فقد نزلت هذه الآيات من أجل أن تعطي الجن حجمهم الحقيقي، و من أجل أن تقف الناس على الحدود التي جاءت في هذه السورة.

يروننا ولا نراهم:

لقد وردت خاصة أخرى من خصائص الجن، في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف: آية " 27 ")

إنه ؛ أي: الشيطان وجماعته، فكيف الجن غير مرئي عند الإنسان، أما كيان الإنسان فهو مرئي عند الجن، فهم يروننا ويسمعون كلامنا، ونحن لا نراهم ولا نسمع كلامهم هذه حقيقة دقيقة و صريحة و واضحة. حقيقة عن بنياتهم:

إن الجن مخلوقون من النار، والإنس مخلوقون من الطين، قال تعالى:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكذِّبَانِ (16))

(سورة الرحمن)

أيها الإخوة الكرام... من خلال هذه الحقائق التي وردت في سورة الجن وفي غير سورة الجن يتضح لنا أن الذين عرفوا الله عزَّ وجل، وعرفوا حقيقة الجن، لا يمكن لهم أن يعتمدوا على الجن ولا أن يلجؤوا إليهم، لا في معرفة الحقائق المستقبلية، ولا في الاستعانة بهم، لأنهم ضعافٌ كالبشر، ولأنهم لا يعلمون الغيب كالبشر، فهذه السورة توضح حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية.

الصلة بين الإنس والجن:

ثم توضح هذه السورة أيضاً الصلة بين هذه الخلائق المنوعة، فمن ممكن أن تقوم صلة بين الإنس وبين الجن، فيستعيز الإنسان بالجن و يتعاون معه، و هذه حقيقة، لكن هذه الصلة ليست مشروعة ولا مطلوبة، ولا مستحسنة إطلاقاً.

فقد ورد في أول هذه السورة تأكيدٌ على وحدانية الله، وتأكيدٌ على نفي الصاحبة والولد، -وهذا تأكيدٌ مهمٌ جداً - كما ورد إثبات الجزاء في الآخرة للإنس والجن معاً، وأن أحداً من مخلوقات الله -ولو بدا خارق القدرة على تخطي المسافات - لن يُعجز الله في الأرض ولن يتفلسف من يده أبداً.

وفي هذه السور أيضاً بيانٌ لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، كما يتبين فيها أن الجن لا يملكون قوةً ولا علماً، فليست لهم إرادةٌ مستقلة عن الله عزَّ وجل، فهم في قبضة الله كالإنس:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

(سورة الجن)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في ما يرويه ربه عنه، فيما يأمره الله أن يبلغه للناس:

(قُلْ إِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

(وَأَنَا لَا نَذْرِي)

(سورة الجن)

فالغيب موكولٌ إلى الله وحده.

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

(سورة الجن)

وإن الذي يستقيم على أمر الله عزَّ وجل سيجني ثماراً طيبة، قال تعالى:

(وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَقِيتَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ

يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17))

(سورة الجن)

إن هذه بعض الحقائق المتعلقة بالجن، فالله إله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، أما الجن فهم ليس لهم أي شأن ولا أي فعل ولا أي علم، فلا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً مع من يعوذ بهم.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الحقائق التي عرضت في هذه السورة، لنجعلها مقياساً لكل ما يدور في مجالس الناس عن الجن، فهناك آلاف القصص التي ما أنزل الله بها من سلطان يمكنك أن تركلها بقدمك، فيجب عليك حينما تقرأ آية من سورة الجن أن تقول: إن هذه الآية تبين أن الجن لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن ينفعوا الإنسان إلا أن يزيدوه رهقاً كما قال الله عز وجل، وأنهم مسؤولون ومحاسبون وسيعذبون إن انحرفوا، وسيتنعمون إن هم أفلحوا.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن نبدأ تفسير الآيات آية آية بحسب التسلسل في الدرس القادم، لكنني أردت من هذا الدرس أن تعرفوا حقيقة الجن من خلال هذه السورة ومن خلال بقية السور، فهؤلاء المخلوقات موجودون ، وهذا هو حجمهم الحقيقي، وإن أي تخرص أو تأويل أو زيادة هي باطلٌ ينبغي أن لا نأخذ به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 1-17

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-10-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة الجن ومع الآية الأولى من هذه السورة وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَكِنْ نُشْرِكُ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) أ)

(سورة الجن)

أيها الإخوة الكرام... لقد قال تعالى:

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ)

إلى ماذا استمع الجن ؟ لقد استمعوا إلى القرآن الكريم، والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة، وقد تستخدم هذه الكلمة للتعبير عن الرهط وهم الأربعون.

لمحة عن ماهية الجن:

لقد وصف أحد العلماء أجناس المخلوقات بوصفٍ جميل فقال: " قد مرَّ أن في الوجود نفوساً أرضية قوية هي الجن، لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وقلة إدراكها كالحیوانات، ولا على هينات النفوس الإنسانية واستعداداتها، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافته ".

فهؤلاء المخلوقات ليسوا كالحیوانات، ولا كالملائكة، ولا كالبشر، فالحیوانات نفوسٌ سبعيةٌ بهيميةٌ قليلة الإدراك، والملائكة نفوسٌ صافيةٌ مجردةٌ لطيفةٌ متصلةٌ بالعالم العلوي، أما عالم الإنس فهو نفوسٌ إنسانيةٌ لها استعداداتها الكبيرة جداً، فهؤلاء المخلوقات هم لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ولا ومن هؤلاء، فقد غلبت عليها الصفات الهوائية أو النارية أو الدُّخانية و هم من طبيعةٍ ناريةٍ ودُّخانية على اختلاف أحوالها، كما أن لهم علومٌ وإدراكاتٌ من جنس علومنا وإدراكاتنا، ولما كانت قريبةً بالطبع إلى الملكوت السماوي أمكنها أن تتلقى من عالمه بعض الغيب، فقد تلقّت من قبل بعض الحقائق التي استرقتّها من الملائكة، فلا يستبعد أن ترتقي إلى أفق السماء فتسترق السمع من كلام الملائكة، ثم تنزل إلى الأرض ومعها من بعض من أوامر الملائكة، ولأنها مخلوقات أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية فقد تأثرت بهذه القوى، فرُجِمَت ومنعت عن بلوغ مرادها، وإدراك مداها من العلوم.

لقد كانت هذه لمحة عن حقيقة الجن، فهم مخلوقاتٌ ليسوا كالبشر في استعداداتهم العالية وفي الجمع بين النفخة الروحية والبضعة الأرضية، ولا هم كالملائكة في أجسامها النورانية المتصلة بالعالم السماوي، ولا كالحيوانات البهيمية السبعية ذات الإدراك القليل، بل هم بين هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء. النبي صلى الله عليه وسلم لم تعلمه الجن: أيها الإخوة، قال تعالى:

(قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)

(سورة الجن)

إن هذه الآية أكبر دليل على أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يرههم ولم يقرأ عليهم ولم يعلمهم، بل إن الله جلَّ جلاله أخبره أنهم استمعوا إليه وآمنوا به، فقد اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته صلى الله عليه وسلم، فسمعوا الآيات، فأخبره الله بسماعهم وإيمانهم، فمن خلال هذه الآية نستدل على أن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير الجن ولم يعلمهم، لكن الحقيقة أنه قد اتفق حضورهم مجلسه مع تلاوته، فسمعوها وآمنوا بهذا القرآن الذي جاء به، فلما رجعوا إلى قومهم قالوا: إنا سمعنا قرآنًا ؛ أي: كتابًا جامعًا للحقائق الإلهية والكونية والأحكام والمواظ وجميع ما يُحتاج إليه في أمر الدارين ؛ الدنيا، والآخرة:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)

عجبًا ؛ أي: إن أسلوبه فوق أسلوب البشر، فهو ليس من كلام البشر بل من عند خالق البشر، قال تعالى:

(إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)

أي: جامعًا للحقائق الإلهية والكونية وللحكم والأحكام والمواظ، فهذا القرآن فيه كلُّ ما يحتاجه الإنسان في الدارين في دار الدنيا ودار الآخرة، عجبًا ؛ أي: غريبًا، فهو ليس في مستوى عبارة الخلق، بل في مستوى عبارة خالق الأكوان:

(يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)

(سورة الجن: آية " 2 ")

أي إلى الحق والصواب و سبيل السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة:

(فَأَمَّا بِهِ)

(سورة الجن: آية " 2 ")

فهم إذا مكلفون بالإيمان:

(وَلَنْ تُشْرَكَ بَرَبِّنا أَحَدًا)

(سورة الجن)

أي: لن نشرك أحداً من خلقه في عبادته، إذأ:

(قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ)

(سورة الجن)

لاشيء يمنع من الإيمان:

إن الإنسان حينما يؤمن بالله عزَّ وجل ويستقيم على أمره يكون قد اهتدى إلى رشده، فحينما يشعر الإنسان أنه على صواب ومنهج واضح، وأنه في طريقه إلى سعادة أبدية، وأن الجنة هي دار القرار التي خلقَ الإنسان من أجلها، فإنه يشعر بسعادة لا توصف، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

((انطلق رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقٍ عَكاظٍ وَقَدْ حِيلَ

بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ))

فقد كان الجن والشياطين يسترقون السمع من أخبار السماء، بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم

حِيلَ بعد ذلك بين الشياطين وبين خبر السماء، إلا من استرق السمع فأتبعه شهابٌ ثاقب

((: فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالَ:

مَا حَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَّثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَدَّثَ. فَانْظُرُوا فَضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْظُرُوا الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَخْلَةٍ وَهُوَ

عَامِدٌ إِلَى سُوقٍ عَكاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا

الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَهَئَاكَ رَجِعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا))

(من صحيح البخاري رقم " 4540 ")

إننا نستفيد من هذه الآية أن الإنسان إذا قامت أمامه الحجج والأدلة والبراهين على أن هذا الدين حق، و أنه الصراط المستقيم وعلى حبل الله المتين و طريق السلامة والسعادة فلا شيء يمنعه من أن يتمسك به، فما الذي يمنعه من أن يتمسك بهذا الدين و تحاول الحفاظ عليه ؟ ما الذي يمنعه من أن تصطحب مع الله والإسلام في بيتك و عملك ؟ ما الذي يمنعه من أن تتطرق إلى الله تفر إليه ؟ ((ففرؤا إلى الله))، ما الذي يمنعه من أن تُقلع عن كل ما لا يرضيه ؟ إن الجن قد استمعوا في جلسة واحدة إلى آيات من فم النبي عليه أتم الصلاة والتسليم، فقالوا:

(فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا)

(سورة الجن)

فكم من خطبة دينية يسمعها المسلم، و كم من درس تفسير أو حديث أو سيرة أو فقه يُلقى عليه، وما أكثر الأدلة الناصعة كالشمس، و البراهين القوية كالجبال التي قامت عليه، فما الذي يحول بينك وبين أن تكون مهتدياً، ما الذي يحول بينك وبين أن تكون مع الله دائماً، لتستظل في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؟ إن القضية بيدك، فقد قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ)

لقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه الفجر، فاستمع الجن إلى قراءته، ولم يعلم ذلك إلا بعد أن أعلمه الله عز وجل، فهل يعقل أن تكون الجن هي التي علّمت النبي صلى الله عليه وسلم كما يدّعي المشركون ؟ إنه لم يرههم ولم يسمع بوجودهم إلا بعد أن أخبره الله عز وجل.

لقد زاد الإمام مسلم على هذا الحديث فقال:

((مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجَنِّ وَلَا رَأَهُمْ))

فهو ما قرأ عليهم وما رآهم ولكن الله أخبره، و يقول أحد العلماء: "إن الجن آمنوا عند سماع القرآن، والإيمان بالقرآن يقع بالعلم بحقيقة الإعجاز"، فحينما تضع يدك على إعجاز القرآن، وعلى أن هذا الكلام لا يستطيعه أحد من بني الإنسان لأنه كلام خالق الأكوان فإنك عندئذ تؤمن به، فإذا آمنت أنه كلام الله آمنت أن الذي جاء به هو رسول الله، والأدلة على إعجاز القرآن كثيرة و قاطعة، وهناك ثلاثة ثوابت في الحياة تدل على الله، وهي:

1- الكون.

2- إعجاز القرآن الذي يدل على أن القرآن كلام الله.

3- إعجاز القرآن يدل على أن الذي جاء به هو رسول الله.

فإذا آمنت بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وآمنت أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكلام وفسّره وبينه لك هو رسوله، فقد استكملت الإيمان العقلي، و بقي عليك أن تستكمل الإيمان الإخباري، وهو أن تؤمن بكل شيء أخبرك الله به في القرآن، أو أخبرك به النبي عليه الصلاة والسلام في السنة، وهو الجانب الآخر المسموع من الوحي.

يقول الإمام الرازي: " إنه عليه الصلاة والسلام بُعثَ إلى الجن كما بعث إلى الإنس"، وقد قال الله عز وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

فقد بُعثَ رسول الله إلى الإنس كما بعث إلى الجن، بل إن كل المخلوقات سعدت ببعثته لأنه صلى الله عليه وسلم نشر الهدى في الأرض. لقد قرأت مرةً هذا الحديث الشريف:

((إن الملائكة في السماء والحيتان في البحر لتصلي على معلم الناس الخير))

فما علاقة الحوت في البحر بمعلم الناس الخير كي يصلي عليه ؟
إنك إن علمت الناس الخير ترفقوا بالحيوانات وذبحوها وفق منهج الله فلم يعذبوها، فما من مخلوق إلا ويحمد الله على بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لأنها خيرٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصلحةٌ كلها، و صوابٌ كلها، وكمالٌ كلها.
حقائق مستنبطة من هذه السورة:

1- الشيء الأول الذي نستنبطه هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن كما بعث إلى الإنس.

2- والشيء الثاني: أن الله جلّ جلاله أراد أن يُعلم قريشاً أن الجن لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فأمنوا به وبرسوله وذلك رغم تمردهم، فما بال هؤلاء الفصحاء البلغاء يكذبون القرآن الذي جاء بلغتهم؟ قال تعالى:

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

إن الإنسان مخلوق من المخلوقات المتميزة التي أعطاه الله قوة إدراكية، فالجن استمعوا إلى القرآن فأمنوا به ولم يشركوا بربهم أبداً، كما أن كل من في السماوات والأرض يسيح الله عز وجل، أما هذا الإنسان الذي سُخِّرَ له الكون كله فهو الغافل وحده.

3- وهذه السورة تؤكد لنا أن الجن مكلفون كالإنس تماماً، قال تعالى:

(سَنَقْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

لقد أراد الله عز وجل من هذه السورة أن يُعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس تماماً، كما أراد الله جلّ جلاله أن يعلمنا أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمونه، ويفهمون لغاتنا كلها " وذلك كما قال الإمام الرازي.

4- والشيء الآخر الذي نستنبطه هو أن بعض الجن المؤمنين يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان قال تعالى:

(فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2))

(سورة الجن)

5- إن هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان تنبّهوا إلى الخطأ الذي وقع فيه كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه، واتخاذة صاحبةً وولداً، فاستعظموا ذلك ونزّها الله عز وجل، فليس كل ما قالته الجن صواباً، وهذه ناحية دقيقة جداً، فما كل شيء تسمعه صحيح، و ما كل كتاب تقرأه صحيح، فهناك كتب و قصص فيها ضلالات، وهناك مقولات كلها خطأ، فالإنسان عليه أن يختار الحق و يصطفي ويتخذ مقياساً لتلقي الحقائق، فلا يقبل كل ما يسمع، " بحسب المرء من الشر أن يحدث بكل ما سمع "، لأن الذي تسمعه قد لا يكون صواباً، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

(سورة الجن)

فقد كان الشيطان سفيه الجن يقول على الله شططاً، فيتأول ما لم يكن، و يقول إن الله اتخذ من الجن زوجةً، وأنجب من هذه الزوجة ملائكةً، و هذا شيء لا أصل له، لذلك قالت الجن:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

الافتقار إلى الجنس الآخر دليل على الضعف:

إن الإنسان مفتقر إلى الطرف الآخر، فكل طرف من بني البشر مفتقر إلى الجنس الآخر، فالمرأة مفتقرة إلى زوج، والزوج مفتقر إلى زوجة، و لا يتم كيانه إلا بالزواج، كما لا يتم كيان المرأة إلا بالزواج، وهذا من ضعف الإنسان، فالإنسان لا يستغني عن زوجة، والزوجة لا تستغني عن زوج، أما الإله جلّ جلاله فلا يمكن أن يكون محتاجاً إلى زوجة، فحينما تقول: الإله اتخذ صاحبةً وولداً ؛ فهذا يعني أنه ليس إلهاً ولا خالقاً، فالله جلّ جلاله وجوده ذاتي، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

إن الإنسان حينما يتخذ زوجة يسكن إليها، و معنى يسكن إليها؛ أي: يكمل نقصه بها، والزوجة حينما تسكن إلى زوجها فتكمل نقصها به، فهي مفتقرة إلى الحماية، وإلى رجل يقودها إلى الصواب، فهي تحتاج إلى رجل يحميها و يُسعدّها لتكون تحت جناحه، أما هو فتنقصه أنثى يرتاح و يطمئن و يسكن إليها، فالرجل والمرأة متكاملان، والإنسان يحتاج إلى زوجة تؤنسه وذلك بسبب ضعفه، كما أن المرأة تحتاج لضعفها إلى رجل يسعدّها، فكلاهما مفتقر إلى الآخر، هذا لا يليق لله عز وجل:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

الجَد: الحظ، نقوا: إن فلاناً ذو جدٍ في هذا الأمر إذا كان له حظٌ كبيرٌ فيه، والمعنى في الآية أن الله سبحانه وتعالى جلّ جلاله وعزّ نواله، حظه من الملك والسلطان والقدرة لا حدود له، فهو الذي بيده الأمر، وهو على كل شيء قدير، فيعلم السرّ وأخفى، و لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا)

(سورة الجن: آية " 3 ")

أي: تعالى في كل شيء ؛ من القوة و الغنى و العلم و القدرة و الرحمة و الحكمة:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا)

إن الإله العظيم الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا يليق به أن يتخذ صاحبة وولداً:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

لقد أودعت في الإنسان شهوة، فهو يشعر أنه بحاجة إلى تلبيةها، فيبحث عن زوجة و يلبي هذه الشهوة فيتزوج، وهذا ضعفٌ فيه، لأن الذي ينطلق بدافع من شهوةٍ ليلبيها هو كائن ضعيف، أما الإله جلّ جلاله فلا يليق به أن تكون له زوجة ولا ولد، فالولد قد يأتي ثمرةً لهذا الزواج، وربنا عزّ وجل منزّه عن أن يتخذ ولداً وعن أن يتخذ زوجة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا)

إن أسماء الله الحسنى و ذاته الكاملة التي لا يليق بها أن تتخذ زوجة، فقد ينشب خلاف بين الزوج و زوجته، فيبتعد عنها أسابيع فيتضايق، كما قد تبتعد عنه أسابيع فتتضايق، فهي مفتقرةٌ إليه وهو مفتقرٌ إليها، وهذا من شأن الإنسان، أما الله الواحد الديان فليس هذا من شأنه، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

قال بعض العلماء في تفسير هذه الآية: " علا مُلك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته عن أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطّروهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع إلى شيء يكون منه الولد " فهذا لا يليق بالله عزّ وجل.

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

(سورة الجن)

سفيهم ؛ أي: مضلهم و مغويهم، والشطط: القول ذو الشطط ؛ أي: القول المنحرف عن الحقيقة، كالكلام الكاذب غير الصحيح، الذي فيه افتراء ولا يطابق الواقع، فهذا من الشطط، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

أصل الشطط مجاوزة الحد، فالكلام إذا جاوز الحد الصحيح صار شططاً:

(وَأَنَا ظَنُّنَا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

(سورة الجن)

ضرورة امتلاك مقياس التلقي:

لقد كان الجن يعتقدون أن كل شيء يقال هو الصحيح، وإن اعتقاد الإنسان أن كل شيء قرأه أو سمعه صحيح هو مرضٌ خطير، لأن الإنسان في هذه الحالة يكون إمعة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يكن أحدكم إمعة))

أي: وعاء يستقبل كل شيء، فكثير الناس في لقاءاتهم وسهراتهم واجتماعاتهم وولائمهم، ينقلون كل شيء سمعوه كالآلة، ولا يوجد عندهم تدقيق و فحص و تمحيص و ميزان دقيق، فلا يقولون: هذه القصة غير صحيحة، وهذا الخبر كاذب، وهذا الرقم فيه مبالغة، وهذا الشيء لا يليق بكمال الله، فتجدهم يلقون قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان، أو خرافات ليس لها قيام، أو كلاماً ليس له دليل، ومع ذلك يصدقها الناس، وهذا مرض خطير.

وهناك ضخٌ معلومات كثيف جداً في هذا العصر إن صح التعبير، فمن الممكن أن تسمع أخبار العالم في ربع ساعة، وقد تسمع تحليلات وأحياناً تكون هذه التحليلات غير صحيحة، وقد تكون هذه الدراسات تهدف إلى خلق شعور معين عند المستمع، فقد تقرأ كتاباً كله ضلالات و كذب وافتراء، كما أنك قد تستمع إلى محاضرة في ناد أو مكتبة، فيكون كل ما قيل في هذه المحاضرة لا ينتمي إلى الحقيقة بصلّة، فالإنسان العظيم هو الذي يملك مقياس التلقي، ويكون معه ميزان دقيق، فيقبل به ما كان صواباً، ويردّ به ما كان خطأً، فلا ينبغي على الإنسان أن يكون وعاءً للتلقي، وهذا شأن معظم الناس، فترى أحدهم يسمع، فيقول لك ما سمع بلا تمحيص و لا دراسة و لا تحليل ولا دليل أحياناً، فإن جلست جلسة - وما أكثر هذه الجلسات - فجاء فيها موضوع الجن، استمعت إلى قصص ما أنزل الله بها من سلطان !! إنك تشعر من كلام الناس أن الجن آلهة يفعلون ما يريدون و لا يعجزهم شيء، وهذا شيء غير معقول، لذلك كانت هذه السورة مهمة جداً لئلا يقع المسلمون في أوهام و مبالغات و ثرّهات، فقد جاءت هذه السورة لتضع حداً لهؤلاء المخلوقات (الجن)، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5))

إن هذا من سذاجة الجن، فإذا قال الإنسان: هكذا سمعت و هكذا قالوا لي كان ساذجاً، وقد يقرأ أحدهم مقالة جاء فيها أن الربا لا شيء فيه، فيقول: إن فلاناً قال ذلك، وهو عالم كبير في مصر، فهذا شخص هو وعاء يقبل كل شيء يصب فيه، وقد قيل: " لعالمٌ واحد أشد على الشيطان من ألف عابد "، كما قيل: " كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك ".

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5))

اعلموا علم اليقين أن هناك من يكذب على الله و على رسول الله، وأن هناك من يُعطي أفكاراً لا أصل لها في الواقع، واعلموا أن الضلالات منتشرة في كل مكان، وأن السعيد هو الذي يوفق إلى الصواب ولو كان قليلاً، فلا تفرح باعتقادك الباطل وتقول: إن معظم الناس يعتقدون بهذا، قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28))

(سورة النجم من الآية 28)

إن الله عز وجل في هذه الآية الكريمة القاطعة في دلالتها يبين أن أكثر أهل الأرض في ضلالات ما بعدها ضلالات، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير.

استعانة الجاهليين بالجن:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

روى ابن جرير عن ابن عباس قال:

" كان رجالٌ من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزير هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً " لأن هذا شرك، وقد كان هناك وادٍ في الجزيرة اسمه وادي عبقر فزعمت العرب في جاهليتها أن الجن تسكنه، فكانوا إذا رأوا من أحد ذكاءً وألمعية سموه عبقرى، أي هو كالجني، وهذا هو أصل كلمة عبقرى، كما كان أحدهم إذا نزل الوادي يقول: أعوذ بعزير هذا الوادي، فزادهم ذلك إثماً، وكان العرب يعتقدون في جاهليتهم أن الوديان مقرُّ الجن، وأن رؤساء الجن تحميهم منهم، وكانوا إذا نزلوا الوادي يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن: ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً!!".

و هذه هي الحقيقة، فالجاهل يقول: أعوذ بعزير هذا الوادي، و أعوذ بسيد هذا الوادي، والجن يقولون: لا نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً، فإذا كان سيد الخلق وحبیب الحق يقول: " لا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً "، بل إنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فمن باب أولى أنه لا يملك لغيره شيئاً.

وعن الربيع بن أنس أنهم كان يقولون: " فلان من الجن ربُّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل هذا الوادي يعوذ برب هذا الوادي من دون الله، فيزيدهم ذلك رهقاً " ؛ أي: خوفاً وقد قال تعالى:

(فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

أي: إن الخوف رَهَقَهُمْ ؛ أي: أتعبه وتغشاهم.

الاستعاذة بالله في الإسلام:

فلما جاء الإسلام عانوا بالله وتركوهم:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

فقد حلت المعوذتان محل كل استعاذة يستعيذها العرب في الجاهلية، ولا نملك _ نحن المسلمين - حيال الجن إلا أن نستعيذ بالله منهم، واستعاذتك بالله سلاحٌ ماضٍ فتاك، لا تحتاج معه إلى شيءٍ آخر، فلا تحتاج إلى شيخ ولا إلى إنسان خبير ليخرج لك الجن، ولا إلى إنسان يبطل السحر، إنك لا تحتاج إلا إلى هاتين الآيتين:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)

(سورة الناس)

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

(سورة الأعراف: آية " 201 ")

أي: ذكروا الله.. وقال:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ)

(سورة الأعراف: آية " 200 ")

فهناك آيتان و سورتان لعلاج الجن، وهذا سلاحٌ فتاكٌ ضد الجن، و ليس في الإسلام غير هذين السلاحين ن فقد روى مسلم:

((عَنْ حُوَلَّةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا

ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ))

فإذا كنت في السفر فدخلت بيتاً لا تعرف أهله، أو نزلت في فندق، أو ركبت مركبة، فقلت: أعوذ بكلمات الله التامات، من شر ما خلق لم يضرْك شيءٌ حَتَّى ترتحلَ مِنْ مَنْزِلِكَ ذَلِكَ.

أيها الإخوة الكرام...لقد قال تعالى:

(فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا)

أي: زادوهم ضعفاً و خوفاً و حيرة و قلقاً و شقاءً، قال:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

(وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

(سورة الجن)

تلازم الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر:

إن إنكار الآخرة موجود في عالم الجن كما هو في عالم الإنس، والحقيقة أنه لا يوجد من أركان الإسلام ركنان متلازمان كتلازم الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، لأن الإنسان إن لم يؤمن باليوم الآخر لم يستقم على أمر الله، وإن المفصل الأساسي لاستقامته على أمر الله هو أن يؤمن أنه محشورٌ إلى يوم يحاسب فيه على كل شيء، ثم يقول الله تعالى:

(وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

إن الإنسان إذا أنكر الدار الآخرة، تفلت من منهج الله، فهناك علاقة بين الإنكار والتفلت:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

إنك لن تستقيم على أمر الله استقامة تامة إلا إذا علمت علم اليقين أن الله سيحاسبك على كل شيء، وأنت واقفٌ بين يديه، وأنت لن تستطيع التفلت من بين يديه، وأنه يعلم وسيحاسب، فإما أن يكون الإنسان في جنةٍ لا ينتهي نعيمها، أو في نارٍ لا ينفذ عذابها.

استماع الجن لأخبار السماء قبل البعثة:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلِئتَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)

و هذا قبل البعثة..

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ)

(سورة الجن: آية " 9 ")

أما بعد البعثة..

(فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا)

(سورة الجن)

أي: مُلِئت السماء بالحرس والرواجم، فإذا اقترب الجني من السماء جاءه شهابٌ فيحرقه:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي)

فهذا الحادث الذي مُنعوا به هو من خبر السماء، وهذا الحادث هو امتلاء السماء بالحرس والشهب:

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

(سورة الجن)

و هذا كلام في منتهى الأدب، لأن الشر ليس إلى الله عزّ وجل، فقد قالوا:

(وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ)

فالفاعل هنا مجهول..

(بَمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

فقد أراد الله جلّ جلاله بخلقه رشداً حينما بعث لهم نبيه صلى الله عليه وسلم، كما أراد بكم رشداً حينما سمح لكم أن تستمعوا إلى الحق، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 23 ")

فقد يكون في هذه الساعات المباركات أناسٌ في الملاهي أو في دور السينما أو النوادي الليلية، أو في جلسات عائلية مختلطة يلعبون النرد، أو في كلام غيبة ونميمة، فإذا سمح الله جلّ جلاله لك أن تستمع إلى الحق، فشرح صدرك لدخول المسجد وسماع الدروس فيه، فهذه نعمة عظيمة:

(وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة الجن: آية " 10، 11 ")

والجن أنواع، فهناك جن مؤمنة وهناك جن كافرة، وهناك جن ضالة مضلة، وهناك جن مسلمة..

(وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا)

أي متفرقة..

(وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)

أي: أيقننا أننا في قبضة الله وأن الأمر بيد الله يفعل بنا ما يشاء، وهذا هو التوحيد..

(وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)

(سورة الجن)

إن هذا الذي يعصي الله، ويأكل المال الحرام، ويعتدي على خلق الله، فيبتز أموالهم، ويذلهم على أي شيء يعتمد ؟ كأنه اعتمد على قوته الذاتية، لكنه لم ينتبه لحظة إلى أنه في قبضة الله...

(وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن: آية " 13 ")

أنواع الهداية:

1- الهداية البيانية:

إخواننا الكرام... إن أرقى أنواع الهداية هو الهداية البيانية، فإذا كنت صحيحاً معافى ولا يوجد عندك مشكلة، ثم حضرت مجلس علم أو استمعت إلى خطبة واضحة فيها آيات وأحاديث، فاستجبت إلى الله عز وجل كانت هدايتك هداية بيانية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

أريد أن أقول لكم في نهاية هذا الدرس كلاماً دقيق جداً.

إن أرقى أنواع الهداية هو الهداية البيانية، ففي هذه الهداية منطق ودليل وحجة وبرهان، والطريق فيها واضح، كما أن الهدف واضح أيضاً.

2- التأديب التربوي:

إن لم يستجيب الناس بالهداية البيانية، فعسى أن يستجيبوا بالتأديب التربوي.. " عجب ربكم من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل "، أي: بالابتلاءات، وأنواع الأمراض والعذابات

3- الإكرام الاستدراجي:

فإذا جاء الإنسان التأديب التربوي فعليه أن يتوب، فإن لم يتب فهناك حل ثالث له، وهو الإكرام الاستدراجي، لعله يشكر ويفهم عن طريقه، فإن لم يفهم ولم يتب ولم يشكر، فُصم، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

(سورة سبأ: آية " 19 ")

إن هذا كلام دقيق، فالدعوة البيانية فهم، والتأديب التربوي توبة، والإكرام الاستدراجي شكر، فلما أن تفهم، وإما أن تتوب، وإما أن تشكر، فإن لم تفهم -لا سمح الله- ولم تتب ولم تشكر، فقد بقي القصم والتدمير، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(إِنْ بَطِشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

(وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (11) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن

تُعْجِزُهُ هَرَبًا (12))

فنحن في قبضته...

(وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120))

و الآن دققوا..

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

أي: لن يضيع عليك شيء، و لن تُبَخَسَ أجرك الذي وعدك الله به، ولن يُضل الله عملك، ولن يترك ولن يدعك، فإذا كنت طائعاً لله فأنت في حفظ الله ورعايته وتأييده ونصره وتوفيقه، و زوال الكون أهون على الله من أن يخيب ظن عبدٍ مؤمن فيه..

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ)

فإذا غض الإنسان بصره مثلاً فلن يضيع عليه شيء، بل ستأتيه الدنيا وهي راغمة، وسيملاً الله قلبه غنىً، فيسعد بزوجاً صالحاً، تسره إذا نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها، و تطيعه إن أمرها، فكل شيء بحسابه، وهذه آية دقيقة جداً..

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا)

فلا تخف أن تضيع الدنيا من يدك إن نفذت أوامر الله، إنها ستأتيك وهي راغمة، ولا تخف أن تكون أقل حظاً من غيرك، فأنت المتفوق السعيد المتوازن المطمئن الآمن الموفق المنتصر، هكذا..
(لا يستوون)):

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا)

أي: أن يخسه الله بعمله، فإذا ضحيت وطلبت العلم، وطلب غيرك الجهل، وآثرت الاستقامة وكان غيرك متفلتاً، وآثرت الإنفاق و أمسك وغيرك، فإنه من سابع المستحيلات أن تستوي مع هذا المفرط..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

فاستواء المستقيم مع المنحرف، والصادق مع الكاذب، والأمين مع الخائن، والمحسن مع المسيء، يتناقض مع وجود الله، وعليك عندئذٍ ينبغي أن تؤمن بالعبثية، والله عز وجل ينفي العبثية بقوله:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116))

(سورة المؤمنون)

(أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ)

هذا كلامٌ لنا جميعاً..

(فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

بخساً: أن يظلم، ولا رهقاً: أن تأتية شدة، فإن آمنت بالله فلن يضيع عليك شيء، قل دائماً هذه الكلمة: (يا ربي ماذا فقد من وجدك ؟) ما فقد شيئاً، (وماذا وجد من فقدك ؟) ما وجد شيئاً، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، لعل هذه الآية من أبرز ما في هذه السورة..

(فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

فإذا تعففت عن مال حرام فلن تكون فقيراً، لأنك قد تعففت عن هذا المال ورعاً وطاعة لله،

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

وإذا تعففت عن الحرام، فلن تكون شقيماً بزواجك، وإذا تعففت عن عملٍ لا يرضي الله فلن تكون مهاناً في مجتمعك، فأنت الفائز و الراجح و الناجح و المتفوق و المفلح في طاعتك لله:

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ)

القاسطون: الظالمون.

(فَمَنْ أَسْلَمَ)

أي: منا..

(فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

فقد بحثوا عن الحقيقة فوجدوها..

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

(سورة الجن)

فالجن مكلفون كالإنس، ويدخلون إلى الجنة، وإلى النار..

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

هناك معنى دقيق أريد أن أذكره: لا يمكن للمسلم أن يكون ظالماً، فإما أن تكون مسلماً، وإما أن تكون قاسطاً، فهناك ضوء وهناك ظلام، فالضوء والظلام متناقضان فأحدهما ينقض وجود الآخر، فإن كنت مسلماً فلن تكون ظالماً، وإن كنت ظالماً فليس هذا من شأن المسلم..

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

عرفوا الحقيقة...

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ)

أي: الظالمون.

(فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة..

(وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ)

أي: على المنهج الصحيح، و صراط الله، فتمسكوا بحبل الله، و أطاعوا رسول الله..

(وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا)

أي خيراً كثيراً..

(لِنَقْتَبِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا)

(سورة الجن)

الخيار الصعب:

إذا أعرض الإنسان عن ذكر الله أتته المشكلات والمضايقات والصعوبات والمصائب، والأزمات والخوف والإرهاق والقلق.

قال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: عظمي ولا تطل، قال له:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

قال: أريد أخف من ذلك، قال له:

((إِذَا فَاسْتَعَدَّ لِلْبَلَاءِ))

الخيار صعب: فإما أن تستقيم وإما أن تستعد للبلاء، وهذه الآية:

(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا (17))

(سورة الجن)

أي: إن الله عز وجل سييسره في طريق كله متاعب و ألغام و انفجارات و هموم وأحزان و إحباطات و قلق، فإن ذكرت الله كنت في أمن ودعة

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

وإن أعرضت عن ذكر الله فإن الله يسلك بالإنسان عذاباً صعباً، فمن صعوبة إلى أشد، وذلك كما يفعل الطبيب مع المريض، فإذا أعطاه دواء عيار خمسين فلم يستفد قال له: تناول عيار مائة، فإن لم يستفد يتناول خمسمائة ثم ينتقل إلى ألف.. وهكذا، فتأتيه شدة كي تردعه، فإن لم يستجب لهذه الشدة جاءت شدة أكبر، و هذا كلام دقيق واضح كالشمس، فإما أن نستقيم على أمر الله، وإما يأتينا العذاب صعباً، و هذا كلام رب العالمين، وهو حل حقيقي.

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

أي: بحثوا عن الصواب فأصابوه، و بحثوا عن الحقيقة فأدركوها، و بحثوا عن سبل السعادة فوصلوا إليها..

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (16))

أي: يأتيهم التوفيق، والدعم، والنصر، والحفظ، والأمن، وهذا كله من نتائج الاستقامة..

(لِنَقْتَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا)

إياك أعني واسمعي يا جارة:

أيها الإخوة الكرام... هذه آياتٌ كريمة تحدثت عن الجن.... كقوله تعالى:

(وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ)

فهل هي للجن فقط أم لنا أيضاً ؟ إن هذه آياتٌ لنا أيضاً، أي (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فربنا عز وجل يتحدث عنهم، ولكننا نحن المعنيون بهذا الكلام، فإذا آمن الإنسان فلن يبخسه الله عمله ولن يتركه...

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (5-8): تفسير الآية 18

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-10-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل المساجد

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الخامس من سورة الجن، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

إن القرآن الكريم كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت، فكلُّ آيةٍ تأخذ بالآية التي بعدها لتصبح كأنها سلسلة،

فالآية الأولى في هذه السورة هي قوله تعالى:

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

(سورة الجن: آية " 18 ")

المساجد لله:

أوحى إليّ: أنه استمع نفرٌ من الجن، وأن المساجد لله.

فقد كان مما أوحى إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن المساجد لله ؛ أي: إن هذه البقاع في الأرض التي يُعبد الله فيها و تؤدى فيها الصلوات و يعلم فيها العلم، هي لله وحده، لا لجهةٍ، ولا لفئةٍ، ولا لشخص، و معنى أنها لله ؛ أي: لا يجوز أن تكون الدعوة في المساجد إلا لله، فلا تقام فيها علاقة تجارية كالبيع والشراء، كما لا تقام فيها دعوة إلى إنسان..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

أيها الإخوة الكرام... يقول عليه الصلاة والسلام:

((خير البلاد مساجدها، وشرّها أسواقها))

ففي الأسواق تُعرض الدنيا بأبهى شكلٍ وزينة، أما المساجد ففيها الآخرة، وإن حياة الإنسان مرتبطة بمعرفة الله و الاتصال به، فأين يعرف الله ؟ إنه يعرفه في المسجد، كما أن حياة الإنسان مرتبطة بالعلم، فأين يتعلم ؟ إنه يتعلمه في المسجد، فإذا كنت في المسجد كنت في المكان الذي يذكرك بالآخرة والعلم، كما يذكرك بالله عزّ وجل و طاعته، وقد ورد في الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تنطهر في بيته ثم زارني

وحق على المزور أن يكرم الزائر))

فإذا كنت في بيتٍ من بيوت الله كنت في ضيافة الله، وضيافة الله عزّ وجل ليست في طعام تأكله، أو شراب تشربه، ولكنها أمنٌ يملأ قلبك و توفيقٌ في عملك و صحةٌ في رؤيتك و توازنٌ في حياتك، فعتاء الله عزّ وجل لا يقدر بثمن.

حب المساجد من علامات الإيمان:

لقد ورد في الحديث قوله:

((من أحب الله عزّ وجل فليحبني، ومن أحبني فليحب أصحابي، ومن أحب أصحابي فليحب القرآن،

ومن أحب القرآن فليحب المساجد))

أي: إن من علامة إيمانك أنك تحب الله و رسوله و أصحابه، و أن تحب القرآن والمساجد، لذلك جاء في الحديث أنه من كان يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان، فمن أين استنبط النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأحاديث ؟ من قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة التوبة: آية " 18 ")

إن من علامات إيمانك أن ترتاح في المسجد، كما أن من علامات ضعف الإيمان أن تتضايق في المسجد، فالمؤمن في المسجد كالسمك في الماء، أما غير المؤمن من المسجد فهو كالعصفور في القفص لشدة تضايقه.

((من أحب الله عزّ وجل أحبني ومن أحبني فليحب أصحابي ومن أحب أصحابي فليحب القرآن ومن

أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أفنية الله عزّ وجل))

إن أبنية المساجد أذن الله في رفعها وبارك فيها، فهي ميمونة - مباركة - ميمونٌ أهلها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلها، فعندما يكونون في صلاتهم يكون الله عزّ وجل في حوائجهم، وعندما يكونون في مساجدهم يكون الله عزّ وجل من ورائهم، فحينما تققطع وقتاً من وقتك الثمين للمجيء إلى المسجد و سماع درس علم أو أداء صلاة أو ذكر لله عزّ وجل، فإن ثمن هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك أن الله عزّ وجل يكون في حاجتك بينما أنت في المسجد، فأنت في المسجد والله من ورائك بالتوفيق والتأييد والنصر والحفظ، فالمساجد المخصصة لله عزّ وجل، و العبادة فيها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض، فأنت عندما تنظر من الأرض إلى السماء ترى النجوم متألقة، وإن هذه المساجد كأنها نجوم الأرض تضيء لأهل السماء، فالمساجد فيها الحق، و فيها الذكر والأمر بالخير والنهي عن الشر و التعريف بالحلل و الحرام، و فيها الطريق الموصل إلى الله عزّ وجل وهو طريق سعادة الدنيا والآخرة، لذلك كانت المساجد تتألق لأهل السماء كما تتألق النجوم لأهل الأرض، لكن أدق ما في هذين الحديثين هو قوله عليه الصلاة والسلام:

((هم في مساجدهم والله في حوائجهم))

وقد قال عليه السلام:

((من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

قال الله عز وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

يمشون هوناً ؛ أي: لا يسمحون للعالم أن تستهلكهم، فهم يقتطعون من أوقاتهم وقتاً لمعرفة الله و لطلب العلم وأداء العبادات، فهم يمشون هوناً لأن الدنيا لا تستهلكهم، ولا تستحوذ عليهم، و لا تجعلهم ينسون كل شيء، فإن من تشعبت به الهموم لم يبال الله بأي أوديتها هلك، أما من كان همه معرفة الله و جعل همه همّاً واحداً كفاه الله الهموم كلها، فاعمل لوجه واحد يكفك الهموم كلها، فإنك عندما تأتي إلى بيت الله لتطلب العلم و القرب من الله عز وجل فإن الله عز وجل يعاملك معاملة خاصة عندئذ، فيعاملك بالنصر والتأييد والحفظ والتوفيق، إذاً:

(قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

وقل أوحى إليّ أيضاً...

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

أي: إن هذا المسجد إنما بُني لتعريف الناس بالله و تعريفهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الكون، فيقرّبهم إلى الله عز وجل.

فاستخدام هذا المكان للبيع والشراء و قضايا الدنيا و حل مشكلات الناس المادية هو استخفاف بهذا البيت المقدس.

معاني كلمة (مسجد):

قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

1- المعنى الأول: (وهو أوسع معنى):

إن كلمة مساجد واسعة جداً، فكل مكان سجدت فيه لله عز وجل هو مسجد، فإذا وسعنا كلمة المسجد صار معنى المسجد: كل مكان سجدت لله عز وجل، فالمسجد اسم مكان، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أينما كنتم فصلوا، فأينما صليتم فهو مسجد))

فيهذا المعنى وجب عليك أن تكون خالصاً لله في كل مكان، و هذا أوسع معنى للآية.

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

(سورة الجن: آية " 18 ")

أي: ليكون عملك دائماً وأبداً، خالصاً لله عزّ وجل، قال تعالى:

(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

(سورة الإنسان)

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر:

((وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهُوراً فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ وَأَحِلَّتْ لِي الْمَغَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأَعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً))

(من صحيح البخاري:الرقم " 323 ")

فالمسلم أينما أدركته وقت الصلاة صلى، وهذا مما يؤكد أن هذا الدين العظيم بسيط، فأنت لا تحتاج إلى معابد فخمة ولا إلى أبنية شاهقة، ولا إلى كهنوت ولا إلى رجال دين، فأينما وجدت نفسك قد دخلت في وقت الصلاة فصلّ، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أينما ما كنتم فصلّوا، وأينما صليتم فهو مسجد))

وقال:

((وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهُوراً))

فأوسع معنى للآية يقول: ليكون عملك خالصاً لله طول حياتك، لأن أي مكان تصلي فيه مسجد، والسجود لله وحده.

2- المعنى الثاني:

المساجد: جمع مَسْجِدٍ، والمسجد هو الأعضاء التي تسجد بها، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِذَا سَجَدَ الْعَبْدُ، سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةُ آرَابٍ))

و الآراب: الأعضاء ؛ أي: الرأس، والركبتين، واليدين، والقدمين، فهي سبعة، فيصبح معنى الآية: إن الله عز وجل قد كرمك بأعضاء، فلا ينبغي لك أن تسجد بها لغير الله، فهذا الرأس لا ينبغي له أن ينحني لغير الله، و هذه اليد لا ينبغي أن تخضع لغير الله، هذه الرجل ينبغي ألا تسير بها إلى غير ما يرضي الله، لأن هذه الأعضاء التي كرمك الله بها هي الله، وأنت لله، فلا يليق بك أن تكون لغير الله، كما لا يليق بك أن تذلل رأسك لغير الله، (ارفع رأسك يا أخي متى موّت علينا ديننا ؟).

3- المعنى الثالث:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

المساجد: مصدر ميمي (مَسَجَد)، على وزن (مَفْعَل)، أي: مكان السجود، فالصلاة هي العبادة الخالصة لله عزَّ وجل، وينبغي أن تكون عباداتك كلها وفي مقدمتها الصلاة خالصة لله عزَّ وجل، كما ينبغي أن تكون أعضاؤك التي كرَّمك الله بها خاضعة لله وحده في استعمالاتها كلها كعطاء اليدين وتنقل الرجلين، فلا تخضع لأحدٍ سواه.

4- المعنى الرابع:

إن المعنى المألوف للمساجد هو هذه البيوت التي بينها المسلمون ليؤدوا فيها الصلوات و يتعلموا فيها و يلتقوا فيها بإخوانهم المؤمنين، وإن خير البلاد مساجدها، فهذا المسجد بالمعنى الضيق الذي نألفه هو الله، فإذا اعتلى إنسان منبراً في المسجد فلا ينبغي له أن يعرض آراءه الشخصية - فمن أنت حتى تفعل ذلك ؟ - كما لا ينبغي له أن يتشفي من خصومه وهو على هذا المنبر، لأن هذا المنبر منبر رسول الله، و كرسي التدريس هذا كرسي رسول الله صلى الله عليه، فلا يسمح لأحد أن يتخذ المنبر والكرسي لتحقيق أغراض الشخصية ولا للنيل من الخصوم، فينبغي عليك أن تنحي كلَّ نزواتك وأهوائك و مصالحك، وأن تجعل الدعوة لله وحده، لئلا يشوبها شائبة، قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

أي: هناك أهواء و آراء و مصالح و انتماءات و علاقات و قضايا، و هذه كلها ممنوعٌ أن تُعالج في المسجد، لأن هذا البيت بيت الله، فالموضوع الذي ينبغي أن يعالج فيه فقط هو ذكر الله وما والاه، فالقرآن من ذكر الله، و السنة من ذكر الله، و السيرة من ذكر الله، و الفقه من ذكر الله، فكل شيءٍ يقربك من الله عزَّ وجل يمكن أن يعالج في المسجد، كما أن كلَّ شيءٍ يقربك من الدنيا يعالج خارج المسجد، لأن الجامع مُقَرَّبٌ إلى الله، أما الأسواق والبيوت والمنتزهات والمقاصف فهي مقربة من الدنيا.. المسلمون في المسجد سواسية:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

أيها الإخوة الكرام... قال العلماء: إن في كلمة المساجد لله إضافة تشريفٍ وتكريم، لكن هذا لا يمنع أن ينسب المسجد إلى غير الله، فلا حرج في قولنا: هذا جامع الفاروق مثلاً، أو جامع الوليد بن عبد الملك، وهذا لا يمنع من كون المساجد لله، فلا يمنع من أن تنسب إلى الباني أو منفق أو مشرف، أما في الأصل فهي لله عزَّ وجل، لذلك وجب على الإنسان حينما يأتي إلى المسجد يجب أن يخلع الدنيا خارج المسجد، مهما كانت مرتبته الاجتماعية أو حجمه المالي، أو درجته العلمية أو رتبته العسكرية، فإن كل شيء متعلق بالدنيا يجب أن يبقى خارج المسجد، وهذا شيء دقيق جداً، فالناس يتفاوتون خارج المسجد، ففيهم المدير العام، وفيهم الحاجب، لكن حكمة الله عزَّ وجل شاءت أن يكون هذا التفاوت في مراتب الدنيا متلاشياً المسجد.

يروى أن أحد الخلفاء كان في المسجد الحرام _ وأظنه أنه الإمام مالك إمام دار الهجرة _ فطلب منه بعض العلماء أن يزوره، فقال له: قولوا له يا هارون إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: صدق، نحن نأتيه، ثم قال: قولوا له: إذا جئتنا فلا ينبغي أن تتخطى رقاب الناس.

فأنت في المسجد مسلم فقط، لا يوجد لك رتبة عسكرية، ولا رتبة علمية كالدكتوراه مثلاً، ولا رتبة اجتماعية كعضوية غرفة التجارة، بل أنت في المسجد مسلم، فيجب أن تجلس حذاء أخيك المسلم دون أي تفرقة، فلا يجوز لك في المسجد تخطي رقاب الناس، أما إذا كنت في احتفال أو في دائرة فقد تمتلك مرتبة خاصة، فالمدير العام له غرفة خاصة كما له طاولة خاصة و مقعد خاص، أما الموظفون الآخرون فلهم غرفهم الخاصة، والمستوى فيها أقل، فالمراتب في الدنيا تتفاوت، أما في المساجد فكل المسلمين عند الله سواء، فهم سواسية كأسنان المشط، فالمساجد لله، والذين فيها عبادٌ من عباد الله.

إن الإنسان في المسجد الحرام مثلاً لا يمكن أن يخطر في باله أنه في السعودية أبداً، فلا يذكر إلا أنه في بيتٍ من بيوت الله، في داخل المسجد الحرام، فلا تشعر أنك في بلد، لأن هذا بيت الله، وكذلك حال أي إنسان يدخل إلى بيت من بيوت الله في أي مكان من العالم فنراه ينسى في أية دولة هو، لأنه في بيت من بيوت الله، و تقريباً لهذا المعنى أقول: يعد بناء السفارة في العرف الدبلوماسي جزءاً من البلد التي تمثله، وهذا المسجد هو بيت الله، فهو يعدُّ جزءاً من مقدسات المسلمين، فالمسجد لا يملك أبداً، فليس في الإسلام إنسان يملك مسجداً، فمن الممنوع أن تبني فوقه، و بحسب الأحكام الفقهية يمنع أن يكون تحته شيء، فهي أرض حرة لا شيء تحتها ولا شيء فوقها، لأنه بيتٌ من بيوت الله. قال تعالى..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)

أي إنها بقاع مقدسة جداً، فالدعوة فيها لله وحده، فليس فيها في آراء ولا انتماءات، ولا في فكر معين ولا مصالح، ولا نزوات، كما أن هذه المساجد ليست لأشخاص ولا لجماعات ولا لفئات. حكم فقهي:

سأعرض لكم الآن حكماً فقهياً يقول: إذا أغلقت أبواب المسجد وألقيت فيه خطبة الجمعة كانت الخطبة باطلة، فلو اخترنا الجامع الأموي وهو من أكبر المساجد في بلدنا، وأظن أنه يتسع لمائة ألف ؛ فالصحن يتسع لخمسين ألفاً، والحرم يتسع لخمسين ألفاً آخرين، فلو اجتمع في هذا المسجد مائة ألفٍ ثم عيّنا أعظم خطيبٍ لهم ليلقي خطبة الجمعة، ثم أغلقنا الأبواب، كانت الخطبة باطلة، لأن المساجد لله، فأبي عبد الله له أن يدخل المسجد، ولا يوجد عندنا مسجد مغلق، أو مسجد خاص لفئة معينة أو لجماعة معينة، أو مسجد خاص للمذهب الفلاني، أو خاص بالاتجاه الفلاني، هذا لا يوجد..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

إن هذا بيت الله، فهل تستطيع أن تمنع مسلماً من دخول مسجد، من أنت ومن أين أنت حتى تفعل ذلك ؟ إن هذا بيت الله، يدخله كل مسلم من أي انتماء، وأريد من هذا التفصيل، أن تعتقدوا أن هذا البيت بيت الله، وأن الدعوة لله، وأن الأسلوب مستقى من كتاب الله، وأن الأهواء والمراتب العلمية والحجم المالي توضع خارج المسجد، فأنت هنا مسلم، وتحقق هذه المساواة في الصلاة، وقد جاء في الحديث أن

((خير الصفوف أولها))

فقد تجد إنساناً يعمل حاجباً فهو في المرتبة الدنيا الاجتماعية، ثم تجد إلى جانبه شخص كبير جداً في المرتبة الاجتماعية، أما في المساجد فلا يوجد أماكن خاصة، لأن المساجد لله وكل من فيها عباد الله، فالمساواة تتحقق في المساجد، أما في الدوائر فهناك مدير و معاون مدير ورئيس دائرة و موظف و كاتب و ضارب آلة كاتبة و مراسل و (آذن) و حاجب، أما في المسجد فكل هؤلاء عند الله سواء، فلا يجوز للإنسان أن يتخطى رقاب الناس في المسجد، كما لا يجوز له أن يقول: هذا المكان مكاني، فلا يوجد في المسجد حجز أماكن، ولا مقاعد مرقمة، بل القاعدة في ذلك: اجلس حيث ينتهي بك المجلس. ثلاثة استثناءات:

إن الصلاة في بيت الله الحرام بعشرة آلاف صلاة فيما سواه، والصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة فيما سواه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

أي أن الصلاة عند رسول الله بألف ثواب، وفي تنمة الحديث يقول:

((إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

وفي جاء حديث آخر:

((صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَإِنْ صَلَاةٌ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ))

مائة صلاة من مسجدي هذا))

فالصلاة عند رسول الله بألف، وهي في بيت الله الحرام مضروبة بمائة، فهي تساوي: مائة ألف، وقد مر بكم من قبل أنه:

((لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ))

الْأَقْصَى))

(من صحيح البخاري عن أبي هريرة)

نرجو الله سبحانه وتعالى أن نعود إليه..

أما بقية المساجد فهي عند الله سواء، فليس من السنة أن تشد الرحال إلى مسجد في حلب، ولا إلى مسجد آخر في أي مكان من العالم الإسلامي، لأن المساجد كلها - عدا المسجد الحرام، و المسجد النبوي، والمسجد الأقصى - سواء عند الله عز وجل.

جواز نسبة المساجد إلى غير الله تعريفاً:

قال العلماء: إن المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً، فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً، أي: قد تنسب إلى من بناها، أو من أشرف على بنائها.

استثناء فقهي:

وهناك استثناء فقهي آخر، فقد قال العلماء: إن المساجد لله عز وجل ولا يذكر فيها إلا الله، ورغم ذلك فإنها تجوز فيها قسمة الأموال - أي: الغنائم - ويجوز فيها وضع الصدقات، ويجوز فيها حبس الغريم، وربط الأسير، وسكنى المريض، وفتح الباب للجار إليها، وهذه بعض الاستثناءات التي أقرها العلماء.

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

بعض الأدعية المعلقة بالمساجد:

لقد كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد يدعو ويقول:

((اللهم أنا عبدك وزانرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أنت تفك رقبتني من النار))

وهناك دعاء مختصر عنه يقول:

((اللهم افتح لي أبواب رحمتك))

فالرحمات تنزل على المسلمين في المساجد، فإذا خرجت من المسجد فقل:

((اللهم افتح لي أبواب فضلك))

فعندما تكون في المسجد تنزل عليك الرحمات، أما عندما تكون خارج المسجد فإنك تسأل الله من فضله، فأنت في حالين: إما طلب رحمة الله وأنت في بيته، أو طلب التوفيق في عملك وأنت خارج المسجد.

فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال:

((اللهم صبّ علي الخير صباً ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كداً واجعل لي

في الأرض جداً أي غنى))

و هذا دعاء النبي عليه الصلاة والسلام وهو خارج المسجد.

بعض آداب المساجد: إن من أهم آداب المسجد أنه:

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ -يَعْنِي الثُّومَ- فَلَا يَأْتِيَنَّ الْمَسَاجِدَ))

(من سنن الدارمي عن ابن عمر)

وهناك حديث آخر يقول:

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومَ وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَاتَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ))

(من صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله)

فيجب أن يكون المسلم على أكمل وجه عندما يأتي إلى بيت الله، فإذا دعيت إلى عقد قران في صلاة فماذا تفعل ؟ إنك ترتدي أجمل ثيابك، و تتعطر، و تحاول أن تظهر بأبهى منظر، فهذه العناية ينبغي أن تكون في بيت من بيوت الله، فيجب عليك أن تبتعد عن أي شيء يؤدي المسلمين، فقد يكون هناك أشخاص متفاوتون في طباعهم، فهناك إنسان يتأذى مثلاً من ثياب غير نظيفة يرتديها مصل، وقد يتأذى من رائحة العرق أو رائحة الثوم، فينبغي عليك أن تبتعد عن أية رائحة من فمك أو من أعضائك أو من ثيابك يتأذى منها المسلمون.

وقد ورد في بعض الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((يَأْتِي اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَاجِدِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا نَجَائِبُ بَيْضَ قَوَائِمِهَا مِنَ الْعَنْبَرِ وَأَعْنَاقُهَا مِنَ الزَّعْفَرَانِ وَرُؤُوسُهَا مِنَ الْمَسْكِ وَأَزْمَتُهَا مِنَ الزَّبْرِجَدِ الْأَخْضَرِ، وَالْمُؤَذِّنُونَ فِيهَا يَقُودُونَهَا وَأَنْتُمْهَا يَسُوقُونَهَا وَعُمَارُهَا مُتَعَلِّقُونَ بِهَا، فَتَجُوزُ عَرَصَاتُ الْقِيَامَةِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ فَيَقُولُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ: هَؤُلَاءِ مَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبِينَ وَأَنْبِيَاءُ مَرْسَلُونَ فَيُنَادِي بِهِمْ: مَا هَؤُلَاءِ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا أَنْبِيَاءَ وَلَكِنْهُمْ أَهْلُ الْمَسَاجِدِ وَالْمَحَافِظُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

فإذا أكل الإنسان من هذه الشجرة فلا يقرب المسجد، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((فلا يقربن مصلانا))

يوجد عندنا حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام فيه:

((إن الرجل ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك من نتن ريحه))

فعلينا هنا أن نوسع الموضوع، فلو كان هناك الإنسان يكذب ثم دخل المسجد فإن له ريحاً منتنة يتأذى منها الملك، فالأكمل لك ألا تدخل بيت الله إلا وأنت منيب إلى الله، وطاهر داخلاً وخارجاً، قلباً وقالباً، سراً وعلانية..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه المساجد إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن))

إنما: أداة قصر، أي: لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن، فلذلك كان على الإنسان أن يحتاط كثيراً و أن يتأدب كثيراً لأن الله تعالى قال:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفَوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول أيضاً:

((إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن))

فقد سمع سيدنا عمر رضي الله عنه صوت رجل في المسجد فقال: ما هذا الصوت ؟ ثم قال لصاحب الصوت: أتدري من أين أنت ؟ وقد كان خلف ابن أيوب جالساً في مسجده، فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه خارج المسجد.. أرايتم إلى هذا الأدب ؟ إنه من شدة ورع السلف الصالح، أنهم كانوا لا يجيبون عن سؤال دنيوي إلا خارج المسجد، فالمساجد إنما هي التسبيح والذكر وقراءة القرآن.

لقد كره العلماء -أيها الإخوة- البيع والشراء في المسجد ؛ كأن تباع بضاعة في المسجد فتساوم عليها، حتى إن بعض التابعين قال: (يا أبناء الأفاعي، أتخذتم مساجد الله أسواقاً ؟؟ هذا سوق الآخرة) أي: يباع فيه بضاعة الآخرة، وهي معرفة الله عز وجل.

و ورد أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَشْتَدُ ضَالَةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا))

(من صحيح مسلم عن أبي هريرة)

فتحقيق مصالح شخصية في المسجد من بيع و شراء، أو حل مشكلة ما يكون خارج المسجد، لأن هذه المساجد لم تبني لهذا.

وآخر شيء أود ذكره هو أن السلف الصالح والعلماء كرهوا رفع الصوت في المسجد، فخفض الصوت في المسجد من السنة، فإذا انتهى الدرس كان من الأولى أن يكون الصوت خفيضاً وذلك أدباً مع الله عز وجل، فالإنسان دائماً يتأدب مع صاحب البيت، و كلما كان صاحب البيت عظيماً تأدب معه الإنسان أكثر، كانت هذه بعض الأحاديث المتعلقة بالمساجد التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلخيص معاني كلمة (مسجد):

إن الآية الكريمة تقول:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

- 1- المعنى الأول: إن المساجد هي مكان السجود، وإن أي أرض تصلي فيها هي الله، فيجب أن تكون مخلصاً لله في كل شؤون حياتك، وفي كل أحوالك وحركاتك وسكناتك.
- 2- المعنى الثاني: إن هذه الأعضاء (المساجد) التي تسجد بها لله ينبغي ألا تُخضعها لغير الله، فلا تحن رأسك لغير الله، ولا تمد يدك ليدٍ مشبوهة، ولا تسر برجلك إلى معصية.
- 3- المعنى الثالث: المساجد: (مصدر ميمي) وتعني: الصلوات، و الصلوات تكون لله وحده.
- 4- المعنى الرابع: المسجد هو البيت الذي بني لأداء الصلوات، وإن هذا البيت بني لتعريف الناس بالله، فلا ينبغي لك أن تطرح فيه نظرية أرضية، ولا دعوة لإنسان أو جهة، أو فئة أو جماعة، فالمساجد لكل المسلمين، وفيها تتحقق المساواة بينهم، فإذا كنت خارج المسجد فقد يكون لك مرتبة علمية، أو مكانة معينة، أو وظيفة مرموقة، أو حجم مالي كبير، أما إذا دخلت إلى بيت الله فأنت واحدٌ من المسلمين، وهذا شيءٌ مهمٌ جداً، فقد نجد أحياناً إنساناً يشعر بعزّته في المسجد فيقول: أنا مقامي كمقام أغنى إنسان! أو كمقام أقوى إنسان! فالمسجد يوحّد بين المسلمين، بينما تفرّق الدنيا بينهم. أيها الإخوة الكرام...

(قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن: آية " 1 ")

وأنه..

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

فإذا أتيح للإنسان أن يتكلّم في مسجد، أو أن يخطب في مسجد فليعلم علم اليقين أن هذا المنبر منبر رسول الله، وأن هذا الكرسي كرسي رسول الله، فلا يجوز له أن ينطق بأهوائه، ولا أن يروج أفكاره، ولا أن ينال من خصومه، لأن هذا المنبر لله عزّ وجل، فينبغي أن تتطّق فيه بالحق، وأن تضع تحت قدمك كل مصلحك وأهوائك..

إن هذه الآيات هي حكم قطعي، فهو لأئ الجن لا يعلمون الغيب، ولا يملكون النفع ولا الضر، وهم محاسبون ومعدّبون إن عصوا، كما أنهم مكافؤون إن نجوا، وقد أرسل النبي عليه الصلاة والسلام لهم، لكن النبي لم يعلم بوجودهم إلا بعد أن أعلمه الله بذلك، وقد ذكرت هذا كثيراً، ولكن الدرس الماضي لا يعني أنه ليس هناك إنسٌ يتعاونون مع الجن، إن هذا التعاون موجود، ولكنه غير مشروع، فقد نفيت مشروعية التعامل مع الجن، لكن الواقع يؤكّد أن هناك أناساً (رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن)، وهذا ما قاله الله عزّ وجل (فزادوهم رهقاً)، وقد يستمتع الجن أحياناً بالإنس في مصالحهم وفي نشر ضلالتهم، فأنا أنفي مشروعية التعامل مع الجن، أما التعاون بين الإنس والجن فهو قائم، وقد ذكره الله عزّ وجل، ولكني أؤكد لكم أن هذا التعاون غير مشروع، بل هو محرّم (ومن سحر فقد كفر)، لكن

هناك من يزعم أنه يتصل بالجن وأنه يستقي الأخبار منهم ويتعاون معهم، فهو قد يستفيد من خصائص الجن في سرعة التنقل و الإتيان بأخبار دقيقة عن الشخص، كما أنه قد يدعي أنه يستحضر أرواح الموتى، وهو لا يفعل هذا في الحقيقة، بل إنه يستحضر قراءهم من الجن، فيأتون بتفاصيل دقيقة جداً، فأنا لم أنف التعاون، بل أنفي مشروعية التعاون، فالتعاون غير مشروع، وليس عندنا للاستعاذة من ذلك إلا قول الله عز وجل:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

و قول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

و الموعودتان:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4))

(سورة الناس)

هذا هو ديننا... إنه دين علم، و دين النقل الصحيح، دين القرآن الكريم، أما ما سوى الكتاب والسنة فلا تلتفت إليه، و لا تعبأ به بل اركله بقدمك لأنه باطل في باطل.

فأنا لم أنف التعاون فالتعاون قائم، ولكنني أنفي مشروعية التعاون، و والله الذي لا إله إلا هو لقد ذكر لي أحد الإخوة الكرام عن رجل يتعاون مع الجن، فقال: والله إنه لا يصلي وهو من أكبر الزناة، وله أساليب في قنص النساء يندى لها الجبين، فهذا التعاون قائم ولكن ليس مشروعاً، بل هو ضلالة.

وقد ذكرت لكم كثيراً أن كل خرق للعادات إذا كان على يد نبي فهو معجزة، وإذا كان على يد ولي فهو كرامة، وإذا كان على يد فاسق فهو استدراج و ضلالة، فخرق العادات موجود حتى عند المضللين، فقد تقول لي: ما تفسير هذا ؟ فأقول: إن الدين لم يقره حتى يعطي تفسيراً له، فاسأل أهل الذكر، و اسأل الأطباء، فقد يجلس بعض الناس، ويتحدث عن خرق العادات، وعن هذا الذي يدخل سيخ في بطنه مثلاً، ففي جلسة من الجلسات قال أحدهم: ما قولكم فيّ ؟ وهو لا يصلي، وله أعمال من دون ذلك، ثم قال: أنا وآبائي على هذا المنوال. فهو يستخدم ذلك وسيلة للارتزاق.

أما الإسلام فهو بريء من هذه الخزعلات والخرافات والتجاوزات والشطحات، لأن الإسلام دين علم، و دين كتاب وسنة، و دين منهج واضح، فكل شيء لم يفعله النبي فهو غير مشروع..

أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

لقد علم النبي أصحابه أن يكونوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، و أنا لا أريد أن أطيل الحديث،
لكني أريد أن أقول: إننا لا نملك إلا سنة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

فيجب عليك أن تمتلك منهج للتلقي، فترفض أي شيء خلاف الكتاب، وإلا وقعنا في متاهات لا تنتهي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (6-8): تفسير الآية 19

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-10-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

العبودية لله عز وجل

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة الجن، ومع الآية الكريمة التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

عبد الله هنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم..

العبودية منتهى الرقي:

إن نهاية رقي الإنسان وتفوقه هي أن يصل إلى مرتبة العبودية لله عز وجل، لأن الرب ربُّ والعبد عبدٌ، وإنك لا ترتقي إلا إذا كنت عبداً لله، لأن هذا هو مكانك الطبيعي، وهذه هويتك، وهذه خصائصك، فالذي يدعي الربوبية أو يتأله أو يتعظم أو يتكبر يسقط من عين الله ومن عين الخلق، فليس هناك درجة أعلى عند الله وعند الناس من أن تكون عبداً لله، وكلما ازدادت لله خضوعاً زادك الله عزاً، وكلما ازدادت لله طاعة زادك رفعةً، وكلما ازدادت لله انصياعاً لأمره زادك قرباً، فما من مرتبة وصلها بشرٌ على الإطلاق، كالمرتبة التي وصل إليها النبي عليه الصلاة والسلام..

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

إن سدرة المنتهى هي أعلى مقام بلغه إنسان، يقول عليه الصلاة والسلام:

((سَلُّوا لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَوْزَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ

سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ))

(من مسند أحمد عن عمرو بن العاص)

والوسيلة هي المرتبة التي تصل به إلى سدرة المنتهى، قال تعالى:

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17))

(سورة النجم)

وقد قال الله عز وجل:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

فقد كان أعلى وصِفَ وُصِفَ به النبي عليه الصلاة والسلام أنه عبدُ الله، لكن القضية هنا محيرة، لأنها تقول: إنك كلما ازدددت خضوعاً زادك رفعة، و كلما ازدددت تواضعاً زادك مكانة، و كلما ازدددت انصياعاً لله عزَّ وجلَّ زادك رفعة، ولكن الله عزَّ وجلَّ قال:

(أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

إن الله عزَّ وجلَّ لم يذكر مرة إلا ذكر معه النبي عليه الصلاة والسلام، فأنت تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، و هل يعقل أن يقسم الله جلَّ جلاله بعمر إنسان ؟ لقد أقسم الله عز وجل بعمره الثمين، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ فِي سَكَرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

وقد أننى الله جلَّ جلاله على خُلقه العظيم، فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

إياك أن تتكبر..

إن هذا تعليمٌ لنا، فإياك أن تتكبر و تستعلي و تتطاول، و تدعي ما ليس لك، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

(العظمة إزاري، والكبرياء رداي، فمن نازعني منهما شيئاً أنقته عذابي ولا أبالي))

فأنت تزداد رفعة عند الله بخضوعك له، و تزداد مكانة بعبوديتك له، و تزداد غنىً بافتقارك إليه، و تزداد قوةً بإعلان ضعفك أمامه، و تزداد علماً بإعلام جهلك أمامه:

مالي سوى فقري إليك فبالافتقار إليك فقري أدفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رُدَّتْ فأبي بابٍ أقرع

إن المؤمن الصادق -أيها الإخوة- له علاقة طيبة بالله، و علاقته بالله علاقة الخضوع، و إذا أعزَّ الله سبحانه وتعالى إنساناً سخر له أعداءه في خدمته، وإذا أذل إنساناً تنكر له أقرب الناس إليه، وإن مما يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى وصف النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى وصفٍ بلغه الإنسان، فقال:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

وقد وقف خطيباً أمام النبي عليه الصلاة والسلام فقال:
ما شاء الله وشئت، فقال:

((بنس الخطيب أنت، جعلتني لله نداً؟! قل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن))

من أنا؟؟ إن الأمر هنا عجيب، لأنك كلما ازدددت خضوعاً، ومرّغت وجهك في أعتابه زادك عزاً و رفعة، وحفظك وأيدك ونصرك وأكرمك ورفع ذكرك ودافع عنك، وكلما قلت: أنا ! تخلى عنك، وقد ذكرت من قبل كثيراً أن في حياة المؤمن يومين يتكرران كل يوم، وهما يوم بدر ويوم حنين، ففي يوم بدر قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من الآية " 123 ")

أي مفتقرون إلى الله.. أما في حنين فقال:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

(سورة التوبة: من الآية " 25 ")

فحينما قالوا في حنين: لن نغلب من قلة تخلى الله عنهم، رغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وهم الصحابة الكرام من خير خلق الله..

(وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

ولكنهم حينما التجؤوا في بدر إلى الله وابتهلوا إليه نصرهم، وهم قلة قليلة ضعيفة ذليلة على كثرة كثيرة مدججة بأنواع السلاح، فماذا نستفيد من هذين اليومين ؟
إنك مع الله بين حالين ؛ أن يتولأك، و أن يتخلى عنك، فإذا قلت: أنا !! لدي خبرات متراكمة وعلم و مال و نسب و مكانة ومركز مرموق و ذاكرة قوية وصحة جيدة، تخلى الله عنك، وإذا قلت: هذا من فضل ربي، وهذا بتوفيق الله و حفظه تيسيره تولأك الله، فأنت مخير ؛ فإما أن تقول: أنا، فيتخلى الله عنك ويكلك إلى نفسك، وإما أن تقول: الله، فيتولأك بحفظه ورعايتك، و كلما اقتربت من أن تكون عبداً لله نلت كل مراتب هذه المكانة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

أنواع المعية الإلهية:

1- المعية العامة: (معية العلم):

إن ربنا عز وجل قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

فالمراد هنا أن الله مع كل الناس، كافرهم و مؤمنهم، طائعهم وفاسقهم.. مع القريب والبعيد، مع الملحد والمنكر، والكافر والفاجر، وهذه المعية تسمى معية العلم.

2- المعية الخاصة: (معية التأييد):

قال الله تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

فهذه معية خاصة، لأنها معية التوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، و المعية الخاصة لها ثمن، و الثمن يملكه كل واحد منا، تقول الآية الكريمة:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

إن هذا ثمن المعية.. أتحب أن يكون الله معك ناصراً و مؤيداً و حافظاً و ملهماً ومسدداً ومدافعاً ؟ إذا أردت ذلك فآمن به، واستقم على أمره، وأيد رسله، واعمل الصالحات لخدمة خلقه، ففي هذه الحالة يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ لا أحد يجرو أن يكون عليك إذا كان الله معك، فإذا كان الإنسان في مجتمعاتنا مع أعلى رجل في البلاد فمن يستطيع أن يقف ضده ؟ لا أحد، فإذا كان هذا في مجتمع البشر، فكيف بالله عز وجل وهو القوي العزيز، ألا تقرؤون في الدعاء: " سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يُعز من عاديت ".

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم -على علو مقامه و عظم مكانته عند الله و شدة قربيه وفنائيه في سبيل الله - كان في الطائف يدعو أهلها إلى طاعة الله وعبادته، فردوه شرّاً رد و كذبوه وسخروا منه، وأغروا صبيانهم بإيذائه، فماذا دعا ؟؟ لقد قال:

((يا رب إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، لك العتبي حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

فهذا هو مقام العبودية

((إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، لك العتبي حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

و حينما وجد الأنصار في أنفسهم عليه وجاءه سعد بن عباد، وقال يا رسول الله: إن قوم وجدوا عليك في أنفسهم، قال:

((لَمْ ؟) قال: من أجل هذا الفيء الذي وزّعته في الناس ولم تخصّهم منه، قال: (أين أنت من قومك؟) قال: ما أنا إلا من قومي، فقال: (اجمع لي قومك)، فلما جمعهم قال: (يا معشر الأنصار ما قاله بلغتني عنكم، واجدّة وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعة تآلفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم))

والآن أريد منكم أن تدققوا: لقد كان عليه الصلاة والسلام أقوى رجل في الجزيرة العربية، فقد دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وكان هذا بعد حنين، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك مشكلة، فقد كان كل الناس خاضعين له، وقد قال:

((أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتكم، ولصدقتكم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، و طريداً فأويناك، ومخذولاً فنصرناك))

فماذا ذكّروهم هنا ؟ لقد ذكّروهم بفضلهم عليه، وهو أقوى رجل، لقد كان بإمكانه أن يلغي وجودهم، كما كان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، و كان بإمكانه أن يهملهم أو أن يعاتبهم، فما الذي فعله ؟ لقد ذكّروهم بفضلهم عليهم، فقال:

((يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي))

إنه هنا لم يقل: فهديتكم، أرايتم إلى تواضعه صلى الله عليه وسلم و افتقاره لفضل الله

((ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي، عالة فأغناكم الله ؟ أعداء فألف بين قلوبكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم))
فقالوا: رضينا، وبكوا حتى أخضلوا لحاهم، قال:

((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، وما سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار

شِعْباً إلا سلكت شعب الأنصار))

فما هذه العبودية لله عزّ وجل ؟ إن المؤمن كلما تواضع لله و أعلن افتقاره إلى الله ازداد عند الله رفعة، وهناك أربع كلمات مهلكات، هي: (أنا) و(نحن) و(لي) و(عندي)، فهناك من يقول مثلاً: أنا ابن فلان ! أنا أحمل هذه الشهادة ! أنا أشغل هذا المنصب ! أنا أستطيع أن أفعل كذا وكذا ! لقد قال الشيطان:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

فأهلكه الله، و قال قوم بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: آية " 33 ")

فأهلكهم الله عزَّ وجل، و قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: آية " 78 ")

أي: على خبرات متراكمة أمتلكها..

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: آية " 81 ")

و قال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: آية " 51 ")

فأهلكه الله عزَّ وجل..

ملخص الفكرة..

إن ملخصَ ملخص هذا الكلام هو أنك بين أن تقول: الله ! فيتولاك الله، وبين أن تقول: أنا ! فيتخلى عنك، وقد يكون ذلك على علمك، و علو قدرك، وعظم شهادتك، و تراكم خبراتك، و ضخامة مالك، لأن هذا كله ليس بشيء عند الله، فليس هناك ذكاء ولا غنى مع الله عز وجل، لأن الذي أعطاك يستطيع أن يأخذ كل ما أعطاك في يوم وليلة فتصبح من الفقراء، كما أن الذي منحك نقطة دم قادر على أن يجمدها، و إن كل ما تملك من الدنيا منوط بسيولة دمك، فلو تجمد دمك في بعض العروق، كعروق الدماغ مثلاً وكان ذلك في مكان الذاكرة فإنك لن تعرف ابنك وهو أقرب الناس إليك، ثم يتوسط لك أقرب الناس إليك لتكون أحد نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية، فنهاية الإنسان متوقفة على سيولة دمه، فإذا تجمد دمه انتهى، وإن استيقاظ الإنسان من النوم ومشيه لا بدَّ له من توافر آلاف الشروط، كما أن جهاز الهضم السليم الذي يبدأ من الفم إلى البلعوم إلى المرئ إلى المعدة، إلى البنكرياس، إلى الأمعاء إلى الصفراء، إلى الغدد الصماء، إلى الأمعاء الدقيقة، ثم الأمعاء الغليظة، فالمستقيم، إن هذا الجهاز هو الذي يجعل الإنسان يجلس بين الناس طاهر الثياب عطر الرائحة، والمستقيم له آفات، فلو أصيب المستقيم بالشلل كان لا بدَّ للإنسان من أن يحمل قُدْرَه إلى جانبه، ولو أن كُليتي الإنسان توقفتا عن العمل كان لا بدَّ من أن يذهب كل أسبوع مرتين ليغسل دمه، و لو أن دسَّاماً تعطل في قلبه كان لا بدَّ له من إجراء عملية تساوي ثمن بيته، فكيف تقول: أنا ؟ من أنت؟! إنك تقف على قدميك برحمة الله، و تمشي على رجليك بلطف الله، و بحماية الله أنت مصان ومحفوظ، و كل هذا الكلام يدور حول قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

إنك لن تكون إنساناً كاملاً إلا إذا كنت عبداً لله، ولن تكون محطَّ عناية الله إلا إذا اعترفت له بالعبودية، لأن العبد عبدٌ والربُّ رب.

القلوب منظر الرب:

أيها الإخوة.. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، و القلب منظر الرب، فأياك أن يرى الله فيه كبراً أو حقداً أو تَعْتَتاً أو استعلاءً أو استكباراً أو تَمَيُّزاً على الخلق، لقد كان عليه الصلاة والسلام مرة مع أصحابه في سفر - وهو سيد الخلق وحبيب الحق - فأرادوا أن يعالجوا شاءاً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: عليها طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وعلي جمع الحطب))

فقالوا: نكفيك يا رسول الله قال:

((أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

كن مع إخوانك واحداً منهم، لا تستعل عليهم، و لا تكن فوقيّ التصرفات، كن واحداً منهم، لقد كان سيدنا عمر وهو عملاق الإسلام، يقول: " أتمنى أن أخص عاملاً بعمل له صفتان: إذا كان أميراً على إخوانه بدا وكأنه واحدٌ منهم ".

و هذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، لقد كان يدخل الأعرابي والنبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه فلا يعرفه فيقول: أيكم محمد ؟ فلم يكن له كرسي خاص فخم، و ليس له ثياب خاصة من ذهب، بل إن كان الأعرابي كان يقول قال: أيكم محمد ؟ فيقول: أنا، وقد ورد في رواية ثانية أنه قال: أيكم محمد ؟ فقال له أحد الأصحاب: ذاك الوضيء ؛ أي: متألق الوجه، فهكذا عامل النبي عليه الصلاة والسلام الناس، و هذا الذي نريد أن يكون بين المسلمين، فليس في الإسلام طبقة رجال دين، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

هذه هي صفات الولي، وعلى هذا يجب أن يكون كلُّ واحدٍ منكم ولياً لله عزَّ وجل، لأنك إذا أمنت بالله واستقيمت على أمره كنت ولياً له.

المساواة في الإسلام:

لقد ذكرت اليوم أن تفوقك في الدين لا يكون بحجم ثقافتك الدينية، ولا بحجم مشاعرك الجياشة نحو الإسلام والمسلمين، ولا بحجم المظاهر التي تحيط نفسك بها، ولكن التفوق في الدين بحسب استقامتك على أمر الله، وطاعتك له..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

وبحجم عملك الصالح الذي تفضل الله عليك وأجراه على يديك، والذي يعود نفعه على المسلمين خاصة وعلى الإنسانية بعامه، فهذا هو التفوق الحقيقي، إنه التفوق في إيمانك و طاعتك و عملك الصالح.

إن النبي صلى الله عليه وسلم ما داعب أحداً من أصحابه كما داعب سيدنا سعد بن أبي وقاص، فقد كان إذا رآه يقول:

((هذا خالي، أروني خالاً مثل خالي))

وقد كان هناك مودة بالغة بينهما، وما فدى النبي صلى الله عليه وسلم واحداً من أصحابه إلا سيدنا سعد حيث قال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

فماذا قال له سيدنا عمر بعد موت النبي ؟ لقد قال له:

((يا سعد لا يَغُرُّكَ أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواء ليس بينه وبينهم قرابة إلا

طاعتهم له))

فكلنا عند الله سواسية، و لا توجد طبقة في الإسلام، ولا يوجد انتماء، ولا يوجد فرق بين أبيض وأسود، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اسمعوا وأطيعوا ولو تولّى عليكم عبدٌ رأسه كالزبيبة))

وقد وقف أبو سفيان سيد قريش، بباب عمر ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له، وكان بلالٌ وصهيب يدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه عاتبه وقال: سيد قريش يقف ببابك الساعات الطوال وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان ؟ قال له: يا أبا سفيان، أنت مثلهما ؟! أي: أين أنت منهما، فكل إنسان له عند الله مرتبة.

فيا أيها الإخوة... توقفوا عند كلمة:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

التواضع:

إنك ترقى عند الله بقدر عبوديتك له، وتواضعك لعظمتك، و أنسك به، لقد صلى عليه الصلاة والسلام مرةً بأصحابه فأطال السجود، ففلق أصحابه، ثم علموا أن أحد أولاد ابنته - الحسن - ارتحل ظهره فكره أن يزعه، فما هذا التواضع ؟

وقد كان عليه السلام في بيته كأنه واحدٌ في أهل البيت، فكان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، وكان يقول:

((أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لنيم يغلبن كلَّ كريم، ويغلبهن لنيم، وأنا

أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لنيماً غالباً))

فما هذه العبودية ؟ هذا التواضع ؟ لا يوجد في الإسلام كلمة أنا، بل هناك كلام علمي ؛ فالأمور في الإسلام تتم بفضل الله و توفيقه وبراعيته و معونته، فإذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك، فالفعل فعله، وقد نُسِبَ هذا الفعل إليك تكريماً لك:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

قيل: يدعوه ؛ أي يعبد، وقيل: يدعوه ؛ أي: يدعو إليه، والأصح أن نجمع بينه، فنقول: المعنى: يدعو إليه ويعبد.

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن: آية " 19 ")

أي: يدعو الناس إلى معرفته وطاعته ويعبد..

معاني الآية:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

إن لهذه الآية معان عدة..

1- المعنى الأول:

إن الجن الذين استمعوا إلى القرآن اجتمعوا بأعدادٍ كبيرةٍ جداً، وكان بعضهم فوق بعض من شدة الازدحام، وقالوا: لقد سمعنا قرآناً عجباً، فهذا كلام رائع وهو منهج قويم، وفيه تفسير رائع للكون، كما أن فيه أمراً ونهياً لصالح الإنسان، و قد قال بعض العلماء: الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، وقد اجتمع هؤلاء الجن إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو لا يعلم بوجودهم، إلا أن الله أخبره بهم، فتكاثفوا حوله وتجمّعوا وازدحموا وتدافعوا إلى درجة أن بعضهم كان فوق بعض من شدة دهشتهم واستغرابهم وتعلقهم بهذا الكلام الرائع، فإذا كان الجن كذلك فكيف بنا نحن الإنس وقد أنزل القرآن بلغتنا وكان إلينا في الأصل؟! و ما بال هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجوراً؟!

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

إن هؤلاء الجن لما كانوا عند النبي استمعوا إلى القرآن يتلى عليهم، وقال تعالى:

(كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

فقد كان هناك كثافة واجتماع وتزاحم وتدافع، بل إن بعضهم كان فوق بعض لدهشتهم، وذلك لأن الحق مسعد، كما أنه يحل مشاكل الإنسان كلها، لأن الثقل الذي على الإنسان هو ثقل ظلمات و ثقل معاصي و ثقل الشكوك بالله عز وجل، أما حينما تتضح الحقيقة، ويصطلح الإنسان مع الله فلا يوجد مشكلة على الإطلاق، لأن الإنسان يؤمن حينئذ أن أمره كله بيد الله، وأن كمال الله عز وجل مطلق، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا ألمت به نازلة أو مصيبة يقول:

((لا إله إلا الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم))

فلذلك اندهش الجن وعجبوا من هذا القرآن الذي تخشع له الجبال، قال تعالى:

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: آية " 21 ")

وهناك إنسان أجنبي اعتنق الإسلام بسبب إيمانه بآية واحدة في القرآن، وهي قوله تعالى:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

(سورة النساء)

إن الذي يراه الزوج من زوجته لا يستطيع الأب ولا الأخ ولا القريب أن يراه منها، لذلك كان أغلظ ميثاق بين إنسانين ميثاق الزواج، كما أن الطلاق يهتز له عرش الرحمن، إذا.. هذا هو المعنى الأول.

2- المعنى الثاني:

لقد تعلق الصحابة الكرام بسيد الأنام و..

(كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

وبسبب تعلقتهم بهذه الدعوة فهم كفار قريش أن النبي عليه الصلاة والسلام سحرهم، وقد كان أحد الصحابة وهو سيدنا ربيعة يبقى على عتبة بيت النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه، فأمره أن ينصرف فلم ينصرف، فلماذا كان الصحابة مشدودون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ إن سبب ذلك هو كماله.

لقد كنت أقول دائماً: إن الأقوياء يملكون الرقاب بقوتهم، والأنبياء يملكون القلوب بكمالهم، وأريد أن أسألك: أنت مع من ؟ إنك إذا كنت مع أتباع الأنبياء ملكت القلوب بكمالك، وإذا كنت من أتباع الأقوياء أُرهِبْتَ الناس بقوتك.

وهناك شيء آخر ذكرته في درس سابق ولا بأس من إعادته..

إن هناك قانون يجعلك تتصل بالله، و بسبب هذا الاتصال تستقر في قلبك الرحمة، وهذه الرحمة تجسّد باللين، و اللين يدعو الناس إلى أن يلتفوا من حولك، فهناك اتصال ورحمة و لين و التقاف، أما غير المؤمن فهو منقطع عن الله، فقلبه قاس كالصخر، وإن الفظاظة والغلظة من لوازم القسوة، فينفض الناس

من حولك، فالقانون هو: أن تتصل بالله، فتستقر الرحمة في قلبك، و تلتين في المعاملة، فيلتف الناس حولك، فإن انقطعت عنه قسا القلب، فتصبح فظاً غليظاً ينفذ الناس من حولك، والآية الكريمة تقول:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: آية " 159 ")

فبما رحمةٍ ؛ أي: بسبب رحمتك، لذلك قال الله تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

3- المعنى الثالث: إن أهل الفسق والفجور دائماً متعلقون بالشهوات والأهواء والنزوات، فإذا جاءت دعوة من السماء لتُحْد من حركتهم وانطلاقهم إلى شهواتهم، عارضوها أشدَّ معارضة، وهذه حقيقة ثابتة، فهناك معركة أزلية أبدية بين الكفر والإيمان، فأهل الكفر والفسوق دائماً وأبداً يعادون أهل الإيمان والتقوى، لأن الناس رجالان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة وهو أكمل الناس خلقاً وخلقاً، ومنطقاً، وحكمة، ورحمة، وبلاغة، وفصاحة، ولكن..

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

أي: كاد الكفار يكونون عليه لبداً، وفي هذا إشارة دقيقة إلى أن الكفار يتعاونون على إطفاء نور الله عز وجل، و يسهرون من أجل ذلك الليالي، فيجتمعون، و يأتُمرون، و يخططون، وإن العالم كله بشرقه و غربه الآن يخطط ضد الإسلام، فهم يكيدون له، لأنهم أيقنوا أن لا سبيل إليهم لمواجهة هذا الدين، لأنه دين الله، وكلما اشتدتَّ الأزمات عليه ازداد تألقاً، فأصبحوا كالذي يريد أن يطفئ النار بالزيت، كلما صبَّ عليها الزيت ازدادت توهجاً، فأيقنوا أن هناك طريقاً قذراً شيطانياً آخر، وهو تفجير من داخله، و اصطناع فئات لا تنتمي إلى الدين أبداً ترفع شعار الدين، وتسيء إلى الدين أبلغ إساءة، حتى يقتنع أهل الغرب والشرق أن المسلم مجرم، فهذه المذابح التي تجري في بعض البلاد المسلمون منها بُرّاء، لأنه لا يوجد إنسان فيه ذرة إيمان يفعل ذلك، والذين يفعلونها إنما هم مجرمون يوصفون بالمسلمين، وما هذا إلا من خطط تفجير الإسلام من داخله، فهناك كتب تؤلف ومذاهب تنتشر و عقائد زائغة تشاع بين الناس، و قد تأتي بشيء جديد كأن تنكر الجن، وتنكر المعجزات، وتُدّعي أن هناك نبياً بعد رسول الله، فخطة أعداء الدين الآن تفجير من داخله، من خلال مؤلفات باطلة، و نظريات منحرفة، و جماعات فاسدة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

في كل عصر من العصور هناك من أهل الدنيا من يحارب أهل الحق، فيجتمعون ويتعاونون ويتكاتفون، و في سورة الأنفال آية تؤكد هذا المعنى تقول: إن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، كما أن الكفار بعضهم أولياء بعض، فهم يتعاونون لإطفاء نور الله عز وجل، فإن لم يتعاون المؤمنون ولم يتناصروا ويتناصحو ويتضامنوا وينسوا خلافاتهم تأججت الخلافات بينهم، و من يؤجج هذه الخلافات؟ إنه الشيطان، إن الشيطان يأس أن يعبد في أرضكم، ولكنه رضي فيما دون ذلك، من التحريش بين المؤمنين.

إن الشيطان له مهمة كبيرة جداً، ومن أكبر مهماته أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فكل إنسان يُعادي مؤمناً ويتحرش به و يطعن بإيمانه و يطعن باستقامته و يشوّه سمعته هو أداة بيدي الشيطان، وهو يفعل هذا لصالح الشيطان.

أخوة المؤمنين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: آية " 10 ")

فالمؤمنون إخوة، فإذا لم تنتم إلى مجموع المؤمنين فليست مؤمناً، فلا تنتم إلى جماعة صغيرة فأنت أكبر من ذلك ! أنت مسلم ! وكل مسلم أخوك في الإسلام، أنت مؤمن ! وكل مؤمن أخوك في الإيمان ! أما أن تقول: نحن من جماعة كذا، أو من جامع كذا، و نحن وحدنا على حق، فهذا كلامٌ سخيف مضحك يدعو إلى السخرية، يجب علينا أن ننتمي لمجموع المؤمنين، كما يجب أن يكون كل مؤمن في بقاع الأرض أخاك في الإيمان، فما بال المسلمين على مستوى الحلقات يجعلون هذه الحلقة ضد هذه الحلقة، وهذه الجماعة ضد هذه الجماعة، وهذه الفئة ضد هذه الفئة، وهذا الجامع ضد هذا الجامع، إن هذا شيء مضحك يدعو إلى القرف، فما من يوم نحن في أمس الحاجة إلى أن نجتمع فيه و نتعاون ونتكاتف و نتناصر كهذه الأيام، فالعالم كله يخطط لإطفاء نور الله عز وجل، و العالم كله يآتمر على الإسلام والمسلمين، فقد أن أوان الصحو الدينية، وينبغي لها أن تُرشد لا أن تبقى هوجاء موجهة توجيهاً ما أراد الله عز وجل.

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

فالمعنى الأول يتعلق بالجن لدشنتهم، والمعنى الثاني متعلق بالصحابه لاستفادتهم، والمعنى الثالث متعلق بأهل الكفر والعصيان، لأنهم تجمعوا وتكاتفوا، وتناصروا، وانتمروا لإطفاء نور الله عز وجل. و المؤمن الصادق لا يتأثر لذلك، فمعارضة الدين شيء مألوف طبيعي، وهكذا الحياة، و هكذا سنة الله في خلقه، فهناك مؤمنٌ وكافر، و المعركة أبدية سرمدية، فقد ورد في مناجاة سيدنا موسى: أن يا رب لا

تبقى لي عدواً، فقال جلّ جلاله لنجيّه موسى: يا موسى هذه ليست لي، فهناك أناس أعداءُ لله عزّ وجلّ، فعليك أن تقول: الله معي، ثم ذرهم في غيهم يعمهون.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بُونٌ)

(سورة آل عمران: آية " 12 ")

ألا تكفي هذه الآية.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بُونٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

و قال:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

لقد كان درسنا عن هذه الآية الكريمة:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

(سورة الجن)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 20 - 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-10-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

توحيد الله سبحانه

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس السابع من سورة الجن ومع الآية العشرين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

أيها الإخوة... إذا كان الحديث في الدرس السابق عن مقام العبودية، فالحديث اليوم عن التوحيد..

قل: أي: قل يا محمد لهم، إنما: أداة قصر.. و لو أن الله عز وجل قال: قل أدعو ربي فقط لما كان هناك

مانع من يدعو رسول الله غير الله، لكن الله عز وجل قال:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

أي: أدعو ربي وحده، وهذا هو التوحيد.

إن التوحيد لا يقبل الشرك، فيجب عليك أن تدعو الله وحده، ومعنى تدعوه ؛ أي: تصلي له و تعمل من

أجله، و أن يكون القلب متعلقاً به وحده.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

ضرورة توحيد الله:

أيها الإخوة.. إن القضية بسيطة جداً، فإذا دخلت إلى دائرة كبيرة فيها ألف موظف وكانت مشكلتك لا

تُحل إلا مع مدير هذه الدائرة، فلا يمكن لأي إنسان عاقل أن يبذل ماء وجهه لغير مدير الدائرة العام،

لأن هذا مضيعة للوقت، ففيه جهد ضائع وعمل أخرج، وطريق مسدود، فإذا دعا الإنسان غير الله كان

الطريق أمامه مسدوداً، لأن هذا الذي تدعوه ضعيفٌ مثلك، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فهو لا يملك

لك نفعاً ولا ضرراً من باب أولى، لأنه لا يملك لنفسه، فهو ضعيف عاجز، و وجوده غير ذاتي، بل إن

وجوده كان بسبب إمداد الله له، فلو أن الله قطع عنه الإمداد ثانية لأصبح جثة هامدة، فكيف تعلق الآمال

على إنسان يستمد وجوده من غيره، أما الله جلّ جلاله فهو واحدٌ أحد فردٌ صمد، ووجوده ذاتي، و لا

يتعلق على وجود غيره، أما البشر فكل مكتسباتهم متعلقة ببقائهم أحياء، فهي متعلقة بنبض قلوبهم، و

سيولة دمائهم، و سلامة أعضائهم، وعقولهم التي في رؤوسهم، فالإنسان يستمد وجوده من عوامل كثيرة

جداً، فإذا تعطل أي عاملٍ ألغى وجوده، لذلك قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

(سورة الجن: آية " 20 ")

إن التوحيد نهاية العلم، وكلما تعمق إيمانك ازداد توحيدك، وكلما ازداد توحيدك ازداد إخلاصك، فعليك أن توقن أن أحداً -غير الله- لن ينفعلك ولن يضرك، وأن الإنسان إذا ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى، وأنه إذا عبد غير الله عز وجل كان الله له بالمرصاد، فلا بد من أن يخيب ظنه و يحبط عمله، ويريه هذا الشريك الضعيف اللئيم.

الإيمان الحقيقي:

أيها الإخوة... إن بطولتنا لا تكون في أن نُقر أن الله خالق السماوات والأرض، ولكن بطولتنا في الإيمان أن نوقن أن الله بيده كل شيء، وأن ليس في الكون إلا الله، وهذا هو التوحيد.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

ليس المقصود من التوحيد هذه الكلمات التي نقولها، فالمسلمون جميعاً يدعون الله بلسانهم، فهم في الصلاة يدعون الله عز وجل، وفي الدعاء يدعون الله عز وجل أيضاً، وفي الاستغفار يستغفرون الله عز وجل، ولكن المشكلة أن الناحية العملية ليست كالناحية النظرية، فالإنسان يدعو الله بلسانه ويُعلق الآمال ويتكى على غير الله، ويعتمد على ماله، يقول لك: الدراهم مراهم، وهذه كلمة إبليسية، فهناك مليار مشكلة لا تحلها الدراهم، إنه يعتمد على ماله و أولاده و مركزه و صحته ويدعو ربه بلسانه، فعليك أن تشعر أن كل شيء تتمتع به إنما هو من فضل الله عز وجل، وفي أية لحظة يسلبه منك..

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

فقد ترى الإنسان ملء السمع والبصر، فإذا بخررة دم في الدماغ تجعله مشلولاً، فعلى الإنسان ألا يعتمد على صحته ولا على قوته ولا على ماله.

لقد كان هناك رجل مثقف ثقافة عالية يجلس مع أصدقائه، فقال: أنا موتي بعيد، فسأله صديقه: لماذا؟ قال له: لأن وزني خفيف، وأكلي قليل، وأمشي، ولا أدخن، ولا (أحمّلها) [أي: لا أكثرث للضغوط]، وليس عندي شدة نفسية.

لقد كان كلامه صحيحاً بمجمله، فالشدة النفسية و النهم في الأكل و بطء الحركة والتدخين أشياء قاتلة، وقد قال هذا الكلام يوم السبت في سهرة مع أصدقائه، فما جاء يوم السبت الذي يليه إلا وهو تحت الأرض، فلا تعتمد إلا على الله، فالمال قد يذهب في ثانية واحدة، فقد تكون من أغنى الأغنياء فإذا أنت من أفقر الفقراء.

لقد زارني رجل فقال لي: أنا كنت أملك عدداً كبيراً من الدونمات، وإنني لا أذكر العدد، فهو كبير جداً، فقد يكون مائتان وخمسون دنماً، وقد كان هذا الرجل يقيم كل يوم في بيته مضافة و يدعو الضيوف، أما

الآن فهو يبحث عن عمل ناطور في براتب ثلاثة آلاف ليرة في الشهر، فالله عز وجل يُعطي ويدهش، ويأخذ ويدهش، فلا تعتمد على صحتك ولا على مالك، ولا على أعوانك، ولا على أقرب الناس إليك، ولا على أبعد الناس منك، ولا على أقوى الناس، ولا على أضعف الناس.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

عَلِقْ أَمْلَكَ بِاللَّهِ، وَثِقْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَ اتَّكِلْ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، وَ ارْجُ اللَّهَ وَحْدَهُ، هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْحَقِيقِيُّ، إِنَّ التَّوْحِيدَ سَهْلٌ جَدًّا فِي الْكَلَامِ، فإِذْ رَاكَ سَهْلًا، وَشَرَحَهُ سَهْلًا، أَمَّا فِي الْأَزْمَاتِ فَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ تَأْتِيكَ أَزْمَةٌ، فَتَبْحَثُ عَنْ إِنْسَانٍ يَحْمِيكَ وَيُعْطِيكَ وَيُقِيكَ، لَا.. لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ بَادِرَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَتَّكِلٌ أَنْ يُرِيكَ مِنْ آيَاتِهِ.

عَوَّدَ نَفْسَكَ فِي الْأَزْمَاتِ وَ الْأَوْقَاتِ الْحَرَجَةِ أَنْ تَرْجُو اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَنْ تَعْلِقَ عَلَيْهِ الْأَمَالَ، وَأَنْ تَصْطَلِحَ مَعَهُ، وَأَنْ تَتَذَلَّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْ تُمَرِّغَ جِبْهَتَكَ فِي أَعْتَابِهِ.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

لَا تَكُنْ مُجِيرًا لِصَالِحِ إِنْسَانٍ، وَ لَا تَكُنْ مُحْسِبًا عَلَى جِهَةٍ أَرْضِيَةٍ أَبَدًا، وَ لَا تَعْطِ طَاقَتَكَ وَجْهَكَ وَوَقْتَكَ وَعَمْرَكَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَغَيْرُ اللَّهِ لَيْسَ أَهْلًا لِأَنْ تَعْطِيَهُ طَاقَتَكَ وَجْهَكَ وَذِكَاكَ وَ عِلْمَكَ، فَأَنْتَ اللَّهُ، وَلَا يَلِيْقُ بِكَ كإِنْسَانٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا تَكُنْ مُحْسِبًا عَلَى جِهَةٍ أَرْضِيَةٍ، وَ هَذِهِ نَصِيحَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنْ ذَلِكَ لَا يَلِيْقُ بِكَ، فَإِنْ كُنْتَ مُحْسِبًا عَلَى جِهَةٍ أَرْضِيَةٍ دَعَوْتَهَا وَلَمْ تَدْعِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَ رَجَوْتَهَا وَلَمْ تَرْجُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَ خَفْتَ بَطْشَهَا وَلَمْ تَخَفْ بَطْشَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَ الْمَاءُ لِلتَّرَابِ، وَالتَّرَابُ لِلنَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ لِلْحَيَوَانِ، وَالحَيَوَانُ لِلْإِنْسَانِ، فَلَمَنِ الْإِنْسَانُ ؟ إِنَّهُ اللَّهُ الْوَاحِدُ الدِّيَّانُ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَوْجَدُ فِي حَيَاتِهِ ضَيْقٌ وَ أَزْمَاتٌ وَمَشْكَلَاتٌ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَيَدْعُوهُ، وَ مَعْنَى يَدْعُوهُ هُنَا ؛ أَي: يَصْلِي لَهُ، وَالصَّلَاةُ دَعَاءٌ، فَصَلِّ لِلَّهِ، وَ ادْعُوهُ بِلِسَانِكَ فِي أَيِّ جَلْسَةٍ تَجْلِسُهَا، وَ لَا تَدْعُ زَيْدًا أَوْ عَبِيدًا، وَ لَا فَلَانًا وَ لَا عَلَانًا، وَ لَا جِهَةً، بَلْ ادْعِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ:

((مَا ذَكَرْنِي عَبْدِي فِي سِرِّهِ إِلَّا ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي، وَ لَا ذَكَرْنِي فِي مَلَأٍ مِنْ خَلْقِي إِلَّا ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ))

منه))

إنما: أداة قصر، أي: أنا أدعو الله وحده ولا أدعو أحداً سواه.

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنه ما من مخلوق على وجه الأرض أقرب إلى مخلوق كقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سيدنا الصديق، ومع ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ بِخَرْقَةٍ فَقَعَدَ عَلَى الْمُنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ آمَنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ))

**بُنْ أَبِي قَحَافَةَ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ خُلَّةَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ سُدُّوا
عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ))**

(من صحيح البخاري عن ابن عباس)

و قد قال سيدنا الصديق بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام:

((من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت))

فديننا دين توحيد، لا دين أشخاص و جهات و شرك..

توسيع للمعنى..

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

عليك هنا أن توسّع المعنى، فمعنى أدعو الله ؛ أي: أصلي له و أخافه و أرجوه وحده، فكلُّ أملي معقودٌ على رحمته، و كلُّ خوفي منه، و كل رجائي له، فأنا أرجو ما عنده، وأخشى عذابه، وأتهيب جفوته، وأرجو نواله، و هذا هو الإيمان، فالعلاقة مع الله يجب أن تكون غنية و مفعمة بالحب و الاتصال و الإخلاص.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

أي: أدعو ربي وحده ولا أدعو أحداً سواه، و إذا جربت أن تعتمد على غير الله فإن الله جلّ جلاله يُوَدِّبُكَ رحمةً بك و عطفاً عليك، فتراه يخيب ظنك بفلان، وقد يكون هذا الإنسان بغير هذه الصفات، لكن الله يلهمه أن يتخلى عنك في أخرج الأوقات، و هذا عقاب من الله، لأنك اتكلت عليه، وعقدت الآمال عليه، واطمأننت إلى وعده، فيجب عليك أن تطمئن لوعده الله وحده، كما يجب أن تستجير بالله وحده، وأن تستعين بالله وحده، و أن تقبل على الله وحده، و أن ترجو الله وحده، و أن تكون متعلقاً بالله وحده.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

فالإيمان بالله وحده سهل نظرياً، أما عملياً فهو صعب و يحتاج إلى جهد كبير.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

إن أكثر الناس يعتمدون على بعضهم، ويتخذ بعضهم بعضاً شركاء، فلا يقول لك أحدهم: أنا أعبد فلان، ولكن قلبه مُفَعَّمٌ بمحبته، و رجاءه معلقٌ به، فتراه يرتعد خوفاً من وعيده، وهذا شرك، لأنه في هذه الحالة يعامله كإله.

قانون العناية الإلهية:

كلما تذلل الإنسان لله رفعه الله، و كلما اعتمد على الله وحده دافع عنه وحفظه، فالقضية تحتاج إلى إيمان عميق و إرادة قوية.

فقد يكون هناك ضيق في الدخـل في حياتنا اليومية مثلاً، وقد يُفتح لك باب فيه دخل كبير لكن هذا الباب لا يرضي الله، فماذا يفعل المؤمن ؟ إنه يؤثر ما عند الله على الشيء الذي لا يرضيه، و بعد حين الله جلّ جلاله يفتح له باباً واسعاً، و هذا الباب الواسع يُفتح بعد حين، ولو أنه فتحه مباشرة لما دفع ثمن الطاعة، و الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: آية " 28 ")

والمشركون الآن يشكلون ما يسمّى صناعة سياحية، فينفقون أموالاً طائلة، ويروجون السلع في البلد، و يستأجرون البيوت، و ينفقون أموالهم على الطعام والشراب وعلى أشياء أخرى، فمن نتائج السياحة الرائجة دخل كبير، و ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة: آية " 28 ")

في الآية شيء دقيق جداً، فأنت حينما تلتزم مبدئياً بطاعة الله عزّ وجل قد يقل دخلك، لأنك قد ترفض هذا العمل وهذا المشروع وهذه الصفقة وهذه التجارة لما فيها من شبهات، وحينما ترفضها كلها يقلّ دخلك، فإذا قل الدخـل كان معنى ذلك أنك لم تدفع ثمن هذه الطاعة و ثمن هذا الإيثـار، فعلم الله منك صدقاً وإصراراً على طاعته وتضحية في سبيله، ثم يأتي الفرج القريب، فيأتيك رزقٌ من حيث لا تحتسب، لأنك كنت خاضعاً لقانون مستنبت من حركة الحياة، فبعد أن علم الله صدقك واستقامتك، وخوفك من الله، وحرصك على طاعته، أخضعك إلى قانون آخر، وهو قانون العناية الإلهية المباشرة، وهناك آلاف القصص على ذلك.

أيها الأخ الكريم... تصوّر تصوّراً فقط أنه ليس هناك وجود للقرآن والسنة، وأن هذه الحياة تجري، فلو كان عندك نفسٌ طويلٌ وتحليلٌ دقيقٌ وتتبع كيف يعامل الله خلقه، لاستنبتت من معاملة الله لخلقـه قواعد وقوانين مطابقة للشرع تماماً، فالمستقيم ينصره الله عزّ وجل، والمنحرف يخذله، والذي يجمع المال الحرام يدمّره، والذي يجمع المال الحلال يبارك الله له فيه، والذي يكون في خدمة الناس يكون الله في حاجاته، فييسرها له، فهناك قوانين، فإما أن تأخذ بهذه القوانين مركزة من كتاب الله، وإما أن تستنبتها من حركة الحياة، ولكن الشقي كل الشقي هو الذي يعرفها بعد فوات الأوان، وهذه هي المشكلة.

وأقول لكم دائماً: إن خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فالحقائق التي جاء

بها الأنبياء سيعرفها كل الناس عند الموت، حتى الكفار والملحدون والفجار والعصاة، فكل المخلوقات سيعرفون الحقيقة بعد الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

لكنك إما أن تعرفها وتنتفع بها، وإما أن تعرفها وتكون معرفتها حسرة على القلب، والمعرفة بعد الموت تكون مع الحسرة، أما المعرفة مع الانتفاع فتكون قبل الموت.

إننا يا إخواننا الكرام - وأنا معكم - مدعوون إلى الله عز وجل، والله عز وجل يريدنا جميعاً.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا)

(سورة النساء)

الله عز وجل يريدنا أن نكون على منهجه، كي يسعدنا بطاعته.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

أي: لا أشرك به أحداً كبيراً ولا صغيراً ولا قريباً ولا بعيداً ولا قوياً ولا ضعيفاً.

وقد يتعلق الإنسان بابنه تعلقاً غير طبيعي، فهناك إنسان توفي ابنه فكفر بالله وترك الصلاة، فيجب عليك أن تكون متعلقاً بالله..

إن النبي عليه الصلاة والسلام مات ابنه إبراهيم فدمعت عينه، فقالوا: أتبكي !! قال:

((إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون))

إن هذا كلام رائع و متوازن، لأنه كلام فيه توحيد.

ضعف التوحيد هو أصل المعصية:

أقول لكم كلاماً دقيقاً أيها الإخوة: والله الذي لا إله إلا هو ما من معصية أو نفاق أو تقصير إلا وهو مصحوب بضعف توحيد، فحينما يرجو الإنسان أمراً بمعصية يرى أن هذه المعصية من وراءها خير، و هذا غلط شديد، فلا يوجد مع المعاصي إلا شرور، و لا يوجد مع الطاعات إلا بركات وخيرات.

((من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ

يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتَحْشُرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

سبب عدم نجاح الدعوة هو ضعف الإخلاص:

إخواننا الكرام...

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

إذا دعا الإنسان إلى الله فإن دعوته تكون في عبادته و حركته، وقد قال العلماء: إن هذين المعنيين منطويان في هذه الكلمة.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

إن الصلاة دعاء، فقولي: أنا أدعو الله في صلاتي ؛ أي: أنا أصلي له وحده، أو أدعو إليه و لا أدعو لسواه، فكم من إنسان مُجَبَّد لأن يدعو إلى غير الله عزَّ وجل، فهناك من يختار الأذكياء و أصحاب الحجة القوية لتكون دعوتهم إلى جهةٍ أَرْضِيَةٍ، فالمؤمن يدعو لله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

هناك رأي دقيق جداً يقول: إن الإنسان إذا دعا إلى الله ولم ينجح في دعوته كان السبب في عدم نجاحه ضعفُ إخلاصه وضعف توحيده، فقد يخاف، أو يرى الوقت أثمن من أن ينفقه في الدعوة إلى الله مثلاً، فإذا دعا الإنسان إلى الله، ثم عَزَا إخفاقه إلى الله عزَّ وجل، فإنه يكون قد رَدَّ القرآن الكريم، ورُدَّ أي آية من كتاب الله كفر، فقد قال تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ)

(سورة غافر: آية " 51 ")

إننا: حرف مشبَّه بالفعل يفيد التوكيد، واللام: لام التأكيد، فهناك توكيدان، لننصر: فعل مضارع، والفعل المضارع مستمر، فالنصر مستمر، ونصر الرسل شيء بديهي طبعاً لكن الله تعالى لم يقف عند الرسل وحسب بل قال:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

وقوله: سننصرهم في الآخرة أمر بديهي، لكنه قال: سننصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهذه آية جامعة مانعة.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

فإذا دعوت الله عزَّ وجل أو دعوت إلى الله، ولم تُقَطِفِ الثمار ثم عزوت ذلك إلى الله كان هذا نوعاً من التكذيب، وتكذيب القرآن الكريم كـ..

(وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

إخواننا الكرام.. إن زوال الكون أهون على الله من ألا تحقّق هذه الآية، قال تعالى:

(وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإن لم تغلب فأنت لست جندياً لله عزّ وجل، وهذا يكون بسبب شرك فيك، لأنك في هذه الحالة تكون جندياً لجهة أرضية، فلو كنت جندياً لله فلا يمكن أن تغلب أبداً.

(وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

فإذا لم ينصر الله عزّ وجل الإنسان، فعلى الإنسان أن يراجع نفسه ليتحقق من جنديته لله عزّ وجل، و إن أعلى مقام يصله إنسان هو أن يكون جندياً للحق ولا شيء سواه..
قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي)

أي: أدعوه في عبادتي، وأدعوه بلساني، وأدعو له الخلق، فأنا أدعوه وأرجوه وأصلي له..
أنواع الشرك:

(وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

أيها الإخوة، إن الشرك نوعان ؛ جلي وخفي.

1- الشرك الجلي: كأن تقول: بوذا إله، وهذا في الهند والصين، وليس في بلادنا والحمد لله..

((إن الشيطان ينس أن يعبد في أرضكم))

فالشرك الجلي ليس له وجود في العالم الإسلامي والحمد لله رب العالمين، بل إن الذي يقال في العالم الإسلامي هو الله لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا مفروغ منه، ونحن والحمد لله ناجون من الشرك الجلي بعد الدعوة الإسلامية

((إن الشيطان ينس أن يعبد في أرضكم))

ولكنه رضي بالشرك الخفي.

2- الشرك الخفي: وهو أن تعتمد على غير الله، و أن ترجو غير الله، و أن تخاف من غير الله، و أن تُخلصَ لغير الله، و أن تُعلّقَ الأمل على غير الله، و أن تدعو غير الله، وأن تهَابَ غير الله، و هذا هو الشرك، لذلك قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

أي: مشركون به شركاً خفياً، و الله عزّ وجل يربّي الإنسان، فكلما تعلّق بجهة أرضية نبيه وخيّب ظنه فيعود.

و كما قلت في الدرس الماضي، إن الصحابة الكرام وفيهم رسول الله رأوا تجمّعاً كبيراً جداً ما سبق له

مثيل في الجزيرة، فقد كان هناك عشرة آلاف سيف مؤمن، فقال بعضهم في نفسه: لن نُغلبَ من قلة، فقال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

فهناك شرك جلي نحن والحمد لله ناجون منه، أما الشرك الخفي فهو المشكلة، و من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إنني لست أقول أنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن

شهوة خفية وأعمال لغير الله))

(ولا أشرك به أحداً)

أحداً: جاءت نكرة والتنكير هنا تنكير شمول، أي: أن أشرك به أي أحد ؛ صغيراً كان أم كبيراً، قريباً أو بعيداً، قوياً أو ضعيفاً.

(ولا أشرك به أحداً)

(سورة الجن)

مهمة الرسول البلاغ وليس الهداية:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

إن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الغي، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، أي: لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً، ولا غياً ولا رشداً، فهناك أربع معان بكلمتين، فالهداية باختيار الإنسان، و النبي مبلغ، فقد تلقى محاضرة بليغة جداً على مجموعة من الناس، فيستجيب بعضهم ولا يستجيب البعض الآخر، السبب هو أن الإنسان مخير، فأنا لا أملك أن أهديكم ولكني أملك أن أبلغكم، ولا يستطيع مخلوق أن يخلق الهدى في نفس الآخرين، و هذا شيء مستحيل.

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 272 ")

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: آية " 56 ")

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

(سورة الأنعام)

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22))

(سورة الغاشية)

النبي هو الذي أوتي المعجزات، و أوتي الكمال الإنساني الكامل، و أوتي المنطق، والفصاحة، فهو قَمَّةُ البشر، ومع ذلك إنه لا يستطيع أن يهدي الإنسان لكنه يُبَلِّغ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22))

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41))

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

قل لا أملك لكم ؛ أي: أنا لا أملك أن أخلق الهدى فيكم، ولكني أملك أن أدعوكم و أرشدكم وأبين لكم فقط.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

إني لا أملك الهدى ولا أملك الضلال، فالضلال باختياركم والهدى باختياركم.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

كما أنني لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً، وهذا أمر عجيب، فالنبي عليه الصلاة والسلام أقبل الناس عليه واقتدوه بأرواحهم، وهو يقول لهم صباح مساء: لا أملك لكم شيئاً، إن هذا هو التوحيد، فيجب عليك أن تبين للناس أنك ضعيفٌ مثلهم، و أنك لا تملك لهم شيئاً، لا نفعاً ولا ضرراً، و كل إنسان يدعي أنه يملك النفع أو الضرر، أو يملك الهدى أو الضلال، هو إنسان مشرك ودجال، فيجب علي عندما أدعوك أن أحاول أن أبين لك وأفنئك وآتيك بالدلائل و الحجج و البراهين، فإذا اهتديت واستجبت كان هذا من عندك و باختيارك، وهو أمر من صنع قرارك، فأنا أدعوك وأنت قد تستجيب وقد لا تستجيب، والنبي صلى الله عليه وسلم -على علو مقامه وعلى عظمة دعوة وعلى فصاحة لسانه وعلى أخلاقه الكريمة - استجاب له البعض و حاربه البعض، أليس كذلك ؟.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

إن دعوتك الصحيحة تكون في ألا تُعَلِّق الناس بشخصك، بل علقهم بالله عزَّ وجل، فهناك من الناس من يسلطون الأضواء على أشخاصهم، أما في الدعوة إلى الله فعليك أن تُعَلِّق الناس بالله عزَّ وجل لأنه معهم أينما كانوا، و أينما ذهبوا، وهو معهم في حلِّهم وترحالهم، في خلوتهم وجلوتهم، في سرهم وعلايتهم، في بيتهم ومع الناس، فلذلك قال:

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

وكل من يقول خلاف ذلك هو مشرك، فيجب على الإنسان أن يعلن براءته من كل هذه الأفعال، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام - وهو سيد الخلق وحبيب الحق الذي أوتي المعجزات ونزل عليه القرآن - لا يملك لنا ضرراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً، فمن باب أولى أن لا يملك ذلك أحدٌ بعده إطلاقاً، إلا أن واجب الداعية أن يبين، ومهمتك تنحصر في أن تحاكم وتناقش، ولك أن تستجيب بعد ذلك أو لا تستجيب، لأن هذا أصبح شأئك وهذا قرارك.

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ(46))

(سورة هود)

فهذا سيدنا نوح -على عظم مقامه - لم يستطع أن يقنع ابنه بأن يركب معه، فقال له:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ

الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(43))

(سورة هود)

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21))

(سورة الجن)

والداعية الصادق يبين للناس.

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

إن الهدى يكون باختيارك، وعدم الهدى يكون باختيارك أيضاً، كما أن نفعك يتأتى من طاعتك، وضررك يتأتى من معصيتك، فسعادتك بيدك، وشقاءك بيدك، و توفيقك بيدك، فقد قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

فالتوفيق بيدك، والتعسير بيدك، والهداية بيدك.

(وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

و الاستجابة بيدك وعدم الاستجابة بيدك، والنفع من طاعتك، والضرر من معصيتك.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22))

(سورة الجن)

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو في أعلى درجة بالعبودية، قال:

((إذا شاء الله عز وجل بي شيئاً فلن يستطيع أحد في الأرض أن يجيرني من الله أبداً))

(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

(سورة الحاقة)

يجب عليك أن تؤمن دائماً أنك في قبضة الله، فلو كان أهل الدنيا كلهم معك، ولم يكن الله معك فإنك لن تستفيد شيئاً، ولو أن أهل الدنيا كلهم ضدك، وكان الله معك فإنك لا تعبأ بهم جميعاً، فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وهذا هو التوحيد، فأنت في قبضته وحفظه وتوفيقه، وأقول لكم دائماً وأبداً: إن هناك معية خاصة ومعية عامة، فالمعية العامة، يكون الله تعالى فيها مع البشر كلهم ؛ مع الكفار و الفجار و المؤمنين، الصادقين منهم و الكاذبين، وهو معهم بعلمه، لكنه مع المؤمنين بتوفيقه وتأبيده وحفظه ونصره، فالحفظ والنصر والتأييد من المعية الخاصة، والمعية الخاصة لها ثمن، فقد قال الله تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

هذا هو الدين.. فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم -وهو سيد الخلق وحبيب الحق- يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

(سورة الجن: آية " 22 ")

فماذا نقول عن الذين يبيعون الجنة بالصدوك ؟ هل هذه الدعوة الصحيحة ؟؟ إن نبي هذه الأمة يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

هناك رجل اشترى النار، فاستغرب الذي باعه إياها، لكنه اشتراها وبلغ الناس أنه اشترى جهنم ولن يدخل إليها أحداً بعد ذلك، فخفف الطلب على سوق الجنة، فاضطر ذلك البائع أن يشتريها منه مرة ثانية، إن هذه سخافات وأفكار مضحكة.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِنَّا بِلَاغَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

إن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم هي إبلاغ الناس وأداء الرسالة، فإذا وقف الإنسان أمام مقام النبي في العمرة أو الحج يقول: أشهد أنك بَلَّغْتَ الرسالة وأَدَيْتَ الأمانة، ونصحت الأمة وكشفت الغُمَّة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العبادة إلى سبيل الرشاد.

(إِنَّا بِلَاغَا مِنَ اللَّهِ)

فالنبي لا يملك الضر ولا النفع ولا الهدى ولا الغي ؛ أي: الضلال، ولا يملك أن يحمي نفسه من الله، ولا أن يجير أحداً، لأنه ضعيف، و مهمته التبليغ، كما أنه له مهمة أخرى جاءت بها آيات أخرى، وهي مهمة القدوة، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: آية " 21 ")

إن مهمته أن يبلغ بلسانه وأن يعمل عملاً موافقاً لرسالته، فالإنسان لا يقنع بالكلام وحده، بل إنه يقنع بالكلام المطبّق، فالنبي عليه الصلاة والسلام مبلغٌ بلسانه و قدوةٌ بعمله، وهذه مهمة الأنبياء، فينبغي أن تكون مهمة الدعاة من بعدهم على شاكلتها، فعلى المبلغ أن يكون مُطَبَّقاً، و هو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً، ولا أحد يحميه من الله عز وجل.

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا)

(سورة الجن)

وفي درس قادم إن شاء الله نعيد شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجن 072 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 22-28

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-11-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الرسول

أيها الإخوة الكرام... مع الدرس الثامن والأخير من سورة الجن ومع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

(سورة الجن)

إن الآية التي قبلها تقول:

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

(سورة الجن)

أي: لو أنني أشركت واتبعت أهواءكم وداهنتكم فلن يجيرني من الله أحد..
قصة:

أريد أن أروي لكم قصة مختصرة هنا عن والي البصرة الذي جاءه كتاب من يزيد يأمره بأمر لا يرضي الله عز وجل وكان عنده الحسن البصري، فوقع في حيرة من أمره، فإن هو نفذ أمر يزيد أغضب الله عز وجل، وإن لم يعبأ بأمر يزيد أغضب يزيداً وربما عزله، فقال للحسن البصري: ماذا أفعل ؟ فأجابه بكلمة ينبغي أن تكون نصب عيني كل مسلم وكل مؤمن، لقد قال الحسن البصري: " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".

لا أحد يمنعك من الله:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

من منا يملك سيولة دمه ؟ قد يتجمد الدم في عروقك في أية لحظة، فمن من البشر يستطيع أن يمنع خثرة دم في دماغه ؟ و من منهم يملك دوام عمل صمامات قلبه و كليتيه وكبدته ؟ و من منهم يملك أن يبقى عقله في رأسه ؟ و من منهم يملك ألا يخسر أحد أعضائه في ثائية واحدة ؟ إننا في قبضة الله، ولن يجيرنا من الله أحد، فإذا ذهبتم إلى أي مكان في العالم فإنكم ستجدون أن له أدوية خاصة، كل بلد بحسب ظروفه، كما أن الله عز وجل أدوية خاصة يؤدب بها عباده في كل بلد، فلو انتقل الإنسان من بلد إلى بلد لينجو من تأديب الله كان الله معه أينما كان، فالله تعالى لا منجى منه إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا أن يتوب المرء إليه، فلا ملجأ من الله إلا أن تصطليح معه و تطيعه، فيجب أن تخاف و تفر منه، كما يجب عليك أن تتحصن به منه، و بطاعته من عذابه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

والقصص على هذه الآية لا تعدّ ولا تحصى، فقد يعتمد الإنسان على ماله فتأتي مصيبة فلا يستطيع المال أن يفعل شيئاً، وقد يعتمد الإنسان على جماعته فتأتي مصيبة فلا يستطيع من حوله أن يفعل معه شيئاً، وقد يعتمد الإنسان على مكانته، ثم لا تنفعه مكانته في مكان ما أوفي ظرفٍ دقيق، وقد يعتمد الإنسان على علمه فيحجب الله تعالى عنه علمه في لحظةٍ ما فيرتكب حماقة ما بعدها حماقة، وأي شيء تعتمد عليه من دون الله لن ينجيك من عذاب الله،

فقد يعتمد بعض الاختصاصيين في بعض الأمراض على علمهم، فيمرضون باختصاصهم، وقد يعتمد المحامون على سعة اطلاعهم في القانون، فيخسرون دعوة وهم أربابٌ في هذا الاختصاص، و مجرد اعتمادك على غير الله يجعلك لا تنجو من عذابه، فنحن في قبضة الله، و شعور المؤمن أن الله عزّ وجل على كل شيء قدير يؤدّبه، فيجعله أديباً في حركاته وسكناته وكلامه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

فلا ينفع مال ولا مكانة ولا علم ولا ذكاء، و إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبّه، فيعطّل له خبرته و ذكائه و عقله وإمكاناته، فإن أردت أن تكون قوياً فكن مع الله، فهو القوي، و إن أردت أن تكون غنياً فكن مع الغني، و إن أردت أن تكون عزيزاً فكن مع العزيز.

اجعل لربك كلّ عزّ زك يستقرّ ويثبت

فإذا اعتزّزت بمن يموت فإن عزّك ميت

قال عليه السلام:

((سبحانه إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت))

وقال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

فكم من آياتٍ باهراتٍ لله عزّ وجل، كانت مع أناس اعتمدوا على غير الله فخيّب الله ظلّهم، وكان اعتمادهم على غير الله كحال من يبني قصراً أساسه ملح، فإذا جاء المطر ذاب الملح، والحياة الدنيا مليئة بالمواعظ، و لكن ما أكثر المواعظ وما أقل المتعظين ! و ما أكثر العبر وما أقل المتعبرين !! أفعال الله تدل على منهج متكامل:

لقد قلت لكم أيها الإخوة لو أننا تصورنا تصوراً أن ليس في حياتنا قرآنٌ ولا سنة، ثم تأملنا أفعال الله لاستنبطنا من أفعال الله منهجاً كاملاً، فانه عزّ وجل يوقّق المستقيم ويؤيده ويحصّنه ويحفظه ويدعّمه ويدافع عنه، ويخيّب كل من أشرك به، و يجعل الله تدميره في تدبيره، و يجعل الدائرة تدور عليه..

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

سبحان من قهر عباده بالموت، ونحن لا نعلم متى يأتي الموت، ولا من أي سبب، فقد يأتي من أتفه الأسباب، وقد يأتي من جهة لم نكن لنتوقعها، فما دامت حياتنا و صحتنا وقوتنا بيد الله فكيف نعلم على غير الله ؟ وكيف نطيع غير الله ؟
الحاجة إلى الله تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

أي: أن الله عز وجل إذا أراد أن ينصرك نصره على سبب صغير جداً، وإن أراد أن يدمر إنساناً فإنه يدمره على سبب صغير جداً، فقد لا نصق أن هذه الخسارة الكبيرة كانت بسبب هذا السبب الصغير،
فلذلك قال عليه السلام:

((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك))

أي: يجب عليك أن تفرّ إليه منه، لأنك كائن به، فنحن بالله وإليه، وإن من أبلغ أدعية النبي عليه الصلاة والسلام قوله:

((نحن بك))

لأنك ما دمت تمشي على قدميك فقوتك بالله، و ما دام عقلك برأسك يحترمك الناس، فاحترام الناس لك سببه أن عقلك برأسك، وإذا سمح الله لهذا العقل أن يعمل عملاً صالحاً عمل، لكن إذا اختلّ العقل، توسط أقرب الناس إلى هذا الإنسان المختل ليضعه في مستشفى المجانين، فأنت محترم لأن العقل في الرأس، كما أنك محترم لأنك تمشي على قدمين، فلو كان الإنسان طريح الفراش تمنى أقرب الناس إليه بعد عدة سنوات موته، وقد يسمعه هذه الكلمة بأذنه، فيقول له: الله يخفف عنك، فمكانتك تأتي من استقامة عقلك و قوتك، كما أنها تأتي سماح الله لك بأن تكتسب رزقاً وتنفق على من حولك، فلو ألك إليهم لاختلف الأمر، فكم من أب يقف أمام ابنه ذليلاً ليأخذ منه ما يأكل، وكم من رجل كان غنياً فافتقر، وصار يتمنى أن يأخذ أقل دخل في الشهر.

وسائل العلاج الإلهية:

إن ربنا عز وجل يقول:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

والوسائل التي قد يعالجك الله بها لا تعد ولا تحصى، ففي الجسم وحده مئات الألوف بل عشرات مئات الألوف من الأجهزة والخلايا والأعضاء، التي لو أصابها خلل بسيط لاختل هذا الجسم، فلو أن قناة الدمع سُدت لكنت مضطراً إلى أن تمسك منديلاً وتمسح دمعك الذي يفيض على خدك طوال النهار والليل، وهكذا إلى أن يحفر الدمع أخدوداً في الخد، و قناة الدمع من أدق القنوات فلو انسدت أصيبت العين بخلل، ولو حدث هذا معك لنسيت كل شيء سوى عينك المصابة، ولو أصبح في حركتك بُطناً أو

شعرت بشعور لم تكن تشعر به من قبل فإنك ستنسى كل شيء أيضاً، فقل: لن يجبرني من الله أحد، فإذا تحرك إنسان في الحياة حركة مع معصية وكان قوياً شديداً صحيح البنية فهذا استدراج من الله عز وجل له، وإذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، لأن هذا استدراج..

(سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ (45))

(سورة القلم)

ضعف الإنسان:

أيها الإخوة.. إن المتانة في اللغة هي صفة توصف بها قوى الشد، أما القساوة فهي تقاوم قوى الضغط، فالصفة التي تقاوم قوى الشد المتانة، وحبال الفولاذ أمتن عنصر في الأرض، والألماس أقسى عنصر، وإن ربنا قال تعالى:

(إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

فالإنسان مربوط بحبل لكن الحبل مرُخى، فيتهم الإنسان لجهله أنه طليق، وقد يشد الحبل في أية لحظة، ومهما تحرك الإنسان فإن لن الحبل ينقطع، وذلك لأن الحبل متين جداً قال تعالى:

(إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ)

(سورة القلم)

أيها الإخوة.. إن هذه الرؤية يجب أن تكون مستمرة، لأنها تحملك على طاعة الله، كما تحملك على أن تكون كاملاً، و تحملك على أن تتصل بالله لترى ضعفك، و إن كمالك في ضعفك، فقد قال أحدهم:

مالي سوى فقري إليك فبالافتقار إليك فقري أذفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأبي باب أقرع

فإن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، و إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله. لا تعتمد إلا على الله:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ)

أي: لن يجبرني زوجة ولا ولد ولا أموال مكدسة في أكثر من جهة، فهناك أناس يضعون في كل بلد رصيد كبير، وقد تأتي مصيبة فلا تنفعهم كل هذه الأموال، وهناك إنسان يقيم علاقات متينة جداً مع أقوياء ليشر بالأمّن، فلا ينفعه كل هؤلاء الأقوياء في لحظة واحدة، فقد يضعه الله عز وجل في ظرف لا يستطيع فيه أن يتصل بواحد منهم، وذلك لحكمة يريد بها، وهذا هو التوحيد، وديننا هو دين التوحيد.. فلن يجبرك من الله إلا أن تكون على منهجه، و لن يجبرك من الله إلا أن تكون في طاعته، و لن يجبرك من الله إلا أن تكون مقبلاً عليه خاضعاً لحكمه، فلو جاءك ضرر فمن ينجيك ؟ قال:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22))

(سورة الجن)

الملتحد: الملجأ، وقد أوتي النبي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، ففي حديثٍ مختصرٍ قصيرٍ جداً يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

فالشيء الذي يسبب لك المتاعب هو الذنب فقط، أما كل قوى الأرض فلن تستطيع أن تصل إليك إذا كان الله معك، وكل القوى الشريرة لن تستطيع أن تتالك بأذى إذا كنت مع الله وكان الله معك، كما أن أقرب الناس إليك قد يسبب لك من المتاعب ما لا يعدُّ ولا يحصى إذا لم تكن مع الله، وهذه المعادلة دقيقة جداً..

كن مع الله ترى الله معك واترك ما لك وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

فمن يعطيك سوى الله ؟ ومن يرحمك إذا أبعدك عن رحمته ؟ و من يدعمك إذا خذلك الله عز وجل ؟ و من يُعزِّك إذا أذلَّك الله عز وجل ؟ و من يشفيك إذا أمرضك الله عز وجل ؟

إن الطبيب له علمٌ يدلُّ به إن كان للناس في الآجال تأخيرٌ

حتى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب وخانتة العقاقير

إن الإيمان أن ترى أنك بيد الله، فإذا أعطاك الله حرفة تكسب منها مالاً ثم سئلت ماذا تعمل ؟ فقل بفضل الله ورحمته أعمل كذا، والله مكّني من وظيفة أو اختصاص في طب، أو في هندسة أو محاماة أو التجارة أو الصناعة أو الخدمات، و الله عز وجل أعانني على إتقان حرفة ويسر لي سبيل الرزق منها، و هذا الكلام الصحيح، فإذا لك بيت وكان معك مفتاح بيت، وكان في بالبيت زوجة وأولاد لك فهذا شيء ثمين جداً.

نعمة الزواج:

أريد أن أقول لكم أيها الإخوة: لا تكفروا بنعمة الزواج، فعلى الزوج ألا يستهين بنعمة الزوجة، كما إنني أخاطب الزوجات فأقول لهن: لا ينبغي للزوجة أن تكفر بنعمة الزوج، فهناك عددٌ كبير من النساء يتمنّين أن يكنّ زوجاتٍ لأزواج، فنعمة الزوج نعمة عظيمة، ونعمة الزوجة نعمة عظيمة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إنني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

وقال

((: لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه))

وقال:

((أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأسٍ لم تُرحَ رائحة الجنة))

قال تعالى:

(وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

(سورة الجن)

لا تخف إلا ذنبك:

لا يوجد ملجأ غير الله، فقد تجد الطبيب أحياناً يبد الله، فإن أراد الله لهذا المريض شفاءً وقلق الطبيب، وإن أراد له عقاباً أخطأ الطبيب، والخطأ كله موظف في الخير المطلق، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية بشكل مختصر.

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه))

فمهما يكن في الحياة الدنيا قوى شريرة فلا تخف منها، فإنك قد تنام في مكان خالٍ فيه عقارب و أفاع، وهذه المخلوقات كلها بيد الله، وقد يكون هناك إنسان شرير يستطيع أن يفعل بك ما يفعل لكنه لا يستطيع لأنه مُلَجَم.

التوحيد:

يجب أن تؤمن أن الله خالق كل شيء، و أنه على كل شيء وكيل، فهو الذي خلق والزمم بيده، كما يجب عليك أن تؤمن أن الله له الخلق والأمر، وأن كل شيء خلقه أمره بيده، كما يجب أن تؤمن، بهذه الآية:

(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: آية " 2 ")

هذا هو التوحيد، وديننا دين توحيد، بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

إن هذه العبارة تضغط الدين كله بل أن تضغط كل الأديان في كلمتين، أي: اعتقد أنه لا إله إلا الله واعبده ووجده وأطعه، فالسلوك طاعة، والاعتقاد توحيد، وهذا هو الدين كله.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

(سورة الجن)

إنني أقوله كثيراً: إنك حينما تعتمد على مالك أو أولادك أو زوجتك أو ذكائك أو حرفتك، أو علمك أو من حولك من الأتباع، فإن الله تعالى يجعل تأديبك في أن يخيب ظنك هذا الذي اعتمدت عليه فتفاجأ، وذلك لحكمة أرادها الله، فلا تُفاجأ لأن هذا هو تأديب الشرك الخفي.

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

(سورة الجن)

الاستثناء في هذه الآية:

مهمة الرسول:

(إِنْ أَمَّا بَلَاغًا)

الحقيقة أن هذا الاستثناء ليس من هذه الآية بل من آية قبلها، كما قال المفسرون، وهي:

(قُلْ إِنِّي لَأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

(سورة الجن)

لقد ذكرت في الدرس الماضي أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يملك لأحد ضرراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً، وهذه الأشياء الأربعة قد اختصرت في كلمتين، فقال الله تعالى: قل إني لا أملك لكم أن أضركم ولا أملك لكم أن أنفعكم، لأن الضر والنفع بيد الله، كما أنني لا أملك لكم أن أضلكم ولا أن أهديكم، فقد قال تعالى

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

وقال:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

وقال:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

وقال:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104))

وقال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22))

(سورة الغاشية)

إذاً ما الذي يملكه لنا ؟ إنه لا يملك لنا نفعاً ولا ضرراً ولا غياً ولا رشداً، و رُشد: مصدر أيضاً، أما الآية فقد ورد فيها الرشد، فما الذي يملكه لنا ؟ قال:

(إِنْ أَمَّا بَلَاغًا)

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِنْ أَمَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

إنه يقول: إن مهمتي هي التبليغ، أما الهدى فهو بيدكم، وهو قرار من اختياركم، فأنتم تختارون الهدى أو الضلال، أما أنا أبلغكم:

(إِيَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ)

(سورة الجن: آية " 23 ")

فهذا البلاغ من الله، لذلك كان الأنبياء مؤيّدون بالمعجزات والوحيد والعصمة، فهم معصومون، ويوحى إليهم، ومعهم معجزات تؤكّد أنهم أنبياء.

(إِيَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ)

فإنّ عزّ وجلّ يبلغنا أنّه هو خالقنا عن طريق الأنبياء، فقد خلقنا لنعبده، والمصير إليه، ثم أعطانا رسالة مفصّلة، ورد فيها: افعل ولا تفعل، فقد قال لك: أنا موجود وهذا منهجي، لذلك كان عليك عندما تؤمن بالله أن تتعرف إلى منهجه، وأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، فيجب عليك أن تعرفه وأن تعرف أمره، كما يجب عليك أن تعرفه من خلال خلقه و من خلال أفعاله و كلامه، ثم عليك أن تطيعه من خلال تشريعه.

أشياء لا بد للمؤمن من أن يعرفها:

و كما قلت في الخطبة اليوم: يجب ألا يعلو شيء في حياة المؤمن على أن يعرف المنهج التفصيلي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فلو قلت لك مثلاً: يجب أن تتقرب من فلان بطاعته، فإنك تسأل: أين أمره ونهيه، إن هذا شيء يسمونه تحصيل حاصل، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، و ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، و ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فلو أنني قلت لواحد من الناس: أطع الله، فإنه يقول لك: علمني أمره ونهيه حتى أطيعه، فهذا شيء بديهي جداً بالنسبة لك إن استقرت حقيقة الإيمان في قلبك، فماذا بقي عليك ؟ لقد بقي عليك أن تتعلم أمره ونهيه كي تطيعه، فمن لوازم طاعة الله معرفة أمر الله، لذلك كانت معرفة الحكم الشرعي فرض عين على كل مسلم.

وقد ذكرت في خطبة سابقة أن معرفة المظلة تحتاج إلى مجموعة معلومات عن المظلة، وبعض هذه المعلومات ضروري كما أن بعضها غير ضروري، فهل المظلة دائرية أم مربعة أم مستطيلة ؟ و ما نوع قماش المظلة ؟ هل هو من خيوط صناعية أم طبيعية ؟ يا ترى ما لونها ؟ و كم حبل بها ؟ و ما قطر هذه الحبال ؟ و ما ألوان هذه الحبال ؟ و مم صنعت هذه الحبال ؟ إن هذه معلومات لو جهلها المظلي لنزل سالماً، أما كيف نفتحها ؟ فهذه حقيقة مصيرية أساسية خطيرة، وهذه حقيقة يجب أن نُعلّم بالضرورة، فإن لم يعرفها المظلي نزل ميتاً، ففي الدين أشياء إذا عرفها البعض سقطت عن الكل، وهناك أشياء علمها فرض عين على كل مسلم ؛ سواء أكان مثقفاً أو غير مثقف، وسواء كان اختصاصه عالي أم متوسط... أمي أو متعلم، غني أو فقير، هي فرض على أي إنسان بصرف النظر عن جنسه ؛ ذكراً كان أم أنثى، كبيراً أم صغيراً، مثقفاً أم غير مثقف، وهذه الأشياء هي الحلال والحرام و الأمر والنهي و التشريع، فطلب الفقه حتم واجب على كل مسلم، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً (22) إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ)

(سورة الجن: آية " 22، 23 ")

لقد أبلغني الله من خلال الأنبياء والرسل أنه موجود وواحد وكامل، و هذه الرسالة منهج، فإذا فتحت كتاب الفقه وجدت أحكام الزواج والطلاق و أحكام الخطبة، و أحكام البيع ؛ كبيع الغرر، وخيارات البيع، و هذه كلها مستنبطة من الكتاب والسنة أساساً، فالطلاق، والزواج و الإيجار و الأمانة و الحوالة و الكفالة و اللقطة و كل أحكام الفقه هي تنظيم لحياتنا فإذا سار الإنسان على منهج الله عزّ وجلّ ضمنَ توفيق الله له.

جزاء الإشراك:

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً)

(سورة الجن)

أي: إن من يعص الله ورسوله ويمت عاصياً لله عزّ وجلّ فلن يغفر له الله سبحانه، والمقصود بالمعصية هنا بالشرك، لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك.
مثل:

لقد ضربت مرة مثلاً، وفي إعادة هذا المثل فائدة..

إذا كان هناك إنسان له مبلغ كبير جداً في حلب يبلغ الملايين، وكان عليه أن يكون في هذه المدينة في الساعة الثانية عشر، فإذا ركب قطاراً فإنه قد يرتكب في هذا القطار عشرات الأخطاء، فقد يشتري بطاقة من الدرجة الأولى، وقد يجلس في الدرجة الثالثة بخطأ منه، كما أنه قد يجلس عكس اتجاه القطار فيصاب بالدوار، وقد يجلس مع أناس غير مهذبين فينزعج انزعاجاً شديداً، وقد يتلوّى من الجوع وينسى أن في القطار مطعماً صغيراً، وقد..وقد.. ورغم كل هذه الأخطاء فإنه لا يزال في طريق إلى حلب وسيأخذ هذا المبلغ، لكن هناك خطأ قد يرتكبه فلا يغتفر، وهو أن يركب قطار درعا، فهذا الخطأ لا يغتفر، لأن المبلغ في الشمال، ومهما كان هذا القطار فخماً ومريحاً ومكيفاً، حتى إن له نوافذ تفتح أوتوماتيكاً، فإنه لا يصلح للوصول إلى الهدف، فيجب عليك أن تمشي باتجاه هدفك، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ؛ فإن اتجهت إلى غيره و عبدت غير وعلقت الأمل على غيره وخفت من غيره، فالطريق أمامك مسدود، و ليس هناك مغفرة، أما إذا وحدته وتعرفت إليه فإنه قد يغفر لك بعض الأخطاء مع المعالجة، فيعالك ويغفر لك، لكن أكبر هو غلط أن تشرك بالله عزّ وجلّ، و أن تتجه إلى غير الله.

(إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً)

(سورة الجن)

الخوف من علامات العقل:

إذا مات عاصياً مشركاً فإن له نار جهنم خالد فيها أبداً، فهل يحس الإنسان يا ترى إذا قرأ هذه الآية بخوف ؟ إن الخوف من علامات العقلاء، فكلما هبط ذكاء الإنسان، وهبط إدراكه فإنه لا يخاف، والدليل على ذلك أن الفلاح قد يأخذ ابنه الصغير الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات إلى الحديدة، فيضعه بين سنابل القمح، فيمشي إلى جانب هذا الطفل الصغير ثعبان مخيف طوله خمسة أمتار، فلا يخاف هذا الطفل منه أبداً، بل إنه قد يضع يده عليه، فلماذا لا يخاف ؟ لأنه لا يدرك.

فإذا كنت إنساناً عادياً فأعطاك إنسان أقوى منك تهديداً، فإن لم تفعل كان عليك ضريبة كذا، فتجد الناس قبل آخر السنة يتدافعون لدفع الضرائب، لماذا ؟ لأن الذي أو عدهم بدفع غرامة كبيرة لا يرحمهم أحياناً، فقراره قطعي، فتجد الناس يتجمعون زرافاتٍ ووحداً، وذلك لأنهم صدقوا، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(سورة الجن)

هذا كلام من ؟ هذا كلام خالق الكون فقد تصدق إنسان مثلك لأنه أقوى منك فلا تحيد عن أمره قيد أنملة، وتعتقد أنه إذا قال فعل، وهذا الشيء يدعو للعجب والأسف في آن واحد، فالناس قد ينضبطون مع إنسان، ولا ينضبطون مع الواحد الديان، فنراه ينضبط انضباطاً تاماً مع مخلوق لأنه أقوى منه فهو يظن أنه لن يتفكك من قبضته، فيطبق الأمر بحذافيره التامة و أدق تفصيلاته وذلك خوفاً من العقاب، فما بالك بهذا الإله العظيم ؟؟

سعة الكون:

إن مجرتنا درب التبانة تحوي تقريباً مليوناً مليون مجرة في الكون، وهذه معلومات قديمة، و مجرتنا هي مجرة متوسطة فيها نقطة واحد هي المجموعة الشمسية، فإذا كبرناها لرأينا أن في المجموعة الشمسية ثلاثة عشر ساعة ضوئية، و من شهر تقريباً قيل في الأخبار أنهم أرسلوا مركبة إلى المشتري، وهذه المركبة سوف تسير سبع سنوات إلى هذا الكوكب، بسرعة أربعين ألف ميل بالساعة ؛ أي: ستين ألف كيلو متر، و الطائرات النفاثة سرعتها 900 كيلو، فهي أسرع من طائرات الركاب بتسعمائة أو ثمانمائة أو سبعمائة أو ستمائة تقريباً، فسرعة الطائرة تتراوح بين ستمائة إلى تسعمائة، وأعلى شيء في السرعات هو تسعمائة، أي: أربعين ألف ميل بالساعة أو ستين ألف ميل بالساعة، وتستغرق سبع سنوات، أما نحن فلا زلنا في نقطة على درب التبانة، والمشتري كوكب ليس ببعيد، فنبتون وبلوتو أبعد منه، وإن خالق هذا الكون يقول لك:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(سورة الجن)

فأنت تخاف من إنسان أقوى منك بقليل، وإذا أعطاك أمراً فإنك تنفذه بحذافيره، لكنك لا تخاف من خالق
الأكوان !!

التعامل مع الحقائق البيانية دليل العقل:

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ)

(سورة الجن: آية " 24 ")

هناك دائماً وعد ووعد، وهناك تأويلٌ لهذا الوعد والوعد، فالوعد يكون بالخير، أما الوعد فهو العقاب، وبعد الوعد والوعد هناك تنفيذ لهذا الوعد والوعد، فالعقلاء يصتقون الوعد والوعد، والأغبياء يخافون بأعينهم فقط، والحيوان يخاف بعينه، فلو أن دابةً مثلاً كانت تسير في طريق، وهذا الطريق سيغلق بعد عدة ساعات، فمهما أسمعته أن الطريق مغلق فإنها تظل سائرة، أما إذا وجدت حفرة كبيرة فإنها تقف، أما الإنسان فإذا وجد الطريق مغلقاً فإنه لا يكمل الطريق، لأنه يتعامل مع الفكر، والكلام، فكل إنسان يتعامل مع الفكر والكلام والتنبيه والبيان إنسان عاقل، وكل إنسان لا يخاف إلا بعينه ليس بعقل، فهناك من الناس من لا يقتنع أن الدخان مضر إلا حينما يصاب بالسرطان، فتجده يقول: (الله يلعنها)، فيجب عليك أن تصدّق الأطباء قبل أن تصاب بمرض، تصدقهم أنت صحيحٌ معافى، وكل إنسان يتعامل مع الخطر مباشرةً هو إنسان معطل عقله، وكل إنسان يتعامل مع الحقائق البيانية هو إنسان ذكي وعاقل، وقد بلغ أرقى مستويات العقل.

مثل:

وقد ضربت مرة هذا مثل: إذا كان هناك راكب دراجة يدوية يسير في طريق، وهو يرى طبعاً أن الطريق الهابط مريح جداً له، وأن الطريق الصاعد متعب جداً، فلو وجد أمامه طريقاً نازلاً مُعبداً و كان على أطرافه حدائق، و وجد طريقاً آخر صاعداً غير معبد وكله آكام وحفر وغبار، وقد كتبت لوحة إلى جانبه تقول: ينتهي هذا الطريق الصاعد بقصر منيف فيه كل شيء، وينتهي هذا الطريق الهابط بحفرة فيها وحوشٌ مفترسة، فهنا يُمتحن عقل الإنسان، فإذا كان عطل عقله فإنه يرى أن النزول أريح فهذا الإنسان معطل عقله، لأنه يعيش لحظته فقط، وإن معظم الناس على هذه الشاكلة، فإذا رأى أحدهم امرأة جميلة ملأ عينيه منها، وإذا رأى دخلاً كبيراً مشبوهاً أخذه، وإذا رأى بيتاً اغتصبه وسكن فيه، فهو يعيش لحظته.

أما العاقل فينظر إلى ساعة فراق الدنيا وهو في القبر، عندما يسأله الله لماذا طلقت زوجتك ؟ و لماذا أكلت هذا المال الحرام ؟ و لماذا ابتزرت أموال الناس ؟ ولماذا كذبت عليهم ؟ لماذا احتلت عليهم ؟ فامتحن عقلك بتعاملك مع التحذير البياني، أما تعاملك مع الخطر الحقيقي الذي أمامك فلا يحتاج إلى عقل، فما هو العقل ؟ قال بعض من عرفه: هو أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، فمتى يصلح أكثر

الناس مدافئهم ؟ عند البرد -وأنا واحد منهم - لكن الإنسان أحياناً قد يهئ الأمور كلها وهو في شهر الصيف، فكل إنسان يتعامل مع الخطر حين وقوعه يكون ذا تفكير ضعيف.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ)

فيقول: الآن جاءت المشكلة، جاءت المصيبة، جاء الوعيد.

(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا)

(سورة الجن)

اعرف قبل فوات الأوان، و لا تعرف بعد فوات الأوان، وقد قال تعالى: سيعلمون، و يستنبط من هذه الآية أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، لا خيار قبول أو رفض، لأن أكفر كفار الأرض فرعون آمن عند الموت، فقال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فالذي جاء به الأنبياء والرسول والدعاة الصادقون سوف نعرفه جميعاً حتماً عند الموت، لكن هذه المعرفة لا قيمة لها إطلاقاً بل تزيد الإنسان ندماً، فالمعرفة المفيدة تكون قبل فوات الأوان. فلو قدم أحد الأشخاص فحصاً وأخذ صفراً في الامتحان، فذهب إلى البيت وفتح الكتاب فعرف الجواب، فقدم طلباً يقول: نظراً لمعرفةتي الجواب بعد الامتحان يرجى إدراج اسمي مع الناجحين، إن هذا كلام مضحك، لأن كل طالب رسب يعرف الجواب بعد الامتحان، لكن العبرة في أن تعرفه وأنت على مقعد الامتحان في الوقت المناسب، وهذه كلمة دقيقة.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا)

(سورة الجن)

سيعلمون، والآية الكريمة تقول:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4))

(سورة التكاثر)

أي: تعلمون مرةً عند الموت، ومرة يوم القيامة، فهذه الحقائق التي تُلقَى جاء بها الأنبياء وجاء بها الوحي العظيم، وسوف يعرفها أهل الأرض قاطبة، كُفَّارُهُمْ و مُلْحِدُوهُمْ و فُجَّارُهُمْ و فَسَّاقُهُمْ و عُصَاةُهُمْ.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: آية " 22 ")

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا (24) قُلْ إِنَّ أَقْرَبَ مَا

تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26))

(سورة الجن)

فلا يعلم الغيب إلا الله، وإن أي إنسان يدّعي علم الغيب هو دجالٌ وكذاب، يقول الله عزّ وجل لنبيّه وهو صفوته من خلقه: قل: لا أعلم الغيب، كما أنه قال:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف: آية " 188 ")

أما ما جاء به النبي من أشراف الساعة فهذا غيبٌ أطلعه الله عليه، فهو لا يعلم بذاته إلا أن يعلمه الله، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

فلو تنبأ إنسان في السبعينات بما سيكون في الشرق من انهيار دول عظمى لوضع في مستشفى المجانين، لأن هذا كان غيباً وقتها، أما ما حصل بعد ذلك، فهو أن أكبر قوة انهارت، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

فليس هناك وليٌّ عند الله - مهما علا شأنه و أظهر من الكرامات - يعلم الغيب، فالاستثناء هنا للرسول فقط، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن: آية " 26، 27 ")

أي أن الغيب الذي يطلع الله عليه بعض عباده يجب أن يكون رسولاً، أما ما سوى الرسول فلا يعلم الغيب، ومع ذلك قال الله تعالى عن هذا الرسول..

(فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)

(سورة الجن: آية " 27 ")

أي: معه ملائكة يحفظون هذا الغيب، و لا يستطيع الجن أن يصلوا إلى هذا الغيب، فلا يستطيع الشيطان أو الجن مثلاً أن يسترقوا من النبي ما أوحى الله به إليه من علم الغيب.

(فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)

الرصد: الحراس، فالغيب محروسٌ من قبل الله عزّ وجل، فإذا وضع أحدهم أسئلة فلن يستطيع أحد أن يأخذ منه الأسئلة، وأحياناً قد تُخصّ الأسئلة بإنسان ليضعها في الامتحانات العامة، فلا يستطيع أحد أن يستدرجه لأخذ هذا السؤال، وذلك ليعلم النبي عليه الصلاة والسلام أنه ليس رسولاً وحده.

(لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ)

(سورة الجن: آية " 28 ")

إنه نبيٌّ من الأنبياء، و هناك أنبياء بلغوا الرسالة وأدّوا الأمانة.

الإحصاء:

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

(سورة الجن)

إن الإحصاء أعظم من العد، فإذا قلنا: كم أخ حاضر هنا ؟ فالجواب يكون مائة، وإذا قلنا: كم أخ متزوج ؟ و كم أخ غير متزوج ؟ كم أخ بيته بعيد ؟ وكم أخ مطبق ما يسمع ؟ فهذه الأسئلة تحتاج إلى إحصاء، فالعد سهل، أما الإحصاء فيحتاج إلى دراسات تفصيلية عميقة جداً، فربنا عز وجل عدّهم وأحصاهم.

مسؤولية التبليغ:

قال تعالى:

(لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ)

إن هؤلاء الأنبياء أدّوا الرسالة، و أقول لكم كلاماً دقيقاً وفيه مسؤولية كبيرة، إن كل واحد منكم سمع الحق قد صار مسؤولاً عند الله عز وجل، لأن الله عز وجل أخبرنا عن طريق النبي، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

فإذا سمعت آية أو حديثاً أو درساً فتأثرت تأثراً بالغاً منه، فأهديت شريطاً لأخ صديق ففعل هذا الشريط يكون سبب هدايته، فإذا تأثرت من درس فعممه، وإذا سمعت آية فسرّها للناس، وإذا سمعت حديثاً بيّنه للناس، وهذا أداء الرسالة، وكل واحد منا يجب أن يكون داعية إلى الله في حدود ما يعلم ومع من يعلم، فالحد الأدنى يكون في حدود ما يعلم، من الذي سمعه، ومع من يعرف، لا سيما نفسه، أما الدعاة الكبار فلهم دعوة عامة كبيرة جداً، و أنت المستمع وطالب العلم مكلف بأن تنقل هذا العلم إلى أخصّ الناس إليك، أي: أولادك و زوجتك، وأولاد عمك و أعمامك و أخوالك و من معك في العمل من زملاء مثلاً و جيرانك، فهؤلاء هم خاصة الناس، ولهذه الآية تفسيرات كثيرة، و أوجهها ؛ أي: ليعلم النبي أنه ليس وحده هو النبي، وليس وحده هو الرسول، وليس وحده هو المبلّغ..

(لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

فإنّ الله عز وجل عندما يحيط بالإنسان، يحيط بكلامه و نيّته وهدفه البعيد و بواعثه الخفية، فإنّ الله يعلم كل شيء، يعلم السر وأخفى، فهو يعلم جهرك، ويعلم سرك، ويعلم ما خفي عنك، و هذا شيء دقيق جداً، فهو: علّم ما كان و علّم ما يكون، و علّم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (5-1): تفسير الآيات 1-5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية عبادة الداعية

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الأول من سورة المزمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8))

المزمل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: تزلزل ؛ أي: تلفف بثيابه.

سببا نزول هذه الآيات:

1- السبب الأول: (الرواية الأولى):

يروى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي عليه الصلاة والسلام والدعوة التي جاء بها، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاهتم لذلك والتف بثيابه وتزلزل ونام مهموماً، فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2))

فالدعوة فيها صعوبات، وفيها أعداء و كيد و صوارف وعقبات، والنبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه في هذه السورة إلى أن يقوم بأعباء هذه الدعوة، والإنسان قد تأتيه أحياناً حالات نفسية تضغط عليه فيميل إلى النوم، و الله جل جلاله يقول للنبي عليه السلام:

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2))

2- السبب الثاني: (الرواية الثانية):

وخلاصتها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة بثلاث سنوات ؛ أي: يتطهر ويتعبد، وكان تحنث النبي عليه السلام في كل سنة شهراً كاملاً وهو شهر رمضان، فكان يذهب فيه إلى غار حراء الموجود على بعد ميلين من مكة، فيقيم فيه هذا الشهر، ويطعم من جاءه من المساكين، ويمضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتطورات الواهية، ولم يكن بين يديه طريق واضح ولا منهج محدد ولا طريق قاصر.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يذهب إلى غار حراء فيمضي فيه الليالي ذوات العدد يتعبد و يصلي و يفكر و يتأمل وهو في حيرة كبيرة، لأن قومه في ضلالة شديدة وفي ظلمة حالكة وفي انحراف خطير وفي فتن مشتتة، ولكنه لا يدري ما العمل.

وكان اختياره لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وذلك لما ينتظره من الأمر العظيم، فقد كان في هذه العزلة يخلو إلى نفسه، فيخلص من زحمة الحياة وشواغلها، ويفرغ لموحيات الكون ودلائل الإبداع، وتسبح روحه مع روح الوجود وتتعانق مع الجمال و الكمال والحقيقة الكبرى، وتتمرن على التعامل معه في إدراك وفهم.

أهمية خلوة الداعية مع الله عز وجل:

أيها الأخوة... لا بدّ لأية نفس يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية من خلوة وعزلة مع الله عز وجل، ففي الخلوة يتم الشحن ومع الناس يتم التفريغ، فلا يمكن لإنسان أن يحدث تأثيراً كبيراً في الحياة، أو أن يقلب مجرى الحياة و يغير طبيعة العلاقات، و يضيف على الحياة من بعده روح الفضيلة و الاستقامة دون أمة يكون له مع الله خلوة، ليشحن نفسه في هذه الخلوة، فالتأثير في الناس من دون خلوة كلام غير مقبول على الإطلاق، لأن العطاء يحتاج إلى كسب، و فاقد الشيء لا يعطيه، فلا بدّ للنفس التي تؤثر بمن حولها أن يكون لها خلوة مع الله، لتكتسب بذلك شحنة روحية تفرغها مع الناس، فإذا ضعفت هذه الشحنة ضعف التأثير، و إذا قلت الخلوة أو انعدمت ضعف التأثير أيضاً.

إن هذا درس يجب أن يوضع بين أيدي المؤمنين، لا سيما الدعاة منهم، كما يجب أن يوضع بين أيدي كل إنسان و كل مجموعة من الناس أرادت أن تحدث شيئاً في الإسلام، فلن تستطيع أن تؤثر إلا إذا شحنت، و لن تستطيع أن تعطي إلا إذا اكتسبت، و لن تستطيع أن تعلم إلا إذا تعلمت، و لن تستطيع أن تحمل الناس على الاتصال إلا إذا اتصلت.

أيها الأخوة... لا بدّ لنا من وقت إلى آخر من خلوة وعزلة وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة وهموم الناس التي تشغلهم، و لا بدّ من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير، و هذه هي الحكمة الأساسية من العبادة، لأن العبادة نافذة إلى السماء، فلا بدّ من لك من أن تتصل بالله و تتناجيه و تقف بين يديه و تتفكر في عظمة الكون، فهذا هو الذي يعطيك الشحنة، و هذه هي الشحنة التي تكتسبها من خلواتك مع الله هي زادك في الدعوة إلى الله و قوة التأثير و إحداث التغيير ليشيع من كلامك الخير الكثير.

أيها الأخوة... إن أكثر الناس يقضون أوقاتهم في الشواغل التافهة، رغم أن الإنسان هو المخلوق الأول الذي خلقه الله لجنة عرضها السماوات والأرض، كما أنه خلقه ليعرفه ويقبل عليه، وهو المخلوق الأول الذي سخر له ما في السماوات والأرض، لكنه مشغول بتوافه الحياة و سفافها، و مشغول بالأمر التي

تفعلها كل الكائنات بلا فضل ولا أجر ولا شكر، فالإنسان لا يليق به أن تستهلكه الحياة كما هو حال الناس اليوم، فالإنسان الآن مستهلك، و قوائم الأعمال التي يكتبها على دفتره لا تنتهي.

قلت مرة لأحد الأشخاص: لو ذهبنا إلى مقبرة واطلعنا على أحوال هؤلاء الموتى جميعاً لوجدنا أن كل واحد منهم قد مات وعليه قوائم من الإنجازات التي لم يفعلها بعد، فهذه المشاغل لا تنتهي، و لا بد أن تققطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله والاتصال به والإقبال عليه و التفكير في ملكوته، وإلا لن تستطيع أن تؤثر في نفسك، لأن المهزوم أمام نفسه إنسان ضعيف تافه، و المهزوم أمام شهواته و رغباته و نزواته و مصالحه إنسان لا يستطيع أن يحرك ساكناً، فأنى له أن يحدث في الناس التغيير.

النبي عليه الصلاة والسلام هو بشر من بني البشر وقد عاش ثلاثاً وستين عاماً.. فما هو أثره بعد هذه الحياة ؟ لقد تعرفت أمم لا تعد ولا تحصى إلى الله و أقبلت عليه و سعدت بقربه و اصطلحت معه بسببه عليه السلام، لذلك أقسم الله جل جلاله بعمره الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

(سورة الحجر)

كان الله سبحانه وتعالى قد أعدّ النبي عليه الصلاة والسلام من أجل أن يتحمل عبء هذه الرسالة العظيمة الخالدة، يقول عليه الصلاة والسلام:

جاءني جبريل فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:

(اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم (5))

(سورة العلق)

إن أول كلمة نزلت في الوحي هي: اقرأ، فأساس هذا الدين العلم، لكن العلم واسع جداً، فاقرأ العلم الذي يوصلك إلى الله، واقرأ باسم ربك، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ))

(سنن الترمذي)

قيمة طلب العلم:

إن أول خصيصة تمتاز بها أيها الإنسان أن الله جل جلاله أودع فيك القدرة الإدراكية، فإن لم تقرأ عطلت هذه القدرة وهبطت إلى مستوى لا يليق بك، و إن لم تطلب العلم هبطت عن مستوى إنسانيتك إلى مستوى مخلوقات لست منها و هذا لا يليق بك إطلاقاً، وحينما تفكر أن تأكل وتشرب وتكسب المال

و تستمتع بالحياة فقط فمعنى ذلك أنك هبطت عن مستوى إنسانيتك إلى مستوى آخر لا يليق بك، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

هذه اللام لام التعليل، فعلة وجودنا على الأرض هي أن نعلم، قال تعالى:

(لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

فلا شيء في حياتنا يعلو على طلب العلم وحضور مجالس العلم، و لا شيء في حياتنا يعلو على معرفتنا سبب خلقنا، وتكليفنا، وماذا ينبغي أن نفعل، وماذا ينبغي أن ندع، فهذا هو الشيء الأساسي لأن الجنة ثمنها العمل الصالح، والعمل الصالح سببه العلم الصحيح، فإذا لم تعلم لم تعمل، وما لم تعمل فلن تدخل الجنة، و الجنة التي خلقنا لها أساسها العمل الصالح، والعمل الصالح أساسه العلم الصحيح، قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

(4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

قال: فقرأتها، ثم انتهى وانصرف عني، فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل، قدمه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه ما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أحول وجهي عنه في أفق السماء فلا أنظر في ناحية إلا ورأيتك كذلك، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فما زلت واقفاً لا أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إليها، فقالت يا أبا القاسم: أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي جرى، فقالت: أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ".
دور الزوجة:

هذا هو دور الزوجة، إنه دور المساعد و المشجع و الداعي و المعين، أما الزوجة السيئة فإنها تثبط همة زوجها و تحول بينه وبين طاعة الله، فتكلفه ما لا يطيق، و تحمله على معصية الله و كسب المال الحرام، فتكون سبب قطيعته مع الله، لذلك قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ)

(سورة التغابن 14)

قال العلماء: هذه عداوة مآل وليست عداوة حال، فسبب شقاء هذا الإنسان و دخوله النار هو زوجته التي حملته ما لا يطيق، لكن السيدة خديجة رضي الله عنها التي تتعطر بذكرها المجالس قالت له: (أبشر يا ابن العم واثبت، فالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة)، ولها كلمة أخرى يقشع لها البدن تقول فيها: (والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر) إن هذه كلمة الفطرة، فقد أدركت بفطرتها، أن المحسن لن يخزيه الله أبداً. ثم فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن كان في الجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل، فأدركته منه رجة حتى حثا وهوى إلى الأرض، وانطلق إلى أهله يرتجف يقول: (زملوني دثروني)، ففعلوا وظلّ يرتجف بما به من الورع، وإذا جبريل يناديه: يا أيها المزمّل، و هذه هي الرواية الثانية. فإن صحت الرواية الأولى أو الثانية، فإن المزمّل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال بعضهم: إن هذه الثياب التي تلف بها هي ثياب النبوة، فالإنسان أحياناً قد يلبسه الله عز وجل ثوباً، فأرقى ثوب يلبسه الإنسان هو أن يكون نبياً مرسلًا.

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ)

يا أيها المزمّل ؛ أي: يا من تلففت بثياب النبوة، وثن ثياب النبوة التي ترتديها هو أعمالك واستقامتك وحبك وشوقك وإخلاصك وطاعتك.

انقضى عهد النوم...

أيها الأخوة الكرام... بعد أن نزل جبريل الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم انتهى عهد النوم عنده، فقد دعت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أخذ قسط من الراحة بعد أن جاءت الرسالة فقال قولته الشهيرة:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))

إن هناك أناساً كثيرين همّهم النوم والاستمتاع بلذائذ الحياة والإغراق بنعيمها، وهؤلاء تافهون عند الله رغم دنياهم العريضة، فسيد هذه الأمة قالت له زوجته خذ قسطاً من الراحة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((انتهى عهد النوم يا خديجة))

لقد ظلّ عليه السلام قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً لم يسترح ولم يسكن ولم يعيش لنفسه ولا لأهله، و ما أكثر الناس الذين يعيشون لأنفسهم ولحظوظهم ولشهواتهم وليبوتهم و لأهلهم ولأولادهم، فهم متقوقعون متمحورون حول مصالحهم، و لا يعينهم أحد ماداموا قد حصلوا الدنيا العريضة، و هؤلاء كبار في متاعهم صغار عند الله عز وجل، فبيوتهم كبيرة لكن حظوظهم من الله قليلة، وأموالهم كثيرة لكن صلتهم بالله ضعيفة، فحينما خاطب الله عز وجل النبي عليه الصلاة والسلام قال له:

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا (2))

ما علاقتنا بهذه السورة ؟

نحن كما يقول معظمنا لسنا بأنبياء ولا مرسلين، ولكننا مؤمنون إن شاء الله، وعلاقتنا بهذه السورة هي أن نخرج من ذواتنا إلى خدمة الخلق، و أن نخرج من بيوتنا إلى الدعوة إلى الله، وأن نخرج من مصالحنا إلى نشر الحق، أن يعيننا أمر المسلمين، و نحمل همومهم، فلا أن نكتفي بهوم بيتنا وهموم أسرنا، و أن يكون نشر الحق شغلنا الشاغل، و أن تكون خدمتنا للخلق هدفنا الكبير، و هذه هي علاقتنا بهذه السورة، فالنبي عليه السلام لم يعيش لنفسه ولا لأهله، بل ظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض وعبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، و عبء الكفاح والقتال في ميادين شتى.

فإذا وقفت أمام قبره الشريف فإنك تقول له: أشهد أنك رسول الله بلغت الرسالة وأديت الأمانة وهديت الأمة ونصحتها وكشفت الغمة وجاهدت في الله حق الجهاد وهديت العباد إلى سبيل الرشاد. ليسأل كل منا نفسه: ماذا فعلت ؟ ماذا أديت من واجبات تجاه أمتي ؟ تجاه المسلمين ؟ تجاه عقيدتي وديني ؟ هل ساهمت بشكل أو بآخر في ترسيخ دعائم الدين ؟ هل ساهمت بعلمي أو بمكانتي أو بمالي أو بخبرتي أو بطاقتي في سبيل رفع المسلمين للتخفيف عنهم ووصلهم بالله عز وجل و إبعادهم عن الشيطان ومكائده؟؟ أليس لك دور في الحياة ؟ لقد قال عليه السلام لأحد الصحابة:

((يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبماذا تلقى الله إذا؟؟))

إن السؤال الكبير الذي ينبغي أن تسأل نفسك عنه: ماذا أوجب الله عز وجل إذا وقفت بين يديه ؟ هل سنقول له: يا رب زينت بيتي و فرشته، يا رب فعلت كذا وكذا، يجب أن تقول له كلاماً متصلاً بمهمتك في الحياة.

أيها الأخوة الكرام... إن العمر قصير والرسالة كبيرة جداً، والثمرة يانعة، فهل تدري ماذا ينتظرك إذا كنت سائراً وفق منهج الله عز وجل ؟ تنتظرك جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، أتضيع هذه الجنة بسنوات معدودة لا تقدم ولا تؤخر، والشيء الدقيق الذي ينبغي أن تتساءل عنه هو ماذا حملت من عبء المسلمين ؟ هل تعلمت القرآن وعلمته مثلاً؟؟

أيها الأخ الكريم: أقول لك هذه الحقيقة: لا تتشغل بما لا تملك عن الذي تملك، لأن الله جلّ جلاله لا يؤاخذك أبداً فيما لا تملك، فكم من قوة غاشمة في العالم كله تكيد للمسلمين، لكن يجب علينا أن ننشغل فيما نملك، فأنت تملك بيتك وعملك وجوارحك وحواسك ووقتك وتفكيرك، فهل يمنعك أحد من أن تصلي في البيت ؟ أو أن تربي أولادك ؟ أو أن تقرأ القرآن وتعلمه وتتعلمه ؟ هل يمنعك أحد أن تكون صادقاً في عملك مستقيماً في معاملة الخلق ؟ أبداً... إن هذا هو جهاد النفس والهوى الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام فجعله أعلى جهاد على الإطلاق، ثم يأتي بعده جهاد الدعوة، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(سورة الفرقان)

إن هذين الجهادين -جهاد النفس والهوى وجهاد الدعوة - متاحان لكل مسلم في كل مكان وزمان، فإذا أقمتهما كفاك الله ما لا تملك، و إذا أطعت الله فيما تملك كفاك الله ما لا تملك، أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2))

إنها دعوة السماء إلى الأرض من خلال النبي عليه الصلاة والسلام..

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟؟

أنت مخلوق عظيم، لكنك عددت نفسك مخلوقاً عادياً، فالإنسان أحياناً بسبب جهله بقيمته يظن أنه (تكملة عدد)، أو إنساناً من هؤلاء البشر المعذبين الضعاف، لكن الحقيقة هي أنك المخلوق الأول الذي كرمك الله عز وجل و خلقك لعبادته، يقول تعالى في الحديث القدسي:

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، و خلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق وبعيد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيرني إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أحبب إليهم بنهمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقتطعهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأظهرهم من الذنوب والمعائب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أRAF بالعبد من الأم بولدها))

ثمن الجنة:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ)

يخاطب الله عز وجل نبيه الكريم: فيقول له: قم، وهناك قيام نفسي، فالإنسان الفاسق الفاجر أخذ إلى الأرض واتبع هواه، فكانت سعادته الكبرى في النوم والاسترخاء والتمتع بالملذات والشهوات والمناظر المثيرة، لكن المؤمن يخاطب من خلال النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول له الله تعالى:

(فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات)

أي: اذهب إلى الله و أطعه، فلا ينبغي للإنسان أن يستهلك، ولا أن يكون في زحمة الحياة ورقة في مهب الريح، تذهب يمناً ويسرة دون اختيار منه.

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (1) قُمْ)

قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، و العبء الثقيل المهيأ لك، قم للنصب والكد والتعب.
أيها الأخوة الكرام... والله الذي لا إله إلا هو، لا يمكن للمؤمن أن يشم رائحة الجنة إن لم يبذل، والدليل قوله تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران 92)

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

وهناك نشاطات سهلة جداً على النفس البشرية، كالسماع والحديث والثرثرة والتعليقات ونقد الكلام، وهذه القضايا سهلة جداً، لكن الله يمتحنك إذا كنت صادقاً أم غير صادق، فهو يريد مصداقيتك كلامك، فتكلم عن نفسك ما شئت، لكن الله عز وجل متكفل أن يجعلك في وضع تكشف فيه تماماً على حقيقتك، ولا بدّ لله عز وجل من أن يحجم الإنسان عاجلاً أم آجلاً، فقل ما شئت وافعل ما شئت، وضع نفسك في أي مرتبة تريد، و قل: (أنا أكبر مؤمن)، وهذا كله كلام بكلام، لكن الله متكفل أن يضعك في ظرف يكشف حقيقتك ليعرف معدنك.

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُمْ)

إنها دعوة السماء و صوت الكبير المتعال: قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للنصب والكد والجهد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، قم وتهياً للأمر العظيم واستعد له، إنها كلمة عظيمة، فقد ينهض الإنسان أحياناً من فراشه بسرعة ليفعل شيئاً، وكأن في الفراش عقرباً ! فماذا فعلت ؟ اسأل نفسك ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ليوم تقف فيه بين يدي الله عز وجل ؟ إن المؤمن له عند الله سجل ذهبي، و أعمال مشرفة صالحة كبيرة..

إنها كلمة رهيبة عظيمة تنتزعه صلى الله عليه وسلم من دفء الفراش في البيت، وتدفع به إلى الخضم بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب، في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء بسواء، اخرج من ذاتك و مشكلاتك وهموم بيتك و انتماءاتك الضيقة، وانتم إلى هذا الكون العظيم وخالقه الكبير و طاعته والقرب منه..

إن كلمة (قم) فيها إحصاءات كثيرة جداً...

من هو الإنسان العظيم عند الله؟؟

أيها الأخوة... دققوا في هذه الكلمات: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً لكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، و أكثر الناس اليوم يعيش لنفسه، فهو موفق في عمله ودخله كبير، فقد حلّ كل

مشكلاته المادية، فتجده يعيش لنفسه مستريحاً لكنه يعيش ويموت صغيراً عند الله عز وجل، أما الكبير فهو الذي يحمل العبء الكبير، ألم يقل الشاعر:

نو العقل يشقى بالنعيم بعقله وأخو الجهالة بالشقاء ينعم

إن العظماء يشقون في النعيم، والتافهون يسعدون في الجحيم، إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، أما الكبير فهو الذي يحمل هذا العبء الكبير، فانظر إلى الأشياء التي تهلك و تقلقك و تعنيك، فإذا قلت لي ما الذي يهلك و يقلقك ويعنيك قلت لك من أنت.

فما للنبي عليه الصلاة والسلام وللنوم، ما له و للراحة، ما له وللفرش الدافئ والعيش الهانئ والمتاع المريح، لقد عرف عليه الصلاة والسلام حقيقة الأمر وقدره فقال لخديجة وهي تدعوه إلى النوم: مضى عهد النوم يا خديجة، مضى عهد النوم وبدأ عهد الجد والتعب و تحمل التبعات و نشر الدعوة وملاقة الخصوم و الانصراف عن الجوازب ومجابهة العقبات، هذه حقيقة الإسلام، فإذا كنت مؤمناً فليكن همك كبيراً، فهناك إنسان قبره عمله وأهله و هموم بيته فقط، أما المؤمن فله هم كبير و هدف عظيم، فهو يحمل رسالة ويشعر بوطء حمل الأمانة، لذلك يسعى وبقدر همته يجري الله على يده الخير.

روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يحيى بن سعيد عن قتادة عن سعيد بن هشام أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر، فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: نعم، قال: انت عائشة فاسألها ثم ارجع فأخبرني بردها عليك، يقول سعيد بن هشام قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أأست تقرأ القرآن، قلت: بلى، قالت: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن، فهمت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت يا أم المؤمنين: أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أأست تقرأ هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

تَرْتِيلاً (4))

قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض عليه قيام الليل بأول هذه السورة، فقام عليه الصلاة والسلام وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة، قال: فهمت أن أقوم فبدا لي وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: كنا نعدّ سواكه وطهوره فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض ولا يسلم ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يُسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع

يا بني، وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل شيء أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشر ركعة ولا أعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان.

هذا كلام السيدة عائشة عن أخلاق رسول الله، وعن قيامه لليل ووتره، و لا أكتفكم أن قراءة هذه السورة وفهمها يُشعران الإنسان أنه صغير جداً، فتشعر أنك لا شيء أمام هذه العبادة وهذا الشوق و الحب و الإقبال و الهمة، ولكن الذي أراه أن الإنسان إذا صغر فإنه قد يكبر، أما إذا رأى نفسه كبيراً فإنه لا يكبر.

يجب أن تعرف ما العبادة التي كان عليها رسول الله، كما يجب أن تعرف ما الهمة التي كان يتحلى بها رسول الله، و ما الشوق الذي كان يعتري قلب رسول الله، فتقرأ هذا فتصغر، لكننا إذا صغرنا تكبر، أما إذا رأينا أنفسنا كبراء فإننا لا تكبر أبداً.

و قد يشعر أحدنا أن كل عمله و عبادته و صلاته و صومه قليل أمام هذا، ولكن هذا هو النبي، الذي جعله الله عز وجل في مقام محمود، قال عليه الصلاة والسلام:

((سَلُّوا اللَّهَ لِيِ الْوَسِيلَةَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَسِيلَةَ قَالَ أَعْلَىٰ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ))

قال تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً (79))

(سورة الإسراء)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون مطلع هذه السورة باعثاً لنا جميعاً وأنا معكم على قيام الليل وإتقان العبادة و العمل الصالح الذي نلقاه في قبرنا، والذي لا ينبغي أن نغفل عنه لحظة، فما منا من أحد إلا وسيغادر الدنيا عاجلاً أو آجلاً، ولا ينفعه في قبره إلا العمل الصالح، " يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ويدفن معك وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لنيمياً أسلمك ألا وهو عملك "، والموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل.

لا تقل: فسد المجتمع..

يا أيها الأخوة الكرام... إن سبل العمل الصالح مفتوحة في كل العصور، و تؤكد لكم لا تشتكوا، و لا تقولوا فسد المجتمع، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة 105)

عليك من نفسك و أسرتك و عملك، اضمن لي أن تقيم الإسلام في بيتك وفي عملك وأقول لك سوف ترى حال المسلمين في غير هذا الحال، لا تنشغل بما لا تستطيع عن الذي تستطيع، لا تنشغل بما لا تستطيع أن تفعل معه شيئاً عن شيء بإمكانك أن تغيره، فالذي يهمل ما كلفه الله به ويتطلع إلى ما لا يستطيع أن يغيره يقع في طريق مسدود.

إن مطلع هذه السورة يكفي كي يحثنا على أن نحسن علاقتنا بالله عز وجل، وأن نسعد بقربه، وأن نكون عند الأمر والنهي من أجل أن نستحق أن يكفينا الله ما لا نستطيع عليه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً (5))

كيف تطمع أن تؤثر في الآخرين إن لم يكن لك مع الله صلة متينة.

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6))

ولكن أقول لكم من باب التطمين: من صلى الفجر في جماعة ومن صلى العشاء في جماعة فكأنه قام الليل، فصلاة الفجر في جماعة والعشاء في جماعة نوع من قيام الليل، ومن لم يقدر على قيام الليل فقيام الليل ليس فرضاً على المؤمنين، لقد كان فرضاً ثم أصبح سنة، لكنك يمكنك أن تصلي ركعتين أو أربع قبل آذان الفجر فهذا قيام لليل.

على كل لا بدّ أن تسعد بالقرب من الله، و لا بدّ من أن تشحن في هذه الساعة حتى تستطيع أن تفرغ هذه الشحنة مع الناس تأثيراً وهداية ومعونة، فالإنسان الذي يفقد شيئاً لا يعطيه، و إن لم تشحن فلن تستطيع أن تؤثر، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: أيها المؤمنون قوموا إلى معرفة الله و تطبيق أمره و جهاد أنفسكم وأهوائكم و تعلم القرآن وتعليمه، فهذا هو الذي ينفعنا عند موتنا والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 1-5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-11-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل قيام الليل

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة المزمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ)

إن أصل كلمة (المزمل) في اللغة هو: المتزمل، فأدغم حرف بحرف، وذلك أيضاً كقولك يا أيها المذثر، فأصلها: يا أيها المذثر، فما معنى المزمل ؟ إنها تعني المتحمل، أي: يا أيها النبي، لقد جاءتك هذه الرسالة التي حُمّلتها.

(قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)

معاني المزمل:

لقد ذكر العلماء عدة معان لهذه الكلمة:

1- المعنى الأول: المزمل: المتحمل، الذي حمل هذه الرسالة، و أي إنسان إنما هو مكلف بحمل الأمانة، وأمانته هي نفسه التي بين جنبيه ؛ و أمانة النبوة التبليغ، أما أمانة المؤمن فهي أن يزكي نفسه، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

2- المعنى الثاني: المزمل: المتلف، فلو فتحت في معاجم اللغة لوجدتم معنى المتزمل أو المزمل هو: المتحمل أو المتلف، فالمعنى الأول أنه قد حمل الرسالة وكلف أن ينقل الحق إلى البشر، و هذه المهمة فيها جهد كبير، فالإنسان أحياناً يكلف بمهمة وقد لا ينام الليل عندما يشعر بثقلها، فأحياناً يرسل الإنسان ببعثة إلى بلد غربي فيشعر أن جهة ما وثقت به وحملته هذا الأمر، فعندما ينال هذه الشهادة يشعر بمسؤولية، والله سبحانه وتعالى يقول له: يا أيها المزمل، أي: يا أيها النبي الذي حُمّل هذه الرسالة، والمعنى الثاني (المتلف) هو معنى أبسط، أما المعنى الأوسع فهو أنه تلفف بثياب النبوة، و ألبسه الله ثوب النبوة والرسالة.

3- المعنى الثالث: المزمل هو المتلف بالقرآن الكريم، وقد كان عليه الصلاة والسلام قرأناً يمشي، و كان خلقه القرآن، فالكون قرآن صامت، و القرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

وهناك معنى دقيق يقول: إن المزمّل و المدثر ليسا من أسماء النبي، و هذا الاسم اشتق من حالة من حالات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أنه كان متلفاً بثوبه، وهذا الأسلوب من اللغة العربية، فأسلوب العرب أنهم قد يشتقون اسماً من حالة إنسان ما من أجل للتحبب والتلطف، فرب العزة في عليائه أراد أن يتلطف مع نبيه.

شواهد هذا الأسلوب من السيرة:

من هذه الشواهد أن علياً رضي الله عنه غاضب فاطمة رضي الله عنها، وكان علي نائماً وقد ألصق جنبه بالتراب، فقال له عليه الصلاة والسلام:

((قم يا أبا تراب))

وقد كان ذلك تلطفاً به وتحبباً إليه وإشارةً أنني لست عاتباً عليك، فهذا أسلوب من أساليب العرب، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

وهناك شاهد آخر.. فقد أراد النبي عليه الصلاة والسلام في معركة الخندق أن يندب صحابياً جليلاً لمهمة خطيرة، وهي أن يدخل هذا الصحابي في صفوف الأعداء ليأتيه بالأخبار، فاحتمل أن يكشف هذا الصحابي قائم، واكتشاف أمره يعني قتله، وقد كان سيدنا حذيفة متلفاً بالثوب نائماً وذلك من شدة البرد و الجوع، فاختره النبي صلى الله عليه وسلم من بين أصحابه كلهم، فقال لحذيفة بن اليمان:

((قم يا نومان))

وذلك تلطفاً وتحبباً إليه وإشعاراً له أنه ليس عاتباً عليه، وهذا أسلوب من أساليب العربية في التحبب والتلطف والتبيان.

لذلك قيل: المزمّل: اسم اشتق من حالة لابتست النبي، فلما جاءه الوحي شعر أنه حمل عبئاً ثقيلاً، وأن أمامه طريقاً شاقاً مديداً فلجأ إلى النوم الموقت فجاءه الوحي مرة ثانية:

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ (1) قُمْ)

القيام هنا يعني: انهض لتبليغ هذه الرسالة، فهذا تحبب وتلطف وإشعار بأن الله جل جلاله ليس عاتباً عليه في تزمّله و تلففه بالثوب.

أيها الأخوة الكرام... إن المعنى الثاني يفهمنا أن كل متلف بثيابه خالد إلى النوم هو معني بهذه الآية، فالآية تقول له: يا أيها النائم قم فصل، ألا يقول المؤذن في صلاة الفجر: الصلاة خير من النوم، ففي قاعدة في اللغة أن كل اسم مشتق من فعل ينطبق على كل من اتصف بهذا الفعل.

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ)

أيها المؤمن المتدثر المتلف بثيابه لا تنس ذكر الله، قم فصل..

فوائد صلاة الليل الصحية:

لقد مرّ في بعض خطب الجمعة أن بعض العلماء الغربيين وجدوا أن أخطر أمراض القلب من احتشاء القلب و تصلب الشرايين و انسداد الشريان التاجي سببها النوم المديد، لأن الإنسان إذا نام نوماً مديداً أبطأ قلبه إلى درجة أنه ينبض خمسين نبضة، وحينما تضعف نبضات القلب ويقل عددها يمشي الدم في الأوعية ببطء شديد، وحينما يمشي ببطء شديد تترسب على جدر الشرايين المواد الدهنية، وعندئذ يصاب الإنسان بما يسمى بتصلب الشرايين أو انسدادها، يقول أحد الأطباء الغربيين -وهو لا يعرف عن الدين الإسلامي شيئاً -: أنصح الإنسان أن يقطع نومه بعد أربع ساعات أو خمس ويجري التمرينات الرياضية لربع ساعة أو أن يمشي مقدار ربع ساعة، وهذه هي صلاة الفجر، فالذي يصلي الفجر في جماعة أو يصلي قيام الليل فيقطع نومه ويقوم إلى الصلاة لا يدري أنه يحقق صيانة راقية لقلبه وشرائينه، وأن أكثر أمراض انسداد الشرايين أو تصلبها سببه النوم المديد، ومن فضل الله على المسلم أنه لا يستطيع أن ينام أكثر من خمس ساعات متتالية، فإذا نام الساعة الحادية عشر كان لا بدّ أن يستيقظ لصلاة الفجر في الساعة الرابعة، العبادات هي أجل القربات إلى الله عز وجل، لكنها لها فوائد جانبية صحية، و لو أننا نعلم هذه الفوائد لسارعنا إلى طاعة الله أولاً، وإلى صيانة أجسامنا ثانياً، فكل راقٍ في فراشه معني بهذه الآية إذاً، لأنها لم تأت بلفظ: قم يا محمد، بل: يا أيها المزمّل، والمزمّل اسم مشتق من فعل، فكل من تلفف بثيابه وخلد إلى النوم والراحة نقول له قم فصلّ.

أيها الأخوة الكرام... إن (قم) استعيرت لصلاة الليل ؛ أي: قم صلّ صلاة الليل، ومنه: قيام الليل.

(قُم اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا)

الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، و من هنا استنبط عليه الصلاة والسلام أنه من صلى المغرب والعشاء وصلى الفجر قام نصف الليل لأن حدّ الليل من صلاة المغرب حتى طلوع الفجر، و صلاة الفجر من قيام الليل، وصلاة المغرب والعشاء من قيام الليل، فالذي يتاح له أن يستيقظ بعد أن ينام ليصلي بعض الركعات قياماً لليل فهذا من كمال هذا الأمر الإلهي.

حكم قيام الليل:

السؤال الآن: هل قيام الليل حتم و فرض أم ندب وحض ؟ هل قيام الليل حتم وفرض على النبي عليه الصلاة والسلام وحده أم عليه وعلى الأنبياء معه، أم عليه وعلى أمته معه ؟ الأصح أنه في بادئ الأمر كان فرضاً على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أصحابه لقول الله عز وجل:

(إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

(سورة المزمل)

وقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه عشر سنين حتى تورمت أقدام أصحابه وتورمت أقدامه الشريفة هو أيضاً، ثم أنزل الله آيات التخفيف وستأتي بعد حين...

(قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)

و هذا استثناء من الليل..

أهمية التوازن بين العبادة ومعاملة الناس:

جاء سيدنا عمر رضي الله عنه رسول عامله على أذربيجان، فوصل هذا الرسول إلى المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين، فذهب إلى المسجد، فإذا رجل في الظلام يصلي ويقول: ربي هل قبلت توبتي فأهني نفسي أو رددتها فأعزها، فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عمر، فقال: أمير المؤمنين؟! (لقد كره أن يطرق بابه ليلاً لئلا يوقظه فإذا هو يصلي في الليل)، قال: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل، فقال هذا الصحابي الجليل عملاق الإسلام: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت ريعتي، و يُستنبط من هذا الكلام أن سيدنا عمر رضي الله عنه وازن بين اتصاله بالله وخدمته للخلق، ومعظم الناس يجنحون إلى واحدة من هاتين، فإما أن يستغرق في خدمة الخلق فيضيع ما ينبغي أن يفعله مع ربه، وإما أن يستغرق في العبادة فينسى خدمة الخلق، والأصح أن تقيم توازناً بينهما، فلا بدّ أن تشحن نفسك بالعبادة كي تفرغ مع الناس، و لا بدّ أن تتلقى كي تلقى، و لا بدّ أن تتعلم كي تعلم، و لا بدّ من أن تتصل حتى إذا رآك أحد ذكر الله بك، وذلك من أجل أن تؤثر في الناس بحالك لا بكلامك فقط.

(إِنْ قَلِيلًا)

هذا استثناء من الليل، وهو يعني: صلّ الليل كله إلا يسيراً، لأن قيام الليل كله غير ممكن وهو شيء غير واقعي يتناقض مع طبيعة الإنسان، وقد تسمعون بعض القصص تروي أن أحدهم صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء دون أن ينام في النهار أربعين سنة، وهذا شيء مستحيل وهو مبالغة، لأنه مخالف لطبيعة البشر، لكن الله تعالى قال: قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، والقليل عند العلماء هو ما دون النصف أو الثلث.

كيف تحول هذا الحكم من مستوى الفريضة إلى مستوى الندب؟

لقد حدث ذلك بقوله تعالى:

(عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحِصُوا فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

(سورة المزمل 20)

هذه الآية خففت عن المؤمنين فرضية قيام الليل..

وقت مبارك...

إن الوقت الذي يكون قبيل أذان الفجر هو وقت مبارك كما ورد في الصحاح، فقد روي:
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ مَرَّتَيْنِ،
مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ مَنْ الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ فَمَا يَزَالُ
كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ))

إن الله تعالى يناجي هؤلاء الذين تركوا الفراش الوثير، و لم يكن مقصودهم من ذلك جنات العدن ولا
الحدود الحسان، لكن سؤلهم و مناهم هو نظر الحبيب، وهذا مطلب القوم الكرام، إن هؤلاء هجروا
الفراش ليقفوا بين يدي الواحد الديان ليناجيهم ربهم عز وجل.

فيا أيها الأخوة الكرام... إذا ضاقت بكم السبل، أو استعصى عليكم أمراً، أو أخافكم شيء، أو تعقدت
مشكلة أمامكم وأنتم ضعفاء لا تملكون لها حلاً، فعليكم بقيام الليل، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا
حزبه أمر بادر إلى الصلاة، وكم نصحت إخوة كرام وضعوا أمامي مشكلة عويصة، فقلت لهم: عليكم
بقيام الليل، لأن حديث النبي عليه الصلاة والسلام حديث صحيح صدر عمن لا ينطق عن الهوى:

((يُنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي
فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

(موطأ مالك 447)

أيها الأخوة الكرام... إن سرّ الدين هو أن تتعبد لك صلة بالله عزّ وجل، فإذا أطعته في النهار ولم
تعصه أوقظك في الليل..
فالقليل: هو أقل من النصف أو الثلث.

(نِصْفُهُ أَوْ انْقِصَ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4))

و كما قلت قبل قليل: إن صلاة الليل كانت فرضاً على جميع المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة
والسلام، قال تعالى:

(إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

ثم جاء التخفيف، قال العلماء: إن الذي نسخ هو فرضية قيام الليل، والناسخ هو الآية السابقة وقوله
تعالى:

(عَلِمَ أَنْ لَنْتُحْصُوهُ)

وقوله:

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى)

وقال العلماء هو منسوخ بالصلوات الخمسة، أما الآن فقيام الليل سنة مندوب إليها، وكما يقول البعض: الشتاء ربيع المؤمن، طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه، فالليل الطويل يحتمل القيام، والنهار القصير يحتمل الصوم.

فضل قراءة القرآن في قيام الليل:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ بَلَا قَلِيلًا (2) نَصْفُهُ أَوْ انْقِصُ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

تَرْتِيلًا (4))

إن أجمل ما في قيام الليل هو قراءة القرآن في الصلاة، و يجوز عند الإمام مالك قراءة القرآن من المصحف، فإن أردت أن تقرأ القرآن كله في قيام الليل فلك أن تفتح المصحف أمامك، وأن تقرأ في كل ركعة صفحة، وأن تقرأها قراءةً مرتلة، فما معنى مرتلة ؟

روى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يقرأ آية ويبكي، فقال عليه الصلاة والسلام: ألم تسمعوا إلى قول الله تعالى:

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)

اقرأ القرآن بتمهل و تمعن و تدبر، وعش جوّ الآيات، فإن كانت في الآية وصف لعذاب فتعوذ بالله من عذاب أهل النار، وإن كان فيها الآية وصف لأهل الجنة فادع الله أن تكون من أهل الجنة، وإن كان في القرآن آية تدل على عظمة الله فسبح الله ومجده تفاعل مع هذه الآيات، وخصيصة الليل هي السكون والهدوء، فلا يوجد اتصالات هاتفية ولا حركة ولا ضجيج ولا صخب، لأن هذا الليل للمحبين.

قم سر نحونا في الليل لا تخش وحشة فالأنس في طيب ذكرنا

أيها الأخوة الكرام... لقد سمع علقمة رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتل القرآن فداه أبي وأمي، وروى عبد الله بن عمر فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُوهَا))

(رواه أبو داود1252)

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْدُ صَوْتَهُ بِالْقِرَاءَةِ مَدًّا.

ومعنى قوله تعالى:

(يَتْلُوهُ هَاقًّا تِلَاوَةً)

أي: يقرؤه قراءة توافق قواعد التجويد، ويتفهمون المعاني التي ينطوي عليها، و يتدبرون الآيات التي أمروا أن يتدبروها، فمن حسن قراءته إلى حسن فهمه إلى حسن تدبره، و هذا معنى الآية.

معاني الآية:

(إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

لهذه الآية معاني كثيرة، و الحقيقة أن الليل هو وقت النوم، والفرش يغري ويجذب الإنسان إليه، والاسترخاء في الفراش أمر يتوافق مع حاجيات الجسم، فإذا أمر الإنسان أن يقوم الليل والناس نيام ففي هذا الأمر كلفة، و لكن.. ما من شيء يوصلك إلى مرتبة عالية إلا فيه مشقة بالغة.

1- المعنى الأول:

إن نيل الشهادة العليا اليوم أمر يحتاج إلى وقت مديد و سهر طويل و جهد جهيد، فالمراتب العليا تحتاج إلى بذل جهد، ففعل المعنى الأول لهذه الآية يقول: إن تكليفك أنت وأصحابك بترك الفراش والصلاة نصف الليل، أمر فيه كلفة ومشقة، لكن طريق المقام المحمود هو صلاة الليل.

قال الله عز وجل:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79))

(سورة الإسراء)

إن المراتب العليا عند الله عز وجل تُنال من هذه الساعات التي يقضيها الإنسان في ذكر الله وتلاوة قرآنه والاتصال به، فالمعنى الأول يقول: إننا حينما كلفناك قيام الليل كان هذا التكليف ثقيلاً على الجسد لكن مريحاً للنفس، ودائماً الأشياء التي تريح الجسد تتعب النفس، فإذا الإنسان أطلق نظره في الحرام استمتع بمنظر الحسنات، ولكنه إذا جاء يصلي وجد بينه وبين الله حجاباً كثيفاً، فإذا استجبت لرغبات الجسد أتعبت نفسك، أما إذا ضبطت جوارحك فإنك تريح نفسك، و راحة النفس في طاعة الله، بل إن أوامر الدين في معظمها تتناقض مع طبع الإنسان و تتوافق مع فطرته، أوضح مثل على ذلك أن من صلى الفجر في جماعة وعاد إلى النوم شعر بسعادة، ثم يستيقظ الساعة التاسعة وهو في رحمة الله، أما لو ترك صلاة الفجر واستيقظ الساعة التاسعة فإن جسمه يستيقظ مرتاحاً، و لكن كيف حاله مع الله عز وجل عند استيقاظه ؟ إنه يشعر أن الشيطان بال في أذنه.

إن التكاليف متعبة للجسد مريحة للنفس، و التكاليف كلها تتناقض مع الطبع و تتوافق مع الفطرة، هذا المعنى الأول للآية:

(إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

فهناك تكليف، فقد يحب الإنسان أن يقال له: دكتور أو بروفيسور أو أستاذ جامعي، وهذا كلام طيب، فهو يريد أن تكون له مرتبة في المجتمع، و هذه المرتبة العالية في العلم تحتاج إلى ثلاث وثلاثين سنة من الدراسة والامتحانات والقراءة والتلخيص والتأليف والمتابعة، فكل شيء تناله في الدنيا أو الآخرة يحتاج

إلى بذل جهد، وسلعة الله غالية، ومن ظنّ أن الجنة تنال بعبادات جوفاء أو صدقات يسيرة يدفعها وهو غافل عن الله، فهو إنسان واهم

((ألا إن سلعة الله غالية))

((ألا إن سلعة الله غالية))

((ألا إن سلعة الله غالية))

وقال تعالى:

(لَنْ تَأْلَوْا الْبَرَ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران 90)

2- المعنى الثاني:

أي: إنا سنلقي عليك القرآن في قيام الليل، والقرآن قول ثقيل ومنهج كامل، الناس يحبون التقلت، لأن التقلت ليس مقيداً بشيء، فالتقلت يأكل ما يشتهي وينام حينما يشتهي ويستيقظ متى يشاء و يتكلم ما يشاء و يكسب المال من أي طريق شاء و ينفقه على أي شكل شاء، و يلتقي مع من يشاء ويرفض من يشاء، فحياة التقلت مريحة لكن حياة التقيد بمنهج الله تحتاج إلى إرادة وإلى جهد، لكنها مسعدة، فالقرآن الكريم منهج كامل.. و منهج الله عز وجل الكامل يتدخل في أدق خصوصيات حياتك، وأكثر الناس اليوم يتوهمون أن منهج الله عز وجل هو الصلاة والصوم والزكاة والحج، فمن قال لك أن هذا الدين العظيم الذي أنزله الله على نبيه الكريم هو هذه الفرائض الخمس، أكاد أقول ولا أبالغ إن الدين هو مائة ألف بند في كسب المال و إنفاقه، وفي العلاقة الزوجية و تربية الأولاد، والعلاقة مع الجيران وفي مناسبات الحزن و مناسبات الفرح، في الزواج و الطلاق، في السفر والإقامة في نظافة جسمك، وضبط لسانك، وضبط جوارحك، إنه منهج متكامل، فحينما ضغط المسلمون هذا المنهج إلى خمس بنود كانوا في مؤخرة الأمم، أما حينما طبقوا منهج الله في كل أمور حياتهم فقد وصلوا إلى أعلى المراتب، ومصيبة المصائب اليوم أن الدين في المساجد فقط، أما البيوت بيوت المسلمين فهي غير إسلامية، وأسواقهم غير إسلامية، وتجاراتهم غير إسلامية، وهذه المسافة بين الدين والحياة هي التي جعلت المسلمين وراء الأمم.

فالمعنى الأول يقول: تكليفك يا محمد بقيام الليل هو تكليف ثقيل على الجسد لكنه مريح للنفس، وهناك مثل في التربية يقول: إن كل شيء كان شاقاً على النفس في البداية فهو مريح لها في النهاية، وإذا كان سهلاً على النفس في البداية كان متعباً في النهاية، و أوضح مثل على ذلك هو تعلم الآلة الكاتبة، فلو أنك لم تتعلم بمنهج صحيح لضربت بإصبع واحدة، ولو بقيت على هذه الحالة مائة سنة لاحتاجت الصفحة إلى ساعة لتقوم بكتابتها، أما حينما تذهب لتتعلم استعمال الآلة وفق منهج صحيح و خبرة عميقة، فتكون

عينك على النص وأناملك على أزرار الآلة، فالتعلم في البداية صعب جداً، لكن هذا التعلم الصعب ينتهي إلى راحة كبيرة، فإذا أثرت الطريق السهل فضربت على الآلة بإصبع واحدة فإنك تبقى عشرين سنة تضرب عليها و تحتاج الصفحة منك إلى ساعة وإلى ساعتين، فكل شيء متعب في بدايته مريح في نهايته، والعلماء يقولون من لم تكن له بداية محرقة فلن تكن له نهاية مشرقة، فالمعنى الأول هو مجرد تكليف، فقيام الليل أمر ثقيل، لأنه يكون في وقت النوم والراحة، والفرش يغري لأن تنساق إليه و تستلقي عليه و تنعم بالدفء في الشتاء، أما حينما تنزع عنك الغطاء وتنهض لقيام الليل فهذا معاكسة لطبيعة الجسم لكنه موافق لطبيعة النفس.

المعنى الثاني: إن هذا القرآن الكريم منهج تفصيلي يحتاج تطبيقه إلى جهد وإرادة وضبط و يقظة.

3- المعنى الثالث:

قولاً ثقيلاً: أي ثقيل في خيره، فالإنسان قد يهدي لأحدهم قلم رصاص، وقد يهديه أحياناً هدية سيارة غالية جداً، فنقول: هذه هدية ثمينة؛ أي: ثمنها غال جداً و لها نفع عظيم، فالمعنى الثالث يقول: إن الذي يأتيك من قيام الليل شيء ثمين جداً.

4- المعنى الرابع:

ثقيل ؛ أي: مبارك فيه خير كثير، ولحكمة أرادها الله عز وجل كان الوحي حينما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ثقيلاً عليه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يركب ناقه، فلا تحتل الناقة -على عظم وزنها- الوحي، فكانت تبرك، لأن الوحي ليس شيئاً في المنام.. و ديننا كله وحي، فلا بدّ لهذا الوحي من أن يكون واضحاً جداً، وأشد أسباب وضوحه أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في أيام البرد القارص إذا نزل عليه الوحي تصبب عرقاً، وكانت ناقته تبرك على الأرض لثقل هذا الوحي، و هذا هو المعنى الأخير لقوله تعالى:

(إِنَّا سَلَقِيكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

إن هذا الوحي ثقيل، فقيام الليل أمر يثقل على الجسد أيضاً..

فهذا القرآن الكريم منهج تفصيلي كامل، يحتاج إلى إرادة وجهد كبيرين، و هذا القرآن الكريم ثقيل من حيث الخير والبركة، وأخيراً: هذا القرآن الذي نزل عن طريق الوحي كان له وقع شديد على النبي عليه الصلاة والسلام:

(إِنَّا سَلَقِيكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا

طويلاً (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 6-14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-11-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات قيام الليل

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث من سورة المزمل ومع الآية السادسة وهي قول الله تعالى:

(**إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)**)

أيها الأخوة الكرام... الآية الثامنة في هذه السورة هي:

(يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلُ)

و ناشئة الليل: هي الصلاة في الليل، سواء كانت في أول الليل أو في منتصف الليل أو في آخر الليل، وذلك لأن الليل سكن، فأصبح ظرفاً مناسباً للاتصال بالله، فالمشاغل منقطعة والعلاقات ضعيفة، وكل إنسان انصرف إلى بيته، فهذا الذي يذكر الله عز وجل في الليل هو على شوق إلى الله تعالى، كما أن الوقت في الليل مناسب والصفاء موفور..

فلذلك قال تعالى:

(**إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)**

أشد وطناً ؛ أي: أعظم أثراً، ويمكننا أن نفسر هذه الآية مستعينين بالمثل الآتي: إنسان كتب اسمه على الماء بإصبعه، فكم من الزمن يبقى هذا الاسم ؟ أقل من ثانية، ويقولون في المثل: كالكتابة على الماء، و إنسان آخر كتب اسمه بريشة على ورق، فمع الأيام يضعف أثر هذا الحبر، وقد تتمزق الورقة، أما لو حفر اسمه على رخام فقد يبقى هذا الاسم محفوراً آلاف السنين، وعندنا الآن آثار كانت قبل الميلاد بآلاف السنين، وقد ظلت النقوش التي على الحجر كما هي، وأردت من هذه الأمثلة أن أقول: إن الذي ينشأ في صلاة الليل غير الذي ينشأ في صلاة النهار.

(**إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)**

وطناً: وقعاً ؛ أي: هي أعظم أثراً و أعظم ثمرة، و الليل هو الوقت الذي يكون بين من المغرب وحتى الفجر، فمن صلى المغرب والعشاء والفجر كان كمن حقق جزءاً من هذه الآية، فكأنه صلى قيام الليل لأن هذه الصلوات تكون في الليل، وهذا الوقت وقت راحة فالذي يصلي فيه يؤكد أن طاعة الله واللقاء معه أعلى من الفراش.

المعرفة الكسبية والإشراقية:

و يحصل الإنسان في الليل معرفة إشراقية، وهناك معرفة كسبية ومعرفة إشراقية، فنجد الإنسان أحياناً يقول: لمع في فكري وعقلت هذه الحقيقة وتشبثت بها، و ينبغي على الإنسان أن يكون أثناء الصلاة هكذا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما ورد عنه:

((ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها))

وحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء 43)

فأنت في الصلاة تعلم ما تقرأ، فالذي ينشأ في صلاة الليل غير الذي ينشأ في صلاة النهار. وبالمناسبة أقول: يمكن الإنسان أن يصلي، لكن هذه الإشراقات التي تكون في الصلاة ليست بيده وهو لا يملك لها جلباً ولا دفعاً، فهو لا يملكها لأنها بيد الله عز وجل، ويتفضل الله عليك بها من حين لآخر، فيسمح لعباده بها في مناسبات معينة و أسباب معينة، وقد ورد:

((أن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها))

فعرض نفسك لهذه النفحات، باستقامتك على أمر الله، وإقامتك لهذه الصلوات، و لحكمة بالغة بالغة تأتي قد هذه الإشراقات كثيفة مجتمعة أحياناً فلا تعرف تواترها، وقد تأتي قليلة أحياناً أخرى، كما أنها قد تنقطع عنك، وهذا من حكمة الله عز وجل، فإذا كان هناك معصية فإنها لا تأتي، لأن الإنسان يكون محجوباً عن الله عز وجل، و إذا كان هناك مخافات و تقصيرات في حقوق العباد فإنها تخفت أيضاً، فهي متعلقة بك، و قد لا تأتي هذه النفحات إطلاقاً لأن الله سبحانه وتعالى لا يتجلى على عبد ظالم لنفسه واقع في المعاصي والآثام، تارك لما عليه من حقوق، فإذا كان هناك تقصيرات ومعاص خفتت هذه التجليات و النفحات الإلهية، أما إذا كان هناك استقامة والتزام فإن النفس تنتهي للتعرض لها، و هذه النفحات قد تأتي وقد لا تأتي، فعليك أن تكون مطيعاً لله مؤدياً الذي عليك، ثم اطلب من الله الذي لك ؛ أد الذي عليك من الصلوات، ودع الله عز وجل بحكمته يتجلى عليك ببعض النفحات من حين لآخر، و قد تكون أحياناً قليلة وقد تكون كثيفة متفاربة، وهذا تابع لحكمة الله عز وجل، فإذا كنت مستقيماً ملتزماً مؤدياً لما عليك أذاقك الله بعضاً من هذه النفحات.

يقول بعض العرفين بالله: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "، ويؤكد هذا قول الله سبحانه وتعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد 6)

لقد عرفوها في الدنيا فذاقوا طعمها، والجنة في الحقيقة هي القرب من الله عز وجل في الدنيا والآخرة، فالذي يقترب من الله يذوق طعم قربه، ولا شك أن كل مؤمن صادق تأتيه هذه النفحات من حين لآخر، وقد سماها الله عز وجل في قرآنه:

(أَيَّامَ اللَّهِ)

فقد يكون للإنسان مع الله أحياناً حال نفسي عال، من ابتهالات و مناجاة، وتأتي النفحات من خلال هذه الحال.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

ماذا نستفيد من هذه الآية ؟

إن الإنسان إذا أراد أن يصلي كان عليه أن يكون متفرغاً للصلاة، فلو جاءته رسالة ولم يفتحها، فالأولى له أن يقرأها ثم يصلي، لأنه قد ينشغل بها أثناء الصلاة، وإذا كان جائعاً وأمامه طعام تنتوق إليه نفسه فينبغي عليه أن يأكل ثم يصلي، وإذا كان عنده مشكلة لا يدري ماذا سيكون من أمرها فعليه أن يبحث عن أمرها ثم يصلي، فالعبرة أن تصلي وأنت متفرغ للصلاة، لا أن تكون منشغل الفكر في الصلاة، و نرجو الله سبحانه وتعالى أن نذوق من الصلاة التي أرادها الله عز وجل الشيء الكثير، و الصلاة عماد الدين، فمن أقامها أقام الدين ومن تركها هدم الدين، و لا خير في دين لا صلاة فيه، و هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، و هي الشحنة اليومية التي تستمد منها قوة وعزيمة وسعادة وأمناً وتوازناً، لذلك كان بين المصلي وغير المصلي بون شاسع كبير، لأن الذي لا يصلي منقطع عن الله فتراه في تيه و قلق و حيرة و ضياع، لأن هدفه غير واضح، و نفسه غير متوازنة، أما المتصل بالله عز وجل فهو إنسان آخر، لذلك يمكنك أن تقسم الناس الناس على اختلاف أنواعهم ومشاربهم وأجناسهم وأعراقهم وألوانهم وثقافتهم إلى رجلين، رجل موصول منضبط بمنهج الله محسن لخلق الله فهو سعيد في الدنيا والآخرة، و رجل مقطوع متفلت من منهج الله مسيء لخلق الله فهو شقي في الدنيا والآخرة، فالعبرة أن تصلي الصلاة التي أراد الله عز وجل، و أنا لا أكلفك أن يكون في كل صلواتك نفحات، ولكن الذي تملك هو أن تستقيم قبل الصلاة، لتعرض نفسك لتلك النفحات بشكل دقيق، فإما أن الله سبحانه وتعالى يتفضل عليك عندئذ بتلك النفحات، أو يؤخرها عنك لحكمة بالغة، فأنت عبد الفتاح وليس عبد الفتاح كما يقولون.

((اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني في ما تملك ولا أملك))

وإذا صلى الإنسان الصلاة في وقتها وأسبغ الوضوء وأتقن الركوع والسجود ووقف خاشعاً أو متخشعاً فقد حقق المراد من الصلاة، أما الفتوحات والنفحات والتجليات فهذه يهبها بحكمة بالغة لمن يشاء من عباده.

وناشئة الليل: صلاة الليل، فيمكن للإنسان أن يصلي العشاء في جماعة والفجر في جماعة فيكون كأنما صلى الليل، كما يمكن له أن يصلي قبل أن ينام، ويمكن أن يصلي قبل الفجر، وهذا كله من قيام الليل، ففي قيام الليل لك أن تصلي ركعتين أو أربع أو ثمان، وهكذا...

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

أقوم قِيلاً..

إن صحَّ وجاءتك النفحات في صلاة الليل فأنت ملكة شيئاً مؤثراً تقوله للناس في النهار..

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

إن ألفاظ القرآن تؤخذ من حفاظه، كما أن معانيه تؤخذ ممن يعانيتها، فإذا تلوت القرآن في الصلاة وعانيت ما في هذه الآيات من معان نبيلة وحكم ومواعظ وحقائق وأوامر ونواه وتوجيهات، وحلال وحرام، وجاءتك بعض النفحات الإلهية وأنت تصلي، فعندئذ تملك شيئاً لتقوله، من كلام سديد مقنع مؤثر.

فالصلاة التي تقيمها في ناشئة الليل وأوقات الليل المتتابعة هي أشد تأثيراً في النفس وأقوم قِيلاً إذا تكلمت، فقد يتكلم الإنسان أحياناً من ورقة أو من شيء قرأه أو سمعه، لكن الإنسان الذي يصلي صلاة حقيقية إذا تكلم عن الله عز وجل تكلم مما عرف عنه بصدق وإخلاص وقوة تأثير..

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

وقد يسأل سائل.. كيف لي أن أؤثر في الناس؟ إنك إذا تكلمت عن شيء تعيشه أو تعانيه فإنك تتكلم من قلب حي، فأنت لك مع الله تجربة رائعة، فيها معاناة ومواقف وصلة، فإذا أردت الكلام تكلمت كلاماً مؤثراً، والشيء الذي يحير أن هناك أناس يحصلون ثقافات عالية جداً، ومع ذلك لا يؤثرون في الذين يكلمونهم إذا تكلموا، لكن الإنسان المتصل بالله عز وجل قوي، وقد يؤثر في الناس أضعاف تأثير الإنسان الذي حصل شهادات عالية، وقد مرّ من قبل أن حال امرئ صادق في ألف رجل و هي أقوى من ألف لسان، ولو كان هناك ألف رجل بلا معاناة ولا صدق ولا إخلاص فإنهم لا يفلحون في التأثير في رجل واحد، وإذا كان هناك واحد يصلي الليل، ويتصل بالله عز وجل ويستقيم على أمره، وجاءته النفحات فإنه بإمكانه أن يؤثر في ألف رجل، فألف قول في رجل لا تساوي حالاً في ألف رجل.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

والإنسان حينما يتصل بالله ويكون على معرفة به يتناسب كلامه مع إخلاصه وطلبه، فإذا تكلم عن شيء كان له منطق وقوة بيان وحجة، وأجمل ما في الحياة أن تعرف الله وأن تعرف الناس بالله، وأن يكون لسانك رطباً بذكر الله، وأن تكون جندياً للحق، وأن تدعو إلى الله، وأن تكون سبباً في هداية الخلق، وأن تكون في قلب كل إنسان، ألم يقل عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل 120)

اسأل نفسك هذا السؤال، في قلب كم إنسان توجد، هناك من الناس من ليس له هم إلا نفسه وبيته، وهناك إنسان همه الخلق، فهل لديك رغبة جامحة أن تحدث تأثيراً في الآخرين لتنتقلهم من حال إلى حال، ومن جانب إلى جانب، ومن طريق إلى طريق، ومن اهتمام إلى اهتمام، من انشغال إلى إقبال، ومن ضياع إلى وجدان، إن هذا الذي يريد ذلك يمكنه الله عز وجل مما يريد ويعطيه الوسائل، ويعينه على مهمته، فالإنسان ضعيف بنفسه قوي بالله، والإنسان لا حكمة له لكنه حكيم في الله، وليس عنده قوة تأثير لكنه حينما يخلص يمنحه الله قوة تأثير، وكل هذا الكلام يحوم حول معنى واحد، وهو أنك إذا اتصلت بالله شُحنت، فإذا شُحنت أفرغت هذه الشحنة في الخلق، فيتألقون ويستقيمون ويهتدون ويسعدون، فشتان بين من يدعو إلى الله ومن يدعو إلى النار، إن الذين يدعون الناس إلى الفجور والمعصية والانغماس في الدنيا هم دعاة إلى النار.

معاني الآية:

(إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)

1- المعنى الأول:

إن الحركة وكسب المال وحل مشكلات الحياة وشراء المنزل وترتيبه وتأسيس عمل إنما يكون في النهار " إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل " فإذا احتج الإنسان بكونه مقدماً على أعمال أو زواج أو دراسة طويلة قلنا له إن النهار يكفي لهذا كله، فحركة الإنسان في النهار واسعة جداً، والنهار لشؤون الدنيا.. فادرس وتاجر وأسس وحصل رزقك في النهار، لأن الليل لله والنهار لك، وهذا المعنى الأول.

2- المعنى الثاني:

إذا قمت الليل ولم تنم النوم الكافي نقول لك: إن لك في النهار مجالاً للنوم، فقد يأخذ الإنسان أحياناً قيلولة ليستعين بها على قيام الليل.

((استعينوا على القيام بالقيلولة وعلى الصيام بالسحور))

فمن الممكن أن يعوض لك النهار شيئاً من التعب، ومن الممكن أن تحل فيه مشاكلك الدنيوية.

3- المعنى الثالث:

يمكنك أن تعوض الذي يفوتك من صلاة الليل في النهار، فإذا فات الإنسان أن يصلي الليل فمن الممكن أن يصلي الضحى أو صلاة الأوابين أو أن يجلس بين المغرب والعشاء يذكر الله عز وجل، فمن الممكن

أن تعوض ما فاتك من الليل في النهار، ويمكن أن يكون النهار معواناً لك على قيام الليل، ومن الممكن أن تتحرك في النهار حركة للحياة الدنيا.

4- والمعنى الرابع:

وهو معنى دقيق جداً يقول: إن النفحات التي حصلت في الليل من اتصال بالله ومعرفة به واستغراق في شهود جماله يمكن أن تكون موضوعاً لحركتك في النهار، فمن ممكن أن تقول للناس وافعلوا ولا تفعلوا، فإذا حدث معك شيء في الليل فإنك تتكلم به في النهار، فالذي حصلته في الليل تنشره في النهار، وهذا المعنى الرابع. إذاً، قال تعالى:

((إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7)))

والآن تطورت حياتنا فصار ليل الناس نهاراً ونهار الناس ليلاً عن طريق الوسائل الحديثة التي قلبت الموازين، فإذا فات الإنسان النوم باكراً صلى الفجر متعباً، ويكون قد فاتته أجمل ما في النهار، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا))

(مسند أحمد 7412)

فأجمل ما في الحياة هو ساعات الفجر وما قبل الفجر وما بعد الفجر، وهذا يحتاج إلى نوم مبكر، فالذي ينام مبكراً يستمتع بهذه الساعات، فالإنسان الذي يسافر قد يحتاج بحكم السفر أحياناً إلى أن ينام في الساعة التاسعة ويستيقظ الساعة السادسة بأعلى درجات النشاط، فالتصميم الإلهي هو أن تنام باكراً وأن تستيقظ باكراً لكي تتصل بالله.

((إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8)))

لاشك أن ذكر اسم الله عز وجل ليس المقصود منه أن تقول (الله) بقلب غافل، فهذا لا يرضي الله عز وجل ولا يحقق ثمرة من ثمار الذكر، وقال العلماء: الذكر هو أن تذكر الله بلسانك على أن يكون قلبك خاشعاً؛ أي: ذكر اللسان مع حضور القلب.

معاني البسمة:

1- المعنى الأول: وهو الأوسع:

إنك إن أردت أن تشرب فاذا ذكر اسم ربك واذكر هذه النعمة، ثم اذكر كيف شرب النبي، و إن أردت أن تأكل فاذا ذكر اسم ربك و قل: إني آكل هذا الطعام باسم الله، وذلك لأن الله خلقه وجعله مناسباً لجسمي وممكنني من شرائه وجعله سائغ المذاق سهل الهضم، ولولا ذلك لما أكلته، فقل: **(بسم الله الرحمن**

الرحيم)، وأجمل ما في البسملة أنها تعرفك بالله وبمنهج الله معاً، فهذا الكأس الذي أشربه أقول عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا ماء جعله الله عذباً فراتاً وقد كان ملحاً أجاجاً، فأنا أشربه بسم الله، لأن انتقاله من حالة الملوحة إلى حالة العذوبة ليس بيدي ولا بيد الناس، بل هو من فعل الله عز وجل، فبسم الله صار هذا الماء عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً.

إن الفلاح يضع البذرة في الأرض فينبئها الله جلّ جلاله، فالبذرة صغيرة تنبت شجرة تعطيك ثمار وفواكه، وهذه البذرة نبتت باسم الله ؛ أي: بفعل الله وعلمه وقدرته وإرادته، وهذا معنى بسم الله، فإذا أردت أن تستعمل أي شيء أمامك فاذكر اسم الله عليه، فإن كان مأكولاً وأردت أن تأكله فاذكر اسم الله، وإن كان مشروباً وأردت أن تشربه فاذكر، وإن كان ذا منظر جميل وأردت أن تستمتع بها فقل بسم الله الرحمن الرحيم، فمن جعل هذه الوردة الجميلة برائحتها ولونها؟ من صممها ؟ إنه الله جلّ جلاله، فمن معاني البسملة أن تذكر نعمة الله عليك، لأن هذا الذي حصل ليس بقدرتك بل بقدرة الله، فتحول الماء من ملح أجاج إلى عذب فرات ليس بعلمنا وليس بقدرتنا بل بعلم الله وقدرته ولطفه، فكل شيء الله عز وجل.

2 - المعنى الثاني:

كيف شرب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ لقد شرب على ثلاث دفعات، وهذه السنة، فالبسملة تذكرك بنعمة الله ومنهج الله، هذا معنى آخر.

واذكر اسم ربك: على كل شيء، فإن خرجت من البيت فاذكر اسم الله عز وجل وقل: اللهم إني أعوذ بك من أن أضلّ أو أضلّ، أو أذلّ أو أذلّ أو أجهل أو يجهل عليّ، وإن دخلت بيتك فاذكر اسم الله... وإن ذهبت إلى عملك.. وإن سافرت.. وإن لبست جديداً.. وإن جلست إلى الطعام.. وإن أردت أن تؤدي عملاً عظيماً.. أو أن تفعل أي شيء فاذكر اسم ربك، فتذكر نعمة الله وتذكر منهج الله، والذكر يكون باللسان وبالقلب معاً ؛ أي: باللسان مع القلب الحاضر، وهذا هو الذكر المقبول.

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)

ما التبتيل ؟

التبتيل هو الانقطاع، فلا بدّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله والاتصال به، والذي لا يجد في حياته وقتاً لمعرفة الله وحفظ القرآن وتعليمه، ولا يجد وقتاً للعمل الصالح والأمر بالمعروف، هو الإنسان ميت لكن بصورة حي، فلا بدّ من التبتل والانقطاع، ولا بدّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)

(سورة الفرقان63)

ومعنى يمشون هوناً ؛ أي: يقتطعون من وقتهم وقتاً لطاعة وحضور مجلس علم والدعوة إلى الله، ومطالعة كتاب علمي ثمين جداً، وقراءة القرآن، فالإنسان له حاجات يومية من أكل وشرب ونوم وترتيب بيت وتحقيق رزق، وهذه نشاطات يفعلها كل الناس، أما المؤمن فيتميز بأنه يأخذ وقتاً لمعرفة الله و طاعته وتعريف الناس به، ويبذل وقتاً سخياً في سبيل هذا.

وقد ذكرت شيئاً عن أهمية التبتل قبل أسبوعين في درس الأحد، الذي كان بعنوان **(الخلوة)**، فلا بدّ من أن تخلو مع الله ولو لوقت قصير كل يوم، و هذه الخلوة تتصل بها بالله فتذكره، و تذكر أين كنت وإلى أين المصير ؟ ولماذا ؟

من هذا الذي تتبتل إليه ؟ إنه خالق السماوات والأرض و الأكوان، وقد ورد في أحدث التقديرات أن في الكون مليون مليون مجرة، وفي المجرة مليون مليون نجم، والمجرة التي نحن فيها متواضعة جداً، واسمها درب التبانة، وعلى هذه المجرة التي على شكل مغزل (عضلة) نقطة هي المجموعة الشمسية بأكملها، و إذا أرادوا أن يرسلوا مركبة إلى المشتري فإنها تحتاج إلى سبع سنوات من أجل أن تصل إليه، وهي تنطلق بأعلى سرعة بلغها الإنسان: أربعين ألف ميل في الساعة ؛ يعني ستين ألف كيلو متر، مع أن أسرع طائرة تسعمائة كيلو متر في الساعة، لنكون بذلك قد قطعنا من الأرض إلى المشتري ضمن النقطة التي على درب التبانة !! فالذي أمرت أن تتبتل إليه هو خالق السماوات والأرض.

رب المشرق والمغرب...

(رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

إنه رب هذا الكون.. و الإنسان أحياناً قد يعجب ممن عرف الله ثم لا يحبه، أو لمن عرف ما عنده ثم زهد فيما عنده، أو لمن عرف ما ينتظره إذا عصاه ثم يتورط في معصيته..

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

أي: لا يوجد غيره ؛ فلا توجد حقيقة أخرى غير هذا الإله العظيم، و لا يوجد منهج آخر إلا منهج هذا الإله العظيم، و لا توجد جهة مسعدة إلا هذا الإله العظيم، فهذا هو الذي أمرت أن تذكره وتتبتل إليه، إنه خالق الأرض والسماوات، وبالتعبير المختصر نقول: لا يوجد إلا الله، والله كبير، فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله شيء ؛ فلا يرى معه معطياً ولا مانعاً ولا معزاً ولا مذلاً ولا مسعداً، فهو الحقيقة الوحيدة في الكون، و هو الجهة المسعدة، لذلك كان ذلك الذي أمرت أن تذكره وأن تتبتل إليه تبتيلاً هو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو.

إن كل الأشخاص الذين تراهم عينك والذين تتوهم أنهم أقوياء هم في قبضة الله، قال تعالى:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه 46)

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أنت مدعو إلى الخالق ؛ خالق الأكوان، و ملك الملوك القدير العزيز الغني الكريم.. الرحيم...

الوكيل:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

ألا ترضى أن يكون الله وكيلك ؟؟ إن كان الله وكيلك فأنت أقوى الناس، و إن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، فليس هناك أسعد من إنسان سلم أمره إلى الله و حرص على طاعة الله وسلم أمره لله، إنه يكون بذلك أقوى الناس.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

لا تعلق الآمال بأشخاص في الأرض لأنهم ضعفاء مثلك، وقد يكونون أقل وفاءً لك مما تظن، بل علق الآمال بالله عز وجل، واجعل الله عز وجل محط الرحال ونهاية الآمال.

(وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(9))

أيها الأخ الكريم... إنك أقوى إنسان إن اتخذت الله وكيلًا، و أسعد إنسان إن اتصلت بالله، وأعظم إنسان إذا عملت لله، و لا يليق بك أن تعمل لغير الله، ولا أن تكون محسوباً على غير الله، ولا أن تكون مجبراً لغير الله، فأنت المخلوق الأول.

الصبر على الجاهلين:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10))

إن الجهال كثيرون والمنحرفون أكثر، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فاصبر على هؤلاء، والصبر من صفات المؤمن، فاصبر عليهم وتمنى هدايتهم، واشكر الله عز وجل على أن نجّاك من هؤلاء ولم تكن مثلهم، ففي هذا الوقت قد يكون هناك أناس كثيرون في الملاهي والنواصي الليلية، يرتكبون الموبقات ويتوهمون أنهم سعداء وهم في الوحول.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)

وهناك أناس كثيرون لا يعرفون الله، فهم لا يعرفون إلا المادة والدرهم والدينار، لقد كان هناك مسلم في أمريكا جالس في حديقة عامة، فجلس إلى جانبه إنسان من تلك البلاد فسأله عن دينه فقال له: أنا مسلم، فقال له: حدثني عن الإسلام، فحدثه ساعة وقد كان العلماء الكبار، ثم قال له: ما رأيك، فأخرج من جيبه دولاراً وقال: هذا إلهي الذي أعبد من دون إلهك.

فهناك أناس جهال، قد يكون الدرهم والدينار إلههم، وقد تكون المرأة إلههم، فالذي كرمه الله عز وجل بمعرفته، وأكرمه بعقيدة صحيحة ومنهج منضبط، فسلك مسلماً قوياً كان هذا بالنسبة له نعمة لا تعدلها نعمة.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا
(11))

تهديد....

إن هؤلاء المعاندين هم الأعداء الألداء العصاة المكذبون الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم..
فهؤلاء.. دعهم يا محمد لي، قال تعالى:

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13))

إن أخطر كلمة في القرآن الكريم هي قوله تعالى:

(وَذُرْنِي)

أي: دعه لي يا محمد، فأنا أربيه.. أنا أداويه.. أنا أحمله على التوبة بطريقة صعبة جداً، قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة 286)

هناك أمراض تشيع بين الناس كل مرض فيها (يُنسي الإنسان حليب أمه)، فهناك آلام لا تحتمل، وهناك
أمراض عضالة و مشكلات..

(وذرني): هي كلمة تهديد من أعلى درجة.. دعه لي..

فإن دعيت إلى الحق فاستجب، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

إذا دعيت فاستجب وإلا انطبق على هذا الإنسان قوله تعالى:

(وَذُرْنِي)

أي: دعه لي، فإذا دعيت إلى طاعة الله و الاستقامة على أمره وأنت في صحة وعافية ونشاط وبحبوبة
فاستقم و استجب و آمن و صلّ و طبق أمر الله عز وجل، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص 50)

عندئذ ينطبق عليهم قوله تعالى:

(وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

(سورة البقرة 126)

وقال تعالى:

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أُغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ (29) خُدُوهُ فَعُلُوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة 27-33)

(إِن لَّدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13))
(إِن لَّدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا)

أي: قيوداً تنكل بالإنسان.

(وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ)

أي: لا يستساغ..

(وَعَذَابًا أَلِيمًا)

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا)

هذا اليوم يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم الحق و الدينونة، يوم الجزاء، يوم إنصاف المظلومين، يوم البطش للظالمين، يوم إحقاق الحق، يوم الحسم، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الحج 17)

يوم ينتهي فيه الكذب الدجل، و إن اسم الله الحق لا يتحقق كاملاً إلا يوم القيامة، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)

(سورة يونس 4)

محور الدرس:

أيها الأخوة الكرام... إن محور هذا الدرس هو أن صلاة الليل أعمق أثراً في النفس، وأن ضوء النهار مجال واسع للعمل الصالح وكسب الرزق، وأنتك يجب أن تنقطع لله سبحانه وتعالى، فهو أهل أن تنقطع لعبادته والتفكير في خلقه، لأنه خالق الأكوان الواحد الديان، فهو الحق وحده ولا حق سواه، فإذا اتخذته وكيلاً فأنت أقوى الناس، أما الذين ينتمون إلى الطرف الآخر فهم الجاهلون الضالون الشاردون فاصبر عليهم وادع لهم بالهدى: " اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون "، أما هؤلاء المعاندون المكذبون الضالون المضلون الفاسدون، فينطبق عليهم قوله تعالى:

(وَذُرْنِي)

أي: دعهم لي يا محمد.

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

ليست نعمة ولكن نعمة ؛ أي: نعمة، وهذا اسمه الاستدراج، فإن رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره.

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14))

يعني كالعهن المنفوش، وفي درس قادم نتابع تفسير هذه الآيات:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا (16))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 15-19

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-12-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

توافق الرسالات مع الفطرة

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الرابع من سورة المزمل، ومع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)

شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد خلق الله جلّ جلاله الخلق ثم أرسل إليهم رسلاً ليعرفهم بذاته، وليعرفهم بطريق سعادتهم، بل ليعرفهم بطريق سلامتهم، فرحمة الله عز وجل تقتضي أن لا يدع عباده من دون تحذير و توجيه و منهج قويم، فإرسال الرسل دليل على رحمة الله عز وجل، فالأب أحياناً قد يرى ابنه يقترب من المدفنة فلا بدّ له من أن يحذره ويوجهه، وربنا عز وجل يقول:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا)

غير أن الله عز وجل في آية أخرى يقول:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا)

(سورة آل عمران 164)

ومعنى هذا أن الإنسان قد أودع الله فيه العقل، فلو استعمل الإنسان عقله وفق ما خلق له عرف ربه، فلإنسان فطرة عالية، ولو أنه أبقاها سليمة لعرف من خلال فطرته ما إذا كان على حق أم على باطل، قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(بَلِّغْ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ)

(سورة القيامة 14)

فلا يمكن للإنسان أن تخدع نفسك، إنها تعرفك حق المعرفة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس 7-8)

فالنفس تعرف حالها إذا ما كانت متقية لله عز وجل أو فاجرة، فقد أودع الله فيك العقل، ولو أعملته وفق ما خلقه الله عز وجل لرأيت أنه متوافق في مبادئه مع مبادئ الكون، وعندئذ تصل إلى الله عن طريق

الكون وعن طريق الخلق، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم فلو درستته وتدبرته وفهمته لعرفت أنه كلام الله عز وجل، لأن أفعال الله تدل عليه، و كلامه يدل عليه، و خلقه يدل عليه، وفوق ذلك إنك مؤهل بإمكاناتك الفطرية، فعن طريق عقلك وفطرتك وخلق الله وأفعاله تعرف الله عز وجل، وقد امتنَّ الله تعالى على المسلمين أن بعث فيهم رسولاً، فقد يضع الأب ابنه في مدرسة راقية جداً في منهاجها و مدرسيها و نظامها ومرافقها و قاعاتها الواسعة و مخابرها العامرة بالمواد، وفوق كل هذه الميزات يضع الأب لابنه درساً خصوصياً وأستاذاً خاصاً.

فربنا عز وجل أعطانا العقل والعقل حجة، و أعطانا الفطرة وهي دليل، و أعطانا النظر في أفعاله، وأفعاله تدل عليه، و أعطانا كل شيء، ومع كل هذا أرسل فينا رسولاً شاهداً علينا، وهذا مما تقتضيه حكمة الله عز وجل، وقد أرسل هذا الرسول الكريم مرشداً ومحذراً وناصحاً ودليلاً وشاهداً لأنه رحمه رحيم، فلو وسعنا هذه الفكرة قلنا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ))

(صحيح مسلم 3544)

فلا يمكن للحق أن يفتقد من الأرض ولو للحظة واحدة، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ))

(صحيح مسلم 3544)

فالحق مستمر لكن دائرته أو تضيق، لكنه لا يتلاشى، فما عليك إلا أن تبحث عن أهل الحق..
من هم أهل الحق الذي ينبغي أن تبحث عنهم لتكون معهم ؟

1- العلامة الأولى:

قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس 20-21)

إن الدنيا غير مطروحة في العلاقات الإيمانية، فليس هناك مكاسب مادية ولا معنوية وليس هناك ثناء ولا شكر ولا امتنان:

(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

(سورة الإنسان 9)

فأحد علامات أهل الحق الذي ينبغي أن تبحث عنهم أنهم منزهون عن الأغراض الدنيوية.

2- العلامة الثانية:

إنهم لا يخافون في الله لومة لائم، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب39)

لو أن هؤلاء المعنيون بالدعوة إلى الله خافوا من غير الله، فسكتوا عن الحق خوفاً منهم وتكلموا بالباطل إرضاءً لهم لما بقي شيء من دعوتهم.. قال تعالى:

(الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب)

3- العلامة الثالثة:

وردت في قوله تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران 18)

فالعالم الحق هو الذي يشهد لك بعدالة الله و كمال الله، و يبين لك أسماء الله الحسنی.

4-العلامة الرابعة:

قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف 108)

فالدعوة بصيرة، فيها الدليل والتعليل والتوافق مع العقل والمنطق والواقع والفطرة، وكأن الحق دائرة تمر فيها خمس خطوط ؛ خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، فالحق يؤيده الموضوع الواقع، و تقبله الفطرة وبقره العقل، ويدعمه النقل الصحيح، فهناك نقل صحيح وعقل صريح وفطرة سليمة وواقع موضوعي، ولو ضيقنا الدائرة وجدنا شخصاً يقيم الحق وهو حجة على من حوله، لكنه قد لا يكون داعية، ولكنه رجل عادي في دائرة أو في شركة، لكنه مستقيم لا يأخذ درهماً حراماً، و يضبط لسانه وجوارحه، فالمستقيم حجة على غير المستقيم، و العفيف حجة على غير العفيف، و المنضبط حجة على المتفلت، فالله عز وجل لا يدعم الحق بأفكار تنشر في كتب فقط، بل يدعم الحق أيضاً برجال تكون الدنيا كلها تحت أقدامهم، لا يخافون في الله أحداً، ولا يأخذون الحرام، ولو كانوا بأشد الحاجة إلى المال، فالإنسان عليه أن يكون مع المؤمنين والدليل، قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا)

(سورة الكهف28)

وقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة119)

أيها الأخوة... إن هذه الأفكار مستنبطة من قوله تعالى.

مراحل الدعوة:

فالإنسان حينما يدعى إلى الله قد لا ينتبه إلى أن الذي يدعوه إلى الله شاهد يشهد عليه يوم القيامة أنه دعاه، وربنا سبحانه وتعالى حكيم في دعوة الناس إليه، فيبدأ معهم بالدعوة البيانية و الكلام ؛ فقد تقرأ القرآن، أو تستمع إلى خطبة جمعة، أو تستمع إلى درس تفسير، أو تقرأ كتاباً، أو تستمع إلى حديث في شريط، أو تقرأ مقالاً في مجلة، وكل هذه الأفكار التي تدعوك إلى الله هي دعوة بيانية وأنت صحيح معافى، فإذا لم يستجب الإنسان إلى هذه الدعوة البيانية اللطيفة السلمية فلا بدّ من دعوة أخرى بطريق آخر، وهو طريق التأديب، فيدخل الإنسان مع الله في طوراً آخر هو طور التأديب التربوي:

(وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة 21)

ثم إن الله عز وجل ينقل عبده إلى طور ثالث وهو الإكرام الاستدراجي، ثم يقصمه إن لم يستجب، فهنيئاً لمن يستجيب لله عز وجل ولرسوله من خلال الدعوة البيانية ن فهذا أعقل إنسان، لأنه يأتي إلى الله وهو في صحته وقوته و غناه و شبابه.

الداعية شاهد على المدعو:

إن الذي يدعوك إلى الله سيشهد عليك يوم القيامة، بل إن أقرب شيء إليك سيشهد عليك، قال تعالى:

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النور 24)

أعضاؤهم و جلودهم ستشهد عليهم، قال تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا)

و الإنسان أحياناً إذا كان قوياً و غنياً و صحيحاً استغنى، قال تعالى:

(كُلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق 6-7)

فالإنسان يستغني عن الله، إن رأى نفسه قوياً صحيح البدن، و الذي يدعو الله وقت الشدة فقط هو إنسان ضعيف، لأنه تذكر الله حين الشدة، أما في الرخاء فلم يتذكره مع أن بعض النصوص تقول: " من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة الأولى أن تعرفه في الرخاء ".

فرعون...

فهذا فرعون مثل للقوة قال: أنا ربكم الأعلى، ولي ملك مصر كلها:

(قَالَ يَأْقُومُ الْيَسَّ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ النَّهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَعُلا تَبْصِرُونَ)

(سورة الزخرف51)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص38)

فمع ملكوته و جبروته و عناده و غطرسته و استعلائه و استكباره جعله الله في أسفل سافلين، فقد قال تعالى:

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

هذا كلام دقيق... فمن أنت أيها الإنسان ؟ إن هذا هو مصير فرعون، وما أدراك ما فرعون ؟ ! إنه الجبار الطاغية الذي عبده الناس من دون الله و الذي قال أنا ربكم الأعلى:

(فَأَوْقَدْ لِي يَاهَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة القصص38)

ما هذا الجبروت ؟ و ما هذا الاستعلاء ؟ ومع ذلك أخذه الله أخذاً وبيلاً، فهو أشقى إنسان، فالذي يقف في خندق مضاد لخندق الحق و يعارض الحق و يريد أن يطفئ نور الله عز وجل هو أشقى إنسان، قال تعالى:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى)

فمراحل الدعوة هي: الدعوة البيانية.. التأديب التربوي.. الإكرام الاستدراجي.. وأروع شيء أن تستجيب لله عز وجل في مرحلة الدعوة البيانية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

فأي إنسان يدعوكم إلى الله هو شاهد عليكم، وقد لا ينتبه الإنسان أحياناً فيسأل فيجاب، فيترتب على هذا السؤال عذاب أليم إلى أمد طويل، وقد يُدعى أحياناً فيرفض فيندم أشد الندم، وقد قالوا: (هذا اليوم له ما وراءه)، فالإنسان أحياناً يأكل و ينام، فليس هناك مشكلة في هذا، لكنه قد يعقد صفقة تجعله مفلساً يتكفف الناس، و قد يقف موقفاً يجعله يقبع في غيابات السجن سنوات تلو سنوات، فهناك مواقف لها ما وراءها و يبنى عليها مصير.

الموقف الحاسم..

أمثلة:

وأضع بين أيديكم أمثلة على ذلك:

لو أن إنسان اتخذ قراراً بشراء بضاعة غير نظامية، ثم أمسك به متلبساً ببيع هذه البضاعة وكان ثمنها كبير جداً فإنه في هذا الحالة يترتب عليه غرامات تبلغ ثمانية أضعاف ثمنها، ثم يودع في السجن، فهناك لحظة يكون اتخاذ القرار الخاطئ فيها سبباً للدمار و الإفلاس والسجن، وهذه الأمثلة من حياتنا الدنيا.

و قد يقف الإنسان موقفاً أو يشير إشارة، وقد يسكت أحياناً فيدفع ثمن سكوته سنوات طويلة، فهذا الموقف الدنيوي قد يسبب لك متاعب طويلة، فقد يسبب قرار الزواج أحياناً شقاءً طويلاً لك، وقد يتخذ الإنسان قراراً خطأ في زواجه أو في سفره أو في تجارته أو في إقامته أو في مواقفه فيدفع ثمنها سنوات تلو سنوات، وهذا مع بني البشر فكيف مع خالق البشر، فقد يقف الإنسان موقفاً فيدفع ثمنه جهنم إلى أبد الآبدين، وهذا شيء لا يحتمل.

فأي إنسان دعاك إلى الله وطاعة الله و إلى التوبة إليه و ترك الطريق المنحرف والعمل المنحرف هو شاهد عليك..

حدثني أخ أن هناك إنساناً كان يملأ عينيه من الحرام، فأصيب بمرض ارتخاء الجفون وهو مرض صعب جداً ؛ يكون الجفن فيه مغلقاً دائماً ولا يفتح إلا باليدين من أجل أن ترى، فالإنسان حر يفعل ما يشاء لكن ليس حرّاً في قبول العقاب أو عدم قبوله، فقد تقف بمركبتك أمام إشارة، وتكون الإشارة حمراء والطريق مفتوح، فأنت حر في أن تخالف أو لا تخالف، لكنك إذا خالفت لم تكن حرّاً في قبول المخالفة أو رفضها، لأن العقاب أصبح إلزامياً، و أنت الآن مخير، لك أن تصلي أو لا تصلي، و لك أن تكون صادقاً أو أن تكون كاذباً، و لك أن تكون أميناً أو خائناً، و لك أن تنضبط أو أن تتفلت، و لك أن تحسن أو أن تسيء، و لك أن تكسب مالاً حلالاً أو حراماً، وقد قال الله تعالى:

(افعلوا ما شئتم)

لكنكم حينما تختارون الاختيار السيئ لم تكونوا أحراراً في رفض العقوبة أو قبولها، لأن العقاب أصبح إلزامياً.

و نستشف من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أرسل هذا الرسول الكريم النبي الأمي الذي جعله الله رحمة للعالمين كي ينقلنا من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، ومن حول المادة إلى جنات القربات، فهنيئاً لمن استجاب لهذا النبي، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل الاستجابة لهذا النبي الكريم عين الاستجابة لله عز وجل، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص 50)

قال العلماء: إن الاستجابة للنبي صلى الله عليه وسلم هي عين الاستجابة لله عز وجل. إخواننا الكرام.. إن القضية خطيرة و مصيرية ؛ أي: يتحدد بها مصيرك، فلو أن إنسان خان وطنه خيانة عظمى لقلنا هذه الخيانة مصيرية ؛ ومعنى ذلك أنه سيعدم فتلغى حياته، فهذا عمل خطير، و هناك أعمال يقترفها العبد في دينه تسبب له النار إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(وَتَادُوا يَمَالِكُ لِيَفْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ)

وقال:

(تَلْفَحْ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105)
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ
(107) قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (108))

(سورة المؤمنون 104-108)

إنه يوم مصيري، فحينما يُدعى الإنسان إلى الله ولا يستجيب ينتظره مصير قاتم أسود شقي إلى أبد الأبد.

إن النبي عليه الصلاة والسلام له سنة، ومن لوازم تطبيق سنته أن تعرف سنته، لذلك كان طلب العلم أساسياً في حياة الإنسان، وقد ذكرت قبل يومين في درس من دروس الطاوسية أن علة خلق السموات والأرض هي العلم، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

فالإنسان هو المخلوق الذي أودعت فيه قوة إدراكية، فحينما يعطل عقله ويرفض العلم يهبط من وجود إنساني إلى وجود حيواني، فماذا يفعل يعني الحيوان ؟ إنه يأكل ويشرب ويتنفس وينجب ويعمل ويستمتع بالطعام والشراب، فالإنسان الذي يأكل ويشرب ويتنفس وينجب ويستمتع ذو وجود حيواني، لكن الوجود الإنساني هو معرفة الله عز وجل و تحقيق رسالة الحياة، و أن تكون على منهج الله، و أن تنتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وجنة عرضها السموات والأرض، و مهما كنت قوياً جباراً في الأرض متمتعاً بقوة لا تعد ولا تحصى فلن تكون كفرعون، ومع ذلك قال تعالى:

(فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

إن هذا الكلام يساق على أسلوب (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فمن أنت ؟ أنت إنسان ضعيف صغير، فאלله عز وجل حينما أراد أن يدمر فرعون أغراه بدخول البحر، فضرِب البحر سيدنا موسى فإذا هو طريق سالك، فلما عبر سيدنا موسى وتبعه فرعون عادت اليابسة بحراً فغرق فرعون و قال وهو يغرق:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس 90)

ولكن بعد فوات الأوان، فالمعصية إذاً عقابها وبيل، وأخذها شديد ومصيرها مظلّم، و هذه دعوة من الله لطيفة غير مباشرة، حيث يقول:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ

فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا (16))

يروى أن فرعون رأى في المنام أن طفلاً سيقضي على ملكه، فقال: القضية بسيطة، إنني سأقتل أطفال بني إسرائيل جميعاً من دون استثناء، وأستحيي نسايتهم، لكنه ربى الذي قضي على ملكه في قصره، وهذا من حكمة الله البالغة، فلا تعاند الحق، ولا تكن في الخندق المقابل، لا تكن عدواً للحق في الطرف الآخر، لأن الطرف الآخر مهزوم لا محالة قال تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران 12)

إن النبي عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى بدر من المشركين وسماهم بأسمائهم واحداً واحداً وكأنهم يسمعون، فقال:

((هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتُموني وصدقني الناس،

وأخرجتُموني وآواني الناس، وخذلتُموني ونصرني الناس، فقالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً

جيفوا؟؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم))

(فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا)

كلما ارتقى إيمانك و تعمق علمك و اشتد يقينك رأيت أن نتائج المعصية خطيرة، فيجب على الإنسان أن يتقي الله عز وجل بدافع حبه لسلامته، فمهما كنت قوياً صحيحاً متماسكاً متمكلاً لزاماً الأمور فإن الله عز وجل يجعلك في أسفل سافلين حينما تعصيه.

وببلاء ؛ أي: شديداً.

يوم القيامة..

ثم يقول الله عز وجل: إن هذا عذاب الدنيا فكيف بعذاب الآخرة، هناك أمراض وبيلة خبيثة فتاكة، وأسأل الأطباء عنها، هناك أمراض الأورام و أمراض القلب و أمراض الأعصاب وهي شيء لا يحتمل، فقد تستأصل حجرة الإنسان فينتهي صوته، وقد يفتح بطنه أحياناً فيخرج الغائط من طرفه بلا توقيت، فهناك أمراض وبيلة، ولكن هذا ليس بشيء أمام عذاب الآخرة، فقد قال تعالى:

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

الشيء المألوف أن يظهر الشيب في الأربعين أو الخمسين أو الستين ؛ أي في السن المتقدمة، أما طفل فمن غير المألوف أن يشيب، لذلك قالوا: هذا أمر يشيب له الولدان، وقد رئي في شعر النبي بعض الشيب، فقال: شيبتني هود، فمن هي هود ؟ إنها سورة هود، وما الذي شيبه فيها ؟ إنه قوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة هود 112)

يروى عن سيدنا ابن رواحة - إن صحة الرواية - أن النبي عليه الصلاة والسلام عيّنه قائداً ثالثاً بعد سيدنا زيد وسيدنا جعفر، أما سيدنا زيد فقتل سريعاً، فأخذ الراية سيدنا جعفر فقاتل بها حتى قتل، فلما أراد أن يأخذها عبد الله بن رواحة ورأى صاحبيه قد قتلوا سريعاً تردد- هكذا تقول الروايات إن صحت- فقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حِمَام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما شقيت وإن توليت فقد رضيّت

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة مع أصحابه فقال:
((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإنني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإنني لأراه في الجنة يطير بجناحين _ لذلك سمي جعفر الطيار - ثم سكت النبي عليه الصلاة والسلام فلما سكت النبي قلق الصحابة كثيراً على أخيه عبد الله بن رواحة فقالوا: ما فعل عبد الله ؟ فقال: ثم أخذها عبد الله فقاتل بها حتى قتل وإنني لأرى في مقامه إزوراراً عن صاحبيه))

أي: مقامه هبط لأنه تردد

فإذا تردد الإنسان في بذل روحه هبط مقامه عند الله، فكيف بهؤلاء الذين يأكلون المال الحرام وينتهكون الحرمات ويغرقون في المعاصي والآثام ويعتدون على أعراض الناس، إن المعصية عقابها وبيل واسمها خطير.

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

كلام من هذا ؟ هذا كلام الله، فقد يخوفك الإنسان أحياناً، لكنه قد يقول فقط ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، لأنه غير قادر على فعل شيء، وقد يخوفك وهو لا يريد فعل ما يقول، لكن ما هو الحال إذا كان التخويف من قبل الله ؟!! قال تعالى:

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

هذا اليوم يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، فيحق فيه الحق، و تسوى فيه الحسابات، و يأخذ فيه المظلوم حقه من الظالم، و يأخذ المغصوب حقه من الغاصب، و تقوم فيه العدالة الإلهية المطلقة، هذا يوم الدين، والله تعالى مالك يوم الدين.

(السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)

إن السماء التي خلقها الله تعالى وما فيها من مجرات وكواكب تتصدع من هول هذا اليوم فكيف بالإنسان ؟ و هذا يذكرنا بقول الله تعالى:

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر 21)

إذا كان هذا القرآن ينصدع له الجبل فكيف بقلب الإنسان من لحم ودم.

(السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)

تذكرة..

أيها الأخوة.. إن هذا الوعد أو هذا الوعيد واقع لا محالة، والأمر منتهٍ، فقد قال تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

قد اتفق معك على أمر ما ثم لا أذكرك به، لكن التذكير يعني أنك تعرف الأمر، وأنا الآن أذكرك به فقط، لذلك كان القرآن تذكرة، بمعنى أن الإنسان عنده وسائل معرفة الله عز وجل من عقل وفطرة ونظر لكن الله عز وجل ذكره بهذا القرآن، فهذا القرآن كله تذكرة، لأن فطرتك متوافقة مع الإيمان بالله، وعقلك يدلك على الله، وكل ما في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، فإنك أيها الإنسان تملك وسائل معرفة الله، ورغم ذلك امتن الله عز وجل عليك بفضل منه وكرم فذكرك، فقال:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

إن الإنسان لما يؤمن ويستقيم يقول: وجدت نفسي لأن الفطرة مستقيمة، فالسيارة مصممة لتمشي على هذه الطريق المعبدة، فإن سرت في الوعر تكسرت، وإذا انتقلت إلى الطريق المعبد استراحت وأراحت، فالإنسان مصمم على الإيمان متوافق مع الإيمان عقلاً وفطرةً، فإذا ضعف إيمانه أو انحرف سلوكه تشوش عقله واضطربت نفسه لذلك قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه 123)

الإنسان مصمم أن يكون مؤمناً، فإذا لم يؤمن ضل عقله و شقيت نفسه.

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

وما أكثر السبل إلى الله عز وجل، إن التوبة سبيل، وضبط الأعضاء واللسان سبيل، وبر الوالدين، وتربية الأبناء، وخدمة الزوجة زوجها، ورحمة الرجل بزوجه، وإتقان العمل، والصدق والأمانة، وخدمة الحيوان، و الصلاة و الصيام و الصدق و الدعوة إلى الله و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كل هذا من السبل الموصلة إلى الله تعالى، و معنى السبيل: هو الطريق إلى الله و الوسيلة إلى العمل الصالح...

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

والوسائل التي تقرب إلى الله لا تعد ولا تحصى، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ففي بيتك ألف طريق إلى الله، أليس بإمكانك أن تقول: يا بنيّتي قومي فصلي، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه 132)

حينما ترحم من في البيت يكون هذا سبيلاً.. و حينما تتقن عملك لتتفّع المسلمين يكون هذا سبيلاً.. و حينما تصدق مع الناس فهذا سبيل أيضاً.. كذلك إخلاصك وأمانتك وعطاؤك كل هذا من السبل الموصلة إلى الله عز وجل.

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

الله عز وجل ينتظرنا لننتقل إليه، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

(سورة الذاريات 50)

إنه ينتظرنا أن نصطّح معه، والصلحة بلمحة، كما ينتظرنا أن نتوب إليه و ندعوه، فادع الله وتوكل عليه وأقم الإسلام في بيتك واسع إلى طاعة الله عز وجل.. قال تعالى..:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

ولهذا اليوم ما بعده، فإذا دعيت إلى الله فإن الذي دعاك إلى الله سيكون شاهداً لك قياساً على الآية السابقة الذكر، فالعاقل لا يندم، لأنه فعل الشيء المناسب في الوقت المناسب... وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المزمل 073 - الدرس (5-5): تفسير الآية 20

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-12-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

علم الله تعالى

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الخامس والأخير من تفسير سورة المزمل، ومع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

قوله: (إن ربك يعلم) يعني أنه يعلم عمل الإنسان وعبادته.

معنى الآية:

ولهذه الآية معنى ضيق ومعنى واسع...

1- المعنى الضيق: إن الله يعلم أنك تقوم الليل، ويعلم مقدار الليل الذي تقوم فيه.

2- المعنى الواسع: إن الله يعلم عملك وعبادتك وصلاتك وصيامك وإنفاقك، فهو يعلم عمل الإنسان بأوسع معانيه، فيعلم حق العلم خلفية هذا العمل كما يعلم بواعثه ومؤداه وغايته، و يعلم حجمه ومقدار التضحية في سبيله، ويعلم العوائق والصوارف، فقد تنفق في هذا العمل درهماً، وقد تنفق مائة ألف درهم، وقد يكون الدرهم أكبر عند الله من مائة ألف درهم، ورب درهم أنفقته في إخلاص خير من مائة ألف درهم أنفقته في رياء، و درهم تنفقته في حياتك خير من مائة ألف درهم تنفق بعد مماتك، فالمعنى الضيق هو أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقوم أكثر من ثلث الليل، أو يقوم نصفه أو أقل من ثلثيه، فيعلم قيامه في الليل ويعلم مقدار قيامه من الليل، أما لو وسعنا مفهوم هذه الآية لقلنا: إن الله يعلم حجم عملك وما خلف هذا العمل من نوايا، وما أمام هذا العمل من أهداف وما رافق هذا العمل من تضحيات، وما كان أمام العمل من عقبات، وما كان جانبه من صوارف، فهذا كله يعلمه الله عز وجل، فإيا أيها المؤمن إنك لا تحتاج مع الله إلى إيصال ولا إلى سند ولا إلى قسم ولا إلى يمين ولا إلى شهادة حسن سلوك، لأن الله يعلم.

ثمرة الإيمان بعلم الله:

إذا أيقنت أن الله يعلم ابتعدت عن النفاق والرياء، ولو أن أول الناس وآخرهم وإنسهم وجنهم أعطوك ولم يأذن الله لك بالعطاء لا يصلحك شيء من ذلك، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر 2)

ما الذي يدعو الناس إلى الذل و النفاق ؟ إنه الخوف على أرزاقهم، وما الذي يدعوهم إلى الخنوع ؟ إنه الخوف على أجالهم، فلو أيقن الإنسان يقيناً قطعياً أن الأرزاق والآجال بيد الله وحده ما رأى مراءٍ ولا نفاق منافق ولا خنع إنسان ولا استدل، إن الله يعلم وإذا علمت أن الله يعلم اطمئن قلبك وانصرف عن استجداء المديح، و الإنسان أحياناً قد يستجدي المديح ليحقق ذاته، فإذا كان عملك عند الله معروفاً ونيتك مكشوفة وهدفك نبيلاً وباعتك عظيماً، وكانت العقبات أمامك كثيرة والصوارف مغرية، ومع ذلك لزمته الحق وتمسكت به فإن الله يعلم حجم العمل وبواعث العمل وأهداف العمل، ويعلم التضحية التي رافقت العمل، ويعلم المشقة التي تحملتها من أجل هذا العمل والصعوبات والعقبات التي اعترضتك..

الإخلاص:

إن الإخلاص يعفك من استجداء المديح والرياء و النفاق..

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

و هذه الآية نزلت للنبي عليه الصلاة والسلام، وبالتالي هي لكل مؤمن، فعبادتك عند الله معروفة، فهو وحده يعلم، فقد يصلي إنسان قيام الليل، فإذا كان ضعيف الإيمان رأيته يصلي قيام الليل ويملاً الدنيا صخباً وضجيجاً بهذا القيام، أما المخلص فيصلي قيام الليل ولا يتكلم إطلاقاً، فإن تكلم فلحكمة يريد بها، كتشجيع الآخرين لجعل من نفسه قدوة، وإن رأى أن في كلامه ذلك تحقيقاً للذة نفسية سكت لأن الله يعلم، ويجب أن تعلم أن الله يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم أخلصت له، و استرحت من حالات كثيرة قد تصغرك عند الناس وعند الله

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

التأديب الإلهي:

إن الله ربك الذي يربك ؛ يربي جسدك بإمداده بما يحتاج، و يربي نفسك بنقلها من حالة إلى حالة، وهو الذي يطهرها ويزكيها ويعرفها، فربنا عز وجل يطهر و يزكي، ويقول تعالى في الحديث القدسي عن العصاة:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب

والمعائب))

هذا هو تأديب الله للإنسان، و حينما سئل عليه الصلاة والسلام عن أدبه العالي قال:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

ولكل مؤمن من هذه الآية نصيب، فإن تكلمت كلمة ينبغي ألا تقولها أذاك التأديب ليقول لك: لا تعد هذه الكلمة، وإذا وقفت موقفاً لا ينبغي أن تتفقه أتى التأديب قائلاً: لا تعد هذا الموقف، وإذا أنفقت نفقة لا ينبغي أن تنفقها أذاك التأديب وقال: لا تعد هذه النفقة، وإذا أمسكت إمساكاً لا ينبغي أن تمسكه أذاك

التأديب وقال: ينبغي ألا تعيد هذا الإمساك، وكذلك إن وصلت صلة لا ينبغي أن تصلها أو قطعت قطيعة ينبغي ألا تقطعها..، هذا هو تأديب الله عز وجل، إن ربك هو الذي يربيك ويربي جسمك، ويربي نفسك، ويربي عقلك، فهو الرب، وما من اسم من أسماء الله عز وجل أقرب إلى الإنسان من اسم الرب، فانه هو الذي يمدنا.

منعكس المص:

إن هذا الطفل الذي يولد لتوه قد زوده الله بآلية معقدة جداً سماها العلماء منعكس المص، فتراه يضع فمه على ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب، ولو جننا بأهل الأرض و علماء التربية و معلمي البشرية قاطبة فهل يستطيعون أن يعلموا هذا الوليد كيف يمص ثدي أمه ؟ مستحيل... لكن الله زودنا بهذا المنعكس، ولولا هذا المنعكس لما وجدتم أحداً في الأرض، هو ربنا الذي خلقنا وأعطانا نعمة الوجود و نعمة الإمداد ثم هدانا إليه، فالذي وصل إلى الله ينبغي أن يذوب شكراً لله أن خلقه وأمدّه وهداه إليه.

(إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ)

تصور أن هناك إنسان بعيد عن هذه الآية أو هذا الإدراك، إنه يعيش في متاهات، تراه يتكلم عن نفسه ويتبجح، ويتكلم عن الآخرين و يمدح نفسه و يدفع الناس إلى أن يمدحوه لأنه لا يعلم أن الله يعلم، أما إذا علم أن الله يعلم فإنه يعمل عملاً بينه وبين نفسه ولا يتمنى أن يطلع عليه أحد.. و لا يتمنى أن يتبجح إطلاقاً..

(إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

إنك حينما تعلم أن الله يعلم ترتاح من النفاق و الرياء و الخوف، فقد يخطئ الإنسان أحياناً، لكن نيته تكون سليمة، فهو ولا يقصد الذي فهمه الناس من عمله، فانه هو الحق ولأنه الحق يظهر الحق، و هو الحق يحق الحق ويظهره ويدافع عن أهل الحق، وهناك إنسان قال: الحمد لله على وجود الله، فانه موجود ويعلم، ويكفي أن تكون علاقتك بالله قوية، و يكفي أن تكون النوايا طيبة، و يكفي أن يكون قلبك سليماً، عندئذ لا تعباً بأحد، أما البعيد عن هذا المعنى فهو موزع بين الناس، فإن أرضى زيدا أغضب عبيداً، وإن أغضب فلاناً أرضى علاناً، فتراه ساعة يمدح، وساعة يذم، وساعة ينافق، وذلك لأنه لا يعلم أن الله يعلم.

(إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)

الآية الناسخة:

وقال بعض العلماء إن هذه الآية نسخت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2))

فإما أن حكمها تُسخ عن المسلمين وبقيت فرضيتها على رسول رب العالمين، وإما أن قيام الليل أصبح نفلاً وتطوعاً يفعله كل مسلم دون أن يكون ملزماً، و هناك شيء آخر في قوله تعالى:

(**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ**)

أهمية الجماعة المؤمنة:

إن هؤلاء كانوا مع رسول الله بأجسادهم و نفوسهم و أرواحهم و عبادتهم وإخلاصهم، لقد استشار النبي عليه الصلاة والسلام الأنصار حينما أرادوا أن يدخلوا معه في غزوة أحد فقال سيدنا معاذ: (**امض يا رسول الله لما أردت و نحن معك، و لو خضت هذا البحر لخضناه معك، وما تخلف منا رجل، صل حبال من شئت واقطع حبال من شئت، و أعط من شئت وامنع من شئت، وسالم من شئت وعاد من شئت، فوالذي بعثك بالحق للذي تأخذه من أموالنا خير لنا من الذي تدعه لنا، فسر على بركة الله**). هكذا كانوا معه، و الشيء الدقيق أيها الأخوة أن الله تعالى قال:

(**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**)

(سورة الفتح 29)

فالإنسان وحده لا يفعل شيئاً، أما الجماعة فمباركة، والإنسان وحده قد لا تحل مشكلته أما إذا كان مع أهل الحق فهو في بحبوحة الجماعة و الأنس و الاستقامة.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ**

وَالنَّهَارَ)

الله يعلم.. ويقدر..

إن الله عز وجل يعلم كم من الجهد بذلت، و كم من الوقت أمضيت، و كم من المشقة كابدت، و يقدر الليل والنهار.. فيقدر طول الليل و قصر الليل، و يقدر طول النهار و قصر النهار، و يقدر العمل الذي فعلته في الليل و قد اقتطعت من نومك، و يقدر العمل الذي فعلته في النهار و قد اقتطعت من راحتك وعملك.

(**وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)

في هذا الآية كلمتان هما مركز الثقل فيها، " **إن ربك يعلم**" و " **يقدر**"، إنك قد تعلم ولا تقدر، و قد تقدر ولا تعلم، فقد يكون هناك إنسان عنده خبرة واسعة، فيقدر حجم التضحية ولكنه لم يعلم تضحيته، و قد يكون هناك إنسان آخر علم أنك فعلت هذا ولكن لا يقدر هذا العمل، فهذا العمل ليس له قيمة عنده، فأنت بين إنسان يقدر ولا يعلم، أو يعلم ولا يقدر، و الأسوأ من هذين من لا يقدر ولا يعلم، لذلك كان من المشقات التي يعانيتها الإنسان المشرك (المشرك شركاً خفياً) أنه يتمنى أن يعلم الناس عمله ولا يستطيع، و يتمنى أن يقدر الناس جهده ولا يرى أذناً صاغية ولا تقديراً ولا تقييماً ولا تثميناً، أما إذا كان

مخلصاً لله عز وجل فلا يعبأ بتقدير الناس ولا تثمينهم ولا مدحهم ولا ثنائهم، كما أنه لا يعبأ بذهمهم، فمن عرف نفسه ما همّه ذمّ الناس له.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

إن الإنسان أحياناً قد يكون نائماً من نصف ساعة، فيأتيه طارق بحاجة، فيستيقظ ويلبي هذه الحاجة، وقد يكون هناك إنسان آخر يوضع تحت نفس الموقف فلا يلبي، فقد تملك المال ولا تنفق، وقد لا تملك وتنفق، لكن الله يملك وينفق و يقدر.

قصة..

لقد سمعت قصة لا بأس من روايتها لكم: كان هناك رجل من أهل الغنى، فأراد أن يُنشئ مسجداً في أحد أحياء دمشق، فبحث عن أرض فوجد أرضاً مناسبة تصلح لمسجد، فسأل عن صاحبها فالتقى به، وصاحبها يعمل (أذن) في مدرسة ابتدائية وقد ورث هذه الأرض من أشهر ولا يملك من الدنيا غيرها، ودخله أقل من ثلاثة آلاف في الشهر، وعنده خمسة أولاد، وكان يسكن في بيت صغير جداً، ففاوضه على شرائها، واتفقا على السعر وكان السعر مناسب 3.5 مليون، فكتب له شيك بمليونين والباقي عند التنازل للأوقاف، قال له: ما علاقة الأوقاف، فقال: أريد أن أجعلها مسجداً، قال: أعطني هذا الشيك، فأخذه ومزقه وقال: أنا أولى بتقديمها لبيت الله، يقول هذا الرجل الغني: ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الإنسان، إنه إنسان فقير لا يملك من الدنيا إلا هذه الأرض ن ودخله أقل من أن يكفيه، فما رضي أن ينافسه أحد على تقديم هذه الأرض لتكون بيتاً من بيوت الله، فقال: أنا أولى منك بتقديمها لله عز وجل.

إذا كان هناك إنسان معه مائة مليون واشترى أرضاً بثلاثة ملايين ونصف، فهل يكون أجره كأجر هذا الأذن؟؟ لا والله، فرب درهم سبق ألف درهم، فدرهم تنفقه في إخلاص خير من ألف درهم في رياء. فيا أيها الأخوة الكرام الإخلاص الإخلاص، بالإخلاص يرتقي عملنا، ونتصل بربنا، و لا نعبأ بالناس، ونحن لسنا مستهترين بهم طبعاً، ولكننا لا يعنينا مدحهم ولا ذمهم، فمن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس فيه، فربك يعلم وهو يقدر حجم عملك، و يعرف أنك في ضائقة مادية وأعطيت هذا الفقير المؤمن مبلغاً و أنت في أمس الحاجة إليه، إنه يعلم ذلك، ويعلم أنك متعب جداً وأنت في أمس الحاجة إلى النوم، وأنت في إمكانك أن تصرف هذا الذي طرق بابك ولا تستجيب له، لكنك كابدت مشقة كبيرة وقدمت له خدمة عظيمة في هذا الوقت الصعب من الليل، إن الله يعلم الضغوط التي حولك، وكيف أنك تحملتها في سبيل الله، إن ربك يعلم الإغراءات التي أحاطت بك، وكيف أنك أعرضت عنها في سبيل الله، إن ربك يعلم أنك في خلوتك تخشاه، فقد يكون هناك إنسان في غرفته وحده لا أحد يراقبه، لا زوجة ولا ولد ولا

صديق ولا أحد، ففتحت نافذة أمام غرفته وخرجت امرأة متبذلة، فغض بصره عنها، فمن يعلم هذا العمل ؟ إنه الله جل جلاله، وقد يكون هناك طبيب من حقه أن يعالج امرأة وأن يكشف عن بعض جسمها، لكنه قد يختلس النظر إلى مكان لا تشكو منه، فمن الذي يعلم ؟ إن الله وحده يعلم:

(يَعْلمُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر19)

كما أن المحامي قد يقول للموكل: إن الدعوى ناجحة، وهو يعلم علم اليقين أنها ليست ناجحة، والمواطن لا يعلم ذلك، لكن الله يعلم، فكلمة (يعلم) تعني: يعلم عمك بكل تفاصيله و أبعاده و نهاياته و خلفياته وملايساته وتضحياته وصعوباته وعقباته و صوارفه، فلو أن حكومة أرادت أن تصنف الموظفين في عشر مراتب، كل مرتبة ثلاث درجات، فهناك ثلاثون درجة، وكل الموظفين لا بد أن ينزلوا في هذه الدرجات، والمراتب: ثلاثون درجة وعشر مراتب، أما الله عز وجل فعنده خمسة آلاف مليون إنسان، فهناك خمسة آلاف مليون درجة، فهو يحسب إخلاص كل واحد منهم وتضحيته و استقامته والضغوط التي يتحملها والمغريات التي تحيط به، فالله يعلم حجم عمك تماماً بكل أبعاده وخلفياته وبواعثه وأهدافه.

فقد يعمل الإنسان في التجارة، فيأتيه مال يتيم، وهو يستطيع - ولا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يعلم - أن يضع هذا المال في صفقة غير معلوم ربحها، فيجس السوق عن طريقها، أما الصفقات المعلومة ذات الأرباح المحسوبة والبيع السهل فيضع فيها رأس ماله الأساسي ليستثمره ويقبله إلى مال أوفر، أما في صفقة ربحها غير معلوم فنراه يقول فيها: أنا سأجر بمال اليتيم لئلا تأكله الزكاة، وذلك وفق كلام رسول الله، فهو يضع هذا المال في هذه الصفقة، فإن خسر يقول: ترتيب الله عز وجل، إنه قد جعل مال اليتيم رداءً لماله، ومن يعلم ذلك؟؟ لا يستطيع أحد في الأرض أن يعلم أنه جعل من هذا المال وقايةً لماله، ويقول: إذا ربحت هذه الصفقة ربحاً كبيراً فسأدخل مالي عندئذ في هذه البضاعة، وإذا لم تربح أكون قد عرفت السوق ولم أضّر، فمن من يعلم حقيقة ما فعلت ؟ الله وحده يعلم ذلك.

وهناك أعمال كثيرة من هذا القبيل.. فإذا قال طبيب لمريض: أريد هذا التحليل لتشخيص مرضك، وهو لا يحتاج إلى تحليل، و لكن كان في باله شيء، فمن يعلم ذلك ؟ لا يعلمه إلا الله، إن كل حركاتك وسكناتك وأعمالك في علم الله مكشوفة، و الله عز وجل يعلم سرّك ويعلم جهرك ويعلم ما خفي عنك، قال تعالى:

(فَإِنَّهُ يَعْلمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه7)

فما خفي عنك يعلمه، وإذا أيقنت أن الله يعلم تأدبت معه كثيراً، وأخلصت له كثيراً واستقمت على أمره، ونفعت عباده، ووقفت عندك حدك، فالقضية المهمة جداً هي أن تعلم أن الله يعلم، أما هذا الذي يخدع الله فإن الله خادعه، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء 142)

أيها الأخوة الكرام... يجب أن تعلموا علم اليقين أنه لا يمكن لحد أن يخدع الله عز وجل، و بالمقابل لا يمكن للإنسان أن يخدع نفسه، لقوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة 14-15)

أما ما سوى الله عز وجل و نفسك التي بين جنبيك، فبإمكانك أن تخدعه، فقد تخدع بعض الناس لوقت طويل أو قصير، أما أن تخدع كل الناس طول الوقت فهذا مستحيل، لأن الله عز وجل لا بد أن يكشف الحقائق، فهو لا يهدي كيد الخائنين، فأبي خيانة على وجه الأرض لا بد من أن تفتضح، فتعامل مع الله بإخلاص وصدق وطاعة وإقبال عليه...

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ)

لقد علم أن في الناس من هو مريض متعب، وأن هناك من له جهد كبير في النهار والليل قصير، وعلم أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا قيام الليل دائماً، فقد يصلونه في الشتاء وفي بعض أيام الصيف، لكن لو جعله فريضة لكان مشقة علينا، والله سبحانه وتعالى جعله في أول الأمر فريضة على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى أصحابه، ثم جعله فرضاً عليه ونفلاً على المسلمين وهذا من أنهج الأقوال. علم أن لن تحصوه ؛أي: لن تستطيعوا قيام الليل دائماً، فتاب عليكم، فكانت هذه الآية ناسخة لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (2))

معاني الآية:

(فَاقرءوا مَا تيسرَ مِنَ الْقُرْآنِ)

1- المعنى الأول: فاقروا في الصلاة ما تيسر من القرآن، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقرأ مائة آية في صلاة الليل، فهنا الآية تخفيفية أيضاً ؛ أي اقرأ بحسب طاقتك وإقبالك، و القرآن هنا هو الصلاة ؛ أي: صل ما تيسر لك من الصلاة، لقوله تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

(سورة الإسراء)

و قرآن الفجر هنا هو صلاة الفجر، سميت الصلاة هنا باسم بعض أجزائها، فإذا قلت فاقروا ما تيسر من القرآن ؛ يعني: فصلوا ما تيسر لكم من الصلاة، و هذا معنى.

2- المعنى الثاني: فاقروا ما تيسر من القرآن ؛ أي: اقرؤوا في الصلاة ما تيسر لكم، فالإنسان له إقبال وله فتور، فإذا كنت مقبلاً فأدّ الفروض والنوافل، وإذا كنت في فتور فاكثف بالفرائض، ومعنى قوله تعالى:

(فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى)

فالمريض لا يستطيع أن يصلي قيام الليل.

(وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

و هؤلاء الذين يسافرون ليكتسبوا المال قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فقد ينقطع الرزق في بلدك كلياً، فتسافر كي تبحث عن رزق و عمل، فهذا السفر في سبيل الرزق.

أنواع السفر:

أيها الأخوة... كلكم يعلم أن أعظم أنواع السفر هو الجهاد في سبيل الله، ويأتي بعده طلب العلم، ويأتي بعده الفرار بالدين، ويأتي بعده كسب الحلال، ويأتي بعده السفر المباح الذي لا معصية فيه، وبعد ذلك سفر من نوع المعصية فيعاقب صاحبه أشدّ العقاب، فهذه السياحة التي يخالفها المعاصي والآثام والفجور هي من المحرمات.

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ)

الراحة في المسجد:

تعلمون أيها الأخوة أن الإنسان إذا دخل المسجد يقول: (اللهم افتح لي أبواب رحمتك) ففي المسجد قد تأتيك الرحمة و السكينة و التجلي، و قد تشعر أنك في ظل الله و ضيافته وأنت في بيته، فالذي يأتيك في الصلاة و الذكر و قراءة القرآن و الاستماع إلى درس العلم هو راحة نفسية و شعور بالأمن و شعور بأن الله راض عنك، وهذا من فضل الله عز وجل في المسجد، فإذا دخلت المسجد فقل: (اللهم افتح لي أبواب رحمتك)، أما إذا خرجت من المسجد فأنت بحاجة إلى عمل و قضاء حاجة و تأمين طعامك و شرابك فقل: (اللهم افتح لي أبواب فضلك).

(عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ)

في سبيل الله)

الحديث في هذه الآية عن المجاهدين، وقد استنبط بعض العلماء أن جمّع الله هؤلاء مع هؤلاء يعني إمكانية جمع السفر في كسب الرزق الحلال والسفر في سبيل مجاهدة الأعداء فالعمل أيضاً عبادة، لأن الجمع يقتضي المشاركة فقد قال تعالى مثلاً:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء 23)

فالله عز وجل رفع برّ الوالدين قريباً من عبادة الله عن طريق هذا العطف، و العطف يقتضي المشاركة، و ربنا عز وجل يقول:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد5)

فقد جعل صلاح البال قريباً من الهدى، و جعل برّ الوالدين قريباً من عبادة الله، كما جعل الضرب في الأرض ليبتغي من فضل الله قريباً من الجهاد في سبيل الله.

(وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لأن فيكم مرضى و مسافرون ومجاهدون، فقال:

(فَأَقْرَعُوا مَا تَيْسَرَ مِنْهُ)

أي: القرآن، وذلك يعني: صلّ قيام الليل واقرأ ما تيسر لك من القرآن، أو صلّ خمس أوقات في رأي بعض المفسرين.

(فَأَقْرَعُوا مَا تَيْسَرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)

إن إيتاء الزكاة معروف، وقال بعضهم في بعض التفسيرات: وهذا من التفسيرات الوجيهة _ إنه مطلق العمل الصالح يعني: اتصل بالله وأحسن إلى الخلق، فالدين كله اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق، و هناك حركة نحو السماء هي اتصال بالله وحركة نحو الأرض هي خدمة الخلق وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم31)

وجوب تلازم الإيمان والعمل الصالح:

الزكاة هنا فسرت تفسيراً واسعاً، و الآية تعني الزكاة و الصدقة، كما أن خدمة الخلق تعنيها الآية كذلك، فيجب أن يكون لك عمل صالح وطيب، فما قيمة الصلاة من دون عمل طيب وصالح؟؟ بل ما قيمة العمل الصالح من دون صلاة؟؟ لقد أصبح سلوكاً زكياً، وهناك أشخاص كثيرون لم يؤمنوا بالله إطلاقاً ولكن لهم أعمال طيبة، فهذه الأعمال ينتزعون بها إعجاب الآخرين ويحققون بها مصالحهم، و ليس هذا العمل هو المقصود، فلا بدّ من اتصال بالله وعمل صالح، وكلاهما شرط لازم غير كافٍ، فالالاتصال بالله يسمو بعملك، والعمل الصالح يرقى بإيمانك، والعمل يزداد بالإيمان، والإيمان يثمن بالعمل الصالح، قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

وهذا يشمل أي عمل صالح على الإطلاق مع أي مخلوق كان، ولو أطعمت هرة، أو خلّصت نملة من الغرق، أو نزعت قشة من أرض المسجد، وهو أي عمل صالح مهما بدا لك صغيراً، مع أي مخلوق من حيوان أو بهيمة، كأن تذبح حيواناً مؤنساً ذبحاً سريعاً، فتضربه ضربة واحدة لتحسن قتله، أو تطعم مسكيناً، وأو ترعى يتيماً، أو تكون أباً جيداً أو زوجاً مثالياً، أو ابناً باراً، أو جاراً مسلماً محسناً صادقاً، أو أن تكون متقناً في عملك، صادقاً في حرفتك، تقرض الناس قرضاً.. تأمر بالمعروف وتنتهى عن المنكر.. تدعو إلى الله.. تصلح بين زوجين، فأى عمل صالح مع أي مخلوق يجب أن تعلم أنه قرض لله تعالى، فالمقرض هو الله.

وقد يقول لك شخص: هذه المعروف لا يضيع معي أبداً، فقد تخدم خدمة لابنه، أو تقدم له خدمة ثمينة أخرى، أو تعاونه في مشكلة، أو تخلصه من ورطة مع الإنسان، فهذا المعروف لا يضيع معه، فكيف مع الواحد الديان؟؟ هذا قرض حسن.

قصة:

لقد ذكرت مرة قصة عن طبيب رأى امرأة شابة جاء زوجها إليه، وكان معها ورم خبيث في الحنجرة، وحالتها ميؤوس منها، وقد زاروا جميع البلاد المحيطة ببلدنا للعلاج، ولم يكن هناك أمل أبداً، فالطبيب أعلمه أنه لا يوجد أمل، ثم قال له: أسمح لي أن أجرب شيئاً ولا أبغي مقابله شيئاً، لقد قال لي: عالجتها في ستة أشهر معالجة مضنية، كل يوم بالأشعة، فتراجع المرض قليلاً قليلاً ثم شفيت منه تماماً، وهي قصة طويلة ولكن هذا ملخصها، قال لي: إن زوج هذه المرأة من ثلاثين عام يأتي كل عام ويقدم لي الهدايا الثمينة وأقول له: يا أخي والله خجلت منك ما قدمت لك شيء، فقال له: لو مت أنا لتابع أولادي من بعدي هذا العمل، لأن هذا الفضل لا يُنسى، فإنسان عنده شيء من الوفاء لم ينس فضل طبيب من ثلاثين سنة، فكيف بالله عز وجل؟ إنك إذا كنت في خدمة عباده، أو عرفت عباده به، ومسكتهم بالحق وأسعدتهم بطاعته كنت مصدر أمن لهم، فالله عز وجل شكور، يشكر أي عمل صالح، فقد يكون هناك إنسان خدم المسجد فنظف السجاد وغير ذلك، فأى عمل صالح هو قرض لله عز وجل، وهناك آية أخرى تقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(سورة البقرة 245)

فتاجر مع الله عز وجل لأن الأرباح مع الله تفوق الخيال، فالإنسان قد يربح عشرين بالمائة، فيقول لك: وفقنا في هذه الصفقة، فإذا اتجرت مع الله كنت أسعد الناس، لذلك:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

(وَمَا تَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

أي: لن تجدوه بحجمه الحقيقي، بل سيضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، أما أن تخسر شيئاً مع الله فهذا غير ممكن، كأن تدفع مبلغاً من المال ولا تجده يوم القيامة، أو، تمضي وقتاً في طاعة الله ولا تجد ثمرته، هذا مستحيل:

(وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

كل عمل مادي فيه تضحية أو تضيق وقت أحياناً فيه مثوبة من عند الله، فكل إنسان له بيت يرتاح فيه، وقد تكون أنت قد أتيت من مكان بعيد، وركبت سيارتين، وجلست على ركبتك، واستمعت إلى درس علم فهذا عمل طيب، ولن لن يترك الله عملك و لن يضيعه عليك.

(وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

كل عمل صالح لك أجره، فإذا رعيت يتيمًا، أو كانت لك أخت عانس فسكنت معك وأكرمتها وهيأت لها الجو المريح، وحفظت لها كرامتها فلن يضيع هذا العمل، وإذا كان لك أب متقدم في السن فتحملت كثيراً من ضغوطه و كنت راضياً بهذا فلن يضيع هذا العمل، وإذا كان هناك إنسان عنده ولد معاق أو عنده مشكلة، فأى عمل صالح بكل ملابساته محفوظ عند الله عز وجل.

من عمل صالحاً سره اللهاق به...

(وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ)

فإذا قدم الإنسان خير سره اللهاق به، و الحقيقة أن الموت تحفة المؤمن و عرسه لماذا؟ لأنه كان في كل حياته يقدم أعماله أمامه، فأكبر شيء يسره أن يلحق بها، فهو كالذي يرسل ماله إلى بلد معين، فأكبر شيء يسره أن يلحق بماله ليستمتع به في هذا البلد، وهذا شيء واضح جداً، فالمؤمن يعمل للأخرة لذلك ينفق ماله ووقته، وقد يتعب في عباداته، وقد يتعب في ضبط جوارحه لكن كله محفوظ، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم35-36)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية21)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسًّا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص61)

أنت تتعامل مع خالق الكون، وكل شيء عند الله مسجل، قال تعالى:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف 49)

فتاجر مع الله عز وجل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11))

(سورة الصف 10-11)

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا)

ورد في بعض الأحاديث أن الإنسان قد يطعم لقمة فيجدها يوم القيامة كجبل أحد، وقد يتكلم كلمة حق فيجدها عظيمة عند الله تعالى، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25))

(سورة إبراهيم 24-25)

تكلم بكلمة حق، أو نصح نصيحة، أو دعا إلى الله، أو أراد أن يعلم الناس القرآن، إنه لا يعلم إلا الله مقدار ما ينتظره من سعادة، بل إن الله عز وجل يقول:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة 17)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ أُعِدَّتْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

(صحيح البخاري)

ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، فقد أعطاه لمن يحب ولمن لا يحب، بل إنه أعطاه لمن لا يحب أكثر ممن يحب.

(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

إن الماضي يغطي بالمغفرة، والمستقبل يغطي بالعمل الصالح، فإن قدمت العمل الصالح ضمنت المستقبل والماضي بالمغفرة، فاستغفروه لما بدر منكم إن الله غفور رحيم.
مراكز ثقل الآية:

إن هذه الآية الأخيرة من سورة المزمل فيها مراكز ثقل:

1- المركز الأول: إن ربك يعلم، فيجب أن تعلم أن الله يعلم، وأن الله يقدر عملك، فهو يعلم ويقدر.

2- المركز الثاني: الله عز وجل خفف عن عباده بعض العبادات التي قد تشق عليهم، وجمع بين الجهاد في سبيل الله و كسب الرزق الحلال، ثم إن الله سبحانه وتعالى قال: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ يعني:

أقيموا الصلاة التي تتبعها الزكاة يعني العمل الصالح، فلا معنى لصلاة دون عمل صالح، كما أن العمل الصالح بدون صلاة لا قيمة له.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

كل أعمالكم تجاه المخلوقات هي قرض حسن لله عز وجل.

(وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1-4 الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-12-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة المدثر:

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكْبِرْ (3) وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

التحبيب إلى الآخرين:

كأن الله سبحانه وتعالى - كما قلت في درس سابق - حينما يخاطب بأسلوب اللغة العربية، بأسلوب البلاغة العربية، حينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبس بها فهذا من باب التَّحْبُّبِ، ومن باب الاستلطاف، ومن باب الإيناس، وقد ذكرت لكم تأكيداً لذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان سيدنا علي رضي الله عنه مُضْجِعاً على الأرض وقد تأثر بتراب الأرض، قال: قُمْ يَا أَبَا ثَرَابٍ، كان مخلصاً للسيدة فاطمة، أراد النبي أن يتحبيب إليه، وأراد أن يتلطّف به، وأراد أن يؤنسّه فقال: قُمْ يَا أَبَا ثَرَابٍ. فحينما تخاطب إنساناً بحالةٍ متلبس بها فهذا من باب التَّحْبُّبِ، من باب الاستلطاف، من باب الإيناس.

الدعوة إلى الله فرض عين:

النبي عليه الصلاة والسلام تدثّر بثيابه فقال الله له:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

أي انتهى وقت الراحة، وقد سمعتم من قبل أن السيدة خديجة رضي الله عنها طلبت من النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن جاءه الوحي من السماء أن يأخذ قسطاً من الراحة، فقال لها:

((انتهى عهد النوم يا خديجة)) قد يقول أحدكم: ما علاقتنا بهذا ؟ علاقتنا بهذا علاقة متينة، كل واحدٍ منا مكلفٌ بعبادة الله، كل واحدٍ منا مكلفٌ بالدعوة إلى الله، كل واحدٍ منا مكلفٌ بنشر هذا الحق، نشر

الحق فرض عين، طالبوني بالدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: آية " 108 ")

فإن لم تدع إلى الله فأنت لست متبعاً لرسول الله، وقد قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

الجهاد الدعوي أعلى أنواع الجهاد:

مما يؤكّد حبك لله أن تتبع رسول الله، ومن اتباع رسول الله أن تدعو إلى الله على بصيرة، والإنسان الذي لا يجد في نفسه رغبة في أن ينشر الحق، أو أن يدعو إلى الله، أو يشيع الفضيلة في المجتمع ؛ هذا إنسان يموت على ثلّة من النفاق، لأنه كما تعلمون كلمة الجهاد يخطئ الكثيرون حينما يحصرونها بالجهاد القتالي، جهاد النفس والهوى في بعض الأحاديث الصحيحة من أعلى أنواع الجهاد، رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي من أعلى أنواع الجهاد.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

سمّاه الله جهاداً كبيراً أن تتعلّم وتعلّم، أن تأخذ وتعطي، أن تتلقّى وتلقّي، أن تُسهم في نشر الحق، أن تسهم في تعريف الناس بربهم، أن تسهم في حملهم على طاعته، أن تُسهم في إسماعهم بالقرب منهم، هذه أكبر مهمة، إنها صنعة الأنبياء.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

إقناع الناس بالحق في حدود ما نعلم:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

المؤمن ينبغي أن يُفكر ؛ كيف آخذ بيد أولادي ؟ كيف أقنع زوجتي بالحق ؟ كيف أقنع أولاد إخوتي ؟ كيف أقنع جيراني من حولي ؟ طبعاً الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم.

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

(مسند أحمد: عن عبد الله بن عمرو)

وفي حدود ما تعلم ؛ من حولك، أقربائك، جيرانك، زملاؤك، أقرب الناس إليك هؤلاء الذين أنت مكلفٌ بدعوتهم إلى الله، أما إنسان يعيش عُمرًا مديداً لم يحدث نفسه بالجهاد الدعوي ولا مرة يموت على ثلّة من النفاق، لأن الجهاد كما تعلمون وكما وصفه النبي عليه الصلاة والسلام:

((نُرْوَهُ سَنَامَ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

(مسند أحمد: عن معاذ بن جبل)

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّتِرُ (1)))

تحبباً، وإيناساً، وتلطفاً.

مسؤوليتك تجاه الآخرين:

((فَمُ فَانْذِرْ (2)))

ويا أيها المؤمن هل فكرت في الدعوة إلى الله ؟ قالوا: الإنسان قد يقرأ كتاباً، قد يقرأ قصة ممتعة يمضي بها وقتاً طفيفاً، بعد أن تنتهي قراءتها ينتشاءب وينام، لكنك أحياناً تقرأ قصة أو كتاباً، كتاباً في العقيدة أو كتاباً إسلامياً تنتهي من قراءته فتبدأ متاعبك لأن هذا الكتاب وضعك أمام مسؤولياتك، وضعك أمام سرّ وجودك وغاية وجودك، وضعك أمام رسالة مكلف بحملها، وضعك أمام مهمة لا بدّ من أن تؤدّيها، فإذا قرأت قوله تعالى:

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّتِرُ (1)))

قل: ما علاقتي أنا بهذه الآية ؟ علاقتك بهذه الآية هل تعلمت وعلمت ؟ هل قرأت القرآن وأقرأته ؟ هل تعلمت القرآن وعلمته ؟ هل نقلت عن رسول الله حديثاً ؟ هل بلغت الناس حكماً فقهياً ؟ هل رويت للناس قصة صحابي أحبّ الله عزّ وجل وبذل في سبيله الغالي والرخيص ؟ ماذا فعلت ؟ نأكل ونشرب !!

للإنسان وجودان:

1 - وجود حيواني:

أيها الأخوة: - دققوا في هذا المعنى - الإنسان له وجود إنساني، وله وجود حيواني، فالإنسان حينما يكتفي بالطعام والشراب والتنفس والنوم، وإنجاب الأولاد والتمتع بمباهج الحياة الدنيا، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ ما حقق إلا وجوده الحيواني فقط، قد تسأله: أيعقل أن يكون هذا ؟ ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

((إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)))

(سورة الفرقان)

هذا كلام الله عزّ وجل، قال:

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: آية " 5 ")

أبلغ من ذلك:

(كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَدَّةٌ)

(سورة المنافقون: آية " 4 ")

الإنسان أحياناً يرى دابة تُفاجأ بحفرة تحيّد عنها، ترى ناراً مضطربة فتبتعد عنها، يوجد نوع من الإدراك، أما الخشب المسند هل تبتعد عن النيران ؟ الله عزّ وجل وصف هؤلاء:

(كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَدَّةٌ)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: آية " 5 ")

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

((إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

هذا الوجود الحيواني ؛ أكل، شرب، تنفس، زواج، استمتاع وإنجاب أولاد، عمل شاق، نوم، وجود حيواني.

2 - وجود إنساني:

أما الحاجة العليا في الإنسان من هنا إلى فوق ؛ إدراك، معرفة، طلب العلم، تعليم العلم، تحقيق سر وجودك، تأكيد ذاتك، نشر الحق، إشاعة الفضيلة بين الناس، هذا وجود إنساني لا يليق بك أن تهبط عن وجودك الإنساني إلى وجود حيواني، لا بدّ من أن تحمل رسالة، لا بدّ من أن تنقل الحق، لا بدّ من أن تتعلّم وتعلّم، تتلقّى وتلقّي، أن تتعلم القرآن وأن تُعلمه، لا بدّ لك من عمل صالح.

((فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف)

هذا معنى قول الله عزّ وجل:

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

تحبباً، واستلطافاً، وإيناساً..

((فَمُفَانِّذُ (2))

خدمة الخلق عن طريق النصيحة و المودة:

فأكثر نشاط الإنسان يَتَمَحَوَّرَ حول مصالحه، أما أن يخرج الإنسان من بيته لطلب العلم، لزيارة مريض، لدعوة أخ إلى الله، لخدمة شخص دون أن تكون له مصلحة لا من قريب ولا من بعيد إلا ابتغاء وجه الله، هذا الذي أتمناه على كل مؤمن أن يخرج من ذاته إلى خدمة الخلق.

((قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

بالنصيحة، بالمودة، بالتلطف، تزوره في بيته، تقدّم له هدية، تعاونه، تحل له مشكلة ثم تأخذ بيده إلى الله.

((يا علي وَاللّٰهُ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّٰهُ بِهٰذَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَّكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

(سنن أبي داود عن سهل بن سعد)

((يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس))

((.... خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

توجد شركات مبيعاتها السنوية أربعمائة مليار دولار.

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس، خيرٌ لك من حُمْرِ النعم، خيرٌ لك من

الدنيا وما فيها))

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

أي أن هذا التوجيه من باب علاقتنا بالآية، تسميه تطبيق عملي جيد، تسميه مغزى جيد:

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

نصيحة أقرب الناس إليك لأنك ستسأل عنهم:

((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214))

(سورة الشعراء)

أقرب الناس إليك أولادك، زوجتك، إخوتك، أخواتك، أعمامك، أخوالك، جيرانك، زملاؤك، أصدقائك، هؤلاء الذين هم حولك، ألا تنطق بكلمة حق أمامهم ؟ ألا تأخذ بيدهم إلى الله ؟ ألا تشعر أن الله سيسألك عنهم ؟

((إن الله يسأل العبد عن صحبة ساعة))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراً جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر)))

(صحيح البخاري عن جابر عبد الله الأنصاري)

إيناساً له، تحبباً إليه، تقريباً له، تلطفاً به.

(يا أيها المدثر (1) قم فأنذر (2) وربك فكبر (3) وثيابك فطهر (4) والرجز فاهجر (5))

وجاء في صحيح مسلم:

((عن يحيى بن أبي كثير المعنى قال: سألت أبا سلمة أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: يا أيها المدثر، قال يحيى: فقلت لأبي سلمة أو اقرأ، فقال: سألت جابراً أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ؟ فقال جابر أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جاورت بحراً شهراً فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي فوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ثم نوديت قال: فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء (أي جبريل عليه السلام) فأخذتني وجفة شديدة وقالاً في حديثهما: فاتيت خديجة فقلت دثروني فدثروني وصبوا علي ماء فأنزل الله عز وجل (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر))

(مسند أحمد)

الصفات التي نعت بها الكفار سيدنا محمد:

1 - مجنون:

شيء آخر متعلق بهذه الآية: اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة في أيام الحج وهم يتساءلون عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وقد اختلفوا في الإخبار عنه فمن قائل: مجنون؟ وقد يسأل سائل كيف ربنا جلّ جلاله أثبت في القرآن الذي يتلى إلى يوم القيامة، أثبت قول الكفار فيه؟

(مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم)

لأنه قدوة لنا صلى الله عليه وسلم، الإنسان إذا دعا إلى الله أو عمل صالحاً الطرف الآخر لا يرضى عن ذلك، فقد يتهم الطرف الآخر من دعا إلى الله أو من عمل صالحاً بتهمة هو منها بريء، فتطبيباً لقلب

كل من دعا إلى الله إلى آخر الزمان أثبت الله قول الكفار في سيدّ الخلق وحبيب الحق، قالوا: مجنون، وقال آخرون: كاهن، وقال آخرون: شاعر، وتعلّم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسّموا محمداً باسم واحد، اتفق أهل الكفر والعصيان على توحيد النعت الذي يُنعتُ به النبي أي مجنون، شاعر، كاهن.

هذه الصفات الثلاثة لا تجتمع في واحد فاتفقوا على أن نعت محمداً بنعت واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به.

2 - شاعر:

قام منهم رجل فقال: هو شاعر، فقال الوليد بن المغيرة: كلامه ما يشبه كلام الشعراء، كلام محمدٍ شيء وكلام الشعراء شيء آخر.

3 - كاهن:

قالوا: إذاً هو كاهن، فقال: الكاهن يصدّق ويكذب وما كذب محمد قط. قام آخر وقال: مجنون، فقال الوليد: **المجنون يخنق الناس وما خنق محمد أحد قط**، وانصرف الوليد إلى بيته، فقال خصومه: صبا الوليد بن المغيرة أي إنه أسلم لأنه دافع عن النبي، نفى عنه الشعر، نفى عنه الكهانة، نفى عنه الجنون.

4 - ساحر:

دخل أبو جهل على الوليد بن المغيرة و قال: ما لك يا أبا عبد شمس هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونك إياه زعموا أنك قد صبأت، فقال الوليد: " ما لي إلى ذلك حاجة ولكنني فكّرت في محمدٍ فقلت: ما يكون من السحر، فقليل: يفرق بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلت: إنه ساحر". أي بعد ما لامس الحقيقة، بعد أن قال الصواب وجد أنه سيفقد مكانته بين مجتمعه فعاد وانتكس وقال: إنه ساحر، وصاحوا يقولون: إن محمداً ساحر، ويرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته محزوناً متألماً أشدّ الألم تدثر بقطيفة ثم نزل قوله تعالى:

((يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

النبي بشر، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيّد البشر تألم هو رسول الله، هو بين أن يكون مجنوناً، أو كاهناً، أو شاعراً، ثم اتفقوا على أنه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأهله، كيف يُفرّق؟ الرجل يؤمن وامراته لا تؤمن، تنشأ هوة بينهما، الأخ يسلم والأخ الثاني لا يسلم.

حساسك بالغربة بين عامة الناس علامة إيمانك:

وأنت الآن: إن لم تشعر بغربة وأنت بين عامة الناس فأنت بعيدٌ عن الإيمان لأن:

((هذا الدين بدأ غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

أناسٌ صالحون في قومٍ سوءٍ كثير، إحساسك بالغربة علامة إيمانك، إن جلست بين أهل الدنيا، بين من شغلته الدنيا، شغلته أهواؤهم، شغلته شهواتهم، شغلته مصالحهم عن طلب العلم، وعن معرفة الله، وعن طاعة الله عزّ وجل، هؤلاء ضاعوا فإن استأنست بهم فأنت مثلهم، الإحساس بالغربة من علامة الإيمان، والعلماء قالوا: "المؤمنون في غربة مع غير المؤمنين، والموحّدون في غربة مع عامة المؤمنين، والساكنون إلى الله في غربة مع غير السالكين". كلما ارتقيت في الإيمان شعرت أن الذين حولك ليسوا على مستواك، هذا نوعٌ من الغربة. الشيء الذي أكّدته لكم قبل قليل:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1))

صفات المؤمن في الدعوة إلى الله:

ملاطفة في الخطاب، إيناس، تحبب إلى الله عزّ وجل، تكريم لهذا النبي وتذكير لمهمّته الكبيرة.

((فَمُفَانْذِرُ (2))

لذلك أيها الإخوة: من جعل الهموم همّاً واحداً كفاه الله الهموم كلها. اعمل لوجهٍ واحد يكفيك الهموم كلها. حينما ينشأ في نفسك رغبة في نشر الحق هذا همٌ مقدّس عندئذٍ الله جلّ جلاله يوفّقك ويؤيّدك، ويذمّك ويطلق لسانك، ويهبك الحكمة التي هي أثمن شيء.

((وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً))

(سورة البقرة: آية " 329 ")

(قَمْ فَأَنْذِرْ (2))

أي أنذر أهل مكة وحذّرهم العذاب إن لم يسلموا، وأنذرهم أي أعلمهم أنك نبي من عند الله وأنت رسول الله، وأنت تحمل رسالة، وقال: أنذرهم أي ادعهم إلى التوحيد لأنه المقصود بالدين، وقال بعض العلماء: "قم فأنذر، أي قم فصلي و ائمر بالصلاة".

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

بالمناسبة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة، وهذه الأمة المحمدية التي استحققت أن تكون خير أمة أخرجت للناس، علّة هذه الخيرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن لم يأمر بالمعروف ومن لم ينه عن المنكر فقد عطل فريضة من أجلّ الفرائض وعندئذ الحق يصغر ويتقلص ويضعف والباطل ينمو.

ضربت مرة مثلاً: لو أنك عم وزارتك بنت أخيك فلم يعجبك مظهرها، ولا خروجها في هذه الثياب، لو بقيت ساكناً فأنت قصرت بواجب ديني كبير، أما لو نصحتها وبيّنت لها صفة المرأة المؤمنة المسلمة، وكيف أن الاحتشام يزيد لها قرباً من الله عزّ وجل، وكيف أن الأمر بيد الله، وأن زواجها بيد الله، وأنها إذا أطاعت الله عزّ وجل فقد فازت فوزاً عظيماً، ربما تأتيك في المرة الثانية بثياب محتشمة، وربما يغدو الاحتشام سلوكاً لها ثابتاً، تكلم، بين حكم الله.

أحياناً الإنسان يُدعى إلى طعام وعليه خمر ماذا يقول ؟ يقول لك: أنا معي القرحة لا أقدر أن أشرب الخمر، يا أخي قل: أنا مسلم وهذا محرّم عندنا، أتستحي من دين الله عزّ وجل ؟ بيّن وضع استقيموا يُستقم بكم.

(وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3))

(سورة المدثر)

أي عظم، ما هو التسبيح ؟ هو التنزيه، وقال بعضهم: " هو التمجيد ". وقال بعضهم: " هو الخضوع".

تعظيم الله و تكبيره:

(وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3))

أي إن الله أجل وأكبر مما تصفون، أجل وأكبر أن يظلم العباد، أجل وأكبر أن يكون مثل عباده ليس كمثل شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، أي عظم.

(وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

(سورة الحج)

أي هو أكبر من أن يكون له صاحبة وولد، قالوا: الملائكة بنات الله، هو أكبر من ذلك، فكلمة كبرته كلما عرفته، كلما اقتربت منه، وقد سأل الصحابة الكرام بما نفتتح الصلاة ؟ فنزل قوله تعالى:

(وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3))

أي صفه بأنه أكبر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى يقول:

((الله أكبر))

ومعنى الله أكبر أي أكبر من أي شيء يشغلني عنه.

إذا الإنسان كان يعد مئة ألف ليرة وشعر أن هذه الحاجة مائلة فترك العد وجعلها مستقيمة، هل يفعل هذا ؟ هذا شيء سخي جداً أن الحاجة مائلة ليست متوازية مع طرف الطاولة، إنه يعد مالا، لا يوجد إنسان أثناء العد ينام، إنه يقبض مبلغاً، أو يدفع مبلغاً، إنه في يقظة، ولكن الإنسان إذا صلى وقال: الله أكبر يعني الله أكبر من أي شيء يشغلني عنه، من أي شيء في الدنيا يشغلني عنه.

تطبيق الله أكبر قولاً وفعلاً:

شيء آخر: روي أن أبا سفيان قال يوم أحد: اعلُ هُبْل. أي يكبرون أصنامهم اعلُ هُبْل، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: قولوا:

((الله أعلى وأجل))

وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع تكبير العبادات كلها ؛ آذاناً، وصلاةً، وفي أكثر العبادات. الآن عند ذبح الأضحية نقول: الله أكبر، عند تقبيل الحجر الأسعد: الله أكبر. عند الآذان: الله أكبر. عند الصلاة: الله أكبر.

(وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3))

لكن ليس المقصود أن تقول: الله أكبر فقط. فأنا مرة في خطبة العيد قديماً ذكرت أن الإنسان إذا أطاع مخلوقاً وعصى خالقاً لو قال بلسانه الله أكبر ألف مرة هو في الحقيقة ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن طاعة هذا المخلوق أكبر عنده من طاعة الخالق، لو أن الإنسان في بيته استجاب لرغبات زوجته المُتَحَرِّفة فكسب المال الحرام إرضاءً لزوجته وعصى الواحد الديان، لو قال في العيد ألف مرة الله أكبر ما قالها ولا مرة لأنه رأى أن إرضاء زوجته أكبر عنده من إرضاء الله، بينما صحابي جليل طالبتة

امرأته بشيء من الدنيا (الشيء المباح) فقال: " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على أهل الأرض لغلّب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك ". هذا قال الله أكبر.

لذلك المؤمن إذا دُعي إلى مخالفة، إذا دعي إلى شيء لا يرضي الله يقول: الله أكبر ما عنده أكبر، ما وعد به أوليائه من الجنة أكبر، ما أوعده عباده من العذاب أكبر، الله أكبر، وهذا هو الدين وهذا هو الإيمان، فالحق أكبر أكثر العبادات تفتتح بهذه التكبيرة أي أعظم الله عزّ وجلّ.

من معاني الله أكبر:

أن الله أكبر مما تعرف:

بعضهم قال من معاني الله أكبر في قوله تعالى:

((وَرَبِّكَ فُكْبَرُ (3))

أن الله أكبر مما تعرف. مهما عرفت عن الله فهو أكبر، مهما ارتقيت في سلم الإيمان فهو أكبر، مهما اتسعت رؤيتك للحقيقة فالحق أكبر، مهما شعرت أن الله عظيم فهو أعظم، لذلك من أدق التفسيرات لقوله تعالى:

((وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ))

(سورة محمد: آية " 19 ")

أي ذنب اقترفه النبي عليه الصلاة والسلام ؟ العلماء وجّهوا هذه الآية بمعنى أن كل رؤية رآها النبي رأى فيها عظمة الله عزّ وجلّ، الرؤية التي تليها هي أوسع وأشمل فكأنه يستحي من رؤيته السابقة وكأنها في حقّه ذنب.

إنسان تعرف عنه الشيء الكثير ثم فوجئت أنه أكبر مما تعرف فإنك تستحي بمعرفتك المتواضعة، وفي النهاية لا يعرف الله إلا الله، النبي عليه الصلاة والسلام مع أنّه سيّد الخلق وحبیب الحق لم يعرف الله حق المعرفة، فهو أعلى إنسان في معرفة الله لكن لأن الله لا يعرفه إلا الله، إذاً الله أكبر، أكبر مما أعرف، مهما عرفت عن رحمته فهو أكبر، مهما عرفت عن عدله فهو أكبر، مهما عرفت عن لطفه فهو ألطف.

1 - العمل:

أيها الإخوة:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

هذه الآية مهمة جداً، أول معنى من معاني الثياب: هو العمل، الإنسان له ثوبٌ من عمله، الآن في جلسة يذكر إنساناً (جزاه الله خيراً) يذكر إنساناً ثانياً أول كلمة: الله لا يوفقه، معنى هذا أن عمله ثوب له، فأول معنى من معاني:

((4)) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

أي أن هذا العمل الذي هو لك كالثوب أنت متلبس به، يوجد مستقيم ويوجد منحرف، يوجد رحيم ويوجد قاسي، يوجد منصف ويوجد ظالم، يوجد صادق ويوجد كاذب. أول معنى: وعملك فأصلح، عملك ثوبٌ لك، يقول لك: هذا أمين الأمانة ثوب، هذا مستقيم فإن الاستقامة ثوب، هذا مُتَّقِنُ الْإِتْقَانِ ثوب، هذا مخلص الإخلاص ثوب، هذا صادق الصدق ثوب، هذا كاذب فإن الكذب ثوب، هذا خائن الخيانة ثوب، هذا غير عفيف فإن عدم العفة ثوب، فتوبك أي عملك، كلما دُكرت دُكرَ معك عملك وكأنه ثوبٌ لك يحيط بك.

استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية:

((4)) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

أي أصلح عملك، يوجد تقصير، يوجد انحراف، يوجد كذب، يوجد اغتصاب لأموال الآخرين، يوجد احتيال، يوجد تدجيل، يوجد ابتزاز، عملك ثوبك الذي تلبسُهُ دائماً ولا تستطيع أن تخلعه أبداً. لو أن إنساناً فُضح، هذه الفضيحة سَرَتْ بين الناس، أصبحت له كالثوب متى دُكر تذكر فضيحته، متى تحرَّك يُشار إليه بأنه فعل كذا وكذا، والآن الفضائح توجد معها أفلام، يوجد تصوير، لا يستطيع أن يهرب من هذا الثوب الذي لبسه، هذا المعنى الأول (وعملك فأصلح). لذلك العرب تقول: فلان خبيث الثياب إذا كان عمله سيئاً، وفلان طاهر الثياب إذا كان عمله صالحاً وهذا من استعمالات كلمة الثوب في اللغة العربية، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

((إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3))

(سورة الزخرف)

أساليب العرب قبل الإسلام الثوب هو العمل، فلان طاهر الثوب أي عفيف، فلان خبيث الثوب أي عمله سيئ، والحقيقة الإنسان القوي أحياناً أو الغني يمدح في وجهه فقط، العبرة لا ما يقال أمامك بل ما يقال في غيبتك، أنت تساوي لا ما يقال في حضرتك بل ما يقال في غيبتك، فإذا غبت عن الناس ماذا يقال عنك ؟ جزاه الله خيراً، والله صادق، والله كريم، والله محسن، مستقيم، ورع، والإنسان المنحرف إذا تكلم الناس عنه في غيبته نهشوا عرضه وأطلقوا لألسنتهم العنان.

2 - القلب:

المعنى الثاني:

(وَيْبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي قلبك فطهر لأن العمل أساسه القلب، الذي قلبه طاهر عمله طاهر، الذي قلبه فبه حقد وفيه حسد وفيه شهوة دنيّة عمله سيئ، فهذا تحصيل حاصل، يعني ثوبك أي قلبك الذي منه يصدر عملك، العمل سلوك وقبل السلوك إرادة وقبل الإرادة تصوّر وقبل التصور عزم القلب، يوجد في القلب تساهل فيصبح الإنسان غير مستقيم، يوجد في القلب كبر فسلوكه فيه كبر، يوجد في القلب حقد فإن سلوكه فيه حقد، يوجد في القلب ظلم إذاً هو يظلم، فالمعنى الثاني:

(وَيْبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي قلبك فطهر.

((عبدى طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظرى ساعة ؟))

(ورد في الأثر)

طهرت منظر الخلق أي الإنسان يطلي البناء، يرتدي ثياباً جميلة، ينظف مركبته لأنها منظر الخلق، أفلا ينبغي أن يطهر قلبه لأنه منظر الرب ؟

((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

3 - النفس:

المعنى الثالث: النفس، ذات الإنسان، يوجد نفس طاهرة، يوجد نفس خبيثة.

((إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7))

(سورة المائدة)

من هي ذات الصدور ؟ نفسك التي بين جنبيك، هذا المعنى الثالث من:

((وَيَبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي طهر عملك، وطهر قلبك، وطهر نفسك، والنفس ذات الإنسان، قالوا: طهرها من الإثم والعدوان، طهرها من المعاصي والآثام، طهرها من الغدر بالخُلان، أي طهر نفسك من كل شيء لا يرضي الله عز وجل.

4 - الجسم:

المعنى الرابع:

((وَيَبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي وجسمك فطهر عن المعاصي الظاهرة، العين تزني وزناها النظر، توجد عين طاهرة أي تغض عن محارم الله، توجد أذن طاهرة لا تستمع إلى الغناء، يوجد لسان طاهر يذكر الله دائماً، توجد يد طاهرة إنها تعطي، توجد رجل طاهرة إنها تحملك إلى المسجد ؛ أما الرجل التي تقود صاحبها إلى ملهى هذه رجل نجسة، واليد التي يبطش بها الإنسان ظلماً يد نجسة، والعين التي يبيع بها عورات المسلمين عين نجسة، والأذن التي يستمع بها إلى الغيبة والنميمة وقول الزور والبهتان وفصائح الناس ويستمع بها إلى الغناء أذن نجسة، واللسان الذي يذكر عورات الناس لسان نجس، إذاً:

((وَيَبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي طهر جسمك من المعاصي الظاهرة.

5 - الأهل:

المعنى الخامس لقوله تعالى:

((وَيَبَاكَ فَطَهَّرْ (4))

أي أهلك فطهرهم لأن أهل الإنسان كالثياب له استناداً لقوله تعالى:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

والله سبحانه وتعالى يؤكد هذا المعنى في آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: آية " 6 ")

أي زوجتك ألصق الناس بك، أولادك، بناتك، إخوتك، أخواتك هؤلاء أهلك، هؤلاء عورتك، طهرهم، أي اهتم بهم، دقق في صلاتهم، في طاعتهم، في حجابهم، في دينهم، في علمهم..

((وَيْيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

هم ثيابك، هذا المعنى المتعلق بالأهل وهو المعنى الخامس.

6 - الخلق:

والمعنى السادس: الثياب هي الخلق، يعني يبدو منك أخلاقك، أخلاقك هي كالثياب، أنت إن نظرت إلى إنسان ماذا ترى ؟ ترى ثيابه، وأخلاقه ثيابه.

((وَيْيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي طهر أخلاقك من الدنس، من الكذب، من الغيبة، من النميمة، من الحقد، من الكبر، هذا أيضاً من معاني:

((وَيْيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي أن خلق الإنسان مُشْتَمِلٌ على أحواله اشتغال ثيابه على نفسه.

7 - الدين:

ويوجد معنى سابع:

((وَيْيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فطهر:

((ابن عمر، دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا ولا

تأخذ عن الذين مالوا))

(أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر)

دين عقيدتك، هل بحثت عن عقيدة صحيحة أم أن في ذهنك تعشعش الأوهام والأباطيل والخرافات، والأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص التالفة، والخرافات، والكرامات التي لا تُصدّق، ثيابك دينك، هل استقامت عقيدتك ؟ هل قُمتَ بواجباتك الدينية ؟ هل عبدت الله حق العباداة ؟ هل اتقيت الله حق التقوى ؟ أن تذكره فلا تنساه، أن تشكره فلا تكفره، أن تطيعه فلا تعصيه، هذا المعنى السابع.

((وَيْيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فطهر، هذا يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم:

((رَأَيْتَ النَّاسَ وَعَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيِ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ وَرَأَيْتَ عَمْرَ ابْنَ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ

إِزَارٌ يَجْرُهُ (أَيُّ ثِيَابِهِ سَابِغَةً) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ، قَالَ: الدِّينُ))

(متفق عليه عن أبي سعيد الخدري)

الثوب هو الدين، يوجد إنسان ثوبه إلى خصره، يوجد إنسان ثوبه إلى أُنْدَانِهِ، يوجد إنسان ثوبه إلى رقبته، رأى عمراً يرتدي ثوباً سابغاً يجره، قال: ما أَوْلَتْ ذَلِكَ ؟ قال: الدين، إذا استنباطاً من هذا الحديث الشريف:

((وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

أي دينك فأصلح، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا.

8 - الثياب:

بقي المعنى الثامن:

((وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

المعنى المتبادر للثياب، أي إن هذه الثياب التي ترتديها يجب أن تكون طاهرة، لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا))

(صحيح البخاري: عن ابن عمر)

((مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري: عن عبد الله عن أبيه)

سيدنا الصديق قال:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَحَدٌ شَقِيَ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَسْتُ

مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خِيَلًا))

(متفق عليه عن سالم بن عبد الله)

أنت فوق ذلك يا أبا بكر.

((وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

لا تجعلها مع الطريق، أو اغسلها من النجاسة وهو ظاهر، لا تصلي في ثوب غير طاهر، هذا معنى الثياب الطاهرة، أي يجب أن ترتدي ثياباً نظيفة، فإما أن تجعلها طاهرة بأن لا تكون سابغة إلى درجة أنك تنظف بها الطريق، فالثوب المعتدل أنقى وأقرب إلى الله وأتقى.

شيء أخير في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكْبِرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

الثوب الأهل، والثوب القلب، والثوب النفس، والثوب العمل، والثوب الثياب التي أمرنا أن نظهرها دائماً، والقرآن كما قال الإمام علي بن أبا طالب رضي الله عنه: " حَمَال أَوْجِه ".

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109))

(سورة الكهف)

وهذه الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

اسأل نفسك هذا السؤال: هل ساهمت في حياتك بهداية إنسان واحد ؟ هل فكرت أن تنقل حقيقة للآخرين؟ هل أردت أن تصطحب أحداً إلى بيت الله ؟ هل دخل إلى قلبك رغبة حميمة أن تنقذ إنساناً من الكفر، من الضياع، من المعصية ؟ هذا ما نستفيد منه من هذه الآية:

(قُمْ فَأَنْذِرْ (2))

طبعاً في حدود ما تعلم وفي حدود من تعلم، وهذه الدعوة إلى الله على هذين المستويين فرض عين على كل مسلم، ومن قصر بهذا فهو ليس متبعاً لرسول الله، ومن علامة حبك لله إتباعك لرسول الله، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 5-7 التواضع علامة الإيمان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-12-1997

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثاني من سورة المدثر، ومع الآية الخامسة والتي بعدها وهي قوله تعالى:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

(سورة المدثر)

**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))**

(سورة المدثر)

المعنى الدقيق و الواسع للرجز:

أيها الإخوة الكرام: الرجز معناه الدقيق الأصنام، المعنى الواسع كل ما سوى الله، لا تلتفت إلى غير الله، ولا تعتمد على غير الله، ولا تتجه إلى غير الله، ولا تعقد آمالك على غير الله، ولا تتكى على صديق ولا صاحب، ولا على ولدٍ ولا زوجة، ليكن اعتمادك على الله وحده.

الشرك الخفي:

أيها الإخوة: قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

العلماء فصلوا بين الشرك الجلي وبين الشرك الخفي. ليس في العالم الإسلامي كله والحمد لله شركٌ جلي، ليس عندنا إلهٌ كبودا يُعبد من دون الله، ولكن الشرك الخفي هو كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الشَّرْكَ الْخَفِيَّ))

[سنن أحمد عن شداد بن أوس]

أنت مسلم مؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الكتب حق، وأن الأنبياء والرسل حق، ولكن لضعف التوحيد تتجه إلى غير الله، لضعف التوحيد تُلقي آمالك على غير الله، لضعف التوحيد تعتمد على مالك، من اعتمد على ماله ذل، لضعف التوحيد تثق بقدراتك،

ومن توكل على ذاته أوكله الله إياها، نريد من هنا أن نبين معنى الشرك الخفي، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله، والنبي بين أظهرهم، وهم صفوة الصفوة.

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

ومع ذلك حينما قالوا يوم حنين: لن نغلب من قلة، اعتمدوا على كثرتهم وهم لا يشعرون.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

مُذَبِّرِينَ(25))

(سورة التوبة)

على الإنسان أن يعتمد على الله وحده:

راقب نفسك، دقق فيما تقول، هناك إنسان أنا أعرفه مؤمناً، لكن زلّ لسانه فقال: بالمال يُحلّ كل شيء، وقع في ورطة، فجلس تسعة وستين يوماً في غرفة لا تزيد عن متر بنصف متر وهو لا يستطيع أن ينطق ولا أن يتنفس، فكان تأتيه الخواطر كل دقيقة: أتحلّ هذه بالمال؟ لا تعتمد على مالك، ولا على سلطانك، ولا على ذكائك، ولا على خبراتك المتراكمة، ولا على علمك، ولا تُلقي الآمال على ولد قد يسافر ويتجنّس ويستغني عن أهله كلهم، لا تعتمد على زوجة قد تقلب لك ظهر المِجن وأنّت في أشد الحاجة إليها، اعتمد على الله وحده، هذا المعنى الواسع:

(وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ (5))

لا تلتفت إلى الأصنام، أي:

((إن الشيطان ينس أن يُعبد في أرضكم))

بعد ظهور هذا الدين العظيم ليس في العالم الإسلامي كله مجالاً لصنم يُعبد من دون الله:

((.... ولكنها شهوة خفية وأعمالٌ لغير الله))

[سنن أحمد عن شداد بن أوس]

فلذلك:

(وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ (5))

قالوا: الأوثان، الدليل:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج: آية " 30 ")

الاجتناب و التحريم:

الاجتناب له معنى دقيق، كيف أن الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90))

(سورة المائدة)

الاجتناب أشد من التحريم، أشد بكثير، لو أن الله حرّم الخمر لجاز لك أن تبيعها أو أن تشتريها، أو أن تنقلها، حرم الخمرة فقط، ولم يأمر باجتنابها، لجاز لك أن تبيعها وأن تشتريها، وأن تحملها، وأن تحمل إليك تريح بها، وأن تعلن عنها، وأن تستثمر ثمنها، ولكن حينما قال الله عز وجل:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

لعن الله الخمرة وبائعها وشاريها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه، الاجتناب لا بد من أن تبقى مسافة بينك وبين هذا المحرّم، مسافة أمان، كذلك هنا:

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

أي أن كل شيء ما سوى الله رجزٌ.

معاني الرجز:

1- الأصنام:

أول معنى الرجز: هم الأصنام، الآية الكريمة:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج: آية " 30 ")

2 - الإثم:

عن ابن عباس رضي الله عنه: " أن الرُّجْز هو الإثم " أي إثم ينبغي أن تجتنبه، والإثم هي المعصية، الإثم والعدوان، الإثم معصية فيما بينك وبين الله، والعدوان معصية فيما بينك وبين العباد، الإنسان إذا ترك الصلاة يَأْثِمُ، وإذا أطلق بصره في الحرام يَأْثِمُ، أما إذا أكل مال الآخرين ظلماً فقد اعتدى عليهم، فالإثم متعلقٌ فيما بينك وبين الله، والعدوان متعلقٌ فيما بينك وبين الناس.

نحن على أبواب رمضان، وعلى أبواب الحج بعد رمضان، وقد يتوهم المسلمون أنك إذا صُمت رمضان غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر إطلاقاً نقول: لا، غُفرت لك الذنوب التي بينك وبين الله، أما التي بينك وبين العباد هذه لا تُغفر إلا بحالتين، إلا بالأداء أو المسامحة، وإذا ذهبت إلى بيت الله الحرام (إن شاء الله تعالى) وحججت حجاً مبروراً غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر إلا الذنوب التي بينك وبين العباد، لأن حقوق الله مبنية على المسامحة بينما حقوق العباد مبنية على المشاحنة. فإياك أن تتوهم أنه بعد رمضان سقطت عنك كل الحقوق والواجبات التي عليك أن تؤديها إلى الناس، وأنه بعد الحج سقطت عنك كل الحقوق والواجبات التي عليك أن تؤديها للناس، هذا لا يسقط إلا بالأداء والمسامحة، فالمعنى الثاني اهجر كل معصية تُبعدك عن الله عز وجل.

هجر كل ما يبعدنا عن الله تعالى:

أنت أمام شيء، الهدف الأول الحقيقة الوحيدة في الكون هي الله، أي شيء يقربك إليك افعله، وأي شيء يبعدك عنه فاهجره، هذا ملخص الملخص، إن تكلمت بالحق تتقرب، وإن نصحت مسلماً تتقرب، إن قرأت القرآن تتقرب، إن أعنت ضعيفاً، إن أطعمت جائعاً، إن رعت يتيماً، إن اعتنيت بأرملة، إن أنفقت مالك في سبيل الله، إن صليت، إن صُمت، إن تعلمت العلم، إن علمت العلم، إن قرأت القرآن، إن قرأت القرآن، أي شيء يقربك إلى الله فافعله، وأي شيء يبعدك عن الله ولو ومضة، لو أنك أتبعْتَ النظرة النظرة وقعت في الإثم، لو أنك ابتسمت ابتسامة ليس في مكانها ابتعدت عن الله، لو أنها كما قالت: قصيرة، قال:

((يا عائشة لقد قلت كلمة لو مُرِجت بمياه البحر لأفسدته))

((وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

اهجر كل إثم ومعصية تبعدك عن الله.

لكن العلماء قالوا: إذا قلت للطالب المجتهد اجتهد، معنى ذلك أن ثابر على اجتهادك، وإن قلت للكسول: اجتهد أي ابدأ اجتهادك، العاصي إن أمرته بالطاعة فمن أجل أن يطيع الله، أما إذا أمرت طائعاً بالطاعة من أجل أن يستمر على طاعته.

((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ))

(سورة الأحزاب: آية " 1 ")

النبي يتقي الله، إذاً معنى اتق الله بحق النبي أن يستمر على تقوى الله عز وجل.

((وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

معنى آخر قال تعالى:

(لَنْ كُشِفَتْ عَنَّا الرَّجْزُ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134))

(سورة الأعراف)

هنا العذاب، معنى العذاب.

(وَالرَّجْزُ فَاهْجُرْ (5))

أي ابتعد عن كل عمل يؤدي بك إلى العذاب، أي عمل ينتهي بك إلى العذاب ابتعد عنه.

قانون العزة:

بحياتنا الواقعية إذا فرط الإنسان في تناول ما لا ينبغي (كشرب الدخان مثلاً) هذا قد يؤدي به إلى أورام خبيثة، إلى أمراض في الأوعية، إلى أمراض في الدم، أمراض في دسّمات القلب، أمراض في الكليتين، أمراض في الجلد وفي الأطراف البعيدة، فهذا يؤدي بك إلى مرض معذب، ابتعد عنه، بشكل واسع أي عمل ينقلك إلى عذاب، يضعك تحت وطأة عذاب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إياك وما يعتذر منه))

أي العمل الذي تستحي منه، تصغر أمام الناس به، يحمّر وجهك خجلاً منه، إياك أن تفعله تكن عزيزاً، والعزة لها قانون:

(لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ(26))

(سورة يونس)

المُحْسِن المستقيم لا أحد يستطيع أن يذله أبداً ولو كان فقيراً، ولو كان ضعيفاً، ولو كان في الدرجة الدنيا من المجتمع، استقامته، ونظافته، وصدقه، وأمانته، وعفافه يجعلانه كالملك، قال الملك لوزيره: من الملك؟ قال: أنت. قال له: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه (إنسان نظيف).

فأي واحد منا إذا كان مستقيماً، صادقاً، أميناً، عفيفاً، مطبقاً لمنهج الله، يؤدي صلواته الخمس، يصوم رمضان، يغيض بصره عن محارم الله، لا يوجد في بيته معصية، ولا يوجد في عمله معصية، صادق، أمين، هذا هو الملك، هذا ملك في الدنيا والآخرة لأنه هجر الرجز، وترك كل أنواع الإثم.

لا بدّ في الإثم من عدوان على الآخرين، لو نظرت إلى امرأة لا تحل لك هذا إثم وعدوان بآن واحد. فالمعنى الأول: اجتنب عبادة الأوثان بالمعنى الضيق، بالمعنى الواسع: اجتنب الشرك الخفي، أن تلقي الآمال على غير الله، أن ترى أن هذا الإنسان يعطيك أو يمنعك، يرفعك أو يخفضك، يُمدّك أو يمنعك، لا تفعل هذا نوع من الشرك، اعتمد على الله وحده، لكن لك أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله وحده، وهذا الشيء دقيق إن لم تأخذ بالأسباب فقد عصيت الله، لأن الله عزّ وجل جعل لكل شيء سبباً، وإن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد جعلتها إلهاً، أشركت مع الله، فالبطولة أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على الله وحده، وهذا لا يستطيعه إلا المؤمنون الصادقون، من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون، أناس فقراء سألهم عملاق الإسلام (سيدنا عمر): من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتهم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه الصحيحة:

((قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضَى عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ. فَقَالَ: مَا قُلْتَ ؟ قَالَ: قُلْتُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُلْوِمُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنَّ عَلَيْكَ بِالْكَفَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(مسند أحمد عن العوف بن مالك)

أنت مكلف أن تسعى، أما حينما تقهر هذا قضاء الله وقدره، هذا المعنى الثالث. المعنى الأول: ابتعد عن عبادة الأصنام، الأوسع: ابتعد عن الشرك الخفي، المعنى الثاني: ابتعد عن كل عمل يؤدي بك إلى العذاب، في عذاب نفسي أحياناً، فإذا كان شريك خان شريكه، يحتقر نفسه ولو أن أحداً لم يعلم. لو أن امرأة ابتسمت لغير زوجها، ابتسمت في محل تجاري لرجل أجنبي عنها، ابتسمت وألانت له القول، تشعر أنها خانت زوجها بشكل أو بآخر، هذه الابتسامة وهذا اللين لزوجها فقط لا لرجل أجنبي لأن الله تعالى يقول:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

(سورة الأحزاب)

فالإنسان حينما يخطئ يشعر بصغار، يفقد احترامه لذاته، إذا أي عمل يؤدي بك إلى عذاب نفسي، إلى حرج مع الآخرين، إلى حرج أمام الله عز وجل ينبغي أن تبتعد عنه.

الانضباط في مجتمعنا من نعم الله على الإنسان:

فمن الطرف التي قرأتها مرة: أن استبياناً (أي إحصائية) وزَّعَ على مئة زوج، هذا الاستبيان فيه سؤال وحيد: لماذا لا تخون زوجتك ؟ طبعاً ليس عندنا في بلادنا، نحن عندنا في بلادنا الأصل ذلك، هذه من نعم الله الكبرى، معظم الأسر خمسة وتسعين بالمئة أسر منضبطة (من هذه الناحية منضبطة) أما في بلاد الغرب قد يحتفل الإنسان وهو في دمشق بعيداً عن زوجته ثلاث سنوات بأن امرأته أنجبت له مولوداً، ويدعو أصدقاءه لطعام ولحفلة، شيء طبيعي جداً.

هناك قصة رويتها لكم سابقاً، تعبّر عن مجتمع الغرب، شاب رأى فتاة فأحبها فاستشار أباه فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فلما رأى فتاة أخرى أعجبته أيضاً، فاستشار أباه ثانية، فقال له: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فلما رأى فتاة ثالثة أيضاً أعجبته فاستشار أباه فقال له كما قال في المرة الثانية والأولى: لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري، فلما ضجر شكاً إلى أمه هذا فقالت له: خذ أياً شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري. هذا مجتمع الغرب، هذا مجتمع الغرب مجتمع التفكّلت، والانحلال. لذلك: من هوي الكفرة حُشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، ومن أقام مع المشركين فقد برأت منه ذمة الله، من أقام معهم إقامة دائمة، أعجبه سلوكهم، أعجبه تفكّلتهم، أعجبه انحلالهم، أعجبه نمط حياتهم، أعجبه بعدهم عن الله عز وجل واعتمادهم على العلم وحده وعلى المادة وحدها.

اختبار الدافع الإنساني في العالم الغربي:

قرأت تعليقاً أرادوا أن يمتحنوا الدافع الإنساني الرحيم في المجتمع الغربي، فجاءوا بسيارة محطمة، وأجلسوا إلى جانبها إنساناً وقد صبغوه باللون الأحمر كأن الدم قد سال منه، وضعوه على أكتف طريق بين باريس وليون، فهذا الطريق لا ينقطع فيه السير، بعد ست ساعات وقفت سيارة كي تسعفه. فهؤلاء ابتعدوا كثيراً عن الله عز وجل أما أتقنوا الدنيا إتقاناً مذهلاً، لكي نكون واقعيين، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أتقنوا الدنيا وكفروا بالآخرة، لذلك ينطبق عليهم قول الله عز وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

لم يقل: باب كل شيء، قال: أبواب، ولم يقل: أبواب شيء، أبواب كل شيء:
(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبْلِسُونَ(44))

أجري برنامج في بعض البلاد الغربية عن الزنا، جاءت اتصالات هاتفية إلى البرنامج، اكتشف أن ثلاثة وثلاثين بالمائة من حالات الزنا في أمريكا زنا محارم، بين الأخ وأخته، والأب وابنته، هذا المجتمع، هناك مسيرات في بعض المدن الغربية، مئة ألف إنسان لأخذ حقوقهم، هؤلاء الشاذين جنسياً، مجتمعات انحلت وانتهت لكن قوتها المادية لا تزال موجودة، العلم والتكنولوجيا والقوة المادية موجودة، أما مبادئ، قيم، أخلاق، حديث ولا حرج.

فالذي أوصلنا إلى هذا: لا تعمل عملاً تستحي منه، تعدّب، هذا الاستبيان سألوا الأزواج (ألف زوج فرضاً): لماذا لا تخون زوجتك ؟ فكان الجواب، بعض الإجابات: أنني لا أستطيع لأنها تعمل معه في البقالية مثلاً. ويوجد إجابات: إنني لا أحتمل الشعور بالذنب. وفي جواب جيد: إنني أكره الخيانة. أنا ذكرت هذا المثل للفقرة الثانية، إنني لا أحتمل الشعور بالذنب.

الإحساس بالذنب يؤدي إلى الكآبة:

فأحدنا والفضل من الله عزّ وجل، المستقيم، الطاهر، الصادق، الأمين، العفيف، عنده راحة نفسية، عنده شعور سوي صحيح، أما حينما يقترب إثمًا، حينما يعتدي على أعراض الناس، حينما يعتدي على أموالهم، حينما يحتال عليهم، حينما يستغل جهلهم، حينما يبتز أموالهم، قد يكون في نظرهم عالياً ولكن يفقد أخطر شيء في حياة الإنسان احترامه لذاته، ينهار من الداخل، المسيء ينهار من الداخل، لذلك الذي نسمعه الآن عن الكآبة المنتشرة في بلاد الغرب، كآبة، ما هي الكآبة ؟ الإحساس بالذنب، يقول لك: مُرْكَبُ النقص، عقدة الذنب، الشعور بالكآبة، هذا كل عقاب الفطرة على انحراف صاحبها.

(وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ (5))

المعنى الثاني: هو لا تفعل عملاً يؤدي بك إلى العذاب ولو كان نفسياً، أوضح كلام للنبي:

((إِيَّاكَ وَمَا يَعْتَدِرُ مِنْهُ))

الموقف الذي تضطر أن تعتذر منه لا تفعله أبداً.

الابتعاد عن كل ما يؤدي بك إلى الفاحشة

أيها الإخوة الكرام: الرجز عبادة الأصنام، بالمعنى الواسع: الشرك الخفي، المعنى الثالث كلُّ إثم يحجبك عن الله عزَّ وجل، كل فعلٍ يؤدي بك إلى تحمل عذاب لا تطيقه أهجره، والهجران أن تبتعد عنه، أن تجعل بينك وبينه هامش أمان، هذا معنى قوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: آية " 187 ")

اجعل بينك وبينها هامش أمان، وأوضح مثل موضوع الزنا قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32))

(سورة الإسراء)

إذا هنا محرمة مقدماته، الخلوة محرمة، وإطلاق البصر محرّم، وصحبة الأراذل محرّم، وكل مجتمع يغريك بهذه الفاحشة أنت ينبغي أن تبتعد عنه.

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ: آية فيها معاني عدة:

أما قوله تعالى:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

فهناك موضوعات كثيرة في هذه الآية:

1 - لا تمن على ربك بما تتحمّله من أثقال النبوة:

أولاً: لا تمن على ربك بما تتحمّله من أثقال النبوة، وكأن المؤمنين معنيون بهذه الآية:

(يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ(17))

(سورة الحجرات)

فأي إنسان يتوهم أنه حينما أسلم وحينما اصطلح مع الله وحينما تاب إلى الله وحينما طبّق منهج الله فله عند الله حق.

(يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ(17))

بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان هذا هو المعنى الأول.

2 - لا تعطي من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا:

المعنى الثاني: لا تمنن أي لا تعطي، لا تعطي من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا، فإنسان عنده إدراك عميق وعنده حاسة سادسة، يقول لك: فلان إذا دعوته يظهر منه خير كبير، إذا فلان أكرمته يلزمي، فالقضية عنده تجارية، إذا فلان قدمت له هدية أخذها أضعافاً منه بالمستقبل، إذا اليوم أنمته عندي في المستقبل عندما أسافر إلى بلده الفندق غالي جداً أنام عنده، هذه العقلية التجارية بالعمل الصالح، هذه المؤمن ينبغي أن ينزّه نفسه عنها، لا تمنن من أجل أن تستكثر الجزاء في الدنيا، وحينما يعطي يفكر في الجزاء، يفكر في رد الفعل، يفكر في المكافأة، فكل عطاء أهل الدنيا عطاءً مشوباً بهدفٍ خسيس.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

تستكثر الخير في الدنيا من أجل أن تنتفع، فالذي يحسب هذه الحسابات، أي يعطي عطاءً مشروطاً، أو يبحث من الذي إذا أعطيته أعطاني؟ إذا أكرمته أكرمني؟ إذا بجلّته عظمني؟ إذا قدّمت له هدية قابلها بأضعافٍ مضاعفة، فهذا صار ليس عبادة لله عزّ وجل، هذا عمل مشوب بالمصلحة ويمكن أن نفسّر ما يُعجب به الناس من استقامة الغرب بهذا الباب هم صادقون.

قتل امرؤ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

* * *

عندهم حقوق الإنسان، فإذا بلد من البلاد أخطأ في نظامهم الديمقراطي قال: حقوق الإنسان في هذا البلد غير مصنونة، أما أن يموت خمسمئة ألف طفل كل عام من جرّاء الحصار الاقتصادي هذه ليست مشكلة، فهو لاء إن رأيت منهم استقامة أحياناً، إن رأيت منهم صدقاً أو إتقاناً، هذا من هذا القبيل، هم يوظفون استقامتهم لمصالحهم، يوظفون موضوعيتهم في أخبارهم لمصالحهم، يوظفون مظهرهم البراق لمصالحهم، هذا سلوك أهل الدنيا، هذا شيء والعبادة شيء آخر، تمنن تعطي، تستكثر، تعطي كي تستكثر، لا تعطي إلا من يعطيك أضعافاً مضاعفة، لا تعطي إلا من يكافئك، لا تعطي إلا من يدعمك، هذا نموذج موجود كثير جداً.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

المؤمن منزّه عن أي عطية يلتبس أفضل منها:

المؤمن منزّه عن هذا، قد يعطي فقيراً، قد يعطي ضعيفاً، قد يعطي ولا يفكر في رد الفعل إطلاقاً.

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

هذا المعنى الثاني، أي لا تعطي عطية تلتبس منها أفضل منها. وبعضهم قال: هذا حرّمه الله على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه مثل أعلى في الكمال، فهذا قضية خلافية أنت إذا أعطيت أي إذا أكرمت إنساناً وتعلم علم اليقين أنه سيكرمك، يوجد رأي أنك لست مؤاخذاً على هذا لأنك من شيمتك أن تكرم الناس، فإذا أكرموك مقابل إكرامك لا شيء عليك، فالقضية خلافية بين أن تكون محرمة على المؤمنين وبين أن تكون خاصة بالنبي عليه الصلاة والسلام.

3 - لا تضعف نفساً عن أن تطلب معالي الأمور:

(وَلَا تَمُنْ)

أي لا تضعف، حبل منين أي حبل ضعيف، لا تمن عن أن تستكثر من الخير، هذا نموذج آخر (نموذج كسول)، يا أخي اتصل بالله، اعمل أعمالاً صالحة، فكر، تعلم فأين نحن من هذه المراتب؟ ضعيف أي يرضى بالقليل، يرضى بالمرتبة الدنيا، يرضى أن يكون في مؤخرة الركب، يرضى أن يكون في الدرجة الدنيا في المجتمع، يقول لك: أريد أن أكون وراء الباب في الجنة، هذه لا تصح لك، وراء الباب لا يوجد.

الآن على مستوى الدراسة إذا الطالب لم ينو أن يكون متفوقاً فإنه لا ينجح، إذا بالأساس نوى أن ينجح على الحدود فإنه لا ينجح إطلاقاً، إذا في بداية الدراسة قال: أنا أريد علامة النجاح فقط، أريد مقبول في كل المواد، هذا لا ينجح، يضع أمامه التفوق لينجح، أما إذا وضع النجاح فقط فإنه لا ينجح.

(وَلَا تَمُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

أي لا تضعف نفساً عن أن تطلب معالي الأمور، عن أن تطلب درجات الجنة العالية، لا تضعف نفساً عن أن تصل إلى أعلى درجة علو الهمة من الإيمان. والله عز وجل واحد في عطائه، قال: ملك الملوك إذا وهب.. يوجد تعديل عدلته للبيت:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

* * *

الطموح في كثرة الخير:

كلنا عباده، كن طموحاً واطلب من الله أعلى المراتب، إله الصحابة إلها وربهم ربنا، الظروف واحدة.

((اشتقت لأحابي، قالوا: أو لسنا أحبابك ؟ قال: لا، أنتم أصحابي، أحابي أناسٌ يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر أجره كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم ؟ قال: بل منكم لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

ألا تستطيع أن تغض بصرك ؟ أن تضبط لسانك ؟ أن تقيم الإسلام في بيتك ؟ أن تقيمه في عملك ؟ أن تربّي أولادك ؟ أن تجلس معهم ؟ هذه بيدك، لذلك:

(وَلَا تَمُنْ)

أي لا تضعف عن أن تستكثر من الخير، لا ترضى أن تكون في الدرجة الدنيا، وراء الباب، نحن خدام سيدي، لا كن سيّداً، للحق كن خادماً أما كن سيّداً في مجتمعك، سيدنا خالد كان علم، تأخر لكنه صار أول قائد، سيدنا الصديق، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا علي، هؤلاء الصحابة الكبار كانوا طموحين.

(وَلَا تَمُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

أي لا تضعف عن أن تستكثر.

4- لا تمن مستكثراً عملك:

والمعنى الرابع:

(وَلَا تَمُنْ)

أي لا تمن مستكثراً عملك، أنا لي أعمال كالجبال، لي مؤلفات، لي محاضرات، لي كذا، أي أنت تكبر نفسك، وهذا العمل من فضل الله عليك فلما رأيته كبيراً حُجِبَتْ عن الله عزّ وجل، بطولتك أنه مهما قدمت من عملٍ عظيم أن لا ترى لنفسك فضلاً عند الله عزّ وجل.

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النسا)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النسا)

مرّة أخ قدّم بيتاً لجمعية خيرية ليكون مشغل للفقيرات، بيت ثمنه عشرة ملايين أقيم له حفل تكريم، الخطباء أشادوا بإحسانه وفضله وكرمه، إلا أحد إخوتنا الكرام ألقى كلمة أمامه وتكلم العكس، قال له: كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين من جمعيتنا، وأن تقف في طابور طويل لناخذ هويّتك وبصمتك على ثلاثمائة ليرة في العيد، ولكن الله امتنّ عليك فجعلك غنياً وقدمت هذا البيت فاشكر الله على هذا الفضل.

هذا كلام طيب، هذا كلام صحيح، أي أن هذا الذي تراه يمد يده إليك كان من الممكن أن تكون أنت

مكانه، لا تستكبر على أحد، لا ترى عملك عظيماً، إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

التواضع علامة الإيمان:

إذا: رؤية العمل شرك، أنا حتمي الفلاني، مكنتي، علمي، محاضراتي، هناك كثيرون ممن يستفيدون مني، هذا فضل الله عز وجل، الله أنطقك بالحق، كان من الممكن أن تكون خلاف ذلك، يقول الإمام الشافعي: "كلما ازدادت علماً ازددت علماً بجهلي".

والمؤمن كلما رفعه الله تواضع، وكلما أعطاه تأدب، لا يوجد أعظم من النصر في الحرب إنه شعور لا يُصدّق، سيدنا محمد دخل مكة فاتحاً فمن شدة تواضعه لله حنى رأسه تواضعاً لله حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعبيره أدباً مع الله.

(وَلَا تَمْنُنْ)

بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به، أي لا تتخذ ما أعطاك الله إياه وسائل ربح في الحياة الدنيا، اجعلها لله خالصة، وطبعاً هذا كله موجة إلى أمته من بعده، لا تمنن بهذا الذي أعطاك الله إياه لتستكثر به من الدنيا اجعله خالصاً لوجه الله، وقال بعض العلماء: " لا تعطي مالك مصانعة ". أي مدهانة، ومُراءاة، هذا ينطبق على الآية الكريمة.

الإخلاص في العطاء:

إذا أعطيت عطية فأعطها لربك وابتغ بها وجه الله عز وجل لأن الأعمال إنما هي بالنيات، ولا تقل دعوت فلم يُستجب لي، عليك أن تعبد ولا تنتظر إلى النتائج، هو حكيم يعطي أو يمنع، يرفع أو يخفض.

(بَلِ اللّٰهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّٰكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

وقول ابن عباس رضي الله عنه: " لا تُعطي لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال " والأمر أن تكون عطايك لله وحده لا لارتقاب ثواب من الخلق عليك.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

لذلك: هذا الذي يُعَلِّق أهمية كبيرة على رد فعل الناس، وعلى تكريمهم إياه، وعلى معرفتهم لقدره، وعلى تقديرهم لعلمه، هذا فيه ضعف في إخلاصه، إذا كنت مخلصاً كما يريد الله عز وجل لا تعلّق أهمية على ردود الفعل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجِبْتُ وَلَوْ أَهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

الذراع أي مؤدم.

أي ملخص الملخص: أراد الله عزّ وجلّ من هذه الآية أن لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر.

قمة النجاح أن تكون متواضعاً:

أنت تعيش ستين أو سبعين سنة لو فرضنا أنك عبدت الله عشر سنوات عبادة صحيحة فأدخلك الله الجنة إلى الأبد، فإن كل عبادتك مؤقتة ومحدودة، والعطاء سرمدى أبدي فمهما فعلت، مهما بذلت، مهما ضحيت، مهما وضعت إمكاناتك وصحتك ومالك في سبيل الله فأنت الراجح، لذلك لا تمنن، حتى عند المؤمنين الضعاف يرى عمله كبيراً فيحجبه عن مزيدٍ من فضل الله، النبي قال: جهْدُ مُقْلٍ.

سيد الخلق أعظم إنسان قدّم للإنسانية الهداية سمى عمله جهْدَ مُقْلٍ، أنا كنت أقول دائماً: الصعود إلى الأعلى صعب، الطريق وعرة ومرعبة ومخيفة وفيها عقبات وفيها حُفَر وفيها أكمات وفيها غبار وجهد شاق، فإذا وصل إلى قمة النجاح فإن هناك طريق يسقطه إلى الحضيض في ثانية (الغرور) يسقطه في ثانية، لذلك قالوا: البطولة لا أن تصل إلى قمة النجاح بل أن تبقى في القمة.

أحياناً الإنسان يجتهد في العبادات فإن الله يعلي شأنه، عندما رفع الله شأنه اغتر، عندما اغتر سقط مرة ثانية، فالبطولة أن تعلق وأن تبقى، إن بلغت قمة النجاح ينبغي أن تبقى متواضعاً لله عزّ وجلّ، ينبغي أن تعترف بفضل الله عزّ وجلّ، ينبغي أن تكون مفقراً إلى الله عزّ وجلّ.

التولي والتخلي:

قيل: إن نور الدين الشهيد استطاع أن يحارب قوى عاتية وجبّارة، واستطاع أن يرد الفرنجة، قيل: إنه كان مرّةً ساجداً لله فقال له: يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تتصره ؟ انصر دينك. أرايت إلى إنكار الذات ؟ الإنسان كلما كان إخلاصه شديداً أنكر ذاته، كلما كان مفقراً إلى الله تلقى من الله المدد، فدائماً أنت بين حالين بين التولي والتخلي، إن قلت الله تولاك، وإن قلت أنا تخلى عنك، هذا امتحان يومي، عندك كل يوم مئة امتحان، إن قلت: أنا، إن قلت: مالي، إن قلت: خبرتي، شهادتي، شأني، مكانتي، أتباعي، إذا قلت: أنا تخلى الله عنك ووكلك إلى ذاتك وأنت ضعيف، وإن قلت الله تولاك.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة)

أما:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123))

(سورة آل عمران)

اجعل جهدك أن تكون مفتقراً إلى الله، ويكون كلامك بلطف ؛ هذا من فضل الله عليّ، هنا وفقني الله، هنا أكرمني الله، هنا منحني الله، لا تعزو هذا إلى نفسك بل اعزوه إلى الله عزّ وجل.

الصبر و أنواعه:

1 - صبر القهر:

2 - صبر الشكر:

3 - الصبر المحمود:

الآية السادسة:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

الإنسان أحياناً يكون ضعيفاً فيصبر أمام القوي، يكون فقيراً فيصبر أمام الغني، ليس هذا هو الصبر، الصبر أن تكون في أعلى درجات القوة، وفي أعلى درجات الغنى وأنت صابرٌ لله وحده، مقيدٌ خوفك من الله، مقيدٌ تواضعك لله، هذا الصبر المحمود.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

أحياناً الإنسان يسكت (لا أستطيع التكلم) طبعاً لا تستطيع أن تتكلم لأنك ضعيف وخصمك قوي، ليس هذا هو الصبر المحمود، الصبر المحمود أن تكون قوياً وأن تضبط سلوكك، الإنسان غضب من خادم عنده قال: يا سيدي والكاظمين الغيظ، قال: كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: عفوت عنك،

قال: والله يحب المحسنين، قال: أنت حرٌ لوجه الله. يعني أن تكون قوياً وأن تصبر، أن تكون غنياً وأن تصبر، فهذا الصبر المحمود.

((وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

القضاء و أنواعه:

1 - القضاء المحمود:

العلماء قالوا: " لسيّدك ومالك فاصبر على أداء فرائضه وعباداته ". وقال مجاهد: " اصبر على ما أذيت ". وقال ابن زيد: " حمّلت أمراً عظيماً فاصبر عليه ". وقيل: " اصبر على مكاره القضاء ". يوجد مكروه القضاء، ويوجد محبوب القضاء، إذا إنسان صحته طيبة والله بعث له مال وفير فإنّ هذا محمود القضاء.

2 - القضاء المكروه:

أما أصابه مرض لا سمح الله، أصابه فقر، أصابه مشكلة، سيدنا علي قال: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ". اصبر على البلوى لأن الله يمتحن أصفياه وأوليائه، اصبر على أوامره ونواهيه، وقيل: اصبر على فراق الأهل والأوطان في الهجرة.

((وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

الإيمان هو الصبر:

وبشكل مختصر اصبر على الطاعة، واصبر عن المعصية، واصبر على قضاء الله وقدره، ثلاثة أنواع أساسيات، اصبر على الطاعة (على مشقة الطاعة). واصبر عن المعصية (إغراء المعصية). واصبر على مشقة الطاعة، واصبر عن إغراء المعصية، واصبر على قضاء الله وقدره لأن الإيمان في الأساس صبر.

الإيمان انضباط والانضباط صبر، والصبر ثمن الجنة. وفي حديث:

((الإيمان هو الصبر))

الإنسان يضبط أموره كلها بالصبر، يصبر فيغض بصره، يصبر فيضبط لسانه، يصبر فيضبط يده،
يصبر فيضبط رجله، فهذا هو الصبر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 8-14 العقاب الأليم للكافر يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة المدثر، ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

الإعلان عن بدء يوم القيامة:

الناقور اسم آلة من النقر، والنقر هو التصويت.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

أي نفخ في الصور.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14))

(سورة الحاقة)

هذا النفخ في الصور إعلان عن بدء يوم القيامة، قال:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

حرية الاختيار في الدنيا:

تصور إنساناً ارتكب سرقات كبيرة وجمع أموال طائلة ثم أُلقي القبض عليه، مشاعره حين أُلقي القبض عليه، سيواجه تعذيباً، سيواجه عقاباً شديداً، قد يواجه سجنًا مديداً، قد يواجه دُلاً وإهانة، فهذا اليوم يوم عسير، إنسان ارتكب جريمة ثم أُلقي القبض عليه، فيوم الدين أي يوم الحساب، في الدنيا الإنسان مخير يفعل ما يشاء، له أن يستقيم وله أن ينحرف، له أن يصدق وله أن يكذب، له أن يأكل المال الحلال وله أن يأكل المال الحرام، طبيعة الحياة الدنيا طبيعة فيها حرية الاختيار، وفيها أمد، فأنت تُعطى أمداً طويلاً، لك أن تفعل كل شيء ولا شيء عليك وأنت في الدنيا، لكن حينما يأتي ملك الموت وحينما تنتهي الحياة الدنيا وحينما يبدأ الحساب.

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

يوم الجائزة يوم قطف ثمار العبادة:

هذا اليوم أيها الإخوة هو أسعد أيام المؤمن، يوم الجائزة، يوم الفوز، يوم دخول الجنة، يوم تحقيق وعد الله عز وجل، يوم قطف ثمار العبادة.

العبادة فيها تكاليف الصلوات، تكاليف الصيام، تكاليف ضبط اللسان، تكاليف ضبط الجوارح، تكاليف إقامة الإسلام في البيت، تكاليف ضبط كسب الإنسان وضبط إنفاقه، كل هذه التكاليف متى تقطف ثمارها؟ في هذا اليوم، لذلك النبي قال:

((الموت عرس المؤمن))

((والموت تحفة المؤمن))

التفقت من منهج الله عذابه عسير يوم القيامة:

بالمقابل الذي تفقت من منهج الله واستكبر عن عبادته، أعطى لشهواته العنان وركب رأسه، ورد حقائق الدين، وسخر من المؤمنين أو كاد لهم، أو أراد أن يطفئ نور الله عز وجل، نقول له: افعل ما تشاء لا بد من أن تموت، وعند الموت سوف تعلم من هو الخاسر.

لذلك: البطولة أن تكون آخر الضاحكين، الإنسان أحياناً يكون أول الضاحكين، يكسب مالاً غير مشروع، يشتري بيتاً فخماً، يشتري مركبة، يؤسس هذا البيت، يتطلع إلى الشهوات التي حرمها الله يفعلها استهتاراً، فهو يضحك، وقد يضحك ضحكاً غير معقول، لكنه سيبيكي، سيبيكي دماً، قال:

((فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8))

أي إذا نُفخ في الصور

((فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

أحياناً ينشرون صور المجرمين في الصحف، مجرم كان عاتياً، ارتكب الموبقات، زنا، سرق، شرب الخمر، له عصابة، ثم يُلقى القبض عليه فإذا هو ذليلٌ ذلاً لا حدود له، لذلك البطل هو الذي يعمل لهذه الساعة، ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتيقن الله البطل.

ما هو الغيب ؟

يوجد آية قرآنية ذكرتها قبل يومين، أن أخص خصائص المؤمن أنه يؤمن بالغيب، فما هو الغيب ؟ الذي لم يره لكنه استنبطه بعقله، يوم القيامة خبر في القرآن الكريم، وحساب الله لنا استنباط، خالقنا جميعاً لا يسمح لنا أن نوذي خلقه فإذا فعلنا سمح لنا إلى حين لا على حساب الآخرين.

(وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

العقاب الأليم الذي ينتظر الكافر يوم القيامة:

ثم يأتي العقاب الأليم.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42))

(سورة المعارج)

سيدنا إبراهيم قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة)

أراد أن يكون هذا الإكرام للمؤمنين، فقال الله عز وجل:

(وَمَنْ كَفَرَ)

وسأرزق من كفر.

(وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

والله أيها الإخوة هذه الآية تكفي:

(فَأَمَتَّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

السلامة و السعادة في طاعة الله:

يقول أحد العارفين بالله: " مساكين أهل الدنيا، جاؤوا إلى الدنيا وغادروها ولم يذوقوا أطيب ما فيها، أطيب شيء فيها القرب من الله عز وجل ".

فقد وقع تحت يدي قصة كتبتها أخت مؤمنة، يبدو أنها قبل أن تكتبها كانت متفائلة، وصفت حياتها يوم كانت متفائلة، ثم وصفت حياتها بعد أن عرفت الله عز وجل، هناك بون شاسع ليس هناك شيء يجمع

بينهما، هي في قمة السعادة حينما صلّت، وصامت، وعبدت ربها، وتحجّبت، وقرأت القرآن، ودعت إلى الله، وكانت في قمة تفلّتها وهي من أشقى الشقيّات. إخوانا الكرام: لا أصدق أن في الأرض واحداً لا يتمنى السلامة والسعادة (في الأرض كلها)، و السلامة في طاعة الله، والسعادة في القرب منه، كلمتان خفيفتان، السلامة في طاعة الله، والسعادة في القرب منه.

يوم القيامة يوم عسير على الكافرين:

موطن الثقل في هذه الآية:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

كل متع الحياة، إنسان سافر وأقام في فنادق، وأكل من الطيّبات، وأحاط نفسه بالشهوات والمباهج ثم جاء الموت، يقول: لم أر خيراً قط، كل هذا الذي أمضاه في المعاصي تذهب لدنّته ويبقى إثمّه، ويبقى الحساب الأليم، ثم إن الذين جاهدوا أنفسهم وأموالهم في الطاعات وأطاعوا الله عزّ وجل وجاءهم ملك الموت، يذهب عنهم كل هذا التعب وتبقى الثمار اليانعة التي يقطفها، إذاً:

(فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافُورِ (8))

أي إذا نفخ في الصور:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

عسيرٌ جداً:

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

الموت أكبر سعادة للمؤمن:

المعنى المخالف: أن هذا اليوم يومٌ يسير على المؤمنين، قالت له: يا أبت، وا كربتاه يا أبت (وهو على فراش الموت) قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه. اقرؤوا إن شئتم سيّر الصحابة تفاجئون أنه ما من صحابي على الإطلاق إلا كان في أسعد لحظات حياته يوم فارق الدنيا، ماذا قال عليه الصلاة والسلام: وقف خطيباً فقال:

((إن عبداً خيره الله بين زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده))

(رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري)

فبكى أبو بكر بكاءً لا حدود له، عرف أن النبي ينعي نفسه، اختار ما عند الله عز وجل، فهذه الدنيا تغر وتضر وتتمر، هذه الدنيا فانية، هي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، كيف ؟

ممكن إنسان يبني مستقبلاً لبنة لبنة، بدأ حياته عصامياً، نال شهادة عليا، اشترى بيتاً صغيراً، وسّع البيت، فرش، اشترى بيتاً بمكان آخر، زوج أولاده، نَمَى ثروته وصل إلى قمة نجاحه، يأتي ملك الموت فيأخذ منه ما حصله في كل عمره في ثانية واحدة، أما المؤمن قدّم ماله أمامه، وله عند الله زاد كبير، يسره اللحاق بماله وبزاده، الإنسان حيث أهله وحيث رحله، معلق بماله لو كان ماله في بلد آخر، دائماً مع أخبار هذا البلد، يذهب من حين إلى آخر لتفقد ماله.

فإذا الإنسان قدّم ماله أمامه وقدّم عملاً صالحاً كثيراً، أسعد شيء في حياته اللحاق به.

فالمخلص: بين أن يكون الموت أكبر مصيبة، وبين أن يكون الموت أكبر سعادة، للمؤمن أكبر سعادة لأنه يوم الجائزة، يوم الفوز، يوم دخول الجنة، يوم القرب من الله، يوم نَمَط من الحياة جديد، فلا مسؤوليات، ولا تكاليف، ولا حساب، اطلب تعطى، لهم ما يشاءون فيها.

جزء المؤمن يوم القيامة:

(فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةَ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةَ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

أما الآخرون هم في عذاب أليم، هذه الآية الأولى.

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

هذا كلام الخبير يقول لك: هو يوم عسير، إنسان أحياناً يتهدد إنساناً، ماذا فعل معي ؟ يوزن قوته، يوزن اتصالاته، يوزن مكانته، يا ترى هل يستطيع أن يمنعني من السفر، هل يستطيع أن يكف يدي عن هذا العمل ؟ هل يستطيع أن يخلصني هذه الشركة مثلاً ؟ إذا تواعدك شخص ما من بني البشر تحسب له ألف حساب ولا تنم الليل، وتبحث عن حجمه واتصالاته وعلاقاته، ويا ترى هل هو قادر أن ينفذ هذا الوعيد أم أنه يبالغ ؟ فإذا قال الله خالق البشر:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9))

أنا ما رأيت أعقل من الذي يخاف من الله، والله يا أيها الإخوة، والله ليس في الأرض أعقل ممن يخشى الله ويحسب حساب المساءلة في كل دقيقة، عود نفسك أيها الأخ الكريم قبل أن تقول كلمة زنها، هل ترضي الله؟ قبل أن تبتسم، لعلها ابتسامة سخرية، قبل أن تعلق تعليقاً لاذعاً، لعل هذا التعليق يكسر هذا الإنسان ويجرحه، قبل أن تنفق هذه النفقة، قبل أن تطلق بصرك في منظر.

أيها الإخوة: الإنسان كلما اشتد خوفه من الله كان أعلم، هل تعلمون من هو أشد الناس خوفاً من الله؟ هو رسول الله.

مرة أمسك بسواك حيث كان عنده خادم أرسله في حاجة فغاب طويلاً، فأدرك النبي الغضب البشري فلما جاء الخادم قال له:

((لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

ولكن لم يفعل.

مرّ على أحد أصحابه وكان يضرب غلاماً له قال له:

((اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام))

(رواه مسلم عن أبي سعيد البديري)

فأنت لا تتألق ولا تشعر بالطمأنينة إلا إذا خفت من الله، اسمعوا هذه الحقيقة: محال أن تخافه فيما بينك وبينه ثم يخيفك من خلقه، محال هذا لا يليق بكمال الله، أن تخافه فيما بينك وبينه ثم يخيفك من خلقه، أما الذي لا يخاف الله فيما بينه وبين الله يخيفه من أضعف خلقه، قال لي رجل مرة: دخل علي موظف طلب هويتي، ركبي لم تعد تحملني، فيها سجن شهرين، صار يرجف، مستحيل أن تخاف من الله في بيعك وشرائك، لم تغش، لم تكذب، لم تحتال، لم تدلس، لم تستغل، لم تحتكر، لم استغل جهل الزبون، بعت بضاعة غالية وسيئة، خفت من الله، ما دُمت تخاف من الله لن يخيفك من خلقه، هذه قاعدة، إن أردت أن تكون عزيزاً فتذلل إلى الله، وخف منه، وخلقه في خدمتك، فقد ورد بالأثر القدسي:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيد أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هويّاً تحت قدميه وقطعت أسباب السماء بين يديه))

وتعلمون أن مرة الحسن البصري تكلم كلاماً، أدى رسالة العلم مع الحجاج، بلغ الحجاج مقالة حسن البصري، فقال: والله لأروبيكم من دمه، واستدعى السياف ومُدَّ النُّطْعُ (النطع رداء كبير يوضع إذا أراد الإنسان أن يقتل بقطع رأسه لنلا يتأثر الأثاث بالدم يمد النطع) فجاء بالسياف، ومُدَّ النطع وقال: انتوني به لأقتله أمامكم، دخل الحسن البصري رأى السياف واقف، نطع ممدود، والجو مكهرب، فتمتم بكلمات لم يسمعه أحد، فإذا بالحجاج يقف له، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيّد العلماء، وما زال يقربه حتى يجلسه إلى جانبه، ويستقته، ويعطّره، ويضيّقه، ثم يشيّهه إلى باب القصر، السياف والحاجب صُعقا، استدعى السياف ليقطع رأس الحسن البصري، والحاجب هو الذي يعلم هذا، فإذا بالحجاج يحترمه ويكرّمه، تبعه الحاجب، قال له: يا أبا سعيد، لقد جئ بك لغير ما فُعلَ بك، فماذا قلت لربك؟ قال له قلت: "يا مؤنسي في وحشتي، يا ملاذي عند كُربتِي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم".

فإنه عز وجل قلب قلب الحجاج من قلب الحقد والغضب إلى قلب الرأفة والرحمة، وقلوب العباد بيد الله، هذه حقيقة جديدة الآن، فالنبي صلوات الله وسلامه عليه قال:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء))

(رواه الترمذي عن أنس)

أنت إذ وقفت أمام إنسان، إذا الله عز وجل أراد أن ينحيك أو أن يكرّمك ألقى محبتك في قلب هذا الإنسان فإذا هو خادم له، وإذا أحبّ الله عز وجل أن يؤدّب إنساناً يلقي بغضك في قلبه، فيبحث لك عن الذي يؤلمك، والذي يزعجك، يُعَقِّدُ عليك الأمور، يضع العراقيل، ينشئ السدود، يلبسك تهماً أنت منها برئ، لأنه ألقى في قلبه البغض، هذه قاعدة: أنت إذا وقفت أمام إنسان أقوى منك تذكر أن قلبه بيد الله، فإن شاء ليّنه، وإن شاء قسّاه، إذاً:

((فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)))

ثم يقول الله عز وجل:

(ذُرْنِي)

أي دعني يا محمد.

((ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11)))

وهذا من أشد أنواع التهديد، من أشد أنواع التهديد أن يقول الله

(دُرِّي)

فالله عزَّ وجل أرسل رسولا، ومعه الكتاب، ومعه معجزات، ومعه منطق، ومعه بيان، ومعه فصاحة، ومعه كمال، ومعه أدلة، ومعه براهين، ومعه شيء كثير، فالإنسان أبلَى أن يؤمن وركب رأسه وعصا، فإن لم يستفد من رسول الله، قال له: أنت اتركه أنا أعالجه.

إنسانة متقلبة أشد التقلبات، تبدي كل مفاتنها للناس، نصحت، ونصحت، ونصحت، ونصحت لم ترغ ثم أصيبت بمرض خبيث، فقالت: أنا مستعدة أن أضع على رأسي ما يوضع على الحمار على أن يشفيني الله عزَّ وجل، الله أدبها، الله أدبته مرة، وأدبته مصيبة تصيب المكان الحرج، والله عزَّ وجل يعرف تماماً ما الذي يحجمك؟ يعرف كل خصائصك.

إنسان عنده المال ليس له قيمة، هذا يرسل له شيئاً متعلق بصحته أحياناً، متعلق بكرامته، متعلق بمكانته، متعلق بعمله، متعلقة بأهل بيته، متعلق بأعز الناس إليه.

(دُرِّي)

مراحل الدعوة إلى الله:

1 - مرحلة البيان:

إذاً الملخص: نحن حينما ندعى إلى الله، في مرحلة رائعة، مرحلة البيان (الدعوة البيانية) القضية سهلة، الخطيب يلقي خطبة، مدرس يُلقى درساً، شريط تسمعه، كتاب تقرأه، نصيحة تنصح بها، أنت معافى، سليم، كامل، مُكَمَّل، لكن الله عزَّ وجل بلغك الدعوة ينبغي أن تستجب.

2 - مرحلة التأديب التربوي:

فإن لم تستجب أدخلك في معالجة ثانية التأديب التربوي، قال له:

(دُرِّي)

3 - الإكرام الاستدراجي:

فإن لم تستفد أدخلك في معالجة ثالثة هي الإكرام الاستدراجي.

فإن لم تشكر أدخلك في مرحلة القصر الرابعة، عندئذ يقصر الإنسان وينتهي.
فنحن إذا كنا في مرحلة الدعوة البيانية، فنحن في خير، نحن في بحبوحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

قانون التيسير و التعسير:

العلماء فسروا: ما معنى غير يسير ؟

((فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

قال: عقدهم تنحل إلى عقدٍ أشد، كلمة عسير، العقدة تنحل إلى عقدة أشد، فإذا كنت لا تملك مفتاح هذا الباب، فهناك عدّة مفاتيح يمكن أحدها أن تستعمله في فتح الباب، هذه مشكلة، فأدخلت مفتاحاً وحركته فانكسر داخله، أصبحت المشكلة أصعب، كنت تبحث عن مفتاح مناسب فصرت تحتاج فك القفل، أحضرت إنساناً لكي يصلحه، رأيت البيت كله مسروق، ممكن أن ينتقل من مشكلة إلى أكبر إلى أكبر إلى أكبر، هذا معنى عسير، أما يسير، من مشكلة إلى حل إلى حل انتهت العملية لذلك: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.

إنسان له انحرافات جاء بإنسان قال له: هذا القاطع جدده لي، قال له: سأضعه في مكان عالٍ، قال له: ضعه إن شئت، في اليوم التالي أراد أن يستعمله، لزمه كرسي، الكرسي اختل، فدخلت رجل الكرسي في مقعده، دخل المستشفى ثمانية عشر يوماً كان قد انتهى، والسبب تافه جداً، تبديل محل قاطع، لزمه أن يبدله، و عند اختلال توازن الكرسي دخل في مقعده، تسمم دمه، ثمانية عشر طبيباً، عشرين يوماً كان منتهياً وخالصاً، كتبت نعوته، يمكن إنسان يُثْلَف بسبب تافه، إذا كنت في رضوان الله فأنت غالي على الله، الحياة مليئة بالقصص، فكلمة عسير، أي أن المشكلة تولد مشكلة أكبر، أكبر، أكبر إلى أن ينتهي الأمر، قانون التعسير والتيسير معروف:

(فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8)

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

(أُعْطِيَ وَاتَّقَى (5))

أي عمل عملاً صالحاً، واتقى أن يعصي الله عزّ وجل، وآمن بهذا الدين، فالأمور كلها ميسرة، وفي تأكيد للمستقبل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة: آية " 51 ")

نعمة الأمن:

إخوانا الكرام: الأمن الذي يشعر به المؤمن لا يقدر بثمن، يشعر أنه في رحمة الله، وفي عين الله.

(فَبِئْسَ بَأْعَيْنَا)

(سورة الطور: آية " 48 ")

ويشعر أن أحداً لن يستطيع أن يصل إليه إلا بأمر الله، شعور كأنه في حصانة، أحياناً يمنحون للنواب حصانة، يحس النائب أنه إنسان متميز لا يستطيع أن يصل إليه أحد، لا يقدر، فلا اعتقال، معه حصانة، عضو مجلس الشعب محصّن، فإذا حصّن الإنسان يحس بالأمن، فكيف لو أن الواحد الديان حصّنك ؟ أقوى بكثير.

معاني كلمة وحيد:

1 - خلقك ضعيفاً:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

(سورة المدثر)

كلمة وحيد لها معاني كثيرة، فهو حينما خلق خلقاً وحيداً، لا معه ماله، لا معه شهادة، لا في زوجة، لا في أولاد، لا في مكانة اجتماعية، لا في منصب رفيع، ما في ثروة طائلة، لا يوجد شيء، طفل صغير، رأيت مرة في مطار طفل يبدو أن السفر بعيد، فواضعين له عدداً كبيراً جداً من الفوط فصار وسطه مثل الكرة، قلت هذا الطفل حينما يكبر يصير ذو شأن غني أو قوي، وينسى أنه كان صغيراً وكان يوضع له الفوط لئلا يتسرّب البول إلى الخارج، الإنسان خلق ضعيفاً، ما معنى:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

خلق وحيداً، لا يوجد عنده شيء، مفقود إلى رضعة من أمه، لو أنه لم يرضع ل مات.

منعكس المص:

كلكم يعلم أن الله عز وجل أمدنا بما يسمى بمصطلح العلماء: منعكس المص، فالطفل الآن يولد بعد دقيقة يضع شفثيه على حلمة ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء، لو أن هذا المنعكس غير موجود وأراد الأب أن يعلم ابنه الذي ولد الآن: يا بني الله يرضى عليك، شيء مضحك، مستحيل أن يعيش إنسان، لأن المص عملية معقدة، أما حينما يولد الطفل يعرف كيف يمص الحليب من ثدي أمه، ضعيف إلى منعكس المص، ولولا هذا المنعكس ما وجدت إنساناً على الأرض الآن، ما في إنسان، لأنه خلق لك هذا الثدي، كرمك بهما، لكن أعطاك هذه الخاصية المعقدة منعكس المص، خلقت وحيداً، لا مال، ولا زوجة، ولا مكانة، ولا علم، ولا شهادة، ولا عزوة، ولا منصب، ولا ثروة، قال:

((وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَيِّنَ شُهُوداً (13))

(سورة المدثر)

رحمة الله بعباده:

إذا الإنسان كبير، عظيم بماله، عظيم بشهاداته، عظيم بمنصبه، ونسى كيف كان صغيراً، كيف رضع من ثدي أمه، كيف كان مفتقراً إلى الله، كيف كان مفتقراً إلى رحمة الله، ينظر إلى أولاده، الله جعل أولاده شهوداً على طريقة خلقه، هل من بيت لا يوجد فيه أولاد ؟ انظر إلى الطفل كيف يولد ؟ فغلطة في أثناء الولادة يموت، قال: هذا الرحم يتقلص، يتقلص تقلصاً لطيفاً قبل الولادة، تقلص متزامن لطيف متسارع، تقلص لطيف متزامن أي فيه زمن وفيه تسارع، الطلقات تضيق أمدتها مع مرور الزمن، شيء جميل، فإذا خرج الطفل من بطن أمه تقلص الرحم تقلصاً شديداً وصار كالصخر، فالمولدة تضع يدها على رحم الوالدة فإذا كان صخرياً تقول: الولادة سليمة، فإذا كان الرحم فيه ليونة معنى ذلك أن هناك شرايين مفتوحة سوف تموت الأم من النزيف.

آيات الله الدالة على عظمته:

من جعل هذا الرحم يتقلص هذا التقلص الشديد بعد الولادة واللطيف قبل الولادة ؟ العلماء قالوا: لو عكس الأمر لماتت الأم والطفل في آن واحد، لو تقلص تقلصاً حاداً لقتل الغلام، وبعد الولادة تقلصاً لطيفاً لماتت الأم من النزيف، الطفل مفتقر إلى الله عز وجل:

((ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11))

بلا مال، بلا أهل، الله عز وجل قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (20))

(سورة عيس)

فعظم الحوض يتوسع بأمر هرموني، توسع ميكانيكي، عظام متراكمة لا تسمح للطفل أن يخرج منه، يتوسع عظم الحوض يتوسع بأمر هرموني مبرمج، الولادة وحدها آية من آيات الله الدالة على عظمتة، والله ذكرها في القرآن.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (20))

(سورة عيس)

فهذا هو المعنى الأول: وحيداً بلا أهل، ولا مال، ولا ثروة، ولا منصب، ولا شهادات، ولا مكانة، ولا أتباع.

2 - خلقك وحيداً هو وحده:

المعنى الثاني: خلقته وحيداً ولم يشركني في خلقه أحد.

3 - خلقك متميزاً:

والمعنى الثالث: أنه المخلوق الوحيد الأول، فالمخلوق الأول في الكون هو الإنسان..
(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

(سورة الأحزاب)

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا (70))

(سورة الإسراء)

أنت المخلوق الأول الوحيد، الله عز وجل خلقك وحيداً بمعنى أنك ضعيف، وخلقك وحيداً بمعنى أنك متميز، وخلقك وحيداً بمعنى أن الخالق لا شريك له، خلقك وحيداً هو وحده، وخلقك متميزاً، وخلقك ضعيفاً.

4 - ستعود إلى الله وحيداً:

والمعنى الرابع: كما خلقه وحيداً سيعود إليه وحيداً، فالإنسان له أتباع، له أعوان، له من يدافع عنه في الدنيا، أحياناً يقول لك: جاءنا مئة تليفون للمخبر أنت مهم. أخذ فجأة فجاء له مئة تليفون، له أتباع، له

أنصار، له أعوان، فكما خُلقت وحيداً تعود إليه وحيداً، لا يوجد دفتر تليفونات (خبر فلان لا يوجد)، هواتف لا توجد، اتصالات لا توجد، أعوان لا يوجد، أموال لا توجد، دفتر شيكات لا يوجد، كله واقف، بالقبر لا يوجد شيء، خُلقت وحيداً وسوف تعود إليه وحيداً ومعك عملك فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك.

القبر صندوق العمل:

لذلك القبر صندوق العمل، سؤال محرج ودقيق، اسأل نفسك هذا السؤال: أنا ما عملي ؟ يوجد عمل طيب، يوجد عمل نظيف، يوجد عمل خير، يوجد عمل عظيم، ويوجد عمل قذر، يوجد عمل إجرامي، يوجد عمل خسيس، يوجد عمل دنيء، يوجد عمل ظالم، اسأل نفسك ما عملي ؟ وإن أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك. يا ترى استعملك بالخير أم بالشر ؟

((إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق الشر و إن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير بيدي فطوبى

لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه و ويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه))

(سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك)

أحياناً الإنسان يمد شريطاً حريزاً تفتح به المستشفيات والأبنية النافعة للأمة، وأحياناً ملقط يلتقط به الشيء النجس والقذر، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك. هذا سؤال مهم، كل إنسان له عمل ؛ إذا كان عملاً نظيفاً فهذا جيد، عملاً خيراً فهو أجود، عملاً بئاً فهذا أعظم، عملاً كبيراً فهو أعظم وأعظم، أما أن يكون عمله مبني على أنقاض الآخرين، أن يبني غناه على فقرهم، أن يبني سعادته على شقائهم، أن يبني أمنه على خوفهم، أن يبني مجده على تلفهم، هذا شيء مخيف.

5 - خلقته وحيداً ولا أحتاج النصر في إهلاكه:

شيء آخر: خلقته وحيداً ولا أحتاج إلى من ينصروني في إهلاكه هذا المعنى الخامس. خلقته وحيداً فإن أردت أن أهلكه لا أحتاج إلى من يعينني، هذا الإنسان يسموه في أوروبا الإنسان الإله، هم كفروا بالله وألّوها الإنسان، أن الإنسان سيطر على الطبيعة، وأرسل مركبات إلى الفضاء الخارجي، وسخر الطبيعة، وكشف الثروات، وتحكم برقاب العباد، هذا الإنسان الإله سوف يجعله الله يلقي مصيره يوم القيامة.

((فالكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منه أدفته عذابي ولا أبالي))

(رواه ابن ماجه عن أبي هريرة)

(دُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَيَّنَّ شُهُوداً (13))

(سورة المدثر)

يشهدون له أصله، كل واحد ينظر إلى أولاده، أحياناً يقف الإنسان عند قصَاب فيجد أن فيه عضلات، وفيه أوتار، وفيه كبد، وفيه رئتين، وتوجد معدة، وتوجد أمعاء، ويوجد دماغ، ويوجد أعصاب، وأوعية وشرابين وأوردة وعظام، فאלله جعل غذاءنا من حيوانات تشابهنا في التشريح تماماً. والله مرةً رأيت قلباً صغيراً وهو قلب خروف شرَّحته فرأيت الدسَّامات، الأجواف، الأذنين، البطنين، هكذا قلبك. فالبنين شهود أي يشهدون لك ببدايتك.

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

(سورة المدثر)

أي رفهته مثل المهاد (فالمهاد مريح جداً). أي يوجد بيت فيه تدفئة، فيه تكييف في الصيف، فيه أنواع من الطعام، فيه مشروبات كالعصير، قهوة، شاي، مُقَبَّلَات سلطات مثلاً، أنواع الفواكه أحياناً يضعوا ثلاثين نوعاً من أنواع الفواكه، أنواع الحلويات، أنواع الطعام، أحياناً تجد مُنْعاً سمعية كأن يسمع أحياناً أنغام، توجد متع بصرية، توجد حدائق، توجد مروج خضراء، توجد جبال خضراء، توجد كائنات جميلة، أي:

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

الإنسان إذا كان له بيت، له زوجة، له أولاد، محل ينام، محل يأكل، محل يستقبل الضيوف، محل يستلقي، محل يتنظف، يوجد لك بيت عدة غرف، لك زوجة، لك أولاد، لك عمل، توجد أنواع من الطعام الطيبة تأكلها.

(وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14))

الكافر رغم انحرافه يطلب مزيداً من فضل الله:

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

قال:

أي رغم انحرافه وفسقه وفجوره يريد مزيداً من فضل الله، بل إنه يدَّعي إذا مات سيدخل الجنة، هذا إدَّعاء، كان الوليد بن المغيرة يقول هكذا: " لو أن هناك جنة لكانت لي ". وهو من أكفر الكفار.

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَأَرَهْقُهُ صَعُوداً (17))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 16-30 معاندة الله جزاؤه القسم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الرابع من سورة المدثر، ومع الآية السابعة عشرة وهي قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16))

رد الكافر للحق:

هذا الكافر عنيد، معنى عنيد أي يُعاكس الحق، يَرُدُّ الحق بلا سبب، الآية التي قبلها:
(دُرِّي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)
أي إن الخط البياني يصعد أحياناً للكافر أما الصعود غير مستمر، هذه حقيقة خطيرة، الكافر أحياناً يتوهم أن خطه البياني صاعد في نمو مستمر، يزداد مالاً، يزداد مكانة، يزداد قوة، يزداد انغماساً بملذاته، هذا الخط البياني الصاعد بعده انتكاسة خطيرة، لا يطمع أن يزداد ماله ولا أن تزداد لذائذه لا بد من تأديبٍ أو لا بد من قصم.

(كَلَّا)

كلا ليست حرف نفْيٍ فحسب، كلا حرف نفْيٍ وردع، أي يردع الله هذا الإنسان السادر في أحلامه. كلا أي الأمور ليست على ما هي عليه إلى ما شاء الله، يؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:
((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تُنْتَظَرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْعِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فُشْرًا غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

المؤمن خطه البياني في صعود مستمر:

أنت لا تستيقظ كل يوم كالיום السابق إلى ما شاء الله، أقول لكم بإخلاص وبثقة: المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً مستمراً ولا ينزل أبداً حتى عند الموت، فالحقيقة مذهلة خطك البياني صاعد صعوداً مستمراً والموت نقطة على هذا الخط والصعود مستمر والدليل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة: آية " 51 ")

كتب لنا، ولنا للتملك من الخير، من السعادة، من الرُقي.

حدثني أخ قال لي: رجل في المسجد، دخل المسجد وصلى ركعتين وقرأ القرآن في رمضان هذا. فلماً أقيمت الصلاة للفرض وجد ميتاً، في المسجد، في عبادة.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))

(سورة يس)

الكافر العاصي جزاؤه القصم:

اطمئن أيها الأخ ما دمت على منهج الله، ما دمت مراقباً لله فخطك البياني صاعد أبداً بشكل مستمر، أما الكفار يصعد خطهم صعوداً مذهباً ليسقطوا من علّ، هذا هو القصم.

(دُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَدْتُ لَهُ تَمْهيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

أداة ردع ونفي، يوجد قصم، يوجد بطش.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

يوجد إهلاك، يوجد تدمير.

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36))

(سورة الفرقان)

سقوط الكافر الفاجر سقوطاً مروعاً:

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29))

(سورة الدخان)

فإذا كنت مع الله لا توجد مفاجأة إطلاقاً، مفاجآت كلها سارة، خطك البياني صاعد صعوداً مستمراً وحتى عند الموت يُكشف لك مقامك في الجنة فنقول: لم أر شراً قط، وأما الكافر المعرض، العاصي، الفاجر هذا يصعد صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً.

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا)

قال علماء التفسير: " هذه الأداة لقطع رجاء الكافر عما يطمع فيه من الزيادة " كلا. لماذا هناك قَصْمٌ؟ وهناك تدميرٌ؟ وهناك بطشٌ؟

(إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

أي إنه يرفضها كبراً.

المعصية نوعان:

1 - المعصية عن غلبة:

إخوانا الكرام: هناك من يعصي الله ونقول لهذا العاصي: تاب الله عليك وألهمك رشداً، هناك من يعصيه غلبة وهناك من يعصيه كبراً، المعصية عن غلبة أهون عند الله ألف مرة من أن تعصيه كبراً.

2 - المعصية كبراً:

الذي يعصيه كبراً لا توبة له، مصيره إلى النار، أما الذي يعصيه غلبة فتأب الله عليه وتذلل، وبكى، ومرغ جبهته في مصلاه وقال: يا رب اغفر عني، فهذا يرجى له المغفرة، فيوجد فرق كبير، المصيبة واحدة إنسان لا يصوم، واحد تغلبه شهوته، والثاني يحتقر الصوم، فرق كبير بينهما، قال له:

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

أي نفسه أبت أن تطيع الله، تأبى على الله، استكبر على الله كإبليس تماماً، العنيد هو المعاند كجليس ومُجالس.

عَنِيداً كلمة لها معاني عدة:

1 - الجاد:

(إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

وفي أصل اللغة البعير العاند والعنيد هو الذي يحد عن الطريق ويشرد عن الصواب، بعضهم قال: "العنيد هو الجاد". الجود ؛ تكرمه، تتلطف له، تعطيه، تقنعه وهو يرفض رفض الأحمق، رفض اللئيم.

2 - المعرض:

وقال بعض العلماء: " العنيد هو المعرض " الجاحد أو المعرض، أو المنحرف، أو الذي يردُّ الحقَّ كبراً، هذه هي معاني عنيد، يرد الحق كبراً، أو ينحرف عن جادة الصواب، أو يجحد الفضل، أو يُعرض عن الله عزَّ وجل.

3 - المجاهر بعدوانه:

وقال ابن عباس: " العنيد المجاهر بعدوانه، المجاهر بعداوته " . يوجد إنسان عدو لكنه يُظهرُ خلاف ذلك، يوجد إنسان يُظهر أنه عدو، العنيد المجاهر بعداوته، والعنيد المجانب للحق، والعنيد المعرض عن الله، والعنيد الذي تجاوز قُدْرَهُ أي جعل نفسه نداً لله عزَّ وجل، رفض أن يطيعه، والعنيد هو المَعزول عن الناس الذي لا يُخالط الناس، ولعل هناك علاقة بين العند وبين الانعزال، الإنسان إذا اعتزل الناس ضاق أفقه وعاش في أوهام باطلة فوقف مواقف مضحكة.

أيها الإخوة الكرام: العنيد لها معاني كثيرة أولها: المعرض عن الله، والجاحد، والمتكبر، والمتأبّي، والذي يُظهر عداوته ولا يخفيها.

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16))

العذاب الشديد لمن يعاند الله عز وجل:

الآن:

(سَأَرْهُقُهُ صَعُوداً (17))

سأحمّله على ما لا يطيق، نعوذ بالله من هذا.

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

والله أيها الإخوة: توجد آلام بالأمعاء عَقِبَ أمراض خبيثة، يقول لي بعض الأخوة الأطباء: الآلام لا تحدث مهما كان الإنسان عنده جلد يفقد صوابه ويعلو صياحه إلى درجة غير معقولة، توجد آلام بالأعصاب، آلام بالأحشاء.

(سَأَرْهُقُهُ صَعُوداً (17))

كلمة واسعة شاملة جامعة مانعة، أي قد نُحمّله ما لا يطيق، أحياناً الإنسان يرى نفسه في بيته مفضوحاً والفضيحة لا تحدث، إنسان يرى امرأته تخونه، أحياناً يضربه ابنه، أحياناً يفقد حرّيته، أحياناً يُعَدَّب

عذاباً لا يطاق، هل تحتل أيها الإنسان ؟ هذا الذي يعاند الله عز وجل، يتأبى على الله، يجاهر عداوته لله، يريد أن يطفئ نور الله، هل تحتل فعل الله فيك ؟

((سَارُهُفُهُ صَعُوداً (17))

أي سأكلّفه ما لا يطيق، أحياناً والعياذ بالله توجد أمراض مزدوجة، دواء هذا المرض يزيد هذا المرض، ودواء هذا المرض يزيد هذا المرض، يقف الأطباء مكتوفي اليدين، لا يوجد حل، إنكم تسمعون ولا شك من الناس أن هناك أمراضاً آلامها لا تحتل، هناك حالات من الدل لا تحتل، الإنسان أحياناً يُهان، أحياناً يُهان في بيته، يُهان في عمله، كان عليه الصلاة والسلام يعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال.

((وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

(سورة الشعراء)

فالإنسان حينما يُعاند الحق قد يتحمّل ما لا يطيق.

((كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَارُهُفُهُ صَعُوداً (17))

الوليد بن المغيرة و كلامه عن القرآن الكريم:

قال:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

(سورة المدثر)

طبعاً هذه الآية لها أسباب نزول ولها عموم، خصوص السبب لا يلغي عموم القصد، عندنا قاعدة: خصوص السبب لا يلغي عموم القصد، لعلّ هذه الآيات عن الوليد الذي فكر وقدر، قال:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

قال بعض علماء التفسير: " هذه الآية نزلت في شأن الوليد بن المغيرة الذي فكر في شأن النبي وفيما جاء به من القرآن ". قال:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

معنى قدر أي هياً كلاماً، قال الوليد: والله لقد سمعت منه كلاماً (دققوا فهو ذكي جداً وفصيح). قال: "والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس (أي القرآن) ولا هو من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلو عليه، وما يقوله هذا بشر". كأنه آمن، كأنه بقي بينه وبين الإيمان ومضة.

الإنسان العاقل أقرب إنسان إلى الحق:

المشكلة أن الإنسان المفكر العاقل هو أقرب إنسان إلى الحق لأن عقله يعينه على ذلك، الإنسان المثقف العاقل الذكي الذي أُوتِيَ قدرة على الإدراك هذا أقرب الناس للحق، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما أسلم سيدنا خالد قال له: "عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً" لماذا تأخرت إلى هذا الوقت وأنت مفكر؟ فالوليد كان ذكياً جداً، وعاقلاً، قال: "والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلو عليه، وما يقول هذا بشر"، فقالت قريش: صبا الوليد، والله إن صبا الوليد لتصبأ قريش كلها.

هو زعيم قائد من عليّة القوم، نجم من النجوم، هؤلاء الكبراء الناس أتباع لهم، فإذا اهتدى إلى الله إنسان كبير في مكانته، في عقله، في علمه، في شخصيته، في حجمه، هذا الذي يهتدي إلى الله له أتباع كثر، فقالوا: "والله لقد صبا الوليد ولنن صبا الوليد لتصبأ قريش كلها".

الحوار الذي دار بين أبي جهل و الوليد بن المغيرة:

وكان يُقال إن الوليد ريحانة قريش أي من أوجه رجالها وقاراً وعلماً وعقلاً. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إلى الوليد حزيناً أي (إنه يُظهر الحزن) فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا أبا جهل؟ قال له: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ودخلت عليه وعلى ابن قحافة لتتال طعاماً من فضلهما"، أعوذ بالله!! فغضب الوليد وتكبر وقال: "أنا أحتاج إلى كسرة خبز من محمد وصاحبه؟ فأنتم تعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك" أي إنه استفزّه استفزازاً رخيصاً والمعرض مهما كان ذكياً ليس بعاقل. "وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق (هذه حالات الجنون). قالوا: لا والله.

الالتهام الكاذب الذي وجهه الوليد للنبي الأمين:

الآن حدثت مناقشة:

(إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18) فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (19))

(سورة المدثر)

إنكم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بالشعر؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جرّبتكم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا

والله، قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً و تخارجاً فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا: لا والله.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُسمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو إذا؟ لا مجنون، ولا شاعر، ولا كذاب، ولا كاهن فمن هو إذا ؟ ففكر في نفسه ففكر ففكر، تأمل لعله حكُّ رأسه ثم نظَّر، ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر في النهاية خرج منه أنه ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهذا قوله تعالى:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

إنه فكر في أمر محمدٍ وأمر القرآن وقَدَّر في نفسه ما يمكن أن يُقال، وقال:

((فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

(سورة المدثر)

أي ساحر تعلم السحرَ من غيره، قال تعالى:

((فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

الابتعاد عن الله أكبر خسارة تصيب الإنسان:

فأنت في اليوم تتخذ مئات القرارات، قررت أن تذهب في نزهة فلم تسر فيها، قررت أن تأكل هذا الطعام فلم يعجبك (ليس مشكلة)، تتخذ ألف قرار غلط، أما يوجد قرار واحد تتخذه غلط يدمرك، فليس كل قرار مثل الثاني، في شأن الطعام والشراب، والحركة، واقتناء مركبة، وشراء بيت، الإنسان يصيب ويخطئ والخطأ يُصحَّح، أما الإنسان أحياناً يرتكب خطأ في جسمه أي إنه يأخذ معالجة من دون رأي الطبيب فيُشَل، هذه غلطة كبيرة، أحياناً يتكلم كلمة فيفقد حريته عشر سنوات (وهي كلمة واحدة). أحياناً يشتري بضاعة غير نظامية يُحكم بضرائب تفوق كل أملاكه فيفلس، فليس كل خطأ خطأ، فقال:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(قُتِل)

أي لعن، أي أبعد نفسه عن الله، فأكبر خسارة تصيب الإنسان أن يبتعد عن الله بعمله السيئ، أكبر خسارة ينالها إنسان أن يبتعد عن الله نظير عمله السيئ.

((فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

أي لعن، وهناك تفسير آخر: أي فُهرَ وغُلِب.

إخوانا الكرام: زوال الكون أهون على الله أن تتخذ قراراً بطاعته وتخسر، وأن تتخذ قراراً بمعصيته وتربح، وهذه الأيام أمامكم، إنسان يتخذ قراراً بطاعة الله لا بدّ من أن يربح، لا بدّ من أن يرفع الله شأنه، إنسان آخر ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى، فالإنسان يفكر في كل شيء إلا أن يكون في خندقٍ مُعادٍ للدين، حارب أي إنسان إلا أن تُحاربَ الله ورسوله، حارب كل شيء إلا أن تحارب الدين، فمن هو الطرف الآخر ؟ الله، يتوازي طفل رضيع مع عملاق في الصراع ؟ لا يتوازي، يتوازي إنسان صغير مع دولة عظمى، إنسان وحيد مع دولة عظمى ؟

((فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (19))

قال بعضهم: " قهر و غلب ". وقال بعضهم: " عُدْب ".

((فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (19))

(كَيْفَ)

تَعْجَبِيَّة، أي كيف هداه تفكيره إلى هذا الحكم ؟ نحن أحياناً كثيرة نرى موقف فيه حمق من إنسان ذكي فنقول: كيف فكر ؟ ما الذي خطر في ذهنه ؟ كيف وقف هذا الموقف ؟ توجد كيف تعجبيّة، وهذه كيف تعجبية.

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَرَ (18) فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (20))

أي لعن لعناً بعد لعن، فأخت أرادت أن تغتصب بيت أخيها وهي قوية أقوى منه دافع ثمنه وليس معه إيصال، اشترى البيت وأخته معاً فاستطاعت أن تأخذ الحكم لصالحها وأن تخرجه من البيت وتنتصر عليه، وعنده أربعة عشر ولداً وهي عزباء، بعد حين أصيبت بمرض خبيث في أمعائها، وفي الشهر التالي ماتت، وريثها الوحيد أخوها، عاد إلى البيت مع أولاده، فأنا أقول: لعنها الله ولعنتها الملائكة إلى يوم القيامة.

أحياناً الإنسان يأخذ موقفاً يلعنه اللاعنون، يلعنه من في الأرض جميعاً. هذا نوبل اخترع البارود فشعر بخطأ فاحش لأنه الآن كل ما يقع في الأرض عن طريق التفجير والألغام في صحيفته، فجعل كل أملاكه جائزة لمن يقدم بحثاً في الإنسانية ينفعها، ومع ذلك كل هذه الجوائز لا تُكفّرُ ما فعله حينما اخترع هذه المواد المنفجرة.

((ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (20))

أَيُّ لَعْنٍ لَعْنَا بَعْدَ لَعْنٍ بَعْدَ لَعْنٍ، أَوْ عُوقِبَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ الْخ.

((ثُمَّ نَظَرَ (21))

(سورة المدثر)

((نَظَرَ (21))

أَيُّ فِكْرٍ. بالمناسبة: إياك أن تظن أن العقل لا يخطئ، العقل يرتكب أكبر الخطأ، العقل كالعين تماماً، الآن انتِ بإنسان أعمى كلياً وإنسان بصره اثني عشر على عشرة، ضع الاثنين في غرفة مظلمة ألا يستويان ؟ مئة بالمئة يستويان، فالعين لا قيمة لها من دون ضوء، من دون نور، والعقل لا قيمة له من دون وحيٍّ يهديه، لا بدّ من وحيٍّ يهدي العقل إلى الصواب، من دون وحي:

((إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فُقْتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قَاتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ)

أَيُّ قُطِبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ.

الاستكبار عن الإيمان يؤدي إلى الكفر:

((ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

استكبر عن الإيمان فقال في النهاية، صمت دهرأً ونطق كفراً.

((إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24))

هذا النبي ساحر وقد أخذ السحر عن غيره.

((إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24))

أَيُّ إِنْ الْإِنْسَانُ لَهُ أَنْ يَفْكَرَ وَأَنْ يَتَأَمَّلَ وَأَنْ يَقْلِبَ الْأَمْرَ عَلَى وَجْهِهِ، أَمَّا أَنْ يَنْتَهِيَ بِنَتِيجَةِ مَضْحَكَةٍ أَنَّهُ سَاحِرٌ

((عَبَسَ)

أَيُّ قُطِبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فِي وَجْهِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

تجبر اللئيم مع الضعيف و تذلل مع القوي:

مَرَّ الْوَلِيدُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ فَعَبَسَ فِي وَجْهِهِمْ.

((عَبَسَ وَبَسَرَ (22))

أي عندما دعاه النبي عيسى في وجهه، حينما دعاه أصحابه عيسى في وجوههم، يوجد أشخاص سبحانه الله - للطيبين مُتَجَهِّمُونَ، للمنحرفين منبسطون، وهذا من أشد حالات اللؤم، للشخص الطيب الطاهر المتواضع تراه مستعلياً ومستكبراً، مع إنسان آخر ذليل كالشاة أمام ذابحها، المؤمن بالعكس

(أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

من لؤم اللئيم أنه متجبر على الضعيف متذلل أمام القوي، مع من دونه في منتهى الجبروت، ومع من فوقه في منتهى الخضوع والذل والاستكانة، أما المؤمن مع المؤمن ذليل، ومع غير المؤمن عزيز.

(ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

ولى وأعرض ذاهباً إلى أهله واستكبر عن أن يؤمن، أدبر عن الإيمان واستكبر حين دُعي إليه.

السحر و تعريفه:

فقال:

(فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24))

أي أخذه عن غيره، والسحر هو الخديعة، تعريف السحر: إظهار الباطل في صورة الحق.

(إِنَّ هَذَا إِلَا قَوْلُ الْبَشَرِ (25))

(سورة المدثر)

أي ما هذا إلا كلام المخلوقين تُخدع به العقول كما تُخدع بالسحر.

توعد الوليد بالنار الشديدة:

الله عزّ وجل قال:

(سَأَصْلِيهِ سَقَرُ (26))

(سورة المدثر)

إله يقول:

(سَأَصْلِيهِ سَقَرُ (26))

أي سأدخله جهنم كي يصلح حرّها.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27))

هذه مبالغة، أي لا تعلم ما هي سَقَر.

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ: آية فيها معاني عدة:

1 - لا تترك للكافر شيئاً إلا و تحرقه:

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28))

استمعوا إلى تفسير هذه الكلمة قال:

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28))

أي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقتهم، وقيل: لا تبقي منهم شيء ثم يعادون خلقاً آخر، أي لا تذر أن تعاود إحراقهم مرةً بعد مرة.

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

(سورة النساء: آية " 56 ")

2 - لا تبقي من فيها حياً و لا تذره ميتاً:

و قال بعض العلماء: " لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً ". وهذه أصعب حالة (لا موت ولا حياة) مات انتهى، يحيا مستريح، لا حياة ولا موت، لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً.

3- تحرقهم كلما تجدد جلدهم:

بعضهم قال: " تحرقهم كلما تجدد جلدهم ".

4 - لا تبقي لهم لحماً و لا عظماً:

وقال بعضهم: " لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ".

لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ: آية فيها معاني عدة:

1 - تلوح جهنم لهم من بعيد فتسود جلودهم و يزدادون عطشاً:

(لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

(سورة المدثر)

أي تلوح لهم من بعيد، هذا معنى:

(لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

تغيّر لون جلودهم، تسودُ جلودهم، إذا الإنسان احترق يسودُ لون جلده، قال بعض العلماء: "تلفح وجوههم لفحة تدعها أشدّ سواداً من الليل". بياض الوجه له معنى وسواده له معنى، لاحه البرد والسقم والحزن أي غيّر لون وجهه، الإنسان أحياناً يصفر وجهه، أحياناً يسود وجهه. وقال بعضهم: "يشتدّ عطشهم". لأن اللوح شدة العطش، هذه كل معاني:

(لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29))

وتوجد قراءة لواحَة للبشر.

2 - تلوح للبشر من مسافة بعيدة:

المعنى الثاني: تلوحُ للبشرية من مسيرة خمسمئة عام.

3 - تلوح لهم جهنم حتى يروها رأي العين:

ويوجد معنى ثالث: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً وهذا يؤكد قوله تعالى:

(وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

(سورة الشعراء)

الملائكة الموكلون بتعذيب الناس في جهنم:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(سورة المدثر)

أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون الناس فيها، هؤلاء زبانية

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

(سورة التحريم)

هؤلاء الملائكة التسعة عشر هم خزنتها موكلون بتعذيب الناس فيها وإلقائهم في لهيبها.

أيها الإخوة الكرام: قال بعض العلماء: نُقِلَ عن أحد الكفار في عهد النبي أنه قال: لا تخافوا من التسعة عشر أنا أدفعُ بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة ومنكبي الأيسر التسعة ثم تمرّون إلى الجنة، يقولها مستهزئاً كانوا يضحكون من المؤمنين، يقول الله عزّ وجل:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

إدعاء الكفار بأن التدين سلوك بدائي أساسه الضعف:

الآيات اليوم:

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18) فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهًا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَاحِةً لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

يغلب على التفسير الطابع المتعلق بأسباب نزول هذه الآيات، لكن كما تكلمت في أول الدرس: لو تحررنا من خصوص السبب إلى عموم القصد، كل نظرية إلحادية الآن تتضوي تحت هذه الآية، كل دعوة إلى التفات من الدين، كل تصغير لشأن الدين، كل طعن في أحقية الدين، كل محاولة لإلغاء الدين من حياة البشر، كل محاولة لإحلال الفكر العلماني مكان الفكر الديني تحت هذه الآيات:

((إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18))

يقول لك: التدين سلوك بدائي أساسه الضعف والخوف، فلما قوي الإنسان وسخر الطبيعة له ليس بحاجة إلى الدين، وعليه فقس آلاف النظريات التي تطرح بإلغاء الدين من حياة الإنسان.

((إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18))

الوقوع في الضلالات عندما يبتعد العقل عن الوحي:

العقل حينما يتحرك بعيداً عن الوحي يقع في ضلالة عمياء، العقل بحاجة إلى الوحي كما أن العين بحاجة إلى النور.

((إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18) فُقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23))

هذا كلام المتكلمين، المفكرين أعداء الدين، العلمانيين، الإلحاديين، والعوام لهم كلام قريب، يقول لك: من هنا إلى يوم الله يفرجها الله، هذه نوع من أنواع الفلسفة (الفلسفة التفاتية) يقول لك: من مات ورجع فقال لك: ماذا صار معه؟ الله أعلم، فهذا تشكيك، يقول لك أحد الشعراء الجاهليين:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

قال له: عُبْ على قدر ما تقدر، انبسط، أي اكسب شبابك، هذا كله كلام أيضاً مشابه لهذا الكلام.
(إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18))

استخدام الفكر للوصول إلى الدين:

أخطأ تفكير أن تفكر في المعصية، أن تفكر في ترك الدين، أن تفكر في الدنيا فقط، أن تفكر أن تنغمس في الملذات على حساب طاعتك لله عز وجل، فسواءً فسرنا هذه الآيات بحسب خصوص السبب أم بحسب عموم القصد، كلاهما على حق.

على كلٍ هذا الفكر أداة إِيَّاكَ أن تستخدمه لغير ما خُلِقَ، إِيَّاكَ أن تستخدمه لترك الدين.

(إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18) فَفَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأَصْلِيهِ سَقَرَ (26))

والذين فكروا هذا التفكير أين هم الآن؟ بُشِيتَ قبورهم بعد مئة عام وأحرقت، الذين ناهضوا الدين، الذين ألحدوا، الذين أنكروا هذا الدين أين مصيرهم؟ إلى مزبلة التاريخ، وهؤلاء الذين ناهضوا الدين أصبحت فكرتهم سخيصة ومرفوضة، لذلك إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أن تقف في خندق معادٍ لدين الله لأن الطرف الثاني من هو؟ هو الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (5-8): تفسير الآية 31 معرفة الله من خلال أفعاله و
كلامه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الخامس من سورة المدثر، ومع الآية الكريمة الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31))

(سورة المدثر)

ولاء الملائكة لله عز وجل:

تروي كتب التفسير أن أبا جهل قال: أيعجز كل مئة منكم أن يبطش بواحدٍ منهم، هؤلاء التسعة عشر ؟ أيعجز كل مئة منكم أن يبطش بواحدٍ منهم ؟ ثم تخرجون من النار، تفكير عميق جداً أن مئة لواحد فقال الله عزَّ جل:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

(سورة المدثر: آية " 31)

من جنس آخر، لا من جنس البشر، إذا بدا جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام ملء الأفق، فهؤلاء الملائكة ليسوا من جنس البشر، وقد حلل بعض علماء التفسير حكمة أن الذين يعذبون الكفار في النار ليسوا من جنس البشر، لأنهم لو كانوا من جنسهم لكان في مقاربة في القوة فقد يغلب المعدب المعدب، ولو كانوا من جنسهم لتعاطفوا معهم، ولو كانوا من جنسهم لما كانوا في نُصرة الله عزَّ وجل، فالملائكة من جنس آخر، لا يتعاطفون مع هؤلاء العصاة الفجار، كما أن ولاءهم لله وحده، فلا يمكن أن يكون هناك تخفيف.

عدم تعاطف الملائكة مع الكفار:

أحياناً يأتي أمر بإيقاع عذاب معين بشخص، المنفذ قد يخفف هذا الأمر، قد يأتي بربعه، قد يعذب عذاباً شكلياً إذا في تعاطف، فإذا توهم أبو جهل أن كل مئة من كفار قريش يصرعون واحداً من هؤلاء التسعة عشر فتفكيرٌ مضحكٌ سخيف، قال:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

الملائكة ليسوا متعاطفين مع هؤلاء العصاة الكفار، ولاؤهم لله وحده، لو كانوا من جنسهم لتعاطفوا معهم، ولا يمكن بحال أن يخفف الملائكة بعض العذاب عن هؤلاء، الآية الكريمة:

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

(سورة التحريم)

فليس من الحكمة أن يكون هذا الذي كُلف بتعذيب هؤلاء لطيف.

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظُ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

معرفة الله من خلال خلقه:

إذاً: هذا التفكير المحدود وينم عن جهل، ولكن أنا أريد أن أقف وقفةً توضّح أعماق هذه الآية، الله جلّ جلاله لا بدّ من أن نعرفه، هناك طرق لمعرفة، إن أسلم الطرق وأنجعها أن تعرفه من خلال خلقه، ترى عظمة ما بعدها عظمة، ترى حكمة ما بعدها حكمة، ترى دقة ما بعدها دقة، ترى نظاماً ما بعده نظام، ترى إعجازاً ما بعده إعجاز، أما لو أن المشاهد جهل، غفل عن معرفة الله من خلال خلقه وأراد أن يعرفه مثلاً من خلال أفعاله، فالطريق شائك، هذا الطريق محفوف بالألغام، ماذا يرى المشاهد؟ يرى مجاعة، ويرى عدوان، ويرى تَصَحُّر، ويرى نقص مياه في العالم، ويرى فقر شديد، فإن أردت أن تعرف الله من خلال أفعاله هذا الطريق يوصل ولكن بصعوبة، سالك بصعوبة، فيه ألغام كثيرة، وإن أردت أن تعرف الله من خلال كلامه فقط تقرأ الآية الكريمة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: آية " 13)

تقع في إشكال، أي أن الله عزّ وجل ما شاء أن يهدي الناس، لو شاء لهداهم، فلذلك طريق معرفة الله من خلال كلامه طريق يحتاج إلى تَبَصُّر، من هنا قال أصحاب رسول الله رضي الله عنهم أجمعين:

"أوتينا الإيمان قبل القرآن".

هناك آيات كثيرة شاءت حكمة الله أن تكون متشابهة.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13))

(سورة السجدة)

فإذا الإنسان ما له معرفة بالله عميقة جداً يقع في إشكال مع هذه الآية، مع أن معنى هذه الآية دقيق جداً: أي يا عبادي لو أردت أن ألغي اختياريكم، وأن ألغي تكليفكم، وأن ألغي حمل الأمانة، وأن أجعلكم كبقية المخلوقات التي لا اختيار لها، وأجبرتكم على شيء ما، لما أجبرتكم إلا على الهدى.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

لكن هذا المعنى الدقيق هذا لا يفهم إلا بعد مرحلة متقدمة من الإيمان، فربنا عز وجل شاءت حكمته أن يكون في كتاب الله بعض الآيات المتشابهة، هذه تحتاج إلى إيمان قبل أن تقرأها.

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 8)

هكذا قد تفهم هذا الآية على نحو ما أراده الله عز وجل، إذا الطريق السليم الآمن الموصل الذي لا يوجد فيه أخطار، ما فيه ألغام، ما فيه مفاجئات أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، أبو جهل اسم على مسمى.

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً)

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

هم قلة، نحن أكثر، كل مئة على واحد يصرعونه ويخرجون من جهنم، هذا أراد أن يعرف الله من خلال كلامه وإيمانه صفر، أما إذا آمنت بالله إيماناً عميقاً عندئذ أنت أقرب الناس.

ذكرت قبل يومين أن القرآن الكريم لا يكفي أن تتقن العربية لفهمه، لأن الله عز وجل قال:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199))

(سورة الشعراء)

نزلنا هذا الكتاب على إنسان فارسي أو على إنسان تركي أو على إنسان صيني، فقرأ عليهم هذا القرآن باللغة الصينية أو الفارسية أو التركية، لا يفقهون شيئاً، قال:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

أي أن هذا القرآن العربي المبين الواضح المعجز إذا الإنسان قرأه وهو غافل عن الله، بعيد عن الله، بعيد عن الاتصال بالله، يفهمه كما يفهم كتاباً باللغة الفارسية.

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

الله عز وجل قال:

(أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

وقال:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت)

وقال:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82))

(سورة الإسراء)

فهو عمى على الكفار ويزيد الظالمين خساراً لأنه يُنادى من مكان بعيد، والله عز وجل يبين أنه لا بد من أن تؤمن بالله قبل أن تقرأ كلامه.

الإيمان شرط للوصول إلى الله:

أنت أحياناً تلتقي بإنسان لا تعرف عنه شيء إطلاقاً، قال لك: أنا معي ألف مليون، تضحك من هذا الكلام، لو تعرف حجمه المالي حقيقة لما ضحكت، لذلك الطريق إلى الله ؛ طريق كلامه يحتاج إلى إيمان مسبق، وطريق أفعاله يحتاج إلى إيمان مسبق، طريق أفعاله حقل محفوف بالألغام، أنت ماذا ترى؟ ترى مشكلات في العالم، ترى دول متجبرة ودول مقهورة، ترى مجاعات، ترى فيضانات، ترى سيول، ترى زلازل، ترى براكين، ترى أعاصير، ترى شحاً في المياه، ترى حروب طاحنة، ترى حروب أهلية تدوم أربعين عام أحياناً، الحرب العالمية الثانية فيها خمسين مليون قتيل، فقد تأخذ صورة غير صحيحة، هناك حكمٌ ما بعدها حكم، العبرة أن توحّد، أن ترى يد الله تفعل في كل شيء، فلذلك الله جعل لنا مثلاً قال:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

تسعة عشر ملكاً، فجاء إنسان غافل عن الله وقال: هؤلاء قلة، نحن نغلبهم وننجو من هذا العذاب.

قال الله عز وجل:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

ما معنى فتنة ؟ أنت أحياناً تقول كلاماً واضحاً كالشمس، لكن هناك كلام له فائدة، يوجد كلام تمتحن به الآخرين، مثلاً لو قلت لك: أعطي فلاناً ألف درهم، شيء واضح لا يوجد معه مشكلة، أما أعطي فلاناً ألف درهم ونصفه. هنا تدخل النفوس، البخيل يقول لك: ألف ونصف درهم، لأن الهاء تعود على الدرهم، أما الكريم يقول لك: ألف و خمسمئة لأن الهاء تعود على الألف، فهذا كلام احتمالي لكن في الوقت نفسه فيه امتحان، الله عز وجل يمتحن هذا الإنسان، فربنا عز وجل يقول:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

تصور مثلاً حقل سباق، نأتي بمئة حصان مثلاً كلها تجري في هذا الحقل، لو وضعنا عقبة (مرتفع) فبعض هذه الأحصنة لا تستطيع تخطي هذه العقبة، العقبة ما فائدتها ؟ هذه تعطي فرزاً، فمنهم خمسة ضعاف ما أمكنهم تجاوز هذه العقبة، لو رفعنا العقبة سقطوا عشرين، لو رفعناها أكثر سقطوا خمسين، لو رفعناها أكثر وأكثر سقطوا تسعين، فهذه العقبات التي توضع أمام الخيول في أثناء جريها هي فارزة لها، فربنا عز وجل أنزل هذا الكتاب على النبي الكريم، يوجد آيات تفرز المؤمنون، ويوجد آيات متشابهة، إنسان ميال للربا، مُصِر عليها، يقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130))

(سورة آل عمران)

أنا آكله ضعفاً واحداً (نسبة قليلة)، فأنا لست معنياً بهذه الآية، يفهمها كما يريد، كما يحلو له، فالقرآن الكريم فيه أيضاً امتحان، لذلك قالوا: تؤخذ ألفاظه من حُفاظه، وتؤخذ معانيه ممن يعاينيه، القرآن يحتاج إلى قرب من الله، القرآن يحتاج إلى إيمان بالله، القرآن يحتاج إلى أن تعرف من هو المتكلم ؟ خالق السموات والأرض.

معرفة الله من خلال أفعاله و كلامه:

من هنا قال بعض الصحابة الكرام: " أوتينا الإيمان قبل القرآن، لما آمنا بالله فهمنا كلامه فهماً صحيحاً وكنا في المستوى الذي ينبغي ".

كذلك إذا نظرت في أفعاله قد تجد أمراضاً وبيلة، قد تجد طفلاً مات في المهد، قد تجد شاباً مات في حادث عمره ثلاثين سنة لم يتزوج، إنسان عمر مئة وثلاثين، قد تتساءل، لذلك لا تستطيع فهم أفعاله إلا بعد معرفته:

مثل بسيط: لو طفل رأى طفلاً يضربه رجل يقول لك: هذا الرجل ظالم، أما لو رجل رأى رجلاً يضرب ابنه، يقول لك: يرّبه، اختلف، الطفل توهم أن هذا الإنسان يظلمه، أما الرجل الذي عنده مشاعر الأبوة علم أن هذا الرجل يؤدّب ابنه لذنوب كبير حتماً، ما الذي جعله يفهم صواب فعل الرجل ؟ قربه منه.

الذي أريد أن أقوله هنا: خطر كبير أن تعرف الله من خلال أفعاله فقط، لأنه لا يمكن أن تفسّر لها إلا بحالة واحدة أن يكون لك علم كعلمه، وهذا مستحيل، هناك أمثلة كثيرة جداً، فإنسان قد يجد مرضاً عضالاً أَلَمَّ بإنسان فسحقه سحقاً، أنت لا تعرف عن هذا الإنسان شيئاً، قد يكون هذا عقاباً له، وقد يكون ترقية، هناك حكمة.

تعلق إرادة الله بالحكمة المطلقة:

نحن لدينا قاعدة: كل شيء وقع إرادته الله، وكل شيء أرادته الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، هذا السطر يحل مليون مشكلة، كل شيء وقع يجب أن تؤمن إيماناً جازماً أن الله أرادته، الدليل: لو لم يردده لما وقع، لأنه لا يقع شيء في ملك الله إلا إذا أرادته الله، مستحيل ما دام وقع.

وتوجد مقولة رائعة جداً: لكل واقع حكمة، قد يكون الذي أوقع هذا الشيء غير حكيم، أحمق، مجرم، لكن ما دام هذا الشيء قد وقع فليس لكل موقع حكمة، لكن لكل واقع حكمة، الشيء الذي وقع هناك حكمة ما بعدها حكمة منه، قد نعرفها وقد لا نعرفها، قد نكشفها وقد لا نكشفها، قد نكشفها بعد حين، وقد نكشفها بعد أمدٍ طويل، وقد لا نكشفها، نحن غير مكلفين أن نستقصي حكمة الله من أفعاله فهذا فوق طاقة البشر.

لكل واقع حكمة:

قصة ذكرتها كثيراً لكن الآن تفيدنا كثيراً: إنسان استوقفني مرة بالطريق قال لي: فلان خرج من بيته إلى دكانه في أحد أسواق دمشق الشهيرة المغطاة وسمع إطلاق رصاص اثنان يتشاجران، مد رأسه فإذا برصاصة تستقر في عموده الفقري تشلّه فوراً، فهذا الإنسان فكر

(إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ (18))

ليس له ذنب، إنسان برئ جاء إلى هذا المحل التجاري وهو محله ليفتح المحل وليبيع وليشتري ويكسب قوت أولاده، قال لي: ماذا فعل ؟ أجبني، قلت له: أنا ليس لدي جواب، أنا غير مكلف أن أستقصي حكمة أفعال الله كلها، فهذا فوق طاقتي.

أنا مؤمن إيماناً إجمالياً أن الله حكيم وعادل ورحيم، أما هذه بالذات أنا لا أعرف تفسيرها، طبعاً حكمة إلهية الله سخرها، بعد عشرين يوماً أحد إخواني الكرام قال لي: أنا ساكن في الميدان بالمحل الفلاني، لنا جار بالطابق الأعلى أو الأدنى لا أذكر أكل مال أيتام، مال أولاد أخيه، والمبلغ كبير ويساوي ثمن بيت، وأولاد أخيه في أمس الحاجة لهذا المال ليشتروا بيتاً به، يتمتع عن إعطاء حقهم، شكوه لأحد علماء دمشق توفي رحمه الله، فاستدعاه وحضه على دفع ما عليه فرفض، قال لي: بالضبط قال لهم: يا بني إياكم أن تشكوه إلى القضاء فهذا لا يليق بكم ولا به هو عمكم والعم والد، اشكوه إلى الله، هذا الكلام تم في الساعة التاسعة مساءً، هذا الشخص نفسه الذي نزل إلى محله التجاري وسمع إطلاق رصاص بين اثنين متشاجرين ومد رأسه ليرى ما الخبر ؟ فإذا برصاصة تستقر في عموده الفقري. أنا لا أعلم الحكمة وقتها، لكن أتيح لي لحكمة أرادها الله أن يأتي إنسان يعطيني هذه القصة التي فسرت لي الحدث الأخير.

امتحان الله للإنسان في الدنيا من أجل أن يتوب إليه:

من الصعب أن تعرف الله من أفعاله، الله له حكم. يوجد شيء ثان أهم بكثير، هذه الدنيا محدودة، الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض، فربنا أحياناً يُضْحِي لنا بدنينا من أجل أن نتوب إليه، فأصحاب الجنة أتلف كل محاصيلهم، محصول ثمنه خمسمئة ألف فرضاً تجده كله منته ؟ دمر كل محاصيلهم، ليقولوا:

(سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

(سورة القلم)

ليقولوا هذه الكلمة وليتوبوا إلى الله. فأنت إذا كنت غنياً كبيراً أو عندك ابن صغير ومعلق عليه آمالاً كبيرة، وفحصه على الأبواب و يلعب بلعبة، واللعبة غالية وأنت غني فجئت ودهستها برجلك حطمتها برجلك، قلت له: ادرس، والطفل متعلق بهذه اللعبة، بكى بكاءً مرّاً من أجلها، شيء ثمين عنده، لكن عند الأب ليس لها قيمة، سحقها وحطمها من أجل أن يلتفت إلى دراسته، إلى مستقبله، فالدنيا على الناس غالية كثيراً.

إنسان يفلس، إذا كان لا يصلي وبعد أن فلس صار يصلي فقد ربحاً كبيراً، إنسان لا يوجد فيه دين، بعد ما جاءه شبح مرض مخيف فتأب، ربح ربحاً كبيراً، المرض شر نسبي، والتفليسة شر نسبي، ومحله احتراق شر نسبي، أما في منظور الله عز وجل الله ناظر إلى الآخرة، خير مطلق.

تعلق حكمة الله بالخير المطلق:

أول نقطة إخواننا الكرام: كل شيء وقع أراده الله، لأن لكل واقع حكمة، ما دام وقع في حكمة، قد يكون الفاعل أحمق، قد يكون مجرمًا فلا يهمناء، ما دام الله سمح له أن يفعل إذا لكل واقع حكمة، كل شيء وقع أراده الله، بالعكس كل شيء أراده الله وقع أي:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11)

مهما كانوا أقوىاء يتهافتون كبيت العنكبوت، فقلعة من قلاع الإلحاد تداعت كبيت العنكبوت، فلا أحد عند الله قوي، الله هو القوي، إذا إذا أراد شيئاً وقع، الله عز وجل فعلاً لما يريد، الذي أراده يقع، والذي وقع أراده.

الآن: إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، أي أن هذا الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، أو لو وقع على خلاف ما وقع لكان الله ملوماً، أو لعد هذا نقصاً في حكمته، والذي وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، اسمع قوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

لو قال: والشر اختلف المعنى، إبتاء الملك خير، ونزعه خير، تعز من تشاء خير، تذلل من تشاء خير.

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

الكون هو الطريق الآمن لمعرفة الله تعالى:

هذه المقدمة أيها الإخوة الطريق السليم الآمن لمعرفة الله الكون، أقصر طريق إلى الله وأوسع باب.
(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

هل تريد أن تكون معطيًا لكتاب الله لا سمح الله ولا قدر ؟ لما ربنا عزَّ وجل يقول لك:
(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ
(19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20))

(سورة الغاشية)

هذا أمر إلهي.

التفكر في خلق الإنسان لمعرفة قدرة الله:

يوجد عندنا قاعدة أصولية: كل أمر يقتضي الوجوب.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25))

(سورة عبس)

تحلية لتر ماء يكلف خمس عشرة ليرة، فهذا الماء الذي تشربه محلي، مصفى، فرات، عذب، من جعله
عذباً فراتاً وكان ملحاً أجاجاً ؟ انظر إلى طعامك، وإلى شرابك.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5))

(سورة الطارق)

باللقاء الزوجي يوجد خمسمئة مليون حوين، والحوين يوجد عليه مليون معلومة مبرمجة، الخمسمئة
مليون حوين بسنتيمتر مكعب، أو اثنين سنتيمتر مكعب، والحوين الواحد عالم قائم بذاته والبويضة قال
تعالى:

**(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى
رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8))**

(سورة الطارق)

التفكر في الآيات الكونية للوصول إلى الله:

اجمع الآيات التي تتحدث عن الكون تقريباً ربع القرآن، فإذا الإنسان لم يفكر في هذه الآيات عطّلها،
عطّل رُبْع كتاب الله، هذا خطأ كبير، طريق معرفة الله من خلال الكون طريق آمنة وسالكة، والكون
أوسع بابٍ للدخول منه إلى الله وأقصر طريق إليه، في طريقين اثنين، طريق أفعاله طريق ضيق
ومحفوظ بالألغام وسالك بصعوبة، فيه مشكلات، في حروب، في فقر، يوجد قوي ويوجد ضعيف،
يوجد ظالم ويوجد مظلوم، يوجد فروقات اجتماعية كبيرة جداً هذه لا تعرف حكمتها إلا أن يكون لك علمٌ
كعلم الله، وكلامه:

(الم (1))

(سورة البقرة)

الله أعلم بمراده.

القرب من الله يقودنا إلى التفسير الصحيح:

بعضهم قال:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

لماذا ليسوا عشرين ؟ عشرين رقم صحيح، تسعة عشر، يوجد أشياء تتحدى عقل البشر، فهذه المقدّمة: إذا أردت أن تعرف الله ابدأ بمعرفته من خلال خلقه، بعد ذلك أصبح عندك نوراً، هذا النور يكشف لك أفعاله، مثل بسيط: طفل صغير رأى طفلاً يضربه أبوه، قال: هذا أبوه ظالم، لأنه رؤيته محدودة جداً، أما صديق الأب يعلم علم اليقين أن ابنه ارتكب ذنباً كبيراً وهو يؤدّبه ويضربه رحمةً به، اختلف التفسير، فكلمنا كنت أقرب إلى الله كان التفسير أوضح وأصح، وكلمنا كنت أبعد كان التفسير خطأ، هذا عن أفعاله، وعن كلامه أيضاً الصحابة قالوا: " أوتينا الإيمان قبل القرآن "، هذا معنى قوله تعالى كل هذا التمهيد:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

اختبار الله العباد لفرزهم:

عملية فرز، اللهم صل على سيدنا محمد بعثه الله رسولاً، و أنزل عليه قرآنًا أما عندما عرج به إلى السماء، وقال له: أخبرهم، فهذا شيء صعب جداً، فهم ما قبلوه رسولاً، حتى يقبلوه سافر إلى القدس ورجع ببضعة دقائق، فهو كان يتمنى من أعماقه ألا يقول لهم ذلك، هم كذبوه في الأصل وفوق تكذيبهم كيف يقول لهم: أنا كنت في السماء، وتخطيت بيت المقدس، وعرجت إلى السماء، فلماذا قد قالوا: الإسراء والمعراج كان فرزاً للمؤمنين جاء قبل الهجرة، يوجد عملية تحميل، كسرفة منسّمة إخواننا المهندسين يعرفون هذا الشيء ماذا نفعل تجاهها ؟ نضع لها عشرة براميل من الماء فإذا وقعت هذا هو المقصود نكشف خللها، إذا ثبتت معناها جيدة، نطمئن، عملية تحميل.

فربنا أحياناً يفعل شيئاً أولاً لفرز عباده، أو يُحَمِّلهم، فإما أن يكشف لهم أنهم بعيدون عن الإيمان أو أنهم يصمدوا، فإن صمدوا عرفوا أنهم صامدون والله عزّ وجلّ أكرمهم بعد ذلك، فالفضية ليست سهلة أن أنا آمنت وانتهى كل شيء.

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

فهل من الممكن طالب بالجامعة يقدم طلباً لرئيس الجامعة أنا أشعر أنني قوي بالرياضيات، فيرجى إدراج اسمي مع الناجحين، وإعطائي مرتبة امتياز الأولى، التوقيع من دون فحص، فأنا واثق من نفسي. شيء مضحك، لا يمكن أن تأخذ شهادة من دون امتحان، والامتحان صعب.

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

امتحان الله لكل إنسان على قدر ما يستطيع:

معرفة الله من خلال قرآنه تحتاج إلى إيمان مسبق، ومعرفة الله من خلال أفعاله تحتاج إلى إيمان مسبق، أما إن بدأت فابداً بخلقه فلا إشكال في ذلك، النبي قال:

((تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

وقيل: إلا عذاباً للذين كفروا لأن الله عز وجل يقول:

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) نُوفُوا فَنُتْنُكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ سْتَعْجِلُونَ (14))

(سورة الذاريات)

أي أنها عملية فرز، الامتحان هكذا، فمرة كنا في الجامعة الصف الذي أعلى منا جاء سؤال، الدكتور في الجامعة كتب نصاً قال (قال ابن المقفع و كتب نصف صفحة) اشرح هذا النص ؟ الطلاب ثلاثمئة وخمسين طالباً، والنتيجة سطر واحد: لم ينجح أحد. لماذا فكلهم شرحوا النص ؟ هذا النص بعيد عن خصائصه عن كلام ابن المقفع، فكيف صدقوا أنه له، فالذي ينجح هذا النص ليس لابن المقفع، لأن خصائصه الأدبية بعيدة عن أسلوبه، هم لم ينتبهوا، فكان هذا النص عملية فرز، من عطل محاكمته، عطل ذوقه الأدبي، عطل فهمه العميق للنص وشرحه شرحاً آلياً، فرسب عنده، يوجد امتحانات، والله عز وجل حكيم، فهو يمتحن كل إنسان على قدر ما يستطيع، فعن هذا الرقم (تسعة عشر) قال:

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا)

(سورة المدثر)

عدم الإكثار من الجدل:

سيدنا الصديق لما قيل له: تعال اسمع ما يقول صاحبك، قال: إنه عرج إلى السماء، فقال: هو قال هذا؟ قالوا: نعم، قال: فقد صدق، هذا الإيمان، إن قال هذا فقد صدق، فأحياناً الله يمتحننا بامتحانات عبودية،

سيدنا إبراهيم قال له الله: اذبح ابنك، ليست مقبولة بل غير معقولة وغير محتملة، قال له: سمعاً وطاعة يا رب، قال:

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

يوجد شيء اسمه امتحان عبودية، الله قال لك:

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

انتهى، في حكمة بالغة، أما لماذا ليسوا عشرين ؟ يجعلهم مئة، خمسة، صارت هناك مناقشة، أنت تناقش خالق الكون.

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

أي الذين آمنوا، كعبد الله بن سلام، أو الذين أوتوا الكتاب لأن هذا الرقم عندهم أيضاً، إما ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من أن القرآن كالإنجيل والتوراة من مصدر واحد، أو لأن بعض الذين آمنوا بالإسلام يستيقنوا أن كلام الله هو الصحيح..

(وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا)

مكافأة الله لمن ينصاع لأمره:

الحقيقة توجد نقطة مهمة جداً، أحياناً الإنسان يتلقى أمر إلهي ما فهم حكمته، لكن لأنه يعلم أن الله الذي خلق السماوات والأرض حكمته لا شك فيها، فيستسلم لحكمة يصدقها ولا يراها (دقق في هذا الكلام) أحياناً تجد أن هناك حكماً شرعياً، لماذا الله عز وجل ما ورث أبناء الذين توفي أبوهم في حياة جدهم ؟ يا ترى هل في نقص بالشرعية ؟ الله عز وجل نسي أن يورثهم، ألا يوجد له ورثة ؟ فالمؤمن عنده علم اليقين أن الله عز وجل حكيم، فيستسلم لحكمة الله، لأنه استسلم لحكمته العامة غير التفصيلية فربنا عز وجل يكرمه لكشف حكمة عدم توريث هذا الإنسان، فيكون جمَعَ الإنسان الحُسنيين ؛ جمع العبادة ثم أضاف إليها الحقيقة، فكل إنسان ينصاع لأمر الله استسلاماً له يكافئه الله عز وجل بكشف الحكمة، فكسب مرتبة العابدين ومرتبة العلماء، العلماء قالوا: " علة كل أمر أنه أمر".

حكمة الله وراء أوامره و نواهيه:

أحد علماء دمشق الأكارم كان بأمريكا وكان يناقش عالماً أسلم حديثاً عن مضار لحم الخنزير، ذكر له تفاصيل، ذكر له الدودة الشريطية، ذكر له انتقال طباع الخنزير إلى الإنسان، يقول لك: هذا مخنزر، لأن الخنزير يقارب امرأته أمام بقية الخنازير، فإذا شخص أكل لحم الخنزير يتطبع بطباعه، بعد ما

أسهب قال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرّمه (الأمريكي كلامه أبلغ)، كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرّمه، خالق الكون حرّمه، انتهى.

سألوا امرأة ببرنامج مفتوح بين القارات الخمس عن رأيك في تعدد الزوجات ؟ امرأة من بلد إسلامي، قالت: كيف تطلب رأيي والله سمح به، من أنا ؟ إذا كان الله سمح به أنا ليس لي رأي في الموضوع، يوجد كلام عميق جداً، فأنا الذي أريده أن تعرف الله، إن عرفته فسرت أفعاله، أن تعرف الله، إن عرفته فسرت كلامه.

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

يوجد شخص لو تفرمه لا يصدق أن الله يضل عباده، لكن أضله أي وجده ضالاً، أنا عاشرت هؤلاء فما أبخلتهم (بالمعاجم): أي ما وجدتهم بخلاء.

(وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْلَقْنَا قُلُوبَهُ)

(سورة الكهف: آية " 28)

أي من وجدناه غافلاً، أما قد يفهم إنسان منحرف أن الله خلق فيه الغفلة، أو خلق فيه الضلال، لا.

الكون طريق المعرفة السالك:

إذاً: يجب أن تعرف الله قبل أن تقرأ كلامه، ويجب أن تعرفه قبل أن تنتظر في أفعاله، طريق المعرفة السالك والأمن والمحصن طريق الكون، طريق أفعاله يحتاج أن تعرفه قبل أن تنتظر في أفعاله، وطريق كلامه يحتاج إلى أن تعرفه قبل أن تقرأ كلامه.

ازدياد إيمان المؤمن بعد كشفه حكمة الله تعالى:

(وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا)

فالإنسان أحياناً يستسلم إلى الله، تكشف له الحكمة فيزداد إيماناً.

(وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا)

(سورة المدثر: آية " 31)

معناها:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

(سورة الأنعام)

إذا هذه الآية هي آية دقيقة جداً، مفادها أنها امتحان، وأنها فرز، وأنها تعريف بإيمان المؤمن.

(وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

أي المنافقون، أو المختلفون.

(وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا)

عظمة الله في خلقه:

الله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ)

(سورة البقرة)

بعوضة !! هذه البعوضة ! إله عظيم، أنت هل تعلم أن هذه البعوضة لها ثلاثة قلوب ؟ قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وأن جناح البعوضة يرف أربعة آلاف رفة في الثانية، وأن هذه البعوضة تملك جهاز رادار، تتحرك في الليل المظلم بأشعة رادار، تأتي على جبين النائم مباشرة لا تخطئ، وأن هذه البعوضة معها جهاز تحليل دم، فهناك دم لا يناسبها، إذا نام أخوان على فراش واحد، الأول يلسع، والثاني لا يوجد فيه شيء.

وهذه البعوضة يوجد عندها جهاز تميع دم لأن خرطومها دقيق جداً، فإذا كان الدم غير مميع لا يمر، وأن هذه البعوضة عندها جهاز تخدير وأنت تضربها تكون قد طارت تخدرك أولاً، وتأخذ الدماء، ينتهي المخدر تجد نفسك مقروصاً، تعمل هكذا فإذا هي قد طارت إلى الأعلى، جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تميع، ولها مخالب إذا كان سطح خشناً، ولها محاجم إذا كان لها سطح أملس على الضغط، ولها مخالب، وجناحها يرفرفان أربعة آلاف رفة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا)

(سورة البقرة)

ما هذا ؟ بعوضة !! أنت لو تعرف ما البعوضة تخشع لله عز وجل.

الإضلال الجزائي المبني على إضلال اختياري:

تسعة عشر ليسوا كثر، كل مئة على واحد ينتهوا، هكذا قال أبو جهل، وهو اسم على مسمى، كل مئة لواحد فنخرج من النار.

(وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ)

(سورة المدثر)

إذا عَزِيَ الإِضلال إلى الله فهو الإِضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، أو يضلهم عن شركائه، أو يجدهم ضالين، تحب أن تقول: وجدهم ضالين، أو أضلهم عن شركائه ليلتفتوا إليه، أو أضلهم ضلالاً جزائياً أساسه ضلال اختياري.

(كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

أي ملايين مُملِنة، الحديث الشريف: أنه لا يوجد مكان بالسماء إلا وفيه ملك.

استسلام الإنسان لله عز وجل:

(وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31))

(سورة المدثر)

إما النار التي نستخدمها هي ذكرى للبشر، أي الإنسان لو وضع يده على لهب يقفز قفزاً سريعاً، فكيف إذا وضع كله في النار، فالنار ذكرى للبشر، أو جهنم جعلها الله رادعاً للبشر، أو جعل هذا الرقم ذكرى ليستيقن الإنسان أنه يجب أن يستسلم لله عز وجل. وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نعود لهذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 32-37 بطولة الإنسان طاعة الله
لا عصيانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السادس من سورة المدثر، ومع الآية الثانية والثلاثين:
(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذَا دُبِّرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَأُحْذَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ
(36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الكفار في قبضة الله عز وجل و سوف يحاسبهم:

أولاً: كلمة

(كَلَّا)

ليست أداة نفيّ فحسب بل هي أداة نفيّ وردع، أي إن توهّمكم أنكم بإمكانكم أن تقضوا على الملائكة
الذين أوكلمهم الله عزّ وجلّ بجهنم.

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30))

(سورة المدثر)

فدعوى أبي جهل الساذجة أن كل مئة يقتلون واحداً وينتهي الأمر فلا تخافوا، هذا جهلٌ مطبق وهذه
ساذجةٌ ما بعدها ساذجة، وأن الكافر لن يسبق الله عزّ وجلّ، بمعنى أنه في قبضتهم وأنه سيُحاسَب، بل
إن خطة الكافر تستوعبها خطة الله عزّ وجلّ، الإنسان قد يرى بعينه أن هذا الكافر فعل شيئاً ؛ قتل
إنساناً، أعطى إنساناً، إرادته تستوعبها إرادة الله، خطته تستوعبها خطة الله، تدبيره يستوعبه تدبير الله،
فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أذن الله به.

طغيان الإنسان عند شعوره بالاستغناء عن الله:

إذاً: هو لن يسبق الله عزّ وجلّ، كما أنه لن يستطيع أين يتقلّت من عقابه، فالكفار يتوهّمون أن بيدهم
فعل أي شيء، وهذا شأن كل كافر في كل عصر، الإنسان يطغى ومتى يطغى ؟

(أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى (7))

(سورة العلق)

حينما يشعر أنه مستغن عن الله يطغى، لذلك أيها الإخوة: الإنسان القوي يحتاج إلى علم، وإلى فهم، وإلى صبر أضعاف ما يحتاجه الضعيف، والغني يحتاج إلى علم وإلى صبر أضعاف ما يحتاجه الفقير، السبب: الفقير خياراته محدودة، إنسان له دخل محدود من عمله إلى بيته، أما الغني عنده ألف خيار وخيار، لو سافر إلى بلد أجنبي بإمكانه أن يمضي الليل في أي مكان، في أي ملهى، في أي نادي، في أي مُنْتَجَع، ومعه مال يُمكنه أن يفعل ما يشاء، فمن هو الذي يحتاج الصبر؟ الغني، من هو الذي يحتاج الصبر؟ القوي، لأن قوته أو غناه تتيح له أن يفعل أشياء كثيرة جداً، بينما الضعيف والفقير خياراته محدودة، فالإنسان بحاجة إلى معرفة وإلا يُعَدُّ غناه وبالاً عليه.

أكبر المصائب الغنى المطغي:

هل تصدّقون أن النبي عليه الصلاة والسلام عدّ الغنى المُطغي أحد أكبر المصائب؟ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خيّر جبريل قائلاً: يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً؟ قال:

((بل نبياً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره.))

طبعاً كل إنسان له وضع هو في حقه خير، وفي حقه حكمة ولكن كل إنسان بحاجة للعلم، بل إن الأقوى والأغنى أشد حاجة من الأضعف والأفقر، فالإنسان يطغى.

((أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى (7))

حينما يرى نفسه مستغنياً عن الله يطغى وهذا حال الكفار في العالم كله، امتلكوا القوة النووية، تحكّموا في مصائر الشعوب، قهروا الشعوب، نهبوا ثرواتهم، تحكّموا بمقدّراتهم، خطّطوا مصيرهم، إذا الآية الكريمة:

(كُلًّا وَالْقَمَرَ (32))

قوة الكافر لا تبعده عن قبضة الله:

كل ما قاله الكفار كلامٌ سخيّف، كلامٌ مردود، الكافر مهما كان قوياً في قبضة الله، والحقيقة عندنا يتدخل الله عزّ وجلّ ويبطش فإن كل الخلق يرون الحقيقة، لكن الإنسان القوي والغني أحياناً مربوط بحبل مرخي لجهله يظن أنه طليق لكنه مُقَيّد إلا أن الحبل مُرَخًى، لكن متى يُشَدَّ الحبل هو لا يعلم، فجأة يشد الحبل فإذا هو في قبضة الله عزّ وجلّ.

يوجد رجل قال: إذا حمل هذا الصفصاف أجاصاً أنا أخسر ما أنا فيه، أي من باب التحدي، من باب المستحيل، فبعد يومين كان في قبضة الله عز وجل وانتهى، فالإنسان يجب أن يعلم حتى يعرف حدّه فإذا تجاوز حدّه قصمه الله عز وجل.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

أي كلا ليس كما تزعمون، ليس كما تتوهمون، ليس كما تتصورون، ليس كما يحلو لكم، ليس كما تتمنون، الحقيقة إن الإنسان العاقل لا يعيش في وهم مريح بل إنه يعيش في الحقيقة المرّة، دائماً وأبداً هناك خيار صعب بين الوهم المريح والحقيقة المرّة، لو شخص معه شيك في جيبه بمئة ألف دولار لكنه مزور، إذا توهم أنه صحيح فإنه يشعر بالغنى والقوة، لكن لو أراد أن يستخدمه لوضع في السجن وشعر بالفقر والخيبة، يا ثرى الأولى له أن يبقى بهذا الوهم المريح أم أن يعرف الحقيقة المرّة؟

الإنسان الذكي من يجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة:

والله أيها الإخوة: معظم الناس يفضلون الوهم المريح على الحقيقة المرّة، ما دام في قوة، وفي منعة، وفي غنى، وفي صحّة فإنه يرتكب كل المعاصي والآثام ولا يتأثر بها إطلاقاً، أما حينما يأتيه المرض، حينما يأتيه شبح الموت عندئذ يصبح كالكلاب، فأنت بطولتك أن تبقى الحياة مستمرة بخطّ صاعد، لا أن يكون الصعود حاداً ثم السقوط مريع، المؤمن خطه صاعد صعوداً ثابتاً فهو دائماً في حال أعلى، وأنا أوكد لكم والله ولا أبالغ إن المؤمن الصادق المستقيم حتى الموت يعدّ نقطة على خطّه الصاعد، والآيات كثيرة:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

من هو الذكي؟ هو الذي يجعل من نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة، فهو في الدنيا في عز، في سلطان، في غنى، في طمأنينة، في راحة، في سعادة، جاء الموت فهو في سعادة ما بعدها سعادة، هذا الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن يخصّ به المؤمنين.

تقبل الحقيقة المرّة:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

(كَلَّا)

أي أن الله عز وجل نفى و ردع الكفار عن كل أوهامهم، وعن كل تصوراتهم، وعن كل ضلالاتهم، وعن كل توهمهم أنهم أقوياء، هذا وهم، أحياناً إنسان غني قال كلمة والله أنا أحسبه مؤمناً وهو مؤمن بإذن الله ولكن الله أدبه، قال مرة كلمة في سهرة، قال: المال يحل كل مشكلة، وجاء بحكمة (هي ليست بحكمة) الدراهم مراهم، فدخل غرفة ضيقة جلس فيها تسعة وستين يوماً لا تتسع إلا لنصف متر في مترين فقط، طوال هذه الأيام يذكر قولته: الدراهم تحل كل شيء ؟ لا، لا تحل كل شيء، توجد أمثلة كثيرة جداً، الإنسان جاهل ظن أنه قوي فكشف الله له ضعفه، ظن أنه غني فكشف الله له فقره.

(كَلَّا)

فالعبرة لا أن تتوهم شيئاً مريحاً، العبرة أن تعرف الحقيقة. حتى في العلاقات الاجتماعية الإنسان يحاول أن يهرب من الواقع المرّ، لا هذا غير صحيح، أحياناً يُكذِّبُ النبأ، أحياناً يقول لك ثم يفاجأ أنه وقع في شرّ عمله، العبرة أن تقبل الحقيقة المرّة، إنك إن قبلتها تلافت خطرها أما إن رفضتها وقعت في شرّها.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 - القمر:

القمر من آيات الله الدالة على عظمته، كلّم يعلم أن الله جعل القمر تقويم، الأرض هكذا والقمر حولها يدور، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن الأرض تدور حول نفسها، والقمر يدور حول الأرض، لو أن سرعة دورة القمر حول الأرض مكافئة لدورة الأرض حول نفسها التغي القمر وبقي مع الأرض في مكان واحد هكذا في مكان بدر، في مكان محاق إلى أبد الأبد، إلا أن هناك تفاضل بين سرعة دورة القمر حول الأرض ودورة الأرض حول نفسها، هذا التفاضل بين سرعتين هو الذي يعطي القمر وظيفة التقويم، فيكون هلال، ثم أعلى من هلال، ثم بدر، ثم يتراجع، تسلسل رؤيته من هلال، إلى بدر، إلى هلال السبب أن سرعته حول الأرض أقل من سرعة الأرض حول نفسها، هذا التفاضل في السرعة يسبب أن يكون القمر تقوياً:

(لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ)

(سورة يونس: آية " 5 ")

بالمناسبة: السنة القمرية حُكمية أما أصلها الشهر القمري، أما الشهر الشمسي حُكمي أصله السنة الشمسية لأن السنة الشمسية هي تمام دورة الأرض حول الشمس، فالدورة مقسمة إلى أبراج فالشهر حكمي في التقويم الميلادي والسنة حقيقية، القمر بالعكس الشهر حقيقي والسنة حكمية، وتوجد لفظة لطيفة، أنه:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25))

(سورة الكهف)

هذا هو الفرق بين ثلاثمائة سنة قمرية تساوي ثلاثمائة وتسعة ميلادية بالضبط، هذه الآية أشارت إلى التقويم القمري والتقويم الشمسي، فهناك تقويمين: تقويم أساسه حركة الأرض حول الشمس ومقسمة إلى اثنتي عشرة مرحلة، ودورة القمر حول الأرض مضروب باثنتي عشرة مرحلة، هذه السنة الشمسية والسنة القمرية.

(كُلًّا وَالْقَمَرَ (32))

تناسب العلاقة بين الشمس والقمر والإنسان:

أي فِكر بهذا القمر، بعده عنّا ثمانية ضوئية واحدة، ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر تقريباً وهي سرعة الأرض وزيادة، الإنسان إذا كان على سطح القمر فإن وزنه يكون سدس وزنه على الأرض، أي أن الذي وزنه ستين كيلو فإن وزنه على القمر عشرة كيلو، من أجل أن تعلم ما هي علاقة الوزن بحجم الكوكب، لو نحن على كوكب أكبر لكان وزن الواحد مثلاً طن وهذا شيء صعب كثير، لو كان على القمر وزنه السدس، فهناك علاقة بين الوزن وبين الحجم، توجد كواكب ليلها مئة عام ونهارها مئة عام، توجد كواكب سنتها ثمانمئة عام، الله جعل السنة اثني عشر شهراً، واليوم اثنتي عشرة ساعة، لو كان اليوم مئة ساعة و لك طاقة محدودة فإنك تشتغل فتتعب، تحتاج لأن تنام في النهار وغيرك يشتغل في النهار صار هناك فوضى، أما الله جعل الشمس والأرض العلاقة بينهما علاقة متناسبة مع الإنسان.

(كُلًّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (34))

2 - الليل والنهار:

قضية الليل والنهار أيضاً من آيات الله الدالة على عظمتها، هذه الأرض تدور حول نفسها لو أنها توقفت لأصبحت الأرض وجهين: وجه نهار أبدي ووجه ليل أبدي، والله نَبَّهَنَا وقال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71))

(سورة القصص)

معنى هذا: لو كان الليل سرمدي تصبح حرارة الأرض المظلمة متتية وسبعين تحت الصفر (تنتهي الحياة) ولو أن النهار سرمدي فإن الحرارة تصبح ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر إلى أبد الأبد (تنتهي الحياة)، أي بمجرد أن تقف الأرض عن الدورة حول نفسها فإن الحياة تنتهي، هذا شيء خطير، فبين برء مميت وحرء مميت.

رحمة الله بالإنسان:

لو أن الأرض تدور على محور مواز مع دورتها حول الشمس والشمس من هنا فكأنها واقفة، سيكون هناك وجه نحو الشمس دائم أبدي، ووجه مظلم دائم أبدي، إذا لا يكفي الدوران، لا بد من دوران بمحور متعامد مع مستوى دورانها، لو كان المحور موازي فدورها كوقوفها، نصف الأرض متصل بالشمس ونصفه منقطع عنها، هنا موت من الحر وهنا موت من القُر.

الآن: لو دارت الأرض بمحور عمودي على مستوى دوران الأرض ما الذي يحصل؟ أبدية الفصول، ففي خط الاستواء صيفٌ إلى أبد الأبد، وفي المنطقة المعتدلة ربيعٌ أو خريفٌ إلى أبد الأبد، وفي المنطقة الباردة شتاءٌ إلى أبد الأبد، لكن حكمة الله عز وجل جعلت الأرض تدور بمحور مائل ثلاثة وثلاثين درجة عن عمودية المحور، فالأرض هنا والشمس هنا والأشعة عمودية على القسم الجنوبي والأشعة مائلة على القسم الشمالي.

3 - ميل محور الأرض:

يوجد بعض الأصدقاء سافروا إلى أمريكا (أمريكا القارة الوحيدة المتصلة بين الشمال والجنوب) فقال لي: انتقلنا من بلد الناس على الشواطئ يسبحون والحر شديد لا يُحتمل، إلى بلد الثلج فيها خمسة أمتار، وهذا في يوم واحد، لأنه لو كان المحور عمودي على مستوى الدوران لثبتت الفصول، أما كونه مائلاً، الأرض هنا الأشعة عمودية نحو الأسفل وللأعلى مائلة، عندما انتقلت الأرض إلى هذا الوضع صارت عمودية على القسم الأعلى ومائلة على الأسفل، إذا حكمة الدوران، وحكمة المحور، وحكمة ميل المحور، آياتٌ دالة على عظمة الله عز وجل.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (33))

القمر له علاقة بالجاذبية. بالمناسبة إخوانا الكرام: النبي عليه الصلاة والسلام من سنته صيام الرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، ثلاثة أيام التي فيها القمر بدرًا، الحقيقة أنهم وجدوا في بعض الإحصاءات، أخذوا محاضر و ضبوط المخافر في بلد غربي، وقعوها على الشهر القمري فوجدوا أن الجرائم والسرقات والاعتصاب يزداد ستين بالمئة في هذه الأيام الثلاثة، لأن هناك علاقة بين دورة القمر وبين طبيعة الإنسان، فهذه الأيام أيام فورة الدَّم فالنبي أمرنا أن نصومها، أي أن القمر له علاقة بنا، وكذلك المد والجزر، فالبحر أحياناً يرتفع إلى عشرين متراً بالمد، وينخفض عشرين في الجزر بفعل القمر (جاذبية القمر).

الآن توجد بحوث تؤكد أنه حتى في القشرة اليابسة تتجه نحو القمر بمقدار سنتيمترات بين المد والجزر.

العلاقة بين الأرض و القمر:

القمر له علاقة بالأرض متينة جداً ؛ علاقة مد وجزر، علاقة جذب، وله علاقة إعطاء إضاءة، القمر يُعطي ضوءاً في أيام البدر تساوي ثمانية عشر بالمئة من إضاءة الشمس، ليلة مقمرة مضيئة للناس، فالقمر من آيات الله الدالة على عظمته.

توجد نظرية تقول: إن الكواكب كانت كوكباً واحداً فمن شدة الدوران والقوة النابذة تفلتت من بعضها، هذه النظرية ينبغي بناءً عليها أن تكون طبيعة تربة القمر كطبيعة تربة الأرض، فلما ذهبوا إلى القمر وجاءوا بعينات إلى الأرض وجدوا العكس تماماً، ليس هناك علاقة بين تربة القمر وتربة الأرض، فتربة القمر فيها بلورات عاكسة، أبلغ شيء في تربة القمر أن هناك مواداً لها وضع بلوري عاكس، فأنت ترى القمر منيراً مثاقفاً، لو ذهبت إلى هناك لوجدت تربة قذرة تُنْقَر من ينظر إليها، هذا كله عن القمر.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (33))

كروية الأرض:

الليل والنهار: الأرض لأنها كرة تدور حول نفسها فانه عزّ وجل جعل الشكل الكروي يتداخل فيه الليل والنهار، لو أن الأرض مكعبة وتدور فإن الليل يأتي فجأةً والنهار يذهب فجأةً، أما لأنها كرة فإن الليل والنهار يتداخلان، هذا معنى قوله تعالى:

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)

(سورة الزمر: آية " 5 ")

فأحد الأدلة على أن الأرض كرة أن الشكل الهندسي الوحيد الذي تتداخل به أشعة الشمس مع الظلام هو الكرة، فالليل جعله الله سكن، وهو من نعم الله الكبرى، الإنسان إذا لم يتمّ يختل توازنه، والليل يحتاج إلى السكنية فانه جعل الليل سكناً، وجعل النهار معاشاً، وجعل الليل والنهار متناسبان مع طبيعة الإنسان، فالنهار اثنتي عشرة ساعة، يشتغل ثماني ساعات ويرتاح أربع ساعات بين طعام و صلاة، والليل اثنتي عشرة ساعة ينام ثمانية وأربع ساعات مع أهله بين الفجر والعشاء، أما لو كان الليل مئة ساعة والنهار مئة ساعة لاختلّ نظام الحياة، فربنا يلفت نظرنا إلى هذه الآيات آية القمر وآية الليل.

(وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ (33))

(سورة المدثر)

آية الليل و النهار:

أي ظلام دامس وحشة وخيفة، تخاف من كل شيء بالليل، تأتي أشعة الشمس تأنس بها، النهار واضح، فالذين يقودون السيارات بالليل توجد مفاجآت ويوجد انبهار، أما في النهار الأمور واضحة، ورد في بعض الأثر: **((سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار ؟ وأين النهار إذا جاء الليل))** تجد أن النهار فيه أنس، فيه رؤية مديدة، فيه إشراق، فيه نشاط، فيه عمل، فيه حركة، الليل للسكن، لكن طبيعة الحضارة الحديثة قلبت ليل الناس نهاراً ونهار الناس ليلاً وهذا من أسباب بعض الإرهاق الجسمي لأن الله صمّم الليل للنوم، الآن أكثر الناس المتفتلّين طوال الليل يسهرون للساعة الواحدة، والثانية، والثالثة، وقت الراحة ووقت النوم الصحي ساهرون وعند وقت العمل والنشاط نائمون، أي أنهم غيّروا خلق الله عزّ وجل.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصَّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ (34))

دائماً توجد عندنا آيات كبيرة ؛ الشمس آية، القمر آية، الليل آية والنهار آية، من آياته الليل والنهار، من آياته الشمس والقمر، فالشمس والقمر آيتان، والليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله عزّ وجل.

5 - حركة النجوم:

وهذا الثبات العجيب أي إن الأرض بعد مئة سنة، أو بعد ألف سنة، أو بعد مئة ألف سنة يوم ثلاثة وعشرين أيلول تشرق الشمس الساعة الخامسة وثلاث عشرة دقيقة، فلا تتغير، ثبات عجيب، أحياناً أدق ساعة في الأرض (بيك بن)، هذه تضبط على حركة نجم، فقد تقتم هذه الساعة ثانية في السنة وقد تؤخر ثانية، دقة هذه الساعة مرتبطة بضبطها على نجم، أحياناً يقول لك: قطار بين طوكيو وأوساكا يجب أن لا يتأخر دقيقة عن موعد وصوله، هذه يعدونها رُقي ما بعده رقي، لأن ستة آلاف كيلو متر أو ألفين كيلو متر يجب أن يصل القطار بالدقيقة وقد يتأخر دقيقة، أما النجوم العملاقة بحركتها المديدة الطويلة تصل بمواعيد بواحد من الألف بالثانية، لذلك أدق ساعات العالم تضبط على حركة النجوم، ثبات عجيب، الله تثبت أشياء وحرك أشياء.

النار مصير كل كافر:

(وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا اسْفَرَّ (34) إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (35))

العلماء قالوا: " هذه النار التي أعدها الله للكفار إنها لإحدى الكتب"، المشكلة أن هؤلاء الناس المنحرفين في الحياة يغيب عنهم أن هناك شيء اسمه النار، أكثر الناس لا يعبؤون، لا يتخذون النار أساساً في عقيدتهم، النار محرقة وهذه مصير كل كافر وكل عاص.

(إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (35))

أي النار التي خلقها الله ردعاً لعباده من أن يعصوه.

حرمان الإنسان الكافر نفسه من السعادة:

بعضهم قال:

(إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (35))

أي تكذيبكم بالنبي عليه الصلاة والسلام شيء كبير، أي حرمت أنفسكم من السعادة الكبرى.

(إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (35) نَذيراً لِلْبَشَرِ (36))

الله جعل النار نذيراً، وجعل هذا الكتاب نذيراً، وجعل النبي نذيراً لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45))

(سورة الأحزاب)

(نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

أنتم أحرار، أنتم مخيرون إما أن تتقدموا إلى طاعة الله، أو أن تتأخروا عنها، إما أن تتقدم للعمل الصالح، وإما أن تحجم عنه، إما أن تتقدم لأداء العبادات و إما أن تحجم عنها، أنت مخير، وقال تعالى:
(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

إذا هذه الآيات:

(وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

البطولة الحقّة طاعة الله لا عصيانه:

نحن الآن في بحبوحة الحياة، والقلب ينبض، وكل شيء ممكن وأنت حي ؛ التوبة ممكنة، والصلح ممكن، والاستغفار ممكن، والإصلاح ممكن، والتكفير ممكن، كل شيء ممكن، أما حينما يأتي الأجل انتهى كل شيء.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الله جعل الطاعة تقدّم، معرفة الله تقدّم، العمل الصالح تقدّم، طلب العلم تقدّم، الإحجام عن العلم تأخّر، فبهذه الآية يجب أن نقيّم كل أمورنا، فالتقدم ليس أن نركب الفضاء، ولا أن نغوص في أعماق البحار، التقدم أن نطيع الواحد الديان، والتخلف لا أن نكون أمة زراعية ولسنا صناعية، لا، التخلف أن نعصي الله عزّ وجل، فهذه الآية يجب أن نقيّم بها كل شيء، التقدم في طاعة الله، التخلف في معصية الله، التقدم في العلم، والتخلف في الجهل، التقدم في الإحسان، والتخلف في الإساءة.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع شرح هذه الآيات:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَنَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شِقَاقَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 38-56 طاعة الله سبب مغفرته
لك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس السابع من سورة المدثر، ومع الآية الثامنة والثلاثين وهي قوله تعالى:

تذكير بما سبق ربطاً باللاحق:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ
(36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

القمر من آيات الله الدالة على عظمته:

الله عز وجل يقول:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

(كلا)

لا كما تتوهمون، لا كما تفكرون، لا كما تعتقدون.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

القمر أحد آيات الله الكبرى الدالة على عظمته.

(وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (33))

جواب القسم.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

الدين أخطر و أعظم موضوع في الدنيا:

أي أن أعظم موضوع في حياتك، أخطر شيء في حياتك هو دينك، دينك دينك إنه لحملك ودمك، هناك قضايا ثانوية، وهناك قضايا أساسية، فمثلاً طالب في المدرسة أخطر شيء في حياته الامتحان، الامتحان سيحدد مصيره ناجح أو راسب.

التاجر أخطر شيء في حياته ميزانية الشركة (الربح أو الخسارة)، فإذا كان يخسر فلا معنى لهذه التجارة.

طبيب وهو في الجامعة أهم شيء في حياته نجاحه في الجامعة، فبكل حقل، بكل مكان، بكل نشاط، بكل اتجاه، في قضية كبيرة جداً، حرب قائمة بين دولتين أخطر شيء فيها النصر والهزيمة، يجوز أن يكون هناك أشياء تُلَفَت لا قيمة لها، فيجب أن يكون هناك أولويات في حياتك، أنا متأكد أن أناساً كثيرون يضعون الدين في آخر اهتماماتهم، اهتمامه كسب المال، اهتمامه تحقيق الرغبات، اهتمامه العلو في الأرض، والدين يتابعه صدفة، أو لماماً دون تركيز.

(إِنَّهَا لَأِخْذَى الْكُبَرِ (35))

أي أن الذي خلق السموات والأرض هو الذي أنزل هذا القرآن ومعرفة القرآن وما جاء فيه أحد أكبر القضايا الكبرى في حياة الإنسان.

مصير الإنسان يتحدد بعلاقته بربه:

أيها الإخوة الكرام: هناك شيء اسمه مصيري، فمصير الإنسان يتحدد في علاقته بالله عز وجل، فالتعليم الثانوي، في سابع، ثامن، تاسع، عاشر، حادي عشر، أما الشهادة الثانوية، علامتك تحدد طبيياً، أو مهندساً، أو صيدلياً، أو طبيب أسنان، أو فرع أدبي، أو معهد متوسط، أو ليس لك مكان بالجامعة إطلاقاً، أو لم تنجح، هذا الصف بالذات يحدد مصيرك، هذا في الدنيا فقط، لكن هذا الدين هو مصيرك للأبد، نحن نعيش، نحن في الدنيا، كل الناس يأكلون ويشربون، ويسكنون في بيوت، ويتزوجون، وينجبون، ويتنعمون، ويتنزهون، لكن عند الموت يُفرز الناس، إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفد عذابها، فالقضية مصيرية، لا يمكن أن تضع الدين بالمرتبة الثانية، إذا كنت تملك وقتاً تحضر مجلس علم، هذا أهم شيء في حياتك، تبرمج حياتك على دروس العلم، تبرمج حياتك على فهم كتاب الله، لأن الله عز وجل قال:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

معرفة تعاليم الله من أولويات الأمور:

معرفة هذا القرآن، معرفة أمره ونهيه، حلاله وحرامه، وعده و وعيده، معرفة آياته الكونية، معرفة أخبار الأمم السابقة، معرفة مستقبل البشرية، في هذا الكتاب معرفته وتعليمه للناس أكبر أنواع الجهاد كما قال الله عز وجل، بل إن الجهاد ذروة سنام الإسلام، فدائماً أتمنى على الله عز وجل أن يكون كل أخ منكم أن يكون عنده أولويات، ونحن بحاجة إلى ما يسمى بفقہ الأولويات، أي أن أول شيء دينك. سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني "، معنى ذلك أنه إذا أصبت في دينك فالقضية كبيرة جداً، قد تعاني كل أنواع المصائب ودينك سليم فأنت سعيد، قد تعاني كل متاعب الحياة، إذا جاء الموت وكنت من أهل الجنة تقول: لم أر شراً قط، والذي غرق في النعيم ولم يكن يعرف الله عز وجل يأتيه ملك الموت فيقول: لم أر خيراً قط، وسيدنا علي رضي الله عنه يقول: " يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "

الغنى و الفقر بعد العرض على الله:

الناس في أغلب الأحيان يتألمون إذا رأوا إنساناً شاردًا، منحرفًا، عاصيًا، قويًا وغنيًا، يضطرب ميزانهم ؟ لا.

((لا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)))

(سورة آل عمران)

((وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)))

(سورة إبراهيم)

((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ

وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)))

(سورة البقرة)

الغنى والفقر بعد العرض على الله.

الموازنة بين أمتين أساسها ضم الآخرة إلى الدنيا:

أيها الإخوة: أتمنى عليكم إذا وازنتم بين شخصين، أو بين شعبين، أو بين أمتين، ألا تغفلوا الآخرة، ضموا الآخرة إلى الدنيا وبعد ذلك أجروا الموازنة ترتاحون، أما إذا أغفلت الآخرة، قد تجد أمة تعيش

حياةً تفوق حد الخيال وهي غارقة في المعاصي والردائل، والإباحية، وكل أنواع الانحراف، وهي من أقوى الدول، أضف الآخرة إلى الدنيا يستقيم الميزان.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

إياك أن توازن بين شخصين دون أن تُضمَّ الآخرة إلى الدنيا، ضم الآخرة إلى الدنيا ثموازن يستقيم معك الميزان، لأنه يجب أن تكون واثقاً من عدل الله، واثقاً من رحمته، واثقاً من حكمته، وأسماء الله كلها محققة في الدنيا، إلا اسم العدل، اسم العدل تراه جلياً واضحاً يوم القيامة، يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم توقى كل نفس ما كسبت، يوم القيامة، يوم:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

(الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أُدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3))

(سورة الحاقة)

الموازنة بين أمتين أساسها ضم الآخرة إلى الدنيا:

هذه أيتها الإخوة معان ثريح النفس، الدنيا هي أصغر من أن تكون دار استقرار، هي دار ممر، ممر سريع، الدنيا أصغر من أن تكون عقاباً للمؤمن، أو جنة للكافر، لا قيمة لها:

((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))

(أخرجه الترمذي عن سهل بن سعد)

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحدى الْكُبر (35))
(إِنَّهَا)

أي هذه القضية

(لَإِحدى الْكُبر (35))

أي لا سمح الله ولا قدر إذا إنسان عمل عدة فحوص وجد عنده بؤادر مرض خبيث، هل يوجد قضية أهم من هذه القضية بعد ذلك؟! فهل من الممكن أن يفكر بشراء باقة ورد مثلاً؟ أو أن يفكر بزيارة صديق نسيه؟ دخل بقضية كبيرة جداً (هذا مثل)، أحياناً الإنسان تأتي قضية تنسيه كل القضايا، والحقيقة الدين هكذا، الدين أكبر قضية في حياتك، مصيرك في الدين، مصيرك الأبدي في الدين.

(إِنَّهَا لَإِحدى الْكُبر (35))

عدم المبالاة بالدين يؤدي إلى الكفر:

كما أن النجاح في الجامعة أهم شيء فيها، وكما أن الربح في التجارة أهم شيء فيه، وكما أن النصر في المعركة أهم شيء فيها، جيشان يتحاربان أخطر ما في الموضوع النصر، طالب في الجامعة أخطر شيء النجاح، تاجر أخطر شيء الربح، مريض أخطر شيء الشفاء.

((إِنَّهَا لَأَحْدَى الْكُبَرِ (35))

إحدى أكبر قضايا حياتك لا تجعلها في الدرجة الثانية، والله أيها الإخوة هناك أناسٌ كثيرون يجعلون الدين في الدرجة العاشرة، فلا يعبأ، لا يطلب العلم، مع أنك إذا تعاملت مع الناس تكون واضحاً جداً، الإمام الغزالي قال: " يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلةٍ تحبينها لا شك أنك تمتنعين، يا نفس أياكون الطبيب أصدق عندك من الله؟! إذا فما أكفرك، أياكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله؟! إذا فما أجهلك".

فعندما يقترب الإنسان معصية باختياره دون أن يبالي هذا يقع في حماقة وفي كفر شديدين.

((إِنَّهَا لَأَحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

الموت نهاية كل شيء:

أكثر الناس يظنون أن التقدم أو بالتعبير الاقتصادي النمو هو في المال، مع أن الموت ينهي كل المال، الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغني الغني، وفقير الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض ينهي كل شيء، يبقى بعد الموت العمل الصالح، هذه آيات الدرس الماضي.

((لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيئَةً (38))

حركة الإنسان بالحياة إما صالحة أو طالحة:

أنت إنسان، لك عمل، سوف تُسمّى حركة الحياة، لو أن إنساناً مقعداً في البيت لا يتكلم، ولا يتحرك، ولا يأكل، ولا يشرب هذا ليس له عمل، أما إنسان خرج من بيته، له عين، له أذن، له لسان، له يد، كيف كسب المال؟ كيف أنفق المال؟ كيف خاطب الناس؟ كان خاطباً أو كاذباً؟ مستقيماً أو منحرفاً؟ مراوفاً أو مخلصاً؟ أعطى أم لم يعط؟ أنصف أم لم ينصف؟ حركتك بالحياة هذا هو عملك، حركتك، تزوجت، لماذا تزوجت؟ كيف عاملت الزوجة؟ كيف عاملت الأولاد؟ كيف عامل الجيران؟ كيف

عاملت زبائنك ؟ صدقت معهم ؟ كذبت معهم ؟ هل نصحتهم أم لم تنصحهم ؟ احتلت عليهم أم كنت ناصحاً لهم ؟ عملك، عملك في بيتك، عملك في السوق، عملك في الطريق، عملك في مهنتك، هذه الحركة في الحياة ما هي ؟ ممكن كل هذه الحركة أن توصف بوصفٍ واحد عمله صالح أو عمله سيئ، ضمن بيته، ضمن تربية أولاده، ضمن علاقاته بجيرانه، ضمن الأخذ والعطاء، المحاكاة بالدرهم والدينار، في أثناء السفر، في أثناء الإقامة، حركتك بالحياة، يمكن أن توصف بوصفٍ واحد: صالحة أو طالحة.

علاقة الإنسان بالآخرين:

كيف أن الطالب بالجامعة يقدّم اثني عشر مادة، وكل مادة عشرين سؤالاً، وكل سؤال علامات، تصحيح، وتدقيق، وسلّم، النهاية تكون بتقدير امتياز، أو تقدير جيد جداً، أو تقدير وسط، مقبول، أو جيد، بالنهاية كل حركتك بالحياة توصف بكلمة.

والناس أحياناً يموت بعض الأشخاص، يذكر اسمه في مجلس يتكلمون عنه كلمة واحدة: الله يوفقه (كلمة)، وإنسان آخر يقال: ابن حرام، من دون تفاصيل، عمله سيئ، كذاب، منافق، دجال، خداع، مغتصب لأموال الآخرين، فأنت لك عمل، عملك ضمن بيتك، عملك بعلاقتك مع جسمك، عملك بعلاقتك مع ربك، عملك بعلاقتك مع البهائم، عملك بعلاقتك مع من حولك، مع جيرانك، عملك بعلاقتك مع من تعمل، مع من هم فوقك، مع من هم تحتك، علاقتك مع والدتك، مع والدك، مع إخوتك البنات والذكور أولاد عمك، عملك هو علاقتك مع من دونك ومع من في مستواك ومع من فوقك، هذا العمل يوصف بكلمة واحدة، إما أنه صالح أو أنه سيئ.

علاقة الإيمان بالعمل:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البينة: آية " 7)

اقترن العمل الصالح مع الإيمان بمنّتي آية، ولا قيمة للإيمان إطلاقاً من دون عمل، فدائماً تَفَحَّصْ عملك كيف ألقى الله ؟ هل بكسبك شيء من الحرام ؟ هل فيه إيهام للناس من أجل ابتزاز أموالهم ؟ هل هناك مبالغة حتى تخوّفهم ليعطوك مثلاً ؟ هل تستخدم مكانتك الأدبية من أجل أخذ مال ليس لك ؟ هل من الممكن أن تأخذ شيئاً ليس لك ؟ عملك عملك كلمة واسعة كثير، لك دعوة إلى الله: هل تنصح

المسلمين ؟ هل تطلب العلم ؟ هل تعلم العلم ؟ هل تربى أولادك تربية عالية ؟ هل ترعى من حولك ؟
هل تعرف ما لك وما عليك ؟ هل تؤدّي الذي عليك ؟ عملك.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيَّةٌ (38))

(سورة المدثر)

أنت مرهون لعملك، كلام واسع جداً، قضية العمل كبيرة جداً، ملخص حركتك في الحياة هو عملك، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، أنت رهين عملك، أي محبوس.

القيد الذاتي للإنسان ينتهي إلى الحرية:

الآن العمل يُفحص، إما أن يُطلق، وإما أن يُقيد، أحياناً إنسان مرتكب أعمالاً خسيصة فاسمه على الكمبيوتر (إذا وجدت أي مشكلة يحضروه)، أنت رهين عملك حتى في الدنيا، حتى مع أولي الأمر، فإذا إنسان سارق، إنسان محتال، إنسان له عمل سيئ، يبيع بضاعة ممنوعة كالمخدرات، واسمه مسجل فما الذي جعلهم يقبضون عليه ؟ سوء عمله، والمستقيم طليق يتحرك أين ما شاء.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيَّةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

الذين عرفوا الله، بالمناسبة هناك فكرة رائعة وتبدو فيها مفارقة كبيرة، المؤمن كل حياته قيود، بصره مُقيّد بالمحارم، سمعه مقيد بذكر الله فلا يستمع للأغاني، لسانه مقيد بالصدق والنصيحة والتواضع، فلا يستطيع أن يتكلم بكلمات فيها كبر واستعلاء، يده مقيدة بالعطاء فلا يستطيع أن يبطن بها، رجله مقيدة بالذهاب إلى المساجد وإلى دور العبادة وإلى زيارة الأصدقاء وإلى الدعوة إلى الله، فكل أعضاؤه مقيدة بالشرع، لأنه مقيد فهو طليق، غير المؤمن حر حرية البهائم، يأكل ما يشاء، يأخذ من أموال الناس ما يشاء، يعتدي كيفما يشاء، فإذا هو يُقيد، فالقيد الذاتي ينتهي إلى الحرية، والحرية البهيمية تنتهي إلى القيد، والله عزّ وجل قال: أولئك المؤمنون الذين تقدّوا بالكتاب والسنة، ضبطوا جوارحهم، ضبطوا أعضائهم، ضبطوا دخلهم وإنفاقهم، ضبطوا بيوتهم، المؤمنون:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: آية 5)

الله رفع شأنهم.

الحرية المتفلتة للإنسان تنتهي إلى القيود:

والطرف الآخر لأنهم تفلتوا، وكانوا أحراراً من كل شيء.

(أُولَئِكَ فِي)

وفي تفيد شيئاً ضمن شيء:

(أولئك في ضلال مبين (22))

(سورة الزمر)

فالحرية البهيمية تنتهي إلى القيود، أحدها قيود نفسية (الكآبة)، الكآبة قيد:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

إذا وجدت في الأرض كلها، وفي القارات الخمس، إنسان معرض عن ذكر الله وهو يتمتع بسعادة كبيرة، فالقضية خطيرة جداً عندك فراجع القرآن مرة ثانية، هذا كلام خالق الأكوان قال لك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

المعرض عن الله له معيشة ضنكى:

لا يمكن لأي إنسان على وجه الأرض يكون معرضاً عن ذكر الله إلا وله معيشة ضنكاً، أما الضنك أنواع ؛ أحياناً هم، أحياناً قلق، أحياناً خوف، أحياناً سقم، أحياناً ضجر، أحياناً ضيق القلب، عصرة القلب، أحياناً ملل.

و لا يوجد إنسان يذكر الله وإلا في قلبه طمأنينة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، والحياة الطيبة حياة يعرفها من ذاقها، فذلك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ (38))

الدين هو تطبيق لمنهج الله الكامل:

افحص عملك، افحص مهنتك، افحص كسبك للمال، افحص إنفاق المال، افحص بيتك، فيه خلل ؟ افحص تربية أولادك، افحص بناتك كيف أنشأتهم هل تربيتهم ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ افحص تجارتك فيها مادة محرمة ؟ فيها طريقة تعامل محرمة ؟ فيها إيهام، فيها غش، فيها احتيال ؟ افحص وظيفتك هل تنصح هؤلاء المراجعين ؟ هل تلبي حاجاتهم ؟ أم تماطلهم ؟ أم تعقد عليهم الأمور من أجل أن تضطروهم إلى دفع مبلغ من المال ؟ انظر إلى عملك، إياك أن تظن أن الدين هو صلاة وصيام فحسب، الدين هو تطبيق لمنهج الله الكامل.

الصوم والصلاة هي مناسبة تقطف ثمار استقامتك، فإذا لا توجد استقامة لا يوجد معنى للصوم والصلاة، الصوم والصلاة كساعات الامتحان فالدارس يكتب، والذي لم يدرس ليس لها معنى الساعات

الثلاثة لم يقرأ ولا كلمة، دخل إلى الامتحان معه ستة أقلام وأسبرين، وشطيرة (سندويش) لكنه لم يقرأ شيء، فلا قيمة لهذه الساعات الثلاث.

الكافر محجوب بعمله عن الله:

هذا الذي يقيم شعائر الله من دون استقامة على أمر الله يجد الملل والسقم والضجر، ولا معنى لهذه العبادة عنده لأنه محجوب بعمله، والإنسان له عمل طيب يقبل به على الله وعمل سيئ يحجبه عن الله، وأكثر الناس تألق وجهه وبراءة وجهه دليل صلاح عمله، والذين لهم أعمال سيئة يغشى وجوههم غبرة.

((تَرْهَفْهَا قَتْرَةً (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42))

(سورة عبس)

((كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

طلاق.

جزاء المؤمن يوم القيامة:

((فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40))

وهم في جنات تجري من تحتها الأنهار، مضت الدنيا، هي الدنيا كلها ساعة اجعلها طاعة، تمضي، فهذا الموت لا يدع شيئاً، كم من إنسان بنى ولم يسكن، حقق جزءاً من أهدافه ولم تتم.

((فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42))

ما الذي أوصلكم إلى هنا ؟

أسباب دخول النار:

الآن اسمعوا جواب إنسان يحترق في النار وسئل ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ هذا أخطر جواب:

1 - عدم الصلاة:

((قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

(سورة المدثر)

لذلك:

((لا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ))

(مسند أحمد رواه: عثمان بن أبي العاص)

لذلك الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، أصل هذا الدين الصلاة، والصلاة هي الفرض المتكرر التي لا تسقط بحال، لا تسقط بحال إطلاقاً، تؤدي الشهادة مرة واحدة، يسقط عنك الحج عند الفقر والمرض، يسقط عنك الصيام عند المرض والسهر، تسقط عنك الزكاة إذا كنت فقيراً، أما الصلاة فرض متكرر لا يسقط بحال، الدين هو الصلاة، والصلاة صلة والصلة تحتاج إلى استقامة، وكل إنسان تلبس بظلم محجوب عن الله.

الاستقامة أكبر دوافع المؤمن:

لذلك لا تبحث عن أداء حركات الصلاة بقدر ما تبحث عن تأكدك من أن الطريق إلى الله سالك، ولا يكون الطريق إلى الله سالكاً إلا باستقامتك على أمره وخدمتك لعباده، فتجد المؤمن حريصاً على خدمة الخلق وعلى الاستقامة لأنه حريص على اتصاله بالله، كلهم عباده فإذا آذيتهم، أو غشيتهم، أو خوّفتهم، أو ابتزرت أموالهم، العمل السيئ يكون حجاباً بينك وبين الله، فأحد دوافع المؤمن الاستقامة، أحد أكبر دوافعه أنه يحافظ على اتصاله بالله فيستقيم مع عباد الله، وهذا الدين لولاه لا تُحقّق سعادة على وجه الأرض، فدائماً وأبداً العلاقة بين اثنين بينهما الله.

الخوف من الله سبب استقامة الإنسان:

في عالم المسلمين الله بين كل اثنين، فأنت تتحرك مع الطرف الآخر وتخاف الله، أو تخدمه وترجو الله، فأعظم ما في الدين أنه كل إنسانين في بلاد المسلمين الله بينهما، فكل إنسان يعامل الثاني بحالتين بخوف ورجاء، يخاف الله أن يظلمه، يخاف الله أن يعتدي عليه، يخاف الله أن يَغُشَّه، يخاف الله أن يكذب عليه، يخاف الله أن يؤذيه، يخاف الله أن يأخذ ما ليس له، ويرجو رحمة الله بخدمته، ويرجو رحمة الله بمعاونته، ويرجو رحمة الله بتطمينه، إذا ما دام الله بين كل اثنين فنحن في سعادة كبيرة.

أما المجتمعات الشاردة الله ليس بين كل اثنين (علاقة مباشرة)، فالأقوى يأكل الأضعف، مادام هناك مصلحة توجد علاقة، لا توجد مصلحة انتهى كل شيء، فالحياة من دون دين لا تطاق لأن القوي يأكل الضعيف، والغني يبتز الفقير، والأقوى يجلب الخير لنفسه وحده.

يا أيها الإخوة الكرام: هذه الحقيقة أن الله بين كل اثنين هذه أروع حقيقة في عالم المسلمين، وهذه لا تُعرف إلا بالاطلاع على بيئات أخرى أو على مجتمعات أخرى، المجتمع الإسلامي على ما هو عليه

من تقصير لكن هناك خوفٌ من الله، يقول لك: أخاف من الله، تجد شخصاً يرجو رحمة الله ويخشى عذابه إذاً يستقيم، إذاً:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيَّةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَنْسَاءُ لُونِ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ)

أي ما أدخلكم ؟

(فِي سَقَرٍ (42))

في النار.

2 - عدم القيام بالأعمال الصالحة:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44))

أي ليس لنا عمل صالح، طبعاً يوجد عندما مثل وعندنا قاعدة، إطعام المسكين عمل صالح، أي ليس لنا أي عمل صالح، لا اتصلنا بالله ولا خدمنا عباده.

3 - التقليد الأعمى للآخرين:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

(سورة المدثر)

نحن مع هؤلاء الناس، ركبوا صحوناً فركبنا صحون، مع الناس، مع الأكثرية، تكشفت عوراتهم كشفنا عوراتنا، فعلوا كذا فعلنا كذا، هذا الإنسان الذي يسير مع الناس بلا فهم وبلا ضوابط هذا إنسان سخي، لذلك دائماً العظماء هم الذين يحدثون تغيرات في البيئة، أما الضعفاء يتأثرون بالبيئة، وأنت ترى بعينك امرأة ترتدي ثياباً فاضحة فلماذا ؟ فتقول لك: هكذا أصبحت الموضة، فأين أصبح الدين ؟ أين منهج الله عز وجل ؟ أين طاعة الله ؟ أين من أنك مسلمة من أب مسلم وأم مسلمة ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

ماذا يفعل الناس يفعلون.

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرٍ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ))

(سنن ابن ماجه عن أبي هريرة)

وطبعاً مصمم أزياء في فرنسا هو الذي يتحكم بنساء المسلمين، بيده لباس النساء كلهن، يكشف كل العورات ونحن نتبعه شبراً بشبر، فكيف ينصرنا الله عز وجل ؟

(وَكُنَّا نَخُوضُ)

هذا كلام أهل النار، وهذا شيء دقيق جداً أنه أتيج لنا بعلم الله عزّ وجل أن نستمع إلى رجل يحترق في النار ونسأله: ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ يقول:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ (46))

4 - التكذيب بيوم الدين:

الآن أكثر الناس يقول لك: (من هنا إلى يوم القيامة الله يفرجها)، أي إنه كذّب بيوم الدين، (من مات ورجع فقال لك: في آخرة)، هكذا يقولوا العوام من الناس، هذه كلمات كفر وهم لا يشعرون (لا تدقق) أي أنه لا توجد آخرة، هذه الكلمات يقولها الناس بشكل مداعبة أما هي خطيرة جداً.

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ (46))

والتكذيب يا إخوانا الكرام أنواع: يوجد تكذيب قولي، لن تجد في العالم الإسلامي إنسان يكذب بيوم الدين فيقول لك: لا توجد آخرة. لكن لو فحصت عمله لا تجد أبداً أنه يعمل للآخرة، الذي يأكل المال الحرام يخاف يوم الدين ؟ أبداً بل إنه يكذب به، الذي يعتدي على حقوق الناس يكذب بيوم الدين ؟ الذي يأخذ ما ليس له يكذب بيوم الدين ؟ الذي يحتال يكذب بيوم الدين ؟ كل إنسان يعصي الله هو في الحقيقة يكذب بيوم الدين، فإذا قلت لإنسان من باب الطرفة: يوجد على كتفك عقرب، فابتسم وبقي هادئاً ومرتاحاً تماماً وقال لك: أنا شاكر لهذه الملاحظة وإن شاء الله يجب أن أكافئك عليها، إنه لم يفهم ما قلت له لأنه لو فهم لكان قفز من مكانه.

ما جاء في القرآن ستعرفه معرفة يقينية عند الموت:

جاء اليقين قال:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

اليقين هو الموت.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

والحقائق التي جاء بها الأنبياء سوف يعرفها كل البشر عند الموت.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق: آية " 22)

أي إن أكثر كفّار الأرض (فرعون) عندما أدركه الغرق قال:
(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية " 90)

المعرفة النافعة هي المعرفة قبل الموت:

إذاً مشكلتك مع الإيمان مشكلة وقت، كل شيء جاء بالقرآن وجاء به النبي عليه الصلاة والسلام سوف تعرفه معرفة يقينية قطعية ثابتة أكيدة عند الموت، إن عرفته الآن استفدت منه، أما عند الموت لا قيمة لهذه المعرفة.

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ
انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158))

(سورة الأنعام)

فكل عمل، كل معرفة تكون عند الموت يقينية ولكن لا قيمة لها، المعرفة النافعة هي المعرفة التي تعرفها وأنت في أوج حياتك.

(فَمَا تَتْلِفُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

قال عليه الصلاة والسلام:

((يا بني عبد المطلب، أُنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أُنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ لَا أَمْلَكَ لَكُمْ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنْ لَكُمْ رَحِمًا، سَابِلُهَا بِلَالُهَا))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

شفاعة النبي لا تنال الشارد عن الله:

أما الذي يموت موحّداً، مخلصاً، غير مشركٍ بالله تناله شفاعة النبي، شفاعة النبي حق لكنّها لأهل التوحيد، لأهل الإيمان، لأهل الطاعة، لأهل الاستقامة أما أن يتوهّم الإنسان أن يشرد عن منهج الله وأن يفعل كل الموبقات وأن يتعلّق بشفاعة النبي فهذه سذاجة ما بعدها سذاجة.

(فَمَا تَتْلِفُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

أي اثني عشرة مادة والناجح في المواد كلها عدا مادة واحد آخذ فيها خمسة وأربعين من خمسين أي لازمك خمسة علامات تنالك شفاعة النبي، أما يوجد تقصير شديد فإن هذا موضوع خارج شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام.

إعراض الكافر عن الإيمان:

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ (49))

(سورة المدثر)

تذكّرهم فيعرضون، تدعوهم فلا يستجيبون، تنصّحهم فلا ينتصّحون، قال:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50))

(سورة المدثر)

والعوام يقولون: (مثل الحمير الترابية)، عمل مستمر إلى لا هدف، يأتي الموت فجأةً فينهى كل شيء.

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

القسورة الرّماد، والحُمُر الوحشية إذا رأت الرماة ويبيدها أقواس النبل فرّت فراراً مخيفاً.

الإنسان الغير مؤمن يريد ديناً خاصاً به:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (52))

(سورة المدثر)

أي كل إنسان يريد ديناً خاصاً له، يريد أن يأكل الربا وأن يُصلي، أن يصلي وأن تبدو زوجته سافرة، يريد أن يفعل هذا العمل السيئ وأن يكون ديناً، الدين منهج إلهي ثابت، أما أن تأخذ ما يُعجبك وتدع ما لا يعجبك وتقول: أنا هكذا رأيي، من أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند

الإنسان المؤمن يعلم أن ما جاء به الله هو الحق:

الآن أكثر الناس الغير ملتزمون بدروس علمية دينية يقول لك: أنا أرى كذا، يقول لك: أنا، فمن أنت ؟ قرآن، سنة، نبي معصوم أعطى توجيهات ولك رأي مع كلام الله عزّ وجل ؟

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36)

إذا الله عزّ وجلّ حكم بشيء انتهى الأمر، سألوا إنسانة في برنامج إذاعي حول التعدد، أنه ما رأيك في تعدد الزوجات ؟ فأجابت إجابة مذهلة وقالت: رأيي في التعدد وقد سمح الله به غير معقول أن أتكلم أنا برأيي في التعدد ما دام الله سمح به، إذا كان شيئاً أعطى الله فيه حكماً انتهى الأمر، ليس لك رأي أبداً، فكل إنسان يريد دين على مزاجه فيأخذ ما يُعجبه، الصلاة لا توجد مشكلة، أما إطلاق البصر فغض البصر صعب يقول لك: غير معقول، هذه الآية ليست لهذا الزمن، فهو يريد ديناً خاصاً، لا بدّ من أن أكل هذا المبلغ، هكذا الحياة الآن يوجد تعامل ربوي، فإنه يجعل ظروف الحياة هي الدين، أما المؤمن يعلم علم اليقين أن ما جاء في الكتاب والسنة هو حقّ وأنه في طاقة البشر، وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها لذلك ينصاع لأمر الله.

(كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفَرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (52))

كل واحد يريد دين مزاجي خاص.

(كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ (54))

(سورة المدثر)

هذا كلام.

مشيئة الله قيد فضل لا قيد جبر:

(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة المدثر)

أي لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا لما شئتم، هذا الربط بمشيئة الله ربط فضل وليس ربط جبر، أكثر الناس يتوهمون أنه وما تشاؤون إلا أن يشاء الله أي القضية بيده، إذا الله يريد فيهديني، وإذا لا يريد لا يهديني، لا هذا معنى جبري لم يرده الله أبداً، هذا المعنى الجبري أنت اخترعته، أي إذا سعدت باختيارك هذا اختيارك من فضل الله، ما كان لك أن تختار إلا لأن الله سمح لك أن تختار، أي إذا أدخلناك إلى محل صياغة وقلنا لك: تفضل وانتقي، فانتقيت أكبر ألماسة وثمانها مليون ليرة، ماذا نقول لك ؟ لو لم نسمح لك أن تختار ما كنت أخذتها، أدخلناك إلى محل صياغة يوجد ألماس حقيقي غالي جداً ويوجد ألماس تقليد، ويوجد ذهب رخيص، ويوجد ذهب ستة عشر، ويوجد نحاس ملمّع، قلنا لك: اختار ما تشاء خيرناك فانتقيت أكبر خاتم ألماس ثمنه مليون، ماذا قلنا لك وأنت ذاهب ؟ لو لم نسمح لك أن تختار ما كنت اخترته، لو قيّدناك ما كنت اخترته، فإذا أنت شئت الخير فإن هذه المشيئة لولا أن الله شاء لك ما تشاء لما شئتها، فهذا قيد فضل وليس هو قيد جبر.

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

لولا أن الله أعطاهم حرية الاختيار، لولا أن الله أعطاهم فكراً يذكرون به لما ذكروا ولما عرفوا الحقيقة، ولما سعدوا بالله عز وجل، آخر آية:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

(سورة المدثر)

لا توجد في الكون جهة أهل أن تطيعها إلا الله، لا توجد في الكون جهة أهل أن يفنى شبابك من أجلها إلا الله، أي لا يليق بك أن تكون لغير الله، أنت حينما تكون لإنسان أو لجهة تحتقر نفسك، أنت إنسان غالي على الله.

((خلقت الخلق ولم أعيأ بخلقهن أفيعيني رغيئ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلاسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكننت عندي مذموماً))

((خلقت السماوات والأرض ولم أعيأ بخلقهن، خلقتها من أجلك فلا تتعب وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

أي أنك لله وحينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، لا يليق بك أن تكون لغير الله، الله كرمك جعلك مخلوقاً أول وقال لك: أنت لي، الماء للأرض، الأرض للنبات، النبات للحيوان، الحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ للواحد الديان، أنت لله، لا تكون لغير الله فتحقر نفسك، فهل من الممكن أن تستخدم مثلاً سبيكة ذهب لصنع مجرور أو قدوم؟! أنت بذلك احتقرت الذهب، فأنت مخلوق لله وهو وحده أهل أن تطيعه، أهل أن ترجوه، أهل أن تطلب رضاه، أهل أن تعبد، أهل أن تضع كل طاقتك في خدمة عباده، أهل أن يكون الله هو الأول والآخر عندك، هو أهل التقوى، أي أهل أن تتقيه وإذا اتقيته هو أهل أن يغفر لك، هذه الكلمتين في الأخير.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

أي لا توجد جهة مؤهلة أن تكون أنت لها إلا الله، وكل إنسان كان لغير الله فقد سَفِهَ نفسه، توجد أشياء كثيرة تعرض عنها احتقاراً لها، رأيت بيتاً صغيراً فتقول: لا أريده لأنه لا يعجبني، رأيت وظيفة دخلها قليل رفضتها، أنت قد ترفض أشياء كثيرة احتقاراً لها إلا شيئاً واحداً إن رفضت الدين فإنك تحتقر نفسك.

(وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ)

(سورة البقرة: آية " 130)

حينما ترفض الدين تحتقر نفسك فقط.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (56))

أما إنسان لو أفنيت كل حياتك من أجله، فهو ضعيف مثلك، لو إنسان أصيب بشيء خطير هل أحد يخلصه ؟ لا أحد يخلصه إلا الله، لذلك لا يليق بك أن تكون لغير الله هو وحده أهل أن تطيعه، هو وحده أهل أن تُخلص له، هو وحده أهل أن تتقيه، هو أهل التقوى، وإذا فعلت هذا هو أهل أن يكرمك وأن يغفر لك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المدثر 074 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 52-56 اختيار طريق الحق
سبب سعادة الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفه متأنية مع سورة المدثر:

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثامن والأخير من سورة المدثر، في الدرس الماضي نقاط كثيرة ودقيقة مررنا بها سريعاً، وأتمنى أن نقف عندها وقفه متأنية في هذا الدرس ويكون هذا الدرس الأخير من سورة المدثر.

أعظم سعادة للإنسان أن تكون تصوراتهِ متوافقة مع كلام الله:

الآية الكريمة:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

(سورة المدثر)

كلمة:

(كَلَّا)

كما تعلمون أداة ردع ونفي، أي حينما يقول الله عزّ وجل لهذا الإنسان:

(كَلَّا)

أي لا كما تتصور، لا كما تتوهم، لا كما تقول، أي شقاء أكبر من أن تكون في تفكيرك وإدراكك مخالفاً لمنهج الله عزّ وجل، كلا. من هو السعيد ؟ الذي جاءت تصوراتهِ وبقيّنياته موافقة لما في القرآن الكريم، والحقيقة لا بدّ من أن نعرفها جميعاً، أهل الأرض كلّهم من آدم إلى يوم القيامة سيعرفون الحقيقة عند الموت، كل البطولة أن تعرفها الآن، إن عرفتْها الآن انتفعت بها، وإلا لا تنتفع بها أبداً، فعند كلمة:

(كَلَّا)

تعتقد شيئاً ؟ تتوهم شيئاً ؟ تتصور شيئاً ؟ تمشي في طريق مسدود، تمشي في طريق ينتهي بك إلى الهاوية، فأنا لا أرى سعادة أعظم من أن تكون معتقداتك تصوراتك يقينيّاتك موافقة لكلام الله عزّ وجل، هذا هو الهدى.

أما:

**(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))**

(سورة الكهف)

بطولتك أن تتوافق تصوراتك مع ما في القرآن الكريم، أو أن تأخذها من القرآن الكريم، بطولتك أن تكون قِيَمُكُ قيمةً دينية، أن تكون مقاييسك مقاييس القرآن الكريم، أن تقيّم الأشخاص لا بحجمهم المالي ولا بحجم قوتهم بل بحجم انتمائهم لهذا الدين، فكلمة:

(كلا)

أداة ردع ونفي أي إياك أيها الإنسان أن تكون ضالاً، إياك أن تكون واهماً، إياك أن تتبع الظن، عليك أن تكون مع الحقيقة، والحقيقة تُستقى من الوحي فقط.

توافق الحقيقة مع الوحي:

العقل أيها الإخوة مع أنه أعقد جهازٍ أودعه الله فينا، مع أنه الشيء الذي نتميّز به لا يكفي وحده من دون وحي لمعرفة الحقيقة.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

(سورة المدثر)

لا بدّ من أن تهتدي بوحى، الحقيقة قد تعرفها بالتجربة، قد تعرفها من خلال العلم، ولكن الحقيقة المطلقة لا تكون إلا على طريق الوحي، الإنسان بعقله قد يكشف بعض الحقائق، قد يكشفها في الوقت المناسب، وقد يكشفها في الوقت غير المناسب، وقد يكشفها بعد فوات الأوان، وقد يكشفها ولا يستطيع أن ينتفع بها، أما إذا استقيت الحقائق من الوحي، من كتاب الله، تعرفها في الوقت المناسب، وتنفع بها، وهي صحيحةٌ صحيحةٌ مطلقة، فكلما ليس كما تقولون، ليس كما تزعمون، ليس كما تتوهمون، الحقيقة هذه:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

التأمل في الآيات لمعرفة الله من خلالها:

كل الآيات القرآنية:

(وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا (2))

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرُ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٌ (2))

(سورة الفجر)

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

الله عز وجل يلفتنا إلى هذه الآية، هؤلاء الذين أعرضوا عن التفكير في خلق السماوات والأرض ماذا فعلوا ؟ عطلوا ثلث القرآن، لماذا يقول الله عز وجل:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

أي هل فكرت في القمر ؟ هل فكرت في الشمس ؟ هل فكرت في الليل والنهار ؟ هل فكرت في الكواكب ؟ هل فكرت في طعامك ؟ هل فكرت في شرابك ؟ هل فكرت مما خلقت ؟ هل فكرت في الذكر والأنثى ؟ فهذه الآيات كيف تعرف الله عز وجل ؟

التفكير أساس معرفة الخالق:

ذكرت اليوم في الخطبة: أنك ترى إنساناً، رأيته هل عرفته ؟ لا، إنسان أمامك، برأس، وجذع، وأطراف، وعيون، وأنف، وفم، لابس، جالس، مهما تأملت في شكله وفي هندامه لا تعرفه، أما إذا سألته عن دراسته، أو عن إنجازاته، أو عن طبيعته عمله، أو عن فعله، كلما عرفت عنه شيئاً كبير في نظرك، فأنت مع إنسان تحتاج إلى تفاصيل كي تعرفه، فمع الواحد الديان، يكفي أن تقول: الله خالق السماوات والأرض ؟! فهل فكرت في رحمته، في قدرته ؟ في علمه ؟ في رأفته ؟ في لطفه ؟ في جبروته ؟ في قوته ؟ ما لم تحص أسماء الله الحسنى لا تعرف الله عز وجل، أحد الأشياء التي تقربك من الله عز وجل أن تحصي أسماءه الحسنى، " إن لله تسعاً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ". إحصاؤها شيء، وعدّها شيء آخر، أن تعرف أسماء الله الحسنى باب، أن تفكر في القمر.

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ (33))

(سورة المدثر)

الليل وحده، فيا سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ ويا سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار ؟ من ظلام من سكينة من هدوء إلى إشراق إلى وضوح، وكيف أن الليل والنهار يتعاقبان و يختلفان طولاً وقصراً بين الصيف والشتاء، فهذه آية الليل، يقولون: شدة القرب حجاب، الشيء الذي نألفه كثيراً ؛ ليل ونهار، وشمس وقمر، وأمطار ورياح، وجبال ونباتات، وطعام وشراب، هذا نعيشه كل يوم، شدة هذا القرب قد تكون حجاباً بينك وبينه، فالإنسان لا ينتبه أنه مغمور بنعم الله عز وجل.

كأس الماء بكم تشتريه يا أمير المؤمنين إذا منع عنك ؟ قال: بنصف مُلكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال: بنصف مُلكي الآخر. عندما يشرب الإنسان الماء ويخرج الماء، لما يتحرك، ينظر، يبحث، يسمع، يتكلم، ينطق، يدخل بيته، هذه نعم كثيرة، يجب أن نتأمل فيها.

وظائف آيات الله الكونية:

1 - وظيفة نفعية:

فالآيات التي نستعملها ينبغي أن ننتفع بها.

2 - وظيفة تعريفية:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

فكرت بالقمر ؟ فكرت بالشمس ؟ فكرت بالليل ؟ فكرت بالنهار ؟ فهذه الآيات ينبغي أن نستعملها، ينبغي أن ننتفع بها، ينبغي أن نعرف الله من خلالها، وأذكر لكم دائماً أن آيات الله الكونية لها وظيفتان كبيرتان وظيفة تعريفية، ووظيفة نفعية، فنحن ننتفع بالقمر ونتعرف إلى الله من خلاله، فالذي انتفع به فقط هم أهل الغرب، والذين ينبغي أن يتعرفوا إلى الله من خلاله نحن المؤمنين، يجب أن نتعرف إلى الله من خلقه، ولا شك أن المهمة الأولى أكبر بكثير، فكل شيء الله خلقه له وظيفتان ؛ وظيفة تعريفية، ووظيفة نفعية، فالشارد عن الله عز وجل يقف عند النعمة ولا يصل منها إلى المنعم، وظيفته نفعية، ينتفع ويأكل ويشرب، لكن المؤمن ينتقل من هذه النعمة إلى المنعم، من هذا الخلق إلى الخالق، من هذا النظام إلى المنظم، من هذا التسيير إلى المُسير، من مظاهر الكون إلى خالق الكون، هذه النقطة التي لا بدّ منها.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لُجْلُجٍ)

تَسْمَعُونَ (71))

(سورة القصص)

الليل و النهار من نعم الله على الإنسان:

(وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ (34))

فهل نعمة النهار قليلة ؟ أساساً هناك في شمال الكرة الأرضية في قطبها الشمالي وقطبها الجنوبي الليل يستمر ستة أشهر، والنهار ستة أشهر، الحياة لا تُحتمل، لا تحتمل أن يبقى الليل ستة أشهر، جعله في ساعاتٍ تناسب طاقاتك، تناسب عملك، تناسب نظام حياتك، هذه آية، دائماً في ربط، فالذي أنزل هذا الكتاب هو الذي خلق السماوات والأرض، في ربط مستمر في القرآن الكريم.

(قُلْ أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40))

(سورة الحاقة)

جواب القسم يأتي دائماً متناسباً مع المُقسم به، خالق الكون أنزل هذا القرآن الكريم:

(وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا)

على الإنسان إدخال الجنة و النار في حساباته:

بعض علماء التفسير قال: إنها جهنم لإحدى الكبر، فإنسان يمشي في الطريق يمرح ويضحك وأمامه لغم سيجعله قطعاً صغيرة، ولا يتأثر؟! الناس في غفلةٍ شديدة، موضوع الجنة والنار، أنا أرى أن أكثر الناس لا يُدخلان هذا الموضوع في حساباتهم اليومية، لماذا آلاف الدعاوى في قصر العدل ؟ لماذا اغتصاب الأموال ؟ لماذا الكذب ؟ لماذا الغش ؟ لماذا العدوان على ما عند الآخرين ؟ سيدنا عمر تَسَلَّمَ منصب القضاء في عهد سيدنا الصديق سنتين لم يرفع أحدٌ إليه قضية، كل إنسان يعرف ما له وما عليه، كل إنسان يعرف حدوده، وهذا هو المؤمن، فحينما نأخذ ما ليس لنا ونعتدي على حقوق الآخرين كيف نكون في المستوى الذي يريدنا الله به ؟

(كُلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ (35))

جزاء الإنسان في النار:

قضية النار قال تعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

إله عظيم، فهل يعقل أن يقول شيئاً لا يقع ؟ فهل تصدق أن تذلل ؟! هل تصدق أن خالق الكون يقول شيئاً لا يقع ؟ إنسان قوي يحترم قوله، إنسان جُبِلَ على الخطأ ويحترم قوله، خالق الأرض والسماوات يقول: جهنم ونار:

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74))

(سورة طه)

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا)

(سورة النساء: آية " 56)

ومع ذلك لا تجد كثيراً من المسلمين الذين ينتمون إلى هذا الدين يدخلون النار في حساباتهم اليومية.

إِنَّهَا لِبِأَحَدٍ الْكَبِيرِ: آية لها عدة معاني:

1 - جهنم أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان:

(إِنَّهَا لِبِأَحَدٍ الْكَبِيرِ (35))

هذه النار إحدى أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان، فأكبر خطر أن يكون المصير إلى النار.

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30))

(سورة إبراهيم)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ

وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

(إِنَّهَا لِبِأَحَدٍ الْكَبِيرِ (35))

فجهنم أحد أكبر الأخطار التي تنتظر الإنسان، والأخطار في الدنيا مؤقتة تنتهي عند الموت، لكن الأخطار في الآخرة ليس هناك موت.

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74))

(سورة طه)

2 - تكذيب الإنسان بالحق من أكبر الجرائم:

المعنى الثاني:

(إِنَّهَا لِبِأَحَدٍ الْكَبِيرِ (35))

تكذيبكم بالحق، أحد أكبر الجرائم، أي أن أكبر جريمة أن تشرد عن الله عز وجل، أن تكذب كلامه، ألا تعباً بكلام نبيه، ألا تعباً بالوعد والوعيد، ألا تعباً بالحق والباطل، تعيش لذاتك لشهواتك.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

3 - الاهتمام بقضية الدين:

والمعنى الثالث الذي فَصَّلْتَه في الدرس الماضي: أكبر قضية ينبغي أن تنتبه لها هي مصيرك، علاقتك بهذا الدين، هل أنت مؤمن؟ هل أنت مسلم؟ هل أنت مُحسن؟ أين موقعك؟ ما درجتك عند الله عز وجل؟ هل أنت مقبول عند الله؟ الصحابة الكرام، أحد التابعين قال: التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحداً إلا وهو يظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله. المنافق يبقى في حالٍ واحدة أربعين عاماً بينما المؤمن يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً، من شدة قلقه وخوفه وحرصه على رضوان الله عز وجل. إذاً أول معنى جهنم:

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

المعنى الثاني تكذيبكم بهذا الدين.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35))

المعنى الثالث: قضية الدين بمجملها، هذه أكبر قضية ينبغي أن تهتم لها، ليس هناك قضية تعلو عليها، وأكثر الناس يضعون قضية الدين في الدرجة الخامسة، مصالحه، رزقه، كسبه، ماله، مكانته، في الدرجة الأولى، إذا عنده وقت فارغ يحضر درس علم، يجب أن تُشكِّل حياتك وفق منهج الله عز وجل.

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36))

حرية الاختيار للإنسان:

النار نذير، وقال علماء التفسير: النبي هو النذير، وقالوا: القرآن هو النذير، والأربعون هي النذير، والشَّيب هو النذير، والستون هي النذير، والمصائب النذير، وموت الأقارب نذير:

(أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37))

(سورة فاطر)

(نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37))

(سورة المدثر)

أنت مُحَيَّر تحب أن تتقدم إلى السعادة بالطريق سالك، وتحب أن تتأخَّر عنها أنت مخير، تحب أن تتقدم إلى الخير الطريق سالك، تحب أن تبتعد عن الخير إلى الشر فممكناً لأنك مُحَيَّر.

(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ)

إلى الخير، إلى الجنة، إلى رضوان الله، إلى السعادة، أو يتأخَّر عن هذه كلها.

(لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

(سورة المدثر)

الإنسان رهين عمله:

أنت رهينُ عملك، أنت محبوسٌ بعملك، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك، فأخطر سؤال يجب أن تطرحه على نفسك كل يوم: ما نوع عملي هل فيه خلل ؟ في خلل بالدخل ؟ في خلل بالعلاقات ؟ هل لي عمل لا يُرضي الله ؟ هل لي عمل مخالف للمنهج الصحيح ؟

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38))

وشتانَ بين من يكون عمله صالحاً ويأتيه ملك الموت، وبين من يكون عمله سيئاً ويأتيه ملك الموت. أيها الإخوة الكرام: أن تكون طليقاً هذا دليل استقامتك، المؤمن طليق، والمؤمن متفائل، والمؤمن متوازن، والمؤمن سعيد، والمؤمن بقلبه سكينه، سعادة، شعوره أن الله راضٍ عنه، شعور لا يُقدَّر بثمن.

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

هؤلاء الذين عرفوا الحق وطبقوا أمر الله وأمر النبي، هؤلاء الذين وصلوا إلى الله، هؤلاء الذين عرفوا سر وجودهم وغاية وجودهم.

أسباب دخول المجرمين النار:

(إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

فماذا أراد الله بهذه الآية ؟ لو أن إنساناً زار سجنًا وهو يعمل في التجارة، وزار سجنًا ورأى أحد السجناء قال له: ما الذي أوصلك إلى هنا ؟ قال له: لأنني تاجرت ببضاعةٍ محرمة ممنوع المتاجرة بها، أليس هذا درساً للزائر ؟ درس لنا، الآن نحن مع بعض أهل النار، يُسأل:

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42))

ما الذي أوصلكم إلى النار ؟ ما سبب دخولكم النار ؟ لماذا أنتم هنا ؟ أول سؤال تطرحه على سجين: لماذا أنت هنا ؟ لأنه كامل ؟ لا، لأنه إنسان صالح ؟ لا طبعاً، لأنه محسن ؟ طبعاً مستحيل، يوجد مشكلة كبيرة كانت سبباً لدخوله السجن، فالآن اسمعوا إلى أسباب دخول النار:

1 - عدم الصلاة:

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

أي إن لم تتعقد الصلاة بينك وبين الله فالوضع خطير جداً، إن لم تتعقد هذه الصلاة، وهذه الصلاة لا تتعقد إلا بطاعته، إلا بالاستقامة على أمره، إلا بالإحسان إلى خلقه، إلا بأن تقف عند الحدود، إلا بأن تعرف ما لك وما عليك، إلا أن تنام مساءً وأنت مرتاح لم تكن سبباً في شقاء إنسان، ولا في نشر معصية، ولا في إفساد إنسان، ما تعلقت بك الحقوق ولا الواجبات، هذه الحالة الطيبة، الذي استقام على أمر الله، هو الذي ينام مطمئناً:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43))

الاتصال بالله يحتاج إلى مقدمات، مقدماته الاستقامة على أمر الله، الاتصال بالله يحتاج إلى معرفة الله، تصلي لمن ؟ هناك من يصلي لمن لا يعرفه، يجب أن تعرفه من أجل أن تتعقد صلاتك معه انعقاداً صحيحاً.

2 - الانقطاع عن الله و الإساءة لخلقته:

(وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44))

نحن متصلين بالله عز وجل وليس لنا عمل صالح، معنى أسباب دخول النار الانقطاع عن الله والإساءة للخلق.

(وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44))

بل إن هنا المعنى دقيق جداً، فالامتناع عن العمل الصالح جريمة لأنك مخلوق للعمل الصالح، لو طالب قال لك: أنا ما آذيت صديقاً طوال حياتي، ما ضربت زميلاً لي، ما سببت زميلاً، لكن ما درست إطلاقاً، فهل هذا ينجح ؟ لم يؤذ أحداً، لم يتكلم كلمة نابية، لم يضرب أي طالب أبداً، كل أعماله صالحة ولكن لم يدرس ولا كلمة، معنى ذلك أن عدم العمل الصالح هو الخطأ الكبير.

3 - التقليد الأعمى للآخرين:

(وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

هنا المشكلة، هذا الانجراف مع التيار:

(وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ
(116))

(سورة الأنعام)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36))

(سورة يونس)

الانجراف مع التيار العام، الناس كشفوا عن عوراتهم يكشف عن عوراته، دخلوا جحر ضب فدخلوه،
فهذه صرعات الأرياء، المستحدثات، الانحرافات، هذا الشيء الذي نستورده من الغرب، يتعلّق بأخلاقنا
بديننا بقيمتنا ما دام شاع نأخذ به.

(وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45))

ما في موقف، ما في اتجاه خاص، ما في منظومة قيم تقبلها أو لا تقبلها، مع الناس إمعة:

((لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا و إن ظلموا ظلمنا))

[أخرجه الترمذي عن حنيفة]

إدخال اليوم الآخر في حساباتنا:

وأنتم ترون، كيف تنتشر بعض المستحدثات في بلادنا انتشاراً واسعاً جداً مع أنها لا ترضي الله عزّ
وجلّ، الذي يفعلها الناس يفعله الباقون والحُجّة: هكذا يفعل الناس. فأَيُّ إنسان يقول لك: الناس كلهم
كذلك، هل هذه حجة ؟ هذا دليل ؟ فبشكل أو بآخر إذا وجد مستنقعا أسنأ، مياه سوداء، مياه مجاري،
وفيها مئة إنسان يسبحون بها ويلعبون ويضحكون، وأنت الله عزّ وجلّ كرّمك بالنظافة والوضع السليم
لأن هؤلاء في هذه البركة الأسنة تنزل معهم ؟ هل هذه حُجّة ؟.

(وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ (46))

أي أن اليوم الآخر لم يدخل في حسابات الناس إطلاقاً.

حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ: آية لها عدة معان:

1 - الإنسان عند الموت يعرف الحقيقة اليقينية:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47))

لما سُمي الموت يقيناً ؟ سُمي الموت يقيناً لأن الإنسان عند الموت يعرف الحقيقة اليقينية التي كان
غافلاً عنها، هذا معنى.

2 - اليقين بوقوع الموت:

المعنى الثاني: سُمي الموت يقيناً لأنه مُتَبَيَّنٌ وقوعه، هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يقول: أنا لا أموت ؟ أعوذ بالله، مصير كل حي، جئنا على هذا الشرط، سبحان من وعد عباده بالموت، كتب علينا الموت، جميعاً: عش ما شئت فإنك مَيِّت، أحب ما شئت فإنك مُفارق، اعمل ما شئت فإنك مجزي به. لذلك لا أحد يستطيع أن يُنكر حدث الموت، ولكن الناس يتفاوتون في مدى الاستعداد للموت.

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47))

أروع ما في حياة الإنسان أن يأتي الغيبُ موافقاً لاعتقاده، أما أن يأتي الغيب الذي غاب عنك مفاجئاً لك هذه مشكلة كبيرة جداً.

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48))

(سورة المدثر)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

عدم الإعراض عن الحق:

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ (49))

لماذا الإعراض عن هذا الحق ؟ لماذا الإعراض عن هذه التذكرة ؟ لماذا الإعراض عن هذا القرآن ؟ لماذا الإعراض عن دعوة الله علينا أن نستجيب له ؟ لماذا نُعرض ؟ لما لا نستجيب ؟ لا نتقاعس ؟

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ (49) كَانَهُمْ

في إعراضهم.

(حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

من رامي، أو من الليل.

(فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

الإنسان المنحرف يريد ديناً يتوافق مع مزاجه:

أيها الإخوة: الآية التي ذكرتها في الدرس الماضي:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52))

أبو جهل قال له: " يا محمد ليُنزل ربك علينا كتاباً نقرأه أنه بعثك إلينا رسولاً ". هذا قول أبو جهل، وكل إنسان لو توسّعنا في فهم هذه الآية، كل إنسان يريد ديناً يتوافق مع مزاجه، يحب هذا السلوك فيبحث عن غطاء لهذا السلوك، فتوى ضعيفة، قول ضعيف، اجتهاد، تصوّر عقلي شخصي، فهذا الذي يقول لك: أنا عندي هذه جائز فعلها. فمن أنت ؟ هل أنت مُشرّع ؟ يقول هذا عندنا غير جائز، فمن أنتم حتى يكون لكم عند ؟!

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52))

أي هو يريد منهجاً يتوافق مع مزاجه، فالذي يُرابي يقنعك أن هذا الربا أنا لا أرابي بالربا ربا القروض، بل ربا الاستثمار والمشاريع، والإسلام حينما حرّم الربا حرم القروض فقط، القروض الاستغلالية هذه حرمها، لكن الله لم يذكر علة للتحريم، تحريم مطلق، فيريد كل إنسان أن يبقى على ما هو عليه وأن يكون تحت غطاء الدين، فهذا مستحيل، أن تبقى على ما أنت عليه وتحت غطاء الدين مستحيل.

الأفعال السيئة ينسبها الإنسان إلى ربه:

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53))

لو الإنسان مع شخص قوي يُطبق تعاليمه بحذافيرها، لكن مع الله عزّ وجل يأخذ ويعطي، شيء يقول لك: هذا لم أفتنح به، شيء يقول لك: فيه فتوى، أما لو عرف عظمة الله عزّ وجل لانصاع لأمره. أيها الإخوة: النقطتان التي مررت بهما سريعاً في الدرس الماضي الآيتان الأخيرتان:

(كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (55))

(سورة المدثر)

أنت مُحَيَّر، وفي أية لحظة تنفي بها عن نفسك الاختيار فأنت واهم، أنت مخير، والإنسان عجيب أمره في أعماله الطيبة يقول: أنا فعلت وتركت، أما في أعماله السيئة يقول: إن الله قدّر عليّ ذلك، لماذا تنسب أفعالك الطيبة إلى ذاتك بينما الأفعال السيئة تنسبها إلى الله عزّ وجل ؟

(قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28))

(سورة الأعراف)

(كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12))

(سورة عيس)

ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط فضل:

الآن الشيء الدقيق أن بعض الناس يتوهمون أن ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، أي أن الإنسان مُجَبَّر، وهذا المعنى لم يرد إطلاقاً في الإسلام، الإنسان مُخَيَّر، لكن:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30))

(سورة الإنسان)

ما معنى هذه الآية ؟

دخلت إلى محل تجاري يبيع الذهب والألماس، قال لك صاحب المحل: اختر ما شئت، طبعاً في خاتم بمليون، وفي خاتم بمئة ليرة، فأنت اخترت المليون، وأنت خارج قال لك: لولا أنني سمحت لك أن تختار لما نلت هذا الخاتم الثمين، فربط اختيارك بسماع صاحب المحل أن تختار ربط جبر أم ربط فضل ؟ ربط فضل.

أسباب سعادتك في الآخرة اختيارك للحق:

أحد أسباب سعادتك في الآخرة، أحد أسباب دخول الجنة أنك استعملت حرية الإرادة التي منحك الله إياها في اختيار الحق واختيار طريق الجنة فوصلت إليها، فيقال له: ما كان لك أن تدخل الجنة لولا أن الله لم يسمح لك أن تختار، فاختيارك الموفق هو بسبب أن الله سمح لك أن تختار، فهذا الربط، ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط فضل، لبيان الفضل، أي أن كل هذا الخير الذي نلته بسبب اختيارك شاءه الله لك، ولو لم يشأ لك هذا الاختيار لما اخترت ولما كنت المخلوق الأول، فهناك مخلوقات كثيرة جداً في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة مسيرة، أما الإنسان أكرم المخلوقات.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

فالإنسان إذا استعمل حرّيته وفق ما أراد الله عزّ وجل كان خير المخلوقات جميعاً، وإن لم يستعملها وفق ما أراد الله عزّ وجل كان شر المخلوقات جميعاً، فحالته عجيبة بين أن يكون سيّد المخلوقات أو أشقى المخلوقات، من سيد المخلوقات إلى أسوأ المخلوقات، من صنفٍ فوق الملائكة إلى ما دون الحيوان.

أكبر أسباب السعادة أن تتوافق نفسك مع فطرتك:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ (54))

والتذكرة تعني أن الإيمان فطري، إذا الإنسان ذهب إلى بلد ورأى معالمه، ثم أطلعت على صورته للبلد فسيقول: نعم أنا كنت هناك، وكنت في هذا المكان بالذات. ما دور هذه الصورة ؟ تذكرة، ذكركَ بهذه الرحلة، فالتذكرة معنى ذلك أنك تعرفها سابقاً، فالإنسان مجبول على الإيمان بالله، فطرته فطرة مؤمنة فإذا آمن ارتاحت نفسه واطمأن قلبه واستعاد توازنه، تماماً كالسيارة التي صُمِّمت لتسير على طريق مُعَبَّد، فإذا سرت بها في طريق وعر كسرتُها وانزعجت من الأصوات ولم تحتمل قيادتها، أما إذا سرت بها على طريق مُعَبَّد ارتاحت نفسك لأنك أرجعتها إلى فطرتها.

فأحد أكبر أسباب السعادة أن تجد نفسك وأن تتوافق مع فطرتك، والعالم الغربي الآن بماذا يشعر ويعاني ؟ كل شيء موفور، كل شيء ميسر، لكنهم مقطوعون عن العبادة، فبيوتهم قطع من الجحيم، جحيم البعد عن الله عز وجل، جحيم التفكُّت، جحيم تفكك الأسرة، جحيم الانغماس في المخدرات، جحيم الانحراف الجنسي الخطير، هذا كله جحيم.

سعادتك تكون باختيارك ما يرضي الله:

يا أيها الإخوة الكرام: فكون الإنسان مُخَيَّرًا، فإذا استعمل هذا الاختيار وفق ما يرضي الله ونال السعادة الكبرى، يُقال له: لولا أن الله شاء لك أن تختار لما اخترت، فهذا هو فضل الله عليك وكان فضل الله عليك عظيماً.

(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة المدثر)

لولا أن الله يشاء لكم أن تذكروه لما ذكرتموه.

طاعة الله واجبة على كل إنسان:

آخر كلمتين في هذه السورة يا أيها الإخوة الكرام كلمتان خطيرتان جداً.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى)

(سورة المدثر)

وحده أهل أن تطيعه، أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت خالقاً، هذا هو الشقاء بعينه، هو هو الخطأ بعينه، هذا هو الضلال بعينه أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً، أن تمشي في طريق مسدود، أن تعلق الآمال على مخلوق ضعيف لنيم ينسى الفضل.

ليس هناك جهة في الكون أهل أن تطيعها إلا الله، ليس هناك جهة في الكون أهل أن تفني شبابك من أجلها إلا الله، ليس في الكون جهة مؤهلة أن تهبط روحك ووقتك وجهدك إلا الله، من هو الذكي ؟ هو الذي كان لله، ومن هو الغبي ؟ هو الذي كان لغير الله، احرص على أن تكون محسوباً على الله، وإياك أن تُحسب على زيدٍ أو عبيد، أو على هذه الجهة، أو على هذه الجماعة، أنت مخلوق مُكرَّم، أنت مخلوق لله، هو وحده أهل أن تطيعه، أن تتقيه، أن ترجو رحمته، أن تخشى عذابه، أن تسعى إليه، أن تسعى إلى رضوانه، أن تسعد بقربه، لأنه أبدي وسرمدي، مبدئياً ما سوى الله فان، كم من إنسان تعلق بامرأة، زوجته، لكنه تركه أو تركته شاء أم أبى، تعلق بأولاده تركوه أو تركهم، تعلق بالمال ترك المال، تعلق بالبيت ترك البيت، تعلق بمكانة اجتماعية فقدها، أي تعلق بما سوى الله سوف تفقده، أما إذا كنت مع الله فأنت أسعد الخلق.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى)

رجاء الإنسان رحمة الله و مغفرته:

أما الشيء الذي يملأ النفس تفاؤلاً لكن لو كانت لك مشكلة في الماضي ؟ فهو أهل المغفرة، فإياك أن تجعل الماضي عقبة بينك وبين الله:

((لو جنتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53))

(سورة الزمر)

لا تجعل الماضي مهما بدا لك منحرفاً عقبة بينك وبين الله، فإياها الإخوة الكرام لنعقد النية على أن نكون لله، على أن نكون أحراراً من أي عبودية أرضية، كن لله، كن عبداً لله فعبد الله حُر.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

لا تكن لغير الله، لا تتجه لغير الله، لا تسعى لغير الله، لا ترجو رحمة غير الله، لا تخاف من غير الله، لا تعلّق الآمال على غير الله، لا تتوكل على غير الله، لا تصبر لغير الله.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا)

(سورة المائدة: آية " 23)

و عليه فاعقد النية، اجعله منتهى آمالك، محطّ رحالك، هذا هو المؤمن.

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56))

أنت له ولست لأحدٍ سواه فإن كنت لسواه خسرت خسارةً كبيرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1-4 محاسبة الإنسان لنفسه سبب استقامته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الأول من سورة القيامة:

(لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

(سورة القيامة)

أنواع النفس:

1 - النفس اللوامة:

النفس اللوامة أيها الإخوة نفسٌ أثنى الله عليها ومدحها.

2 - النفس مطمئنة:

وهناك نفسٌ مطمئنة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28))

(سورة الفجر)

3 - النفس الأمارة بالسوء:

وهناك نفسٌ أمارةٌ بالسوء.

خصائص النفس مطمئنة:

النفس مطمئنة نفسٌ اطمأنت إلى رحمة الله، واطمأنت إلى استقامتها وإلى محبتها له، فنالت سعادة الدنيا والآخرة.

(يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29))

(سورة الفجر)

و النفس المطمئنة بلغت مرتبة الرؤية، ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، مصداق قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

مصداق قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(28))

(سورة الحديد)

الإنسان المتصل بربه يلقي في قلبه نوراً:

كإنسان يركب مركبة والضوء ساطع، والمركبة يملكها وحريصٌ على سلامتها، وحريصٌ على سلامته، فإن رأى حفرةً حاد عنها، وإن رأى أكمةً حاد عنها، وإن رأى طريقاً معبداً سار فيه، فالسلامة ناتجة من صحة الرؤية ومن الحرص على السلامة، فأى إنسان اتصل بالله عزّ وجل وألقى الله في قلبه نوراً رأى به الحق حقاً والباطل باطلاً، فهذا نفسه مطمئنة، الأمور واضحة جداً، لا يُضْحِي بِصِلَتِهِ بِاللَّهِ ولو أن الدنيا كلها ملكه إطلاقاً.

لكن الذي تُشْرِقُ أنوار الله في قلبه تارةً ويغفل تارةً، في ساعة الغفلة في ساعة فتور العلاقة بالله قد يُخطئ وقد لا يُخطئ، فهو في حسابٍ عسير مع نفسه، قال: يا رب هل قبلت توبتي فأهتئ نفسي أم رددتها فأعزيتها ؟

ارتقاء المسلم عند ربه دليل محاسبته لنفسه:

سيدنا عمر كان مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في طرق المدينة فرأوا قافلة قد استقرت في أطرافها قال له: تعال يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، جلس عملاق الإسلام مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف يحرسان هذه القافلة، فبكى طفلٌ صغير، لمّا طال بكاؤه ذهب عمر إلى أمه وقال: أرضعيه، فأرضعته فسكت، ثم بكى ثانية، فقال: أرضعيه، فأرضعته فسكت، ثم بكى ثالثة (سيدنا عمر عسبي المزاج) قال: يا أمة السوء ألا تُرضعيه ؟ قالت له بحدّة: وما شأنك بنا أنت ؟ إنني أفطمه، قال: ولما تَفْطِميهِ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام (أي التعويض العائلي)، فضرب جبهته وقال: يا عمر كم قتلت من أطفال المسلمين ؟ وحينما صُلّي بأصحابه الفجر ما استطاع أصحابه أن يفهموا قراءته من شدة بكاؤه قال: يا رب هل قبلت توبتي فأهتئ نفسي أم رددتها فأعزيتها.

فالإنسان يصيب ويُخطئ، يحاسب نفسه حساباً عسيراً، يتهم نفسه دائماً، سيدنا عمر هذا الإنسان العظيم الذي أثنى عليه النبي، والذي بشره بالجنة جاء إلى سيدنا حذيفة قال: **يا حذيفة أناشدك الله اسمي مع المنافقين ؟ لأن رسول الله أعطى حذيفة أسماء المنافقين، وكان أمين سرّ رسول الله.**

فكلما ارتقى مقامك عند الله تحاسب نفسك أشد الحساب، لعلّ هذه الابتسامة كان فيها سُخرية، لعل هذه الكلمة فيها اعتزاز، لعل هذا التصرف جرح شعور فلان، لعل عدم تلبية هذه الدعوة انكمش لها فلان، فالمؤمن يتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً ؛ بين أنه يرضى، بين أنه لا يرضى عن نفسه، بين أنه يستبشر، بين أنه يخاف، فإن هذا الوضع الحريص على رضا الله، والحريص على طاعة الله، والحريص على استقامته مع الله، هذا الحرص الشديد يجعله بحالة محاسبة نفسية شديدة، هذا الذي يُحاسب نفسه حساباً عسيراً أثنى الله عليه قال:

((لا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)))

علامة حياة قلبك حسابك لنفسك محاسبة شديدة:

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

إياكم، ثم إياكم، ثم تأخذوا هذا الحديث على ظاهره، المعنى الدقيق والعميق الذي أراده النبي من هذا الحديث: أنك إن لم تشعر بذنبك فأنت ميت، والدليل: اذهب إلى إنسان مات حديثاً وأمسك بسكين واجرحه، فلا يتألم ولا يصيح، ولا يسحب يده، ولا يعترض، ولا يلومك.

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميتٍ إيلامٌ

فإذا الإنسان ارتكب ذنباً وقال لك: ماذا فعلت ؟ ماذا حدث ؟ منتهي، ميت.

((أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

علامة حياة قلبك أن تحاسب نفسك حساباً عسيراً، أحياناً كلمة قاسية لا تنام الليل، أحياناً موقف غير مدروس من مؤمن قد تبكي طوال الليل، فهذا الذي يبكي ويتألم، ويحاسب نفسه حساباً عسيراً، ويخشى الله عزّ وجل، يخشى ألا يكون الله راضياً عنه، يخشى ألا يكون متبعاً لسنة النبي هذه نفسٌ طيبة طاهرة أنعم بها من نفس - جعلنا الله من هؤلاء - أقسم الله بها:

((لا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)))

عدم الشعور بالذنب دليل موت قلبك:

لذلك: المنافق يبقى أربعين عاماً في حال واحد، بينما المؤمن الصادق يتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً، ما دام الله عز وجل أنت حريص على إرضائه، و حريص على طاعته، وحريص على نيل رضوانه، لذلك تُحاسب نفسك، هذه الصلاة لم تعجبني، اليوم لم أقرأ قرآن، اليوم نظري ليس مضبوطاً مئة في المئة، اليوم لساني زلّ وتكلم عن إنسان

(وهذا نوع من الغيبة)

أما هذا الذي يقول: ماذا فعلت ؟ هذا ميت.

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: آية " 176 "

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: آية " 5 "

أموات، بهائم، فإذا أكرمك الله عز وجل وكنت يقظاً، وكنت شديد المحاسبة لنفسك، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون جميعاً ممن تنطبق علينا هذه الآية:

(وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

استمالة القلب باللين:

لذلك المؤمن يعتذر، مهما كان مقامه كبيراً، يعتذر من طفل لعله أساء إليه، يُقدّم اعتذاراً، يقدم أحياناً هدية إذا كان أخوه وجد عليه في نفسه، قال عليه الصلاة والسلام:

((تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

فإذا تكلمت كلمة مع أخوك قاسية فأعرض عنك يجب أن تقدّم له شيئاً تستميل قلبه به.

تطبيق سنة النبي الكريم تبعد الإنسان عن العذاب:

على كل: نقطة دقيقة أضعها بين أيديكم، هو أن الله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

الآية واضحة، إلا أن فيها إشكال هو بين ظهرائهم.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

أما حينما ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربّه ما معنى الآية ؟ هو بين ظهرائهم يبلغهم هم في بحبوة التبليغ، في أثناء التبليغ، كما أن الطلاب في أثناء العام الدراسي في بحبوة، الطالب لن يفصل ما دام ضمن العام الدراسي، يفصل متى ؟ بعد الامتحان، وبعد رسوبه سنتين يفصل، أما في أثناء العام الدراسي في بحبوة العام الدراسي، وما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرائهم أمته فهم في بحبوة، بحبوة وجود النبي بين ظهرائهم، أما حينما ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، معنى الآية أنه إذا كانت سنة النبي عليه الصلاة والسلام مطبقة في حياتهم هم في أمن من عذاب الله.

علامة حبك لله إتباعك لسنة النبي:

إذا بيتك إسلامي، إذا عملك إسلامي، حركتك إسلامية، سفرك إسلامي، أفراحك إسلامية، حتى المآسي إسلامية ؛ يوجد معها صبر، يوجد معها ضبط لسان، يوجد معها كلام طيب عن الله عزّ وجل، فأنت في بحبوة، لأن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يُرَدِّفُ سيدنا معاذاً خلفه على دابة، قال:

((هل تدري ما حقّ الله على العباد ؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم قال هل تدري ما حقّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقّ العباد على الله: أن لا يعذبهم))

(أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل)

هذا الكلام لنا جميعاً، خالق الكون على لسان رسوله الذي لا ينطق عن الهوى أكبر ضمان لك هذا الحديث، إن عبدته حقّ العبادة أنشأ لك حقاً عليه ألا يعذبك، لذلك معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

إذا كنت متبعاً سنة النبي، إذا كنت تدعي أنك تحب الله، فإله جلّ جلاله لا يرضى منك هذا الإدعاء إلا بالدليل، والدليل إتباع سنة النبي، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

علامة حبك لله إتباعك لسنة النبي، هذه بحبوة، هذه البحبوة تمهيداً لشيء آخر، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

المعنى دقيق جداً، هذا معنى النفس اللوامة، فلو إنسان زلت قدمه تكلم كلمة غير صحيحة، صار فيه خطأ ماذا يفعل؟ يستغفر، يتوب، يعمل عمل صالح، إن الحسنات يذهبن السيئات.

الاستغفار و الخوف من الله يبعد الإنسان عن التأديب:

فلو أب عالم وله ابن يعلق عليه أمالاً كبيرة، ويحرص على تفوقه الدراسي حرصاً لا حدود له، هذا الابن دخل الامتحان ونال صفر بالرياضيات، فالأب امتلاً غيظاً من ابنه على إهماله فأراد أن يؤدبه تأديباً شديداً، نظر إلى ابنه الذي سيؤدبه على تقصيره رآه مُصَفَّرَ اللون، لم يأكل الطعام، أصابه همٌّ شديد، معه مبلغ بسيط جمعه في العيد، أراد أن يأخذ درساً خصوصياً في الرياضيات (من هذا المبلغ الذي معه). فلما رأى الأب ابنه على هذا الحال اهتم اهتماماً شديداً، تألم ألماً شديداً، خاف خوفاً شديداً، ولم يأكل، ولم ينام، وسيفق كل شيء ملكه على دروس خصوصية مثلاً، فهذا الموقف جعل الأب يؤخّر تأديبه، لذلك:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

فلو كان هناك خطأ لا سمح الله ولا قدر، مع الغلط في ندم، مع الندم توجد توبة، يوجد استغفار، و يوجد رجاء من الله عز وجل، و تذلل، و بكاء، أيضاً أنت في بحبوة ثانية، بحبوة الطاعة، وبحبوة الاستغفار، وهذا المعنى الدقيق لقوله تعالى:

(لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ (2))

النفس الأمارة بالسوء هي نفس انقطعت عن الله:

فالنفس؛ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، أما النفس الثالثة الأمارة بالسوء، أقول لكم مرة ثانية: إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تعتقدوا أن الله خلقها أمارة بالسوء، لو أن الله خلقها أمارة بالسوء ما ذنبها؟ ليس لها ذنب، وما حيلتها؟

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هذا المعنى الجبري مرفوض، هي النفس الأمارة بالسوء نفس عادية كأى نفس أخرى، هذه النفس (فلسفة الشر الآن) أودع الله فيها الشهوات، هذه الشهوات لا بد منها للجنة، لا يمكن أن ندخل الجنة بلا شهوات، الجنة تحتاج إلى عمل فإذا كنت لا تشتهي شيئاً ولا تحب شيئاً، ولا تكره شيئاً فكيف السبيل إلى أن تعمل صالحاً ؟ هذه الطاولة لا تحب ولا تكره، ولا تجوع ولا تبرد، ولا تتعرق، ولا تشتهي ولا تتألم (جمود) أما أنت تشتهي المرأة، ترى امرأة في الطريق مُتَبَدِّلَةً تخشى الله عز وجل مع أن كل القوانين لا تمنعك أن تنظر إليها، تغض بصرك عنها، يأتيك مالٌ فيه شبهة ترفضه، تنام بالليل يؤذّن الفجر فتصلي، تعاون إخوانك المؤمنين، فالجنة تحتاج إلى عمل، فلذلك العمل هو أساس الجنة، فالنفس الأمارة بالسوء هي نفس أودع الله فيها الشهوات لكنها انقطعت عن الله عز وجل ولم تأخذ بمنهجه، ففي شهوة والشهوة عمياء.

الشر ينتج عن وجود الشهوة مع انعدام الرؤية:

أحضر حيواناً جائعاً جداً، ضع أمامه كيلو من اللحم، ماذا يفعل ؟ يأكله، تقول: حرام يأكله، ما هذا الحرام ؟ ما معنى الحرام ؟ جائع أمامه طعام يريد أن يأكل، فإذا الإنسان بمستوى البهيمة همه الوحيد إرواء شهواته ؛ حرام حلال، يجوز لا يجوز، مكروه، الهم الأول أن يقضي هذه الشهوة، أما المؤمن يوجد معه منهج مكتوب، يوجد معه نور بقلبه، يوجد معه خوف من الآخرة، فالنفس الأمارة بالسوء نفس كآية نفس، أودع الله فيها الشهوات لكن لانقطاعها عن الله ولعدم صلتها به ولعدم استنارتها بنور الله تحركت حركة عشوائية فكان عملها سيئاً، فالسوء ناتج عن وجود شهوة مع انعدام الرؤية، تماماً كالمحرك يقود المركبة، لا بد من مقود، بلا مقود الحادث حتمي، ببساطة بالغة، محرك يندفع بالسيارة بسرعة عالية والطريق متعرج ولا يوجد مقود فالحادث حتمي، فكل إنسان أودع الله فيه الشهوات لم يعتمد منهج الله في حياته فلا بد من أن يأخذ المال الحرام، ولا بد من أن يعتدي على أعراض الناس، ولا بد من أن يأخذ ما ليس له، لا بد من أن يستعلي على خلق الله، فالنفس الأمارة بالسوء هي كآية نفس أخرى فيها كل الشهوات ولكنها انقطعت عن الله عز وجل، فكانت في عمى:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ (40))

(سورة النور)

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46))

(سورة الحج)

طاعة الله ترفع ذكر الإنسان:

الله لم يخلق نفساً أماره بالسوء، خلق نفساً طاهرة ذات فطرة عالية، إلا أن هذه النفس فيها شهوات، شيء طبيعي كل واحد منا يشتهي المال، يشتهي المرأة، يشتهي العلو في الأرض، لكن الله جعل هذه الشهوات قنوات نظيفة، المال اكسبه من طريق مشروع، والمرأة اقترن بها بعقد زواج، وطاعتك لله عز وجل ترفع ذكرك عند الناس، فهذه الميول الأساسية في الإنسان تُروى عن طريق الطاعات، فتجمع بين إرواء هذه الميول وبين علوك وبين راحتك النفسية.

مثلاً: لو الإنسان له علاقة مع المرأة غير مشروعة، يقول لك: أخاف، يخاف من الفضيحة، يخاف من مدهامة بيت فيه دعارة، يخاف هو دائماً خائف، أما إذا الإنسان تزوج، يطلقون أبواق السيارات لتصم الأذان (نحن متزوجون) ولا يستحيون بهذا لأنه شيء مشروع، فلا توجد شهوة الله أودعها بالإنسان إلا ويوجد لها قناة نظيفة، لذلك النفس الأماره بالسوء نفس فيها شهوات كغيرها من النفوس، لكن انقطاعها عن الله عز وجل جعلها تتحرك بلا نور، وحركة بلا نور والطريق متعرج الحادث حتمي، وهذا كل ما في الأمر:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ (40))

(سورة النور)

النفس الأماره بالسوء هي نفس تحركت بلا نور:

قال النبي:

((الصلاة نور))

(أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعري)

الاتصال بالله يعطيك رؤية صحيحة، لذلك العقل وحده لا يكفي وأكبر دليل العالم الغربي، فالعقل محكم في كل شيء، عقلهم أودى بهم إلى الشقاء، شقاء كبير، فهناك أحد رؤساء الدول العظمى، يقول: أربع أخطار تتهدد أمريكا، لعلك تظنّها الصين، أو أوروبا المتحدة، أو اليابان، لا، تفكك الأسرة، وشيوع الجريمة، والمخدرات، والإيدز، هذه هي الأخطار، لأنهم خرجوا عن منهج الله، تفلتوا من دون قيد، إذا النفس الأماره بالسوء نفس عادية إلا أن هذه النفس تحركت بلا نور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

دعوة الله إلى الحياة الحقيقية، وتوجد آية ثانية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(50))

(سورة القصص)

هذه هي النفس الأمارة بالسوء، نفسٌ اتبعت هواها من غير هدى من الله (حركة عشوائية).

محاسبة النفس وظيفة النفس اللوامة:

هذه النفس اللوامة نفسٌ كثيرة الحساب لذاتها، شديدة التضيق على ذاتها، تحاسب نفسها على الخطرات، والحركات والسكنات حتى على الابتسام، حتى على الإعطاء، لعلّ هذا الإعطاء غير مناسب، لعلّ هذه الوساطة غير صحيحة، لعلّ هذا الدخل غير مشروع، لعلّ هذه الحفلة لا تُرضي الله، لعلّ هذا الزواج لا يرضي الله، دائماً في حساب، هذا إذا كان صحّ التعبير: الهموم المقدسة، المؤمن بهذا المستوى يحمل هموماً مقدسة، هموم علاقته بالله، أما هموم الخلق من نوع آخر، هموم الرزق، هموم الكسب، هموم حل المشاكل، إلا أن المؤمن يحمل أكبر هم يُشرفُّه وهو همُّ العلاقة بالله.

(لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1))

يوم القيامة هذا أخطر يوم بحياة الإنسان، يوم الحساب، يوم الدينونة، يوم تسوية الحسابات، يوم خافضة رافعة.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

مقاييس الدنيا والآخرة:

الدنيا قوامها المال، وقوامها القوة، وقوامها الذكاء، وطلاقة اللسان، والوسامة، هذه مقاييس الدنيا، إلا أن الله جلّ جلاله عنده مقاييس أخرى، المقياس الذي يُعتمد يوم القيامة طاعتك لله، المقياس الذي يُعتمد عند الله يوم القيامة إحسانك للخلق، فإذا شخص معه ثروة طائلة بعملة مزيفة، أو عملة ألغيت، ما قيمتها؟ أو انتقل من بلد إلى بلد، معه عملة البلد الأول، وهذه العملة غير رائجة هناك ولا يوجد صرافين، معك مئة مليون وتنمى أن تأكل شطيرة، لا تستطيع لأن العملة غير مقبولة هنا، فإذا الإنسان مكتسباته في الدنيا ؛ المال والصحة، والجاه، وجاء ملك الموت، والموت قريب يا أخوان، بعد انتهائنا من صلاة الجمعة اليوم جاء أخ كريم قال لي: يوجد رجل بالقاعة توفي أثناء الصلاة، وطبعاً وفاة جيدة

جداً في مسجد ويوم الجمعة وفي أثناء الصلاة، لكن الموت قريب جداً، هو لم يخرج من بيته حتى يموت، هو مات في القاعة، توفي، فالموت قريب وليس له سبب.

يوم القيامة يوم تسوية الحسابات:

أحياناً إنسان يعاني مرضاً ثلاثين سنة ولا يموت، أحياناً يموت خطفاً، فما دام هذا الموت يأتي فجأةً، وهذا مغادرة بلا عودة فلا أعقل ممن يستعد له، فيوم القيامة يوم الدينونة، يوم تسوية الحسابات، أنا لا أعتقد إنساناً يعصي الله (وكلامي دقيق وخطير) أنا لا أصدّق إنساناً يعصي الله أو يأخذ ما ليس له وهو مؤمن أنّ هناك يوم قيامة سيُحاسب به عن كل شيء، ألا تقرأ قوله تعالى:

((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فإذا أنت كنت تتوضأ فوجدت نملة على المغسلة وانتظرت حتى صعدت ولم تغرقها بالماء، هذا عمل صالح، هذا عمل مُسَجَّل لك، فما فوقه.

((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض))

(أخرجه مسلم عن أبي هريرة)

قالت له: قصيرة، قال لها:

((يا عائشة لقد قلت كلمة لو مُزجت بمياه البحر لأفسدته.))

نسيان أمر الله سبب هوان المسلمين:

سهرات إلى الساعة الواحدة كلها غيبة ونميمة، ومعاصي، ومشاهدة أفلام ساقطة، وانحراف، وأكل مال بالحرام، وثمانية آلاف قضية في قصر العدل، أين المسلمون اليوم ؟ أين هم من أحكام دينهم ؟ لذلك (دققوا في هذه الكلمة) هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، ألف كَأَف، لا نقيم لهم يوم القيامة وزناً.

((يٰٓوَسْءٰىكَ اَنْ تَدَاعٰى عَلَيْكُمُ الْاٰمَمُ مِنْ كُلِّ اَفْقٍ كَمَا تَدَاعٰى الْاَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ قُلْنَا يٰٓرَسُوْلَ اللّٰهِ:

اَمِنْ قِلَّةٍ بَنٰا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: اَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ وَلٰكِنْ تَكُوْنُوْنَ غُنَّاءُ كُغْنَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوْبِ

عَدُوْكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوْبِكُمُ الْوَهْنَ، قَالَ: قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

(من مسند أحمد: عن ثوبان بن مولى)

فيا أيها الإخوة الكرام: يوم القيامة إذا ما أدخلناه في حساباتنا اليومية والساعية، بكل حركة، بكل سكنة، بكل صفقة، فهل أنت شاطر بذلك؟! لا لست شاطراً، سوف تدفع الثمن مضاعفاً في الدنيا قبل الآخرة،

إذا كان بائعاً باع شيئاً مغشوشاً وأخذ فيه سعراً عالياً يظن نفسه أنه شاطر، يظن نفسه أنه تاجر ماهر، لا، التجارة أساسها الصدق، فإذا كان أخ كبير وعنده خمسة إخوة وتوفي الأب، استطاع الكبير أن يأخذ كل شيء، يعد نفسه أنه قوي، لا ليس قوياً سوف تغدو ضعيفاً يوم القيامة، وسيدنا علي يقول: " الغنى والفقر بعد العرض على الله " الغنى لا قيمة له.

ضعف الإنسان:

أنا جالس مع طبيب قلب من يومين أو ثلاثة، سألته: هذا الشريان الأبهري الذي شاغل الدنيا والذي يعد أكبر مشكلة يعاني منها الإنسان بالعصر الحديث، تضيق هذا الشريان، والقسطة خمسة وثلاثين ألفاً، بعد ذلك زرع شريان، بعد ذلك بالون، بعد ذلك راصور، هذا الشريان كم قطره ؟ قال لي: ميليمتر واحد. أي أن كل أمالك، وكل قوتك، وكل عظمتك إن صح التعبير على ميليمتر فراغ، إذا صغر تعاني ما تعاني، إذا هذا الميليمتر يضيق إلى نصف ميليمتر، تعاني أشياء كثيرة لا تحتل، فكل شيء تملكه على بقاء هذا الشريان مفتوحاً ميليمتر، هذه هي كل القصة، وكل شيء تملكه على بقاء الدم سائلاً فإذا صار لزجاً انتهت الحياة.

ما هي الجلطة ؟ خثرة دم بمكان في الدماغ، وكل حركتك ونشاطك على بقاء الدم في الدماغ سيال، إذا تجمد في الدماغ، بمكان شلل، بمكان عمى، بمكان فقد ذاكرة، وكل حركتك ونشاطك على نمو الخلايا نمو منضبط، فإذا لم يعد النمو منضبطاً انتهت الحياة، وكل مكتسباتك على عمل الكليتين إذا توقفتا انتهت الحياة، شيء مخيف كلية لو توقفت أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، أين ؟ تحتاج لزرع كلية، الإنسان يبحث. أين ؟ يقول لك: لكي نؤمن كلية تقوم مكان الكلية الطبيعية.

ما هو الإنسان ؟ الإنسان ضعيف جداً إذا قال: أنا. فإنه يكون أحمقاً، من أنت ؟ أنت على ميليمتر لمعة شريان وعلى سيولة الدم، وعلى نمو خلايا منضبط، كل شيء تملكه، لو تجمد هذا الدم فإن النعوة تُعَلَّق، كان شخصاً أصبح خبيراً على الجدران، لو ضاق هذا الشريان قليلاً وانسد تعلق النعوة، لو هذه الخلايا نمت نمواً عشوائياً تعلق النعوة، فكلنا نودع بعضنا.

مغادرة الدنيا تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض:

في اليوم توجد ستين أو سبعين حالة موت في الشام، توجد حوالي أربعين نعوة، وتوجد ستين حالة وفاة، وقد شاءت حكمة الله أن نغادر الدنيا تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض، أما أخطر شيء بحياتنا هو يوم القيامة فإنك تُحَاسَب عنه حساباً عسيراً، القرآن ستمئة صفحة، نقرأ ونسمع تفسير آية في ساعة، يقول

لك: ما شاء الله ما هذا الدرس ؟ نحفظه، نسمعه على شريط، نقرأ تفسيره. فهذا أعرابي قال للنبي عليه الصلاة والسلام: عطني ولا تُطِلْ، فقرأ له آية واحدة، فقال له: كفيت، قرأ عليه هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

فقال له: كفيت، فقال:

((فَقَّةُ الرَّجُلِ))

فهل يا ترى تكفينا آية واحدة فقط ؟.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1))

(سورة النساء)

الله معك دائماً ألا تستحي منه ؟

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِم))

(مسند أحمد عن سفيان الثقي)

قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذا فاستعد للبلاء.

أخطر قضية قضية يوم القيامة:

يوم القيامة موضوع خطير جداً، فالامتحان في الجامعة أخطر شيء، من الممكن أن ترتدي ثياباً أنيقة وتذهب إلى الجامعة، تريد أن تزهو فترتدي ثوباً أبيضاً، أنا طالب طب، تضعه هكذا، تمشي هكذا، يمكن أن تجد ندوة فيها طاولات، وفيها زميلات، لكن أهم شيء الآن في الجامعة هو الامتحان، إذا لم تتج (التجارة أهم شيء فيها الربح) وهذه الحياة أخطر شيء ينتظرنا جميعاً هذا اليوم، يوم الدينونة، يوم الحساب، يوم السؤال لماذا فعلت ؟

قال لي أحدهم: انصحي ؟ فهو يعمل في عمل رسمي لكن معه قوة كبيرة، أي ممكن إذا شخص أسعاره غير صحيحة يضعه في السجن، فيكتب ضبط فوراً، قال لي: انصحي، فقلت له: افعل ما تشاء، فنظر إلي مستغرباً !!، فقلت له: افعل ما تشاء ولكنك إذا كنت بطلاً هيئ الله جواباً عن كل ضبط، الله سيحاسبك، كلهم عباده، والله هو الذي سيحاسب.

فهذه قضية القيامة، أنا والله أيها الإخوة أشعر وأنا متألم أن هناك مسلمين كثيرين جداً من خلال حركاتهم بالحياة وكأن هذا اليوم ليس داخلاً في حساباتهم إطلاقاً، الذي يأكل مال أخيه غصباً هل هذا مسلم ؟! يخاف الله عز وجل ؟! المسلم يخاف من الله على كلمة، على نظرة، على شيء. سيدنا رسول الله انقطع الوحي أسبوعين فقال:

((يا عائشة (غريب) لعلها تمرّة وجدتّها على السرير فأكلتها، لعلها من تمر الصدقة))

تمرّة واحدة، فهذا الذي لا يحلل ولا يحرم، لا تدقق، هؤلاء المسلمون هذا حالهم الآن، يوجد تقصير، توجد تجاوزات.

لَا أَقْسِمُ: آية لها عدة تفاسير:

1 - أن الله إذا لم يقسم فبالنسبة إليه فإذا أقسم فبالنسبة إلينا:

إذاً:

((لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1))

ولكن هذه الأقسام فالله عزّ وجل يُقسم بهذا اليوم، بعضهم قال: " لا أقسم أي أقسم ". ويوجد توجيه لطيف: أن الله إذا لم يقسم فبالنسبة إليه فإذا أقسم فبالنسبة إلينا، إذا قال:

((وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (1))

(سورة الشمس)

أقسم، لكن الشمس بالنسبة إلينا شيء عظيم جداً، وإذا لم يقسم فبالنسبة إليه. هذا معنى.

2 - لا أقسم أي أقسم:

ويوجد تفسير آخر: لا، يعني أقسم.

3 - وضوح الشيء لا يحتاج إلى قسم:

ويوجد تفسير ثالث: أي هذا الشيء لشدة وضوحه لا يحتاج إلى قسم، الشمس ساطعة في رابعة النهار، هل تقول لمن يراها معك: والله هذه شمسٌ ساطعة ؟ كلام ليس له معنى لأنه يراها معك ساطعة فالقسم ليس له معنى، لذلك:

((لَا أَقْسِمُ)

يعني أقسم:

((لَا أَقْسِمُ)

قسم الله بأن يبعث عباده ليحاسبهم:

هذا الأمر لشدة وضوحه لا يحتاج إلى قسم، والله عز وجل أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، أين جواب القسم؟ والله. هل أكمل؟ سكت لأن القسم ليس له معنى من دون جواب، والله لأفعلن كذا وكذا هذا جواب القسم، والله لا أفعل كذا (جواب القسم).
جواب القسم قدره علماء التفسير: يقسم الله عز وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن يبعث عباده يوم القيامة ليحاسبهم، أي:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أن الحياة هكذا تمشي؛ غني وفقير، صحيح ومريض، قوي وضعيف، مستغل ومستغل، تنتهي الحياة هكذا؟ مرة سمعت مثلاً أعجبنى من رجل يعمل في الدعوة، طبعاً نحن لا نتعامل معه لكن الفكرة لطيفة: أنه أناس في مسرحية، مثل الفصل الأول لكن توجد مشكلة في المسرحية، وأرخي الستار، لا أحد يقوم، يقول لك: إنها لم تنته بعد لنرى ماذا حلّ بالذي قتل؟ فممكّن أن تنتهي الحياة هكذا: دول كبرى تسحق الدول الصغرى، تعيش على أنقاض الشعوب، غنى فاحش وفقر مدقع، وتنتهي الحياة هكذا؟ الذي معه سلاح أقوى هو المنتصر دائماً وإرادته نافذة؟ ولن يحاسب؟ هذا يتناقض مع وجود الله.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

ذكاء الإنسان وقوته لن ينجياه من يوم القيامة:

والآن في الدنيا يقول لك: إحصار كلف ثلاثين ملياراً، إحصار ثاني، إحصار ثالث، إحصار رابع، الله كبير، هؤلاء الذين يتحكمون بالشعوب وبينون مجد شعبهم على أنقاض كل الشعوب سيحاسبون حساباً عسيراً، ذكاء الإنسان لا ينجيه يوم القيامة، ذكاؤه وقوته وفلسفته وكلامه الباطل.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

أحياناً يفتعلوا مشكلات في العالم فيذهب ضحيتها مليون قتيل من أجل رواج الصناعة فقط، لترويج صناعتهم ورفع مستوى دخل شعبهم، دول كبرى تضحي بملايين القتلى والجرحى، هؤلاء لن يحاسبوا؟ معنى هذا لا يوجد إله.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

كل إنسان مسؤول عن نفسه يوم القيامة:

إياك أن تظن أنك تغلح إذا أخذت ما ليس لك، لأنه يوجد حساب دقيق، يوجد دفع ثمن باهظ، هذا معنى يوم القيامة يوم الدينونة، زوج يظلم زوجته يقول لك: هذه مقطوعة، يسحقها سحقاً، يستخدمها ولن يُحاسب؟ شريك يأكل مال شريكه ولن يُحاسب؟ ورثة شخص قوي يأخذ كل المال له ولن يُحاسب؟ عالم يصنع أسلحة كيماوية لتدمير الإنسان ولن يُحاسب؟ قوة غاشمة تأخذ ثروات أمم أخرى ولن تُحاسب؟ هذا مستحيل، هذا يوم القيامة يوم الدينونة ترى الأم ابنها في الآخرة، تقع عين الأم على ابنها فتقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً وحجري وطاءً وبطني وعاءً فهل من حسنة يعود عليّ خيرها اليوم؟ تعطيني من عندك حسنة؟ يقول ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه إنني أشكو مما أنت منه تشكين.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101))

(سورة المؤمنون)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: آية " 94 ")

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةَ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةَ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

تجاوز الإنسان لحدوده عند جهله بعظمة الله:

خطأ طبيب يودّي إلى وفاة إنسان ولن يُحاسب!؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92))

(سورة الحجر)

محامي يوهّم الموكل أن الدعوى رابحة ويبتزّ ماله ثماني سنوات ولن يُحاسب هذا؟ فهناك أخطاء كثيرة جداً، فكلما جهل الإنسان عظمة الله عزّ وجلّ تجاوز حدوده، وكلما عرف عظمة الله عزّ وجلّ وقف عند حدّه ولم يتعدّ طوره، فيوم القيامة يومٌ عظيم، قال:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (28))

(سورة الإنسان)

مرّة سألوا طالباً نال الدرجة الأولى في الامتحان: بما نلت هذه الدرجة ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مُخَيِّلَتِي إطلاقاً، وأنا أقول لكم: لا ينجو الإنسان من حساب هذا اليوم العسير إلا إذا كان هذا اليوم ماثلاً أمامك طوال الحياة، قبل أن تقول له: سعرها كذا، ليس سعراً فاحشاً، قبل أن تبيعه بضاعة فاسدة، قبل أن تخفي عنه العيب، قبل أن تغش البضاعة، قبل أن تضع لإنسان فخاً، ألا ترى أن الله سيُحاسبك حساباً شديداً ؟

إذاً أيُّها الإخوة: أركان الإيمان خمساً، أكثر ركنين جاءا معاً في القرآن الكريم: الإيمان بالله واليوم الآخر لأنك لن تستقم إلا إذا آمنت أن الله يعلم وسيُحاسبك، الله موجود ويعلم وسيُحاسب، لا بدّ أن تستقيم. بل تستقيم مع إنسان إذا كان يعلم وسيُحاسبك، ولن تخطئ معه أبداً:

((أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تُجْمَعَ عِظَامُهُ (3))

(سورة القيامة)

أي ألن نعيد خلقه مرّة ثانية ؟

بعث الإنسان ثانية يوم القيامة للحساب:

((بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

الباهم له شكل، خطوط وجُزُر ونتوءات وفروع وشعب، ممكن نستنبط من الباهم شكل الباهم منة نقطة، فلا يوجد إنسان يشبه باهمه باهم إنسان آخر، صوروا الباهم وكَبُرُوهُ بحجم متر مربع وعرضوا عليه مليون صورة فما اتفقت صورة مع الباهم، لذلك باهمك هويتك، وإذا وجدنا سبعة نقاط مشتركة بين إبهامين يكونان لشخص واحد، سبعة لا يوجد اشتراك بينهما، حتى بعض المجرمين في أمريكا أحضروا لحمًا من أعضائهم الأخرى ووضعوه فوق الباهم وخيَّطوه لكي يخفوا معالم جرائمهم، بعد أربعة أشهر ظهرت الخطوط على اللحم الجديد، فهذه الخطوط الدقيقة ؛ جُزُر، نتوءات، فروع، شُعَب، هذه سوف تعود يوم القيامة، تسوى مرّة ثانية.

((أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نُجْمَعَ عِظَامُهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

صفات الإنسان مشابهة لصفات الإله لكرامته على الله:

ومادام الموضوع بُحِث، خطوط الباهم هوية، وفُزْحِيَّة العَيْن هوية، ليس في الأرض كلُّها إنسان له قزحية عين تشبه قزحية عينك إطلاقاً، ورائحة الجلد هوية، ونبرة الصوت هوية، وبلازما الدم هوية،

والزمرة النسيجية هوية، أنت فرد لكرامتك عند الله عزّ وجل جعل لك صفات مُشابهة لصفات الإله عزّ وجل، الله فرد وجعلك فرداً، فشكل وجهك تتميز به، رائحة الجلد تتميز بها، فُرحية العين تتميز بها، نبرة الصوت تتميز بها، شكل الإبهام تتميز به، بلازما الدم، الزمرة النسيجية:

(أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

(سورة القيامة)

هذه الخطوط الدقيقة جداً التي لا تُرى بالعين المجردة إلا بالمكبر، وعبارة عن دوائر ومنحنيات وجزر وتفريعات، هذه سوف تعود ملامحها يوم القيامة كما كانت في الدنيا.

أعقل إنسان من يطبق منهج الله و يرجو رحمته:

طبعاً من باب أولى إذاً أن يعود الإنسان كله إلى ما كان عليه ليُحاسب، وتعرض عليه أعماله كلها على شريط:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14))

(سورة الإسراء)

أعقل إنسان، أذكى إنسان، هو الذي يطبق منهج الله و يرجو رحمته ويخشى عذابه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 5-13 تكذيب الإنسان بيوم
القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة القيامة، ومع الآية الخامسة وهي قوله تعالى:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

(سورة القيامة)

ثناء الله على النفس اللوامة:

النفس اللوامة نفسٌ تلوم ذاتها على كل خطأ وانحراف، وقد أقسم الله بها وأثنى عليها، والله عز وجل يُدَكِّرُنَا بيوم القيامة.

(أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4))

(سورة القيامة)

هذه الآيات شُرِّحَتْ في الدرس الماضي.

أنواع التكذيب:

1 - تكذيب عملي:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

معنى يفجر أي يكذب، يكذب ما أمامه من يوم القيامة، هذا اليوم يكذب به تكديباً قولياً أو تكديباً عملياً، فالذي يتحرك حركة لا تنبئ أنه يحسب حساباً لهذا اليوم فهو مكذبٌ بيوم القيامة تكديباً عملياً.

2 - تكذيب قول:

و الذي ينكر هذا اليوم هذا مكذب تكديباً قولياً.

الاستخفاف بالدين يؤدي إلى الكفر:

كما تعلمون هناك كفرٌ اعتقادي ولو بقي الإنسان ساكتاً، وهناك كفرٌ قولي، وهناك كفرٌ عملي، فقد يكفر وهو ساكت، وقد يكفر وهو يقول، وقد يكفر وهو يتحرك، وهذا الذي قال: لو أن محمداً صادقاً فيما يقول لكننا شرّاً من الحُمُر، كان محسوباً من أصحاب رسول الله ثمّ ظهر أنه منافق، وقد قال الله في حقّه:

(يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

(سورة التوبة: آية " 74 ")

فقد يكفر الإنسان إذا اعتقد اعتقاداً يخالف كلام الله أو سنّة رسول الله الصحيحة، وقد يكفر إذا تكلم بكلمة ردّ بها حكماً شرعياً ثابتاً أصلاً، أو ردّ آية أو حديثاً، أو أنكر فرضاً أو واجباً أو حقيقة جاءت في القرآن الكريم، وقد يكفر إذا فعل شيئاً يعبر عن استخفافه بهذا الدين، فلو ألقى المصحف على الأرض ليهينه فقد كفر.

إنكار الإنسان ليوم القيامة:

يا أيها الإخوة الكرام: هذا الإنسان يُنكر ما أمامه من يوم تشيب من هوله الولدان، ينكر ما أمامه من يوم:

(يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

ينكر ما أمامه من يوم ثقیل، حسابٌ دقيق.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

هذا سمّاه الله القارعة، وسمّاه الحاقة، وسمّاه الطامة، وسمّاه يوم القيامة، ويوم الجزاء، كلّها أسماءٌ بمسمّى واحد يوم تسوّى فيه الحسابات، يوم يحاسب الإنسان عن كل شيء فعله صغيراً كان أم كبيراً.

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

تكذيب الإنسان بيوم القيامة:

أي ليكذب هذا اليوم، أو ليكذب بهذا اليوم الذي فيه تسوّى الحسابات، والدليل أن يفجر بمعنى يكذب:

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

(سورة القيامة)

سؤال استخفاف، سؤال استهزاء، متى ؟

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ: آية لها عدة معان:

1 - يفجر بمعنى يكذب:

هذا هو المعنى الأول، يفجر بمعنى يكذب، والدليل يستخف بهذا اليوم الذي وعد الله به عباده ليجزي فيه كل نفس بما تسعى.

2 - يعجل بالمعصية و يسوف التوبة:

المعنى الثاني: هذا الذي يُعَجِّلُ بالمعصية ويسوف التوبة، أي يفعل معصية أمامه، ينوي أن يقتترف معصية، يتحرك ليقتترف معصية في المستقبل، إذا يفجر في وقت أمامه، طبعاً أمام ظرف مكان ولكنها في هذه الآية جاءت ظرف زمان، ما أمامه من زمن.

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

أي ليقتترف المعاصي والآثام في مستقبله القريب وكأنه لا حساب ولا عذاب، فالذي يُعَجِّلُ المعصية ويسوف التوبة هذا ينطبق عليه قوله تعالى:

(لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5))

أو الذي يقول: سوف أتوب ولا يتوب، يفجر أمامه، أو الذي يقول: سأتوب ويكذب، لا ينوي أن يتوب، يفجر أمامه، والذي يقول: سوف أتوب ويأتيه الموت على شر حال، هذا يفجر أمامه، فإما التكذيب القولي أو العملي، والدليل:

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6))

وإما تعجيل المعصية وتأخير الطاعة، تعجيل الانحراف وتأخير التوبة، أو يفجر أمامه هذا الأمل الذي يَخْدَعُ الناس.

الأمل يخدع الناس:

كل شخص يوجد بذهنه آمال إلى ثلاثين سنة قادمة وقد لا يعلم أن الموت سيفاجئه بعد حين، ما من إنسان وافته المنيّة إلا وفوجئ بها وهو يعتقد أنّه سيعيش سنواتٍ وسنوات، فقال بعض العلماء: يفجر أمانه أي يلهيه الأمل، والأمل خطير جداً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أكثرُوا ذكر هادم اللذات))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

مفرق الأحباب مشتت الجماعات.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به))

(رواه الطبراني عن سهل بن سعد)

شيء آخر هذا الذي يقول: سأعيش، وسأفعل، وسأبني، وسأسافر، وسأنغمس في الملذات، ولا يذكر الموت إطلاقاً هذا مما تنطبق عليه هذه الآية:

((بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَ أَمَامَهُ (5)))

يعزم على المعصية لأمدٍ طويل، فهل من الممكن لإنسان في السبعين مثلاً يحاول إنشاء ملهى؟! متأمل أن يعيش ثلاثين عاماً قادمة، ويقطف ثمار هذا الملهى الذي لا يُرضي الله عزّ وجل، هناك أشخاص هكذا، في نهاية المطاف يؤسسون بيوتاً تُرتكب فيها المعاصي.

3 - الميل عن الحق إلى الباطل:

((بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)))

أيها الإخوة: أصل الفجور الميل عن الحق إلى الباطل.

((يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)))

سؤال استهزاء، سؤال سخريّة.

جمود بصر الناس من شدة صعقهم بيوم القيامة:

قال:

((فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7)))

(سورة القيامة)

الإنسان أحياناً يَشْخَصُ بصره إذا رأى شيئاً مخيفاً يشخص بصره أي أن حدقة العين تجمد في مكانها، هذا معنى شخص، جمد بصره خوفاً وفزعاً قال:

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7))

فهناك من ينظر، وهناك من يستشرف (نظر مع التمطي)، وهناك من يستشف (نظر مع التفحص باليدين)، وهناك من يرنو (ينظر مسروراً)، وهناك من يُحَدِّج (ينظر مع المَحَبَّة)، وفي الحديث:

((حَدَّثَ الْقَوْمَ مَا أَقْبَلُوا عَلَيْكَ بَوَاجِهِمْ))

(حديث ذو إسناد حسن عن الحسن البصري)

وهناك من يلمح (ينظر ثم يُعرض)، وهناك شيء يلوح (يظهر ويختفي)، وهناك من ينظر شذراً مع الاحتقار، وهناك أفعالٌ كثيرة للنظر أحدها شخصٌ، قال تعالى:

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الأنبياء: آية " 97 "

من شدة الخوف، من شدة الدهشة، من شدة الصَعَقِ يجمد بصره.

الشمس و القمر من آيات الله الدالة على عظمته:

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

القمر أيها الإخوة من آيات الله الدالة على عظمته، وربنا عزَّ وجل جعل القمر والشمس آيتين من آيات الله عزَّ وجل.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 "

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم: آية 21 "

هذه الآيات إن لم تُفَكَّر فيها فقد عَطَلْنَاهَا، ربنا عزَّ وجل يقول:

(كَلَّا وَالْقَمَرَ (32))

(سورة المدثر)

أي أنه يُقسَمُ بالقمر.

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

القمر آية من آيات الله الدالة على عظمته.

دوران القمر حول نفسه و حول الأرض:

أيها الإخوة: قال بعض العلماء: القمر يدور حول الأرض دورة وحول نفسه دورة، تطابق الدورتان (الدورة حول نفسه والدورة حول الأرض) يجعل أحد وجوهه نحو الأرض دائماً، يدور دورة حول نفسه ودورة حول الأرض، من تطابق الدورتين يبقى وجه الأرض نحونا ثابتاً، هذه الحقيقة الأولى. شيء ثان: القمر لو أنه سار مع الأرض تماماً لكان بدرأ دائماً، و لالتغت وظيفته كتقويم جعله الله في السماء.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ)

(سورة الإسراء: آية " 12 ")

قال: القمر يتأخر تسعة وأربعين دقيقة كل يوم، لولا هذا التأخر لبدا القمر بدرأ طوال الحياة، تسعة وأربعين دقيقة يتأخر كل يوم عن اليوم السابق، من هنا يكون هلالاً ثم رُبْعاً ثم بدرأ ثم عرجوناً، تبدل القمر من هلال إلى رُبْع إلى بدر إلى عرجون بسبب التأخر تسعة وأربعين دقيقة كل يوم.

استخدام القمر كمنازة و تقويم للإنسان:

أيها الإخوة: كتلة القمر تساوي جزءاً من ثمانين جزءاً من كتلة الأرض، أي أن كتلة القمر تساوي 80/1 من كتلة الأرض، بينما جاذبية القمر تساوي سدس جاذبية الأرض، فالذي وزنه على الأرض ستين كيلو وزنه في القمر عشرة كيلو، هناك أقمار تدور حول نفسها في بضع سنوات، تبتعد كثيراً وتقترب كثيراً، لكن القمر الذي أكرمنا الله به قمر يدور قريباً من الأرض بحيث يغدو منارةً ويغدو تقويماناً لنا.

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ)

علماء الفلك يقولون: هذا القمر بُعْدهُ عن الأرض بحسابٍ دقيق، قال تعالى:

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5))

(سورة الرحمن)

ظاهرة المد و الجزر:

لو أن هذا القمر ابتعد كثيراً عن الأرض ماذا يحصل ؟ تنعدم ظاهرة في الأرض خطيرة جداً اسمها المد والجزر، فالبحر قد يرتفع عشرين متراً في بعض الخلجان والموانئ وينخفض عشرين متراً بفعل جاذبية القمر للماء، لو أن القمر ابتعد كثيراً عن الأرض ما الذي يحصل ؟ يلغى المد والجزر، والمد

والجزر له وظيفة كبيرة في حياة البشر، وهناك أخطر من ذلك، لو أن القمر ابتعد عن الأرض لدارت الأرض حول نفسها في أربع ساعات، لصار النهار ساعتين والليل ساعتين، لذلك قال الله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

أما لو اقترب جذبته الأرض وارتطم بها.

استخدام القمر كمرآة يعكس ضوء الشمس:

شيء آخر يتحدث به العلماء عن القمر هو أن تربة القمر عاكسة كالبلور تماماً، الله عز وجل جعله مرآة في السماء يعكس ضوء الشمس، والعلماء قالوا: إن ضوء القمر يساوي واحد على ثمانية عشر جزءاً من أشعة الشمس، في أحد الليالي الممطرة ترى الأشياء بإضاءة تساوي واحد على ثمانية عشر جزءاً من أشعة الشمس، وفضلاً عن ذلك هو تقويم جعله الله في السماء، فقبل أن نخترع الساعات والتقويم، كل البشر يعرفون واحد بالشهر، اثنين بالشهر، وإلى الآن هناك أشخاص بالريف يحسبون أمورهم على القمر.

أيها الإخوة: القمر آية من آيات الله، بعده عنا ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر، يقطعها الضوء في ثانية واحدة، المسافة الضوئية بين الضوء والقمر ثانية ضوئية واحدة، ذهبت مركبة إلى هناك اسمها (أبولو) هذه كلفت أربعة وعشرين ألف مليون دولار، هذه أول مركبة وطأت بها قدم إنسان على أرض القمر بتأمين جو الأرض في القمر، القمر لا يوجد فيه هواء، القمر فيه الجاذبية أقل، وهناك موضوع دقيق جداً لا يمكن أن يُلقى في هذا الدرس.

الكسوف و الخسوف:

على كل:

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8))

خسف القمر، الخسف إذا ذهب كله فهو خسوف، أما إذا ذهب بعضه فهو كسوف، يوجد عندنا كسوف وعندنا خسوف، الخسوف والكسوف، إذا غاب شكل القمر كلياً فهو الخسوف، أما إذا غاب جزئياً فهو الكسوف، وقد يظهر الكسوف من حين إلى آخر، قد تأتي الأرض بين الشمس والقمر فيكون الكسوف، أما الخسوف حينما يغييب القمر كلياً أو حينما تغيب الشمس كلياً يكون الخسوف.

أيها الإخوة:

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

(سورة القيامة)

العلماء قالوا:

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

في ذهاب ضوء الشمس والقمر أي كلا الشمس والقمر يذهب ضوءهما.

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9))

لبعض العلماء تعليقات لطيفة حول هذه الآية، جُمعَ بينهما أي فُرنَ بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين، مكورين، مظلّمين، مُقَرَّنَيْن كأنهما ثوران عقيران يوم القيامة، أي ينطفئ ضوء القمر، وتنطفئ أشعة الشمس.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1))

(سورة التكوير)

أي أن هذا النظام إلى حين.

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

(سورة يس)

القمر يذهب نوره والشمس تُكوّر وينتهي هذا النظام ليدخل البشر في نظام آخر نظام الآخرة، يُجْمَعُ بين الشمس والقمر فلا يكون تعاقب ليل ولا نهار، إذاً يلغى الضوء وتلغى الأشعة، ويلغى تعاقب الليل والنهار، لأن النهار والليل من حركة الأرض حول الشمس، ومن نور الشمس الساطع فلو أطفأت الشمس وخسف القمر ألغى الليل والنهار، في هذا اليوم العصيب في هذه الساعة الحرجة في هذا اليوم العسير كما قال الله عز وجل:

(يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ (10))

(سورة القيامة)

استحياء الإنسان من ربه يوم القيامة:

هذا هو الطريق المسدود، نحن في بحبوحة، نحن أحياء، إذاً في بحبوحة يمكن أن نتوب، يمكن أن نستغفر، يمكن أن نُصلح من أعمالنا، يمكن أن نطلب العلم، أما:

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ (10))

(سورة القيامة)

أَيْنَ الْمَقَرُّ: آية لها عدة معان:

1 - أين المفر من الله استحياء:

أين المهرب ؟ قال بعض العلماء: أين المفر من الله استحياء ؟ فلو أن أباً له ابن أنت ضربت هذا الابن وابتزرت ماله وأوجعته وجرحته، ثم ساقتك الأقدار مثلاً إلى موظف كبير لك عنده حاجة خطيرة فإذا هو والد هذا الطفل الذي آذيته، حينما تعلم أن هذا الإنسان والد الذي آذيته تذوبُ خجلاً منه، فهذا الذي يأتي إلى الدنيا ويأكل مال هذا ويسفك دم هذا ويشتم هذا ويبتز ماله هذا ثم يأتي ربه يوم القيامة ليرى أنه ربُّ الجميع، وأنه أرحم الراحمين وقد أساء لعباده ما موقعه ؟ قال:

(يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ (10))

استحياء من الله عز وجل:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر عليّ مما ألقى، وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

(حديث صحيح الإسناد عن جابر بن عبد الله)

2 - أين المفر من جهنم حذراً منها:

وأين المفر بمعنى آخر، أين المفر من جهنم حذراً منها، فأحياناً الإنسان يمشي في طريق يؤدي به إلى الهاوية، أعماله في الدنيا ساقته إلى حتفه وإلى مصيره المشؤوم، لذلك:

(فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185))

(سورة آل عمران)

هذا كلام ربِّ العالمين، هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى.

(إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

هذا وصف النبي ليوم القيامة وصف قطعي الثبوت والدلالة لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

3 - سؤال المؤمن و الكافر عن المفر يوم القيامة:

والمعنى الثالث: يقول المؤمن والكافر من شدة الهول يوم القيامة: أين المفر ؟ فالمؤمن يتمنى لو عمل أعمالاً صالحة أكثر، الكافر في هلاك، المؤمن ينجو ولكن ما من أحدٍ إلا ويندم يوم القيامة، حتى المؤمن يندم على ساعة عاشها في الدنيا لم يذكر الله فيها، فكيف أفر؟ الكافر مصيره مشؤوم هو جهنم، المؤمن كيف ينتهي له أن يعمل أعمالاً صالحة أكثر، انتهى الأمر:

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام مرّ مع أصحابه على قبر، فقال:

((يقول صاحب هذا القبر: إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم أفضل عنده من كل دنياكم))

الدنيا فيها بيوت، فيها مزارع، فيها أراضي غالية جداً، فيها مصانع، فيها معامل، فيها تجارات رابحة، فيها مئع رخيصة ومتع ثمينة، قال هذا الميت: إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم أفضل عنده من كل دنياكم.

(كَلَّا)

يأتي الجواب الإلهي:

(أَيْنَ الْمَفْرُ (10) كَلَّا)

كنت أعبر عن هذا المعنى: أن الإنسان ليجهد ألا يصل مع الله إلى طريق مسدود، أي أنه ارتكب معاصي وآثام ومات على ما هو عليه من معصية وإثم.

عدم وجود حصن يحصنك من عذاب الله يوم القيامة:

(كَلَّا لَا وَزَرَ (11))

(سورة القيامة)

لا مفر.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

(سورة القيامة)

الوزر الحصن، لا يوجد حصن يُحصنك من عذاب الله، والوزر هو الجبل ولا يوجد جبل يحميك من سيل عارم، والوزر هو الملجأ فلا يوجد ملجأ يقيك من عذاب الله يوم القيامة، والوزر المحيص، لا محيص ولا ملجأ ولا جبل ولا حصن.

(كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

العودة إلى الله في الآخرة:

لذلك: الميت حينما يُشَيَّعُ ترفرفُ روحه فوق النعش يقول: يا أهلي يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرّم فأنفقته في حلّه وفي غير حلّه فالهناء لكم والتبعة علي. وقد ورد في الأثر أنه:

((ما من بيتٍ إلا وفيه ملك الموت، إذا رأى أن العبد قد انقضى أجله وانقطع رزقه ألقى عليه غمّ الموت، فغشيته سكراته، فمن أهل البيت الضاربة وجهها، والممزقة ثوبها، والصارخة بويلها، يقول هذا الملك: فيما الفرع ومما الجزع، ما أذهبت لواحدٍ منكم رزقاً ولا قرّبتُ له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة ثم لعودة حتى لا أبقى منكم أحداً، فوالذي نفس محمد بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميّتهم ولبكوا على أنفسهم))

(ورد في الأثر)

يوجد رجل مريض على فراش الموت، زاره أحد أقربائه فقال له هذا الزائر لابن المريض: أبوك منتهي، مات هذا الزائر قبل المريض، في اليوم الثاني مات الزائر. رجل جالس بين أصدقائه عنده دعابة قال لهم: أنا لن أموت قريباً، أنا سوف أموت بعد وقت طويل، فسئل: لماذا ؟ قال له: أنا صحتي جيدة، وزني معتدل، وأمشي، ولا أدخ، ولا أحملها، وأكلي قليل، وأعمل رياضة، تكلم هذا يوم السبت، في يوم السبت الثاني كان تحت الأرض، بالضبط، وأنا أعرفه.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

(فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ

(10) كَلَّا لَا وَزَرَ(11))

لا يوجد ملجأ، جبل يعصمك، ليس هناك جبل يعصمك، ليس هناك ملجأ تلجأ إليه، ليس هناك حصن تتحصن به، ليس هناك محيص، فالإنسان وهذا كلام رب العالمين قبل أن يصل مع الله إلى هذا الوضع الصعب ليتب من فوره.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53))

(سورة الزمر)

إخوانا الكرام: لاحظوا أنفسكم لو عندكم رحلة عشرة أيام، أول يوم، ثاني يوم، ثالث يوم، اليوم السابع تفكر في العودة، بقطع تذاكر العودة، بجمع الحاجات، بشراء الهدايا مثلاً، من سبعة إلى عشرة هناك سلوك يتناسب مع قرب العودة، قيل: من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، الإنسان بأول حياته، بالعشرين، بالخامسة والعشرين، بالثلاثين، بلغ الأربعين، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، فالتفكير المناسب والمنطقي بعد الأربعين، وإن كان الأولى أن تكون مؤمناً في سن مبكرة، من لم تكن له نهاية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، فأنا لا أعبط إنساناً كشاب نشأ في طاعة الله، نشأ في طلب العلم، نشأ على منهج رسول الله، شيء عظيم ولكن إذا الإنسان بلغ الأربعين ورد أنه من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، وقد قال الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (37))

(سورة فاطر)

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

النذير أي الشيب:

((عبادي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

(ورد في الأثر)

(إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12))

بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ: آية لها عدة معان:

1 - بما أسلف الإنسان من عمل سيئ أو صالح:

في هذا اليوم:

(يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ (13))

(سورة القيامة)

(بِمَا قَدَّمَ)

أي بما أسلف من عمل سيئ أو صالح، أو

(أَخَّرَ (13))

ترك من عمل سيئ أو صالح، العمل السيئ الذي لم يفعله آخر، كل شيء فعله قَدَّمَ، بما قَدَّمَ أي بما فعل، وأخَّر بما لم يفعل، والإنسان أمام شيئين أمام موقف تفعل أو لا تفعل، إنسان طلب منك تعطي أو لا تعطي، أذن المؤذن تُصَلِّي أو لا تصلي، شخص استعان بك بشيء تساعده أو لا تساعده، امرأة بالطريق مرَّت تنظر أو لا تنظر.

(يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ (13))

2 - عرض شريط أعمال الإنسان من أوله إلى آخره:

بِمَا قَدَّمَ يُنَبِّأُ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ، وَأَخَّرَ بِآخِرِ عَمَلِهِ، كيف بدأ ؟ وكيف انتهى ؟ أي يعرض عليه شريط أعماله من أوله إلى نهايته دون أن يقطع منه شيء.

3 - بما قدم من أمواله و بما آخر لورثته:

المعنى الثالث:

(يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ (13))

بِمَا قَدَّمَ من أمواله في سبيل الله لنفسه، وبما أخَّر لورثته، قدم شيئاً أمامه، ومن قدم ماله أمامه سرَّه اللّٰه له، ودرهم تنفق في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهم يُنْفَقُ بعد مماتك، بما قَدَّمَ من مالٍ لآخرته وبما أخَّر من مالٍ لورثته، وأحياناً هؤلاء الورثة لا يحسنون إنفاق المال فيقونه إسرافاً وتبذيراً، والأب الذي تركه لهم ما رباهم ولا وجههم إلى الله عزَّ وجل، فالهناء لكم والتبعة علي.

شخص سأل شاباً بعد وفاة أبيه بأيام: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال: أنا ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح والدي.

(يُنبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (13))

بما قدم من مالٍ لآخرته وبما أخر، وحينما قلت: درهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهمٍ ينفق بعد مماتك، لأن مئات الوصايا لا تُنفذ بعد موت الأب، الورثة يتخذون أهوى الأسباب لعدم تنفيذ الوصية.

الأعمال الصالحة سبب نجات الإنسان من النار:

قال بعض العلماء: " يُنبأ الإنسان يومئذ بما قدم من فرض وما أخر من فرض "، أدى هذه الصلاة بوقتها أو أخرها، أدى الزكاة بوقتها أو أخرها، فعل شيئاً في الوقت المناسب أو أخره، أخره تهاوناً أو تقصيراً، وقال بعضهم: هذا الإنباء إما عند الموت وإما يوم القيامة، وكلاهما جائز، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: دققوا في هذا الحديث:

((إِنْ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَثَتَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لَابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))

(سنن ابن ماجه: عن أبي هريرة)

كل هذه الأعمال تلحقه في موته.

أعظم الأعمال ما يستمر بعد الموت:

لذلك يوجد أعمال تنقطع عند الموت ويوجد أعمال تستمر بعد الموت، أعظم هذه الأعمال ما كان مستمراً بعد الموت.

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

((عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَثَتَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لَابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))

(من صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

كل هذه الأعمال تلحقه بعد موته.

بالمقابل إذا أنشأ ملهى ومات كل معصية تكون في هذه الملهى إلى أن تنتهي الدنيا في صحيفة الذي أنشأه، في الحديث الصحيح، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

(من سنن النسائي: عن المنذر بن جرير عن أبيه)

أيها الإخوة الكرام:

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

وفي الدرس القادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى:

(بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (15))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 14-25 الأعمال الصالحة و
السيئة بيد الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

جهتان لن تستطيع أن تكذب عليهما: الله تعالى و نفسك:

أيها الإخوة الكرام: مع الآية الرابعة عشر من سورة القيامة، وهي قوله تعالى:

((الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

(سورة القيامة)

ومع الدرس الثالث من سورة القيامة ومع الآية الرابعة عشر:

((الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

أقوى حجة على الإنسان أنه يعلم نفسه قطعاً، يعلم ما إذا كان على حق أو على باطل، يعلم ما إذا كان صادقاً أو كاذب، يعلم ما إذا كان مخلصاً أو منحرفاً أو خائناً، يعلم كل شيء عن نفسه، جهتان لن تستطيع أن تكذب عليهما ولا لثانية واحدة: الله جلّ جلاله ونفسك، الله جلّ جلاله متطّلع على السرائر:

((يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

(سورة طه)

النية و الإخلاص لا يعلمهما إلا الله:

يعلم جهرك، ويعلم سرك، ويعلم ما خفي عنك، ويحول بين المرء وقلبه، أقرب شيء لك هو قلبك والله بينك وبين قلبك، يعلم خائنة الأعين ولن يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يضبط خيانة العين. طبيب يفحص امرأة، مكان الألم هنا، إن اختلس نظرة إلى مكان آخر هل هناك في الأرض من يستطيع أن يضبطه ؟ أبداً، يعلم السر، يعلم الخواطر، يعلم الأفكار، يعلم النوايا، يعلم البواطن، لذلك النية لا يعلمها إلا الله حتى الملاك لا يعلمها.

إنسان ذهب إلى بلد غربي وأراد أن يتزوج امرأة وذهب إلى مركز إسلامي وعقد عقده الشرعي على هذه المرأة بإيجاب منه وقبول منها وشاهدي عدل ومهر على كتاب الله وسنة رسوله، وفي نيته أن يطلقها بعد سنتين (بعد أن ينهي الدراسة)، هل في الأرض كلها إنسان يستطيع أن يعلم ذلك ؟ أبداً لكن الله وحده يعلم، أنت مكشوف أمام الله عز وجل، ما دمت هكذا ينبغي أن تكون مخلصاً، ينبغي أن سريرتك

كعلائيك، ينبغي أن يكون باطنك كظاهرك، ينبغي أن تكون خلوتك كجلوتك، هذا الإخلاص، وهذا الذي قاله عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليؤها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك))

(رواه أحمد عن العرياض بن سارية)

المال و النساء نقطتا الضعف عند الإنسان:

من أروع ما في المؤمن الوضوح، لا يوجد عنده سر، ما في قلبه على لسانه، ما ينطق به في قلبه، لا يستحي من شيء في حياته (أموره كلها شرعية) لا في بيته، ولا في علاقته بزوجته، ولا في علاقته بأولاده، ولا ببنايته، ولا بأصهاره، ولا بجيرانه، ولا بزبائنه، لأنه لا يكذب ولا يغش، لا يوجد عنده نقطة ضعف يضعف أمامها، لماذا المؤمن عزيز النفس ؟ لأنه مستقيم، لا يخشى في الله لومة لائم، نقطتا الضعف الخطيرتان في الإنسان: المال والنساء، حصن نفسه من النساء بالعفة ومن المال بالورع، لن تستطيع أن تصل إلى إنسان إلا بإحدى هاتين النقطتين، بمالٍ أخذه حراماً، أو بعلاقة مشبوهة، فقرة المجتمع الغربي تُساق إلى المحكمة لأنه تحرّش بامرأة (صغر).

الإنسان نفسه حجة قوية عليه:

فلذلك الإنسان أمام ربه مكشوف، فالله جلّ جلاله لا يستطيع أبداً أن تُخفي عليه شيئاً.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: آية " 142 ")

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)

(سورة فاطر: آية " 43 ")

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

(سورة البقرة)

ونفسك أيضاً لن تستطيع أن تخدعها، تكشفك على حقيقتك.

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

هذه فيها مبالغة (شديد البصر). الإنسان له على نفسه حجة لأنه يعلمها حقيقة العلم.

(الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

إلا أنه أوتي ذكاءً، أوتي عقلاً يستخدمه لتغطية انحرافه (هذا كلام)، هذا المنطق التبريري، والإنسان منطقي فعندما ينحرف يبرر، يأتي بحجج واهية ليغطي بها انحرافه، هذا المنطق لا قيمة له عند الله.

شهود أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة:

لأن يوم القيامة:

((الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65))

(سورة يس)

يوم تشهد عليهم جلودهم.

((وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ(21))

(سورة فصلت)

جلد الإنسان، جلد أعضائه التي مارس بها المعصية تنطق عليه يوم القيامة وتشهد عليه، إنك لن تستطيع أن تكذب على الله، لن تستطيع أن تكذب على نفسك:

((بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

بل إن الله عز وجل حينما سَوَّى هذه النفس.

((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أي إنه ألهمها حينما تفجر أنها فاجرة، وألهمها حينما تنتقي أنها متقية.

((فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

المؤمن لا يكذب:

هذا يتضح أحياناً من إنسان كان تائهاً شارداً منحرفاً، فعندما تواجهه بخطئه يغلي ويأتي بحجج ضعيفة وواهية، لكن لو أن هذا الإنسان تاب إلى الله ورجع إليه يقول لك: والله كنت أكذب.

ذات مرة كان رجل وسيم الصورة يُستخدم للإعلان لبعض أنواع الدخان فمات بسرطان بالرئة بسبب الدخان، وهو على فراش الموت قال هذه الكلمة: كنت أكذب عليكم الدخان قتلني. فالإنسان أحياناً يكذب وكثيراً ما يكذب وربما لا يَصْدُقُ، وربما يكذب كلما نَفَسَ، والمؤمن لا يكذب.

((يُطِيعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد رواه: أبي أمامة)

فالإنسان بصيرٌ على نفسه.

((وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

هذه المعاذير يُلقِيها للناس ليخدعهم، لِيُغْطِي انحرافه، ليغشَّهم، ليضلِّلهم لكنه يعرف الحقيقة، حتى يوم القيامة يقول المشركون:

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

(سورة الأنعام: آية " 23 ")

الكذب لا يطول و قد يكشف في أية لحظة:

قال:

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24))

(سورة الأنعام)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

قال بعضهم: " تستطيع أن تكذب على بعض الناس لكلّ الوقت، وتستطيع أن تكذب على كل الناس لبعض الوقت، أما أن تكذب على كل الناس لكل الوقت، هذا لن تستطيعه ". فكل إنسان له عُمر ؛ إذا كان كذاباً، مخادعاً، مضللاً، مزوراً، له عُمر، إذا كان الذين يضلُّهم قلائل قد يدوم هذا العمر، وإذا كانوا كُثُر يقصر هذا العُمر، لا بدّ من أن يكشف لأن هذه سئة الله في خلقه.

(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43))

(سورة فاطر)

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: آية " 179 ")

كشف الله للحقائق و لو بعد حين:

لا بدّ من أن يفرز المؤمنين إلى صادقين وإلى مقصّرين ثم إلى منافقين، فهذا الشيء لو الإنسان أيقن به ينخلع قلبه، لا بدّ من أن يكشف ربنا الحقيقة، هو الحق، كل أساليب الذكاء في الخديعة لبعض الوقت، للباطل جولة ثم يَضْمَجَل، الله عزّ وجل يكشف ؛ يكشف المنافقين، يكشف المنحرفين، وقد يرخي الحبل إلى أمد من أجل أن يأخذ الإنسان أبعاده كلّها فإذا وصل إليها كشف الله الحقيقة، والإنسان ينبغي أن يستحي من الله، ينبغي أن لا يجعل الله أهون الناظرين إليه، إذا استحيت من الله ألقى عليك السِتر (سِتْرَكَ)، إذا استحيت من الله حفظك، إذا استحيت من الله ألقى عليك الهيبة، إذا استحيت من الله خدمك أعداؤك، أما حينما ينخلع أو يُهتَكَ السِتر الذي بينك وبين الله عندئذ يكشف الله السِتر الذي بينك وبين الناس.

سيدنا الصديق (رضي الله عنه) ما قرأتُ دعاءً أكثر أدباً وتواضعاً من هذا الدعاء مُدح فقال: " اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ".
هذا عن قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

وإذا تحققت من هذا استقيمت على أمره وتعاملت معه وحده، والله كاشف الحقيقة، لماذا تحاول أن توهم الناس أنك على غير حقيقتك؟ الأصل كاشفك، فإذا كنت في محل تجاري فرضاً وصار هناك خطأ، إذا كشفه صاحب المحل لماذا تحاول أن تضلل هذا الطفل الصغير؟ ليس له قيمة، إذا الخطأ كشفه من بيده الأمر فأنت ما من فائدة أن توهم هذا الصغير أنك مستقيم، إذا:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

الخيانة والكذب من صفات المنافقين و هي أبعد ما يكون عن المؤمنين:

اللهم صل على سيدنا محمد في عقب غزوة تبوك جاء المنافقون يعتذرون واحداً تلو الآخر، استمع إليهم وقبل منهم أذارهم ودعا لهم، فلما جاء الصادق المقتصر (سيدنا كعب) قال له: والله لقد أوتيت جدلاً (أوتيت لساناً طليقاً)، ولو جلست إلى غيرك لخرجت من غضبه، ولكنني جمعت أن أصدقك يا رسول الله، إني إن صدقتك لعل الله يغفر لي، وإني إن كذبت عليك يوشك الله أن يفضحني (انظر إلى التوحيد) صدقه وقال له: حينما دعوتنا إلى الذهاب إلى هذه الموقعة ليس عندي عذر إطلاقاً، تخلفت بلا سبب، فالنبي قال كلمة قصيرة لكنها بليغة: أما هذا فقد صدق (سمع لثمانين شخصاً قبله) ولا يوجد شيء يرفعك كالصدق، ولا يوجد شيء يصغرك كالكذب، والمؤمن لا يكذب، المؤمن قد يخطئ كثيراً لكنه لا يكذب ولا يخون.

((يُطِيعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(مسند أحمد رواه: أبي أمامة)

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15) لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

(سورة القيامة)

أي يا محمد، حيث كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي أسرع وردد الكلمات (كلمات الله عز وجل) خشية أن ينساها، فطمأنه الله عز وجل:

(سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى (6))

(سورة الأعلى)

إنك لا تنسى بفضل الله عزّ وجلّ.

اهتمام النبي الكريم بالقرآن و حفظه:

(إِنَّمَا مَا شَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأعلى: آية " 7 ")

شاء الله مرّةً أن ينسى، صلى الظهر ركعتين فسأله أحد الصحابة (ذو اليمين) يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ أي أصبح الظهر ركعتين أم نسيت ؟ ولأن النبي لم ينس قط سابقاً، قال:

((كل هذا لم يكن))

فقال ذو اليمين: بعضه قد كان (أصر). سأل النبي أصحابه الكرام فإذا به قد صلى ركعتين (صلاة الظهر) فأتّم الظهر أربعاً وقال:

((إنما نُسيّت كي أسن، لولا أن الله أنساني كيف أسن لكم سجود السهو))

نُسيّ ولم ينس:

(سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِنَّمَا مَا شَاءَ اللَّهُ)

(سورة الأعلى)

قال:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

لا تقلق لن تنساه، تطمين من الله عزّ وجلّ، أي أنت استوعبت الكلمات لا تخشى أن تنساها، لن تنسى هذا القرآن، فالنبي عليه الصلاة والسلام كل شيء نزل عليه حفظه من أوّل مرة، وقد تقول أنت: أنا لا أحفظ، الجواب: لو بلغ اهتمامك بنص من النصوص كما بلغ اهتمام النبي بالقرآن لحفظته، الحفظ متعلّق بالاهتمام، ولاحظ نفسك الأشياء التي تُهتّم لها تحفظها، أحياناً صاحب محل تجاري (يوجد في المحل عشرة آلاف نوع)، يحفظ الأنواع واحداً واحداً وأمكنتها والعدد المتبقي منها، لأنه مهتم، هذه تجارته.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

(سورة القيامة)

مهمة الإنسان اتباع الأمر و النهي:

نجمعه لك ونقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك:

(فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

(سورة القيامة)

أنت مهمتك الاتباع، لا تحمل عبء الحفظ لن تنسى، إذا قرأناه عليك اتبع مضمونه، اتبع الأمر والنهي، اتبع المشاهد التي سمعتها، اتبع الأوامر التي تلقيتها:

(فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

لا تقلق من حفظه لن تنسى هذا القرآن، اطمئن.

السنة الشريفة هي شرح للقرآن الكريم:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

علينا بيان هذا القرآن أي أن الله عز وجل كما أوحى إليه هذا النص المتلو أوحى إليه شرحه غير المتلو، لذلك السنة هي شرح للقرآن والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

الذي ذكره من أحاديث شريفة شرحاً للقرآن من وحي الله عز وجل، لكن القرآن وحي متلو والسنة وحي غير متلو، إذاً:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

تبين أنت يا محمد بوحى منا ما نزل عليك، لذلك السنة مبينة، تبين أنت يا محمد بوحى منا غير متلو ما نزل عليك.

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

وكما أن الله حفظ كلامه، حفظ سنة نبيه لأنه من لوازم حفظ الأصل حفظ الشرح.

تعهد الله تعالى بحفظ كلامه ومن لوازم هذا التعهد حفظ سنة نبيه:

الآن لو أنه صدر قانون ثم صدر مرسوم تفسيري لهذا القانون لا قيمة لحفظ القانون من دون حفظ تفسيره، فحفظ التفسير جزء من حفظ القانون، وكذلك لما تعهد الله عز وجل بحفظ كلامه فمن لوازم هذا التعهد أن يحفظ سنة نبيه، لذلك هيأ علماء لهم هممة عالية جداً محصوا السنة ونخبوها وفرزوها،

وعرفوا صحيحها، وعرفوا ضعيفها وموضوعها، وصنّفوا الكتب فالسُّنة الآن محفوظة، وكل شيء ميسّر، يوجد عندنا كتب صحيحة، القضية انتهت، ما من علم عند الأمم كعلم الحديث عندنا، إنه علم دقيق جداً، لذلك بما أن الدين نقلٌ أخطر ما في النقل صحة النقل.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

نجمه، نستكمله، ونقرأه عليك، القرآن نزل مُنْجِماً وفق الحوادث، وهناك حكمة بالغة أن ينزل منجماً وفق الحوادث.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

عليك:

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

أي إن مهمتك أن تُطَبِّقَه:

(بَلِ اللّٰهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّٰكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

أعمال الإنسان مكتوبة في صحيفة أعماله:

بعض العلماء قال: " لهذه الآيات تفسيرٌ آخر يختلف مع سياق الآيات". إنك تُلقِي على طلابك موضوعاً في التاريخ، فترى بعض الطلاب قد أغمض عينيه، فتقطع الدرس وتنبّه الطالب ثم تعود إلى الدرس، فبعض العلماء فسّروا هذه الآيات تفسيراً يبتعد عن سياق الآيات، الآن حينما قال الله عزّ وجل:

(يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

(سورة القيامة)

يقول له الله عزّ وجل يوم القيامة: أيها الإنسان لا تحرك به لسانك لتعجل به، كل شيء فعلته مكتوب عندنا:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

القضية ليست في كلامك ولكن بما كُتِبَ في صحيفة أعمالك.

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

أعمالك كلها جمعت عليك:

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

نقرأه عليك، ألم تفعل يوم كذا كذا ؟ يوم كذا كذا ؟ في المكان الفلاني، في الوقت الفلاني مع فلان ؟ كل أعمال الإنسان سوف يراها أمامه وهي تتلى عليه.

إحصاء أعمال الإنسان في الدنيا:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

لا تستعجل كل شيء مسجّل (فعلت لا لم أفعل). سوف نسمعك الشريط، سوف ترى شريطاً مصوراً، أين ذهبت ؟ إلى أي بيت دخلت ؟ ماذا فعلت ؟ أرح نفسك ولا تتكلم لأن كل شيء مسجّل، هذا هو المعنى.

(تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

كتاب أعمالك:

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

سنقرأه عليك:

(يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13))

(سورة القيامة)

فإذا قرأناه عليك ليس لك إلا أن تقول: نعم فعلت كذا.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

حينما نقول لك: ألم تفعل كذا وهذه الصورة ؟

بيان أعمال الإنسان في الآخرة عملاً عملاً:

الآن في الدنيا نأتي بإنسان يقود سيارة ويُخالف ويوجد جهاز رادار يكشف المخالفة ويصورها، نأتي به ونقول له: هذه سيارتك، وهذا هو الوقت، وهذه هي الساعة، وهذه هي السرعة فما قولك ؟ يرى الصورة صحيحة فيقول: نعم، ليس لك إلا أن تقول نعم، لأن هناك صورة.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

هذه المخالفة خمسمئة، هذه سحب إجازة، هذه سجن، سوف نبين لك المخالفة، أول شيء:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

لا تستعجل، لا تنفي بسرعة لأن كل شيء مسجّل ومصور، لا تنفي، لا تستبق الأمور.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا)

عرض أعمال الإنسان عليه و عدم مغادرة واحد منها:

جمع كل أعمالك صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، جمعت كلها في كتاب، الإنسان يضجر ويقول:

(مَالُ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)

(سورة الكهف: آية " 49 ")

لا توجد واحدة نساها، كلها مذكور حتى النظرة، حتى الكلمة، حتى الابتسامة في غير محلها، فيها سخريّة، كلّها مسجل.

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17))

سنجمع لك أعمالك كلّها ونقرأها عليك، فإذا قرأناها عليك (لأنها مشاهدة) لا تستطيع إلا أن تُقرّ بها، ليس أمامك خيار، ألم تفعل كذا ؟ نعم هذه الصورة، وهذا التاريخ، فإنك تقول: نعم.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))

ثمّ نقول لك: هذه المخالفة ثمنها كذا، وهذه كذا، وهذه كذا، وهذه كذا.

بيان المعاصي للإنسان و عقوباتها:

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

بيان المعاصي، ونتائجها، وعقوباتها، ومصائرهما، هذا تفسير ثاني، إما أن الله عزّ وجلّ يخاطب النبي يقول:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)

يا محمد:

(لِتَعْجَلَ بِهِ (16))

نعلم حرصك على حفظه وثباته، اطمئن ولا تحمل عبء حفظه.

(سَنُقْرُكَ فَلَا تَنْسَى (6))

(سورة الأعلى)

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ)

في صدرك.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ: آية لها عدة معان:

1- شرح القرآن بوحى من الله عزّ وجلّ لرسول الله:

وقرأناه عليك:

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

عليك أن تطيع الأمر والنهي.

((فَاتَّبِعْ قِرَاءَتَهُ (18))

ثمّ أنك مكلفٌ أن تشرحه بوحى منا:

((ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

حتى شرح القرآن بوحى من الله عزّ وجلّ لرسول الله، هذا هو المعنى.

2 - تسجيل أعمال الإنسان عليه:

المعنى الثاني: أيها الإنسان يا من تُنبأ بما قدّمت وأحرّرت لا تستعجل لأن كله مسجل، إنا علينا أن نسجل لك كل أعمالك وإذا تلوناها عليك ليس أمامك إلا أن تعترف بها، ثمّ نخبرك لكل ذنبٍ عقوبته.

((ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19))

نقاط الضعف في أصل خلق الإنسان:

يقول الله عزّ وجلّ:

((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

أي أنّ الله عزّ وجلّ خلق الإنسان هلوّعاً، وخلقّه ضعيفاً، وخلقّه عجولاً، وهذه ثلاث نقاطٍ في أصل خلق الإنسان، نقاط ضعفٍ في أصل خلقه لصالحه، خلق عجولاً حتى إذا اختار الآخرة ارتقى عند الله كثيراً، طبعه يدعوّه إلى العاجلة الشئء أمامه.

الآن أكثر الناس يتحرّكون وفق شهواتهم الآنيّة، أما الذي يفكر في المستقبل، أحياناً طفل أو طالب يوجد عند إغرائين: إغراء أن يذهب إلى النزهات مع أصدقائه ويترك المدرسة، وينام إلى ساعة متأخرة، ويذهب إلى أماكن جميلة، ويأكل ما يشتهي، ويدع الدراسة، طالب آخر يتصوّر نفسه أصبح طبيباً أو

مهندساً، في مرتبة عالية جداً له بيت، له مركبة، له زوجة، فإنه يؤثر المستقبل المشرق على هذه الساعات الممتعة الآنّية فيقبع وراء الكتاب ويدرس، الأوّل عاش لحظته بغباء، والثاني عاش مستقبله، هذه القصة كلها كذلك.

فالإنسان خلق هلوّاً شديداً الهلع، وخلق ضعيفاً، وخلق عجولاً، خلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره، ولو خُلِق قوياً لاستغنى بقوّته فشقي باستغنائه، خلق هلوّاً ليلجأ إلى الله عند الخوف، أما خلق عجولاً لأنه إذا اختار الآجلة وكان طبعه يحب الآجلة لا يرقى عند الله، طبعه أني.

إعمال الفكر سبب الفوز بالآخرة:

أنا أذكر لكم كثيراً هذا المثل لأنه واضح جداً: سيارة واقفة في مكان ما وعليها أن تدور حول دائرة أو حول ساحة وتتجه إلى مكان بعيد، فهي واقفة باتجاه الشرق والشمس على اليمين، وأنت بحسب معرفتك هذه السيارة سوف تدور حول الساحة في دقيقة واحدة وتنعكس الآية (أي تنقلب الشمس إلى مكان آخر)، إن صعدت إلى هذه السيارة أين تجلس ؟ العاقل يجلس في الشمس، يقول لك: دقيقة ويتمتع بالظل ساعة، والذي يعطل فكره يقبع في الظل يقول لك: هذا مجنون جالس في الشمس، من المجنون ؟ الذي جلس في الظل، فالذي يحب العاجلة عطل فكره، والذي يحب الآجلة أعمل فكره، شيء واضح جداً كل شيء بحسابه.

تغض بصرك، تضبط لسانك، تصلي، تصوم، تجاهد نفسك وهواك، تنفق مالك هذه فترة مؤقتة وجنة إلى أبد الأبد، أما الإنسان الآخر يتفكّر كم سنة ؟ سنوات تمضي سريعاً وأمامه العقاب إلى أبد الأبد، فالإنسان أحياناً ينطلق من محبته لذاته، ينطلق من أنانيته فيستقيم على أمر الله، كل شيء بحسابه.

تناقض العبثية مع وجود الله:

الآية الكريمة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية)

فمستحيل، هذا يتناقض مع وجود الله، أن يُعامل إنساناً مستقيماً وورعاً، يخاف الله عزّ وجل، يرجو رحمته ويخشى عذابه، يضبط لسانه، يضبط عينه، يضبط أذنه، يضبط أعضاؤه، يحرر دخله، يعامل

زوجته بالحسنى، يرّبي أولاده(إنسان يفعل هذا). وإنسان متقلّبت يعاملان سواء ؟ هذا يتناقض مع وجود الله، إن تيقّنت أن الله يعامل هذا كهذا أيقّنت بالعبيّية، والعبيّية تتناقض مع وجود الله:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

لا يوجد حساب ؟ لا توجد مساءلة ؟ جامعة تكلف ألف مليون لا يوجد فيها امتحان ؟ كل واحد سجل أخذ دكتوراه ؟ لا يوجد فحص أبداً ؟ هذا مستحيل، إنسان لا يفعلها فكيف الواحد الديان ؟

(أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

مستحيل.

الدنيا ساعة اجعلها طاعة:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

شاب مؤمن له معاملة خاصة، له حياة طيبة، له سعادته، له مكانته، له طمأنينته، له استقراره النفسي، له ثقته بالله عزّ وجل.

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

مرة ثانية، إن المثل واضح جداً: سيارة على اليمين شمس وعلى اليسار ظل، الطريق يستغرق ساعة، أمام ساحة، تدور الدورية بدقيقة فإذا دارت هذه الدورية انعكست الآية، والإنسان صعد إلى السيارة، على اليمين شمس على اليسار ظل، إذا عطل فكرة يجلس في الظل يتمتع فيه دقيقة ويزنوق حرارة الشمس ساعة، إذا شغل فكره فإنه يتحمل الشمس دقيقة ويتمتع بالظل ساعة، هذا المثل كبره، هذه الدنيا دقيقة " الدنيا ساعة اجعلها طاعة ".

حب الدنيا و كراهية الموت رأس كل خطيئة:

انظر إذا شخص مات وترك بيتاً فخماً أين هو قاعد ؟ تحت أطباق الثرى، انتقل من دار موقّت إلى دار أبدية، فالإنسان دائماً وأبداً عليه أن يعرف ما سيكون، الأغبياء يعيشون الماضي(يفتخرون بماضيهم

دائماً)، والأقل غباء يعيشون حاضريهم، والأذكىاء يعيشون المستقبل، المؤمن بعقله الراجح دائماً يعيش المستقبل:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21))

أي أن المرض حب الدنيا، يقول عليه الصلاة والسلام:

((حب الدنيا يُعمي ويُصِم))

((حب الدنيا رأس كل خطيئة))

((يٰٓيُوشٰىكَ الْاٰمَمُ اَنْ تَدَاعٰى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعٰى الْاَكْلَةُ اِلٰى قِصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلِيلٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالٍ: بَلْ اَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ وَلَكُمْ غَنَاءٌ كَغَنَآءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللّٰهُ مِنْ صُدُوْرٍ عَدُوْكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللّٰهُ فِيْ قُلُوْبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يٰٓرَسُوْلَ اللّٰهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

(سنن أبي داود: عن ثوبان)

في آية أخرى يقول الله عز وجل:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

العاقل من عاش لآخرته:

العاقل الذي يفكر بآخرته، لذلك المؤمن منضبط يرجو الآخرة، يرجو رحمة الله، يرجو دخول الجنة، يسعى إلى سعادة أبدية لا تنتضي هذا هو العاقل.

خليفة أموي دخل إلى بيت الله الحرام فرأى عالماً جليلاً فأراد أن يتقرب إليه قال له: سلني حاجتك ؟ فقال له: ليس لي عندك حاجة، قال له: سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، التقى به خارج بيت الله فقال له: سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها ؟ قال له: سلني حاجتك ؟ قال له: نجني من النار وأدخلني الجنة، فقال له: هذه ليست لي، قال له: إذا ليس لي عندك حاجة أنا حاجتي مع الله.

((من جعل الهموم همّاً واحداً كفاه الله هم دنياه))

(رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ (24) تَنْظُرُنَّ أَنْ يَفْعَلَٰ بِهَا فَاكِرَةٌ (25))

(سورة القيامة)

العقل من عاش لآخرته:

في النهاية يوجد وجهين، وجه متألق ينظر إلى الله عز وجل، فالجنة فيها حور عين، فيها بساتين، فيها أنهار، فيها كل شيء، ولكن أجمل ما فيها هو النظر إلى وجه الله الكريم:

((النَّاسَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟...قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ))

(أخرجه الدارمي عن أبي هريرة)

فإنكم سترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر.

وتوجد أحاديث كثيرة تثبت ذلك، وهذه الآية أصل..

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22))

(سورة القيامة)

من النضارة، تألق، الآن إذا إنسان نجح بتفوق تجد وجهه بلون آخر أصبح بلون مشرق، عيناه زئبقيتان، حركتهم عجيبة، تصبح حركته لطيفة لأنه نجح، النجاح مُسْعِدٌ، فهذا الوجه الذي نجا من عذاب النار واستحق دخول الجنان تجده ناضراً.

تألق وجه المؤمن يوم القيامة:

والله مرة دُعيت إلى افتتاح مسجد، إن الذي عمّر المسجد يقف ليستقبل الضيوف وودعهم واحداً واحداً، لم أنظر إلى وجه متألق كوجهه لأنه عملَ عملاً عظيماً (بنى مسجد بأكمله) وهو يستقبل الضيوف بتألق، وهو يودعهم في تألق، العمل الطيب يجعلك متألقاً، الوجه يصبح جميلاً.

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (23))

سواد وجه الكافر يوم القيامة من الخزي:

تنظر إليه، والعياذ بالله:

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

أي كالحة، سوداء.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

كالحة، سوداء، مغبرة من عملها، من انحرفها.

العمل الصالح و السيئ بيد الإنسان:

((تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

(سورة القيامة)

الآن إذا شخص ارتكب جريمة كبيرة وألقي القبض عليه، أحياناً يصوروه ترى وجهه كالحاً، غاضباً، وعينه في الأرض، يودع في السجن، يا ترى هل سيعدموني؟ يا ترى سجن مؤبد؟ يا ترى عشرين سنة؟ يا ترى هل يوجد عفو؟

((تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

أي إنه أمر عظيم، داهية.

((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25))

كل هؤلاء الناس على اختلاف مشاربهم، وانتماءاتهم، ومللهم، ونحلهم، وأعراقهم، وأجناسهم، وألوانهم، وقبائلهم، وعشائريهم، وأسرهم، وقومياتهم، هم في النهاية وجهان: وجهٌ نضر ينظر إلى الله عز وجل ووجهٌ باسر يظن أنها النهاية أو أن يفعل بها فاقر، وجوهٌ مبيضة من عملها الطيب، ووجوهٌ مسودة من عملها الخسيس، والأمر بيد الإنسان، الطاعة بيدك، والمعصية بيدك، العمل الصالح بيدك، والعمل السيئ بيدك، وأنت مخير.

((فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

((وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة القيامة 075 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 26-40 بطولية الإنسان أن يلقي ربه و هو عنه راض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-04-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع والأخير من سورة القيامة، ومع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَتَظَنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

(سورة القيامة)

النفس في حالة النزاع الأخير:

من التي بلغت التراقي ؟ النفس (هذا في حالة النزاع)، في حالة مفارقة الدنيا، وما من واحد منا جميعاً إلا وسيمر بهذه اللحظة، لحظة مفارقة الدنيا.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

(سورة القيامة)

أيها الأخوة: الإنسان وهو في زحمة العمل، وهو في صحته، وهو في شبابه، وهو في تألقه منغمس في همومه، وفي أهدافه وفي ما هو فيه، أما حينما يشعر أنه لا بد من أن يغادر الدنيا عندئذ يعيش في حالة خاصة.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

(سورة القيامة)

مَنْ رَاقٍ: آية لها عدة معان:

1- من يشفي الإنسان وقد شارف على الموت:

الإنسان مُضْجِع على سرير الموت حوله أولاده، حوله أخوته، حوله زوجته، أخواته كلهم متلهفون لمصيره هل يعيش أم يموت ؟ هل يبقى أم يغادر ؟

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يرقى له ؟ أي من يشفيه ؟ أو من يشفي هذا الإنسان وقد شارف على الموت ؟ إمّا المعنى الأول من يشفيه ؟ يبحثون عن طبيبٍ يشفيه، أو يستئثسون من طبيبٍ يشفيه.

(مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفيه ؟ من يشفي هذا المريض الذي على وشك الموت ؟

2 - من يرقى به إلى السماء:

أو من يرقى به إلى السماء ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ الإعداد لهذه الساعة التي لا بدّ منها عين العقل، لأن هذه الساعة آتية لا ريب فيها، لأن هذه الساعة مصير كل حي: كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت:

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامت ه يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

تفاوت الناس في الاستعداد للموت:

أيها الأخوة: هل يستطيع واحدٌ من بني البشر أن ينكر حدث الموت ؟ الأنبياء ماتوا، الملوك ماتوا، الجبابرة ماتوا، عظماء العالم ماتوا، أغنياء العالم ماتوا ؟ أقوياء العالم ماتوا ؟ الأصحاء ماتوا، المرضى ماتوا، أصحاب الشكل الوسيم ماتوا، أصحاب الشكل الدميم ماتوا، الموت مصير كل حي. إذاً لا يستطيع أحدٌ أن ينكر حدث الموت لكن الناس بماذا يتفانون إذا ؟ في الاستعداد له، لا تتفاوت في إنكار الموت أو عدم إنكاره، لأن الموت أقوى حقيقة مستقبلية، أي أن ما من حدث أشد واقعية في مستقبلنا من مغادرة الدنيا، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا.

الشخص منا قد يحضر في الأسبوع تعزية أو تعزيتان، والسنة خمسين أسبوعاً، خلال أربعين سنة (40×25) ألف تعزية حضرها. فلا بدّ من تعزية يُعزّي الناس به، لا بدّ من تعزية الذي كان يُعزّي الناس هو موضوع التعزية هذه لا بدّ منها، في النهار الإنسان يخرج من بيته مرة أو مرتين أو ثلاثة، ثم يعود إليه مرة مرتين ثلاثة، المعدّل ثلاث مرّات خروج وعودة، لا بدّ من مرة يخرج ولا يعود، الإنسان يخرج ماشياً على رجليه منتصب القامة لا بدّ من خروج بشكل أفقي، بيت فخم، صغير، كبير، أجرة،

ملك، واسع جداً، ضيق جداً، بأرقى أحياء دمشق، بأشد أحياء دمشق تواضعاً، لا بدّ من مغادرة هذا المنزل، أين يُغسّل؟ هل في المستشفى؟ أم في البيت في المطبخ؟ في البهو، في الحمام؟ لا بدّ من أن يُغسّل، صل قبل أن يصلّى عليك، هكذا قرأت كلمة في بعض البلاد.

كيفية الاستعداد للموت:

1- الاستقامة على أمر الله:

أريد من هذه الآيات حدث الموت لا أحد يستطيع أن ينكره إطلاقاً، نتفاوت في الاستعداد للموت، أول بند في الاستعداد للموت الاستقامة على أمر الله، طاعة الله عزّ وجلّ.

2 - طلب العلم:

ثاني بند: طلب العلم.

3 - الإحسان للخلق:

ثالث بند: الإحسان للخلق، فنتفاوت في معرفتنا لله، ومعرفتنا لمنهجه، وطاعتنا له، والإحسان إلى الخلق.

صورة الإنسان على فراش الموت:

الله عزّ وجلّ أعطانا صورة، صورة الإنسان وهو على فراش الموت.

((كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفيه أين الطبيب؟ اتصلوا بالطبيب، بالمستشفى، أو ماذا يفعل الطبيب مع هذه الحالة الميؤوس منها؟ معنى ثان، أو من يرقى به إلى السماء؟ هل ترقى به ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

دفع الإنسان وهم الموت عند تعلقه بالحياة:

((وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28))

(سورة الإنسان)

ظنّ هنا بمعنى أيقن، الإنسان لتعلقه بالحياة يدفع عن مُخَيَّلَتِهِ وَهَمَ الموت، الصحة طيبة، عرضية، لها علاج، تُعالج، الطبيب وعد بالشفاء، الطبيب قال: في دواء، الإنسان أحياناً يدافع عن نفسه يردد الحقيقة المرة، لكن أحياناً المريض يدرك أن مرضه عضالاً ولا شفاء له وأنه على وشك مغادرة الدنيا.

فرح المؤمن عند ملاقة ربه:

إخوانا الكرام: ورد في بعض الأحاديث أن:

((تحفة المؤمن الموت))

(أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر)

فالموت (موت المؤمن) فكل جهوده في الدنيا، وكل نشاطه في الدنيا، وكل استقامته، وكل عباداته، وكل بذله، وكل تضحيته، وكل أعماله الصالحة، الآن سيقطف ثمارها، لذلك المؤمن الموت عنده تحفة. والله أيها الأخوة قد قرأت أكثر من ترجمة سبعين أو ثمانين صحابياً، الذي لفت النظر في كل هذه المطالعات أن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند مغادرة الدنيا، صدق رسول الله:

((تحفة المؤمن الموت))

((لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ))

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة)

واكربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

لكرامة المؤمن عند ربه يلقي في روعه أن أجله حان:

المؤمن لكرامته عند الله يلقي الله في روعه أن أجل اقترب، فهو مستبشر، قد يأتيه ملك الموت، بأحب الناس إليه.

يروى عن أحد الصالحين وحوله أولاده وهو على فراش الموت قال لأولاده: قوموا سلّموا على عمكم (عمهم أي أخوه يحبه حباً شديداً لكنه سبقه إلى الآخرة)، يقول لهم: قوموا سلّموا على عمكم، هذا أقرب الناس إلي، هذا المحب، هذا الوفي، هذا المخلص. بمن جاءه ملك الموت ؟ بأحب الناس إليه.

قرأت عن عالم جليل في بعض البلاد الإسلامية أنه كان في السجن ونام فرأى رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال له: أنت غداً ضيفنا، يقول زميله: ما رأيت أحداً أسعد منه، ولا أقرب إلى الله منه، ولا أشد تفاؤلاً منه.

لا أريد أن أخوّف الأخوة الكرام إذا كان عملك طيباً واستقامتك عالية، ومعرفتك بالله عالية، وأنت طلبت العلم وحملت نفسك على طاعة الله، ولك أعمال صالحة من إنفاق للمال، من خدمة المسلمين، من الصدق، من الإخلاص، من الأمانة، الموت عُرس.

تصوّر أن طالباً (مثل افتراضي) أرسل إلى بلد غربي ليأتي بدكتوراه وهو فقير، لكن موعود وعداً قطعياً أنه إذا عاد بهذه الدكتوراه سيغدو في أعلى منصب، وسيسكن أجمل بيت في العاصمة، وسيركب أعلى سيارة، وستقدم له من الميزات ما لا يعدُّ ولا يحصى، صار هناك يشتغل ويدرس ؛ إما حارس أو في المطعم، أو في تنظيف السيارات، عمل شاق، ودراسة شاقّة سبع سنوات، نال الدكتوراه، صدّق الشهادة، اشترى بطاقة طائرة، صار موعد إقلاع الطائرة، وضع في سُلّم الطائرة باتجاه أهله، وباتجاه ما وعد به من منصب رفيع ومن زوجة جميلة، ومن منزل كبير، ومن مركبة فارهة، ثرى هذا السنوات السبع التي قضاها في بلد غربي يعمل أشد الأعمال ويدرس، وانتهى العمل، وانتهت الدراسة، ونال الشهادة وصدّق الشهادة، وحمل معه الوثائق، والآن في طريق العودة إلى أهله إلى أمه وأبيه، إلى أخوته، إلى أخواته، إلى منصبه الرفيع، إلى بيته الفخم، إلى مركبته الفارهة، إلى زوجته الموعود بها، بماذا يشعر ؟ يكاد يرقص سعادةً، يكاد يرقص من السعادة، هذا هو الموت، ما الموت ؟ الموت لحظة العطاء، كنت في زمن الامتحان فدخلت إلى زمن الإكرام، كنت في زمن التكليف فانتقلت إلى زمن التشريف، كنت في زمن العمل والكدح انتقلت إلى زمن المكافأة والجائزة.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْنُورًا (16))

(سورة الفرقان)

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة)

أنا أعرف فرضاً من يقول: أنا ذهبت إلى الحج والعمرة، أنا ذهبت إلى لبنان، هذا إلى تركيا، هذا إلى مصر، كل واحد له مجموعة بلاد زارها، لكن محدودة، أما المسموعات كثيرة جداً، افتح الأخبار تسمع عواصم بأطراف الدنيا، عاصمة الأرجنتين، عاصمة ألا سكا، عاصمة الشمال، عاصمة الجنوب، في شرق آسيا، في شمال أمريكا، في جنوب أمريكا، مسموعاتك كثيرة جداً، أما الخواطر ليس لها حدود،

شيء خاطر لا يوجد له مقياس أساساً، أنا قد يخطر في بالي إنسان طوله من الأرض إلى القمر، هذا خاطر، الحديث يقول:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة)

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

هذه الجنة إلى الأبد، ما معنى الأبد؟ مفهوم صعب إدراكه.

ذكرت مرة أن من الأرض إلى الشمس المسافة مئة وخمسة وستين كيلو متراً، فإذا كل ميليمتر صفر، كل ميلي واحد بالأرض والأصفار إلى الشمس، أي واحد أمامه مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر أصفار بحدود ميلي بين الصفرين، ما هذا الرقم؟ أول ستة أرقام مليون، الستة الثانية مليون مليون (ألف مليار) الستة الثالثة، فإذا للشمس وكل ميلي صفر هذا الرقم ضعه صورة وضع خطأ تحته، وارسم في المخرج إشارة اللانهاية قيمة هذا الرقم صفر، الرقم مهما كان كبيراً إذا نُسب إلى اللانهاية فهو صفر، لو إنسان عاش مليون سنة، بالنسبة إلى الأبد صفر، لو عاش مليار سنة، صفر، ما دام رقم صفر، لأن الرقم محدود واللانهاية غير محدود.

اكتشفوا مجرة، ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، قبل عام ونصف تقريباً أذيعت في محطة أخبار عالمية، ثلاثمئة ألف بليون، البليون ألف مليون، والألف الثانية أي مليون مليون، ثلاثمئة مليون مليون سنة ضوئية، الضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، باليوم ضرب أربعة وعشرين، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، أضرب ثلاثمئة ألف بستين بستين بأربعة وعشرين بثلاثمئة وخمسة وستين يطلع ما يقطعه الضوء في سنة ضوئية، أضربه بثلاثمئة ألف بليون سنة، ما هذا الرقم؟ بالنسبة إلى الأبد صفر، الله عز وجل قال:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23))

(سورة الجن)

إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

والله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا قيمة الأبد لما نمنا الليل، أنت في دار عمل، في دار كسب، في دار رُقي، والأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، الله عز وجل جعل لك في كل مكان عمل صالح، في بيتك يوجد عمل صالح، كونك زوجاً، الزوج المثالي طريق إلى الله، كونك أباً الأبوة المثالية طريق إلى الله،

كونك ابناً البنوة المثالية طريق إلى الله، الزوجة خدمتها لزوجها وعنايتها بأولادها طريق إلى الله، إتقان عملك طريق إلى الله، طلب العلم طريق إلى الله، تلاوة القرآن طريق إلى الله، غض البصر طريق إلى الله، ضبط اللسان طريق إلى الله، تحرير الدخل طريق إلى الله، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، سائل الرقي بين أيديكم جميعاً، ألا تستطيع أن تكون صادقاً لا تكذب أبداً ؟ ألا تستطيع أنت تكون عفيفاً ؟ ألا تستطيع أن تكون ورعاً ؟ ألا تستطيع أن تطلب العلم ؟ أن تحضر مجلس علم ؟ ألا تستطيع أن تقول الحق ؟ بيدك هذا كله، فلذلك أيها الأخوة نحن في دار عمل، لأن ساعة المغادرة صعبة جداً.

(هُؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (21))

(سورة القيامة)

انسحاب الروح من الإنسان شيئاً فشيئاً:

لذلك:

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

(سورة القيامة)

هذه الروح وصلت إلى عظم الترقوة، يقول لك: رجليه بردوا، ازرقوا، النفس ماشية، وتنسحب شيئاً فشيئاً.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26))

بلغت عَظَمَ الترقوة، وصلت الروح إلى هنا، وصار في اضطراب بالأهل، طبعاً إذا كان له سيرة حميدة جداً يتمنى من حوله أن يفدوه بأرواحهم، إذا كان بخيلاً يقولون: خلصنا والحمد لله، هناك إنسان يتمنى الناس حياته، وهناك إنسان يتمنى الناس موته.

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27))

من يشفي هذا المريض ؟ أين الطبيب ؟ اتصلوا بفلان، أو مرض عُضال لا يوجد أمل، من يشفي هذا المرض العُضال ؟ أو من يرقى به إلى السماء ؟.

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28))

عدم صعوبة الموت على المؤمن:

إذا شخص له قريب توفي، يمر القريب بمراحل أمل بالحياة، أحياناً يغلب على ظنه ويوقن أنه انتهى، يقول لك: أنا انتهيت، أعرف رجلاً أنا لم أراه ولكنني سمعت عنه صالح جداً وله أعمال طيبة كثيرة جداً، فإذا كان دخل إنسان يطلب منه مساعدة لأسرة يتيمة، لجمعية خيرية، لبناء مسجد، يقول له: افتح هذا الصندوق وخذ ما تشاء، ولا تعلمني بما أخذت، صار معه مرض بدمه، وصار في اتصال هاتفي بين المستشفى وبين البيت، والاتصال كان ليس له ولكن لابنه، رفع السماعة خطأ فعلم أنه قد بقي من حياته ثلاثة أيام، قال له: ثلاثة أيام أقصى شيء، هكذا سمعت، هذا الرجل أول يوم أنهى علاقاته المالية، في صفقات ألغى بعضها وأتم بعضها، ووكل صديقه بمتابعة الأعمال، وثاني يوم ودّع أهله فرداً فرداً، أولاده، بناته، أصهاره، وثالث يوم اغتسل بنفسه، وله شيخ في الشام صالح، جاء شيخه وقرءوا أمامه ذكر، كما جاء في الهاتف ثالث يوم الساعة الواحدة فارق الحياة، أنا أخذت موعظة من هذه القصة، الإنسان إذا عمله طيباً، ومستقيماً وله عند الله مكانة فالموت ليس صعباً، مرحباً بالموت.

لقاء النبي أعظم شيء عند النبي الكريم:

النبي الكريم خَيْرُ بين أن يكون مخلداً في الحياة الدنيا، بين أن يؤتى زهرة الحياة الدنيا، وبين أن يلقي الله، قال: بل الرفيق الأعلى، ولما قال الله عز وجل:

**(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3))**

(سورة النصر)

قال: هذه السورة تعزية النبي عليه الصلاة والسلام، انتهت رسالته.

**(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3))**

بطولتك أن تضحك عند لقاء ربك:

ذكرت سابقاً الإنسان أحياناً يولد، كل من حوله يضحك من فرحهم، هو يبكي وحده، أما إذا جاءه ملك الموت كل من حوله يبكي، فإذا كان مؤمناً وعرف سرَّ الحياة، وعرف حقيقة حياته الدنيا، وعرف ربه يضحك وحده، أي أن بطولتك أن تضحك وحدك حينما يبكي الناس عليك، أن تضحك وحدك، البطولة أن تكون آخر من يضحك.

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109)

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنين)

الله عز وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، والمؤمن يضحك، يضحك حينما يلقي الله عز وجل، ضحك السرور، ضحك الفرح، ضحك الاستبشار.

الموت راحة للمؤمن:

في بعض الآثار النبوية، أن المؤمن يرى مقامه في الجنة حينما يغادر الدنيا، فيقول: لم أر شراً قط، كل ما ساقه الله له من مصائب يراها محض خير، لم أر شراً قط، فالوجه المشرق للموت، الموت للمؤمن مسعد، الموت راحة، النبي رأى جنازة قال:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ

يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا.....))

(متفق عليه عن أبي قتادة الأنصاري)

انتهى كل شيء أنت مكلف به، انتهى الشيء الذي تراه متعباً.

مثل بسيط لو طالب فرضاً درس عاماً دراسياً بجهد كبير، وسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، وحرَم نفسه كل شيء، فنال أعلى درجة، فساعة إعلان النتائج يأتيه سرور ينسيه كل تعب.

والتفت الساق بالساق: آية لها عدة معان:

1 - اجتماع شدة الحياة و شدة الآخرة على الميت:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفِرَاقِ (28) وَالتَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

(سورة القيامة)

كلمة ساق تعني الشدة، شمرت الحرب عن ساقها، عن شدتها، قال: اجتمع على هذا الميت شدة الحياة الدنيا وشدة الآخرة، في أشخاص يتوهمون إذا شخص متفقت ومرض مرضاً عضالاً، يظنون الآن يموت ويستريح، لا لم يستريح، إلى تعبٍ أشد، من شدةٍ إلى شدة، من شدة الدنيا إلى شدة الآخرة.

(وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

أي اجتمع على هذا الميِّت شدة الدنيا وشدة الآخرة هذا معنى.

2 - ضُم ساقِي الميِّت إلى بعضهما بعضاً وشدهما:

والمعنى الثاني: الميِّت حينما يُغَسَّلُ تُرْبَطُ رجلاه، أنا مرة شاهدت تغسيل ميِّت، فلما انتهى من تغسيله المُغَسِّلُ ولَّقه بالكفن، جاء بقطعة قماش طويلة غمسها في الماء وشدَّ بها رجله (القماش إذا بَلََّ بالماء يتماسك) شدَّ بها رجله شدّاً عنيفاً.

(وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

إما اجتمعت عليه شدة الدنيا مع شدة الآخرة، أو ضُمَّت ساقاه إلى بعضهما بعضاً وشدت، صار لا يوجد مشي الآن انتهى، فلا يستطيع أن يقوم ليمشي يَمَوْه، ينتزّه، يتحرك.

(وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29))

الرجوع إلى الله تعالى بأعمالك كلها:

إلى أين ؟

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30))

(سورة القيامة)

يا ترى الذي أنت ذاهبٌ إليه أطعته ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه نصحت عباده ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه أكلت مال عباده ظلماً ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه أخفت عباده بلا حق ؟ الذي أنت ذاهبٌ إليه كنت عبثاً على عباده أم كنت رحمة لهم ؟ كنت مضلاً أم هادياً ؟ كنت مُحسناً أم مسيئاً ؟ كنت منصفاً أم جاحداً ؟ كنت رفيقاً أم جباراً ؟ هذا الذي أنت ذاهبٌ إليه كل هؤلاء الخلق عباده ماذا فعلت معهم ؟ هل غششتهم ؟ ابتزرت أموالهم ؟ انتهكت أعراضهم ؟ رَوَّعتهم ؟ أخففتهم ؟ إلى أين ؟.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30))

(سورة القيامة)

مسكين.

عدم تصديق الإنسان للدين و إعراضه عنه:

(فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31))

لا صدق بهذا الدين ولم يتصل بالله عز وجل، والدين تصديق وصلاة، التصديق عقيدة، والصلاة عبادة، الدين معرفة وطاعة، لا صدق بهذا الدين ولا اتصل برب العالمين.

((وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32))

(سورة القيامة)

مُشْكِك لا يعتد أن هذا الدين يصلح لهذا الزمان، لا يعتد بأحد صالح، دائماً يظنُّ السوء، يُشْكِك بكل عمل طيب، يُخَس كل عمل طيب، يُكذِّب.

((وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32))

أي تكذيب وإعراض، نشاطه الفكري تكذيب، حالته النفسية إعراض.

الحديث عن الدنيا عمل كل إنسان بعيد عن الله:

تجد شخصاً يجلس معك ثلاث ساعات، الحديث في الدنيا تجده يقطعاً، نشيطاً، متألقاً، عيونه زنبقيات، تتكلم معه عن الله تجده يقول لك: هل تسمح لي ؟ أول كلمة عن الله تجده يتشاءب وينام، بالدنيا عن الأسعار، العملات، البيوت، الأجهزة الإلكترونية، ماذا فيها من مسجديات ؟ تجده صحيان، شاطر، احكي له بالآخرة صار يكذب.

((فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32))

ممكن يمضي ساعات طويلة في شؤون الدنيا ولا يتحمل درساً طويلاً، ولا صلاة طويلة.

((فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32))

شيء مخيف هناك عشرات الناس يموت وهو ليس مصلي، سمعت عن شخص مات في بلد عربي ترك ثلاثة آلاف مليون، ما صلى فرضاً في حياته، وكان ببلد الحرمين ولم يحج ولا اعتمر، مات في الفندق، وفي سن ليس متقدماً بالخمسينات تقريباً.

((فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32))

هناك إنسان يموت وهو يصلح الدش.

((فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ دَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

(سورة القيامة)

الكبر سبب غفلة الإنسان عن مصيره:

الإنسان أحياناً يغفل عن مصيره، يعيش لحظته، صحة طيبة، أكل، بيت جميل، امرأة جميلة أمامه، مكانة، مرتبة، حديثه فيه عجرة، حديثه فيه غطرسة، حديثه فيه كبر، جلسته فيها كبر، إذا جلس في كبر، إذا قاد مركبته فيه كبر، إذا تحدث من طرف أنفه.

(فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

لا يحترم الآخرين، النبي عليه الصلاة والسلام ما رئي ماداً رجليه قط بين أصحابه، متواضعاً، دخل مكة فاتحاً، دخلها مطأطئ الرأس، كادت دُؤابة عمامته تلامس عنق بعبيره تواضعاً لله عز وجل، والله المؤمن جلسته فيها أدب، لو اضطجع في أدب، حديثه في أدب، الله أكرمني، الله فضّل علي، الله سمح لي، الله وقّفتني، يقول لك الآخر: أنا، لحم فلان من خير، خير إن شاء الله، أنا متفضل على فلان، إذا أراد أن يتكلم، لولاي أنا لكنت الكلاب شحطته، كل ذلك كلام فارغ، كلام فيه كبر، أنا أعيل ثمانية أشخاص، الله المعيل أنت معال معهم.

الويل للإنسان المتعجرف مما ينتظره:

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33))

(سورة القيامة)

تمطي بالكبر، حديثه كبر، جلسته كبر، إن حدّث فعن نفسه، عن رحلاته، عن زيارته، عن إنفاقه الشديد، الرحلة كلفته كذا ألف، وهذا العرس كلفه كذا مليون، والعريس ألبس ابنته خاتم بثمانمئة ألف مثلاً، هذا هو حديثه، كبر، وفخر، واختيال على الناس.

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (34) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (35))

(سورة القيامة)

الخطر قريب منك، الخطر على مرأى البصر.

(أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (34))

أي ويلٌ لك مما ينتظرك، لو شخص راكب سيارة ونازل نزلة شديدة، والمكان جميل، والنسيم عليل، ثم اكتشف أنه لا يوجد معه مكبح، وينتهي الطريق بمنعطف حاد، يقول لك: انتهينا.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر)

(أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (34) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (35))

(سورة القيامة)

الآن دققوا:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

هل من الممكن أن تلعب على الناس ؟ تغتصب أموال الناس ؟ تنتهك أعراض الناس ؟ تظلم الناس ؟ تضغط على الناس ؟ تخوف الناس ؟ وما في شيء أبداً، لا يوجد إله يحاسبك ؟ ما في سؤال وجواب أبداً؟ هذا بالأرض مستحيل، جامعة مكلفة ألف مليون ما في امتحان ؟ ما في إنسان يحاسب ؟ الله عز وجل يقول:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

معنى ذلك أنك مؤمن بالعبثية، قوي وضعيف، الله ملك الضعيف للقوي، غني وفقير، الغني يحار في إنفاق الأموال. قال لي أحد الأشخاص زوجته عندها غرفة أربع حيطان من الأرض إلى السقف كلها (كنادر) مكتبة كنادر كلها، مال لا تأكله النيران، هناك حمامات في إسبانيا مساحتها أربعمئة متر، بيت قصر، في حمام، في بيوت ضمن غابات، في مركبات، في سيارات، في طائرات، من دون حساب !!؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

ما في تكليف، ولا في حساب ؟!.

(أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37))

(سورة القيامة)

ألم يكن حوين منوي واحد من بين خمسمئة مليون حوين، حوين واحد ذهب إلى البويضة ولقحها، وخرج من عورة ودخل في عورة وخرج من عورة.

(أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37))

علامَ الكبر ؟ ألم يكن طفلاً ؟ ما كان لا يضبط نفسه ؟ كم فلقة أخذ من أمه ليضبط نفسه وهو صغير ؟

(أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ

وَالْأُنثَى (39))

(سورة القيامة)

وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

أيها الأخوة: آيتان في كتاب الله تتفيان العبيثية، الأولى هذه:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

والآية الثانية:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

الجواب:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

الجواب:

(وَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

الجواب:

(لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

الجواب:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

الجواب:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

الجواب:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّافُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ

وَمَنْ كَفَرَ فَاَمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77 ")

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

عدم استواء المؤمن مع الفاسق يوم القيامة:

في حساب:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

هذا هو الجواب:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ

الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

الخوف من دعوة المظلوم:

أيها الأخوة الكرام: القرآن كله جواب لهذا التساؤل:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(أخرج ابن عساکر عن البراء)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17))

(سورة سبأ)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

تظلمها وتطلقها وتأخذ لها مالها (ليس لها أحد) هكذا ؟ ألا يوجد حساب ؟ الذي خلقها نساها ؟ يوجد ظلم كثير، الظلم يأتي من الجهل، من جهل الظالم، أن هذا المظلوم له رب، لذلك: اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فليس بينه وبين الله حجاب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

صدقوني أيها الأخوة أخ كريم أقسم بالله وهو يركب مركبة في طريق من الطرق، سائق المركبة رأى كلباً صغيراً على طرف الطريق في أيام الشتاء والزفت دافئ والتراب بارد (الزفت لونه أسود يمتص حرارة) جالس هذا الكلب الصغير على طرف الطريق، فاستطاع سائق هذه السيارة أن يقطع رجليه فقط بمهارة عالية جداً، لم يدسه كله، داس يديه فقط، قص يديه، هذا الرجل يقسم بالله العظيم أنه بعد أسبوع في اليوم الذي يشبه هذا اليوم قال لي: كان يوم السبت وقتها، السبت التالي في المكان نفسه، الذي فعل هذا بهذا الكلب تعطلت مركبته فأحد عجلاتها يحتاج إلى تبديل، قال لي: رفع المركبة بالرافعة وسحب البراغي وأمسك بالعجلة ليأخذها من مكانها ليضع مكانها عجلة أخرى، الرافعة تعطلت وقعت السيارة على الدولاب والعجلة على رُسْعِي يديه، فسحقتا، إلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يده فلا بد من قطعها، من السبت إلى السبت، هذا الكلب الصغير الذي يجلس على الطريق أليس له رب؟ له رب، أنا أقول لك على مستوى كلب على مستوى هرة:

((عَذِبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ

أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَيْتَهَا حِينَ حَبَسْتِهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتَهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

(رواه البخاري عن عبد الله بن عمر)

على مستوى هرة، هناك عقاب شديد، فما قولك فيما فوق الهرة؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

لكن الناس لا يعرفون الله عز وجل، يغشون غشاً شديداً ويدفعون الثمن باهظاً.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فُسْوَى

((38))

علقة (دم متجمّد)، ثم صار إنساناً، صار في دماغ، في شعر، عيناں جميلتان، خدّان أسيلان كما يقولون، أسنان بيضاء، لسان طليق، يدان، مفاصل، رُسْع، أصابع، جذع، قلب، رئتين، معدة، أمعاء، كبد، غدد صمّاء، أعصاب عضلات، حركة.

(فَخُلِقَ فُسْوَى (38))

جميل الصورة، فانظر إلى بيت من دون إكساء وهو على الإسمنت لا يحتمل، أما بعد الكسوة ؛ دهان، ورخام، وبلاط، وثريات، وسجاد، فالإنسان من دون جلد مخيف، طبعاً في بناء داخلي عظيم، بعد ذلك في جلد جميل.

(فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39))

انظر إلى الزوجة، بُنيتها، شكلها، طباعها، كمال في وظيفتها، وبنية الرجل، وطباعه، وأجهزته، كمال في وظيفته.

بعث الإنسان يوم القيامة للحساب:

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

بلى، الله عز وجل خلقنا وسيعيد خلقنا.

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم: آية " 27 ")

(لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

العاقل من عرف ما بعد الموت:

لذلك لا تكون عاقلاً، ولا ذكياً، ولا فالحاً، ولا ناجحاً، ولا موفقاً، ولا فائزاً إلا إذا عرفت الله، وعرفت ما كلفك الله به، وعرفت هذا اليوم الذي لا بد من أن تغادر به الدنيا، وعرفت ما بعد الموت، أما أن نعمل للحياة الدنيا، فالقضية سهلة العالم كله يعمل للحياة الدنيا، العالم كله يعمل لهذه السنوات المحدودة، فماذا بعد الموت ؟ أعظم بلاد العالم، أجمل بلاد العالم فيها مقابر، معنى هؤلاء الذين عاشوا في هذه البلاد الجميلة، واستمتعوا بخيراتها، وبأجهزتها، وطائراتها، وسياراتها، وإدارة الأعمال فيها، ماتوا ودفنوا فيها، الموت مصير كل حي، وأتمنى على كل إنسان أن يدخل الموت في حسابه اليومي، كان أحد الصالحين ينام في قبر يتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

يقول لنفسه: قومي لقد أرجعناك. كل إنسان لا بد من أن يغادر، أجمل شيء إذا الإنسان أعد للموت الإعداد الكافي عندما يأتي لا يفاجأ به، مهيب نفسه، وا كربناه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه.

فيا أيها الأخوة: هذا المقطع الأخير من سورة القيامة دقيق جداً.
 (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29)
 إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ
 يَتَمَطَّى (33) أُولَى لَكَ فَأُولَى (34) ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى (35) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ
 يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَيِّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فُسْوَى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى
 ((39))
 (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

(سورة القيامة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-3 الثواب و العقاب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الإنسان:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

معاني الآية:

هل حرف استفهام قد تأتي للتقرير، وقد تأتي للنفي

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

أي لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (هذا استفهام تقريري بمعنى: قد)، وقد تأتي هل بمعنى الإنكار، هل جددت لك حقك؟ لم تجد لي حقي، هل قصرت في واجبي؟ لم تقصر في واجبك، فإما أن تأتي هل استفهام تقريري بمعنى قد، وإما أن تأتي هل استفهام إنكاري بمعنى لا. قال علماء التفسير: هذه بمعنى قد، يعني استفهام تقريري (أي لقد أتى) كل شخص له عمر من الأخوة الكرام الحاضرين، لو رجعت إلى الوراء إلى أكثر من تاريخ ميلادك، إنسان ولد بالثلاثينات، بالأربعينات، بالخمسينات، ارجع عشر سنوات إلى ما قبل تاريخ ميلادك، هل كان لك وجود؟ هل كان لك ذكر؟ هل أحد يعرفك؟ هل أحد يفكر فيك؟ أنت مخلوق حادث، لم تكن من قبل، لم يكن لك وجود، لم يكن لك ذكر، لم يكن لك اسم، لم يكن لك خطر، لا أحد يعرفك، ولا أحد يذكرك، ولا أحد يعلم بوجودك، لم تكن بالأساس، فالمخلوق حادث، فالذي خلقك ولم تكن من قبل شيئاً، هل هو لا يقدر على أن يعيد خلقك مرة ثانية؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

1 - نعمة الإيجاد:

أحياناً إنسان يتصفح كتاب، يفتح صفحته الأخيرة أو الأولى فيرى أنه قد طبع سنة كذا، إذا كان هذا العام يسبق ميلاده في أثناء صف أحرف هذا الكتاب، في أثناء طبعه أين كنت أنت ؟ الله عز وجل تفضل عليك بنعمة الإيجاد، هذه من أعظم النعم، هذه من أجل النعم أوجدك
(لم يكن شيئاً مذكوراً)

لماذا أوجدك ؟ أوجدك ليسعدك، أوجدك ليرحمك، أوجدك لجنة عرضها السماوات والأرض.
(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119))

(سورة هود)

هذه آية قطعية الدلالة، كل بني البشر خلقوا ليرحمهم الله عز وجل في الدنيا و الآخرة، وما المصائب التي تحل بالبشر إلا لأنهم خالفوا منهج الله عز وجل.

الإنسان هو المخلوق الأول:

الإنسان مخلوق متميز، الإنسان مخلوق أول والدليل:
(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

(سورة الأحزاب)

أنت في رأس قائمة المخلوقات، لأن الأمانة عرضت على السماوات والأرض أبين أن يحملنها، أشفقن منها، وحملتها أنت، وقلت أنا لها، أنا لها، فلما قبلت حمل الأمانة سخرت لك السماوات والأرض.

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّثْلَ هَذَا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13))

(سورة الجاثية)

أيهم أكرم على الله المسخر أم المسخر له ؟ المسخر أقل من المسخر له، الكون كله مسخر لك لأنك قبلت حمل الأمانة.

ما الأمانة التي قبل الإنسان حملها:

ما الأمانة ؟ نفسك التي بين جنبيك، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

الأمانة أن تأتي إلى الدنيا، وأن تزكي نفسك لتكون مؤهلة لجنة الله عز وجل، أصل الخلق للجنة، لدار النعيم، لدار القرار، لدار الخلد، لدار التكريم، لدار التشريف، لدار لهم ما يشاءون فيها، لدار قطوفها دانية، لدار جنات تجري من تحتها الأنهار، لدار وحوار عين مخلوق للجنة، لا تعب، ولا نصب، ولا برد، ولا حر، ولا مرض، ولا قهر، ولا فقر، ولا خوف.

((قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ،

فَأَقْرَعُوا إِنِ شِئْتُمْ

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

ثمن الجنة:

هذه الجنة الأبدية، ثمنها أن تأتي إلى دنيا محدودة، سنوات معدودة، أيام وليالي، وتطيع الله فيها (الطاعة محدودة، والعطاء لا نهاية)، تطيعه في سنوات محدودة، وتستحق جنة الله اللامحدودة، ما حرمك من شيء، ولكن نظم لك الشهوات، حينما قبلت حمل الأمانة

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

حمل الأمانة أن تزكي نفسك، أن تؤهلها للجنة، كيف ؟

مقومات التكليف:

1 - الكون:

بادئ ذي بدء أن تعرفها بالله، فالكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى، الكون كله تعبير عن عظمة الله عز وجل، فقد قال تعالى:

(قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101))

(سورة يونس)

1 - خلق الله:

خلق الله يدلك عليه، خلق الله يدلك على أن لهذا الكون إله موجود واحد، كامل، يمكن أن تجمع كلمات الله الحسنى بكلمات ثلاث إله عظيم، موجود، واحد، كامل، الكون أحد مقومات السفينة، لأنه ينطق بوجود الله.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

2 - ما حولك من أشياء:

طعامك وشرابك، نفسك التي بين جنبيك، جسمك، ما حولك من أنهار، من أمطار، من جبال، من سهول، من وديان، من بحار، من بحيرات، طعامك، أنواع النباتات، أنواع الحيوانات، أنواع الأطيوار، أنواع الأسماك، أنواع الكواكب، المجرات، الليل، النهار، الشمس، القمر، كل ما حولك، ينطق بوجود الله، ينطق بوحداية الله، ينطق بكمال الله.

3 - العقل:

حينما قبلت حمل الأمانة سخر الله لك السماوات والأرض، وجعل السماوات والأرض تنطق بوجوده، ووحدايته، وكماله.

ما قيمة السماوات والأرض من دون جهاز إدراكي ؟ أودع فيك قوة إدراكية هي العقل، كرمك بالعقل، وكل إنجاز حضاري، تدهش منه، يأخذ بلبك، إنما هو ثمرة متواضعة من ثمرات العقل، لكن الإنسان الذي شرد عن الله عز وجل يستخدم عقله لغير ما خلق له، يستخدمه للدنيا، العقل خلق في هذا الإنسان ليكون أداة معرفة الله.

مبادئ العقل:

مبادئ العقل تتناسب مع مبادئ الكون و هي:

1 - مبدأ السببية:

العقل في مبدأ السببية لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا سبب.

2 - مبدأ الغائية:

أي عقل لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا غاية.

3 - مبدأ عدم التناقض:

العقل لا يقبل التناقض.

هذه مبادئ العقل الثلاثة، وهذه المبادئ الثلاثة هي هيكل الكون الأساسي، نظام السببية، نظام الغائية، نظام عدم التناقض، فإذا أعملت عقلك في الكون، هداك بلطف إلى وجود الله، كل شيء له سبب، من سبب وجود هذا الكون ؟ الله جل جلاله، كل شيء له غاية، لماذا خلقنا ؟ سخر لك الكون، منحك العقل.

3 - الفطرة:

ثم أعطاك فطرة ؛ هذه الفطرة نفس مبرمجة على الخير، مبرمجة على الطاعة، جبلتها أن تعرف الله، وأن تطيعه، وأن تركز إليه وأن تحتفي به، وأن تلجأ إليه، فكل نفس خرجت عن فطرتها تعذبت سمي هذا العذاب كأبي، سمي هذا العذاب تأنيب ضمير، سمي هذا العذاب شعور بالنقص، سمي هذا العذاب شعوراً بالذنب، مسميات أسماء لمسمى واحد، الفطرة أحد مقومات التكليف أعطاك كوناً، وأعطاك عقلاً، وأعطاك فطرة.

4 - الشهوة:

ثم أعطاك شهوة، هي المحرك إلى الله، لولا الشهوات لما ارتقينا إلى رب الأرض والسموات، يوجد ميول و يوجد غرائز و يوجد شهوات، بعضها مسموح به، بعضها محرم، عملية ضبط هذه الأهواء وفق منهج الله.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: 50)

المعنى المخالف: لو أنك أتبعْتَ هُداكَ وفق هُدى الله لا شيء عليك، أودع فيكَ الشهوات لترقى بها، تارة صابراً، وتارة شاكراً إلى الله عز وجل، لولا الشهوات لما كان هناك جنات، لولا الشهوات لما كان هناك قربات، لولا الشهوات لما كان هناك درجات عند الله، بقدر ما أودع فيكَ الشهوات، بقدر ما ترقى عند الله، أعطاك الكون، أعطاك العقل أعطاك الفطرة، أعطاك الشهوة.

5 - حرية الاختيار:

ثم منحك الله حرية الاختيار ليثمن عملك، فلو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، فالله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل الكثير، فأنت مخير، وعاقِل، وذو فطرة عالية، و أودعت فيكَ الشهوات، قال تعالى:

(زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ (14))

(سورة آل عمران)

6 - الشرع:

ثم فوق كل ذلك أعطاك ميزاناً علمياً (العقل)، و أعطاك ميزاناً نفسياً (الفطرة)، و أعطاك ميزاناً مركزياً لا يخطئ (هو الشرع)، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، أعرض ميزان عقلك على الشرع، أو أعرض ميزان عاطفتك على الشرع، فإن توافقا فهو الحق والصواب، وإن اختلفا كن مع الشرع ولا تكن مع العقل، لأن العقل قد يضل، ولأن العقل كالعين لا معنى له من دون وحي يهتدي به، كما أن العين لا معنى لها من دون نور تهتدي به.

7 - القوة:

ثم أعطاك قوة من أجل أن تحقق اختيارك فيما يبذو، أعطاك قوة تتحرك، تصلي، تذهب إلى مجلس علم، تتكلم، تتصرف، قوة، واختيار، وشهوة، وعقل، وفطرة، وكون، وشرع، هذه مقومات التكليف هذه مقومات التكليف.

لذلك:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

الحدث الخطير في حياة الإنسان:

أيها الأخوة: الحياة رحلة، لها بداية ولها نهاية، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، كل واحد من أخوتنا الحاضرين له عمر، كيف مضت الأربعون عاماً؟ الثلاثون عاماً؟ العشرون عاماً؟ الخمسون عاماً؟ الستون عاماً؟ ويمضي ما تبقى، وفجأة ترى نفسك أمام حدث خطير، حدث مغادرة الدنيا.

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ (2))

(سورة الملك)

بدأ بالموت لأن الحياة أمامك آلاف الاختيارات، أما الموت لا بد من سلوك أحد الطريقين طريق إلى الجنة أو طريق إلى النار،

((فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

الخيار صعب جداً، أنت في الحياة في بحبوحة و اتساع، هناك آلاف الحرف، هناك إنسان غني وفقير وبينهما آلاف المراتب، هناك إنسان عالم وجاهل وبينهما آلاف المراتب، هناك إنسان قوي وضعيف وبينهما آلاف المراتب، خيارات واسعة جداً، أما عند الموت إما إلى جنة أبدية يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها، لا يوجد خيار طريقان لا ثالث لهما، مصيران لا ثالث لهما، نتيجتان لا ثالث لهما جنة أو نار.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران)

نعم الجنة:

1 - فيها ما تلذ الأعين و تشتهي الأنفس:

قال تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31))

(سورة النحل)

2 - النظر إلى وجه الله الكريم:

قال تعالى:

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

3 - أن تتل رضاوان الله و محبته:

وفوق هذا وذاك:

**(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72))**

(سورة التوبة)

في مكان، وجمال، ونبات، وهور عين، و ولدان مخلدون هي الجنة الحسية، و يوجد جنة أرقى منها أن تنظر إلى وجه الله الكريم، و جنة أرقى من هذه وتلك أن يشعرك الله أنه يحبك، وهو راض عنك، وهذا أتمن شيء يصل الإنسان إليه من دون استثناء، أن تصل إلى رضاوان الله، إلى أن يرضى الله عنك، إلى أن يقربك.

عذاب النار:

1 - شدة العذاب في النار:

النار والعياذ بالله، حدث ولا حرج.

**(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56))**

(سورة النساء)

2 - البقاء و الخلود فيها:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِتُونَ (77))

(سورة الزخرف)

3 - تمنى الموت:

(وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَهُ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ (29) خُدُوهُ فَعُلُوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

(سورة الحاقة)

معاني لم يكن شيئاً مذكوراً:

1 - في وقت من الأوقات ليس للإنسان أي وجود:

أيها الأخوة الكرام:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

كل واحد منا له تاريخ ميلاد، وقبل هذا التاريخ لك يكن شيئاً مذكوراً، لا أحد يعرفه، لا أحد يذكره، ليس له وجود، ليس له ذكر، ليس له اسم، ليس له هوية، ليس له اسم بالجدول، أنت موظف لك اسم بالجدول، لك اسم بدائرة النفوس، يوجد معك هوية، أي لا يوجد إنسان ليس له هوية، أما في وقت من الأوقات ليس لك وجود إطلاقاً، هذا معنى.

2 - نسيان من سهل له الخروج من بطن أمه بعد أن كان شيئاً منسياً:

يوجد معنى آخر: المعنى الآخر:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ)

لما كنت صغيراً، طفل يرضع من ثدي أمه، طفل توضع له الفوط، طفل لا يفقه شيئاً، لا يعلم شيئاً، ضعيف التفكير، ساذج، فطري، بعد ذلك أصبح ذا شأن كبير، معه شهادة علمية عالية جداً، أو له حجم مالي كبير جداً، أو يحتل مركزاً مرموقاً جداً، نسي أنه قد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، عظماء العالم كانوا أطفالاً، وحينما كانوا أطفالاً لا أحد يعبأ بهم، عظماء العالم كلهم، كانوا أطفالاً، فحينما كانوا أطفالاً كانوا بحاجة ماسة إلى ثدي أمهم، إلى من تنظفهم، إلى أب يرعاهم، إلى أب يأتيهم بالطعام ليأكلوا، إلى طبيب يعالجه، إلى رعاية مكثفة من أمهم أو أبيهم، فلما أصبح إنساناً كبيراً، إنساناً

ذا خطر، إنساناً ذا مكانة، ذا حجم مالي كبير، نسي طفولته، ونسي أصله، وتغطرس على عباد الله، نسي أصله وطفولته، واستعلى على عباد الله.

نسي أصله وطفولته وبنى مجده على أنقاض الناس، أو بنى غناه على إفقارهم، أو بنى حياته على موتهم، نسي الذي خلقه، نسي الذي صورته في بطن أمه، نسي الذي سهل له السبيل (الخروج) من بطن أمه.

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (20))

(سورة عيس)

منعكس المص عند الإنسان:

نسي الذي هداه الثديين، نسي الذي أعطاه منعكس المص، لولا منعكس المص لما كنا في هذا المسجد، لما رأيتكم واحداً على وجه الأرض منعكس المص، الطفل بمجرد أن يولد من دون تعليم، من دون توجيه، من دون أن يخضع لدورة، من دون أن يقرأ كتاباً، يضع شفتيه على ثدي أمه، ويحكم إغلاقهما ويسحب الهواء، عملية معقدة، لو أن هذا المنعكس لم يكن مع هذا الصغر، وأراد الأب من ابنه الذي يولد لتوه أن يعلمه كيف يمص ثدي أمه، تفضل علمه، اعمل له دورة، قل له باللغة العربية يا بني ضع شفتيك على ثدي أمك وأحكم إغلاقهما ثم اسحب الهواء، من أجل أن تعيش، لولا هذا المنعكس الذي أودعه الله فينا لما رأيتكم على وجه الأرض إنساناً.

بعد ما كبر صار شخصية مرموقة حجمه المالي ثلاثمائة مليون، يحتل منصباً رفيعاً جداً، يحمل أعلى شهادة، نسي الله، ونسي أنه من نطفة، ونسي أنه كان صغيراً، ونسي أنه يرضع من ثدي أمه، ونسي كيف كان يملأ الفراش صباحاً، هذا كله نسيه ونظر إلى معطفه، وإلى مركبته، وإلى ما على كتفيه، أو إلى منصبه الرفيع، أو إلى حجمه المالي، أو إلى مكتبته التجاري، أو إلى صفوته، أو إلى جماعته، أو إلى أتباعه:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

الإمام الشافعي يقول كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي.

آيات الله في الإنسان:

أحد الخلفاء الكبار الذي كان إذا نظر إلى سحابة يقول لها: اذهبي أينما شئت يأتيني فرجك، سأل مرة وزيره، أو سأله وزيره يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع عنك ؟ قال بنصف

ملكي، قال: فإذا منع إخراجِه ؟ قال بنصف ملكي الآخر، كل ملكه لا يساوي كأس ماء، وأجهزكم الدقيقة في أجسامكم آية من آيات الله.

أهمية الهرمونات في جسم الإنسان:

لو تعطل جهاز، لو اختل هرمون واحد (الغدة الدرقية تفرز اثنا عشر هرموناً) الهرمون الواحد لو تعطل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، من هذه الهرمونات:

1 - هرمون النمو:

لولا هذا الهرمون لكان الناس أقزاماً.

2 - هرمون الجنس:

فلولا لما كان هناك رجل وامرأة، الغدة النخامية ملكة الغدد.

3 - هرمون توازن السوائل:

لولا هذا الهرمون لأمضيت الوقت كله في شرب الماء وطرحه، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، قد يشرب الإنسان خمسة براميل ماء ويطرحهما هي وظيفته، شرب وطرح لولا هذا الهرمون الذي لا يرى بالعين. والغدة النخامية تفرز اثنا عشر هرموناً ووزنها نصف غرام، وهي ملكة الغدد.

4 - هرمون الاستقلاب:

من هذه الهرمونات هرمون الاستقلاب، هي التي تأمر الغدة الدرقية بالعمل (الدرقية خطيرة جداً) تحول الغذاء إلى طاقة، هذا الاستقلاب تحويل الغذاء إلى طاقة، لو تعطل هذا الهرمون لرأيت الناس كسالى أوزانهم تزيد، ونشاطهم يقل، لو أفرزت زيادة عن المعقول لا تنام الليل يوجد نشاط ليس له حدود.

فبالتوازن الدقيق بين هرمون الدرقية الذي يثبت النخامية، وهرمون النخامية الذي يثبت الدرقية يتمتع الإنسان بالحياة المنعشة، ينام، يتحرك، يأكل، يزداد الوزن، أو يقل الوزن، فالإنسان حينما ينسى أن

أصل من نطفة خرجت من عورة ودخلت إلى عورة وخرجت من عورة، وكان صغيراً لا يضبط نفسه، ولا ينطق، ولا يتكلم، ولا يمشي، شيئاً فشيئاً صار شخصاً.

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً:

ليس له أي قيمة، الآن عظماء الناس لهم احترام كبير، لهم طقوس كبيرة جداً، إذا ذهبوا إلى مكان تطلق لهم المدافع، يحيون بسلم من حرس الشرف، وتتشد الأناشيد، هؤلاء كانوا صغاراً، إذا شخص أعطاه الله شيئاً، أعطاه منصباً رفيعاً، أعطاه علماً، أعطاه طلاقه لسان، أعطاه مالاً، أعطاه زوجة، أعطاه أولاداً، أعطاه خبرة تجارية، أعطاه اختصاصاً معيناً، أعطاه ذكاء، أعطاه طلاقه لسان لا ينسى أصله، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1))

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2))

المورثات و عملها:

نطفة، ما هي النطفة ؟ حوين، الرجل يفرز باللقاء الزوجي خمسمائة مليون حوين، تحتاج البويضة إلى حوين واحد، هذا الحوين له غلاف، له هيلولة، لو نواة، على النواة مورثات، الآن شغل العالم الشاغل الهندسة الوراثية، كم مورث ؟ وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ، سمعت أرقاماً كثيرة، سمعت رقم خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، على النوية التي في الحوين المنوي، وسمعت مليون وسمعت مائة ألف، إلى أن الشيء الثابت إلى الآن اكتشف ثمانمئة مورث.

أية صفة ثانوية في الجسم يقابلها مورث، مورث الكولسترول، مورث الاستقلاب، مورث اللون، مورث الشعر، يعني الإنسان مبرمج برمجة دقيقة، فمورثات البويضة مع مورثات الحوين المنوي يجتمعان ويختلطان ويشكل الجنين من أقوى المورثين، وهذا من نعمة الله الكبرى، يعني الحوين فيه نقطة ضعف بالاستقلاب، مورث الاستقلاب في الأنثى قوي، القوي يغلب الضعيف، فيأتي الجنين بصفات أحد الأبوين، أما في الاستنساخ الشيء لا يكون، لا يوجد بالاستنساخ

(مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)

في طقم واحد، فالخطأ يتكرر.

يزعمون أنهم صنعوا إنساناً عن طريق الاستنساخ، مئات المحاولات سبقتها، ومئات الحالات الشاذة والمنحرفة ظهرت معهم، أما حينما وصلوا إلى شكل مقبول هو الذي ذكروه، فكلمة
(مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ)

هذه تنفي الاستنساخ، لأنه في ذكر وفي

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2))

جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، أعطاك الله سمعاً، بإمكانك أن تسمع الحق.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

أعطاك العين لترى بها آيات الله عز وجل.

وأعطاك الأذن لتسمع بها، كلام الله عز وجل.

أعطاك سمعاً وبصراً من أجل أن يبتليك بهما، إن السمع والبصر، وإذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر فهو العقل.

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36))

(سورة الإسراء)

محاسبة الله تعالى للإنسان:

إن هذا الذي يستخدم الحواس لمعصية الله، يستخدمها في المعاصي والآثام، لا في الطاعات والقربات، ينظر إلى عورات المسلمين لا إلى آلاء الله عز وجل، يستمع إلى ما فحش من الكلام، وإلى الغناء لا إلى آيات الله تتلى عليه

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2))

لأن الله جعلك بصيراً سيحاسبك.

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ

((106))

(سورة المؤمنون)

بل إن الله سبحانه وتعالى يسمع الحق.

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51))

(سورة القصص)

الله عز وجل قال:

(إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

على إذا جاءت مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، الله عز وجل ألزم نفسه بالهدى، قضية الهدى على الله.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23))

(سورة الأنفال)

لو في الإنسان ذرة خير لأسمعه الله الحق.

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَانِبٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9))

(سورة النحل)

وعلى الله بيان سبيل القصد إليه، السبيل الموصل إلى الله على الله بيان السبيل

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

العلماء قالوا: وعلى الله بيان سبيل القصد إلى الله.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

الإنسان مخير بمعرفة الحقيقة:

ولكن الإنسان مخير، مخير بمعنى أنه إذا أراد الحقيقة اتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة، أي شيء يدل على الحقيقة، الأقدام تدل على المسير، لا يحتاج إلى حاسوب، ولا إلى مجهر، ولا مرصد، ولا إلى مخبر، ولا إلى كتب، ولا إلى ترجمات، الأقدام تدل على المسير، والماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدلاني على الحكيم الخبير ؟

البحث عن الحقيقة:

إن اتخذ الإنسان قراراً بالبحث عن الحقيقة، أي شيء يدل على الله، كأس الماء عينه سمعه، لسانه، قلبه، جسمه، عظامه، عضلاته، طعامه رغيف الخبز أمامه، كأس الحليب أمامه، الدجاجة، البقرة، الفواكه النباتات الشمس، القمر، إن أردت الحقيقة كل شيء يدل على الله، وإن لم ترد الحقيقة، قد تحمل أعلى شهادة بالطب، وقد تحمل أعلى شهادة في الكيمياء والفيزياء، وقد ترى من أسرار الكون ما لا يراه

معظم الناس، وترى من أسرار البحار ما لا يراه معظم الناس، وترى من أسرار النبات ما لا يراه معظم الناس، ومع ذلك لا تعرف الله ولا تطيعه، لأنك ما أردت الحقيقة.

مثلاً: انتِ بأرخص آلة تصوير بسيطة جداً، لا تغير فتحة، ولا تغير سرعة، ولا تقرب ولا إبعاد، أبسط آلة، أرخص آلة، علبة فيها عدسة، هذه الآلة مع الفيلم تعطيك صورة، وانتِ بأرقي آلة تصوير ثمنها ثمانمئة ألف، بلا فيلم لا تعطيك شيئاً، فإذا كان الإنسان ذكياً جداً معه شهادات عالية جداً، وأتيح له أن يرى أسرار الكون، ولم يطلب الحقيقة لا يرى شيئاً، وإنسان بثقافة متواضعة جداً، بمعلومات أولية، بأشياء بسيطة، إن أراد الحقيقة يصل إليها، ولا تنسوا مثل آلة التصوير أرخص آلة مع فيلم تعطي صورة، وأعلى آلة بلا فيلم لا تعطي شيئاً لذلك:

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44))

(سورة العنكبوت)

إن أردتم الإيمان.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2))

(سورة البقرة)

إن أردت التقوى هذا الكتاب يهديك.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21))

(سورة الأحزاب)

معنى الهدى:

قضية الهدى قضية دقيقة جداً، لخصتها في هذا الكلام: إن أردت الهدى كل شيء يدلك عليه، ولا بد من أن تصل إليه، وزوال الكون أهون على الله من ألا تصل إليه، إن أردت الهدى أردت الحقيقة، والحقيقة واحدة، الحقيقة لا تتعدد، والحق لا يتعدد، إن أردت الحقيقة أنت وأردتها أنا لا بد من أن تلنقي بها.

الخصومات بين الناس:

كل أنواع الخصومات، كل أنواع التفرقة بين البشر بسبب أنهم ما أرادوا الحقيقة أرادوا المصلحة، أرادوا الدنيا، الدنيا تفرق، والحقيقة تجمع، لو أنهم أرادوا الحقيقة لاجتمعوا، وتوحدوا، وتكاتفوا، وتعاونوا، وتناصروا وتضامنوا، وقهروا أعداءهم، أما لأنهم أرادوا الدنيا، الدنيا فرقتهم وجعلتهم شيعاً وأحزاباً، وجعلتهم ممزقين.

(وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

الحق يجمع والباطل يفرق، الباطل مكاسب مادية، والمكاسب المادية لا يمكن أن تتوزع بالتساوي، كل يريد لها كلها له، تنشأ الخصومات، أما الحق قيم، مبادئ، هذه توزع بالتساوي على الناس أجمعين، لا تتباعد كثيراً، اجلس مع أصدقائك في سهرة، حدثهم عن الدنيا، النفوس تضطرب، هذا حدثنا عن رحلته، وكم أنفق على هذه الرحلة، يوجد شخص فقير بين الحاضرين يشعر بالحق، هذا تحدث عن منجزاته أوتي حظاً عالياً، كان له منجزات، هذا ما عنده منجزات، لو أنك تحدثت عن الله عز وجل لاجتمعت القلوب، فالحق يجمع والدنيا تفرق، الحق يؤلف والدنيا لا تؤلف، قال تعالى:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2))

طريق الهداية:

الآن:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

أي دللناه على أول الطريق

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ)

و على الله الهدى

(إِن عَلَيْنَا لِلْهُدَى (12))

الله عز وجل تكفل بذاته العلية أن يبين لنا السبيل

(إِنَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

فالإنسان مخير، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً بالقدرة، الإنسان مخير.

جاء رجل شارب خمر لسيدنا عمر قال أقيموا عليه الحد، قال: وَاللَّهِ إِنْ أَمَرَ اللَّهُ قَدْرَ ذَلِكَ ؟ قال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأن افترى على الله، قال: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، والذي يعتد بالجبر يعتد باعتقاد فاسداً باطلاً لا أصل له:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ)

هو

(إِنَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ((148))

(سورة البقرة)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ((148))

(سورة الأنعام)

الآيات المحكمات و الآيات المتشابهات:

قال علماء التفسير: هذه الآية أصل في اختيار الإنسان:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ((148))

وقال علماء الأصول: الآية محكمة، الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت.

كيف الآيات المتشابهة مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمة مهما قلت ؟ أي إذا قلت القمح مادة خطيرة، ما معنى هذا الكلام ؟ يعني قنبلة ؟ لا ! ماذا أقصد بخطيرة ؟ إذا قلت بعد قليل القمح مادة أساسية في حياة الإنسان، معنى خطيرة هي كلمة متشابهة (تحير) فإذا قلت القمح مادة أساسية في غذاء الإنسان.

إذا: كلمة خطيرة تعني أنها مادة أساسية، فالآيات المتشابهة لو أننا شممنا من آية أن الله أجبرنا على الضلال مثلاً قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

هذه الآية المحكمة تفسر كل الآيات المتشابهة، بل إن الإضلال إذا عزي إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري يؤيد هذا قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5))

(سورة الصف: 5)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

ملاحظة: شاكر اسم فاعل، وكفور اسم فاعل لكن مبالغ به، كافر وكفور، و يوجد شاكر وشكور، لو أن الله إما شكوراً وإما كفوراً لا يوجد مشكلة، لو قال إما شاكراً وإما كافراً، لا يوجد مشكلة، أما لماذا قال شاكراً من دون مبالغة وكفوراً بصيغة المبالغة ؟ قال بعض العلماء: الإنسان لن يستطيع أن يشكر الله مهما فعل، لأن عطاء الله لا يكافأ، فأعلى إنسان شكر الله اسمه شاكر، النبي الكريم الذي جاء الحياة فأعطى ولم يأخذ، عاش ثلاثة وستين عاماً في الدعوة كلها لله، وفي تحمل المتاعب، وفي تجشم المصاعب، ومع ذلك اسمه شاكر، أما الكفور حينما تتغافل عن نعمة الله العظيمة أدنى تغافل فهذا مبالغة بالكفر، يعني الأم لو قلت لها أف لكنت عاقاً، أف، لأنها هي موجودة من أجلك، كل عملها من أجلك، فلا ينبغي أن تقول لها كلمة أف.

الشاكر و الكفور:

مهما شكر الإنسان ربه لا يمكن أن يكون شكره مساوياً لنعم الله عز وجل فجاءت شاكراً، وأما الكفور أي لو أنك تركت فرض صلاة. أعظم إنسان شكر الله يسمى شاكراً، لأن إنساناً ما في الكون لا يستطيع أن يوفي فضل الله حقه، يوجد قصة على ذمة الروايات أحد الصحابة الكرام اسمه عبد الله بن راحة يعينه النبي قائد ثالثاً في مؤتة، الأول سيدنا زيد، والثاني سيدنا جعفر، والثالث عبد الله بن راحة، فأول قائد أمسك الراية بيمنه وقاتل بها حتى قتل (استشهد سريعاً)، أخذها جعفر سريعاً فحمل اللواء قاتل به حتى قتل، جاء دور ابن راحة كان شاعراً تردد ثلاثين ثانية قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شقيت

* * *

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي وهو في المدينة قال:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل وإنني أرى مقامه في الجنة، ثم قال وأخذ الراية أخوكم

جعفر فقاتل بها حتى قتل وإنني أراه في الجنة يطير بجناحين))

فسمي جعفر الطيار، (وهناك مشروع إن شاء الله إن شاء مسجد بالمطار اسمه جعفر الطيار يتناسب مع المطار)، ثم سكت النبي فسكوت النبي أقلق الصحابة على الصحابي الثالث، قالوا يا رسول الله ما فعل عبد الله ؟ قال:

((ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله فقاتل بها حتى قتل وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

تردد ثلاثين ثانية ببذل حياته، فأنت أمام فضل الله عز وجل مهما بذلت لا تقدم شيئاً، أما أقل معصية معنى هذا أنت في كفر شديد.

لذلك سيدنا عمر سأل سيدنا حذيفة بن اليمان (أمين سر رسول الله) قال له: بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ عملاق الإسلام من شدة خوفه من الله سأل هذا السؤال، هذا بعض ما قاله العلماء حول إما شاكراً من دون مبالغة وإما كفوراً مع المبالغة، وقال بعضهم الشاكرون قليلون، وأما المنحرفون كثيرون.

(وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

((116))

(سورة الأنعام)

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

الوفاء بالعهد:

حينما أرى حول الكعبة المشرفة حجاج بيت الله الحرام وهم بالملايين، يقفون عند الحجر الأسود، ويتجهون نحوه، ويرفعون أيديهم، ويقولون: بسم الله، الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، وعهد على طاعتك، فإذا عادوا إلى بلادهم، عادوا كما ذهبوا، لهذا قال الله تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف: 102)

ما أكثر ما يعاهد المسلم ربه ثم ينقض العهد ثم يقع في الحرام ثم يأكل المال الحرام ثم يغتاب، أما البطولة حينما قال الله عن سيدنا إبراهيم قال:

(وإبراهيم الذي وفى (37))

(سورة النجم)

نبي آخر:

(وَحُذِّ بِيدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (43) وَادْكُرْ عِبَادَنَا

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ(44))

(سورة ص)

فالله عز وجل إذا أطلع عليك من أنت ؟ هل أنت عند عهدك ؟ هل يراك الله صابراً ؟ هل تستحي من الله ؟ عبي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ؟!

هل كلما قرأت هذه الآية

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

تذكر عهد الله ؟ أنت حينما عاهدته على الطاعة تعاهد خالق الكون، لا تأخذك لومة لائم، امض بما أردت

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (2-5): تفسير الآيات 4-10 الإخلاص في العمل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثاني من سورة الإنسان، ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:
(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4))

خلق الإنسان ليس عبثاً:

أيها الأخوة الكرام: أن يتوهم الإنسان أن هذه الدنيا تنقضي وينقضي معها كل شيء هذا جهل كبير، إن الله عز وجل يقول:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

يعني تتحرك وتستعلي، وتأخذ ما ليس لك، وتعتدي، وتتجبح، وتقول أنا وأنا، وتنتهي الحياة، وينتهي معها كل شيء، هل تقبل أن يعيش إنسان في أعلى درجات الخوف، وإنسان ثاني في أعلى درجات الطمأنينة، وتنتهي الحياة هكذا، من تصفية حسابات، إنسان يعاني من أشد أنواع الفقر، وإنسان يكاد لا يعقل كم ينفق من الأموال وتنتهي الحياة بلا تصفية حسابات ؟ إنسان مغتصب لأموال الآخرين وإنسان مقهور وتنتهي الحياة بلا تصفية حسابات ؟ هذا هو العبث بعينه لابد من يوم آخر تسوى فيه الحسابات، لابد من يوم آخر ينتصر فيه المظلوم، لابد من يوم آخر ينتصر فيه الفقير، لابد من يوم آخر ينتصر فيه المستغل، أن تأتي إلى الدنيا وتكذب على الناس وتحتال عليهم وتقتنص أموالهم بقوة منك، أو بحيلة منك، أو بمركز منك، وتنتهي الحياة هكذا لا شيء بعد الموت، هذا هو الجهل بعينه.

تسوية الحساب يوم القيامة:

الحياة الدنيا تعقبها الحياة الآخرة، يعقبها يوم تسوى فيه الحسابات، يعقبها يوم يحاسب فيه الظالمون.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

لذلك قمة العقل، وقمة الذكاء، وقمة الفلاح، وقمة النجاح، أن تدخل هذا اليوم في حساباتك اليومية، بل في حساباتك الساعية، بل في كل حركاتك و سكناتك، كلما تقف موقفاً هذا الموقف هل أحاسب عليه ؟ هذا الموقف هل يرضي الله ؟ هل أدفع الثمن باهظاً يوم القيامة ؟ هل أستحق النار من أجله ؟.

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما واللفظ له]

فإذا كانت امرأة استحققت النار في هرة، فما قولك فيما فوق الهرة ؟
لذلك أيها الأخوة: أقل ذرات العقل، أقل إدراك عقلي صحيح العبثية تتناقض مع وجود الله
(اَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

مستحيل،

(اَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ)

مستحيل، لا بد من يوم يحاسب فيه الإنسان حساباً دقيقاً.

(فُورَبِكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

عذاب الكافر يوم القيامة:

الآية الأولى في هذا الدرس:

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ)

تقييد بها أرجلهم

(وَأَغْلَالًا)

تقييد بها أيديهم، ثم يقذفون في النار

(وَسَعِيرًا (4))

هذا كلام خالق الكون، وكلما ارتقى إيمانك ارتقى تصديقك لكلام الله، تقول أنت صدق الله العظيم، هذا كلام خالق الكون.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، مرة خاطب نفسه قال: يا نفس لو أن طبيباً حذرك من أكلة تحببها، لا شك أنك تمتنعين - وأنتم جميعاً وأنا معك لو قال الطبيب دع الملح، وطعم الطعام لا يطيب إلا بالملح، تترك الملح حفاظاً على ضغطك - يا نفس لو أن طبيباً حذرك من أكلة تحببها لا شك أنك تمتنعين عنها - دقق - أياكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أكفرك، أياكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد

الله ؟ إذا ما أجهلك، الذي يعصي الله مدموغ بالكفر والجهل، أما خالق الكون وسوف تقف بين يديه، وسوف يسألك.

محاسبة الإنسان لنفسه:

لو أن إنساناً اصطاد عصفوراً لغير مأكله، عصفور صغير، قتله ما أكله، يأتي يوم القيامة وله دويٌّ تحت العرش، يقول يا رب سلّه لما قتلني ؟ فإذا المرأة قالت لله عز وجل سلّه لما طلقني ؟ لما ظلمني ؟ لما حرمني الطعام ؟ لما طردني في منتصف الليل وأنا أخدمه وأرعى شؤونه ؟ وإذا قال الشريك يا رب لما أخرجني شريكي خارج المحل وأنا أسست هذه الشركة ؟ لما جعلني أموت جوعاً أنا وأولادي ؟ من أجل أن يستأثر بحظه من هذه الشركة، إذا أيقنت أن كل مظلوم سوف يقف بين يدي الله عز وجل ليأخذ منك حقه حتى الغيبة والنميمة التي قد يقول الإنسان ما عملنا شيئاً فقط تكلمنا.

قال أحد العلماء الكبار التقيت برجل، فقلت له: بلغني أنك اغتبتني قال له: ومن أنت حتى أغتابك، لو أنني مغتاب أحداً لا غتبت أبي وأمي لأنهم أولى بحسناتي منك ؟ كلام دقيق، لو أنني مغتاب أحداً لا غتبت أبي وأمي لأنهما أولى بحسناتي منك، أنت تظن القضية هكذا تتحدث عن إنسان كلاماً غير صحيح، في افتراء و في كذب وأنت مرتاح، ما في شيء، هكذا الأمور تمشي.

أعرابي لم يدرس شريعة ولا فقه ولا أصول ولا حديث ولا عقيدة ولا تفسير، قال للنبي الكريم عظمي ولا تطل، قال له:

((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فقال له كفيت))

هذه تكفي، القرآن الكريم ستمائة صفحة، آية واحد كفت هذا الأعرابي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقه الرجل))

وَاللّٰهُ أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ هُنَاكَ أَلْفَ الْآيَاتِ وَ كُلْ آيَةٍ وَحَدَّثَا تَكْفِينَا، وَحَدَّثَا لَوْ لَمْ تَعْلَمْ مِنَ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ لَكَفَّتْ.

((إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)))

(سورة النساء)

((يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)))

(سورة غافر)

((يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)))

(سورة الحاقة)

آية وحدة لو تدبرناها وعقلناها لكفتنا.

كان الأمام الشافعي يقول: في القرآن سورة لو تدبرها الناس لكففتهم.

(وَالْعَصْرُ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

الموت و الحساب نهاية الدنيا:

يعني اليوم الذي لا تزداد به علماً بالله عز وجل يوم خاسر، لو غلة المحل مئة ألف، خمسمئة ألف، بعت بمائة مليون، اليوم الذي لا تزداد به علماً بالله عز وجل يوم خاسر، اليوم الذي لا تزداد فيه قرباً من الله عز وجل يوم خاسر، ورد في بعض الأدعية، لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزد فيه من الله علماً، لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزد فيه من الله قرباً، فلذلك أن الحياة فيها الغني والفقير، فيها القوي والضعيف، فيها الظالم والمظلوم، فيها المستغل والمستغل، فيها المعتدي والمعتدى عليه، فيها المغتصب والمغتصب، وتنتهي الحياة هكذا؟! ما في شيء بعد الحياة؟! هذا هو الجهل بعينه.

الوقوف بين يدي الله عز وجل:

قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْكَرِيمُ(116))

(سورة المؤمنون)

فتعالى الله أن يفعل هذا.

(فُورَيْكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

اقرأوا القرآن أيها الأخوة:

(وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ (25) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ (26) يَا لَيْتَنِيهَا

كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أُعْطِيَ عَنِّي مَالِيَةَ (28) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (29) خُدُوهُ فَعُلُوهُ (30) ثُمَّ

الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْأَلُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ((33))

(سورة الحاقة)

يوجد حساب، هناك وقفة بين يدي الله عز وجل، سمعت قصة وقعت في الشام إنسان مضطر إلى ثلاثمئة ألف ليرة، لم يجد أحداً يقرضه إياها، عرض على أحد الأغنياء أن يكتب له مزرعة يملكها كرهن مقابل هذا القرض، فقبل، كتبت هذا المزرعة في السجلات الرسمية باسم هذا المقرض، وبعد سنوات، توافر المبلغ الذي اقترضه فذهب إليه ليعطيه المبلغ، قال له: لا، كل واحد حقه معه، مزرعة ثمنها ملايين، قال له كل واحد حقه معه، من شدة الألم أصيب بأزمة قلبية وقارب أن يموت، فكلف ابنه وهو على فراش الموت أن يكتب رسالة قال له فيها: أنا ذاهب إلى دار الحق، وسأقاضيك هناك، فإن كنت بطلاً فلا تلحق بي، قال له امش بالجنابة إلى دكان هذا الرجل (محله التجاري) قد يكون بطرف المدينة، سر بالجنابة إلى أمام دكانه وقفوا قليلاً وناولوه هذه الرسالة وأنا في النعش، يروى أن هذا الإنسان الغني لما قرأ الرسالة في اليوم الثاني أرجعها إلى الورثة.

يوجد حساب دقيق، سوف تقف بين يدي الله عز وجل، لتسأل عن أقل الأشياء، لما اغتصبتها ؟ لما أكلتها ؟ لما غششت الناس ؟ لما غششت المسلمين في طعامهم وشرابهم ؟ قدمت لهم طعاماً فاسداً ؟ وضعت في الطعام مواداً تؤذي صحتهم ؟ من أجل أن تحقق أرباحاً طائلة ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

ازدياد علم الإنسان يؤدي لازدياد خوفه:

كلما ازداد علمك ازداد خوفك من الله، وأشد الناس خوفاً من الله عز وجل هو رسول الله، قالوا يا رسول الله مثل بهم هؤلاء الذين مثلوا بعمك حمزة ؟ قال و الله لا أمثل بهم كي لا يمثل الله بي ولو كنت نبياً، لولا أنني خشيت القصاص لأوجعتك بهذا السؤال، فكلما ازداد علمك ازداد خوفك

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا (4))

أوصاف أهل النار:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْأَلُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37))

(سورة الحاقة)

هذه أوصاف أهل النار، شيء ينخلع له القلب، إياك أن تظن أنه كلام، هذا كلام رب العالمين، زوال الكون أو هن على الله من ألا يقع كلام رب العالمين

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ)

لمن كفر بالله، لمن ابتعد عنه، لمن تبع شهوته، لمن بنى مجده على أنقاض الناس، لمن بنى غناه على فقرهم، لمن بنى حياته على موتهم، لمن بنى أمنه على خوفهم

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَايِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4))

قال بعض علماء التفسير السورة في مجملها تتحدث عن أهل الجنة، فلذلك جاء الحديث عن أهل النار موجزاً، آية وحدة

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَايِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا(4))

من هم الأبرار ؟

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5))

من هم الأبرار ؟ الأبرار جمع البر.

من هو البر ؟ الذي أطاع الله عز وجل، في أدق التفاسير، البر هو الذي عرف ربه فأطاعه

(إِنَّ الْأَبْرَارَ)

هؤلاء الناس، هؤلاء المؤمنون الذين جاءوا إلى الدنيا وتفكروا في خلق السماوات والأرض، وعرفوا أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، إلهاً واحداً، إله كاملاً، وهذا الإله له حق عليهم أن يعبدوه.

حاجات الإنسان الدنيا و العلياء:

هؤلاء المؤمنون الذين جاءوا إلى الدنيا، وطلبوا العلم، لبوا حاجاتهم العلياء، المعرفة، معظم الناس يلبون حاجاتهم الدنيا، الطعام، الشراب، والنساء، المؤمنون الصادقون يلبون الحاجات العلياء (المعرفة) معرفة الله، معرفة منهجه، التقرب إليه، بطاعته، قال:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ)

هؤلاء في نعيم مقيم، هؤلاء في جنة عرضها السماوات والأرض، هؤلاء في جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر إلى أبد الأبد.

الحياة الدنيا أيها الأخوة اسم على مسمى دنيا، يعني إذا أخذت راحتك في الطعام تحتاج إلى نظام قاس جداً يحرمك كل لذائذ الحياة، وخط الإنسان البياني يصعد، ثم يستقر، ثم ينزل، ثم يرد إلى أرذل العمر،

الإنسان يشيب شعره، يضعف بصره، تفسد أسنانه، تؤلمه مفاصله، ينحي ظهره، يشكو من تعب شديد، تضطرب معايير جسمه، هي الحياة يعني الإنسان كائن غالي على الله، إلا أنه سريع العطب، يعني ما في إنسان خالي من علة في جسمه، هذه العلة لحكمة بالغة أرادها الله من أجل ألا تطمئن إلى الحياة الدنيا، ألا تجعلها منتهى طموحك، محط رحالك، منتهى آمالك، هذا الدنيا تفر وتضر وتمر، والإنسان لا يستسهل هذه الحياة.

حتى يحقق الإنسان مصالحه المادية يكون في الأربعين و معترك المنايا بين الخمسين والستين، الآن معظم الناس، كلما مات إنسان اسأل عن عمره، يقول لك ثمانية وخمسون، سبعة وخمسون، واحد وخمسون، و الله صغير، تسعة وأربعون، خمسة وأربعون، يعني الإعداد أربعين سنة لعشر سنوات فقط، أنضيق الآخرة كلها من أجل سنوات معدودة!؟

مقياس أهل الدنيا: المال و الصحة و الوقت:

سأذكر حقيقة ما لها علاقة بالمؤمنين هي لأهل الدنيا يعني لذائذهم وسعادتهم في مقاييسهم، تحتاج إلى ثلاثة عناصر، تحتاج إلى صحة، وإلى مال، وإلى وقت، والإنسان بكل مراحل حياته تنقصه واحدة دائماً، ففي أول حياته الصحة جيدة جداً والوقت مديد، لكن لا يوجد مال، المال مادة الشهوات، في منتصف حياته أسس مشروعاً المال متوافر، والصحة متوافرة لكن لا يوجد وقت، عمل دائماً عشرين ساعة باليوم، في خريف عمره يوجد وقت سلم أولاده كل شيء، يوجد وقت ومال وفير لكن لا يوجد صحة، كل ممنوع عنه، هكذا الحياة تفر وتضر وتمر.

معرفة المؤمن لربه تكون في مقبل حياته:

أما المؤمن و الله له شأن آخر، و الله المؤمن لا علاقة له بهذا المثل إطلاقاً عرف الله في مقبل حياته.

(قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162))

(سورة الأنعام)

سعيد بقربه من الله، لأن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هي جنة القرب، ماذا يفعل أعدائي بي ؟

تجد شخصاً هو في بيت فخم، معه دخل وفير، والشهوات كلها أمامه، يقول لك أنا مللت من هذه الحياة، لا يوجد فيها شيء، المؤمن وهو في أصعب الحالات سعيد، المؤمن وهو في أصعب حالاته هو قمة السعادة.

تصور إنساناً على وشك أن يصلب، سيدنا خبيب، تقدم منه أبو سفيان، ماذا بقي له ؟ بقي له من حياته ساعة، سيصلب، قال له أبو سفيان أتحب أن يكون محمد مكانك؟ - و الله أنا لا أشبع من ترداد جوابه - قال له: و الله ما أحب أن أكون في أهل وولدي - في بيته مع زوجته وأولاده - وعندي عافية الدنيا ونعيمها، العافية ما في مرض، ما في جوع، ونعيمها.

أحياناً الإنسان يضع باقة ورد أمامه، ويشترى مكيف، يتفنن بأنواع الفاكهة هي نعيمه، عندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، ما هذه السعادة ؟

النبي عليه الصلاة والسلام تفقد أحد الصحابة ما وجده، سعد بن الربيع فكلف أحد أصحابه يتفقده بأرض المعركة، ذهب إلى أرض المعركة فإذا هو بين القتلى، لكن لم يمت بعد هو بالنزع الأخير، قال له: يا سعد هل أنت مع الأموات أو مع الأحياء ؟ قال له مع الأموات، قال له: إن النبي الكريم أرسلني إليك و يقرئك السلام، قال له: قل له (تصور إنساناً على وشك الموت)، جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، هو يموت، معنى ذلك أنه في قمة السعادة، قال له: وقل لأصحابه لا عذر لكم عند الله إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، ما هذه السعادة وهو على فراش الموت ؟

طلب العلم فريضة على كل مسلم:

سألت أحد أخوانا الكرام (طبيب) قلت له: صف لنا حالة إنسان وهو يموت ؟ قال لي: أهل الدنيا يضربون وجوههم، يلومون أنفسهم، يكون كالصغار تماماً ؛ لأن الموت عندهم مصيبة كبيرة جداً، من كل شيء، يا ليت إلى لا شيء، إلى كل شيء من العذاب، تعرض على الإنسان عند نزاعه الأخير أعماله كلها، عملاً، عملاً، وسيواجه الله عز وجل بكل أعماله، أما المؤمن ينتظر رحمة الله عز وجل. لذلك عندما يطلب الإنسان العلم يعرف موضعه، لا شيء يعلو على طلب العلم أنت بالعلم تعرف من أنت ؟ وأين أنت ؟ من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ فالعلم يقدم لك حراسة بالغة، العلم يحرسك و أنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق.

(إِنِ التَّائِبِينَ)

الذين بروا ربهم أي أطاعوه، هنا بمعنى عرفوه فأطاعوه، وتقربوا إليه.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

بالمناسبة أيها الأخوة لا أحد يعلم حال أهل الجنة، إلا ما جاءنا في هذا القرآن الكريم، وربنا عز وجل يصف لنا الجنة: فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لكن نحن في الدنيا، الله عز وجل خلق جمال، خلق بساتين، أشجار، مروج خضراء، جبال خضراء، سواحل بحار، ورد جميل، أطفال لهم صورة حسنة، هذا الجمال الذي أودعه الله في بعض مخلوقاته نموذجاً ليقترب لأذهاننا ما في الجنة من نعيم مقيم، قال:

(قُلْ أُوْنِبْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15))

(سورة آل عمران)

لكن الجنة في الآخرة غير كل ما في الدنيا من جمال، ليس بين الشيئين إلا الاسم المشترك، قال تعالى:
(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

(سورة محمد)

قال لك: أنهار من عسل مصفى، عسل الجنة غير عسل الدنيا.

قال لك: من لبن لم يتغير طعمه، لبن الجنة غير لبن الدنيا.

ليس من شيء يجمع بينهما إلا الاسم فقط للتقريب، لأنه لو لم يكن في الدنيا مظاهر جمالية، كلمة الجنة لا معنى لها، فربنا عز وجل جعل أشياء بالأرض جميلة، وحدثنا عن هذه الجنة العظيمة بكلمات نفهمها نحن، أي العرب كانوا في الجاهلية يشربون الخمر ويمزجونه بالكافور، من أجل نكهة طيبة، تقريباً لأذهانهم قال:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5))

يعني أعلى أنواع الشراب.

أحياناً الإنسان يشعر بعطش شديد والجو حار، يقدم له كأس شراب طبيعي، عصير فاكهة من الدرجة الأولى، طبعاً لا يوجد شيء يعلو عليه إطلاقاً، بارد محلى ونكهة الفواكه الطبيعية، فلذلك تقريباً للأذهان قال تعالى:

(إِنَّ النَّابِرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5) كَافُوراً)

يعني أعلى أنواع الشراب.

جزاء أهل الجنة:

(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6))

قال علماء التفسير: يشرب بها أي يشرب منها

(عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا)

وفي بعض التفاسير أن هذه المياه العذبة الباردة المنعشة تدور معهم أينما داروا. أحياناً يقول لك أحدهم هناك مشاريع مذهلة فالحجاج عندما ينتقلون من مكة إلى منى المياه كلها تنتقل معهم، وصلوا إلى عرفات فالمياه تنتقل معهم، يعني تركيبات دقيقة جداً، بحيث أن كل المياه التي هم بحاجة إليها تنتقل معهم من مكان إلى مكان، هذا حال أهل الجنة، يعني أينما ذهب، عين الماء العذب السلسبيل إلى جانبك

(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)

عباد الله الصالحين، الذين صلحت نفوسهم واستحقوا جنة ربهم

(عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6))

الوفاء بالنذر:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7))

النذر: ما أوجب الإنسان على نفسه - هذا هو النذر - فإذا كان موفياً بما أوجبه على نفسه، فلأن يكون موفياً بما أوجبه الله عليه من باب أولى، فالله أوجب علينا الاستقامة، أوجب علينا الصدق، أوجب علينا الأمانة، أوجب علينا العفة، أوجب علينا الإخلاص، أوجب علينا أن نصلي، أن نصوم، أن نحج، أن نعتمر، فإذا كان هؤلاء المؤمنون يوفون بالنذر ما أوجبه على أنفسهم، فكيف بالذي أوجبه الله عليهم ؟ هو من باب أولى، يعني هذا المؤمن صفته أنه يوفي ما عاهد الله عليه، لذلك هذه الآية من أدق الآيات:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)

الآن أكثر الحجاج أثناء الطواف إذا حاذوا الحجر الأسعد أو الأسود يقفون أمامه ويشيرون له بأيديهم ويقولون بسم الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، وعهداً على طاعتك، يعودون إلى بلدكم، الحاج الحقيقي هذا العهد ينبغي ألا يغيب عن ذهنه ولا لحظة، أنت عاهدت الله فالنبي عليه الصلاة والسلام جاءه صحابي جليل مهاجر قال له: **في أثناء الطريق ألقى القبض عليّ من قبل المشركين فعاهدتهم إن أطلقوني ألا أقاتلهم**، فرح به النبي عليه الصلاة والسلام، بعد سنة أو سنتين كان هناك غزوة فهذا الصحابي نسي العهد، فرح بالجهاد مع رسول الله فانخلط مع أصحابه، قال له:

((أنت ارجع، ألم تعاهدكم ؟))

إن العهد كان مسؤولاً، فهؤلاء المؤمنون الذين استحقوا جنة الله عز وجل

(يُوْفُونَ بِالنَّذْرِ)

أي هم يوفون ما أوجبوه على أنفسهم، ومن باب أولى ما أوجبه الله عليهم، لذلك قال تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف: 102)

أما المؤمن كما قال عز وجل عن سيدنا إبراهيم:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37))

(سورة النجم)

أي أشرف موقف أن تكون عند عهدك مع الله عز وجل.

الوفاء بالعهد:

الإنسان لأن يسقط من السماء إلى الأرض فتنحطم أعضائه، أهون من أن يسقط من عين الله، قد تكون فقيراً - والفقر ليس وصمة عار بالإنسان أبداً - قد تكون مريضاً، بالفقر ليس بمشكلة و المرض أيضاً ليس بمشكلة، لكن أن تسقط من عين الله هي المشكلة، أن تخون أمانتك، ألا توفي بما عاهدت الله عليه، ألا تكون عند عهدك مع الله عز وجل بطاعته فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

(سورة الصف)

بني إسرائيل قالوا:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

(سورة البقرة: 93)

أما المؤمنون الصادقون:

(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285))

(سورة البقرة: 285)

محاسبة الإنسان يوم القيامة:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7))

الشر المستطير ؛ المنتشر، المتفجر، أي يوجد مشكلات بالحياة الدنيا ينشأ عنها مشكلات، مشكلة متفجرة، يوجد مشكلات محدودة، تحاط، تطوق، تحدد، أما في مشكلة تتفجر، فهذا اليوم يحاسب الإنسان فيه عن كل شيء، تراجع كل الحسابات، تراجع كل القوائم، كل شيء فعله يراجع به، هذا اليوم يوم عصيب.

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

(يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

قال:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7))

يعني أخ كريم، قال لي اشتريت محضراً وأخذناه بالمزاد أي بطريقة أو بأخرى، أخذه بثلاثي ثمنه، يعني دخل بالمزاد أشخاص خلبيون، رفعوا السعر قليلاً قليلاً، هذا الأخ قال لي ثم عرفت أن أصحاب هذا المحضر بعضهم أيتام، كيف أواجه الله يوم القيامة ؟ قال لي بماذا تنصحي ؟ قلت له إما أن تنسحب، وإما أن تعطي أصحابه الثمن الكامل، ولا تعبأ بهذه المزادة أو المناقصة، وهذا الذي فعله، في قبر، أحياناً يكون القانون معك مائة بالمائة لكن بالقبر لا يوجد قانون، بالقبر يوجد شرع، القضية تحل معك هكذا.

جوهر الدين معرفة الحلال و الحرام:

قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال له: هي ليست لي، قال له: قل لصاحبه ماتت، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها مات أو أكلها الذئب لصدقتني فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

لو عندك مكتبة وعندك ألف شريط تسجيل وعندك إطلاع، وعندك ثقافة إسلامية واسعة وعندك، وعندك، وأكلت درهماً من حرام فأنت لا تعرف شيئاً، لا تقل أباغ و الله لا أباغ، قالت السيدة عائشة عن رجل خالف الشرع قولوا له إنه أبطل جهاده مع رسول الله لما ؟ في أكل مال حرام، في كذب، وفي غش واحتيال وعدوان، ضع صلاتك وصيامك وحجك في الحاوية وأنت مطمئن.

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارَهُونَ (54))

(سورة التوبة)

يصلي وينفق وهو عند الله كافر.

الصوم: رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

الصلاة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً

الحج: إذا إنسان حج بمال حرام وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه منادي بالسماء لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك.

فالحج لا يفيد، و العمرة لا تفيد، و إنفاق المال لا يفيد مع المعصية، و الصلاة لا تفيد، و الصيام لا يفيد، يفيدك أن تطيع الله أولاً، عندئذ كل هذه العبادات ترقى بها، أما إذا كنت مقيماً على المعاصي أي بيتك إسلامي، وعملك إسلامي، الآن الصلاة تتوج بها هذه الاستقامة، أما إذا في مخالفات كبيرة جداً، هذه العبادات لا تقدم ولا تؤخر، هي فرض لا بد منها، ولكن لا تقدم ولا تؤخر.

أفضل الأعمال الصالحة:

1 - الوفاء بالنذر:

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8))

2 - إطعام الطعام:

إطعام الطعام، النبي الكريم سئل أي الإسلام أفضل ؟ قال: إطعام الطعام، إطعام الطعام يؤلف القلوب، يجمع النفوس، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يجيب المتباريين يعني إذا الوليمة من أجل أن تفنخ، أن تعلق بها على الناس، هذه وليمة أريد بها الشيطان.

معاني إطعام الطعام:

أما إطعام الطعام من أعظم الأعمال الصالحة:

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)

العلماء قالوا: هناك معنيان:

1 - إطعام عباد الله بدافع حبهم لله:

إما أنهم محتاجون إلى هذا الطعام ويحبونه، والوضع عصيب جداً، آثروا به الفقير هذا معنى، أو على حب الله عز وجل، الإطعام بسبب حبهم لله عز وجل

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا)

عاجزاً عن العمل،

(وَيَتِيمًا)

لا يمكنه أن يكسب المال

(وَأَسِيرًا))(8)

ولو كان مشركاً واقع بالأسر.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا))(9)

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)

أي حباً بالله عز وجل، بدافع حبهم لله، هؤلاء عبادہ الجائعون، بدافع حبهم لخالقهم يطعمون عباده، هذا المعنى الأول.

2 - إثارة إخوانهم على أنفسهم على الرغم من فقرهم:

المعنى الثاني: يؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة، هم في أشد الحاجة إلى هذا الطعام، لكنهم آثروا عليهم إخوانهم، على حبهم لهذا الطعام، وشدة حاجتهم إليه، يطعمونه

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا)

أي العاجز عن العمل،

(وَيَتِيمًا)

أي الصغير الذي ليس له أب يغتني بغناه،

(وَأَسِيرًا (8))

الذي أسر ولو كان مشركاً، إلا أن الأسير المشترك لا يعطى من الزكاة، يعطى من الصدقة لأن الزكاة تأخذ من الأغنياء المسلمين وترد على فقرائهم.
أما الصدقة يمكن أن ينفق منها لغير المسلمين:

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

لذلك الإخلاص ينفع معه قليل العمل و كثيره، أما عدم الإخلاص لا ينفع معه لا قليل العمل ولا كثيره.
الإخلاص لا يعلمه إلا الله، حتى الملك الذي على كتفك لا يعلم إخلاصك هذا بينك وبين الله
(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ)

ابتغاء مرضاته،

(لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9))

لا نريد استحساناً ولا مدحاً ولا ثناء ولا أي شيء من هذا القبيل.
بعض المسلمين - أصلحهم الله - لا يدفعون إلا إذا وضعت على الجدار قطعة رخام عليه اسمهم، فأنت حينما قدمت هذا لله عز وجل، الله عز وجل يعلم كل أعمالك الصالحة.

الإخلاص ثمنه الجنة:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92))

(سورة آل عمران)

هو يعلمه، وسيعوض عليك أضعافاً مضاعفة، كن غنياً عن أن يقول الناس عنك أنك محسن كبير، كن غنياً عن ذلك، لأن هذا تقترب به إلى الإخلاص، والإنسان إذا نازعته نفسه حول إذا ما كان مخلصاً أو غير مخلص ليكتف عمل الطيب عن الناس، ليصلي في جوف الليل دون أن يقول لأحد، ليدفع صدقة لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، بهذا تنتصر على الشيطان، إذا قال: أنت تريد مديحاً، ثناء، ردّ عليه بهذه الطريقة

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9))

المؤمنون كثيرون لهم أعمال كالجبال، لا يعلمها أحد، فيما بينهم وبين الله عز وجل، وكلما كانت عامرة فيما بينك وبين الله استغنيت عن استلذاء المديح، استلذاء المديح مرض نفسي، بضعف الإخلاص تستلذي مديح الناس، تذكرهم بعملك، من أجل أن يمدحوك تذكرهم بفضل، بإحسانك، تذكرهم بطريقة أو بأخرى، من أجل أن يثنوا عليك، لأن ثناءهم عليك هو جزاؤك من هذا العمل، أما المؤمن يبتغي وجه الله، لذلك لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

أعمال المؤمن الصادق:

سيدنا الصديق رضي الله عنه يعني له أعمال عظيمة لا يعلم بها أحد، له جيران ضعاف، فكان يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة المسلمين دخل الحزن على هؤلاء الجيران - مستحيل يتابع هذه الخدمة - في صبيحة اليوم الأول عندما تسلم منصب الخلافة، طرق باب أحد الجيران، قالت الأم لابنتها: افتحي الباب يا بنية، فلما رجعت قالت من الطارق؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أمه، وهو في قمة المجتمع الإسلامي، يحلب الشياه لجيرانه الضعاف، المؤمن الصادق له أعمال لا يعلمها إلا الله له أعمال جليلة بينه وبين الله، ولا يستطيع الشيطان أن يقول له: إنما تفعل هذا رياء الناس أبدأ، الدليل: ما تكلم بها فيما بينه وبين الله.

إعلان الأعمال الصالحة إذا كان ذلك يشجع الآخرين:

أما إذا كنت واثقاً من نفسك والكلام عن الأعمال الصالح يشجع الآخرين لا يوجد مانع:
(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271))

(سورة البقرة)

(إِنْ نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

يوم القيامة يوم مخيف، هم:

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8))

وهم مخلصون بهذا العمل

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9))

لأننا:

(إِنْ نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (3-5): تفسير الآيات 10-19 من أثر آخرته على دنياه ربحهما معاً

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثالث من سورة الإنسان، ومع الآية العاشرة وهي قوله تعالى:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

وصف يوم القيامة :

يوم تعبس فيه الوجوه، وقمطير طويل. أحياناً الموقف الحرج لا يطول، وأما إذا نام أياماً وأياماً، أسابيع وأسابيع، وشهوراً وسنوات هذا معنى قمطير، أما عبوس يوم صعب.

(إِن هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

يوم الحساب، يوم المحاسبة، يوم الجزاء، يوم التحقيق، يوم الإدانة، في الدنيا لا يحتمل، إنسان خارج عن القانون، ألقى القبض عليه، دخل في دوامة التحقيق، السؤال والجواب، عرف ما ينتظره إما شقاً، وإما مؤبداً مع الأشغال الشاقة، هذا يوم صعب جداً، صعب مع إنسان، فكيف مع الواحد الديان ؟

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

لذلك هناك من يدعي أن الإنسان يكفيه أن يكون ضميره حياً، هذا الكلام ليس له معنى، فلن تستقيم على أمر الله إلا إذا عرفت أن كل حركة و سكونة تحاسب عليها، وسوف يحقق معك، وسوف تعرض أعمالك عليك، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيقها.

محاسبة الله تعالى للإنسان :

حينما تعلم علم اليقين أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، ثلاث كلمات واللّه الذي لا إله إلا هو لو أيقن الإنسان يقيناً كيقينه بوجوده أن الله يعلم كل حركاته وسكناته، كل نواياه، كل مقاصده، كل بواعثه، كل أهدافه، أن الله يعلم ما أخفاه على الناس، لا تخفى عليه خافية، حينما يعلم أن الله يعلم، وأنه سيحاسب، وأنه سيعاقب، وأن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، وأن الحساب عسير، وأن العقاب طويل، واللّه الذي لا إله إلا هو انطلاقاً من حب الإنسان لذاته، ومن حبه لوجوده، وسلامة وجوده، وكمال وجوده،

واستمرارا وجوده، لن يعصي الله عز وجل، فذلك هؤلاء المؤمنون لماذا آمنوا ؟ لماذا استقاموا ؟ لماذا أدوا ما عليهم من واجبات ؟ لماذا أعطوا ما في ذمتهم من حقوق ؟ لماذا عبدوا الله عبادة متقنة ؟ لماذا خافوا أن يأكلوا درهماً حراماً ؟ لماذا خافوا أن ينظروا نظرة لا تجوز ؟ لماذا ؟ لأنهم خافوا من ربهم

(يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

أي يوم الحساب.

الإيمان باليوم الآخر :

القضية قضية إيمان باليوم الآخر، إذا آمننا باليوم الآخر حلت كل مشكلاتنا، انطلاقاً من حبنا لذواتنا، انطلاقاً من أنانيتنا المفرطة لا نعصي الله عز وجل، إذا آمننا باليوم الآخر، إذا آمنت أن هذا الذي أمامك لو كذبت عليه، أو احتلت عليه، أو ابتزرت ماله، أو أربعته، أو أخفته، لتأخذ ما في يده، إن الله سيحاسبك عنه حساباً عسيراً، لا يمكن أن تفعل ذلك، أنت لاحظ نفسك مع شرطي، يرتدي بذلة حكومية قد تكون أقوى منه، قد تكون أقوى منه جسداً، وقد تستطيع أن تفعل به ما تشاء في مكان ما، لكن ستحسب حساب من هم أعلى منه، كيف سيحاسبونك ؟ كيف سيقصون منك ؟ هذا هو الذي يحمل الناس على الاستقامة، الإيمان باليوم الآخر، إن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

علم الله وحسابه و عقابه:

هذا الذي يعلم أن الله يعلم ويحاسب ويعاقب لا يظلم زوجته خوفاً من الله، لا يظلم أولاده خوفاً من الله، لا يظلمهم في الميراث، لا يظلم جيرانه، لا يغتصب شبراً من أرض فكيف من يغتصب بيتاً ؟ فكيف من يغتصب أرضاً ؟ فكيف من يغتصب شركة ؟ العبرة أن تعلم، درسنا ثلاث كلمات: إن الله يعلم وسيحاسب وسيعاقب، ولا يستطيع أحد أن يتفلسف من حساب، ولا من عقابه ؛ والعقاب إلى أبد الآبدين، والله عز وجل يقول:

(اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40))

(سورة فصلت)

ضبط الناس عن طريق القوانين:

الآن ما الذي يضبط الناس في حياتهم المدنية ؟ القوانين، ومع القوانين ما يسميه علماء القانون المؤيدات القانونية، قانون السير لا قيمة له إطلاقاً ما لم يدعم بمؤيدات، من يقود هذه المركبة بلا إجازة

يعاقب، يحاسب، يسجن، يدفع غرامة كبيرة، تصدر المركبة، لا يوجد قانون بالأرض إلا له مؤيدات قانونية، المؤيد هو الذي يحمل الناس على إتباع القانون، من الذي يدفع الناس إلى دفع الضريبة ؟ أنها تتضاعف ثلاثة أضعاف إن لم تدفعها في وقتها، ما الذي يمنع الناس ألا ينقلوا بضاعة غير نظامية ؟ نظام الجمارك تدفع ثمانية أمثال الثمن، هذه المؤيدات بها ينضبط الناس، في حياتهم المدنية، فما قولك بجهم إلى أبد الآبدين، أي عقاب يوقعه إنسان لا قيمة له أمام هذا العقاب، أي عقاب يوقعه إنسان ليس بشيء أمام أن يدخل الإنسان النار.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا(56))

(سورة النساء)

فلذلك الآية الكريمة:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَظِيمًا)

يوم صعب وكل واحد منا من خلال خبرته بالحياة أمامه أيام عصيبة يقول لك: دخلوا لعندي و عندي بضاعة غير نظامية، تعرف المضاعفات و المؤدى و تفعل هذا ؟ يقول لك عملت حادثاً و لا أملك رخصة، تجده قد اختل توازنه، اصفر لونه، ارتعدت مفاصله، لأنه لا يملكه رخصة قيادة، ما معه إجازة، ما معه أوراق البضاعة، البضاعة غير نظامية، مع إنسان من جلدتك من بني جنسك، لكنه أقوى منك، وبإمكانك تخفي عنه بعض المخالفات، وبإمكانك أن تشتريه، وبإمكانك أن تصرفه، وبإمكانك أن تكذب عليه أما مع الله لن تستطيع أن تكذب، لن تستطيع أن تحتال، لن تستطيع أن تخفي، لا تخفي منكم خافية.

الإيمان باليوم الآخر يحمل الناس على الاستقامة:

أخوانا الكرام: الكلام المفيد، المجدي، الواضح، الدقيق: الإيمان باليوم الآخر وحده هو الذي يحمل الناس على الاستقامة، الإنسان لا يعد ذكياً إذا أخذ شيئاً ودفع مقابله أضعافاً مضاعفة، هذا شيء واضح في حياتنا.

مثلاً: إذا نقلت بالطائرة حاجات، ووجدت أن أجرة نقلها بالشحن الجوي أعلى من ثمنها لا تفعل كذلك، أحياناً تجد أن ثمن الكيلو غرام زيادة عن الوزن النظامي لك تدفع ثمنه بالعملة الصعبة، أعلى من ثمن البضاعة كلها لا تفعل ذلك.

بأمور الدنيا أنت عندك حساب دقيق، عندك حساب أرباح وخسائر ما ينبغي أن تفعل وما لا ينبغي أن تفعل، لماذا بأمور الآخرة تغفل الحساب الدقيق ؟

كل هؤلاء العباد عباد الله و الله معك، ويعلم ما تفعل معه، تحتال على إنسان، توهمه - طبعاً المهن الراقية فيها احتمالات كثيرة جداً - توهم المريض أنه يحتاج إلى عملية، الله يعلم أن هذا الكلام غير صحيح، توهم هذا الموكل أن دعواه رابحة وتعلم علم اليقين أنها خاسرة، توهم هذا الطالب أنه سينجح وهو لا ينجح من أجل أن تأخذ منه مبلغاً على كل درس، يعني هذا الذي يفعل شيئاً لا يرضي الله، كيف يتوازن لو علم أن الله يعلم ؟ وكيف يتوازن لو علم أن الله سيحاسب ؟

دقق: موظف له مدير قوي جداً وقاسي جداً ونظامي جداً وله عيون قبل أن يتحرك أي حركة، كيف سأجيبه لو سألني ؟ كيف سأخرج من سخطه لو حاسبني ؟ ماذا أبرر عملي لو عرف ذلك ؟ أنت مع إنسان منضبط، مع إنسان لا تحبه و لكنك تنضبط، لا تحبه وليس له فضل عليك ولم يمنحك الحياة ولم يمنحك شيئاً.

فيا أيها الأخوة الكرام: هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَريراً (10) قَمْطَريراً)

جهز لربك جواباً قبل أن تلقاه:

نصيحة أخوية أنصح بها نفسي قبلكم: قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تتخذ قراراً، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن تصل، قبل أن تقطع، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تزور فلاناً، قبل أن تعاديه، قبل أن تقطعه، هيئ جواباً لله عز وجل.

البائع مع الزبائن، والموظف مع المواطنين، والطبيب مع المرضى، والمحامي مع الموكلين، والمدرس مع الطلاب، لو أن هذا الطالب سألك يوم القيامة: يا رب لم يعلمنا شيئاً، أمضى الوقت بكلام فارغ، ما علمنا شيئاً، لو أن هذا المريض قال يا رب لم يعالجني لكنه أبتز مالي، لو أن هذا الموكل قال يا رب لم يدافع عني ولكنه أوهمني، لو أن هذا الشاري قال يا رب غشني، أخذ منا أضعاف ثمن هذه البضاعة، بماذا تجيب الله عز وجل ؟ لا تكون عاقلاً إلا إذا هيأت الله عز وجل جواباً عن كل حركة وسكنة، عن كل موقف، عن كل عطاء، عن كل أخذ، في بيتك محاسب، مع أولادك محاسب، مع زوجتك محاسب، مع جيرانك محاسب، إن لم تنصح المسلمين محاسب، الدين نصيحة.

مواجهة الله عز وجل:

أنا أعرف بمعلومات متواضعة أن الدواء المنتهي مفعوله لا يؤدي، لكنه لا ينفع ثم تبين لي من خلال أخوة كرام أطباء، أن الدواء المنتهي مفعوله يؤدي لأن هذه المادة الفعالة تتفكك، وحينما تتفكك تنقلب إلى مادة سامة فهذا الذي يبيع دواء قد انتهى مفعوله، كيف سيواجه الله عز وجل ؟ هذا الذي يضع مواد مسرطنة في المواد الغذائية، من أجل أن يربح أكثر، أن يبيع أكثر، كيف سيواجه الله عز وجل ؟.

في معمل حلويات من أرقى المعامل في الشرق الأوسط، كان يصدر كل يوم طائرة مترعة بالحلويات إلى دول الخليج يومياً، طائرة مترعة (ممتلئة)، دخل صاحب المعمل إلى معمله، لم يعجبه عمل بعض العمال، فأمسك العجينة ووضعها على الأرض، وعركها بقدميه وحذائه، فقال له هذا العامل يا سيدي أيعقل أن تعركها بقدميك وحذائك ؟ فقال: الناس يأكلون من تحت قدمي، لم يمض ثلاثون يوماً على هذه الكلمة حتى أصيبت رجلاه معاً بالغرغرين، فقطعنا، أتعرف من تحارب ؟ كل شيء بيده، جسمك بيده، الغرغرين بيده، القلب بيده، الشرايين بيده، الدسام بيده، سيولة الدم بيده، الأعصاب بيده، العظام بيده، نمو الخلايا بيده، من حولك بيده، الله كبير.

الاستعلاء على عباد الله ثمه جهنم:

هذا الذي يتحرك حركة عشوائية، يأخذ ما ليس له، يستعلي على عباد الله، يبتز أموالهم، يلقي في قلوبهم الرعب، أحياناً من أجل أن يجروا هذه العملية وهم لا يحتاجون إليها، من أجل أن يوكلوه ودعواهم خاسرة، من أجل أن ينجحوا أبناءهم، وأبناءهم في وضع سيئ قبل الامتحان، فهذا الذي يتحرك حركة لا ترضي الله ما الذي يحميه من الله عز وجل ؟ كم من إنسان أقسم يميناً غموساً أمام القاضي بعد ساعة كان مشلولاً، هم كثيرون، هذا الذي لا يخاف الله لا يعرفه ؛ ولو عرفته لارتعدت مفاصلك ارتعاداً شديداً.

إدراك الإنسان مرتبط بخوفه من الله:

حينما تتحرك لإيذاء أحد من خلقه، أحياناً إنسان يؤدي حيواناً، حيوان بريء بلا ذنب، عدواناً عليه فيصاب بمرض عضال فلذلك:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَمُوسًا قَمْطِيرًا (10) قَمْطِيرًا)

يوم مخيف وطويل، الذي يخاف هو الذي ينجو، والذي لا يخاف هو الذي يقع وعلى مستوى السير في المركبات، السائق الذي يخاف الحادث قلما يقع في الحادث، والسائق الطائش هو الذي يدفع الثمن باهظاً، لا يخاف فيقع في شر عمله، الخوف مرتبط بالإدراك، الذي لا يدرك لا يخاف، علامة إدراكك خوفك من الله:

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

والإنسان حينما يخاف في الدنيا يطمئن الله في الآخرة،

((لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إن خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة، وإن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة))

يعني مستحيل أن تخاف الله ثم يخيفك من عبادته، مستحيل أن تخافه في الدنيا ويخيفك يوم القيامة.

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)
(11)

النجاة من عذاب يوم القيامة:

إن الشعور بالنجاة شعور مسعد، الناس هلكى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَدَّهْلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)
(2)

(سورة الحج)

أن ينجو المؤمن من هول هذا اليوم، من عذاب هذا اليوم، من شدة هذا اليوم، من هول المطلع يوم القيامة، أن تتجو.

أحياناً إنسان مؤدي ما عليه تجاه القوانين، تأتي حملة هو يشعر براحة غير معقولة هو مواطن صالح، دافع الضريبة، أموره كلها صحيحة، تجده مرتاحاً، أنت مرتاح مع إنسان فكيف مع الله عز وجل ؟

(فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11))

وجه متألق، قلب مسرور، نظرة في وجوههم، و سروراً في قلوبهم.

أحياناً الإنسان يكون أنيقاً، جميل الصورة لكن قلبه مظلّم، وأحياناً يكون في راحة في قلبه، لكن يوجد كآبة في وجهه، أما كمال السعادة أن يكون القلب مسروراً والوجه متألّقاً،

(فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11))

، نضرةً بالضاد بالنضارة.

(وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12))

الدين كله صبر

(وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا)

غض البصر يحتاج إلى صبر، ضبط اللسان يحتاج إلى صبر، أن تكف أذنك عن سماع الغناء يحتاج إلى صبر، في أغنيات جميلة جداً، وفي نساء كاسيات عاريات، وفي حديث ممتع لكن فيه غيبة، فاللسان ينضبط صبراً، والعين تنضبط صبراً، والأذن تنضبط صبراً، وأن تكون قوياً ثم تخشى الله عز وجل فلا تستعمل هذه القوة إلا فيما يرضي الله، يحتاج إلى صبر.

أن تمشي إلى بيوت الله فقط، يوجد بيوت أخرى فيها أضواء، فيها جمال، فيها طعام، وفيها نساء كاسيات عاريات، أن تتجه إلى المسجد، وأن تأوي إليه، وآخرون يتجهون إلى الملاهي، إلى السهرات المختلطة، إلى الفنادق، إلى الحفلات، يمتعون أعينهم بالنساء الحسنات، ويتحدثون من لغو الكلام، المؤمن يتجه إلى بيت الله، ليتعلم كتاب الله ليرضى الله عنه، يوجد فرق كبير جداً

(وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا)

إنسان يسكن في بيت أجرته مائة ليرة، والقانون معك وسلمته لأصحابه عن طيب قلب خوفاً من الله، والقانون يحميك أنت وزوجتك وأولادك إلى ما شاء الله

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا (10))

عندك بضاعة جاء من يشتريها ولا يعلم عيبها، فكشفت له العيب، هذا الشيء يحتاج إلى صبر الأسهل أن تبيعها دون أن تكشف العيب، وترتاح منها، وكأنها جبل على صدرك، يقول لك: أعطيناها لفلان، أين الله؟ والقبر ماذا تفعل به؟

(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا

((11))

هذا الذي يخاف الله في الدنيا، هذا الذي يخشاه، هذا الذي يقف عند حدوده، ضابط أموره، نفسه طوع بنانه، هو قائد على نفسه وليس مقوداً لها، قال تعالى:

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12))

المباحات في الآخرة:

1 - الحرير:

الحرير في الدنيا ممنوع، لكنه في الآخرة مباح.

2 - الحور العين:

لا يحق لك أن تنظر إلى امرأة لا تحل لك في الدنيا، لكن في الجنة حور عين، لو أطلت إحداهن على الأرض لغلّب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، هذه مباحة لك يوم القيامة من دون حرج، الذي غض بصره في الدنيا، وقال إني أخاف الله رب العالمين، أما أهل الدنيا يتهمونهم، انظر لها، إن الله جميل يحب الجمال، ويتفلسفون

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12))

حلاوة الإيمان ثمنها ضبط الجوارح:

هذا الذي ضبط شهواته، ضبط لسانه، ضبط عينه، ضبط سمعه، ضبط أذنه، ضبط دخله، آلاف الدخول مشبوهة، آلاف الدخول محرمة، لا يقبل إلا قرشاً حلالاً يرضي الله عز وجل، لا يأخذ إلا مبلغاً واضحاً معاذ الله، قد يكون في أمس الحاجة إليه، لكن المال الحرام تحت قدمه يقول: معاذ الله، الله الغني، والله يوجد موافق فيها بطولة، يكون إنسان فقير يحتاج إلى مائة ليرة، يعرض عليه مئات الألوف، ملايين، اكتب وفاة طبيعية، الوفاة فيها جريمة، اكتب وفاة طبيعية خذ عشرة ملايين، يقول لك: معاذ الله أن أخون أمانتي، الطب الشرعي أمانة، أبدأ.

اشهد هذه الشهادة خذ مائة ألف، يقول لك: معاذ الله، وأساساً الله عز وجل يضع الإنسان في موقف صعب ليكشف حقيقته، أنا لا آخذ قرشاً حراماً على مستوى ألف، ألف وما دون لا تأكل قرشاً حراماً، أما مليون تفكر فيها، تقول عندي أولاد ماذا أفعل جميع الناس تفعل هذا ؟ فالله عز وجل يضع الإنسان

في موقف ليكشف حقيقته، مهما حاولت أن تخفي حقيقتك، فانه يكشفها، في ظرف صعب، والحديث الشريف:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا....))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك]

فالناس يقتتلون على أن يولد ابنهم في أمريكا ليأخذ جنسية، أعرف إنساناً مؤمناً قبل أن تلد امرأته بأسبوع أرسلها إلى الشام لتلد في بلد إسلامي، حتى لا يفكر أن ابنه صار معه جنسية، دائماً مسيطر، دائماً يملك زمام نفسه، دائماً يرضي الله ولا يعبأ بالنتائج، العبرة أن أكون في طاعة الله، العبرة أن يرضى الله عني، الله عز وجل يتكفل الباقي، وأساساً الإنسان ليس مكلفاً إلا بهذا.

(بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

مهمة الإنسان في الدنيا:

1 - عبادة الله تعالى:

على الإنسان أن يعبد الله فإذا عبده جاءت الخيرات من كل جانب.

2 - شكر الله عز وجل:

على الإنسان أن يشكر الله.

لك مهمتان، والله الذي لا إله إلا هو لا تحتاج إلى مهمة ثالثة، عبده واشكره:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قَالَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ، قَالَ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[أخرجه البخاري عن معاذ بن جبل]

أي لك ضمان من الله، تطمين من الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51))

(سورة التوبة)

جزاء الله تعالى للصابرين:

أحياناً الناس يُسحقون بالهموم، وأنت واثق برحمة الله، يا رب أرجو رحمتك فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، واثق من حفظ الله لك، ما معنى قول الله عز وجل ؟

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

(سورة الأنفال)

معهم بالحفظ، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالتوفيق، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يَوْجِدُ إِنْسَانًا مُؤْمِنًا يَخْطُبُ وَدَّ اللَّهُ بَطَاعَتَهُ، والاستقامة على أمره، والإقبال عليه، والتقرب منه، إلا يرى العجب العجائب، يرى معاملة لا تصدق من قبل الله عز وجل، حفظ ودعم وتأيد وتوفيق، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153))

(سورة البقرة)

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

(سورة النمل)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64))

(سورة الأنفال)

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

طاعة الله ثمن محبته لك:

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، أتزهد بمعية الله عز وجل، إله عظيم بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده كل شيء، إليه يرجع الأمر كله، قدرته، ورحمته، وعلمه، ولطفه معك، الثمن أن تطيعه فقط، وطاعته بإمكانك، ضمن وسعك، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، كل ما عند الله تناله بطاعته فقط، وطاعته بين يديك، أمره بين يديك، وقد رغب في فطرتك أن الحق تعرفه بالفطرة وأن الخطأ تعرفه بالفطرة،

(فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12))

صبر على أولاده، صبر على زوجته، صبر على والديه، وقد تقدمت بهم السن، تعليقات لا تحتل، طلبات غير معقولة.

ضبط الشهوات وفق منهج الله:

أخوانا الكرام: الإيمان هو الصبر، أي ضابط شهواتك، ضابط غرائزك، ضابط ميولك، ضابطها وفق منهج الله، وكل شيء فيه حركة عشوائية، ويوجد حركة محددة وفق المنهج، لك أن ترى كل شيء ولك أن تنتظر إلى من تحل لك - هذا الدين - لك أن تسمع كل شيء، أما المؤمن يسمع ما يحل له، لك أن تتحرك إلى أي مكان، لكن المؤمن يتجه إلى بيت الله فقط، يعني الحركة مقيدة بالشرع، والإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن:

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا (12))

مشاهد من الجنة:

1- فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر:

الآن: ربنا عز وجل بحكمة بالغة أراد أن يقدم لنا مشاهد من يوم القيامة، الحقيقة الجنة فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

2 - فيها أنهار من عسل مصفى:

من باب التقريب كل أوصاف الجنة أوصاف رمزية بمعنى: إذا الله قال لك بالجنة يوجد أنهار من عسل، يجب أن تعلم علم اليقين أن عسل الجنة غير عسل الدنيا، لكن الله سماه عسلاً كي يقرب المعنى إليك، أما عسل الجنة لا يقاس بعسل الأرض.

3 - اختلاف المرأة:

المرأة في الجنة لا تقاس بالمرأة في الأرض.

4 - البساتين الجميلة:

والبساتين في الجنة لا تقاس ببساتين الأرض، لكن لا يوجد طريقة أخرى، أي الكلمات عندك في الدنيا مرتبطة بالمفاهيم، فربنا عز وجل يستخدم هذه الكلمات نفسها ليقرب لك حال أهل الجنة، مع أن حال أهل الجنة لا يعلمها إلا الله، قال:

(مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَانِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13))

مثلاً: كلكم في بعض أيام الربيع أو أيام الخريف تجدون الجو رائعاً لا برد ولا حر، لا يوجد برد مزعج، ولا يوجد حر مزعج، جو لطيف، نسمات لطيفة، لا تحتاج لا إلى مدفأة، ولا إلى مكيف، ولا إلى مروحة.

أحياناً إنسان يجلس على كرسي قاس نصف ساعة يتضايق، أما إذا وجد فرش مريح جداً (وثير)، منجد تنجيداً راقياً، ليوثته عالية جداً، يحيط الجسم كله، كرسي صغير صعب فقط يصلح للجلوس ربع ساعة أو خمس دقائق، أما جلسة طويلة تحتاج إلى أثاث مريح، واسع، عريض، يستوعب الجسم كله، وفيه مرونة بالغة

(مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَانِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13))

جلسة مريحة.

أحياناً الإنسان على الأرض يغير جلسته مرتين أو ثلاثة، كلما جلس جلسة تؤلمه أقدامه فيغير من جلسته، لأن الأرض قاسية، أما على كنبه وثيرة جداً سبع ساعات لا يتعب، لا تغير جلستك، فالجلسة مريحة.

مثلاً: الجامع هنا ليس كالجنة:

(مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَانِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13))

جو مريح لطيف.

وصف شجر الجنة:

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14))

أحياناً تجد شجرة، ظل الشجرة لا يقدر بثمر بالصيف، سبحان الله يوجد نباتات خلقها الله خصيصاً لتكون مظلة، هذا الزيزفون عبارة عن دائرة نظامية، كثيفة جداً، دائمة الخضرة، أوراقها صغيرة، تتراقص مع الريح، جزعها مستقيم، الأخوة في الساحل أكثرهم يزرعون شجرة أمام بيوتهم تجد مظلة، في الصيف ظل ظليل أي كثيف الظل، لأنها مطبقة، أوراق كثيفة جداً، و ثخانة الأوراق واسعة، ودائرة ممتدة، هي شجرة تقدم لك ظلاً لا يقدر بثمر

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14))

الإنسان أحياناً يرى نخلة فارعة الطول فيها بلح شهى لكنه بعيد، أما الفواكه في الجنة بمتناول اليد، أنت واقف بمتناول يدك، وأنت جالس بمتناول يدك، وأنت مضجع بمتناول يدك، هي تأتي لعندك

(وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14))

أحياناً تجد صبارة في الصيف فتتضمني أن تأكلها لكنها ممثلة بالشوك، مشكلة تريد قفازات، انتبه المزرعة مرشوشة بالمواد المبيدة، يجب أن تغسلها وإلا هناك مشكلة، أما في الجنة لا تحتاج لأن تغسلها ولا فيها شوك ولا فيها بزر ولا هي عالية، قال تعالى:

(وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14))

هذا حال أهل الجنة.

(جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31))

(سورة النحل)

اطلب تعطى، خاطر يأتنيك تراه أمامك، أما في الدنيا يأتنيك مليار خاطر، لا يتحقق واحد منهم، يقول لك: العين بصيرة واليد قصيرة، بالجنة خاطر واحد، أي خاطر تجده أمامك.

(وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ

((15))

5 - استعمال الفضة و الذهب في الجنة:

الفضة محرمة في الدنيا، استعمال أواني الذهب والفضة محرم في الدنيا، العلماء قالوا: كلمة فضة يضاف عليهم صحاف من ذهب الفضة تشير إلى الذهب أيضاً، وبعضهم قال الفضة لها اختصاص دقيق جداً، معدن الفضة معدن معقم.

خصائص معدن الفضة:

في كل معامل الماء آخر مرحلة يمر الماء بمواسير من فضة، لأن الفضة تعقم الماء الذي يمر من ضمنها، لو ألقيت قطعة فضة في إناء الماء يعقم فوراً، فهذه إشارة علمية إلى أن الفضة من خصائصه التعقيم.

قرأت في كتاب علمي موثوق أن: معامل الماء آخر مرحلة الماء يمر في أنابيب من فضة كي يعقم، الفضة لها إشعاعات تعقم الماء الذي بداخله

(وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15))

يوجد أكواب ماء ثمن الكوب خمسة آلاف ليرة، كريستال، تحتار بالصفاء، تحتار بالألوان أحياناً، يعطي ألوان قوس قزح، وهو محفور حفرًا جميلاً جداً، يوجد أشياء ثمينة جداً الكأس الواحد ثمنه خمسة آلاف، هذا الكريستال، قال:

(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير)

هي من فضة وبصفاء البلور.

(قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا (16))

أحياناً تكون في غاية العطش يأتيك كأس شرب صغير، تنزعج وتقول ألا يوجد أكبر منه ؟ أحياناً ترغب أن تشرب ماء قليلاً يأتيك كأس كبير تنزعج منه، أحياناً لا يأتي الكأس متناسب مع حاجتك، تحتاج إلى ماء كثير بالصيف، يأتي الكأس صغير، بالشتاء يأتيك كأس ماء كبير، وأنت تريد ربعه، قال هذا الكأس بالجنة:

(وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا (16))

بقدر حاجتك.

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17))

أحياناً: إنسان يضيفك شراب معه ماء الزهر، يقول لك شاي معطر مبالغة بالإكرام، يوجد شاي معطر، يوجد قهوة مع هيل، أحياناً شراب فواكه مع ماء الزهر، تشعر بانتعاش بهذا العطر، أما في الجنة:

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17))

فوائد الزنجبيل:

(إِنَّ النَّبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5))

(سورة الإنسان)

هنا زنجبيل.

بالمناسبة: هذا الشيء ليس له علاقة بالآية، أحد أخوانا الأطباء بحث بالقرآن الكريم عن التوابل فوجد الكافور، والزنجبيل، والمسك، فقرأت عن الزنجبيل شيء لا يصدق، كل أدوية القلب مجموعة في الزنجبيل، موسع للشرابيين، ينظم ضربات القلب، يزيل الكولسترول عن جدران الشرايين.

موضوع الزنجبيل في يوم من الأيام كان خطبة جمعة، أخ كريم طبعاً من مصادر قديمة، و من " 12 مصدر حديث (مقالات علمية حديثة) عن تركيب الزنجبيل، عرضته على طبيب قلب فدهش، قال لي: كأن أدوية القلب كلها في هذا الزنجبيل فهو منظم لضربات القلب، موسع للشرابيين، خافض للضغط، مزيل للكولسترول.

يوجد أشخاص يطحنوه ويضعونه مع بعض الشراب، نحن نحتاج أن نراجع كل علمنا الطبي، يوجد أدوية نباتية رائعة جداً، ليس لها أي أضرار وفيها طابع الوقاية، سمعت في بعض القرى في مصر قرية يكثر من أكل الترمس، شيء خارج اهتمامنا، لا يوجد عندهم أي مشكلة صحية قلبية إطلاقاً. في بلدة في بريطانية قاسوا الضغط جميعاً، لا يوجد في هذه البلدة أي إنسان معه ضغط مرتفع لأنهم لا يأكلون الملح أبداً، فالمح عادة غذائية سيئة، نحن بالإمكان أن نأخذ الملح من التفاح الجسم يأخذه، يأخذ حاجته من أي شيء، نحن تعودنا أن الأكل القليل الملح لا نحب، هي عادة غذائية سيئة. على كل أكثر أدوية القلب مجموعة في الزنجبيل:

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17))

6 - في الجنة عين تسمى السلسبيل:

(عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18))

يوجد أيضاً ماء سلسبيل عذب فرات أي مستساغ.

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمَنْ كَلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَبَنَّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12))

(سورة فاطر)

عين في الجنة اسمها السلسبيل

(يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا)

7 - يطوف على الناس ولدان مخلدون في جمالهم:

والذين يخدمون:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (19))

أحياناً بالفنادق الراقية جداً - بمقياس الأرض طبعاً - يستخدم الموظفون لهم وجه حسن، الوجه الصبوح له أثر كبير، حتى بعض المحلات التجارية يهتمهم إذا أرادوا أن يجذبوا الزبائن أن يكون الموظف لبقاً، وهندامه حسن، ووسيم الصورة، هذا شيء طبيعي بالعلاقات العامة، هنا:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (19))

أي حتى الذين يطوفون على الجنة ولدان مخلدون في جمالهم.

أحياناً تجد الطفل بأوله قطعة من الجمال، كلما كبر يتغالب بعد ذلك لا يحتمل، ما معنى مخلدون ؟ في هذا الشكل الحسن، في هذه النعومة، في هذا اللطف، في هذا الحياء، في هذه الطبيعة الطيبة، في هذا الجمال، مخلدون في هذا الحال:

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثوراً (19))

هذا مشهد من مشاهد أهل الجنة.

ثمن الجنة:

والثمن الطاعة، والثمن بين أيديكم جميعاً، الضبط، الصبر، أي الصبر لوقت محدود، والجنة إلى أبد الآبدين، والحياة هكذا.

أحياناً تتركب بمركبة على اليمين شمس، وعلى اليسار ظل، المركبة سوف تدور دورة كاملة بعد دقيقة، تنعكس الآية إلى مسافة طويلة جداً، فالذي يختار الشمس لدقيقة يتمتع بالظل لساعات، أذكى بكثير من الذي يختار الظل لدقيقة ويحترق بالشمس لساعات، هذا مثل من واقعنا، الذي يختار الظل لدقيقة ويحترق بالشمس لساعات أعمق، أما الذي يختار الشمس لدقيقة ويتمتع بالظل لساعات ذكي جداً وعاقل، فالدنيا محدودة، والإنسان فيها يعيش ستون، ثمانية وخمسون، اثنان وستون، ثلاثة وسبعون، يعني سنوات، صلى الصلوات الخمس، غض بصره، ضبط لسانه، ضبط دخله، بيته إسلامي، أطاع الله، أدى الصلوات، طلب العلم، نشر العلم، يأتي وقت تنتهي حياته، ماذا بقي ؟ بقيت له الجنة إلى أبد الآبدين.

النبي صلى الله عليه وسلم له كلمة جميلة قال: أما الأنصار فقد أدوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فالمؤمن أدى الذي عليه، بقي الذي له، أما غير المؤمن، تمتع متعاً رخيصة لفترة قصيرة وسيتحمل العذاب إلى أبد الآبدين.

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلََّا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

الآخرة خير و أبقى للإنسان من الدنيا:

مثلاً: إذا خيرنا إنسان بين أن يركب سيارة لربع ساعة، أو يمتلك دراجة دائماً، ما الذي يختار ؟ طبعاً يختار الدراجة.

إذا: لو خيرناه بين سيارتين، متشابهتين تماماً، واحدة ربع ساعة، والثانية دائماً هل يتردد ثانية ؟ ولا ثانية.

لو عكسنا المثل، تركب دراجة ربع ساعة وتتملك سيارة ثمنها خمس وعشرين مليون إلى أبد الأبد، تتردد ثانية ؟ هذا هو.

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

(سورة الأعلى)

خير وأبقى لماذا ؟ لأمدّها اللانهائي ونعيمها المقيم، أما هذا الذي يختار الدنيا على الآخرة أحمق، اختار شيئاً أقل وأقصر والمؤمن اختار الآخرة، يقال للمؤمن زاهد، لا ليس زاهداً، الزاهد هو الكافر، زهد بعطاء الله، زهد بالجنة، أما المؤمن طماع، طموح أثر الآخرة على الدنيا.

نتيجة ثمينة:

آخر كلمة: من أثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن أثر دنياه على آخرته خسرها معاً، وأجمل دعاء هو: اللهم اجعل نعم الدنيا متصل بنعم الآخرة، أي إذا الإنسان متعه الله بصحته، متعه بسمعة طيبة، متعه بأولاد أبرار، بزوجة صالحة، بعمل حلال، ثم توفاه الله إلى الجنة، هذا الشيء رائع جداً، تكون نعم الدنيا قد اتصلت بنعم الآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 076 - الدرس (4-5): تفسير الآيات 20-27 جزاء المؤمن و الكافر
يوم القيامة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع ولعله هو الأخير من سورة الدهر، ومع الآية العشرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلِذُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (19))

النعيم الأرقى في الآخرة النظر إلى وجه الله الكريم:

كل شيء بالجنة مسعد، بدءاً من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، إلى الفواكه التي قطوفها دانية، إلى الحور العين التي لو أطلت إحداهن على الأرض لغلّب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، إلى الولدان المخلدين الذين يطفون على أهل الجنة، وهذا كله نعيم حسي أما النعيم الأرقى النظر إلى وجه الله الكريم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

((26))

(سورة يونس)

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ)

أي الجنة،

(وَزِيَادَةٌ)

النظر إلى وجه الله الكريم، هناك شيء فوق هذا.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72))

(سورة التوبة)

إن الله مع المؤمنين:

قد تنظر إلى شيء رائع ولكن هذا الشيء الرائع لا ينظر إليك، أما رضوان الله عز وجل هو أعظم شيء يناله مخلوق في الكون ؛ أن يرضى الله عنك، ووسائل الرضا بين يديك، وإذا شعرت أن الله راض عنك وأنت في الدنيا فأنت أسعد الناس.

ما من شعور يسعد الإنسان في الأرض كأن تشعر أن الله راض عنك، ما من شعور يسعدك في الدنيا كأن تشعر أنك في طاعة الله، وأنت تحت ظل الله، وأنت في رعاية الله، وأنت في توفيق الله، وأنت في نصر الله، شعور أن الله معك لا يوصف، لا يعرفه إلا من ذاقه، إن الله مع المؤمنين، أي إذا كان الله خالق الأكوان معك من يستطيع أن ينال منك بنظرة ؟

إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟ وإذا تخطى الله عنك تخطى عنك أقرب الناس إليك، وقلبوا لك ظهر المجن، وقد يهان الإنسان في عقر بيته ومن أقرب الناس إليه، وقد يُخيب أقرب الناس إليه ظنه، وقد يرى العجب العجائب إذا تخطى الله عنك، وإذا كان معك سخر لك ألد أعدائك، إذا كان الله معك كل من في الأرض معك، ألقى محبتك في قلوب الخلق، وإذا كان الله عليك، ألقى البغض في قلوب الخلق، ومن هاب الله هابه كل شيء، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء.

نعم الجنة الحسية:

أيها الأخوة: الجنة حسية فيها حور عين.

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13))

(سورة النساء)

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا

وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35))

(سورة الرعد)

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

أي شيء يخطر في بالك تراه أمامك ومتجدد إلى أبد الأبد، وفوق هذه النعم الحسية، هناك نعم النظر إلى وجه الله الكريم.

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

وفوق هذا وذاك:

(وَرَضَوْنَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (19))

[سورة الإنسان]

المؤمن في الجنة ملك كبير:

أيها الأخوة:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

(وَإِذَا رَأَيْتَ)

أي يا محمد

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ)

ثم: ظرف مكان بمعنى هناك، ثم شيء، وثم شيء آخر، لم يكن ثمة من أحد (لم يكن هناك من أحد)، ثم أي هناك، ظرف مكان

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ)

أي هناك،

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

مقام المؤمن في الجنة ملك كبير.

مثلاً: كيف أنك إذا عملت أن رجلاً له قصر مساحته عشرون ألف متر، أنا زرت قصرًا في استنبول، مساحته عشرين ألف متر، قاعة الاستقبال ألفي متر، فيه خمسة طن ذهب للتزيين، الأبهاء والمداخل، والحمامات، وغرف النوم، وغرف الاستقبال، والذهب المزين به الأقواس، والشيء الذي لا يوصف هذا لا يسمى بيتاً، ولا مسكناً، حتى ولا قصرًا، هذا ملك كبير.

مثل آخر: إنسان عنده مائة سيارة، عنده طائرات من كل القياسات، عنده يخوت بالبحر، عنده بكل بلد قصر، بكل مكان جميل بالعالم قصر، نقول: هذا ملك كبير

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا أَعَيْنُ رَأَتْ، وَلَا أَدُنُّ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ

بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الإحسان ثمن الجنة:

بينك وبين الجنة أن تطيع الله، وبينك وبين الجنة أن تعبد، وبينك وبين الجنة أن تفعل الصالحات، الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108))

(سورة الكهف)

هذا كلام الله، هذا ليس كلام أديب، نقول خيال شاعر، نقول أفكار ترد على ذهن عبقر، هذا كلام خالق الكون، فما عليك إلا أن تدفع الثمن.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

(سورة النحل)

أي كانوا:

(كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17))

(سورة الذاريات)

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16))

(سورة الذاريات)

هي الثمن:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

فهذه الجنات، وهذا النعيم المقيم بسبب الإحسان فقط، وكلمة إحسان مطلقة، في كل حركات المؤمن وسكناته محسن، في كل أقواله محسن، في كل تصرفاته محسن، محسن في بيته، في عمله، مع من حوله، مع من فوقه، مع من دونه، عمله متقن، كلامه طيب، تصرفاته أديبة، ثيابه ساترة، نظراته متواضعة، محسن، كلمة مطلقة تنتظم كل حركة الإنسان في الدنيا.

طاعتك لله لا تتناسب مع الأجر العظيم المقدم لك:

أيها الأخوة الكرام: لا يتناسب الثمن مع المبيع، أي طاعة الله عز وجل في سنوات محدودة، ما منعك من الطعام، ولا من الشراب، ولا من الزواج، ولا من أن تأكل و تتزوج وتسكن في بيت، لكن وفق

منهج الله. ما كلفك أن تصلي ألف ركعة في اليوم، خمس صلوات، الصلاة ثلث ساعة، ما كلفك أن تصوم كل أيام العام، شهر واحد، ما كلفك أن تحج كل عام مرة، الحج مرة، والعمرة مرة أو أكثر. فالصيام شهر في العام، والصلوات خمس، يوجد وقت تنام ثماني ساعات، و وقت تعمل ثماني ساعات، في وقت تقعد مع أهلك، وفي خمس صلوات، الفجر أربع ركعات، والظهر عشر ركعات، أو اثنتي عشرة ركعة، أي العبادات وفق طاقة الإنسان ضمن إمكانيته.

ما حرمك من النساء قال لك تزوج لكن نهاك عن الزنا، حرم عليك الخمر سمح لك بعشرة آلاف مشروب، أنواع العصير، وأنواع المشروبات، أنواع لا تعد ولا تحصى، لكن اترك الخمر، سمح لك بآلاف الأنواع من اللحوم، منعك عن لحم الخنزير فقط وبعدها في جنة، و الإنسان غبي إذا نسي جنة الله عز وجل.

عذاب الإنسان الشارد:

لذلك: الإنسان الشارد حينما يأتيه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا، من شدة الندم.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ (56))

(سورة الزمر)

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

هي كلمات الحسرة والندم تسحق الإنسان، نحن أحياء، نحن نستمع، أهل النار ماذا يقولون ؟ دققوا أهل النار وهم في النار يتصايحون ماذا يقولون ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

جنة الدنيا و الآخرة:

إذا استمعت إلى الحق واهتديت إلى الله عز وجل فزت بالجنة في الدنيا والآخرة، في الدنيا جنة القرب وفي الآخرة جنة الله عز وجل، فلذلك:

(وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا)

الإنسان يسكن ببيت مائة متر، مائة وعشرين، يعني إذا منتين يقول لك ما شاء الله، ثلاث غرف نوم، ثلاث صالونات، إذا عنده بيت وعنده مزرعة هذا شيء كبير، عنده بيت ومزرعة و فيلة على البحر أكبر وأكبر، عنده سيارة له، ولزوجته سيارة، ولابنه سيارة، واحدة للسفر و واحدة ضمن البلد، و واحدة كبيرة للأقارب، هي بالدنيا، فكيف إذا قال الله عز وجل وهو العظيم:

(وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

مثلاً: إذا قال لك طفل أنا معي مبلغاً كبيراً، كم تقدره ؟ طفل عمره ثلاث سنوات، أنا معي مبلغاً كبيراً، أي خمس وعشرين ليرة، إذا قال لك شخص من أكبر أغنياء البلد، قال لك: أنا معي ثروة ضخمة، يعني مائة ألف معه، قل خمسة آلاف مليون، قل سبعة آلاف مليون، إذا العظيم خالق الكون قال لك:

(وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

ذهب أخ لبلد أجنبي، قال لي: قصر الملك ضمن غابة عملاقة، السيارة تمشي فيه قريب الساعة، ضمن غابات القصر قال لي يوجد قصور بأوروبا، قصور بشرق آسيا، شيء لا يوصف استنبول هذا قصر دولمة بهجت هذا مساحته عشرين ألف متر، أي عشرين دونم، قاعة الاستقبال ألفي متر، ارتفاع السقف ارتفاع بناء بكامله، كله مزين، أنا ضربت أمثلة على قوله تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20))

لأن الله عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ))

طاعة الله ثمن الجنة:

شخص ما رأى هكذا قصور يقول لك مثل هؤلاء، لا ليس مثلهم، أكبر بكثير، إذا كان عنده رغبات سياحية، وطاف أرجاء الدنيا، ودخل إلى قصور الملوك، ورأى العجب العجائب، الآن يوجد قصور تجد فيها زخرفات، فيها تماثيل، فيها رخام، فيها ذهب، شيء لا يوصف، الحديث القدسي:

((أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

هذه الجنة ثمنها بيدك، ثمنها بيدكم جميعاً، ثمنها طاعة الله، وطاعة الله ضمن وسعك.

ثياب أهل الجنة:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ

فِضَّةٍ وَسِقَاهُمْ رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21))

أناس يرتدون ثياباً فخمة جداً، اللون الأخضر لون جميل و هو لون ثياب أهل الجنة،

(عَلَيْهِمْ)

أي يرتدون ثياباً من حرير، حرير رقيق وحرير غير رقيق

(ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسِقَاهُمْ رَبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21))

يعني ثياب فخمة جداً، حلي فخمة جداً، شراب طيب جداً، يقال لهم:

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22))

الخوف من الله:

أنت في الدنيا متزوج وعندك امرأة، لكن وأنت في الطريق مرت امرأة حسناء، ليس في الأرض كلها قانون يمنعك أن تنتظر إليها، ولكنك غضضت البصر عنها خوفاً من الله، هذا له ثمن. إذا كنت تمشي في طريق كله نساء كاسيات عاريات، ولم تركز ولا على امرأة، ولا أطلقت البصر إليهن، هذا له ثمن.

عُرض عليك دخل كبير من شبهة، يعني من مال حرام، أو عمل رفيع المستوى لكن لا يرضي الله، فقلت معاذ الله إن أخاف الله رب العالمين.

يوجد مكاسب في الدنيا كبيرة جداً، أحياناً يمكن أن تصبح من أصحاب الملايين بمعاملة غير شرعية، بكسب غير مشروع، تقول معاذ الله.

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

(سورة يوسف)

الجنة جزاء المؤمن العفيف الطاهر:

أنا ذكرت لكم هذه القصة مرات عديدة، لكن هنا مناسب أن أذكرها: رجل من أهل الغنى، في هذه البلد الطيبة، أراد أن يبني مسجداً، في حي ليس فيه مسجد، بحث عن أرض مناسبة، وجد هذه الأرض، صاحب هذه الأرض نالها بالإرث قبل أشهر و هو يعمل حاجباً في مدرسة ابتدائية (أذن)، دخله ثلاثة

آلاف، أربعة آلاف بالشهر، عنده ثمانية أولاد، يسكن ببيت متداعٍ، ودخله ثلاثة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، وليس له من الدنيا إلا هذه الأرض التي تملكها قبل شهر عن طريق الإرث.

هذا الرجل الميسور الغني أعجبه الأرض بحث عن صاحبها، سأل عنه، ساومه، فتمّ الاتفاق على أن يبيعها له بثلاثة ونصف مليون ليرة، وصار إيجاب وقبول وانتهى كل شيء وكتب العقد، وسطر هذا الغني شك لصاحب هذه الأرض بمليونين وقال: الباقي عند التنازل في الأوقاف، قال لماذا الأوقاف؟ قال له لأنني سأبني عليها مسجداً، فما كان من هذا الآن إلا أن استرجع الشك ومزقه و قال له: أنا أولى من أقدمها الله منك، وقدمها الله عز وجل.

يقول هذا الغني: ما مرّ في حياتي موقف صغرت أمام إنسان كهذا الموقف، رأى حاله لا شيء أمام هذا الآن، والآن هذا الجامع بناه أحد أخوانا وهو بنهر عيشة وله خيرات كثيرة، هذا الذي أعطى الأرض ما جزأه عند الله؟ له قصور لا تنتهي، الذي أنفق ماله ما جزأه عند الله عز وجل؟ الذي ضبط نفسه بالشرع؟

الآن البلد حفلات واختلاط وسهرات وأفلام وصحون يوجد كل شيء، وحفلات المجتمع المخملي، صدقوني: مؤمن يأوي إلى مسجده، فهذا الذي يغض بصره عن محارم الله، يضبط لسانه، ينفق ماله، يرفع حقوق الآخرين، زوج صالح، أب صالح، جار صالح، عامل متقن، طبيب نصوح، مهندس وفي، أي يتقن عمله، هذا المؤمن المستقيم الصادق الأمين العفيف، هذا له جنة عرضها السماوات والأرض.

ندم الإنسان على الوقت الضائع:

والله أيها الأخوة لو نعلم جميعاً ما علمه النبي عليه الصلاة والسلام بما أعد للمؤمنين من نعيم مقيم لما نام أحدنا الليل، لأن أي ساعة تمضي دون أن تذكر الله فيها خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد علماً بالله خسارة، أية ساعة تمضي دون أن تزداد قرباً من الله خسارة، أي شيء تنفقه دون أن تبتغي فيه وجه الله خسارة، أي لقاء تلتقي به دون أن تذكر الله خسارة، أية نزهة تمضي بها وقت دون أن تذكر الله فيها خسارة، أي اجتماع، أية سهرة، أية وليمة تقام ابتغاء الظهور خسارة.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَدَدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر]

هي الدنيا تمضي، ذكرت لكم مثل قبل يومين وأعيدته ما في مانع سباق سيارات، كبيرة، صغيرة، حديثة، قديمة، قوية، ضعيفة، جميلة، وغير جميلة، على طريق طويل ينتهي بقاطع خمسين متراً وتحت حفرة مالها من قرار، فأول سيارة تسقط، وآخر سيارة تسقط، وأكبر سيارة تسقط، وأصغر سيارة تسقط، وأحدث سيارة تسقط، وأقدم سيارة تسقط، والأولى تسقط، والأخيرة تسقط، كله نازل، هي الدنيا، غني ينزل ميتاً، الكفن ليس له جيب، دفتر شيكات لا يوجد بالقبر، الفقير يموت، المريض يموت، الصحيح يموت، القوي يموت، الضعيف يموت، الذي استغل أموال الناس يموت، المستغل يموت، كله يموت، ما هذا السباق؟

شخص ورث تسعين مليون ترك محله واندفع لتحصيل هذا المبلغ عن طريق المعاملات، مات قبل أن يقبض قرشاً واحداً، هي الدنيا، الدنيا جيفة طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له.

أيها الأخوة الكرام:

(إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

و قوله تعالى:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

(سورة الضحى)

يوجد وعد إلهي، قال تعالى:

(أَفْمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

((61))

(سورة القصص)

فالإنسان وعده الله بالجنة، وعده الله بنعيم مقيم، وعده الله بجنة عرضها السماوات والأرض، وعده برضوان منه، وعده أن ينظر إلى وجه الكريم، وهو خالق الأكوان، والإنسان لا يعبأ بهذه الوعود، ولا يخشى هذا الوعد، ويتحرك وفق شهواته، يشتم هذا، ويضرب هذا، ويأكل مال هذا، هذا هو الحق بعينه، هذا هو الغباء بعينه، هذا هو الشقاء بعينه:

(إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22))

مثلاً: إنسان يشكر إنسان، أي أب له ولد شارد عاق، وإنسان كريم أقنع هذا الابن أن يعود إلى مظلة أبيه، وأن يرضي والده، وأن يكون ابناً باراً، هذا الأب ما شعره تجاه هذا الإنسان الكريم الذي أعاد له ابنه ؟ أنا لا أبالغ يقول له أموت ولا أنسى فضلك، لأنه سبب برجوع ابنه له. إذاً: إذا شخص منكم أكرمه الله بهداية شخص آخر، أقنع إنساناً بالدين، أقنعه بالاستقامة، أقنعه بالتوبة، أقنعه أن يلزم مجلس علم، أقنعه أن يدع المنكرات، عبد شارد رُد إلى الله، هذا الذي رده إلى الله كم له عند الله ؟ هذه الدعوة صنعة الأنبياء.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح:

أيها الأخوة:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

أي لا تجد في الأرض كلها إنساناً أفضل ممن ساهم في نشر الحق و ردّ الناس إلى الله، وأقنعهم أن يستقيموا، وأقنعهم أن يعبدوا الله عز وجل.

أخوانا الكرام: الإنسان حجمه عند الله بحجم عمله الصالح، ألا تقرأوا هذه الآية:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120))

(سورة النحل)

فأنت أقنعت إنساناً بالإيمان، أقنعت إنساناً بالاستقامة، ساهمت بأخيك، بابن أخيك، بجارك، بزميلك بابنك، أقنعت أن يستقيم، أقنعت أن يعرف الله عز وجل، أقنعت أن يدع المنكرات، اعتنيت به، تفقدته، زرتة، خدمته، أعطيته، حتى أخذت بيده إلى الله هذه الآية دقيقة جداً

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

و الله أيها الأخوة: رأيت بعض الأخوة الكرام لهم عمل عظيم تجده هو وشركاؤه وأولاده وأقرباؤه وأصدقاءه القدامى كلهم صاروا في المسجد، وكلهم التزم، وكلهم تركوا المنكرات، هذا جهد عظيم، فأنت لا تعلم ما لك عند الله إذا ساهمت في هداية إنسان.

عطاء الله للإنسان المستقيم:

ضربت لك مثلاً من واقع الحياة، إذا كان ابن عاق، ابن شارد، ابن شرس، شخص ما أقنعه أن يصبح ابناً باراً، مستقيماً، أعاده إلى أبيه، ماذا يقول الأب لهذا الإنسان؟ يقول له: قدمت لي معروفاً لا أنساه مدى الحياة والله شاكر عليم.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

(سورة النساء)

فإذا خدمت الله عباده، ورحمت عباده، وطمأنت عباده، وتلطفت بعباده، ونصحت عباده، وأكرمتهم، وأعطيتهم، ودللتهم على الله، وكنت معهم، من الذي سيشكرك ؟ الله جل جلاله. أنا أنتظر من أخ أن يكون داعية، ليس من الضروري أن تتعين خطيباً إطلاقاً، ليس من الضروري أن يكون لك شريط ليكون لك اسم لامع، هذا وحيد عصره، فريد زمانه، لا، أنت إذا جارك أقنعت بالدين، إذا ابنك، إذا أخوك، إذا ابن خالتك، ابن عمك صديقك، اعتنيت به، زرت، أسمعت شريطاً، أعطيت كتاباً، دعيته للمسجد، تابعته، تفقدته، أنت ساهمت بهداية إنسان، لك عند الله عطاء لا يعلمه إلا الله، وهذه الآيات أمامك:

(إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22))

التجارة الربحية:

هؤلاء الذين فتحوا الصين، فتحوا شمالي أفريقيا، بالمغرب يوجد جوامع، بالجزائر يوجد جوامع، في تونس يوجد جوامع، في ليبيا يوجد جوامع، بمصر، بالسودان، نصف أفريقيا مسلمة، بالصين يوجد خمسين مليون مسلم، بأمريكا عشرة ملايين مسلم، بفرنسا هناك ألف مسجد، هؤلاء الذين نشروا الحق، ووسعوه، وأسعدوا الناس، هؤلاء ما لهم عند الله ؟ هي التجارة، هذا هو الذكاء، هذا هو التوفيق، هذا هو الربح، هذا هو الفلاح، هذا هو التفوق.

بعد ذلك الله عز وجل لا ينساك عندما تقدم شيئاً للآخرين، هم في مساجدهم والله في حوائجهم. و الدليل على هذا: إذا أنت ساهمت في خدمة الخلق، الله يرقيك بالصبر، يعني إما أن ترقى بعمل صالح، وإما أن ترقى بصبرك على مصيبة، أيهما أحسن لك ؟ الله يريدك، أنت مطلوب لرحمته، مادمت أمنت لك عنده مقاماً، هذا المقام إما أن تصل إليه في الأعمال الصالحة وخدمة الخلق والخروج من ذاتك، وإما أن تصل إليه بالصبر، والله أول طريق أجمل وأسعد وأكمل وأشرف فإذا خرجت من ذاتك لخدمة الخلق، تولى الله شؤونك

((عبي أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، عبي كن لي كم أريد، ولا تعلمني بما يصلحك - لا تكلف نفسك أن تقول لي ماذا تريد، أنا أعرف ماذا تريد - كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك))

أي إذا خرجت من ذاتك لخدمة الخلق الله عز وجل كفاك كل هم في الدنيا، والله عز وجل فيما ورد عن رسول الله هم في مساجدهم والله في حوائجهم، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاخدميه، ومن خدمني فاخدميه، إذا:

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22))

أي أنت عندما تؤمن لك معاملة خاصة، أنت مستثنى مما يصيب الشاردين، والتائهين، والغافلين، والعصاة.

وعود الله للمؤمن الصالح:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

(سورة النحل)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22))

فالإنسان يكون في رضوان الله وينتظر ما عند الله.

مرة قال لي أخ من باب المداعبة: هذا المؤمن يصيبه ما يصيب الناس، ما هي ميزاته ؟ إذا وجد الحر يذوق الحر مع الناس، إذا في برد، إذا في أزمة مواصلات يعاني من هذه الأزمة، في أزمة سكن يعاني منها، في غلاء أسعار يعاني منها، قلت له من باب التوضيح: لو إن إنساناً موظفاً فقيراً عنده ثمانية أولاد، دخله ألفين أو ثلاث آلاف، بيته بالأجرة، عليه دعوة إخلاء، يعني مصائب الدنيا اجتمعت عليه، وله عم حجمه المالي خمسمائة مليون، ما له أولاد، ومات هذا العم فجأةً بحادث، لمن هذه الخمسمائة مليون ؟ لابن أخيه الفقير المعدم، لا يستطيع أن يقبض قرشاً واحداً قبل عام، حتى تتم المعاملات القانونية، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس مع أنه لم يتمكن بعد من أن يأكل لقمة واحدة، ولا أن يرتدي ثوباً جديداً، ولا يغير بيته ؟ لأنه دخل في الوعد، الآن لا يملك شيئاً لكنه موعود بخمسمائة مليون، ربنا عز وجل قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

إذا أنت مغطى بوعد إلهي فأنت أعظم إنسان، قال تعالى:

(يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21))

(سورة التوبة)

طريق الهداية طريق النجاة:

فيا أيها الأخوة الكرام: يجب أن نسعى، يجب أن نحث الخطى، يجب أن نتحرى الحلال، يجب أن نقيم الإسلام في بيوتنا، أن نقيمه في أعمالنا، إذا أقمته في بيتك، وأقمته في عملك، أدبت ما عليك، وانتهى الأمر، لا تحمل هم الجميع.

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: 272)

الله عز وجل قال للنبي الكريم من أنت ؟ و قال له:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56))

(سورة القصص)

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ (41))

(سورة الزمر)

(قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ (104))

(سورة الأنعام)

ما على الرسول الكريم إلا البلاغ:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

هي مقام النبوة، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، بلاغ فقط، أما أنت شخصك مضمونة سعادته في الدنيا والآخرة بطاعتك لله، فإذا أنت كحل وسط بدأت بطاعة الله، وأقمت الإسلام في بيتك وعملك انتهى الأمر، وبعد ذلك افعل ما تشاء، وادع كما تشاء ولكن ضمننت سلامتك أنت أولاً.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24))

أسماء الله الحسنى داخله في أفعاله:

إخوانا الكرام: أحياناً ربنا جل جلاله يعبر عن ذاته بضمير المفرد فيقول:

(إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

(إِنِّي أَنَا اللَّهُ)

هكذا الآية وردت في سورة طه:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

و هنا وردت

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23))

قال بعض العلماء: ولعل في هذا الكلام شيئاً مقنعاً، أن الله جل جلاله إذا تحدث عن ذاته العلية تحدث بضمير المفرد، وأما إذا تحدثنا عن أفعاله العظيمة، تحدث بضمير الجمع، لأن كل أسمائه الحسنى داخله في أفعاله، أي فعل الله فيه رحمة، فيه عدل، فيه حكمة، فيه لطف، فيه قوة، فيه قهر أحياناً، أفعاله فيها كل أسمائه، لذلك الحديث عن أفعاله بضمير الجمع.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43))

(سورة ق)

الوحي لا يملكه النبي الكريم:

هنا:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23))

فتنزيل مفعول مطلق مؤكد للفعل، أي هذا ليس من عند محمد، هذا وحي من الله، والوحي لا يملكه النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك له جلباً ولا دفعاً. الدليل: حينما اتهمت زوجته السيدة عائشة اتهاماً فظيلاً، تأخر الوحي أربعين يوماً، وما ملك النبي شيئاً في هذا الوقت، الوحي لا يستطيع النبي جلبه ولا دفعه، فهذا القرآن وحي من عند الله.

الحكم من وراء هذه الآية:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

هذه الآية رائعة جداً حيث أمر الله عز وجل النبي الكريم:

1 - الصبر على تنفيذ أمر الله:

2 - الصبر على ترك ما نهى الله عنه:

3 - الصبر على قضاء الله وقدره:

4 - الصبر على مواجهة الكفار:

أحياناً المواجهة تحتاج إلى صبر، وإلى شجاعة

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

حكم الله أن نصلي، اصبر للصلاة، حكم الله أن نصوم، أن نحج، أن نعتمر، أن نؤدي زكاة أموالنا، نهانا عن الغيبة تحتاج إلى صبر، الحديث عن الناس ممتع ومسلي ويلفت النظر نهانا عن أن نغتاب، نهانا عن أن نكذب، نهانا عن أن نفعل المنكرات، فاصبر على الطاعات، واصبر على الشهوات، واصبر على قضاء الله وقدره، واصبر وأنت تدعو إلى الله عز وجل.

هناك معارضون، هناك مفقدون، هناك من يتهمونك، هناك من يطعنون في علمك، هناك من يسفه أحلامك، سيدنا موسى بالمناجاة قال يا رب - هكذا ورد في بعض الكتب - لا تبقي لي عدواً، قال له يا موسى هذه ليست لي، لا يوجد إنسان ليس له خصوم، لا يوجد إنسان ليس له طرف آخر يقلل من قيمته، فاصبر لحكم ربك، إما اصبر على طاعته، أو عن معصيته، أو على قضائه وقدره، أو اصبر وأنت تدعو إليه، يوجد معارضات

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24))

العصاة نوعان:

العصاة نوعان: الكفار أو الشاردون، إنسان عقيدته فيها كفر، وإنسان عنده إثم، يعني واحد له معاصي، و آخر عنده عقيدة زائغة الانحراف في عقيدته، أو في سلوكه، شخص عقيدته سليمة، يعني مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخرة، لكن غرق بالمعاصي والذنوب، هذا إذا دعاك إلى سهرة، إلى حفلة، يقول لك لا تدقق الله عز وجل غفور رحيم عيش وقتك، من الآن إلى يوم القيامة يفرجها الله، هذا آثم لا تطيعه، لا

ترد عليه إطلاقاً، الثاني يقول لك: مات ورجع قال لك في آخره، هذا الثاني الكافر، يعني شخص كافر خلل في عقيدته والثاني خلل في سلوكه، إياك أن تطيع هؤلاء ولا هؤلاء

(وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24))

أحياناً تأتيك دعوات من كفار للتقليل من قيمة الدين، يقول لك: هذا الدين شعور، الإنسان عندما كان ضعيفاً خاف من قوى الطبيعة فتدين، الآن عصر علم، الآن كل شيء مسيطر عليه، هذا كلام، هذا كافر، وأصحاب الشهوات يعيشون لشهواتهم، لغناهم، للطرب، للاختلاط، للمرأة، هؤلاء آثمون، فإياك أن تطيع آثماً أو كافراً، لذلك:

(وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15))

(سورة لقمان)

الدعوة إلى الله لها ثمن باهظ:

ومن أجل أن تصبر على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى قضاء الله وقدره، من أجل أن تصبر بالدعوة إلى الله، في خصومات، في معارضات، في متاعب أحياناً، الدعوة لها ثمن باهظ، دفع النبي أكبر ثمن، أخرجوه، وقتلوه، ونكلوا بأصحابه، ثم جاء نصر الله والفتح في النهاية، الإسلام وصل إلى درجة بقي موضوع ساعات بالخندق، ساعات وينتهي الإسلام عن آخره، قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر أو كسرى، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته انتهى الإسلام، النبي صبر، لما هاجر أهدر دمه، وضع مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

أي اصبر على طاعته، واصبر عن معصيته، واصبر على قضائه وقدره.

للدعاة واصبروا في الدعوة يوجد معارضات، مقاومات، أناس خصوم يكيّدون المؤامرات

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا)

إنسان فكره علماني كافر، وإنسان ثان فاسق فاجر.

ذكر الله طريق الثبات على الدعوة:

من أجل أن تستطيع ذلك:

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25))

صلاة الفجر، والظهر، والعصر، الظهر بعد زوال الشمس.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26))

المغرب والعشاء، العبادة خمسة أوقات، الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء:

(وَمِنَ اللَّيْلِ)

قيام الليل.

ندم الشاردون عن طريق الحق:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا

((27))

(إِنَّ هَؤُلَاءِ)

الشاردون

(يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

يتحدث عن الدنيا خمس ساعات لا يمل على الواقف بالطريق، لا يقول لك عندي موعد، عندما تذكر آية يقول لك: اعذرني عندي موعد، عندما تتحدث عن حديث شريف يتشاءب، سبع ساعات كل آذانه معك عند الحديث عن العملات، وعن البيوت، وعن الزواج، وعن التجارات، والاستيراد، والتصدير، والسفر، والرحلة، والفندق خمس نجوم، والعرس، تصل إلى موضوع الدين يتشاءب لا يريد شيئاً، عنده غير مطلوب لأنه، لذلك:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

أي يوم ينسون فيه كل ملذات الدنيا، يصعقون.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (25))

(سورة الفجر)

أي إذا شخص قال لك حضرنا ألف عزيمة، وكل عزيمة طعامها أطيب من الأخرى، بأحد الليالي أصابه ألم في أسنانه لا يحتمل، فكان بقرية لا يوجد فيها طبيب أسنان لو تذكر هذه الولايم وليمة هل يذهب ألمه ؟ اليوم أكلنا الأكلة الفلانية و هي لذينة جداً، لكن الألم قائم، لو أراد أن يستعيد كل الطعوم الطيبة التي أكلها، وأسنانه تؤلمه و الألم لا يحتمل واقعه الآن في شقاء، فالماضي ينسى في لمحظة.

جزاء المؤمن و الكافر يوم القيامة:

الكافر يقول حينما يرى مكانه في النار: لم أرَ خيراً قط، في كل حياته، يقول لك: ما هذا الفندق شيء جميل جداً، أكل، سافر، ركب السيارة، ركب الطائرة، يحدثك ساعات عن رحلاته، عن متعه، عن نعيمه، حينما يرى مكانه في النار، يقول: لم أرَ خيراً قط، والمؤمن حياته كلها متاعب، وتكليف، وضبط شهوات، وضبط جوارح، وضبط لسان، وضبط عين، لا يسمع شيئاً خلاف الشرع، لا ينظر إلى عورة إنسان، ضابط لسانه، ضابط دخله، عرضوا عليه ملايين، قال إني أخاف الله رب العالمين، بقي على دخله المحدود، وبقي على بيته الصغير، لكن حينما يأتيه ملك الموت، يقول لم أرَ شراً قط. طالب جامعي درس وأخذ الشهادة بأعلى درجة و قد نال الدرجة الأولى، فلو حاول أن يتذكر سهر الليالي للساعة الرابعة، واعتزل بالبيت، وكم مرة ما فهم الموضوع، وسأل صديقه، وأحضر كتباً وترجم، عندما يأخذ الدرجة الأولى نشوة النجاح تنسيه كل متاعب السنة.

الظفر برضوان الله مراد الإنسان الأكبر:

و هكذا نرى أن نشوة الظفر برضوان الله ينسيك كل متاعب الحياة، وشقاء النظر إلى مصير إنسان ينسيه كل ملذات الحياة، لذلك:

(وَمَنْ اللَّيْلُ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)

((27))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الإنسان 075 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 24-31 نعم الله الكبرى على الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الخامس والأخير من سورة الإنسان ومع الآية الكريمة:
(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25))

علاقة الصبر بالذكر:

هل هناك من علاقة بين الصبر والذكر ؟
الصبر سلبي، أما الذكر إيجابي، لو أن الإنسان صبر ولم يذكر اختل توازنه فالذكر هو البديل، و الإنسان مفطور على حب الخير، مفطور على حب الجمال، مفطور على حب النوال، فالإنسان يحتاج إلى إيجابيات فإذا صبر عن الشهوات التي حرمها الله عز وجل لا بد من البديل، لا بد من بديل جمالي، لا بد من بديل إيجابي، لا بد من بديل ينسيك الذي تركت من أجل الله، إنه ذكر الله.
عندما يستقيم الإنسان ويضعف ذكره تصبح استقامته عبئاً عليه، عندما يستقيم ولا يذكر الله إلا قليلاً يرى الاستقامة عبئاً لا يحتمل، لأنه سلبيات، ترك هذه، وتركت هذه وترك هذه، إذا ما الإيجابيات ؟ هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، هذا الطعام ممنوع، إذا بقي بلا طعام، لا بد من طعام نفيس ينسيه هذا الذي تركه، فدائماً صبر وذكر، الصبر سلبي.
ذكرنا في درس سابق: الإنسان عليه أن يصبر على الطاعات، فالطاعات فيها جهد و تكاليف، وعليه أن يصبر عن الشهوات، وعليه أن يصبر على قضاء الله وقدره، أما ما البديل ؟ البديل الأُنس بالله.
المنظر الجمالي لأهل الدنيا، المال، الطعام، النساء، الأماكن الجميلة، المركبات، البيوت، إذاً عندما الإنسان المؤمن يدع أشياء كثيرة لوجه الله لا بد من مصدر جمالي له يسعده، إنه ذكر الله، اصبر واذكر، دع هذا وخذ هذا، أما دع ولا تأخذ، اختل توازنه الإنسان، فالإنسان سعادته بذكر الله.

لذلك قالوا: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب، أحد العلماء قال: بستانني في صدري ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعادوني فأبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة.

وقال بعض شراح الحديث: حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أبو بكر في الجنة))

الآن في جنة أي في جنة القرب، لا بد من البديل، أنت حينما تحرم ابنك كل هذه الشبهات والمعاصي، لا بد من البديل، لا بد من أن تعلمه، لا بد من أن تعطيه أشياء إيجابية، يحبها حتى ينسى هذا الذي تركه. هناك آباء قمعيين، هذه حرام، وهذه حرام، وهذه لا تجوز، وهذا ممنوع، هذه لأبأس بها، ماذا أفعل ؟ لا بد من أن تقدم البديل، والتربية هكذا، والتعليم هكذا، والدعوة إلى الله الصحيحة هكذا، عندما أنت منعت من هذه الشبهات وهذه المحرمات يجب أن تعطيه البديل الإيجابي، أن تعطيه الشيء الذي يسره، أن تعطيه الجانب الجمالي في الدين، الإنسان يمشي بالصحراء، حر لا يحتمل، عطش، لكن بعد حين يوجد واحة، يوجد ظل، يوجد ماء، لا بد من محطات استراحة، لا بد من إيجابيات، لا بد من القرب من الله.

أقول لكم هذه الكلمة أيها الأخوة:

الدين منطقي، والدين حق، والدين أعطى الإنسان تفسيراً عميقاً وواضحاً ومتكاملاً للكون والحياة والإنسان، والدين أعطى للموت تفسيراً عميقاً، الموت بداية وليس نهاية، الدين أعطى الحياة معنى الإعداد لا معنى الاستهلاك، الدين أعطى الإنسان قيمة كبيرة جداً، فالإنسان مخلوق أول، كل هذه الأفكار العظيمة، وكل هذه المنظومة المتناسقة، وكل هذا التصور العميق، لا يكفي وحده، الإنسان حينما يشد إلى الدين، لأن الله تجلى على قلبه، لأن الله أسعده، لأن الله قرب به، لأنه أذاقه طعم القرب، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذاق طعم الإيمان، الإيمان له طعم))

يوجد بالإيمان قناعات، وأفكار، ومبادئ، و تصورات، لكن يوجد بالإسلام أذواق تذوقها، تشعر بها، الذي يشدك إلى الدين طعم الإيمان، الذي يشدك إلى الله القرب منه، الذي يشدك إلى البذل والتضحية هذه السعادة التي تنغمس فيها، هي الإيجابيات، دعوة إلى الله بلا إيجابيات لا تتجح، تدين مبني على

القمع والتحریم، حرام، لا يجوز، ودع هذا لا تتجح، لابد من أن يكون هناك شيء بين يديك تسعد به. عندما تركت المحرمات هناك المباحات، والمباحات معها قرب من الله عز وجل، فلذلك لابد من أن نذكر هذه النقطة.

القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله:

لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ)

آية واحدة، لو فهمناها فهماً دقيقاً كما تقتضيه قواعد اللغة، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

نحن قد نقرأ القرآن ولا نعرف دقائق نظمه الإعجازي، لو أن الله عز وجل قال: تطمئن القلوب بذكر الله، هذا الكلام ليس قرآناً، السبب: لأن هذه العبارة لا تعني أن القلوب تطمئن بذكر الله وحده، تطمئن بذكر الله، وقد تطمئن بغير ذكر الله، وقد تطمئن بالمال الوفير، وقد تطمئن بالجاه العريض، وقد تطمئن بالمتع الرخيصة، أما حينما قال الله عز وجل وهو ربنا، هو الخبير، هو الصانع، قال:

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

أي أن القلوب لا تطمئن إلا لذكر الله.

بالإنسان حاجة، وهناك فراغ لا يملؤه المال، قد تجد إنساناً معه ملايين وهو أشقى الناس لا تملؤه الصحة، وقد تجد إنساناً كالحصان وهو شقي لا يملؤه الجاه العريض، وقد تجد إنساناً قوي جداً، بيده مقاليد الأمور وليس سعيداً، لكن هذا الفراغ، يملؤه الإيمان

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

تكمال الذكر مع العلم:

ينبغي أن نعلم علم اليقين أن الإنسان قلب وعقل وجسم، الجسم يحتاج إلى طعام وشراب هو قوام حياته، والعقل يحتاج إلى علم غذاؤه الأول، والقلب يحتاج إلى ذكر بإتقان الصلوات، وبذكر الله عز وجل، وتلاوة القرآن، والدعاء، والاستغفار، والمناجاة والابتهال، والتسبيح، والحمد، والتكبير، هذه كلها أذكار توصلك بالله، تسعد القلب، هي غذاء القلب.

فالذكر كالمحرك، والعقل كالمقود، غذاء العقل هو العلم، وغذاء القلب هو الذكر، الذكر يعطيك قوة اندفاع هائلة، أما العقل وغذاؤه العلم يعطيك منهجاً، يعطيك مقوداً صحيحاً تبقى على الطريق، فالذكر والعلم يتكاملان، وأية دعوة تركز على الذكر ولا تركز على العلم دعوة عرجاء، وأية دعوة تركز على العلم ولا تركز الذكر دعوة عرجاء، وأية دعوة تركز على العلم وعلى الذكر وتهمل الجسم، وتهمل الحياة، وتهمل الكسب المشروع، وتهمل قوام الحياة دعوة لا تنجح.

الخطوط التي نسير عليها لنتزود بالمعرفة:

خطوط ثلاثة، العبادة طاعة طوعية تسبقها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، هناك جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، خطوط ثلاثة يجب أن نسير عليها معاً، جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، نتزود بالمعرفة، تسلك منهج الله عز وجل، تتصل بالله، والاتصال بالله يجعلك تعيش في سعادة كبيرة تنسى بها هموم الدنيا.

عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير، وليس ذلك لغير المؤمن، فلذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

كثرة الذكر:

(ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

الأمر يتجه إلى كثرة الذكر، لا إلى الذكر، لأن الذكر القليل يفعل المنافقون.

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَئِنْ

يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142))

(سورة النساء)

الذكر القليل يفعل المنافقون، أما المؤمن يذكر الله ذكراً كثيراً.

لذلك الصلوات الخمس ذكر كثير على أن تكون متقنة، تلاوة القرآن كل يوم ذكر، التسبيح ذكر، الاستغفار ذكر، الدعاء ذكر، الابتهاج ذكر، المناجاة ذكر، التكبير ذكر، الحمد ذكر، الشكر ذكر، الدعوة إلى الله ذكر، بيان السنة ذكر، بيان الحكم الفقهي ذكر، بيان السيرة ذكر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

نتائج كثرة الذكر:

جرب في أي جلسة تذكر الله، تتعقد القلوب، تجتمع القلوب، تتألق الوجوه، يسعد الحاضرون، فإن ذكرت غير الله قام الحاضرون على أنتن من جيفة حمار، احرص على ذكر الله في كل جلسة، لا تنسى أن تذكر الله، ذكر الناس بآية، بحديث، بقصة، بحكم فقهي، بسيرة، بصحابي، بشيء يسمو بك، يرقى بك، قال:

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ)

إما أن تذكره لنفسك، وإما أن تذكره لغيرك، الآية مطلقة:

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً)

الفجر

(وَأَصِيلاً (25))

الظهر والعصر.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26))

(وَمِنَ اللَّيْلِ)

المغرب والعشاء وقيام الليل.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

منهج الإسلام منهج كامل:

إذا:

(وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25))

كل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، الشيء المؤلم أن هذا الدين منهج كامل، منهج لعقلك، ومنهج لقلبك، ومنهج لجسمك، ومنهج لحياتك الاجتماعية والنفسية، ومنهج لتربية أولادك، ومنهج لعقيدتك، منهج كامل، أفكار دقيقة جداً معها أدلة قوية، كيف أن هذا الدين ضغط وضغط وضغط حتى أصبح عبادات شعائرية لا تقدم ولا تؤخر، الدين دين حياة، الله قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58))

(سورة النساء)

ما قال أمانة، قال أمانات، هؤلاء الكفار، أو هؤلاء المنافقون، أو هؤلاء الشاردون عن الله عز وجل، أو هؤلاء العصاة، أو هؤلاء المجرمون، الطرف الآخر، نحن عندنا طرفين.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيدٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

تقسيمات الحياة:

يوجد بالحياة خطان لا ثالث لهما، إن لم تكن على الخط الأول فأنت على الثاني حتماً، إن لم تستجب لله عز وجل فأنت مع الهوى، إن لم تكن على الحق فأنت على الباطل، إن لم تكن مع الله فأنت مع الشيطان، إن لم تكن مع القيم فأنت مع المصالح، إن لم تكن من أهل الآخرة فأنت من أهل الدنيا و هؤلاء هم الطرف الثاني.

الحقيقة يوجد تقسيمات كثيرة، أي حياتنا مفعمة بالتقسيمات التي لا تعد ولا تحصى.

الآن يوجد تقسيم جديد، دول الشمال ودول الجنوب، دول الشمال كلها غنية، الجنوب كلها فقيرة، كان شرقاً و غرباً و صار شمالاً وجنوباً، وصار في أعراق، وأجناس، وألوان، وشعوب، وأمم، وقبائل، وملل، ونحل، ومذاهب، وطوائف كل هذا التقسيمات باطلة.

الناس رجلان:

1 - رجل عرف الله فدخل الجنة:

هناك رجلان لا ثالث لهما، رجل من أي جنس، من أي عرق، من أي ملة، من أي طائفة، من أي عنصر، رجل عرف الله وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، واتصل به، فسعد بالدنيا والآخرة.

2 - رجل غفل عن الله فخسر الآخرة:

ورجل غفل عن الله، فانقطع عنه، من لوازم الغفلة الانقطاع وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً، هذا هو التقسيم الحقيقي، الناس رجلان غر كريم (كريم على الله)، وفاجر شقي، هين على الله، فمنهم شقي وسعيد.

(وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (22) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24))

(سورة القيامة)

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106))

(سورة آل عمران)

اثنين وجه أبيض، وجه أسود، وجه ناظر إلى الله، وجه مغبر، فمنهم شقي وسعيد، أهل الجنة وأهل النار، أهل الشقاء وأهل النعيم، الوجوه الناصرة والوجوه الباسرة، هذا التقسيم الحقيقي، وأي تقسيم آخر باطل، مؤمن وغير مؤمن، فقال: إن هؤلاء الطرف الثاني ينطوي تحته الكفار، المشركون، العصاة، الشاردون، المنافقون، الفجار، كل هؤلاء الملحدون طرف واحد، والمؤمنون طرف آخر، قال:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

يحبون الدنيا، الدنيا تمشي في دمائهم، تمشي في عروقهم، الدنيا هي كل شيء، هي نهاية المطاف، نهاية السعي، فمن ملكها ظن نفسه سعيداً، ومن فاتته ظن نفسه شقياً:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

ولكن الله عز وجل أعظم، وأكرم، وأجل من أن يكون عطاءه محدوداً.

الموت يجمع كل البشر:

أيعقل أن يكون عطاء الله عز وجل ينتهي عند الموت ؟ ليس عطاءً، فالدنيا أمامكم سباق أحق، الغني يموت والفقير يموت، والموت ينهي الفقر والغنى، والقوي يموت، والضعيف يموت، والوسيم يموت، والدميم يموت، والصحيح يموت، والمريض يموت، والموت ينهي كل شيء، سباق أحق، سباق سيارات طريق طويل ينتهي بقاطع مائة متر، حفرة سحيقة، فأقوى سيارة تسقط، وأضعف سيارة تسقط، وأحدث سيارة تسقط، وأقدم سيارة تسقط، كل ينتهي للقبر، ينزل عالم، ينزل جاهل، ينزل غني كبير، ينزل فقير، ينزل شقي، ينزل سعيد، القبور تجمع كل البشر.

فلذلك:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

يوم الحساب.

محاسبة الإنسان:

مثلاً: يروون طرفة أن رجلاً من أغنياء مصر مات فأولاده خافوا عليه من عذاب القبر، فرجوا إنساناً فقيراً معدماً أن ينزل معه ليلة واحدة ليؤنسه، أعطوا هذا الفقير مائة جنية (مبلغ خيالي بالنسبة له) - هي قصة رمزية - جاء أنكر ونكير فوجدوا اثنين بالقبر، فخاف الفقير و حرك رجله أنه على قيد الحياة، فقالوا: نبدأ به، أحضر معه من قبل كيساً من الخيش قصه من فوق أدخل رأسه فيه (من فقره)، وقصه من أطرافه من عند الأكمام وربطه بحبل عند خصره، من أين أحضرت الحبل ؟ قال له: من البستان، كيف دخلت إلى البستان ؟ فضربوه كيف دخل البستان و الحبل له حساب ثان، كيف أخذها موضوع ثاني، كيف دخل البستان ؟ حتى تعب من القتل، خرج في اليوم التالي فقال: أعان الله أباكم، طبعاً

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

إذا الله عز وجل قال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

إذا امرأة استحققت النار لأنها حبست هرة، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها، فإذا كانت الهرة سبب دخول النار، فكيف بما فوق الهرة ؟

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

أين قوله تعالى لا ظلم اليوم.

نفي الظلم عن الله تعالى:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء)

أين ؟

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124))

(سورة النساء)

(وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلًا (49))

(سورة النساء)

ولا قطمير، أين ؟.

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70))

(سورة التوبة)

آيات نفي الظلم كثيرة جداً، كل شيء بحسابه الدقيق، أنا أرى الأحمق هو الذي يظن أن الحساب غير دقيق، يأخذ ما ليس له، يعتدي على الناس، الذي يبني مجده على أنقاض الناس أحمق، الذي يبني غناه على فقر الناس أحمق، الذي يبني مجده على إتعاس الناس أحمق

(إِنْ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

أحياناً السارق يسطو على بيت ويأخذ أموال كثيرة، يظن نفسه شاطراً فلما يقع في قبضة العدالة، ويأخذ المال كله، ويحكم ثلاثين سنة أو أربعين سنة أو يعدم إذا قتل أحداً، عندئذ يعلم أنه كان أحمقاً، ودائماً المجرمون مصنفون في علم النفس مع الأغبياء.

خلق الإنسان على أكمل وجه:

مرة ثانية الإمام الغزالي يقول: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحببها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله إذا ما أجهلك، إذا ما أكفرك، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله إذا ما أجهلك، الذي يعصي الله مدموغ بالغباء، والكفر

(إِنْ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (28))

فلو جئنا بكرة نحاسية وقسمناها شطرين وفرغناها من الهواء وأتينا بأربعة أحصنة من هنا، وأربع من هناك، وتحركت الأحصنة باتجاهين متعاكسين، لا تستطيع هذه الأحصنة أن تفك هذه الكرة لماذا ؟ لأنها مفرغة من الهواء، محكمة، وقال: عظم عنق الفخذ داخل بتجويف الحوض مع تفريغ الهواء، فالإنسان محكم، يعني أصعب شيء بعملية العظام سحب الهشاشة من الحوض

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

أحياناً الإنسان يحمل ابنه من يده، لو كان الرباط ضعيفاً تخرج يده من مكانها، أحياناً يشتري الإنسان حقيبة رخيصة يحملها فتقطع اليد، طبعاً غير محكمة، غير مدروسة، أما الابن مدروس وزنه، مدروسة مفاصله، العضلات، الأربطة، الأوتار، وإذا كان الأب غضبان يدفع ابنه، الدفع في ضعف الوزن أيضاً مدروس

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

الإنسان بناء متكامل:

الإنسان بناؤه كامل، أنت لاحظ سيارة مصنوعة سنة 1900 تدعو إلى الضحك، لا يوجد فيها علبة سرعة حركة واحدة، لا يوجد دولاب في هواء، دولاب صلب، فيها فانوس يشعله مساء بيده، يشغلها من أمام مناويل، انظر 600 موديل 99 انظر لميزتها ما معنى هذا، معنى هذا أن الإنسان خبرته تنمو. عندما اخترعوا القطار ببريطانية، أمروا صاحب القطار يمشي أمامه إنسان مشياً يحذر الناس منه، إذا ما هي سرعته ؟ أول قطار سرعته أقل من حركة الإنسان، الآن يوجد 380 كيلومتر بالساعة، فالإنسان خبرته تنمو.

انظر الإنسان هل طرأ عليه تعديل ؟ هل يوجد إنسان موديل 98، الإنسان مصمم على أكمل تصميم، حتى كلمة زائدة دودية كلمة خاطئة زائدة مدافعة، لا يوجد شيء عند الله زائد إطلاقاً، كمال مطلق

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

تصور لو وجد بالشعر أعصاب حس، إلى أين تذهب ؟ أعمل عملية حلقة بالمشفى، طبعاً يحتاج إلى تخدير كامل إذا وجد بالشعر أعصاب حس، إذا وجد بالأظافر أعصاب حس فيلزمك عملية تقليم أظافر لماذا ؟ في أعصاب حس بالعظام، بنقي العظام ما في حاجة ؟ هذه أعصاب حس وقائية، لو صار كسر، شدة الألم تجعلك تحافظ على وضع الرجل، بقاءها على ما هي عليه أربعة أخماس العلاج. الطفل معه منعكس المص، لولا هذا المنعكس لا يوجد أحد بالجامع، و لم يكن هناك جامع أساساً لولا هذا المنعكس و هو عمل معقد جداً يفعلها الصغير بلا تعليم، الآن ولد يضع فمه على حلمة ثدي أمه، يحكم الإغلاق ويسحب الهواء لو ما معه المنعكس تفضل علمه، تكلم باللغة العربية هل يفهم عليك ؟ كان مات من الجوع:

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

الأمعاء فيها شحم أسود، يقول لك هذه السيارة بشحمها، أنت بشحمك، أول أربع وعشرين ساعة حليب الأم مادة مذيبة للشحم يسمى صمغاً، أول أربع وعشرين ساعة خروجه أسود، هذا الشحم ما قال شحمه، فالشحم المذاب بهذه المادة تصميم رائع جداً، جهاز التوازن وحده يكفي، أنت تمشي على قدمين لطيفتين لو لو يوجد جهاز التوازن بالأذن، يلزمك خفي جمل لتمشي، أما في جهاز توازن، قنوات فيها سائل، فيها أهداف، تميل ثلاث درجات لتعدل، فالتوازن جهاز معقد.

هناك جهاز معرفة جهة الصوت، جهاز بالدماغ يكشف تفاضل الصوتين، والتفاضل 1620/1 جزء بالثانية لتعرف جهة الصوت، وبالعينين تعرف البعد الثالث، والأنف فوق الفم والأنف في عشرين مليون نهاية عصبية، وكل نهاية فيها سبعة أهداب وكل هذب مغمس بمادة مخاطية يتفاعل مع الروائح وتشكل شكلاً هندسياً يرسل للدماغ، بالدماغ في ملف عشرة آلاف رائحة، الرائحة الجديدة تعرض على عشرة آلاف رائحة أين وافقت تقول ياسمين، شم هذا ياسمين، هذا مسك، هذا عنبر، هذا ورد، هذا كمون، هذا فلفل، هذا بهار، الله كرمك، عندك حاسة قوية جداً.

تجلس بالبيت عينك تنتهي عند الجدران، لكن عندك جهاز سيطرة أبعد من الجدران السمع، يقول لك هناك حركة، السمع أبعد، إذا شيء ليس له حركة و ليس له شكل، يوجد عندك الشم، يوجد بالبيت شيء متفسخ، الله أعطاك سمعاً وأعطاك بصرأ وأعطاك شماً، هذه كلها أجهزة سيطرة

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (28))

المؤمن الحقيقي مستعد دائماً لمغادرة الدنيا:

فالإنسان عندما تضعف أجهزته، تتعطل كليته، قلت لشخص مرة له عمل حساس يستطيع أن يؤدي الناس من خلاله، قلت له الله عنده سرطان، تشمع كبد، فشل كلوي، وخثرة بالدماغ، وشلل، في أمراض تقلب حياة الإنسان جحيماً، وكل هؤلاء عباده، هيئ الله جواباً عن كل شيء بالتساوي، هذا كلام دقيق.

(إِن هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

سألوا طالباً نال الدرجة الأول على القطر بما نلت هذا المجموع ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر ذهني إطلاقاً، والمؤمن يتفوق إذا هذه الساعة الحاسمة، ساعة الحساب مع الله، ساعة اللقاء، ساعة مغادرة الدنيا لم تغادر ذهنه إطلاقاً، وأروع ما في حياة المؤمن أن الحدث الخطير في حياته المغادرة مستعد له، كل حياته استعداد لهذه الساعة، كالتألم المجتهد عندما يدخل الامتحان مهيباً نفسه، دارس، ملخص، مراجع الكتاب كله، حل أسئلة الكتاب كلها، عنده شيء جاهز، أما الشارد الغافل يفاجأ، يصعق إذا

(ن هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

كأن الله يحتقرهم، كأن الله يقرعهم، يحبون العاجلة، الله عز وجل قال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77))

(سورة النساء)

كونوا واقعيين، ليرتاح الإنسان بالأربعين عنده بيت و زوجة و دخل يكفي مصروفه ومعتزك المنايا بين الستين والسبعين، هل من المعقول أربعين سنة إعداد، استمتاع عشر سنوات أو عشرين سنة ؟ لو لم يكن هناك آخرة قضية مختلفة غير صحيحة أما الآخرة هي التي تسوي الحسابات كلها:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

بلاء الكافر يوم القيامة:

فلذلك الكافر حينما يرى مكانه في النار يقول لم أر خيراً قط، سيدنا علي قال يا بني يخاطب ابنه الحسن، ما خير بعده النار بخير، لو معك ستة آلاف مليون، لو لك بكل مدينة بالعالم قصر، لو عندك عشرات المركبات، عشرات الطائرات، عشرات المراكب البحرية، ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محفور، وكل بلاء دون النار عافية.

مثلاً: إذا شخص مقطوعة أيديه وأرجله وأعمى وأصم وأبكم ومتسول ولا زوجة له ولا ولد وعلى الرصيف وانتهى للجنة

(وكل بلاء دون النار عافية)

أما النار:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

التفكر بآيات الجنة و النار:

الإنسان إذا لم يعبأ بآيات الجنة والنار يكون إيمانه ضعيفاً، آيات الجنة والنار يجب أن نأخذها بملء السمع والبصر، يجب أن نسعى للجنة، دار النعيم، النعيم المقيم، ويجب أن نفر من النار.

لذلك: كل شيء يقربك إلى الجنة يجب أن تفعله، وكل شيء يبعدك عن الجنة يجب أن تدعه:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28))

أي:

((عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَثْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا ادْخَلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

الإنسان مفطور على الإيمان بالله:

مثلاً: ذهبت إلى بيروت ورأيت الشاطئ الصخري، ثم أطلعناك على صورة، تقول أذكر ذلك رأيته بأمر عيني، الصورة ذكرت بك بشيء تلمسه، فكل كلمة ذكرى بالقرآن أنت بالأصل مؤمن، الإيمان ضمن فطرتك، الإيمان فطري، كل مولود يولد على الفطرة، الإنسان مفطور على الإيمان بالله ؛ مصمم ليؤمن بالله، لا تترتاح نفسه إلا إذا آمن بالله، لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله، لا يطمئن إلا إذا رجع إلى الله.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

(سورة الروم)

مصمم نفسك، خصائص نفسك، قوانين نفسك، مبرمج على أن تؤمن بالله، فإن لم تؤمن شقيت، إن لم تؤمن امتلاً قلبك ذعراً.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا

الْمُصْلِينَ (22))

(سورة المعارج)

أصل الشقاء الخروج عن الفطرة:

المصلي ليس جزوعاً، ولا منوعاً، مثلاً هذه المركبة مصممة للزفت الطريق معبد، الآن اركب سيارة على الزفت شيء مريح تماماً لا أصوات ولا مشكلة، امش فيها بالطريق الوعر تكسرهما، حجر يكسر

مستودع الزيت فوقفت، حفرة نزلت فيها، حجر ضرب المحرك، لأنها مصمم للزفت لا للوعر، أما الوعر الدبابة، المدرعة، فيها جنزير هذه مصممة للوعر، وهذه مصممة للطريق المعبد. فالإنسان مصمم للإيمان فإذا آمن ارتاح، لذلك في أصل جبلتك، وفي أصل تركيبك، ومن خصائص نفسك أنك مؤمن بالله، فإذا خرجت عن فطرتك شقيت. أكثر الأمراض النفسية هي بالأساس خروج عن الفطرة، فالإنسان إذا كان محسناً يرتاح، إذا أساء يخاف.

يوجد فندق بألمانيا، قال لي شخص نزلت فيه ليلة، مكتوب لوحة لطيفة على السرير، أنه إذا لم تتم فالعلة من ذنوبك لا من فراشنا، نحن فراشنا وثير، إذا ما نمت العلة منك، تعذبك ذنوبك. فالإنسان المستقيم ينام مرتاحاً، يتعب، ينام يرتاح، لا يوجد حقوق معلقة، لم يظلم أحداً، لم يعذب أحداً، لا يوجد إنسان كان سبب شقائه، فالإنسان عندما يكون سبب شقاء مخلوق ولو حيوان ينهار من الداخل.

أعظم نعمة نعمة الأمن:

فلذلك الفطرة أساسها الإيمان بالله، قال:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

أنت بالأساس مؤمن، الإيمان فطري، الإيمان أصل في جيلة الإنسان، الإيمان شيء من طبيعية الإنسان

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

وهذا القرآن يذكرك بأصل فطرتك، إنسان إذا اصطالح مع الله وجد نفسه، استقرت نفسه في اللحظة التي يتوب فيها إلى الله، يشعر أن جبلاً قد أزيحت عن كاهله، الشهوات عبء، والمعاصي عبء، أما حينما تتوب إلى الله، لطيف خفيف، متفائل، مستبشر، مطمئن، الله عز وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ

الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

فأعظم نعمة نعمة الأمن، الأمن مكافئة للمؤمن، أنت مع الله وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا وجدت الله ماذا خسرت ؟ ما خسرت شيئاً

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

وأنت مخير، قال:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

الطرائق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق:

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، طلب العلم طريق إلى الله، والاستقامة طريق إلى الله، والأعمال الصالحة طريق إلى الله وتربية الأولاد طريق إلى الله، ونصح للمسلمين طريق إلى الله، وإطعام الفقير طريق إلى الله، وكسوة العاري طريق إلى الله، والإحسان إلى الزوجة طريق إلى الله، وإتقان العمل طريق إلى الله، وأن تكون صادقاً طريق إلى الله، وأن تكون أميناً طريق إلى الله، وأن تكون عفيفاً طريق إلى الله، وأن تعلم العلم طريق إلى الله، وأن تدعو إلى الله طريق إلى الله

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

الله عز وجل بكماله المطلق، وكرمه العظيم، السعادة كلها عنده، لكن جعل لك طرائق له، الأبوة الكاملة طريق إلى الله، البنوة الكاملة طريق إلى الله، الزوج الكامل طريق إلى الله، الزوجة المطيعة لزوجها طريق إلى الله، إتقان عملك طريق إلى الله، عدم الغش طريق إلى الله، الصدق طريق إلى الله

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

صحبة المؤمنين طريق إلى الله، لزوم مجالس العلم طريق إلى الله، علمنا النبي صلى الله عليه وسلم إذا الإنسان دخل المسجد يقول:

((اللهم افتح لي أبواب رحمتك))

أنت في بيت الله، وفي ضيافة الله، والله عز وجل إذا أكرمك في بيت الله وفقك في الحياة، يسر لك أمورك، ألقى في قلبك النور، اتخذت قراراً صحيحاً.

مرة في بعض قرى ريف دمشق، صانع هاجمه سبعة أو ثمانية أشخاص و ساقوه إلى مكان الخزنة وسرقوا عشرة كيلو ذهب وقتلوه وبعضهم كان مثقفاً، خلال أسبوع كشفت الجريمة وتم إعدامهم في مكان الجريمة هل كانوا أذكاء ؟ حمقى، هل تمتعوا بالذهب الذي سرقوه ؟ توهموا أنهم يملكون عشرة كيلو ذهب، ثم أعدموا شتقاً في مكان الجريمة.

تجلي الله على قلب الإنسان بالرافة:

ما معنى الله رحمك ؟ أي أعطاك رؤية صحيحة، أعطاك قراراً حكيماً، أعطاك كلاماً سديداً، وفقك، يسر لك أمورك، يسر لك زواجاً مريحاً، يسر لك أولاداً أبراراً، يسر لك عملاً صالحاً تلقى الله به، هذه رحمة الله عز وجل، طبعاً بالجامع لا يوجد شاي ولا كاتو، و الجلوس على الأرض وغير مريح، لكن عندما يتجلي الله على قلبك، يطمئنك بيسر لك أمورك، يوفقك بالعمل، يعطيك رؤية صحيحة لا تخطئ، كلام سديد لا تتحاقق، هذا كله من رحمة الله عز وجل فالله عز وجل قال:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

لكن:

ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله:

1 - ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط حكمة:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30))

بط مشيئة الإنسان بمشيئة الله، ليس ربط جبر لكن ربط حكمة، لا يقع شيء بالكون إلا بمشيئة الله، كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، أحياناً الإنسان يرتكب معصية، الله عز وجل لا يعاقبه و أحياناً يعاقبه، هذا لعلم الله به، إذا ما عاقبه أعطاه فرصة ليتوب، إذا عاقبه قد يقصمه، وقد يردعه، إذا مشيئة الله عز وجل مشيئة حكمة، مشيئة رحمة، ليست مشيئة جبر، لا، هذا المعنى فاسد، إنسان أراد أن يعصي الله لكن الله يعلم أنه صالح يمنعه من المعصية، يضع أمامه العراقيل، إنسان شهوته استحكمت بنفسه حتى جعلته لا يرى شيئاً، أحياناً يسمح له أن يفرغ شيئاً منها ويعاقبه.

فالله عز وجل ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط حكمة، ربط رحمة، ربط تأديب، ربط تربية، لكن ليس ربط جبر، هذا الذي يعتذر عن عدم صلاته، وعن عدم إيمانه أن الله ما شاء له الهدى هذا كذب على الله، هذا افتراء، هذا كلام ما أنزل الله به من سلطان، ربط حكمة، ربط تربية، ربط رافة، يوجد معنى ثاني.

2 - مشيئة العبد مشيئة اختيار:

المعنى الثاني: مشيئة العبد مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله مشيئة فحص واختبار، طلبنا من الطلاب الذين معهم شهادة ثانوية أن يقدموا للجامعة فتقدم الجميع لكلية الطب، الطب يريد علامات عالية، فحصنا الاستثمارات وجدنا الطلاب ليسوا أهلاً للطب، ليس عنده إمكان أن يتابع الدراسة بهذه الكلية، كلية علمية، عنده أسلوب أدبي جيد، هذا للآداب، والطالب اختار الطب، أما رئاسة الجامعة تفحص اختياره، وترى علاماته وإمكاناته، وميوله، وتوجهه وجهة صحيحة تناسبه.

3 - مشيئة الله مشيئة فحص و اختبار:

فمشيئة الله عز وجل مشيئة فحص واختبار، وحكمة، ورحمة وتربية، وتأديب، و ليست مشيئة جبر، وإلا المعنى فاسد.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ((148))

(سورة الأنعام)

إذا: إذا كان ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ربط جبر وقهر التغى الاختيار، وإذا التغى الاختيار التغى الثواب والعقاب، والتغت الجنة والنار، والتغى التكليف، والتغى حمل الأمانة، والتغى نزول الأنبياء، فنزول الأنبياء لا معنى له، والتغى إنزال الكتب، فإنزال الكتب، وإرسال الأنبياء، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والتكليف، وحمل الأمانة، أصبحت تمثيلية سمجة.
فالإنسان مخير

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

ربط حكمة، ربط تربية، ربط تأديب، ربط علم الإنسان اختار.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ((18))

(سورة الإسراء)

شخص أراد أن يسافر والله يعلم أن إيمانه ضعيف بالسفر يفسد، فنشأت عقبة منعه من السفر، هذه مشيئة الله عز وجل، لكن مشيئة الله فيها حكمة، إنسان يستفيد سمح له، إنسان طلب الزواج بوقت مبكر، ليس له أهل، فقد يفسد الزوجة، أخره، الله يؤخر أو يقدم، فعلى المؤمن ألا يستعجل ما أخره الله، ولا يؤخر ما عجله الله، يرى حكمة الله.

إذا: مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله مشيئة فحص واختبار، ومشيئة علم، ومشيئة تربية، ومشيئة رحمة، ومشيئة تأديب ومشيئة توجيه.

4 - مشيئة الله مشيئة تربية:

الآية الكريمة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

أحياناً الإنسان يطلب المال و المال لا يناسبه، الله لا يعطيه المال، هو شاء المال لكن الله ما شاء له المال.

أحياناً يشاء السفر لكن الله لا يشاءه له، فمشيئة الله مشيئة تربوية، مشيئة رحمة أساسها العلم، والدليل:

((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30))

لعلمه وحكمته يشاء لكم أو لا يشاء لكم، فأنت لك أن تختار أما أن توفق لما اخترت هذا بيد الله عز وجل.

هداية الله للإنسان:

1 - هدايتك إلى مصالحك:

لذلك قالوا: هناك أربع هدايا، الهداية الأولى: هدايتك إلى مصالحك، أعطاك سمعاً وبصراً، حياتك مصونة بالسمع والبصر والإدراك والخوف أحياناً، وتهتدي إلى الطعام والشراب، فلو لم يكن هناك إحساس بالجوع كنا متنا من الجوع، لكن يجوع الإنسان، لا يوجد داعي أن يقول لك الله كل، أودع فيك الشعور بالجوع، فيوجد شعور بالإنسان ثابت.

2 - الهداية إلى الله:

الهداية الثانية: الهداية إلى الله.

3 - هداية التوفيق:

الهداية الثالثة: هداية التوفيق.

((نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

عندما أنت تختار الهدى، الله يوفقك، يجمعك مع أهل الحق، يعينك على الطاعة، يعينك على الاستقامة، أحياناً يعينك على إنفاق المال، يهبك المال لتنفقه في سبيل الله، هذه هداية التوفيق.

((وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

((17))

(سورة فصلت)

الهداية الرابعة: الهداية إلى الجنة، يوجد هداية مصالح، وهداية وحي، وهداية توفيق، وهداية للجنة.

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31))

رحمة الله بعباده:

رحمة الله عز وجل شيء صعب وصفه، عطاء الله مطلق، الصحة من الرحمة، والأمن من الرحمة، والسعادة من الرحمة، والتوفيق من الرحمة، وصلاح البال من الرحمة، وعدم الخوف من الرحمة، الرحمة واسعة جداً، إذا الله عز وجل منحك رحمته، لو حرمك الدنيا كلها أنت أسعد الناس، ولو حجب عنك رحمته وأعطاك الدنيا كلها أنت أشقى الناس.

شيء عجيب، وأنت في وضع صعب جداً تنام على الشوك مع رحمة الله فراش وثير، وتنام على فراش وثير وقد حجبت عنك رحمة الله فأنت أشقى الأشقياء، تتمتع بأموال طائلة وقد حجبت عنك رحمة الله.

أخ من أخوانا الكرام وجد بيوم واحد مفارقة كبيرة جداً، التقى بإنسان حجمه المالي كبير جداً بآلاف الملايين، فشكا له السقم، والضجر، والملل، والدنيا ليس لها طعم، و هو متعب من أهله، و أولاده، و بيته، و البلد، مع أن حجمه المالي كبير جداً، بنفس الوقت زارته امرأة تطلب منه مساعدة ألف ليرة بالشهر، أجرة بيت، سألوا عن عنوان البيت، وذهبوا ليزوروها، وجد بيتاً تحت درج، نظيف، وزوجها موجود، بالبيت جو لطيف، مودة، سرور، طبعاً قرر لها ألفين، قالت له: لا، ألف يكفي، لأن معاش زوجي يكفي، لكن ينقصنا أجرة البيت.

شيء محير أن إنسانة تسكن تحت الدرج وبأعلى درجة من السعادة، و شخص معه ملايين مملينة، ويسب الدنيا وحظه وشقاءه، يعطيك المال يحجب عنك الرحمة أنت أشقى الناس، يحرمك من المال يتجلى عليك بالرحمة أنت أسعد الناس.

يجعلك قوياً و يحجب عنك الرحمة فالقوة تصبح بلاء، يجعلك ضعيفاً مستضعفاً و يعطيك رحمته فأنت أسعد الناس.

يحرمك الأولاد أحياناً مع رحمته مستغن عن كل الأولاد، أحياناً يعطيك الأولاد كما تتمنى الأولاد يصبحون عبئاً، بلاء من الله أحياناً، فأنت ابحت عن رحمة الله وَاللَّهِ عز وجل قال:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32))

(سورة الزخرف)

لي دعاء أدعوه دائماً: اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بديناهم فأقرر أعيننا من رضوانك، أنت اطلب رحمة الله، اطلب توفيقه، اطلب أن تكون بطاعته، اطلب أن يحبك الله، أن يرضى الله عنك، شيء كبير.

محبة الله للعبد قمة سعادته:

رسول الله قال لسيدنا معاذ:

((والله يا معاذ إني لأحبك))

هذا عطاء أن يحبك رسول الله، وأن يحبك الله، واستقامتك، وتواضعك، وأدبك، ومحبتك، وإخلاصك، ووفائك وعفتك، وطهارتك، وخدمتك للناس وصدقك معهم، وأمانتك، الله يحبك، وإذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق، هذا العطاء، أن يحبك الله، أن تكون في رضوانه، أن تكون في طاعته،

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

من هذا الذي يستحق أن يدخل في رحمته ؟

الظالمون هم المحرومون من محبة الله ورحمته:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31))

معنى الذين يحرمون من رحمته أي هم الظالمون، أما المنصفون هؤلاء في رحمة الله العادل، والرحيم، والمستقيم، والصادق، والأمين، والعفيف في رحمة الله. هناك قانون: لو أن أستاذاً قال لطلابه: أنا سأخذ من أشياء من الطلاب إلى النزهة، يفهموها قضية مزاج، أما لو قال: أما المقصرون فلن آخذهم معي واضحة، إذا:

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

لو أنك عزوت المشيئة إلى الله، لكن للمشينة قانون:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31))

فإياك أن تظلم، إياك أن تخرج عن مظلة الله عز وجل، كن في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

الإنسان يعرف الحقيقة بالفطرة:

أخوانا الكرام: آخر آية دقيقة جداً:

(إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ)

الدين فطري والقرآن الكريم، والأنبياء، والرسل جاؤوا ليذكروك بأصل فطرتك.

قرأت كلمة أن إنسانة تعمل في الفن، سألوها ما شعورك وأنت على خشبة المسرح ؟ قالت شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتها على الجمهور، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرف مغلقة، هذه الفطرة، هي فاسقة، هي ممثلة، الإنسان بالفطرة يعرف الحقيقة، أنت مبرمج، بالتعريف الحديث مولف، أنت مجبول، جبلتك وفق هذا الدين، فإذا سرت مع هذا الدين، شعرت بالراحة، تماماً كسيارة تجري على أرض وعرة فتتكسر فلما انطلقت إلى طريق معبد استرحت، هذه الفطرة

(إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ)

أنت مخير:

(اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

إذا إنسان دخل إلى مسجد فهو في رحمة الله، اختار طريقه إلى الله، طبعاً يوجد ملهيات بالبيت لكنك أثرت أن تسمع الحق:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29))

في طلب العلم، في تعليم العلم، في إنفاق المال، في خدمة المساجد، في الدعوة إلى الله، مليون طريق إلى الله، وكلما أكثر كلما كان أحسن

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ)

أنت لو عزوت هذه الفعل إلى الله، مشيئته واضحة

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31))

نعم الله الكبرى:

هذه السورة أيها الأخوة: سورة الإنسان من السور الدقيقة، بدأت:

(هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (1))

ونحن كلنا نتمتع بثلاث نعم كبرى:

1 - نعمة الإيجاد:

نحن موجودون هي نعمة.

2 - نعمة الإمداد:

أي يوجد هواء، ماء، طعام، شراب، زوجة، أولاد، بيت، ولك أب، ولك أم، ولك أخوان وأصدقاء.

3 - نعمة الهدى و الرشاد:

ثلاث نعم نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (1-3): تفسير الآيات 1-7 نعم الله على الإنسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-06-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام : مع الدرس الأول من سورة المرسلات.

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (4) فَالْمُلْقَاتِ
ذِكْرًا (5) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7))

(سورة المرسلات)

التعريف بالمرسلات عرفاً:

الواو واو القسم، و القسم في القرآن الكريم يعني لفت نظر الإنسان لعظمة هذا المقسم به، فهذه
المرسلات قال علماء التفسير: إنها الرياح.

وقال بعض العلماء: إنها الملائكة التي تُرسل إلى الأنبياء فتلقي عليهم الوحي.

وقال بعضهم: المرسلات هؤلاء الذين أرسلهم الله عز وجل لتبليغ رسالته للناس.

أما كلمة عرفاً أي التتابع، الرياح تتابع، والملائكة تتابع، والأنبياء يتتابعون، العرف كعرف الفرس،
كيف أن هذه الأشعار يتلو بعضها بعضاً على شكل خطٍ مستمر، كذلك هذه الرياح التي يرسلها الله عز
وجل تسوق السحاب، والسحاب يصنع المطر، والمطر تصنع الحياة، والحياة قوام حياة الإنسان
والحيوان.

قسم الله عز وجل بالمرسلات:

الله عز وجل يقسم بالمرسلات، أي أن حياة الإنسان متوقفة على هذه الرياح، الرياح كيف تتحرك ؟
الرياح هي الهواء، والهواء له درجة حرارة معينة، الهواء إذا سخن يتمدد، وإذا برد ينكمش، الأرض
فيها أماكن حارة كخط الاستواء وأماكن باردة كالقُطبين، الهواء بالأماكن الباردة ضغطه مرتفع أي
منكمش، والهواء في الأماكن الحارة ضغطه منخفض أي متمدّد، إذا كان هناك فرق في الضغط بين
منطقتين الكتلة التي أشد ضغطاً تتحرك نحو الأقل ضغطاً، صار هناك مُنْفَرَج، فسيرُ حركة الرياح وجود
مناطق باردة ومناطق حارة.

بل إن هذه الصحارى التي قد لا ننتبه إلى دورها في الحياة هي منطقة حارة، المنطقة الحارة بسبب
حرّها الهواء فوقها ضغطه مرتفع (متخلخل).

مرةً في أحد أيام رحلات الحج شعرت أن إقلاع الطائرة في دمشق أسرع من إقلاعها في جدة، فسألت خبيراً فقال لي: الهواء في دمشق أكثر برودةً إذاً هو أكثر تماسكاً إذاً هو يحمل الطائرة، أما الهواء في جدة الحرارة تسعة وأربعون أكثر تخلخلاً وأكثر تمدداً وأضعف من أن يحمل الطائرة، فإقلاع الطائرة يحتاج إلى أمدٍ طويل كي ترتفع عن سطح الأرض، بينما هي في دمشق تحتاج إلى وقتٍ أقل، معنى ذلك الهواء إما أنه مخلخل (ضعفه مرتفع)، أو أنه منكمش (ضعفه عالٍ).

إذاً: بوجود كتلتي هواء أحدها ذات ضغطٍ مرتفع والثانية ذات ضغطٍ منخفض تنتم هذه الحركة، مع سكن الهواء الشديد لو دُفأت غرفة وأبقيت بقية الغرفة باردة، وجئت بشمعة وضعتها على طرف الباب تجد أن هناك تيار هواء نشأ من تفاوت الحرارة في الغرفتين.

تحرك الهواء من نعم الله العظمى:

على كلٍ أن يتحرك الهواء هذه من نعم الله العظمى، لأن الهواء هو الذي يسوق السحاب، والسحاب فيه المطر، والمطر فيه الحياة، والحياة قوام النبات، والنبات غذاء الحيوان والإنسان. لذلك: ربنا عز وجل حينما أقسم بالمرسلات عرفاً إن شئت عددها الرياح التي يسوقها الله عز وجل لتثير سحاباً فيكون السحاب حياةً، أو عددها ملائكةً لثحيي القلوب. لك جسمٌ يحتاج إلى طعام وشراب، و لك نفسٌ تحتاج إلى الهدى، فإذا قلنا والمرسلات هم الملائكة، هم الذين يأتون بالوحي إلى الأنبياء فيكون الوحي سبب سعادة الإنسان وسلامته، إنها تعليمات الصانع، إنها خطاب السماء إلى الأرض.

طبعاً الله عز وجل يخاطب أهل الأرض من خلال الوحي ومن خلال الأنبياء، وأحياناً يخاطبهم من خلال أفعاله، أفعاله خطابٌ من نوع آخر، فالإنسان أحياناً يتعلم بالكلمة و أحياناً يتعلم بالموقف.

دروس الله لعباده:

مرةً صنعت باخرة، في عام ألفٍ وتسعمائة واثنى عشر تعدُّ أضخم باخرةٍ في الأرض في ذلك الحين، وقد قال الذين صنعوها: إن القدر لا يستطيع إغراقها، لأنها صنعت من جدارين اثنين وبين الجُدُر جُدُر عرضانية ولها أبوابٌ محكمة، فلو أنها خُرقت من جانب هناك جانبٌ داخلي يمنع تسرب الماء إليها، طبعاً فيها من البذخ و الترف و الفرش الغالي و الكسوة الرائعة جداً ما لا يوصف، وقد كانت في أول رحلةٍ لها من بريطانيا إلى بوسطن وعليها نخبةٌ من أثرياء أوروبا، وقد قدر الخبراء أن ثمن حلي

نسائهم بالمليارات، وفي أول رحلة لها اصطدمت بجبلٍ تُلجّي في عرض الأطلسي فانشقت شطرين وغرقت فقال أحد القساوسة: إن غرق هذه الباخرة دَرَسُ من السماء إلى الأرض. هناك آلاف الدروس يتلقاها البشر من خلال أفعال الله عزّ وجل، وهناك خطابٌ من الله لأنبيائه وبالتالي لبني البشر من خلال الوحي، على كل:

معنى المرسلات:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1))

(سورة المرسلات)

1 - المعنى الأول: الرياح التي تحيي الأرض:

إنها الرياح التي تُحيي الأرض بعد موتها، تسوق السحاب، والسحاب ينقلب إلى مطر، والمطر يحيي بها الأرض بعد موتها.

2 - المعنى الثاني: الملائكة يأتون بالوحي:

المعنى الثاني: هؤلاء الملائكة يأتون بالوحي وهذا الوحي فيه التشريع وفيه المنهج وفيه الدستور وكل من طبق هذا التشريع سعد في الدنيا والآخرة، فإما أنها سبب حياة الأجسام أو سبب حياة النفوس.

معنى عرفا:

تتابع الرسل:

أما عرفاً تتابع الرسل..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

يوجد رُسُل، يوجد أنبياء، يوجد أولياء، يوجد دُعاة، هؤلاء جميعاً موزعون في الأرض توزيعاً تسلسلياً، توزيعاً متتابعاً، توزيعاً جغرافياً، وتوزيعاً زمنياً، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

والآن هناك من يقول بالتجديد، والتجديد أيها الأخوة مَزْلَقٌ خطير، ولُعْمٌ كبير، وفُرْيَة الإسلام بريءٌ منها، كل من توهم أن التجديد أن تضيف على الإسلام شيئاً أو أن تحذف منه، شيئاً كقطع اليد لا يتناسب مع هذا العصر لا بدّ من رادع آخر، أما قوله تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة: آية " 38 ")

قرآن مع التفصيل، مع التحديد، لا ينبغي أن نقطع اليد، قطع اليد لا يتناسب مع الحضارة الحديثة.. هذا تكذيبٌ بالقرآن، و لعل مشكلات الإنسان في كل مكان سببها أكل أموال الناس بالباطل، وهل من رادع أقوى من أن تُقطع يد السارق لتحقيق قُدسية الملكية.

يَدْ بِخَمْسِ مَنِينَ عَسَجِدٍ وَ دِيَّةٍ مَا بَالِهَا قَطَعْتَ فِي رُبْعِ دِينَارٍ

فقال الإمام الشافعي:

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

عندما كانت أمانة كانت ثمينة، فلما خانت هانت. التجديد بالمعنى الدقيق: أي لا ينبغي أن نزيد عليه ولا كلمة، و إزالة ما عُلِقَ بالإسلام مما ليس منه فقط.

بناءً أصله من الحجر الأبيض فصار الحجر أسود اللون من دخان السيارات ومن الغبار ومن عوارض الرياح، فإذا أزلنا عنه هذه الطبقة السوداء التي شوّهت جماله فهذا هو التجديد، ولا يُقبل في الإسلام تجديداً آخر، أن تزيل ما علق فيه مما ليس منه، أما أن نضيف أحكاماً، أو أن نحذف أحكاماً، أن نقول: هذا الحكم لا يتناسب مع هذا العصر. من هي الجهة التي شرّعت ؟ إنه الله عز وجل..

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17))

(سورة الإسراء)

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

التجديد أن نعود إلى أصل النبع:

إذاً: التجديد وقد وصلنا إليه كفرع من فروع هذه الآية هو إزالة ما علق بالإسلام مما ليس منه، أي أن التجديد أن نعود إلى ينبوع بردي عذب صافٍ كالزُّلال، أما مَصْبُهُ مِياهٌ سوداء لكثرة ما أُضيف على هذا النهر من مصبات ومن روافد ومن مِياهٍ مالحة صارت مِياهه سوداء، فالتجديد أن نعود إلى أصل النبع، أصل النبع هذا القرآن وما صَحَّ من حديث رسول الله، هذا هو أصل الإسلام، فإذا عُذنا إلى الكتاب والسنة فقد عُذنا إلى ينبوع الإسلام، ولن نفلح إلا إذا كنا على ما كان عليه رسول الله وأصحابه، الفرقة الناجية، فعرفاً الشيء المتتابع، فالرياح تتابع، والملائكة تتابع رسالاتها والأنبياء يتتابعون.

الأعاصير و أخطارها:

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2))

(سورة المرسلات)

هذه الرياح تشتد، وإن اشتدت بين أن تكون نسيماً عليلاً ثم تكون ريحاً ثم رياحاً ثم عواصف ثم زَعازع ثم أعاصير، والأعاصير لا تبقى ولا تذر، فأحياناً تسمع أن إعصاراً في أمريكا كانت الخسائر من بعده ثلاثين ملياراً، الإعصار تقول: هنا كانت مدينة، هنا كانت بلدة، البيت وأثاث البيت، وما حوله، وما قبله، وما بعده لا تجده في مكانه.

الرياح لها سرعات، من عشرين كيلو متر في الساعة إلى ثلاثين إلى أربعين إلى مائة إلى مائة وخمسة وعشرين فالرياح تؤذي، أما هناك رياح سرعتها ثمانمائة كيلو متر في الساعة، تصوّر أن الأرض إذا كانت تدور وطبقة الهواء ثابتة لا يبقى عليها شيء لأن سرعة دوران الأرض ألف وستمئة كيلو متر بالساعة، لو الهواء ثابت والأرض تدور ينشأ من حركة الأرض وثبات الهواء رياح سرعتها ألف وستمئة كيلو متر في الساعة.

إذاً: إذا كان الهواء راكداً وركبت أنت سيارةً مسرعةً ومددت يدك من النافذة تشعر أن هناك تيار هوائي مُخيف، الهواء راكد وأنت المتحرك، لا بد من حركة أحدهما أنت أو الهواء، فلو أن الهواء ثابت والأرض تدور ما بقي على سطح الأرض من شيء، لذلك قال بعض العلماء:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

يا سبحان الله ما معنى قول الله عز وجل ؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

فهل نحفر سرداب، ندخل في الأنفاق، ندخل في القنوات التي تحت الأرض، ندخل في التعبير الحديث بالبنية التحتية ؟ لا:

(سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة العنكبوت: آية " 20 ")

لأن الهواء جزء من الأرض، فإذا سرت على سطح الأرض فأنت تسير في الأرض، من نعم الله العظمى أن الهواء يدور مع الأرض، ولو لم يكن كذلك لدمر ما على سطح الأرض. شيء آخر: يُدمر ما على سطح الأرض لأن الأرض ترفع سرعتها عندما تصل إلى القطر الأصغر، بينها وبين الشمس المسار إهليلجي (بيضوي)، والشكل البيضوي له قطران قطر أصغر وقطر أكبر، فالأصغر لعل الأرض تنجذب إلى الشمس، الأرض ترفع سرعتها لينشأ عن هذه السرعة الجديدة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، الشيء الدقيق هو أن هذا التسارع بطيء، ترفع سرعتها شيئاً فشيئاً، هذا من لطف الله عز وجل، لو أنها رفعت سرعتها فجأة لانهدم كل ما عليها.

من لطف الله بعباده أن تسارع الأرض و تباطؤها بطيء:

ضع عشرة علب من الكرتون في صندوق سيارة (سيارة شحن) وأقلع بسرعة كل هذه العلب تقع، أو أوقفها بسرعة كلها تقع، من لطف الله عز وجل أن ازدياد سرعة الأرض في دورتها حول الشمس ازدياداً بطيئاً، هذا اسمه في الرياضيات تسارع بطيء، تسارع الأرض بطيء وتباطؤها بطيء، وهذا من لطف الله عز وجل، والآية الكريمة:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24))

(سورة يونس)

فقد يقول قائل: هنا كانت مدينة اسمها باريس، هنا كانت مدينة اسمها واشنطن.

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا)

(سورة يونس)

لو أن هذه السرعة ارتفعت فجأة أو انخفضت فجأة لانهدم كل ما على الأرض.

إذا:

(وَالمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

انتشار الخير عن طريق السحاب:

قال علماء التفسير: هذه الرياح بما تسوق من سحاب تَنْشُرُ الخير، امش في أيام الربيع ترى الأرض قد اكتست بحلة خضراء، والأشجار اكتست بحلة بيضاء، والأزهار من كل لون وشكل، والأرض قطعة من الجمال، بسبب مياه الأمطار، وكلما ازداد المطر ازداد العشب نمواً، فلذلك هذا الجمال، وهذا النبات، وهذه الأشجار، وهذه المروج الخضراء، وهذه الأشجار المكسوة بكل ما فيها بسبب مياه الأمطار.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

ينتشر الخير.

سمعت مرة من أحد إخواننا الكرام أن محصول القمح في سورية ثلاثة ملايين طن (استهلاك القمح كله مليون طن)، ثلاثة أمثال حاجتنا.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

في المنطقة الشمالية الشرقية هذه أراضي خَصْبَةٌ جداً بمياه الأمطار، كلها أراض بعليّة، فالقمح هو المحصول الإستراتيجي الضخم الأساسي في حياتنا، وهو المعول عليه في العالم. إذا: هذه الأمطار تنشر الخيرات، فأنتم قد لا تصدقون قد يُدفع للمزارعين عشرات ألوف الملايين ثمن القمح، عشر مليارات أحياناً ثمن القمح الذي تشتريه الدولة من الفلاحين.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

فحوران وحدها كانت تُطْعَمُ سوريا في عهد الرومان قمحاً، وكانت تعداد هذا البلد كما قرأت حوالي خمسة وخمسين مليون، خمسة وخمسين مليون يأكلون من محافظة واحدة، و حوران كما تعلمون تُسقى بمياه الأمطار أي بعلا، إذا هذا هو معنى:

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

مياه الأمطار تُنْبِتُ الزرع.

أحياناً يقال لك: استوردنا ببضعة مليارات علف للحيوانات، وإذا كان موسم البادية طيب لا نستورد شيئاً في موسم العلف.

فهناك نبات رعوي و النبات الرعوي إذا كان نامياً والسنة خصبة لا نستورد شيئاً، وأحياناً نستورد كي نطعم مواشينا و ندفع عدة مليارات ثمن للعلف.

(وَالتَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

فأنت لا تعرف ما معنى الموسم طيب، موسم البادية طيب، أسعار الجبن والسمن تنزل إلى الربع، هذه السنة يوجد خير كثير إن شاء الله، أسعار السمن البلدي إلى الربع، والجبن كذلك.

أزدياد الخير بامطار السماء:

(وَالتَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

مرة كنت أجلس في مكان فسمعت رجلين يتحادثان قال له: بعنا السنة بشكل كبير، ما الذي باعوه ؟ فماش مُطرز لمناسبات الزواج في الشمال الشرقي من سوريا، قال له: ولما ؟ ما السبب ؟ قال له: كان موسم الأمطار جيداً، فعمل التطريز يبيع بحجم فلكي لأن موسم الأمطار هناك جيد، هذا الرزق، الرزق من السماء فإذا السماء أمطرت الأرض أنبتت والناس في خير، لذلك لما قال الله عز وجل:

(إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيرًا)

(سورة هود: آية " 84 ")

قال العلماء: شرح هذه الآية وفره المواد ورخص الأسعار، أحياناً الذي يضمنون الفواكه في أي مكان يُقدِّرون أنهم سيبيعون هذا الكيلو بخمسين ليرة، أحياناً يأتي موسم طيب يُباع الكيلو بخمس ليرات أو عشر ليرات.. يخسرون.. فكلما ازداد الخير أصبح السعر معتدلاً، هذا معنى:

(وَالتَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3))

(سورة المرسلات)

فهذه السحب التي تُمطر في أماكن جافة تكون هذه الأرض اهتزت و ربت.

تفرق السحاب عن طريق الرياح:

(فَالْفَارَقَاتِ فَرَقًا (4))

(سورة المرسلات)

نعود إلى الملائكة الذين يأتون بالوحي، وهذا الوحي يُفَرِّقُ أنتَ به بين الحق والباطل و من خلال التشريع أيضاً تفرق بين الحق و الباطل، الخنزير حرام ولحم الضأن حلال، الخمر حرام واللبن حلال، فمن خلال التشريع الذي كان عن طريق الملائكة، من خلال الوحي الذي كان عن طريق الملائكة، فهذا التشريع يُفَرِّقُ بين الحق والباطل، وإذا فهمنا أن هذه المرسلات هي الرياح فالرياح تفرّق السحاب. أحياناً في مطلع هذا العام نزل في دمشق في قسمها الشرقي فقط ثلاثين ميليمتر، وفي قسمها الغربي لم ينزل ولا قطرة واحدة، أحياناً يأتي هذا المُخَفَضُ يمطر في مكان ولا يُمَطِرُ في مكان هذا معنى:

(فالفارقاتِ فرْقاً (4))

(سورة المرسلات)

فالرياح تُسَيِّرُ السحب إلى مكان وتبعدها عن مكان، تُسَيِّرُها إلى مكان وتُبْعِدُها عن مكان، إذا فهمنا المرسلات هي الرياح:

(فالفارقاتِ فرْقاً (4))

(سورة المرسلات)

ثبات مجموع الأمطار في العالم:

هذه السحب تأتي بحكمة الله وعلمه وقدرته لأناس ويحرم منها أناس، ولكن الشيء الذي لا يصدق أو لا بدّ من أن يصدّق أن علماء الجغرافيا الطبيعية اكتشفوا حقيقة خطيرة، هي أن مجموع التّهْطال السنوي في الأرض لا يتغير أبداً، فمجموع الأمطار في خمس قارات لا تزيد ولا تنقص، أحياناً تصاب أوروبا بالجفاف والشرق الأوسط بأمطار غزيرة جداً، أحياناً تصاب إفريقيا بالجفاف وأستراليا بأمطار غزيرة جداً، إلا أن المجموع ثابت، هذه الحقيقة جاءت بعد دراسات ومقاييس.

في قطرنا الحبيب كم مركز قياس أمطار ؟ مئات، بالنشرات الرسمية التي توزّع يوجد مئات مراكز لقياس الأمطار، مئات بل بضع مئات، وفي أي مكان بالعالم يوجد مراكز لقياس الأمطار، بعد وضع هذه المقاييس الدقيقة والحسابات الدقيقة تبين أن مجموع التّهْطال في العالم لا يزيد ولا ينقص، أما يختلف توزيعه من بلدٍ إلى آخر، كيف عرف النبي هذه الحقيقة ؟ قال:

((ما عامٌّ بأمطر من عام))

هذه جاءت عن طريق الوحي لا عن طريق المُدارسة، عن طريق المدارس مستحيل، بعد دراسات وأقمار صناعية ومقاييس أمطار وأجهزة كمبيوتر، بعد كل هذه الوسائل اكتشف الإنسان أن مجموع الأمطار في العالم لا يزيد ولا ينقص، أما أن يقول النبي عليه الصلاة والسلام قبل ألف وخمسمائة عام

((ما عامٌّ بأمطر من عام))

هذا من وحي السماء، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

الأمطار تنطق باسم الرزاق:

(فَاَلْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5))

(سورة المرسلات)

إن أردتها رياحاً نظام الأمطار كأثـه ينطق بوحـدانية الله، نظام تَهْطَال الأمطار ينطق باسم الرزاق، أنت حينما تسمع في الأخبار أن منخفضاً جويّاً متمركز فوق قبرص باتجاه القطر، إن كنت موحداً ينبغي أن تعلم علم اليقين أن هذا المنخفض هو رزق الله ساقه لبني البشر، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، أما إذا كنت بعيداً عن التوحيد لا تزيد تصوراتك عن أن منخفضاً جويّاً يُّجِه نحو بلدنا الطيّب، أما الحقيقة هو تجسيدٌ لاسم الرزاق.

في بلادٍ قاحلة، في بلادٍ جافة كالخليج مثلاً، في بلدة قبل عامين (رأس الخيمة) نزل فيها أمطاراً في ليلة واحدة متتتين وعشرين ميليمتر بليلة واحدة، أي كأمطار بلدة دمشق طوال الموسم في ليلة واحدة، نحن هنا في بلدنا في بعض الليالي خمسين ميليمتر، ستين ميليمتر، تسعين ميليمتر في ليلة واحدة، فـالله عزّ وجل إذا أعطى أدهش، وهؤلاء الذي يقولون: هناك حرب مياه، كنا بحرب البترول فإذا نحن بحرب القمح، والآن الشيء المطروح في العالم الحروب الآن حروب مياه.. وكأن الله سبحانه وتعالى ليس عنده احتياط من الأمطار، فلذلك هناك جفاف وهناك حرب مياه.

تقنين الله للأمطار تقنين يأديب لا عجز:

حينما كنت في الحج في هذا العام من فضل الله عزّ وجل طالعت صحيفة تصدر في المدينة المنورة فإذا بخبر لفت نظري ذكرته في الخطبة، هذا الخبر يقول: هناك مرصد يعمل بالأشعة تحت الحمراء، مرصد في أوروبا عملاق، اكتشف وجود سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض لو جففناها ستين مرة في يوم واحد، سحابة واحدة في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة، فإذا كان التقنين من قبل الله فهو تقنين تأديب لا تقنين عجز.

(فَاَلْفَارَقَاتِ فُرْقًا (4) فَاَلْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ((5)))

(سورة المرسلات)

أحياناً تقف أمام صنعة متقنة جداً، هذه الصنعة المتقنة كأنها تنطق وتقول: انظر من صنعني، انظر إلى ذوق من صنعني، انظر إلى إحكام من صنعني، انظر إلى علم من صنعني، انظر إلى جمال من صنعني.. الشيء ينطق.. هذا يسميه العلماء: " لسان الحال ". هناك لسان المقال ولسان الحال، فالشيء الذي تراه من صنع الله عزّ وجل فيه إتقان مدهش.

لذلك نظام الرياح، ونظام السحاب، ونظام الأمطار، نظام متقن:

(فَاَلْمُفَاتِ ذِكْرًا (5))

(سورة المرسلات)

تُلقي علينا الذكر، فأنت حينما تأكل تفاحة إذا كان عندك شفافية عالية جداً كأنها تقول لك: انظر من خلقتني ؟ من جعلني بهذا الحجم اللطيف ؟ وهذا اللون الزاهي ؟ وهذا الطعم الحلو ؟ وهذه الرائحة العطرة ؟ وهذا القوام الذي يتناسب مع أسنانك ؟ لو أن التفاحة كالصخر كيف تأكلها ؟ لو أنها مرّة كيف تأكلها ؟ لو أنها تفتقر إلى الغذاء، كيف تأكلها ؟ لو أنها بعيدة جداً كيف تُقَطِّفُها ؟ إنها في متناول يدك، كان عليه الصلاة والسلام يُسَلِّم على حجر بمكة، مرّة سلّم على أحد، مرة نخلة كان يخطب عليها فلما تركها إلى المنبر حُتت إليه فكان يضع يده عليها إكراماً لها.

مرّة دخل بستاناً فإذا فيه جمل فلما رأى النبي حنّ.. بكى.. فأمسك ذفريه ومسحهما وقال: من رب هذا الجمل ؟ جاءوا بفتى أنصاري، قال:

((ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إليّ أنك تُجيعه وتؤذبه))

[أخرجه أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

فالإنسان إذا كان عنده شفافية و رأى الأمطار ينهمر، هذه رحمة الله، أحياناً الفلاح يبكي بكاء الفرح لأنه زرع خمسة طن قمح و قد دفع ثمناً باهظاً للطن الواحد، فإذا لم يكن هناك مطر فإنه خسر، الأمطار تنبت القمح فإنه يبكي من فرحه، رأى فضل الله عليه، والإنسان المؤمن لا يرى النعمة فقط بل إنه يرى المنعم، يوجد شيء أمامك، توجد نعمة، يوجد كأس ماء، المؤمن يرى الذي أنزل الماء من السماء وجعله عذباً فراتاً.

المؤمن يرى المنعم لا النعمة:

لتر المياه المُحلى في المملكة العربية السعودية يكلف اثني عشر ريالاً، أي مائة وخمسين ليرة سوري، توجد محطات تحلية اللتر الواحد أغلى من البنزين، اللتر الواحد من المياه المُحلاة من مياه البحر يكلف

اثني عشر ريالاً، يعني مائة وخمسين ليرة، فأنت تفتح الصنبور في دمشق وأنت في البيت على ماء عذب فُرات بارد، فهذا شيء لا يُقدر بثمن إطلاقاً، فالمؤمن لا يرى النعمة، يرى المُنعِم، أما الكافر يرى النعمة، وهذا هو الفرق بين الكافر والمؤمن.

الآن أهل الغرب مع النعم أما المؤمنون إن شاء الله مع المُنعِم، يرون المُنعِم، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت.

نعم الله على الإنسان عديدة منها:

1 - المثانة والكلية:

إذا الإنسان أفرغ مثانته فإن هذا شيء ثمين جداً لا يُقدر بثمن، لو توقفت الكليتان لأصبحت الحياة جحيماً، تبحث من يعطيك كَلَيْتَهُ فلا تجد، كل أسبوع مرتين غسل كليتين، انتظار ثماني ساعات ودفع آلاف مؤلفة، وتنقيب الجسم كل أسبوع مرتين في جهة، والتصفية ليست تامة، يتبقى بالمائة عشرين من البولة في الدم، وهذه النسبة في الدم تسبب تَوَثُرَ عصبي شديد وردود فعل قاسية جداً لأنه يوجد بول، يوجد حمض البول في الجسم لأن التنقية غير كاملة، يعني لو توقفت الكليتان لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يُطاق، فالنبي عليه الصلاة والسلام إذا أفرغ مثانته يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الأذى و عافاني))

[أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك]

2 - السمع و البصر و الفؤاد:

والمؤمن دائماً يعيش برحمة الله، إذا شرب كأس الماء، إذا تناول صحنَ طعام، هناك من يأخذ السيرون، ممنوع من الأكل، إذا تكلم فإن هناك من استؤصلت حنجرته، يعني النعم التي تتمتع بها لا تُعد ولا تُحصى، نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة التوازن، يوجد إنسان تضايق من هرة فأمسكها وألقاها من سبع طوابق فنزلت مَيَّبة فوراً فقد توازنه، لا يمشي إلا مع اثنين، جهاز التوازن لا يُقدَّر بثمن، السمع، البصر، يقول لك: يوجد عنده عمى ألوان ممنوع من أن يقود سيارة لأنه يرى الأخضر أحمر، والأحمر أخضر، مرض عمى الألوان يصيب الإنسان، يوجد مرض ارتخاء الجفون لا ترى إلا إذا فتحت جفحك بيدك، تتركها فتنزّل لوحدها، يوجد أمراض لا تُعد ولا تُحصى.

3 - الرنتان:

يوجد مرض مركز تنبيه الرنتين الآلي يتعطل، ينام فيموت، يجب أن يتنفس تنفساً صناعياً، يوجد تنفس آلي وتنفس صناعي، فأنت عندما تُحرّك عضلات الصدر يصبح التنفس صناعياً، أي يدوي، والإنسان عندما ينام هناك تنفس آلي، يوجد مركز بالصلة السيسائية (مركز تنبيه الرنتين النبوي)، هذا المركز يتعطل فالإنسان إذا نام يموت، لا يمكن أن ينام، بعد جهد جهيد اخترع دواء في أمريكا يجب أن تأخذه كل ساعة، فرجل من أبناء دمشق كان طبيب رحمته الله تعالى أصيب بهذا المرض، فكان يتناول حبة من الدواء الساعة الحادية عشر، وحبة الساعة الثانية عشر، وحبة الساعة الواحدة، والساعة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة.. إلى الساعة التاسعة، فكان يضع أربع منبهات لأنه لو نام يموت على الفور، أربع منبهات حتى يستيقظ ويأخذ حبة، هذا دواء حديث جداً ونادر ومفقود تأخذه كل ساعة وإلا أول غفلة يموت الإنسان، له ابن كان مسافراً فرجع من السفر، سهر مع ابنه من شدة فرحه الأربع منبهات لم يستيقظ عليها، وجدوه ميتاً في الصباح، نعمة أنه يوجد عندك تنفس آلي هل تعرف هذه النعمة؟.

4 - القلب:

نعمة عمل القلب الآلي هل تعرف هذه النعمة؟ لو أن الله أناط القلب بك أين اليوم؟ والله اليوم عندنا نبض القلب.. لا تقدر أن تنام، لو أناط الهضم بيدك، الهضم أراحك منه، نبض القلب أراحك منه، التنفس أراحك منه وإلا حياة الإنسان جحيم لا يُطاق. هذا معنى:

(فَاَلْمُلَقِيَّاتِ ذِكْرًا (5))

(سورة المرسلات)

صنعة الله المتقنة سبب الذكر:

أي أن الصنعة المتقنة تُلقِي عليك الذكر، وإن أردت هؤلاء المُرسلات هم الملائكة هؤلاء يوحون إلى الأنبياء؛ الذكر الحكيم، القرآن الكريم، والتشريع، والحلال والحرام، وافعل ولا تفعل، وأخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، ومشاهد يوم القيامة، والوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، وكل شيء فإن أردتها ملائكة:

(فَاَلْمُلَقِيَّاتِ ذِكْرًا ((5)))

(سورة المرسلات)

الوحي، وإن أردتها رياحاً فإن هذه الصنعة المحكمة تنطق بوحداية الله، وتنطق برحمته، وتنطق بعلمه وبحكمته.

إنذار الله للإنسان:

(عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6))

(سورة المرسلات)

أي أن الله عزّ وجل حينما ينذر يُعَذِّر (قد أعذر من أنذر):

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5))

(سورة المرسلات)

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ)

(سورة الزمر: آية " 71 ")

الله عزّ وجل أعذّر لأنه أنذر، وأنزل هذا الوحي ليكون للعالمين نذيراً:

(عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6))

(سورة المرسلات)

والرحيم يُنذِر فإذا أنذر أعذّر، القسم:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (6))

(سورة المرسلات)

جواب القسم:

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

والله الذي لا إله إلا هو لا تجد في المائة مسلم من يُدخل الآخرة في حساباته اليومية، وإلا كيف يتوازن الإنسان مع نفسه حينما يأكل أموال الناس بالباطل، كيف ؟ لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر ويأكل أموال الناس بالباطل، لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر وأن يعتدي على أعراض الناس، لا يمكن أن يؤمن باليوم الآخر وأن يأخذ ما ليس له، مستحيل لذلك الله عزّ وجل أقسم:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1))

(سورة المرسلات)

بالرياح التي هي سبب الحياة على وجه الأرض، أو بالملائكة التي تحيي القلوب بالوحي الذي تُنزلُهُ على الأنبياء.

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نَذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7))

(سورة المرسلات)

الأعمال الصالحة ثمن الجنة:

ما بين غَمَضَةِ عَيْنٍ وانتباهتها يغيّر الله من حالٍ إلى حال، كل واحد منا يسمع والله فلان توفي (رحمة الله عليه)، كان شخصاً صار خيراً، صار كلمة، صار نعوة في الجريدة، نعوة على الجدران، انتهى وجوده، انتهت هيمنته، انتهت إمكانياته، انتهت ثروته، كله انتهى.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7))

(سورة المرسلات)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

لو أن الإنسان أدار ظهره للحق ولم يعبأ به ماذا ينتظره ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فُقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ غَيًّا مُطْغِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ

الدَّجَالَ فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

الموت نهاية الأجل:

فإذا الإنسان أرد الدنيا ؛ أراد مالها، أراد شهواتها، أراد زينتها وأدار ظهره للحق، الأيام كلها تمضي على وتيرة واحدة ؟ مستحيل، كل يوم يستيقظ صحيح البدن إلى أبد الأبدین ؟ مستحيل، إذا انتهى أجله قبل أن ينتهي أجله تأتي علة في أحد أعضائه، إنسان يموت من قلبه، إنسان يموت من نمو خلاياه، إنسان يموت من دماغه يقول لك: خثرة في الدماغ، إنسان يموت بحادث، إنسان يموت بسكتة قلبية، فعندما ينتهي الأجل تأتي علة تستفحل تتفاقم تُنهِي الإنسان.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7))

(سورة المرسلات)

لذلك هذا الحديث

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

إلا المؤمن ينتظر كل خير، ينتظر كل إكرام، ينتظر كل توفيق، ينتظر كل نصر، ينتظر مَعِيَّةَ الله، لذلك الدعاء اللطيف

((اللهم اجعل نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة))

الإنسان المؤمن المستقيم الله عزّ وجل يحييه حياةً طيبة و يميته في أحسن حال، يعني رجل محسن كبير في رمضان وفي السابع والعشرين من رمضان في ليلة القدر وهو يقرأ القرآن توقاه الله عزّ وجل، وإنسان يموت في مرحاض أحياناً، يموت وهو يصلح الدش، يموت هناك على السطح، فالإنسان بحسب حياته تُلخّص حياته في موته.

الموت للكفار مصيبة كبيرة:

سمعت قصة ولا أعرف مدى صحتها ولا تحققت منها: أدخلوا ميتاً إلى أحد المساجد ليُصلّى عليه، وقف الإمام ليصلي عليه فرعف، أحضروا إمام ثان فرعف، الثالث وقع، فأخذوه ولم يصلوا عليه، هذا عمل نادر لأن ثلاثة أئمة لم يتمكنوا من أن يصلوا عليه ففتحوا عليه فرأوا وجهه وجه كلب، فسألوا أهله، كان يأتي إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل من خمارة فإذا سمع المؤذن قال: أسكتوا هذا الكلب، فأماته الله وقد مسخه كلباً، فالموت شيء خطير، مغادرة نهائية.

(عَذْرًا أَوْ تُذَرًّا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

هذا الموت لا يخاف منه المؤمن: >> وا كربتاه يا أبت، قال: لا كربة على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه <<.

أما الموت للكافر فهو مصيبة ما بعدها مصيبة، سيفقد كل شيء في ثانية واحدة، فالمؤمن يدخل الموت في حساباته اليومية قبل أن يقول كلمة لعلها غيبة، قبل أن يقول كلمة لعلها بُهتان، لعلها كذب، لعلها سُخرية، لعلها تؤذي أخيه، قبل أن ينظر لعلها امرأة لا تحلّ له، قبل أن ينتقد لعل في هذا الانتقاد كسر لخطر هذا الإنسان، بيتك صغير كيف البيت يسعك ؟ يسعه وهو راض به، قبل أن تُصعّر الناس في نظرك، قبل أن تنتقدهم، قبل أن تزعجهم، قبل أن تُحمرّ وجوههم فكر، الله عزّ وجل كبير وسينقم.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7))

(سورة المرسلات)

هذا يوم القيامة توجد تسوية حسابات.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها لا هي أطعمتها و لا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض))

[أخرجه أحمد عن أبي هريرة]

هرة تكفي لدخول النار.

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَلَانَةَ يُذَكِّرُ مِنْ كَثَرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي

جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ))

(أخرجه أحمد عن أبي هريرة)

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8))

(سورة المرسلات)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (2-3): تفسير الآيات 8- 24 خلق الإنسان من آيات الله الكبرى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-06-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: مع الدرس الثاني من سورة المُرسلات. ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:
(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ (11)
لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ (12) لِيَوْمِ الْقِصَلِ (13))

(سورة المرسلات)

مظاهر يوم القيامة:

أيها الأخوة الكرام: في يوم القيامة تَبْدُلُ جذري للحياة، هذه الشمس الثابتة، هذه الجبال الشامخة، هذه النجوم المتألقة سوف تُطْمَس، هذه السماء المبنية سوف تَنْشَق، هذه الجبال الشامخة سوف تنسف عن آخرها و تنفتت و تقتلع من جذورها، هكذا ورد في التفسير.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ (11))

(سورة المرسلات)

هؤلاء الذين أرسلهم الله عزَّ وجل للبشر سيأتون ليقفوا أمام الله عزَّ وجل لِيُسْأَلُوا عن أداء مهمَّتهم وليسأل الذين أرسلوا إليهم عن استجابتهم، المرسل سيُسأل والمرسل إليه سيُسأل، ولو وقفنا عند هذه الآية وقفة متأنية، الإنسان يتكلف، سيُسأل يوم القيامة أولاً: هل أدَّيت أمانة التبليغ ؟ الأنبياء يُسألوا هل أدَّيت أمانة التبليغ ؟ وأنت حينما تقف أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام تقول: أشهد أنك بَلَغت الرسالة وأدَّيت الأمانة.

سؤال الإنسان عن رسالته يوم القيامة:

أي إنسان تصدَّى للدعوة إلى الله سيُسأل: هل أدَّيت أمانة التبليغ ؟ هل أَخَفَيْتَ شيئاً ليس في صالحك أن تظهره ؟ هل ذكرت شيئاً لست قانعاً به، ذكرته إرضاءً لقوي ؟ هل خشيت غير الله عزَّ وجل فسكت عن الحق إرضاءً لهذا ؟ أو نطقت بالباطل إرضاءً له ؟ كل إنسان تصدَّى للدعوة إلى الله سوف يُسأل، هل كان أميناً على شرع الله ؟ هل كان أميناً على الفتوى ؟ هل كان أميناً على الدعوة ؟ هل كان أميناً على

الحقيقة ؟ هل يَبين بشكلٍ دقيقٍ ما يعلم أم تكلم بما لا يعلم ؟ مع العلم أن الله سبحانه وتعالى ذكر المعاصي بشكلٍ تصاعدي، الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان والكفر والشرك وجعل أعلى معصيةٍ في قِمة الهرم..

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة)

الابتعاد عن عقيدة الجبر:

الإنسان قبل أن يقول على الله ما لا يعلم، هل هو متأكد ؟ هل يظنُّ بالله غير الحقّ ظن الجاهلية ؟ هل يُنْفِر الناس من الدين وهو لا يعلم ؟ هل يُلقِي على الناس عقيدة الجبر؟ يقول له: منذ أن خُلِقَتْ خُلِقْتَ كافر، ولن تستطيع أن تُغَيِّر قضاء الله أبداً، وسوف تموت كافراً، وسوف تُخَلَّد في جحيم إلى أبد الآبدين، لماذا ؟ لأن الله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

أن تلقي على الناس عقيدة الجبر وأنت لست متأكداً من صحة ما تقول هذا شيءٌ عند الله عظيم، أنت أداة تنفير أم أداة تقريب؟ أداة تحبيب أم أداة تنفير ؟ أداة وصل أم أداة قطع ؟ أداة تعريف أم أداة تجهيل؟ فكلمة: سيسأل أي كل من تصدّى للدعوة إلى الله، الأنبياء حملوا أمانة التبليغ وقد أدّوها حق الأداء، العلماء كلّفوا أمانة التبیین فهل بينوا ؟ هل أفتوا بما يعلمون أم بغير ما يعلمون أم بخلاف ما يعلمون ؟ هناك من يفتي بعلم، وهناك من يفتي بغير علم، وهناك من يفتي بغير ما يعلم، بخلاف ما يعلم.

محاسبة المتكلم والمستمع يوم القيامة:

أيها الأخوة: المتكلم سيسأل والمستمع سيسأل، سؤال المتكلم: هل بيّنت ؟ هل فصلت ؟ هل اجتهدت في إحقاق الحق ؟ هل أصبت ؟ هل تكلمت من خيال أم تكلمت من حقيقة ؟ هل تكلمت بالدليل والبرهان من الكتاب والسنة أم تكلمت من مزاج ومن هوى لا ينضبطان بقاعدة ؟ المتكلم سيسأل والمستمع سيسأل: ماذا عملت مما علمت ؟

يلقى على المسلمين في هذه الأيام آلاف الحقائق، آلاف الأدلة، آلاف البراهين، الآيات وشرح الآيات، الأحاديث وشرح الأحاديث، السيرة وتفاصيل السيرة، الفقه وأحكام الفقه، وأصول الفقه ومذاهب الفقه، وكل شيء يُلقى على الناس، ماذا عملوا بما علموا ؟ المرسل إليه سيسأل، والمرسل سيسأل، والله سيسأل الجميع.

(فَوَرَيْكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أحياناً الإنسان يكون في جلسة فيطرح موضوع الربا، يتكلم الإنسان كلاماً صحيحاً، و كلاماً دقيقاً، وكلام معه الآيات والأحاديث والأدلة، وشخص يستمع ولا يعبأ بما سمع، يوم القيامة سيسأل: ألم تجلس في المكان الفلاني مع فلان وفلان وقد بين لك فلان أن هذه معصية كبيرة ؟ وأن الذين يأكلون الربا ستنظرهم حرباً من الله ورسوله ولم تعبأ بما سمعت، ولم تُلْقِ بالاً لما سمعت ؟ فالمتكلم سيسأل والمستمع سيسأل، المتكلم إذا كان نبياً سيسأل: هل أدّى أمانة التبليغ ؟ والمتكلم إذا كان عالماً ولياً سيسأل: هل أدّى أمانة العلم ؟ والذي أُلقي عليه العلم سيسأل: هل أصغيت ؟ هل اهتممت ؟ هل استوعبت ؟ هل دقت ؟ هل تساءلت ؟ هل جلست مع نفسك ؟ هل تفحصت هذا الذي سمعته ؟ إذا كان حقاً لما لم تقبله ؟ وإذا كان باطلاً لما لم تردّ عليه ؟ هنا المشكلة.

نحن الآن في زمن هدنة، دقق في العام الدراسي لا توجد عقوبات، لا يوجد نجاح ولا رسوب أثناء العام الدراسي، الطلاب جميعاً يذهبون إلى المدرسة ويخرجون منها ويستمعون إلى الدروس، لكن هناك يوم سيجلس فيه الطلاب على مقاعد الامتحان وسوف تلقى عليهم الأسئلة، وسوف يدعون إلى الكتابة، فيما أن ينجحوا فيكروا، وإما أن يرسبوا فيهانوا، في يوم فيه سؤال، نحن الآن في زمن هدنة.

عندنا حي فيه بيوت، بيت فيه صلاة، بيت لا يوجد فيه صلاة، بيت فيه صحن، بيت لا يوجد فيه صحن، بيت فيه فتيات متفلتات، بيت فيه محجبات، بيت يُتلى فيه القرآن، بيت تصدح فيه الأغاني، بيت فيه حفلات مختلطة، بيت فيه حفلات منضبطة، بيت في أمر بالمعروف، بيت فيه أمر بالمنكر، بيت منضبط، بيت متفلت، أما كلهم يأكلون ويشربون وينامون ويعملون وهم في مستوى واحد في المجتمع، نحن في زمن هدنة الآن، نحن في أثناء العام الدراسي، لكن يوم القيامة سوف يُسأل: لما فعلت ؟ لما لم تفعل ؟ لما أعطيت ؟ لما لم تعط ؟ لما ابتسمت ؟ لما عبثت ؟ لما واليت ؟ لما عاديت ؟ لما وصلت ؟ لما قطعت؟

إعطاء الرسل الوقت المناسب لتبليغ الرسالة:

كل موقف يقفه الإنسان سوف يُسأل عليه، فلذلك الأنبياء وهم قِمم البشر، هم قِمم المجتمعات البشرية، هؤلاء الأنبياء قال:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (11))

(سورة المرسلات)

وضع لهم وقتٌ معلوم ليسألهم الله عزَّ وجل: هل بلغوا الرسالة أمام شعوبهم ؟ أمام أممهم، أمام أقوامهم، وليسأل أقوامهم: هل أصغيتم ؟ هل عقلتم ؟ هل استجبتم ؟ هل طبَّقتم ؟ ماذا فعلتم ؟ هذا السؤال يوم القيامة يوم تُطَمَس النجوم، وتنشق السماء، وتُنفَس الجبال، ويأتي الرسل ليجيبوا عن أسئلة الله عزَّ وجل، ليقفوا أمام أقوامهم وجهاً لوجه.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118))

(سورة المائدة)

يسأل هذا النبي العظيم: ماذا قلت لهم ؟ وماذا أجابوك ؟ إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (11))

(سورة المرسلات)

ضُربَ لها وقتٌ معلوم لتقف أمام الله عزَّ وجل ليسألها: هل بلغتم الرسالة ؟ وليسأل الأقوام الذي أرسلوا إليهم: هل استجبتم ؟ هل كذبتُم ؟ هل آمنتم ؟ هل نصرتم ؟ هل خذلتُم ؟ هل آويتُم ؟ هل جاهدتم مع الأنبياء؟ ماذا فعلتم ؟ كل شيء سوف تُسأل عنه.

مصيبة الدين من أكبر المصائب التي تصيب الإنسان الغافل:

الإنسان الغافل يظن هكذا الدنيا، فيرتكب المعصية، يُعطي، يمنع، يأخذ مالا حراماً، يغتصب بيتاً، ينتهك عرضاً، يمضي أوقات فراغه كما يشاء، هذا الجاهل الغافل، فأكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله، سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".

فأكبر مصيبة على الإطلاق مصيبة الدين، أن تكون جاهلاً، أن تكون غافلاً، أن تقع في الشرك الخفي، أن تقع في المعصية، أن تقع في المخالفة، أن تكون في طريق لا يُرضي الله، أن تتحرك في سخط الله، أن تكسب المال الحرام، أن تطلق بصرك في الحرام، أن تتكلم كما يحلو لك ؛ غيبة، نيمية، بهتان، إفك، سخرية، مُحَاكَاة، شَتِيمَة، احتقار، تتكلم كما يحلو لك، تذهب إلى أي مكان تشاء، لا تقول: أنا مسلم، هذا المكان لا يليق بي لا يتناسب مع وضعي، هذا الإنسان سوف يسأل.

أكبر مصيبة على الإطلاق أن تكون غافلاً عن الله، أكبر مصيبة على الإطلاق ألا تدخل يوم القيامة في حساباتك اليومية، أن تكون غافلاً عن اليوم الآخر، هذه هي المصيبة، سيدنا عمر يقول: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".

إنهاء الموت لجميع مشكلات الحياة:

أما المصائب التي هي ما دون مصيبة الدين، مصائب لا قيمة لها، تنتهي بالموت، فالموت يُنهي الفقر، يُنهي المرض، يُنهي كل مشكلات الحياة، وتبقى الآخرة، ويبقى النعيم المقيم، وتبقى جنة عرضها السماوات والأرض، وتبقى لك الحور العين، ويبقى لك الولدان المُخلدون، ويبقى لك النظر إلى وجه الله الكريم، ويبقى لك رضوانُ من الله أكبر.

مثلاً: الصيام، الذي أفطر في رمضان وانتَهك حرمة هذا الشهر، وشرب الشراب وأكل الطعام في نهار رمضان، ثلاثون يوماً تمضي، يأتي يوم العيد بماذا يشعر هذا الذي أفطر رمضان ؟ بالخزي والعار، وهذا الذي صامه يُفطر في يوم العيد، بماذا يشعر ؟ برحمة الله عزّ وجل، فالأيام تمضي، المعاصي تنتهي لذائذها وتبقى تبعاتها، والطاعات تنتهي أعبائها ويبقى ثوابها، شيء دقيق كالعام الدراسي، الذي اجتهد وسهر ودرس وراجع وذاكر نجح بالامتحان، ينسى كل التعب ويبقى التآلق ومكانته الرفيعة بين الناس، ونجح بتفوق، والذي رسب والذي تكاسل، فرسب ينسى كل أيام النوم، ساعات النوم المديدة وساعات السهر مع أصدقائه ويبقى الخزي والعار أمام الناس، شيء دقيق للذائد تنتهي وتبقى التبعات، والمتاعب تنتهي وتبقى المكافآت.

فلذلك أكبر مصيبة على الإطلاق أن يكون الإنسان غافلاً عن الله، أن يكون منغمساً في المعاصي والآثام، أن يكون ماله حراماً، أن يكون بيته غير إسلامي، أن يكون عمله لا يُرضي الله عزّ وجل، هذه هي المصيبة.

الصبر على المصائب:

أما المرض بتقدير الله عزّ وجل، المرض ليس وصمة عار، قضاء وقدر من الله عزّ وجل، من صبر على مرضه كافأه الله بجنة عرضها السماوات والأرض، فكل الناس يحاسبون حساباً دقيقاً، إلا فئة واحدة وهي فئة الصابرون، قال:

(إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10))

(سورة الزمر: آية " 10 ")

أنتم اذهبوا بغير حساب، فإذا الإنسان في الدنيا أصابته مصيبة ورآها من الله عز وجل ورأى يد الله وراءها، رأى يد الله الرحيمة، الحكيمة، العادلة، يد الله التي رحمته بهذه المصيبة، فصبر على هذه المصيبة.

(إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10))

(سورة الزمر: آية " 10 ")

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ تُسِفَتْ (10))

(سورة المرسلات)

الوقوف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل:

لنا وقفة مع رسول الله: يا رب هؤلاء قومي، أمتي أمتي !! يقول الله له: ما تدري ماذا أحدثوا بعدك. من فتن، من شهوات، من بدع، من انحرافات، كيف كان بأسهم بينهم، لم يرحموا صغيراً، ولم يوقروا كبيراً، ولم يؤدوا ما عليهم من حقوق، انغمسوا في الشهوات، وأمروا بالمنكر، ونهوا عن المعروف، وكان بأسهم بينهم.. يا محمد لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فيقول عليه الصلاة والسلام: سحقاً سحقاً. كل قوم سوف يقفون مع نبيهم، يسأله: هل بلغتهم ؟ فيقول: يا رب بلغتهم، لما لم تستجيبوا ؟.

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71))

(سورة الزمر)

أسماء يوم القيامة:

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (11) لِيَأْيَ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13))

(سورة المرسلات)

اسمه يوم القيامة، والحاقة، والطامة، ويوم الدين، ويوم الديونة، ويوم الجزاء، واليوم الآخر، ومن أسماء يوم القيامة: يوم الفصل، العالم كله كل يتوهم أنه على حق.

الإنسان الذي على حق هو الذي تمسك بوحى السماء:

هناك نظريات عرقية، يقول لك: تطهير عرقي، يوجد نظريات ضيقة الأفق، نظريات عشائرية، نظريات جنسية.

في رأي للعلماء: الإنسان كتلة من الجنس وكتلة من الاقتصاد، وكل إنسان يدّعي أنه على حق، وأن نظريته صحيحة، ومبدأه صحيح، فالممل والنحل، والمذاهب والطوائف، والاتجاهات، والأديان لا تُعدّ ولا تُحصى، من هو على الحق؟ يوجد بشرق آسيا مئات الأديان ؛ شعوب يعبدون النار من دون الله، شعوب يعبدون البقر من دون الله، شعوب يعبدون بعض الحيوانات، شعوب يعبدون أحقر الحيوانات، شعوب يعبدون مَوْجَ البحر، شعوب يعبدون الأعضاء التناسلية في الإنسان، شعوب يعبدون الشمس، وهناك أممٌ تعبد الله عزّ وجل، وكل هؤلاء يتوهم أنه على حق.

من هو على الحق حقيقة ؟ الذي تمسك بوحى السماء، الذي عبد خالق السموات والأرض، هؤلاء الشعوب بأديانهم، بطوائفهم، بمللهم، بنحلهم، بأجناسهم، بأعراقهم.

الله تعالى يفصل بين الناس يوم القيامة:

مرة يظهر لنا إنسان يقول لك: الشعب الغربي أرقى شعوب العالم، والعرب صُفُوا مع البرابرة. قال هتلر: كل إنسان يدّعي أن شعبه أرقى شعب، وهم شعب الله المختار. اليهود هكذا يدّعون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أحباب الله، أبناء الله وأحبّاه.

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة: آية "18")

دعوات، كل يدّعي أنه هو الشعب الأعلى، المتميّز، المتفوّق، هذه دعوة مضحكة، من يفصل بينهم ؟ الله جلّ جلاله، الله جلّ جلاله يفصل بينهم يوم القيامة، فإلى متى هذا الخلاف ؟ إلى متى هذا الوهم ؟ توجد نظريات مضحكة: في التلمود أشياء العقل لا يصدّقها، يتقربوا إلى الله بقتل المسلم (هذا جزء من دينهم)، فهذه الأوهام، هذه التخرّصات، هذه الأباطيل، هذه المزاعم، هذه الثرّهات، متى يوضع حدّ لها؟ من يقول: أنتم كاذبون وأنتم صادقون ؟ أنتم مبطلون وأنتم محقون ؟ أنتم دجاجلة وأنتم صادقون ؟ من يقول هذه الكلام ؟ الله جلّ جلاله.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (11) يَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13))

(سورة المرسلات)

القوة هي مقياس الحق بنظر أهل الدنيا:

الشعوب الغربية تدّعي أن الإنسان إله العصر، وأن الحياة للقوي فقط، وأنت إذا كنت قوياً فأنت على حق (هذا شعار أمريكا) إذا كنت قوياً فأنت على حق. الإنسان يخترع أسلحة فتأكل فيصير قوياً فيسحق الشعوب، يأخذ خيراتها وثرواتها، ويقهرها، ويذلّها، ينطلق من نظرية أنك أنت على حق لأنك قوي

فقط، القوي هو على الحق، النظرية من يقول لهم يوم القيامة: أنتم كاذبون، أنتم واهمون، الحق هو الله عز وجل >

إخوانا الكرام: يوم القيامة يحل كل مشكلات البشر، فالإنسان إذا كان على الحق لا يخاف، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، هذا الذي ادعى أن الإنسان كتلة جنس، من يقول لفرويد: أنت كنت واهماً، أو مخطئاً، أو كنت دَجَّالاً ؟ الله جلّ جلاله.

النظريات الباطلة في الدنيا:

هذا الذي ادعى أن الإنسان أصله قرد وقصة سيدنا آدم وحواء كلها ليس لها أصل، الإنسان كائن تطور من قرد، أصبحت مؤمناً بهذه النظرية من جديد لكن معكوسة: كان إنساناً أصبح قرداً، مؤمن بها وهي معكوسة، من يقول لهذا الإنسان الدَجَّال: أنت على باطل؟ الله عز وجل، نظريات لا تنتهي. النظرية المادّية، نظرية اللذة، يجب أن تقتنص اللذة في أي لحظة، الوجودية، المادية، المثالية المُسرفة في الخيال، هذه الاتجاهات والنظريات والمذاهب والأباطيل والأديان التي لا يعلم عددها إلا الله، آلاف الأديان، دين يُفَدِّس البقرة، يضعون روثها في غرف الضيوف في الأعياد، روث البقر، ويتعطرون ببولها، وإذا مرّت في الطريق يُقَطِّعُ الطريق، وإذا دخلت إلى بائع فاكهة، فهذا عنده يوم عيد لأن الإله دخل وأكل من الفواكه التي عنده، شعوب بأكملها ثمانمائة وخمسين مليون، من سيقول لهؤلاء: أنتم واهمون، هذا كذب وافتراء ؟ الله جلّ جلاله.

البطولة الحقّة للإنسان أن يكون مع الحق:

فبالخلاف موجود ولكن البطولة أن تكون مع الحق، مع الوحي، مع خطاب السماء إلى الأرض، مع هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن تكون مع الإله الواحد، مع الإله خالق السماوات والأرض، أن تكون مع منهجه، أن تُطَبِّقَ أفعَل ولا تفعل. في بعض أنواع الأطعمة في آسيا، أفخر أنواع الطعام أن يأتوا بقرد وهو حي يضعونه في قفص ويضعون رأسه في مكان مُحَكَّم وَيَقْلَعُونَ غطاء رأسه ويأكلون من دماغه بالملقعة وهو حي، هكذا يأكل بعض الشعوب، هذه أكلة غالية جداً، يأكلون القطط أحياناً، الكلاب، فمن يقول لهؤلاء: أنتم على خطأ شديد ؟ العبرة أن تكون مع الحق، مع منهج الله عز وجل، مع تعليمات الصانع خالق الكون. فأكبر نعمة على الإطلاق والتي لا تعدلها نعمة أنك تعبد الله خالق السماوات والأرض.

أخ كريم أقام في اليابان فترات طويلة، اختصاصه في الأجهزة الإلكترونية، استطاع أن يدخل إلى معابدهم، ماذا يعبدون ؟ ذكر الرجل يعبدونه، يخضعون له، يُقَدِّسونه هكذا، شعوب في متاهات، في بعد عن الله عزّ وجل، في شطط، هؤلاء الضالون، هؤلاء المنحرفون، هؤلاء الواهمون، هذه المذاهب الضالة المضللة، هذه النظريات المضحكة، من يقول لأصحابها: أنتم على خطأ، أنتم كاذبون؟ الله جلّ جلاله، فلو كان الناس ليسوا معك دائماً العبرة أن تكون أنت مع الحق، أن تكون مع الحق الذي من عند الله عزّ وجل.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (11) لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14))

(سورة المرسلات)

إظهار الدين و لو كره الكافرون:

إنسان كان يعمل رئيس وزارة في فرنسا و من أرقى عائلات باريس، مثقف ثقافة عالية، غني، انتحر وهو في السبعين من عمره، مائة صحفي تنافسوا في البحث عن أسباب انتحاره، لا يوجد أي سبب معقول، إنسان بمكانة عالية، الأسرة راقية، في غنى واضح، بسمعة طيبة، لماذا انتحر ؟ صحفي واحد كشف السر، اعتنق مذهباً فاككتشف وهو في السبعين أنه على خطأ، فاحتقر نفسه أنه اعتنق هذا المذهب الإلحادي أربعين أو خمسين سنة وهو يظن أنه على حق ثم اكتشف أنه كان على باطل، احتقر نفسه، هذه الحالة لن يقع بها مسلمٌ إطلاقاً، الأيام مهما امتدت لا تزيدك إلا يقيناً بأنك على حق، وأن هذا الدين هو أصل، وأن الإسلام هو الدين الحقيقي، والذي سيظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14))

(سورة المرسلات)

العذاب الشديد للمكذّبين بيوم الدين:

هذا اليوم يومٌ عسير، يومٌ صعب، الإنسان يكتشف أنه كان على باطل، كان على وهم، كان على انحراف، وأن اللذائذ قد انقضت. بمصر يوجد عبدة الشيطان، إباحية مطلقة، ينطلقون من نظرية، من فكر، ولكنهم يكافحون والحمد لله، إباحية مطلقة، لا زواج ولا نسب ولا شيء من هذا القبيل، كائن يبحث عن شهوته بأي طريق بأي ثمن، فهؤلاء:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15))

(سورة المرسلات)

الهلاك لهم، من هم المكذبون ؟ الذين كذبوا بوحى السماء، كذبوا بآيات القرآن الكريم، كذبوا بدعوة الأنبياء، كذبوا بهذا الدين العظيم:

(وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ تُهْلِكِ الْوَالِكِينَ (16))

(سورة المرسلات)

الحضارات البائدة:

1 - حضارة الفراعنة:

أين الفراعنة ؟

الفراعنة أمة عريقة في الحضارة مكنَّ الله لهم ما لم يُمكنْ لغيرهم، حدثني أخ مهندس أنه حتى الآن أعلى مستوى هندسي يقف كالطفل أمام هندسة الفراعنة، فالأهرامات وحدها، الأهرامات قبور للفراعنة فيها نوافذ، زاوية النافذة تسمح للشمس أن تدخل إلى جوف الهرم في العام كله يوماً واحداً، هل بإمكان مهندسينا أن يصمموا بناء ويفتحوا نافذة بزاوية دقيقة جداً ؟ نافذة ضيقة وبزاوية دقيقة حيث أن الشمس لا تدخل إلى الهرم إلا في يوم واحد هو يوم وفاة هذا الفرعون، كل حجر طوله ثمانية أمتار x أربعة x ثلاثة. منقول من جنوب مصر، كيف نُقِلَ ؟ في أي قارب وُضِعَ ؟ كيف نُقِلَ من شَطِّ النيل إلى موقع الأهرامات ؟

دخلت إلى الأهرامات، تحت الأرض حياة كاملة، خُبِزَهم قبل ستة آلاف عام مُحَطَّط، أدواتهم، حلّيتهم، مركباتهم، يتوهمون بعد الموت هناك حياة، في الدنيا قصدهم، مركباتهم، طعامهم، لحمهم من ستة آلاف عام مُقَدَّد، خبزهم، أدواتهم الشخصية، كان الفرعون يوضع لكل إصبع لها حلّي من الذهب، يعني كأس من الذهب لكل إصبع، شيء لا يُصدق، حتى الآن تحنيط الفراعنة فوق طاقة البشر، فرعون موسى هو كما هو، وأثبت العلماء أنه هو الذي غرق في البحر وأن الله قذفه إلى الشط (حُطِّط).

هؤلاء عاشوا في أوهم، كل شيء تراه في الهرم ليس له أساس من الصحة، يا ترى الذي دُفِنَ في الهرم استفاد من العربة ؟ عربة ملكية رأيتها بعيني، هذه الأدوات، الخبز أكله ؟ هذا الميت في الهرم أكل الخبز ؟ وُضِعَ الخبز له قبل ستة آلاف عام، وضعت قطع اللحم له قبل ستة آلاف عام، هل أكل هذا اللحم ؟ هل أكل هذا الخبز ؟ هل ركب هذه المركبة ؟ أبداً، ماتوا.

إذا حضارة مبنية على الوهم، الفراعنة كل حضارتهم في القبور، هؤلاء مكنَّ الله لهم ما لم يُمكنْ لغيرهم ومع ذلك أين هم ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر)

2 - حضارة عاد و ثمود:

قوم عادٍ و ثمود: الذي ذهب إلى البتراء في الأردن شيء لا يُصدّق، قاعة بحجم هذا المسجد مكعبة تكعيباً على مستوى المليمترات كلها منحوتة من الصخر، ليست مبنية هي في جوف الجبل، كيف حُفِر هذا الصخر ؟ و كيف حُفِر بهذا الشكل المكعّب النظامي ؟ وفي المدخل الأقواس، والتيجان، والزخرفة، لا يوجد بناء (جبل) منحوت من الجبل، مدينة بأكملها كلها بيوت في الجبل منحوتة، غرفة، وغرفتان، وثلاث غرف، وتمديدات للمياه، وحمامات عامة وخاصة، وقصور ملكية كلها منحوتة من الصخر..

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149))

(سورة الشعراء)

أين عادٍ و ثمود ؟

3 - حضارة اليونان و الرومان:

أين الرومان الذين كانوا يأتون بمن يؤمن بالمسيح ويجعلون الوحوش تأكله ويضحكون ؟ عندهم رغبة في تعذيب الآخرين بشكل لا يُصدق، أين الرومان ؟ أين اليونان ؟ أين هؤلاء الأقوام الذين أبادهم الله عزّ وجل ؟ قال:

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16))

(سورة المرسلات)

أصبحوا أحاديث.

حكمة الله من بقاء الآثار:

المشكلة أن الآثار لحكمة أرادها الله حُفظت لتكون موعظة للناس وقد غفل الناس عن هذه الموعظة، أصحاب هذه الآثار أين هم ؟ الآن تجد ببلبك عامود قطره ثلاثة أمتار وطوله عشرة أمتار، قطعة واحدة كيف نُحت هذا الحجر ؟ وكيف نُصِب ؟ وكيف وضع التاج عليه، وقع مرّة عمود اهتزت ببلبك بأكملها لأن وزناً خيالياً وقع على الأرض، هؤلاء الأقوام أين هم ؟ أين مدنيّتهم ؟ أين حضارتهم ؟ أين قوتهم وبأسهم ؟ أين وجوههم وترفهم ؟ أين هم ؟ طواهم الثرى.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُنَبِّهُهُمْ الْآخِرِينَ (17))

غضب الله و عقابه:

توجد قرية في بعض البلاد العربية على الأطلسي، قرية ممنوع للمغاربة أن يدخلوها فيها نوادي عراة، وفيها فسق، وفيها فجور، فيها شيء لا يوصف من المعاصي، وفيها فندق ثلاثين طابقاً، خلال ثلاث ثواني أصبحت تحت الأرض، وغار الفندق وبقي منه ظاهراً الطابق الثلاثين، ولوحته في الطابق الثلاثين وكأنها شاهدة له، بثلاث ثواني، طبعاً:

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُنَبِّهُهُمْ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

توجد زلازل الآن، يوجد زلازل وقع في الصين مئات الألوف ماتوا فيه.

(فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا)

(سورة الحجر: آية " 74 ")

فهناك زلازل، وهناك براكين، توجد قرية في إيطاليا جاءها بركان فيزوف غمرها برماد بُركاني بسمكة خمسة أمتار، هذا الرماد البركاني غطى هذه المدينة بأكملها، فقد مضى على الحادثة لا أذكر كم من الأعوام ولكن بالمئات، في الأربعينات يفتحون طريقاً قرب هذه المدينة وجدوا آثاراً. هذا الرماد عندما غطى هؤلاء البشر كان التوقيت تقريباً بعد الظهر، هذا الرماد عندما غطى هؤلاء الناس وأحرقهم بعد حين لحمهم وعظمهم تفتت وانتهى، جاء العلماء وحققوا هذه الفراغات حقنوها بجبسين سائل، الشيء العجيب: رأوا أناس، ونساء، ورجال، وكلاب، وأناس يأكلون الطعام على الموائد، وامرأة تأخذ الحلي من خزانة ففاجأها الرماد البركاني، مدينة بأكملها جُمِدَتْ في ساعة واحدة، هذا بركان فيزوف وتوجد عندي صور، تجد الطفل في حضن أمه والمرأة مذعورة، حتى ملامح الوجوه واضحة لأن الرماد غطى فصار هناك فراغات وعندما حُقِنَ بالجبسين السائل ظهرت أدق الملامح، وهذا البركان جُمِدَ مدينة بأكملها.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُنَبِّهُهُمْ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

وتسمعون يومياً عن فيضانات، عن سيول وَحَلِيَّة، عن ضحايا، عن أناس ماتوا تحت الانقراض، عن أناس ماتوا في الزلازل، عن أناس ماتوا في العواصف الشديدة، يأتي الإعصار بسرعة ثمانمائة كيلو متر في الساعة (لا يبقى ولا يذر) فالإهلاك مستمر:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ)

مَسْطُوراً ((58))

(سورة الإسراء)

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُسَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ (17))

(سورة المرسلات)

الهلاك عاقبة المجرمين:

القانون:

(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34))

(سورة المرسلات)

هذه سُنَّةُ الله في خلقه، المجرم يُهلكه الله عزّ وجلّ، أما الهلاك منوّع.

(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (19))

(سورة المرسلات)

هذا الذي يُكذِّبُ.. يقول الله عزّ وجلّ:

(أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (20))

(سورة المرسلات)

آيات الله في الإنسان:

1 - القلب:

إنسان مُكْتَمَل، وزنه ثمانين كيلو، فيه عظام قاسية جداً، عظم عنق الفخذ يحمل خمسمائة كيلو على الطرفين، ميناء السن أفسى مادة بعد الألماس، أجهزة، قلب ينبض ثمانين عاماً دون كلل أو ملل يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم، قلب الإنسان لو أنه يضخ إلى هذا البناء الضخم يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم، القلب قلب إنسان عاش ستين سنة يملأ هذه الناطحة بالدم، مضخة لا تعرف الكلل ولا الملل، القلب ودسّاماته وعضلة القلب، العضلات ثلاثة أنواع: عضلات ملساء وعضلات مخططة، والنوع الثالث: عضلة القلب.

تُعقد مؤتمرات في بعض البلاد المتقدمة تُلقى في المؤتمرات عشرات ألوف المحاضرات حول عضلة القلب فقط، آلاف العلماء يأتون من أقطار الدنيا لحضور هذا المؤتمر لشأن القلب فقط، القلب من آيات الله، الرئتين، الكليتين، العضلات، الأعصاب، الدماغ، العمود الفقري، هذا الإنسان من ماء مهين، من حوين، وبويضة التقيا فانقسمتا فتكونا فكانا جنيناً بعد تسعة أشهر، انظر إلى الجنين، مئة وأربعين

مليار خلية في دماغه استنادية، أربع عشرة مليار خلية قشرية، ثلاثمائة ألف شعرة ولكل شعرة شريان، ووريد، وعصب، وعضلة، وغدة ذهنية، وغدة صبغية.

2 - المعدة:

في المعدة توجد خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة.

3 - حاسة الشم:

عشرين مليون نهاية عصبية للشم، كل نهاية فيها سبعة أهداب والهذب مغطى بمادة مخاطية تتفاعل مع الروائح، يتشكل بشكل هندسي يُرسل إلى الدماغ، بالدماغ يوجد ملف فيه عشرة آلاف رائحة، هذه حاسة الشم فقط.

4 - العين:

شبكية العين مئة وثلاثين مليون مخروط وعُصية، الشبكية عشرة طبقات، العصب البصري تسعمئة ألف عصب، وكل عصب له ثلاثة أغمدة. الآن يقول لك: والله يظهر على التلفون مكالمة ثانية، الخطوط متشابكة، خط لامس خط فظهرت مكالمة ثانية، تسعمئة ألف عصب في عصب موحد ولكل عصب أغمدات ثلاثة، هذا هو العصب البصري، هذه العين على حجمها الصغير ترى الشيء بحجمه الحقيقي، العين البشرية تُفرّق بين لونين من ثمانمائة ألف درجة من لون واحد، لو درجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة فإن العين الإنسانية السوية تفرّق بين لونين، ما هذا؟ البُعد الثالث، الألوان الدقيقة، لا يوجد تحميص إلى الغد، تحميص فوري ترى الصورة مباشرةً بحجمها الطبيعي وملونة بأدق الألوان مباشرةً:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

(سورة البلد)

5 - اللسان:

وهذا اللسان كل حرف تُسهّم في تشكيله سبع عشرة عضلة، كل حرف، كلمة خمسة حروف، محاضرة ساعة هذه كم حرف؟ وكم حركة للعضلات؟ ما هذا اللسان؟

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

علمه كيف يتكلم، مرّة طفل في سفر يبكي بكاءً لا يُحتمل، أطعموه و مازال يبكي، نظّفوه وما زال يبكي، شيء يحير ويقطع القلب، داخل دبوس في جسمه وأهله غير منتبهين له، لا يقدر أن يتكلم ويقول لهم: يوجد دبوس " أخرجوه من جسمي " الإنسان علمه البيان.

البيان من خصائص الإنسان الهامة:

(الرَّحْمَنُ (1) عِلْمُ الْقُرْآنِ (2) خَلْقُ الْإِنْسَانِ (3) عِلْمُهُ الْبَيَانِ (4))

(سورة الرحمن)

من خصائص الإنسان العالية البيان، يتكلم، ويحكي، ويشعر، ويتذكر، ويتخيّل، الإنسان يتذكر حوادث قديمة، ذاكرة الإنسان بحجم حبة العدس فيها سبعين مليار صورة مرتبة ترتيباً دقيقاً ؛ توجد ذاكرة شمسية، وذاكرة ألوان، ذاكرة أسماء، ذاكرة أرقام، الذاكرة وحدها عالم قائم بذاته.

6 - الدماغ:

الدماغ وحده مئة وأربعين مليار خلية، ما هذا العصب السمعي والعصب البصري ؟ طريق الآلام، النهايات العصبية تصل إلى النخاع الشوكي، والنخاع الشوكي إلى الجسم تحت السرير البصري ومنه إلى قشرة الدماغ، توجد على الطريق بوابات، هذه البوابات تُغلق أحياناً فيمتنع الألم، من يتحكم بهذه البوابات ؟ الحالة النفسية للمريض، فإذا إيمانه قوي، وثقته بالله عالية، وكان صابراً الله عزّ وجل يكافئه بإغلاق بوابات الألم.

7 - السمع:

هذا الإنسان شيء عظيم، فإذا كان يسير في الطريق وسمع بوق سيارة فإنه يعرف الجهة، لأن هناك جهاز في الدماغ معقد جداً يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، إلى أين دخل الصوت أولاً ؟ إلى اليمين، إذاً من جهة اليمين السيارة فهو يعطي أمر معاكس.

8 - اللعاب:

و أنت نائم يمتلئ فمك باللعاب فيجئ أمر من داخل الفم إلى الدماغ، الدماغ يعطي أمر للبلعوم فيغلق باب التنفّس إغلاقاً محكماً ويفتح باب المري فتبلغ ريقك وأنت نائم، مرتاح.

9 - الهيكل العظمي:

جسمك العلوي مع الهيكل العظمي ضاغط على السفلي، التروية ضعفت صار هناك ضغط، توجد مراكز للإحساس بالضغط في الجسم تُرسل للدماغ إشارة، الدماغ نحن انضغطنا لأن هذا هيكله العظمي واللحم الذي فوق الهيكل فوق القسم السفلي، فلا يوجد تروية يأتي أمر من الدماغ فينقلب الإنسان وهو نائم، ولكن قلبة إلى اليمين أو إلى اليسار لكي لا يقع من على السرير متعادلة:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف: آية " 18")

تقلب الإنسان آية، لسان المزمارة آية.

10 - البروستات:

البروستات آية و هي في مكان دقيق حينما تلتقي قناة ماء الحياة مع قناة البول في المستقيم، عند اللقاء هنا توجد البروستات، هذه تفرز مادة إذا كان الإنسان يريد أن يفرغ المثانة فالبول حامضي ويخرش، المادة الحامضية تفرز البروستات مادة قلوية تتعادل مع المادة الحامضية، وإذا خرج ماء الحياة وماء الحياة نقي وطاهر والممر فيه بول تفرز البروستات مادة مُطَهِّرة ثم مادة معطرة ثم مادة مغذية، مثل سكك الحديد تفتح طريق المثانة و تُغلق طريق الخصيتين، أو بالعكس، هذه الغدة تعمل ثمانين سنة فتح وغلق وإفراز وأنت لا تدري، يقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20))

(سورة المرسلات)

وهذا الماء تستحي به لو ظهر على ثيابك..

(فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21))

(سورة المرسلات)

11 - الرحم:

انظر القرار المكين هو الرحم، لو جنّت بامرأة ونصفتها بخط من قمة رأسها إلى أسفل قدميها (خط طولي مُنَصَّف) ثم قست طولها ونصفتها، مررت خط عرضي لتقاطع الخطان في رحمها، الوسط الهندسي في المرأة: الرحم، وهو ضمن حجرة عظمية متينة (الحوض) الرحم في قرار مكين، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والعين

في المحجر، انظر إلى الحكمة الإلهية، لو واحد وقع على رأسه فإن العين محفوظة ضمن محجر، لو أن العين خارجية لكان أربع أخماس الأطفال تُفقأ أعينهم أثناء اللعب، العين في المحجر، والدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والرحم في الحوض، أخطر أيام الحمل أوائله، قال:

(أَلَمْ نُخْلِقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22))

(سورة المرسلات)

تسعة أشهر وعشرة أيام فيأتي أمر فيقلب الجنين، وأمر ثاني وهو يتعلق بالمشيمة، وأمر ثالث يتباعد الحوض عند المرأة تباعداً ميكانيكياً، حوض المرأة بوضعه الطبيعي مستحيل أن تلد فلا بد من تباعد عظام الحوض بشكل ميكانيكي، الله عز وجل قال:

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (20))

(سورة عيس)

طفل، فهذا الرحم يعمل تقلصات، لو أن الطريق مفتوح أمامه لقذف الوليد إلى اثني عشر متراً كل طلاقة، لكن هناك حكمة إلهية بالغة:

(إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24))

(سورة المرسلات)

أكبر آية من آيات الله خلق الإنسان:

أيها الأخوة الكرام: خلق الإنسان آية كبرى دالة على عظمة الله عز وجل، والإنسان إذا فُكر في خلقه فإن هذا شيء قريب منه، فكل واحد له عينان، وله أذنان، وله لسان، وله فم، وله بلعوم، وله مري، وله أمعاء، وله تنفس، وله قلب، وله كليتان، وله عظام، إذا الإنسان فُكر في جسمه فقط فإنه يصل إلى الله.

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

فربنا عز وجل يُذَكِّرُنَا:

(أَلَمْ نُخْلِقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ

الْقَادِرُونَ (23))

(سورة المرسلات)

هذا الحوين عبارة عن خلية صغيرة جداً لا تُرى بالعين، يعني باللقاء الزوجي يوجد خمسمائة مليون حوين، الرجل يفرز خمسمائة مليون حوين في اللقاء، البويضة تحتاج إلى حوين واحد، تنتقي أقوى هذه الحوينات، والحوين له في رأسه مادة نبيلة مغطاة بغشاء فإذا وصل إلى البويضة يتمزق الغشاء والمادة النبيلة تذيب غلاف البويضة فيدخل فإذا دخل أُغلق الباب وانتهى الأمر (واحد من خمسمائة مليون). الآن تنقسم هذه الخلية إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم دون أن يزيد حجمها، لو زاد حجمها لتعزّرت في طريقها، الآن في الرحم هذه البويضة الملقحة بالحوين توجد مورثات، الآن شغل الناس الشاغل الهندسة الوراثية، طبعاً رقم، سمعت في برنامج علمي أن خمسة آلاف مليون مورث، وسمعت مليون، على كل حال رقم كبير، يوجد خلاف بين الأرقام، العلماء حتى الآن عرفوا ثمانمائة مورث، يعني الإنسان طويل، قصير، كبده قوي، كبده ضعيف، توجد مورثات هي التي تعطي الأوامر المبرمجة، فالحوين فيه أوامر والبويضة فيها أوامر وهذه الأوامر تجتمع، فإذا كان هناك ضعف وقوة فإن القوي يغلب.

الإغتراب في الزواج يقوي النسل:

ورد عن سيدنا عمر في حديث موقف عليه لكن سمعه من رسول الله:

((اغتربوا لا تطؤوا))

فالإغتراب في الزواج يباعد ضعف النسل، وعقدت مؤتمرات كان محورها أن التباعد يقوي النسل ويحسن النسل، فهذا الحوين فيه أوامر والبويضة أوامر، الشيء اللطيف أن هذه الأوامر حينما تتحد:

((إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)))

(سورة الإنسان)

هذه الأوامر حينما تتحد تُصبح منظومة أوامر تُقسم إلى قسمين: قسم يشكّل الجنين، وقسم يُودع في جهاز الجنين التناسلي ليكون ابن الجنين على شاكلة أبيه.

تجد الآن الشعوب كلها يقول لك: شكل موحد، لولا هذه الخاصة لا يوجد إنسان شابه أباه أبداً، هذا ابن فلان، معنى ذلك أن هذه المورثات قُسمت إلى قسمين: قسم ساهم في تشكيل الجنين، وقسم أُودع في جهاز الجنين التناسلي ليكون ابن الجنين على شاكلة أبيه، علم الأجنة الآن علم متقدّم جداً، ويوجد شيء لا يُصدق:

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ
الْقَادِرُونَ (23) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24))

(سورة المرسلات)

هؤلاء الذين يكذبون بهذا الدين، يكذبون هذا القرآن، يكذبون هذا العلم الشرعي الصحيح، يكذبون ما
في الوحي من عقائد ومن تفاصيل، هؤلاء سوف يدفعون الثمن باهظاً يوم القيامة، وفي درس آخر إن
شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المرسلات 077 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 24-50 الإيمان أساسه الإرادة الداخلية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-06-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون: مع الدرس الثالث من سورة المرسلات . ومع الآية الرابعة والعشرين:

أكبر مصيبة تصيب الإنسان الآخرة:

(وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَتِّبِينَ (37))

(سورة المرسلات)

الويل هو الهلاك، الإنسان أحياناً له دخل، هذا الدخل يقل لكن لم يهلك بانخفاض دخله، ويقل أيضاً لا يهلك، ويمرض ويبقى حياً، أما حينما يُعَدَم شتقاً نقول: هلك فلان، فالهلاك حسم، الهلاك نهاية، الهلاك تدمير، الهلاك مَحَق، الهلاك شقاء أبدي، الآن دخول الناس متفاوتة، معظم الناس على اختلاف دخولهم يعيشون، أما الذي يصاب بحادث سير يموت على أثره نقول: فلان هلك بهذا الحادث، قد يأتي مرض عضال فينهى حياته نقول: هلك بهذا المرض، الهلاك هو أعلى درجة من المصيبة، الهلاك هو الحسم، والحقيقة أكبر مصيبة تصيب الإنسان أن يخسر الآخرة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15))

(سورة الزمر)

أكبر رابح هو الذي يربح آخرته:

قد تخسر كل شيء وتربح الآخرة فأنت أكبر رابح، قد تخسر المال وتربح الآخرة، قد يخسر الإنسان حياته، ففي الجهاد يقتل الإنسان، سيدنا حمزة قُتل لكنه ربح الآخرة بأكملها، والآخرة أبد لا ينتهي، ومن الصعب أن يتخيّل العقل البشري حقيقة الأبد .

مثلاً: أكبر رقم تتصوره واحد بالأرض و أصفار إلى الشمس، المسافة مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، كل ميليمتر صفر، ما هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا نُسِبَ إلى اللانهاية فهو صفر، أول ستة أرقام مليون، ثلاثة أرقام فوقهم ألف مليون، ثلاثة ألف ألف مليون، على اثني عشر صفراً ألف ألف مليون، على أصفار من الأرض إلى الشمس كل ميليمتر صفر، المتر فيه كم صفر ؟ ألف، الكيلو متر ؟ ألف ألف، كل كيلو مليون صفر، مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، هذا الرقم لو أنه مثّل الدنيا والآخرة لانهاية هذا الرقم قيمته صفر .

فما هو الهلاك ؟ لا أن يقل دخلك في الأرض، لا أن يموت الإنسان بمرض عُضال، لا أن يموت في ساحة الجهاد، لا، الهلاك أن تخسر الآخرة، الهلاك أن تخسر هذه الحياة الأبدية التي أُعِدَّت للمسلمين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **((أُعِدَّتْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَمْ يَأْتِ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَمْ يَأْذُنْ سَمِعَتْ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَر))**

[متفق عليه]

الإنسان حينما يكتشف أنه خسر الآخرة يُصْعَق، تصور إنسان له بيت، وله عمل تجاري، وله مركبة، وله معمل، وله مكان بالمصيف، لو بلغه خبر أن كل هذه الممتلكات المنقولة وغير المنقولة صودرت، وأنه لا يملك ثمن رغيف خبر، هذا الخبر كم هو صاعق ؟

الآخرة: الإنسان إذا خسر الآخرة خسر كل شيء، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

لو جُمِعَت مصائب الدنيا كلها في إنسان وربح الآخرة فهو أكبر رابح، ولو جمعت أموال الدنيا كلها لإنسان وخسر الآخرة فهو أكبر خاسر، هذا المعنى أشار إليه الإمام عليّ كرم الله وجهه، قال لابنه الحسن: " يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير وما شرٌّ بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية "

الإنسان الموفق:

إنسان أعمى أصم أبكم مقطوع اليدين والرجلين، يجلس على قارعة الطريق يتسوّل، يطلب من الناس أن يضعوا في فمه لقمة طعام، لو أن هذا الإنسان ربح الآخرة ربح كل شيء، ولو إنسان كأغنياء العالم أموالهم لا تعد ولا تُحصى، الآن يوجد إنسان بأمريكا حجمه المالي خمسين مليار دولار، هذا إذا خسر الآخرة ما ربح شيئاً أبداً، فقضية الآخرة أخطر ما في الدين .

موضوع الآخرة يجب أن يدخل في حساباتنا اليومية، إذا ربحت الدنيا وخسرت الآخرة ما ربحت شيئاً، وإذا خسرت الدنيا وربحت الآخرة ربحت كل شيء، فالويل هو الهلاك، هذا إنسان هلك، لهذا يقال: كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، سيدنا عمر كان يقول إذا أصابته مصيبة: " الحمد لله إذ لم تكن في دينه "، ما دام على شيء من الهدى وعلى استقامة وفق منهج الله ولك عمل صالح تلقى الله به، أنت أغنى الأغنياء، أنت أسعد السعداء، أنت الإنسان الموفق .

باب التوبة مفتوح على مصراعيه:

قبل يومين أحد إخوتنا الكرام توفي والده، وقفت على قبره قلت هذه الحقيقة، قلت للإخوة المشيعين: اعلموا أن ملك الموت قد تخطأنا إلى غيرنا وسيخطئ غيرنا إلينا (كلام سيدنا عمر) فلنتخذ حذرنا .
أما كلام رسول الله:

**((الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الأماني))**

[أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس]

الكَيِّسُ من دان نفسه (ضبطها وحاسبها)، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها
وتمنى على الله الأماني. ثم قلت: العقلُ كل العقل، والذكاءُ كل الذكاء، والفلاحُ كل الفلاح، والتفوقُ كل
التفوق، والتوفيقُ كل التوفيق أن تعد لهذه الساعة ساعة نزول القبر التي لا بدَّ منها، كيف تعدُّ لها ؟
بالتوبة .

الإعداد للتوبة عن طريق:

1 - طلب العلم:

باب التوبة مفتوح، كيف تعدُّ لها ؟ بطلب العلم، أبواب المساجد مفتحة على مصارعها، وهذا من فضل
الله علينا في هذه البلدة، دروس العلم قائمة على قدم وساق، مفتحة أبواب المساجد لكل طالب علم وبلا
مقابل، أن تطلب العلم .

2 - أن تحمل نفسك على طاعة الله:

على الإنسان أن يحمل نفسه على طاعة الله .

3 - خدمة عباد الله:

عليك أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، فأنت أسعد السعداء، أنت الموفق، وأنت الذكي، وأنت العاقل،
وأنت الفالح، وأنت الناجح، وأنت الراشد، هذه أهم حقيقة في الدين.

اليوم الآخر: لا يوجد إنسان إلا وسيلقى هذا اليوم، يدخل إلى المسجد ليصلي دائماً وفي مرة واحدة لا بدّ من أن يدخله ليصلي عليه، ويخرج من بيته ويعود طوال حياته إلا خروجاً واحداً بلا عودة، فهذه الساعة الحرجة ينبغي ألا نفاجأ بها، ينبغي أن نُعدّ لها، ينبغي أن نعد لها العمل الصالح، والدليل:

(ارْجِعُونَ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

الويل الهلاك المدمر:

ما معنى ويل ؟ قد تسكن في أرقى بيت في الأرض، هناك أغنياء بالعالم عندهم يُخوت في البحار، طائرات خاصة، عندهم أملاك مخيفة، ومع ذلك ماتوا وتركوا كل شيء في ثانية واحدة، العبرة أن يكون لك عند الله **مقعد صدق عند مليك مقتدر**، العبرة أن يكون لك حظ في الآخرة، أن يكون لك شيء ينتظرك في الآخرة، أما أن تعيش للدنيا ؛ وأما أن تكون كل مكتسباتك في الحياة الدنيا فأنت أكبر مُقامر، لأن كل شيء تملكه (وكلامي دقيق جداً) منوطٌ بلمعة الشريان التاجي، هذه اللمعة مليمتراً فإذا ضاقت انتهت الحياة، كل شيء تملكه منوطٌ بسيولة الدم فإذا تجمّد الدم انتهى كل شيء، كل شيء تملكه منوطٌ بنمو الخلايا فإذا اضطرب نمو الخلايا فقدت كل شيء، والحياة بين أيديكم، وقصص المرض والموت بين أيديكم كل يوم بالمئات، إذا معنى ويل الهلاك، الهلاك المدمر.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

فالمؤمن يصبح و أكبر همه الآخرة، فمن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشنت عليه شمله ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له .

لاعيش إلاعيش الآخرة:

هناك مثل يقول: **لا تضع البيض كله في سلة واحدة**، إذا الإنسان كل شيء يملكه وضعه في الدنيا ولم يعبأ بالآخرة هذا أكبر مقامر.

رجل حدثني عنه أخ كريم أراد أن يسكن في بيت فخم فاشترى بلاطة (بتعبير تجار الأبنية) في شارع برنية في الطابق الثاني عشر، وبقي يكسو هذين البيتين سنواتٍ عديدة حتى اكتملت كسوة هذين البيتين وأصبح البيتان كجنة على وجه الأرض، بعد أن انتهت كسوة هذين البيتين وافته المنيّة بعد أسبوع من انتهاء العمل، هذه هي الدنيا، تغرّ وتضرّ وتمر، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى بيتاً فخماً إذا رأى شيئاً فارهاً يقول:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

[رواه البخاري عن سهل بن سعد]

(لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

الفوز الحقيقي أن يكون لك مكان في الجنة:

سباق الدنيا سباقٌ أحمق، لأن الموت ينهي كل شيء، في الدنيا لا يوجد فائز، لأن الغني سيموت والفقير سيموت والموت يجمع بينهما، والقوي سيموت والضعيف سيموت والموت يجمع بينهما، والصحيح سيموت والمريض سيموت والموت يجمع بينهما، لا يوجد فوز، الفوز أن تصل إلى دار السلام بسلام، الفوز أن تحجز مكان في الجنة، هذا هو الفوز، الحياة الأبدية وعطاء الله عز وجل عطاءً أبدي ولا يليق بحضرة الله عز وجل أن يكون عطاؤه في الدنيا، هذه الدنيا لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء، دعاء سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

(سورة البقرة)

الجاذبية من نعم الله على الإنسان:

(وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25))

(سورة المرسلات)

هذه آية الجاذبية، كَفَتَ الشيء سقط سريعاً .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25))

(سورة المرسلات)

يوجد بالأرض نعمة لا نعرفها إلا إذا سافرنا إلى القمر، بين الأرض والقمر منطقة تسمى منطقة انعدام الجاذبية، لا تعرف نعمة الجاذبية إلا في هذه المنطقة، أي شيء تضعه على الطاولة يستقر، لأنه له وزن، ما هو الوزن ؟ قوة جذب الأرض إلى هذا الشيء، فالأثاث في البيت في مكانه، الأدوات، الحاجات، الإنسان يمشي مطمئناً، لولا أن الأرض تجذب الأشياء التي على سطحها إلى مركزها لما استقر شيء على وجه الأرض .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِيقَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الآن أنت وزنك، ما معنى وزنك ؟ وزنك أي قوة جذب الأرض لك، لو ذهبت إلى القمر لكان وزنك السدس، الذي وزنه ستين في الأرض وزنه عشرة بالقمر، معنى ذلك أن الوزن شيء نسبي، وزن الإنسان بحسب الكوكب الذي يسكن فيه، فهذا الوزن من نعم الله الكبرى، بالوزن تستقر حياتنا، رواد الفضاء في المركبة الفضائية استيقظوا وجدوا أنفسهم في السقف، لانعدام الوزن، بدأ نومه على السرير ثم وجد نفسه في السقف، في سقف المركبة، يمسك الحاجة تطير من يديه يدفعها، الحياة لا تطاق من دون وزن .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِيقَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الأشياء تستقر عليها .

استقرار الأرض يدل على عظمة الخالق:

ويوجد آية أخرى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: آية " 61")

من جعلها مستقرة ؟ الأرض تدور، تدور حول نفسها، بالثانية ثلاثين كيلو متر، بالدقيقة ثلاثة في ستة يساوي ثمانية عشر، صفرين ألف وثمانمائة كيلو متر بالدقيقة، بالعشر دقائق إحدى عشر وثمانمائة كيلو متر، من أول ما بدأت إلى الآن في عشرين دقائق، حوالي اثنين وعشرين ألف كيلو متر نحن مشيناها حتى الآن، ومع ذلك الأرض مستقرة، الجامع كما هو، لا يوجد فيه شقوق، لا يوجد اضطراب، لا يوجد اهتزاز .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِيقَاتاً (25))

(سورة المرسلات)

الأرض مستقرة والأشياء التي عليها تتجذب إليها فإذا هي مستقرّة، فالإنسان أحياناً لو كان ميتاً جسمه
ينجذب إلى الأرض، ولو كائن حي يتحرك مع حركته جسمه ينجذب إلى الأرض .

(أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ (26))

(سورة المرسلات)

الجبال من آيات الله الدالة على عظمتة فهي :

(أَلَمْ نُجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ)

(سورة المرسلات)

1 - مرساة تستقر مع الدوران السريع:

هذه الجبال من آيات الله الدالة على عظمتة، قال بعض علماء الجيولوجيا: إن الأرض طبقات وفي أثناء
دوران الأرض، الأرض ما دامت طبقات، والطبقات متفاوتة في الكثافة، فدوران الأرض يجعلها
مضطربة لأن عطالة كل مادة خاصة بها، كما لو جنّت ببيضة غير مسلوكة وحاولت أن تجعلها تدور لا
تدور، لأن الصفار غير البياض، الصفار له كثافة والبياض له كثافة، والصفار له عطالة، والبياض له
عطالة، أما إذا سلقت البيضة تدور تتجانس .

الأرض طبقات متفاوتة، هذه الجبال جُعِلَتْ كالأوتاد تجمع الطبقات بعضها إلى بعض فتجعلها كتلة
واحدة، الله عزّ وجل ذكر أنه جعل الجبال أوتاداً، والجبل أيضاً ثلثاً ارتفاعه مغروسٌ تحت الأرض لأنه
وتد، وتد الخيمة ظاهر منه عشرين سنتيمتر، أما في أربعين سنتيمتر مغروس بالأرض، وكذلك الجبل،
والجبل جُعِلَ مرساءً، كيف أن العجلة إذا دارت دورةً سريعةً تضطرب، فلا بدّ لها من أوزان توضع في
أماكن محددة تجعلها تستقر مع الدوران السريع، الله عزّ وجل جعل الجبال:

(رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

(سورة النحل: آية " 15")

2 - مصدات للرياح:

وجعل الجبال مصدّات للرياح .

3 - مناطق باردة وجمالية:

وجعل الجبال مناطق باردة يلجأ إليها الناس في أيام الحر، وجعل الجبال تزيد في مساحة الأرض، وجعل الجبال مناطق جمالية في الأرض، حدّث عن الجبال ولا حرج .

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

أعلى جبل في الأرض هماليا فلو جئنا بكرة قطرها متر، أعلى جبل في العالم يُمثّل على هذه الكرة بسنتيمتر واحد، أعلى جبل في العالم يمثّل على كرة أرضية صغيرة قطرها متر بسنتيمتر واحد، وأعمق نقطة في الأرض هي غور فلسطين، وفيها جرت المعركة بين الروم والفرس، وقال الله عزّ وجل:

(غَلَبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

(سورة الروم)

قبل أن نكتشف أن هذا الغور هو أعمق نقطة في الأرض كلها، ربنا عزّ وجل ذكر هذا في القرآن الكريم، الآن بعد اكتشاف أشعة الليزر عُرف أن أخفض نقطة على الإطلاق غور فلسطين، أما في كتاب الله المعركة تمّت في غور فلسطين قال تعالى:

(غَلَبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بضع سنين)

(سورة الروم)

وهذا من إعجاز القرآن العلمي .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً

فُرَاتًا (27))

(سورة المرسلات)

الأنهار:

وأغلب الآيات التي فيها ذكرٌ للجبال فيها ذكرٌ للأنهار، لأن هذه الأنهار مستودعاتها في الجبال، وذكرت لكم من قبل أن بعض الأنهار في أمريكا (الأمازون) غزارته ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، أين المستودعات ؟ نظام السوائل نظام ثابت في الأرض، السائل لا يسير إلا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، فلا بدّ من كل نهر يجري من مستودع في مكان مرتفع وإلا لا يجري .

إذًا: هذه الأنهار في الأرض، الأمازون، الميسيسي، نهر النيل، نهر الفرات، هذه أنهار لها مستودعات ضخمة جدًّا، الله عزّ وجل جعل الجبال مستودعاتٍ للأنهار، وقد يتخيّل أحدنا أن الجبل مجوّف وفيه

ماء، لو أنه مجوف وفيه ماء لكان ضغط الماء قد صدَّعَ الجبل، ولكن الجبل في داخله صخور إسفنجية بحيث أن هذه الصخور تمنع تصدُّعَ الجبل، وهذه الصخور تتحلُّ في الماء، لذلك المياه المعدنية لا بدَّ منها، المياه غير المعدنية غير صالحة للشرب، وفي كل مشاريع التحلية لا بدَّ من أن يُخلط ماء التحلية مع مياه الآبار، لا بدَّ من أجل أن يكون الماء منحلًّا في بعض المعادن الأساسية .

الماء من نعم الله الكبرى:

فربنا عزَّ وجل جعل الماء آيةً دالةً على عظمتِهِ، فمستودعات المياه، تم إنشاء مستودع (تقليدًا لمستودعات المياه الطبيعية) تحت سطح الأرض بأربعمئة متر، ليكون تقليدًا بسيطًا لمستودعات المياه في الجبال وإلا صار الماء آسنًا، المستودع يجب أن يكون في ظلام تام، وفي بعد عن التأثيرات السطحية، لذلك مستودع مياه الفيحة، هذا النبع الذي أكرم الله به هذه المدينة الطيبة، هذه النبع حجمه إلى حمص، نصف لبنان تحت حوض هذا النبع، وحدوده الشرقية إلى خط دمشق حمص، قريب من البادية، فمستودع هذا النهر الجيولوجي تقريباً من عين الفيحة إلى حمص، ومن تدمر أو قبل تدمر بقليل إلى جنوب لبنان، هذا النبع فتحته في عين الفيحة، غزارته تصل إلى أربعة وعشرين متر مكعب في الثانية، يسقي هذه المدينة المترامية الكبيرة، ولولا هذا النبع لما كان لهذه المدينة من معنى، لذلك الآية الكريمة .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)

(سورة المرسلات)

ماء مُحلَّى، ماء عذب، فرات مستساغ، مُقَطَّر، منحلٌّ فيه المعادن، امسك أي زجاجة ماء معبأة، يقول لك: بوتاسيوم، منغنيز، كالسيوم، فيها اثني عشر معدن تقريباً، يقول لك: مياه معدنية، ولا يصلح للإنسان إلا المياه المعدنية .

خصائص الماء:

الماء من نعم الله الكبرى، وهذا الماء له خصائص عجيبة جداً، إذا أراد أن يتمدد عند التبريد لا توجد قوة في الأرض تقف أمامه، ضعه في محرك سيارة من أعلى الخلائط المعدنية، أنواع الفولاذ المُطَرَّق القاسي المُعالج، ينشطر المحرك شَطْرَيْن إذا تجمَّد الماء في ثناياه، والآن أحدث طريقة لقلع الرخام إحداث ثقب وإملاؤه بالماء، ثم تبريد الماء، حينما يُبرَّد الماء ينقطع الصخر من أصله، والماء لا يُضغط، ثمانمئة طن وضعت على مكعب ماء فلم يضغط ولا ميليمتر، له سيولة عجيبة، يتبخَّر في الدرجة أربع عشرة، لا يوجد سائل ينساب في أدق المسامات كالمياه، سيولة، تبخر، لا يضغط، على

التبريد يزداد حجمه، وهذه الخاصّة لولا أن الماء إذا برّدته يزداد حجمه لما كان من كائن على سطح الأرض و هذا قانون للماء مستثنى من كل عناصر الأرض .

كل عناصر الأرض إذا برّدتها تتكّمش، إلا الماء، القانون مطبّق عليه حتى درجة أربعة، إذا برّدت الماء ينكمش، إلى الدرجة أربعة، فإذا تابعت التبريد يزداد حجمه، لولا هذه الخاصّة لما كان على وجه الأرض كائن حي، تأتي موجات صقيع شديدة تتجمّد سطوح البحار، أما أعماق البحار مياه دافئة فيها كل الكائنات الحية، أما لو كان الماء على التبريد تزداد كثافته فيهوي في أعماق المياه لتجمدت المحيطات كلها في مدة معينة، وأصبح التبخر مستحيلاً، والأمطار تنقطع، والنبات يموت، والحيوان يموت، والإنسان يموت، هذا هو الماء .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا)

(سورة المرسلات)

فالمؤمن حينما يشرب كأس الماء يقول: بسم الله، معنى بسم الله لولا أن الله جعله لك عذاباً فراتاً لما شربته، وأحياناً في بلاد الماء فيها غلّ، ثمن الزجاجة ثلاثة ريالات، إذا كنت عطشاً تشربها كلها دفعة واحدة، الماء غالي بأكثر بلاد العالم الماء له ثمن، وإذا كان مُحلّى أغلى، أما حينما تشرب الماء العذب الفرات بلا ثمن هذه نعمة كبرى أنعم الله بها علينا .

(وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا (27) وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29))

(سورة المرسلات)

عذاب الكافر الذي كذب بالنار:

فالكافر كذب بالنار، كذب بها، يقال له يوم القيامة: انطلق إلى التي كذبت بها:

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (31))

(سورة المرسلات)

بعضهم قال: هناك استعارات القصد منها لفت نظر الكافر، أسموها استعارة تهكميّة، فلو فرضنا أن شخصاً قال: سوف نبشّرك بالرسوب، البشارة تقال للنجاح .
إنسان أنشأ ملهى وفيه كل الموبقات وبعد افتتاحه بأسبوع توفي، فقال بعضهم: هذا الملهى صدقة جارية له إلى يوم القيامة، هذه استعارة، فهو وبال جاري إلى يوم القيامة، فبشرهم بعذابٍ أليم !! لا يبشّر بالعذاب .

(انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ)

(سورة المرسلات)

الظل شيء مريح، والظل مُحَبَّب، ولا نعرف قيمة الظل إلا في أيام الحر كهذه الأيام، جاءت موجة حر إلى الخليج أربعة وثمانين تحت أشعة الشمس، ستة وخمسين في الظل .

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغِي مِنَ اللَّهَبِ (31))

(سورة المرسلات)

لا يَمْنَعُ عَنْكَ أَشْعَةُ الشَّمْسِ وَلَا وَهْجُ النَّارِ، وَلَا يَقِيكَ مِنْ لَهَبِ النَّارِ، فما هذا الظل ؟ أي ظل هذا ؟

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُغِي مِنَ اللَّهَبِ (31))

(سورة المرسلات)

أطوار الشمس:

هذه النار مرةً سئل أحد كبار علماء الفضاء (رئيس مركز وكالة فضائية كبرى في العالم) سئل عن الشموس ؟ قال: "الشموس لها ثلاث أطوار، طورٌ تكون فيها حمراء، وطورٌ آخر تكون فيها بيضاء، وطورٌ آخر تكون فيها سوداء " . كلام علمي محض، فشمسنا التي نحن نحوم حولها في المجموعة الشمسية هي حمراء الآن، لونها في النهار أحمر، هي في منتصف حياتها، لكن بعد حين هذه الشمس يزداد حجمها أكثر من مئة مرة، ثم تنكمش إلى أقل من ذلك وتغدو أشعتها بيضاء، والأشعة البيضاء ذات حرارة عالية جداً تفوق أضعاف مضاعفة عن الأشعة الحمراء، لكن بعد حين تدخل الشمس في مرحلة ثالثة سموها (الانكماش)، في هذه المرحلة تنكمش ذرات الشمس إلى درجة تصبح سرعة انكماشها أقوى من خروج الأشعة منها فتغدو سوداء، سموها علماء الفلك: الثقب الأسود، أما الثقب الأسود مقبرة النجوم، أماكن ضغط عالية جداً في الكون .

قال العلماء: " لو أن الأرض انجذبت إلى أحد الثقوب السوداء لأصبحت بحجم البيضة مع الوزن نفسه " . هذه الحقيقة عمرها سنوات، مراحل تطوّر الشموس: المرحلة ذات اللون الأحمر، إلى مرحلة ذات لون أبيض، إلى مرحلة تصبح مقبرة ذات لون أسود، والنبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((يوقد على النار ألف عام حتى تغدو حمراء، ثم يُوقد عليها ألف عام حتى تغدو بيضاء، ثم يُوقد

عليها ألف عام حتى تغدو سوداء فهي كالليل المُظلم))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

هذه حقيقة أن الشمس تسير من طور أحمر، إلى طور أبيض، إلى طور أسود، ولعلّ هذه النار (نار جهنم) كما جاءت في وصف النبي عليه الصلاة والسلام هي سوداء من شدة اتقادها وارتفاع حرارتها:

(انْطَلِفُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32))

(سورة المرسلات)

حجم الشرارة في نار جهنم:

حجم الشرارة الواحدة كالبيت، نحن في الدنيا حجم الشرارة ليس لها حجم تقريباً، يعني أقل حجم ممكن هو حجم الشرارة، أثناء برد الحديد بمبرد آلي الشرار ينطلق منه كثيراً، أو أثناء إجراء بعض الأعمال الميكانيكية عن طريق الأوكسجين ينطلق شرار، فإن هذا الشرار لا حجم له، إنه صغير جداً، قال: في نار جهنم .

(إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32))

(سورة المرسلات)

حجم الشرارة بحجم البيت .

(كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33))

(سورة المرسلات)

كأنه جملٌ أصفر اللون .

(وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)

(سورة المرسلات)

عدم قبول الاعتذار و المعاتبة:

هذا اليوم العصيب، هذا اليوم العسير الذي على الكافرين غير يسير:

(هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

لأن الحجة قامت عليه، هذا اليوم ليس يوم عتب .

(وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36))

(سورة المرسلات)

أي أن إنساناً ارتكب جريمة قتل، سيق إلى السجن وأجريت له محاكمة، حكمه القضاة بالإعدام، ارتفع الحكم إلى محكمة النقد صدق الحكم، ارتفع إلى مقام الرئاسة فصدق الحكم، ثم سيق المجرم للإعدام، وقبل أن يشنق، فهل من الممكن أن يعتذر ؟ الاعتذار انتهى، هذا المقام ليس مقام اعتذار، إنه مقام تنفيذ الحكم، لذلك يحب أن يعتذر، يحب ألا يعتذر، يحب يضحك، يحب يبكي، يحب يضرب نفسه كله سواء،

وصل إلى طريق مسدود، فهذا الوقت وقت تنفيذ الحكم لا وقت اعتذار ومُعاتبة . لماذا فعلت هذا ؟ أصلحك الله هل يقال لإنسان سيشنق بعد دقيقة: لماذا فعلت هذا ؟ أين عقلك ؟ لا تؤاخذوني، سامحونا هذه غير واردة إطلاقاً، لا توجد مسامحة، ولا يوجد عفو، ولا يوجد اعتذار، ولا يوجد بيان أسباب مخففة، هذا كله أثناء المحاكمات، بعدما صدر الحكم وأصبح الإنسان على وشك تنفيذ الحكم قال:

(هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36))

(سورة المرسلات)

أي أن الإنسان وصل إلى طريق مسدود، ومادام قلبه ينبض فإن الطريق غير مسدود، باب التوبة مفتوح:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

خزي الكافر يوم القيامة:

العبرة أن تأتبه وأنت في الدنيا تائباً، أما يوم القيامة لا يوجد عتاب، ولا يوجد اعتذار، ولا يوجد بيان أسباب مخففة، كله انتهى، لا يوجد إلا تنفيذ العقاب .

(هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

لماذا لا ينطق ؟ لأن الله عزّ وجلّ منحه نعمة الوجود، وهو لم يقدر هذه النعمة، منحه نعمة الإمداد، ولم يقدر هذه النعمة، أعطاه عقلاً، أعطاه سمعاً وبصراً، أعطاه نطقاً، أعطاه يداً ورجلاً، أعطاه فكراً، أعطاه زوجةً، أعطاه أولاداً، أعطاه قدرةً على كسب المال، استخدم كلّ هذا في الشهوات وفي المعاصي والآثام، وفي بناء مجده على أنقاض الآخرين، وفي بناء غناه على فقر الآخرين، فجاء يوم القيامة أمام الله مجرمًا .

مثلاً: شخص يمشي في الطريق بعد صلاة الفجر فنظر إلى الحاوية (حاوية القمامة) وجد فيها كيساً أسوداً يتحرك معنى هذا أنه طفل، أخذه فإذا هو طفل (و هذا شيء وقع)، أخذه إلى المستشفى إلى دار الأطفال، وضعه في الحاضنة، كَبَّرَه وأدخله روضة، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، أدخله كلية الطب (جعله طبيباً)، زوجه، اشترى له عيادة وبيت، بعد كلّ هذا الإحسان من الحاوية إلى أعلى درجة في المجتمع، بعد كل هذا الإحسان خانه، فعندما سيواجهه بهذه الخيانة لا يستطيع النظر إليه، أنتم انظروا إلى

المجرمين حينما يُلقى القبض عليهم تروا عيونهم في الأرض، لا يستطيع المجرم أن ينظر هكذا لأنه مجرم .

حجة الله على الإنسان:

فهذا اليوم الله عزّ وجلّ منحه نعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرّشاد، وسخر كلّ طاقاته ؛ عقله وفكره، ولسانه، ويده ورجله، وسمعه وبصره في المعاصي والآثام، وفي الإضرار بالعباد، وفي سلبهم أموالهم بالباطل، وفي الكيد لهم، وجاء يوم القيامة، فأحياناً الإنسان يكون له ابن وشخص أنت أحسنت إليه وقد أساء لابنك ماذا تقول له ؟ ماذا فعلت معك يا فلان حتى تقابلني بهذا ؟ كلمة:

(لَا يَنْطِقُونَ (35))

(سورة المرسلات)

شيء مخيف، الحجة قائمة على هذا الإنسان، لذلك ورد بالجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى))

يلقى عذاب الخزي، النار قائمة ولها لهيب وسوف تلسع جلده، وسوف تأكل جلده ومع ذلك:

((يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

العذاب النفسي شيء مخيف، أحياناً الإنسان حينما يندم وحينما يتألم قد لا يحتمل وجوده .

(هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْقِصَلِ

جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38)))

(سورة المرسلات)

الله عزّ وجلّ يحكم بين عباده يوم القيامة:

كل فئة في الأرض تدّعي أنها على حق، وأنها على صواب، وأنها هي الأولى في العالم، وأن كل هذه الشعوب والأمم والقبائل والطوائف والعشائر، كل فئة تدّعي أنها هي الأولى، هي على حق، أما هذا اليوم (يوم القيامة) ربنا عزّ وجلّ يفصل بينهم، المبطل يقال له: أنت مبطل، والمستقيم يقال له: أنت مستقيم .

(هَذَا يَوْمُ الْقِصَلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38))

(سورة المرسلات)

الآن أحياناً على مستوى القضاء، متخاصمين كل واحد عنده محامي، وأدلة، وشهود إثبات، وشهود نفي، ومذكرات، وكشف مباشر، ووصف هيئة راهنة، بعد هذا تُرفع للتدقيق، بعدئذ يأتي حكم القاضي ليفصل هذه الدعوى، فلان مذنب وفلان براءة، الله عز وجل هو الذي يحكم بين عباده يوم القيامة .

كيد الكافرين و مكرهم:

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون (39))

(سورة المرسلات)

ومكروا مكرهم في الدنيا، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (هذا في الدنيا)، أما في الآخرة:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون (39))

(سورة المرسلات)

والله أهل الدنيا الكفار يخططون ويتآمرون ويسعون لإفناء البشرية ليعيشوا هم وحدهم، فهم مستعدون أن يفنوا أربعة أخماس البشرية ليعيشوا وحدهم في بحبوحة، لهم كيد كبير، كلما رأوا جهة انتعشت فإنها تُحطم، مرّة عن طريق العملات، مرّة عن طريق الحروب، مرّة عن طريق افتعال خصومات، توتر في العالم، يكيدون للبشرية كلها، أما في الآخرة:

(فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون (39))

(سورة المرسلات)

تفضّل .. الآن أين قوتك ؟

(وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40))

(سورة المرسلات)

أما المؤمنون:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41))

(سورة المرسلات)

ظلال حقيقية، تلك ليست حقيقية لعلها بالمعنى العلمي: ظلال سوداء لأن نار جهنم في أعلى درجات الحرارة، انتقلت من حمراء، إلى بيضاء، إلى سوداء ..

(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ)

(سورة المرسلات)

شيء أسود لكنه ليس ظلاً:

(ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33))

(سورة المرسلات)

أما هنا:

جزاء المؤمن جنات ظليلة:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41))

(سورة المرسلات)

ظلال حقيقية و عيون ماء تجري أمامهم .

(وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

(سورة المرسلات)

أي أن حضور مجالس العلم، الصلوات في المساجد، تعلم القرآن، تعليم القرآن، خدمة الخلق، الصدق، الأمانة، الاستقامة، الأذكار، الأوراد، غض البصر، معاونة أهل الحق، هذا كله مسجل، الآن:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

(سورة المرسلات)

انتهى وقت العمل والآن وقت الجزاء، انتهى وقت التكليف والآن وقت التشريف، انتهى وقت التعب والآن وقت المكافأة والجائزة .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42))

(سورة المرسلات)

أي أن إنساناً أمضى حياته في الدعوة إلى الله، توفي، فنشعر أن هذه الوفاة وسام شرف، أي أنه أمضى كل حياته في تفسير القرآن وترك أثراً كبيراً في العالم الإسلامي توفي لكنه جاء يوم القيامة معه عمل كبير، أما الذي سكن في بيوت فخمة، وركب مركبات فخمة، وتناول أطيب الطعام ومات، ما أخذ معه من هذا شيئاً، أما الذي ترك بصمات واضحة في المجتمعات الإسلامية أخذ معه كل شيء .

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44))

(سورة المرسلات)

أنظرت إلى هذه الآية ؟ هذه قانون، أي محسن إلى يوم القيامة هذا جزاؤه .

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45))

(سورة المرسلات)

الآن عدنا إلى المكذبين، أما هنا في تهديد:

(كُلُوا وَتَمَتُّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77 ")

الآن لاحظ أن الإنسان من وقت ما يستطيع أن يقف على قدميه (بالأربعين) فهو درس، تعب، توظف، جمع، اشترى بيتاً، تزوج، صار له بيت صغير ودخل معقول وله مكانة اجتماعية متواضعة بالأربعين، معترك المنايا بين الستين والسبعين، أي بقي له نصف المدة وهذه تمضي سريعاً، إذا سلّمت من مرض خبيث، من مرض في القلب، من مشكلة، من غلطة دخل بها السجن، يعني قلما ينجو إنسان من مشكلة ثم يُفاجأ أن أجله قد أتى، أنتم كلما رأيتم نعوة اسألوا كم عاش هذا الإنسان ؟ اثنين وأربعين، سبعة وثلاثين، خمسة وعشرين، ستين ما شاء الله، معنى هذا أنه مُعمر، سبعين، فلو عاش مئة عام لا بدّ من نزول القبر: " عَشْ مَا شَنْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبَبْ مَا شَنْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقٌ، وَاعْمَلْ مَا شَنْتَ فَإِنَّكَ مُجْزِيٌّ بِهِ "

" كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت " . " الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر "

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حديد محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

(كُلُوا وَتَمَتُّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

اسمعوا هذه الآية ؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ)

(سورة التوبة: آية "38")

فهل تأمل فيها ؟

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38))

(سورة التوبة: آية " 38")

"الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة".

(مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)

(سورة النساء: آية " 77")

رحمة الله بنا:

(إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

(سورة التوبة: آية " 39 ")

إذا لم تنتبهوا:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا)

(سورة التوبة: آية " 39 ")

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46))

(سورة المرسلات)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27))

(سورة الإنسان)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

(سورة محمد)

(وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47))

(سورة المرسلات)

يستكفون عن عبادة الله، تتأبى نفوسهم أن يطيعوه، والعلماء قالوا: " معصية الكبر أشد عند الله من معصية الغلبة".

الإنسان أحياناً يغلب ويعصي، هذا أقرب للتوبة من الثاني، الثاني تأبى نفسه أن يطيع الله عز وجل، لا يُصلي، لا يغض بصره، لا يخضع لأوامر الشرع الحنيف، قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48))

(سورة المرسلات)

هم المؤمن الأول أن يتبع حكم الله:

أما علامة المؤمن:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

المؤمن همّه الأول أن يتبع حكم الله عزّ وجلّ، هنا افعل يفعل، لا تفعل لا يفعل، هنا أعطي يعطي، لا تعطي لا يعطي، همّه الأول تتبّع حكم الله عزّ وجلّ ..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (49))

(سورة المرسلات)

العلماء قالوا: " كل هذه الآيات المتكررة كل واحدة متعلّقة بما قبلها وما بعدها " يعني العبارة واحدة أما كل واحدة متعلّقة بالتّي قبلها تارةً والتي بعدها تارةً أخرى .

(وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

الإيمان أساسه الإرادة الداخلية:

كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه واضحٌ كالشمس .

(الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1))

(سورة هود)

فيه أمر، وفيه نهْي، وفيه وعد، وفيه وعيد، وفيه وصفٌ لحال أهل الجنة، ووصفٌ لحال أهل النار، فيه بيان لحال الشعوب السابقة كيف أهْلِكْتَ، وكيف نجحت، كل شيء في هذا الكتاب .

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

فالإنسان إذا أراد الإيمان كل شيء يدلّه على الله، وإذا انصرف عن الحق لو التقى بالنبّي عليه الصلاة والسلام، لو رأى هذا القرآن ينزل من السماء لا يؤمن لأنه أراد الدنيا، لذلك الإيمان أساسه إرادة داخلية، أنت حينما تريد أن تؤمن كل شيء يدلّك على الله، أما إذا عزفت عن الإيمان لو رأيت أعظم الآيات فإنك لا تنتفع بها .

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50))

(سورة المرسلات)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

1	سورة الملك 067 - الدرس (7-1): تفسير الآيات 2-1
15	سورة الملك 067 - الدرس (7-2): تفسير الآيات 4-2
27	سورة الملك 067 - الدرس (7-3): تفسير الآيات 11-5
39	سورة الملك 067 - الدرس (7-4): تفسير الآيات 14-12
50	سورة الملك 067 - الدرس (7-5): تفسير الآيات 19-15
64	سورة الملك 067 - الدرس (7-6): تفسير الآيات 26-20
80	سورة الملك 067 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 30-23
94	سورة القلم 068 - الدرس (7-1): تفسير الآيات 3-1
106	سورة القلم 068 - الدرس (7-2): تفسير الآية 4
119	سورة القلم 068 - الدرس (7-3): تفسير الآيات 9-4
133	سورة القلم 068 - الدرس (7-4): تفسير الآيات 16-8
147	سورة القلم 068 - الدرس (7-5): تفسير الآيات 33-17
162	سورة القلم 068 - الدرس (7-6): تفسير الآيات 43-34
175	سورة القلم 068 - الدرس (7-7): تفسير الآيات 52-42
189	سورة الحاقة 069 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 8-1
204	سورة الحاقة 069 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 36-9

219	سورة الحاقة 069 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 52-37
233	سورة المعارج 070 - الدرس (6-1): تفسير الآيات 4-1
247	سورة المعارج 070 - الدرس (6-2): تفسير الآيات 18-5
261	سورة المعارج 070 - الدرس (6-3): تفسير الآيات 26-19
273	سورة المعارج 070 - الدرس (6-4): تفسير الآيات 31-27
283	سورة المعارج 070 - الدرس (6-5): تفسير الآية 32
294	سورة المعارج 070 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 33 إلى آخر السورة
308	سورة نوح 071 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 4-1
321	سورة نوح 071 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 14-5
337	سورة نوح 071 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 28-15
352	سورة الجن 072 - الدرس (8-1): المقدمة 1
367	سورة الجن 072 - الدرس (8-2): المقدمة 2
380	سورة الجن 072 - الدرس (8-3): المقدمة 3
390	سورة الجن 072 - الدرس (8-4): تفسير الآيات 17-1
407	سورة الجن 072 - الدرس (8-5): تفسير الآية 18
420	سورة الجن 072 - الدرس (8-6): تفسير الآية 19
430	سورة الجن 072 - الدرس (8-7): تفسير الآيات 23-20
446	سورة الجن 072 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 28-22

460	سورة المزمل 073 - الدرس (5-1): تفسير الآيات 5-1
471	سورة المزمل 073 - الدرس (5-2): تفسير الآيات 5-1
480	سورة المزمل 073 - الدرس (5-3): تفسير الآيات 14-6
492	سورة المزمل 073 - الدرس (5-4): تفسير الآيات 19-15
503	سورة المزمل 073 - الدرس (5-5): تفسير الآية 20
516	سورة المدثر 074 - الدرس (8-1): تفسير الآيات 4-1
533	سورة المدثر 074 - الدرس (8-2): تفسير الآيات 7-5
550	سورة المدثر 074 - الدرس (8-3): تفسير الآيات 14-8
564	سورة المدثر 074 - الدرس (8-4): تفسير الآيات 30-16
578	سورة المدثر 074 - الدرس (8-5): تفسير الآية 31
593	سورة المدثر 074 - الدرس (8-6): تفسير الآيات 37-32
603	سورة المدثر 074 - الدرس (8-7): تفسير الآيات 56-38
620	سورة المدثر 074 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 56-52
636	سورة القيامة 075 - الدرس (4-1): تفسير الآيات 4-1
653	سورة القيامة 075 - الدرس (4-2): تفسير الآيات 13-5
668	سورة القيامة 075 - الدرس (4-3): تفسير الآيات 25-14
684	سورة القيامة 075 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 40-26
702	سورة الإنسان 076 - الدرس (5-1): تفسير الآيات 3-1

722	سورة الإنسان 076 - الدرس (5-2): تفسير الآيات 10-4
738	سورة الإنسان 076 - الدرس (5-3): تفسير الآيات 19-10
755	سورة الإنسان 076 - الدرس (5-4): تفسير الآيات 27-20
773	سورة الإنسان 076 - الدرس (5-5): تفسير الآيات 31-24
795	سورة المرسلات 077 - الدرس (3-1): تفسير الآيات 7-1
812	سورة المرسلات 077 - الدرس (3-2): تفسير الآيات 24-8
831	سورة المرسلات 077 - الدرس (3-3): تفسير الآيات 50-24
850.....	الفهرس